الدر المنثور
في
أرباب رياض الحشر

تأليف

الأديبة الفاضلة
السيدة زينب بنت علي فواز العاملية

١٢٧٦/١٣٣٢هـ ـ ١٨٦٠/١٩١٤م

ضبط مواضيعه وعلّق عليه

محمد أمين ضناوي

الجزء الأول

المحتوى:

آمنة ـ سويدا

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

Marfat.com

Collection of Prof. Muhammad Iqbal Mujaddidi
Preserved in Punjab University Library.

پروفیسر محمد اقبال مجددی کا مجموعہ
پنجاب یونیورسٹی لائبریری میں محفوظ شدہ

Marfat.com

Marfat.com

الدُّرُّ المَنْثُور

فِي طَبَقَاتِ رَبَّاتِ الخُدُور

تأليف

الأَدِيبَة الفَاضِلَة السَّيِّدة زَيْنَب بنْت عَليّ فوّاز

العَامِلِيَّة اللبْنَانِيَّة

١٢٧٦/١٣٣٢هـ ~ ١٨٦٠/١٩١٤م

وضع حواشيه وعلّق عليه

محمد أمين ضنّاوي

الجزء الاوّل

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

Marfat.com

135462

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة **لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان** ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملا أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطيـــا.

Copyright ©
All rights reserved

Exclusive rights by **DAR al-KOTOB al-ILMIYAH Beirut - Lebanon.** No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٢٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2903-1

9 0 0 0 0 >

9 782745 129031

http://www.al-ilmiyah.com.lb/
e-mail : sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

قـــال ﷺ: «نساء الـدنيا أفضل من الحور العين»[1]

روض مليء بشتى الأخبار والحكايات من التاريخ البعيد والقريب هو كتاب «**الدر المنثور في طبقات ربّات الخدور**».

في هذا الكتاب ما يروق لذوي العقول والعلم والأدب. وفيه إشارات إلى أهمية العلاقات الإنسانية وإلى أهمية التوافق بين الزوج والزوجة. كما أنّ فيه حضّ على الاعتناء بأمور المرأة، من تعليم، وتثقيف، وتدبير.

وقد حرصت المؤلّفة على تقديم معلومات إحصائية بغرض تعليمي تربوي غير مباشر.

كما تشير إلى أن الفوارق الطبقية والاجتماعية تزول مع التربية والتعليم. فالعلم أولى بالاحترام من كلّ الاعتبارات الأخرى.

وفي الكتاب الكثير من ذكر الفلاسفة والعلماء الذين اهتموا بالمرأة وأكرموها وشعروا معها بكيانها وبضرورة نَيْلَها لحقوقها الإنسانية كافةً.

أما من حيث الأسلوب ففي الكتاب ثغرات تعبيرية ربما تعود لمحاكاة الكاتبة لعصرها، فلقد قمت خلال عملي بهذا الكتاب بضبط وتصويب بعض الألفاظ والعبارات. وقد أشرت إليها في مواضعها.

---

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٤: ٧٣٦). والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠: ٤١٧). والترمذي في إتحاف السادة المتقين (١: ٥٤٤). والسيوطي في الدر المنثور (٦: ١٥١).

Marfat.com

ومن ناحية ثانية فقد قمت بضبط التواريخ التي أوردتها المؤلِّفة دون تحديد ما إذا كانت ميلادية أم هجرية.

أما الشخصيات التي ترجمت لها المؤلِّفة فقد رتّبتها ترتيباً ألفبائياً، لكنها لم تكن دقيقة الضبط من حيث الترتيب وتتالي الأسماء ضمن الحرف الواحد. لكننا لم نغير مواقع تلك الأسماء، بل تركناها حسب ترتيب الأصل الذي عملنا على ضبطه.

أمّا اللاّفت في هذا الكتاب هو تدخّل الكاتبة من حين لآخر وإبداء رأيها. ونسوق على سبيل المثال لا الحصر ما ورد في ترجمة «ألمس»[١] حيث تقول الكاتبة مداخلةً: «... وكان عبده الحمولي المغني الشهير هو المشهور بين الرجال في ذلك الوقت فأخذه الخوف على شهرته وارتعب من إطفاء اسمه... ولما رأى ذلك... وكثر مادحوها، وقلّ الالتفات إلى جهته **عمد إلى الحيلة والمكر اللذين يتّهم بهما النساء...**»[٢].

وفي موضع آخر في ترجمة عائشة بنت طلحة بن عبيد الله[٣] لها مداخلةً أخرى: «فيظهر من هذه الرواية أن طباعهم في ذلك العصر كانت كطباع الغربيين في عصرنا هذا من قبل النساء، **لا كرجالنا الذين يخافون أن يُظهروا للنساء أدنى شيء من الفضل غيرة عليهن ويزعمون أن هذا هو العزّ الأكبر...**»[٤].

وأخيراً أتمنّى أن أكون قد وُفّقت في عملي هذا إلى ما أصبو إليه من تعميم الفائدة لكل طالب علم ومعرفة.

محمد أمين الضناوي

---

(١) الجزء الأول من هذا الكتاب، ص ١٥٢.
(٢) الجزء الأول من هذا الكتاب، ص ١٥٢.
(٣) الجزء الثاني من هذا الكتاب، ص ٥١.
(٤) الجزء الثاني من هذا الكتاب، ص ٦١ - ٦٢.

Marfat.com

ترجمة المؤلفة[1]

هي الأديبة الفاضلة والبارعة الكاملة السيدة زينب بنت علي بن حسين بن عبد الله بن حسن بن إبراهيم بن محمد بن يوسف فوّاز العاملي السورية مولداً[2] سنة (١٢٧٦ هـ/ ١٨٦٠ م) وموطناً المصرية منشأً وسكناً.

كانت امرأة جميلة المنظر، عذبة الحديث من خيرة ربّات البيوت تربية وعلماً، أديبة، مؤرّخة، من شهيرات الكاتبات، تعلّمت بالإسكندرية وتتلمذت فيها للشاعر حسن حسني الطويراني[3]، وكتبت واشتهرت، وانتقلت إلى القاهرة.

زارت دمشق فتزوّجت بأديب نظمي الدمشقي، وافترقا بعد قليل، فعادت إلى القاهرة، وتوفيت[4] بها سنة (١٣٣٢ هـ/ ١٩١٤ م).

كتبها

- «الرسائل الزينبيّة»، كتاب مطبوع، وهو عبارة عن مجموعة من مقالاتها.
- «مدارك الكمال في تراجم الرجال»، لم نقف على معلومات عن هذا الكتاب، إذا طبع أم لا.
- «الجوهر النضيد في مآثر الملك الحميد».
- «ديوان شعر»، جُمعت فيه منظومات لها.
- «حسن العواقب»، رواية أدبية، طبعت.

---

(١) للاستزادة يراجع: مجلة العرفان. آداب زيدان (٤: ٢٩٥). المشرق (٩: ٥٥٥).

(٢) ورد في الأعلام، خير الدين الزركلي ج ٣/ ص ٦٧ أنها: «ولدت في «تبنين» في قرى جبل عامل، ببلاد الشام».

(٣) هو صاحب جريدة النيل.

(٤) وردت في تحقيق كتاب المشرق خبر وفاتها في ٢٠ صفر سنة ١٣٣٢ هـ/ كانون الثاني سنة ١٩١٤ م.

Marfat.com

ـ «الهوى والوفاء»، رواية أدبية، طبعت.

ـ «الملك قورش»، رواية أدبية، طبعت.

تقول الكاتبة من نظمها في كتابها هذا:

كتابي تبدّى جنة في قصورها ... تروّح روح الفكر حور التراجم
خدمت به جنسي اللطيف وإنه ... لأكرم ما يهدى لغرّ الكرائم

Marfat.com

تقريظ جميل لهذا الكتاب

جاد به فكر ملتزمه الماجد الأمثل حضرة محمد أفندي زهران. قال حفظه الله:

من أمعن فكره ونظر بنبراس عقله علم جلياً أن من أهمّ ما يقتنى وأنفس ما يدّخر نشر المنافع العمومية والسعي وراء الخدمة الإنسانية، فإن بها يتحقق معنى الإنسان ويكون قد ارتقى أوج الكمال واستحق أن يلقب بالعضو النافع لجسم الهيئة الاجتماعية، فينال الذكر الحسن والثناء الجميل، ويكون عاملاً بقول القائل:

وإنما المرء حديث بعده ... فكن حديثاً حسناً لمن وعَى

وكذا ينال الجزاء العظيم من العزيز الحكيم في دار الخلد والنعيم كما وعد بذلك جلَّ وعلا في قرآنه الكريم لا سيما إذا كانت المنافع متعلقة بالعلوم الأدبية الموشحة بالنبذ التاريخية، فإنها تكون أجلّ وأسمى لأن الشيء يشرف بشرف متعلقه، وناهيك بالعلم شرفاً ولما كان كتاب الست المصونة ربة اليراع البارع وصاحبة الذهن اللامع نادرة العصر وغرّة جبين الدهر **زينب فوّاز** ـ المسمى بالدر المنثور في طبقات ربات الخدور ـ فائقاً في هذا الباب، أحببت أن أشاركها في ذلك الفضل فالتزمت بطبعه على نفقتي قياماً بواجب الإنسانية ومعاونة لحضرتها على البرّ عملاً بقوله ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً**»[1]. ورغبة في شهرة هذا الكتاب بين ذوي الألباب لا سيما ذوات الحجاب عسى أن يسرن سيرها وينسجن على منوالها، فإنه وأيم الحق كتاب جليل كتاب قد اشتمل على حكم جليلة ومزايا جزيلة بها يهتدى إلى الرشد وتستنير سماء العقل وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

محمد زهران

وبعد أن انتهى تأليف هذا الكتاب المستطاب ورد لنا هذا التقريظ الجليل من حضرة الأديب الفاضل والفيلسوف العاقل، العالم، النحرير، والكاتب الشهير حسن بيك حسنى[2]

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح (١: ١٢٩). ومسلم في الصحيح (البر والصلة: ٦٥). والترمذي في السنن (١٩٢٨) والنسائي في السنن (٥: ٧٩). وأحمد في المسند (٤: ٤٠٤).

(٢) هو حسن حسني باشا بن حسين عارف الطوريراني، شاعر منشئ، تركي الأصل، مستعرب، ولد ونشأ =

Marfat.com

صاحب جريدة «النيل» فأدرجناه في فاتحة هذا الكتاب وشكرنا حضرته على ما أولانا من الثناء وهو قوله:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله ملهم الصواب، والصلاة والسلام على منبع الحكمة، وفصل الخطاب وعلى آله وصحبه الأطهار الأنجاب.

وبعد، فقد أحطت خبراً بمجمل هذا الكتاب الجزيل الفائدة الجليل العائدة، النبيل المقصد الشريف المبدأ والغاية، فألفيته سديد المآل ثمين المضمون، عالي الأمل، مبرور العمل جمع إلى رشاقة الأسلوب لطف المفاد، وضم إلى حسن السياق والترتيب جمال العبارة وكمال التركيب فجاء اسمه «**الدر المنثور في تراجم ربات الخدور**» عنواناً على مسماه متجلى عرائس الأفكار في أعالي قصور الاعتبار متملي السطور بجواهر المعاني مسترق أحرار الأذهان برصانة هاتيك المباني، قد اشتمل على تراجم العدد العظيم من ربات الخدور، وسيدات القصور، وأميرات العصور على سياق غير مسبوق المثال في متقدمي الأجيال فسبحان من وفق ووهب، وأقام للسيدات ظهيرة فضل وأدب، والحق أحق بأن يقال ويسمع أن هذا الموضوع من أهم ما يجب أن يعتني به العالم المدني لاشتماله على قسم عظيم من تراجم شهيرات نصف العالم البشري، وهنّ القيِّم الوحيد على تربية الملكات الأولى، والشريك الأمين في الأعمال الحياتية، وناهيك ما هنالك من الأهمية التهذيبية التي تستفاد بتداول مثل هذه الآثار النفيسة خصوصاً وقد قامت بأداء هذا الواجب حضرة المصنفة الفاضلة، البارعة، الكاتبة الشهيرة ذات العفاف السيدة **زينب فوّاز** فجادت وأجادت في هذا الكتاب بما يروق ذوي العقول، ويشوّف أرباب الألباب ولا غرابة فإنها ربة الفكر والقلم اللذين طالما زينا الأوراق، وطارا بجناحي شهرتها الفاضلة في الآفاق، وسابقا الشمس في السير والإشراق.

فنثني على هذه السيدة الثناء الجزيل ونشكر مسعاها المثيل بكل لسان شكر جميل فلا برحت زينة العلم والأدب ولا زالت مشكورة الأيادي العالية عند كل من قال وكتب:

= بالقاهرية جال في بلاد أفريقية وآسيا والروم، أقام بالقسطنطينية إلى أن توفي. كان أَبيّ النفس بعيداً عن التزلّف للكبراء، في خلقته دمامة. كان يجيد الشعر والإنشاء في اللغتين العربية والتركية، له في العربية نحو ستين مصنفاً، وفي التركية نحو عشرة مصنفات. أكثر كتبه مقالات وسوانح، نظم ستة دواوين شعر في اللغة العربية، وديوانين باللغة التركية، أنشأ مجلة «الإنسان» بالعربية، ثم حوّلها إلى جريدة، فعاشت خمسة أعوام. وهوصاحب جريدة «النيل».

Marfat.com

بـدا درّهـا المنثور بـالفضـل زينـب فيـاحبـذا الـدرّ النثيـر المـرتـب
جلـت لعيـون الفكـر آثـار حكمـة عرائسها تزهى وبالفضل تخطب
حكى الفلك الأعلى فكل صحيفة بـه أفـق فيهـا مـن الـزهـر مـوكـب
حوى حسنات الدهر بين سطوره وقــوّمهــا ذاك اليــراع المهــذب
فلا برحت للفضل بالفضل زينب تقــول مقــال الفــاضليــن وتكتــب

حسن حسني

وصل لنا هذا التقريظ من حضرة شاعرة العصر وربة الفضل السيدة **عائشة التيمورية**[1] فقبلناه مع الشكر والممنونية لحضرتها:

سجـدت لعـزة بـالبطيـح فحـول لمـا تحلـى جيـدهـا المصقـول
لمعـت لآلـي العقـد تـزهـو نضـرة كصفـا لُجيـن راق فيـه شمـول
دعني وما التقطوه من بحر طمي فمـن ادّعـى طبـق القيـاس جهـول
هـذا هـو الـدر الـذي غـوّاصـه بعــزيــز آيــات الثنــا مشمــول
إذ ذاك مـن صـدف وهـذا جـوهـر لفظتــه أذهــان ذكّــت وعقــول
درّ كــــدريّ زهــــت أنــــواره يشهـدُ بهـا المعقـول والمنقـول
هنّـوا ذوات الخـدر بـالفـوز الـذي يعلـو علـى سحـب البهـا ويطـول
ولقــد علــت طبقــاتهــن وزانهــا بتفــاخــر بعــد الخمــول قبــول
طبقـات منشـور بـريـق ضيـائهـا كشعـاع شمـس بـالسهـا مـوصـول
كم أمطرت غيث الدموع بقولها تـاج الفخـار وهـل إليـه وصـول
نالت سواعد عزّها ما لم تكن رؤيـاه فـي سنـة الكـرى مـأمـول
لله درّ طبــاق زينــب أصبحــت بــدراً لــه بيــن الأنــام هلــول
مذ أسفرت عن أصل جوهر عفة قـد كـان قبـل سطـورهـا مجهـول
فعلــى العفيفــات الثنــاء لفضلهــا مـا جـدّدت فـي العـالميـن فصـول

عائشة عصمت التيمورية بمصر

وأتانا هذا التقريظ أيضاً من حضرة شاعر عصره، وأديب دهره عبد الله أفندي فريج الشهير فتلقيناه بغاية الشكر والممنونية:

الشــرق لا تعجبــوا أن عمــه النــور فالشرق بالنور منذ الدهر مشهور

---

(١) هي عائشة عصمت بنت إسماعيل باشا بن محمد كاشف تيمور وسترد ترجمتها في حرف العين في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

Marfat.com

لا سيما في زمان ساده ملك بالحلم والعلم والآداب مخبور
عباس باشا الذي عمت مآثره فالكل منها بفضل الله مغمور
به غدت مصر كالجنات يانعة فراح يحسدها الولدان والحور
والعلم إذ خفقت أعلامه شرفاً به انجلى عن ظلام الجهل ديجور
ألم تروا قاصرات الطرف كيف غدا محض الثناء عليها وهو مقصور
أضحت تباري رجالاً في العلوم ولم تته بعجب وذيل الفخر مجرور
وقد سمت بينهن اليوم غانية وحظها في بني الآداب موفور
أعني كريمة فوّاز التي برعت بالفضل فينا ومنها السعي مشكور
لم ينكر الفضل منها في الورى أبدا إلا حسود حليف الغي مغرور
وحسبنا تحفة منها قد اشتهرت فذكرها في جميع الكون منشور
مؤلف فيه بالسحر الحلال أتت فكل لبٍّ به في الناس مسحور
به نرى فاضلات الشرق من عرب كل لها خبر في العلم مأثور
لها جزيل الثنا منا عليه كما لها من الله أجر فيه مأجور
والآن إذ جمعه رقت شمائله والكل منه تبدّى وهو مسرور
شدا فريج بأبيات يقرّظه وبيت تاريخه بالدرّ معمور
أبهى كتاب سما جاهاً لفاضلة بالسعد فيه بهيّ الدر منثور

[عبد الله أفندي فريج]

Marfat.com

[خطبة الكتاب]

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي أزهر روض المنى بما تألف من منثور الأفراح، وبما أسفر من حسن أبكار الابتكار على مشهد الإيضاح والإفصاح، وانجابت برافع الغياهب عن مخدرات العبارات، وتألف نبراس عقائل الفضائل فاستنارت أرجاء البراعات، وأشكرك يا من زينت بشكرك صدور سطور المباني، كما زينت بقلائد الفصاحة نحور خرائد المعاني، وأنرت مشكاة البصيرة بزواهر جواهر معارفك المستنيرة، ونظمت أخبار الأوّلين في سمط كتابك المستنير المستبين، فسبحانك من إلٰه اتسعت دائرة علمه فأحاطت جميع الكائنات، وعلم ما تحت الأرض كما علم ما فوق أديمها من المخلوقات، وشرّف نوع الإنسان بما خصَّه به من كمال القوى والعرفان، ونشر نور المعرفة بين أولي الألباب فمن أصاب من ذلك النور فعقله على قدر ما أصاب، والصلاة والسلام على من أرشدنا بكتاب قويم إلى صراط مستقيم محمد الذي جمع من المحاسن ما تشتت في غيره أحسن من حسنت سيرته وأحسن في سيره، وعلى آله مصابيح الدجنة وأصحابه الذين حازوا المجد بالأقلام والأسنة.

وبعد:

فأقول وأنا المفتقرة إلى الله وبه أستعين زينب بنت علي فواز بن حسين بن عبيد الله بن حسن بن إبراهيم بن محمد بن يوسف فوّاز السورية مولداً وموطناً المصرية منشأ وسكناً: إنه لما كان علم التاريخ أحسن العلوم، وأفضل المنطوق والمفهوم كثرت رجاله واتسع نطاقه، وانتشرت في الخافقين صحفه وأوراقه، لأن أهل كل طبقة وجهابذة كل أمة قد تكلموا في الأدب وتفلسفوا في العلوم على كل لسان، وخاضوا في بحر تاريخ كل زمان، وكل متكلم منهم أفرغ غايته وبذل مجهوده في اختصار تاريخ المتقدمين، واختيار أهمّ المشهورين من السالفين وبعضهم ألف المطوّلات في ذلك حتى احتاجت إلى اختصار، ولم أرَ في كل ذلك من تطرّف وأفرد لنصف العالم الإنساني باباً باللغة العربية جمع فيه من اشتهرن بالفضائل، وتنزَّهن عن الرذائل مع أنهن نبغ منهن جملة سيدات لهن المؤلفات التي حاكين بها أعاظم العلماء، وعارضن فحول الشعراء فلحقتني الحمية والغيرة النوعية على تأليف سفر يسفر عن

Marfat.com

محيا فضائل ذوات الفضائل من الآنسات والعقائل، وجمع شتات تراجمهن بقدر ما يصل إليه الإمكان، وإيراد أخبارهن من كل زمان ومكان.

ولما كانت هذه الطريقة صعبة المسالك تعسر على كل سالك ـ خصوصاً على من كانت مثلي ذات حجاب ومتنقبة من المنعة بنقاب ـ فقد استعنت على هذا التأليف بما جاء في التواريخ العمومية والمجلات العلمية ووضعته على الحروف الهجائية حتى ظهر غريباً في بابه، فسيحاً في رحابه، وقد سميته:

«**الدر المنثور في طبقات ربات الخدور**»: وجعلته خدمة لبنات نوعي بعدما أفرغت في تنقيحه وسعي، متجنبة كل ما يؤدّي إلى الملل مختصرة عن الأسانيد والعنعنة، والأمكنة والأزمنة.

وقد ابتدأت في تأليفه في ٤ ربيع الأوّل سنة (١٣٠٩ هجرية الموافق ٧ أكتوبر سنة ١٨٩١ إفرنجية) وقد جمعته من كتب جمَّة تاريخية وأدبية منها الكتب الآتية وهي:

ـ تاريخ الكامل لابن الأثير.
ـ تاريخ الكامل للمبرد.
ـ تاريخ الوفيات والأعيان لابن خلكان.
ـ تاريخ نفح الطيب لأحمد المقري.
ـ تاريخ أخبار الأول فيمن تصرّف في مصر من الدول للإسحاقي.
ـ كتاب العبر لابن خلدون.
ـ كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني.
ـ كتاب دائرة المعارف لبطرس البستاني.
ـ كتاب السيرة الحلبية لبرهان الدين الحلبي.
ـ كتاب السيرة النبوية للسيد أحمد زيني دحلان.
ـ كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه.
ـ كتاب تزيين الأسواق للشيخ داود الأنطاكي.
ـ كتاب المستطرف في كل فنّ مستظرف لشهاب الدين أحمد الأبشيهي.
ـ كتاب ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي.
ـ كتاب قطف الزهور في تاريخ الدهور ليوحنا أبكاريوس.
ـ كتاب أسد الغابة بمعرفة الصحابة لابن الأثير الجزري.
ـ كتاب نور الأبصار في مناقب أهل بيت المختار للشيخ سيد مؤمن الشبلنجي.

Marfat.com

ـ كتاب ألف با ليوسف بن محمد البلوي.
ـ خطط مصر التوفيقية للأمير علي باشا مبارك.
ـ ديوان الحماسة لأبي تمام.
ـ ديوان الخنساء بنت عمرو بن الشريد السليمي.
ـ رسالة الشيخ الصبان.
ـ تحفة الناظرين للشيخ عبد الله الشرقاوي.
ـ الفتح الوهبي على تاريخ أبي النصر العتبي.
ـ روض الرياحين للشيخ عفيف الدين.
ـ تحفة النظار في غرائب الأمصار لابن بطوطة.
ـ مشاهير النساء تركي لمحمد ذهني.
ـ الطبقات الكبرى للشيخ عبد الوهاب الشعراني.
ـ قصص الأنبياء المسمى بالعرائس للشيخ أحمد الثعلبي.
ـ حديقة الأفراح.
ـ فتوح الشام للواقدي.
ـ اللطائف لشاهين مكاريوس.
ـ المقتطف ليعقوب صروف وفارس نمر.
ـ خزانة الأدب لابن حجة الحموي.
ـ الروضتين في أخبار الدولتين.
ـ الفتح القدسي للعماد الكاتب.
ـ بدائع هارون لسليم عنجوري.
ـ العيون شرح رسالة ابن زيدون.
ـ مروج الأخبار في مناقب الأبرار.

وهذه خلاف ما جمعته من المجلات العلمية، والجرائد الدورية، وما التقطته من مقالات لبنات هذا العصر اللاتي تربين أحسن التربية، وتعلمن العلم في المدارس العالية، وصار لهن شهرة في هذا العالم الإنساني.

وإني ذاكرة بعض مقالاتهن في مقدمة هذا الكتاب ليعلم قرّاؤه أن عصرنا هذا نبغ فيه نساء لم يتقدمهن أحد من نوعهن في الأعصر الخالية، وما ذلك إلا بإعطائهن حقوقهن من ذويهن الذين عرفوا الحق واتبعوه.

Marfat.com

[ذكر مقالات بعض معاصرات المؤلفة]

[سَارة نوفل]

ولنبدأ بما قالته حضرة الآنسة والأديبة السيدة «**سارة نوفل**»، كريمة الفاضل نسيم أفندي نوفل، من الاقتراحات التي اقترحتها على علماء اللغة العربية قالت:

نحن في عصر سطعت فيه شموس العلوم والآداب فأنارت بأشعتها مدارك ذوي الألباب، فلا غرو إذا سميناه بعصر الاختراعات والاكتشافات، وقد رأينا فيه من فعل البخار والنور أعجب العجائب، ومن قوّة البرق والكهرباء أغرب الغرائب حتى لم يبقَ فيه محل للغرابة إذ تطفلت في هذا المقام على نصراء العلم والعلماء، وأرباب الفضل الألباء باقتراح يهمني الحصول على نتيجته، والوصول إلى فائدته كما يهم البنات الشرقيات اللواتي عرفن ما كان لهن من الحق المسلوب، وما عليهن من الواجب المفروض.

فأقول، بعد الاستسماح من ذوي الفضل والآداب: قد علم السواد الأعظم أن الأوروبيين وغيرهم من الأمم الأكثر تمدّناً قد اتحدوا بعقد الخناصر، واتفاق الخواطر سواء كان في محافلهم العلمية، ومجتمعاتهم الأدبية أو في نواديهم العمومية وهيئاتهم الاجتماعية وقرروا وجوب احترام المرأة يوم عرفوها عضواً مهماً في جسم الكوْن للارتقاء وحسن التربية، ولما عم في أرجائهم هذا القرار العادل وصار نظاماً مرعياً بين الخاص والعام أخذت المرأة بالتقدم إلى مراتب الوجود، ومقام الكمال الإنساني حتى بلغت ما بلغته من المعارف والواجبات وقد رفعت بواسطتهما علم السلام بين أولادها وذويها وتمكنت بسببهما من عقد وثاق الحب والولاء بين كل من أفراد عائلتها إلى غير ذلك مما نراه من آثار آدابها في أكثر الشعوب الغربية.

ولم يكتف الغربيون بهذه الأمنية حتى استنبطوا للتمييز بين البنت العذراء، والمرأة المتزوجة لفظة افتخارية قائمة بذاتها كقولهم في اللغة **الفرنساوية** للمرأة: مدام، وللعذراء مادموازيل. وفي **الإنكليزية**: مسز، ومس. و**باليونانية**: كريا وسبينيس. و**بالإيطالية** سنيوره، وسنيورينة، أو ماداما، ومدام، وهكذا في غيرها من اللغات الأجنبية الأكثر انتشاراً في وقتنا الحاضر.

أما نحن الشرقيين عموماً والغربيين خصوصاً فقد أغمضنا الجفن عن هذا التخصيص رغماً عن اتساع اللغة العربية وتسابقنا إلى انتحال أكثر عوائد الغربيين وأزيائهم، واشتركنا في معظم هيئاتهم ومنتدياتهم واستحسان أخلاق البعض منهم، إلا أننا لسوء الحظ لم نحذ حذوهم بإعطاء البنات هذا التمييز الاحترامي والإشارة الخاصة بهن عندهم.

Marfat.com

والأغرب من هذا أننا لو فتشنا وبحثنا ملياً بين مائة مليون نفس وأكثر من الناطقين بالضاد لما وجدنا فيها كلمة واحدة تقوم مقام المدام والمادموازيل في مبناها ومعناها، وإن قيل: إن كلمتي ست وستيته يستعملان بمعنى مدام ومادموازيل في الفرنساوية إلا أن هاتين الكلمتين ليستا صحيحتين على ما يظهر وفضلاً عن ذلك فإن التصغير في ستيته هو للاحتقار لا للافتخار خلافاً للمعنى المقصود بالمادموازيل، كما لا يخفى على كل لبيب. أديب، نعم عندنا كلمتان مترادفتان وهما السيدة والخاتون، ولكن نراهما غير وافيتين بالمرام لأنهما [تطلقان][1] على العذراء والمتزوّجة في آن واحد بلا استثناء، وليس في إحداهما صفة خاصة تدلنا على معرفة الموصوفة بإحداهما معرفة حقيقية، والدليل على ذلك أننا لو عثرنا على مقالة لإحدى السيدات والخواتين الشرقيات في إحدى الجرائد العربية لما قدرنا أن نحكم ما إذا كانت المحررة بنتاً أو امرأة، بل نقف بالالتباس حيارَى بين هذه وتلك إلى ما شاء الله.

هذا وإن شئنا أن نعرّب كلمة مس أو مادموازيل ونستخدمهما كما هما في كتاباتنا وحديثنا العام نخاف الملامة ممن درسوا مفردات اللغة ولسان حالهم يقول: «كل الصيد في جوف الفرا»، فنحتاج وقتئذٍ إلى أحد أمرين إما المباحثة والجدال الطويل وإما أن نسكت ونستر الوجه بأكمام الخجل حين لا نرى في كتب اللغة كلمة واحدة تتميز بها العذراء من المتزوجة احتراماً، كما تميزا في اللغات المذكورة آنفاً.

فرجاؤنا من أئمة اللغة وجهابذة الفضل من أبناء هذا العصر أن يبحثوا لنا عن كلمة عربية تقوم مقام المادموازيل بوضعها ومعناها بحيث تصبح عامّة بين الرفيع والوضيع لفظاً وكتابة، وإلا فلا لوم علينا ولا تثريب إذا التجأنا إلى لغات الأعاجم باستخدام هذه الكلمة وغيرها مما لا شبه له في لغتنا العربية التي إن طال عليها مطال هذه الاستعارات أصبحت يوماً كاللهجة المالطيّة اختلالاً وامتزاجاً.

ولا ننكر أن في زمن تدوين اللغة العربية كانت المرأة في عين الرجل حقيرة ذليلة وليست بأكثر من أدوات البيت أو كباقة من الأزهار تطرح خارجاً حينما تذبل، ولذلك لم يخطر ببال أحد من ذلك العصر أن يستنبط في اللغة كلمة مثل هذه تدل على المرأة دلالة صريحة باحترام وتوقير ولكن نحن الآن في عصر تنوّعت فيه أنواع الاستنباطات فلا يعسر على نصراء اللغة ابتكار كلمة كالمادموازيل للدلالة والتمييز مع حفظ صفة الاحترام والافتخار، وحبذا لو أضافوا إلى اللغة ما لا يوجد فيها من الكلمات المستحدثة، ولكن هذا يحتاج إلى معاضدة

---

(١) وردت في الأصل: «يطلقان»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

Marfat.com

الحكومة بإقامة مجمع علمي أكاديمي وليس من خصائصي أن أبحث فيه وأحث عليه في هذا المقام هذا وأرجو من جمهور الألبَّاء، وأصحاب الفضل الأذكياء أن يسبلوا حجاب العفو والمعذرة على ما تطفلت به تجاه ساحات حلمهم إذ قصد لي من هذا الاقتراح إلا أن نباري الأجانب في هذا الشأن والاستفادة من نفثات أصحاب الفضل وخيرُ الناس من أفاد، وبناء على هذا الاقتراح استنبط بعض علماء اللغة لفظة آنسة للبنت وعقيلة للمتزوجة واستعملهما أكثر الجرائد.

[جليلة كريمة الخواجة نخلة موسى]

وقالت حضرة الآنسة **جليلة كريمة الخواجة نخلة موسى** حاضة على لزوم تربية الأولاد والبنات لأجل تحسين حالة نسلهم وهذا ما قالت:

لقد علم كل إنسان بأن كل ما يراه الولد في صغره يستمرّ راسخاً في ذهنه أيام حياته كلها فعلى الوالدينَ أن يجتهدوا في تربية أولادهم وأن يكون اجتهادهم هو القاعدة الوحيدة لتثقيفهم، وقد أجمع على أن المرأة هي علة الترقي والنجاح، وأنها قابلة للتقدم فمن ثَمَّ لا بدّ أن يكون لتربيتها تأثير عظيم، فقد رأينا سلوك الإنسان مدى حياته قائماً على محور التربية التي تراها في طفوليته وحداثته، ولما كان في نعومة أظفاره على الفطرة كان قابلاً أن يتخلق بأخلاق الخير، أو بأخلاق الشر على ما يربيه والداه وما يسمعه ويراه منهما من التصرف، فهل من مناسبة بين من تربي أولادها بالاحتداد والشتائم والكذب والحيل، ومن تربيهم بطول الأناة والنصائح والإرشاد والصدق، فمن تربى على الخير قام بأعماله حق قيام مكرماً في حياته ومأسوفاً عليه بعد مماته، والعكس بالعكس فمن أراد أن يحيا بمقتضى النواميس الأدبية والدينية يجب أن يحيد عن طريق الشر ويسير بحسب الاستقامة فإذا أخل بشيء كان من الخاسرين.

قيل: «ومن يشابه أباه فما ظلم»[1]. ففي ذلك دليل على اتباع الأولاد أثر والديهم صلاحاً أو طلاحاً. وقيل: «ربّ الولد على مخافة الله فمتى شاخ لا يحيد عنها». وذلك برهان على رسوخ التربية في الأحداث ففي حسن التربية سعادة الوالدينَ والأولاد معاً، ويجب على الوالدين أن ينظروا إلى طرق أولادهم وأن ينصحوهم وينذروهم لكيلا يسلكوا طريقاً معوجة

---

(١) يضرب مثلاً في تقارب الشبه، ومعناه: من أشبه أباه فقد وضع الشبه في موضعه، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، المثل قديم حكاه كعب بن زهير في شعره فقال:

فقلت شبيهات بما قال عالم بهنّ ومن يشبه أباه فما ظلم

«لكل مقام مقال» حكم وأمثال، محمد أمين الضناوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٧.

Marfat.com

ولا ينهمكوا في الشهوات ولا يتورّطوا حباً في الدنيا وغرورها، بل يتقصون هذه الشجرة في صغرها، فكم من الأولاد يتعلمون القذف، والشتائم، والكلام القبيح قبل أن يتفوّهوا بالصالحات، ولا يخفى على الوالدينَ أنهم مسؤولون في أولادهم عند الله وعند السلطة والألفة معاً فإنما الأولاد للآخرة ولوطنهم ولأبناء جلدتهم.

فإذا فطن الآباء إلى تهذيب أولادهم في صغرهم ارتاحوا وأراحوا مدى الحياة فخير للوالدينَ أن يشدّدوا على أولادهم في صغرهم من أن يطلقوا لهم العنان فيندموا ويوقعوا أولادهم في ورطات عظيمة.

فمن الناس من يرى ولده عليلاً ولا يبادر إلى دفع الأذى عنه أو جريحاً، ولا يسعى في مداواة كلومه[1] فإذا كانت هذه غيرتهم وعلل أولادهم جسدية فكم يقضي من الزمن في مداواة أمراضهم النفسية فمن أحب ابنه أدبه فليس التأديب إهانة وذلاً، بل شفاء وخلاصاً.

فقد نهى تعالى شعبه عن الامتزاج بالأمم لفسادها وسنَّ له نواميس الإصلاح حتى إنه أذن بأن ينهوا في التربية ويهلك جيلهم فيها من أن يدخلوا أرض الميعاد بفساد مصر.

فعلى المرأة الراغبة في تربية أولادها أن تكون على جانب وافر من الأدب وحبذا لو كانت ذات معارف وصاحبة تدبير ففي ذلك تهذيب أولادها وراحة قرينها فعلى المرأة تدبير المنزل فتساعد قرينها في الاقتصاد، فكم من امرأة هدمت بيتها بسوء تدبيرها، وكم من امرأة أحيت موات منزلها بحسن إدارتها. فلا فائدة للغنى مع الإسراف ولا للمداخيل مع التبذير، وهي خلال إذا تربى عليها الأولاد زاد البلاء بلاء وما نفع أبو العائلة إذا سعى وجدّ وحرص وأحرز إذا كانت المرأة تبدد أمواله وتفسد تربية أولاده بعدم تعقلها وتروّيها فمن رام الإصلاح علم الفتيات، وغرس في فؤادهن المبادئ الصالحة، وزين عقولهن بالحكمة، وحملهن على حب الفضيلة ولله در من قال: «لو كانت الآداب بالعقود والقلائد والأساور والخواتم لكان المال إنما هو نفس التمدن».

فأشقى الأمم من حجب الله عنهم الحكمة والأدب فأول شيء يقتضي غرسه في فؤاد الولد من أنثى وذكر حب الله، وحب الوالدينِ، وحب السلطة، وحب القريب. فمن رسخت في فؤاده هذه المبادئ وتربى عليها أفلح ومال إلى الشغل وكدّ واجتهد وكان أديباً حسن السلوك والتدبير ففي الدرس والمطالعة والمجالسة والمعاشرة حسن الحديث ولين الجانب ولطف الأخلاق ودماثتها.

---

(١) كلومه: جروحه. [القاموس المحيط، مادة: كَلَمَ].

Marfat.com

هذا ولا بد لكل أنثى أو ذكر من مهمة يهتم بها، فقيمة المرء ما يحسنه، فعليه بإحكام صناعته، وأن يحرص على حاله ويستجيدها، فالصناعة تكسبه مالاً وتجبره على نبذ الكسل وعلم الحساب يقيه من الخطأ، وأعمال اليد تساعده على ترتيب المعيشة وثمرة السعي الترتيب وحسن النظام.

أوَليس الأليق بنا التخلق بالأخلاق الحميدة، وأن نزدان بالعلوم والمعارف، ونعكف على الشغل والعمل من أن نمضي الأوقات فيما لا طائل تحته من الأحاديث بل بالقدح والطعن والنميمة، والثلب والتعصب، والإغراض. فعلينا أن نكون كالرياحين زهراً وزهاء لا كالأرض البور قرطباً وعوسجاً.

[هناء كوراني]

وقالت حضرة الأديبة الفاضلة العقيلة «**هناء كوراني**» مظهرة واجب الزوجة نحو الرجل وإليك ما قالت:

والحق إذا علا، والفضل إذا سما، والصلاح إذا بدا، والعقل إذا ارتقى. فهناك مقام البهجة والحبور ومرتع الانبساط والسرور، ومجتمع السلام والهناء، وملتقى الراحة والصفاء في منزل من سارت به زوجة تلاقيك بوجه طلق ومحيا بشوش، وتهدي إليك من رقة أنغام صوتها لطفاً، وحلاوة يأخذان منك بمجامع القلوب، وتنظر إليك بألحاظ الفطنة والذكاء فتعيرك نشاطاً جديداً، وتهديك طريقاً قويماً تلك التي رسم التعقل والحلم والرصانة على جبينها آيات بما لها من الفضل والعفاف، وكريم المآثر معلنات بينات. الزوجة كما تعلمون مدبرة العالم الإنساني، وعليها يترتب أمر التقدم والانحطاط وذلك لأنها ربة المنازل وسيدة المساكن من قصر باذخ يناطح برأسه السحاب إلى كوخ على جانب كبير من الفقر ورثّة الحال، ولهذا كان مركزها في غاية قصوى من الأهْمية جديراً بأن يعار معظم الاعتبار وخليقاً بأن تحوم حوله دوائر صائبي الأفكار لتسلم من شرّ عواقبه الوبيلة على العباد أجارنا الله منه.

إذا تأملنا في أحوال ما حولنا من البشر ووقفنا على دخائل أمورهم نرى بعين آسفة أن معظم الشقاء والتعاسة والآلام التي نصادفها صادرة عن جهل اللاتي يتخذن مقام الزوجة بما يترتب على ذلك من الواجب واللازم فيسود في مساكنهن الخصام والشقاق وتفرّ الراحة من أمامهن على جناح السرعة إلى مقام السلام وتكون حياتهن مع أزواجهن عبارة عن سلسلة متصلة حلقاتها بالمرارة والويلات، مرتبطة أجزاؤها بالمصائب والتنهدات مع أنه كان بوسعهن لو دبرن أو أردن أن يتقين ذلك البلاء الأعظم الذي يفتك ببهجة الحياة ورونقها.

Marfat.com

ولا واقي لذلك الداء العضال الذي لا ملجأ من آلامه مدى الحياة سوى عمل الزوجة بما يفرضه عليها الدين والأدب حتى الطبيعة من الواجب نحو رجلها، فالزوجة التي هي شريكة حياة الرجل يجب أن تتأكد بأن مسرّتها ومسرة زوجها يتوقفان على محبتها الحقيقية له، وخدمتها الأمينة لجميع حاجاته كما أنه يدور بخدمتها ويفعل ما به يطيب خاطرها، ويشترط عليها أن تعمل بقلب فرح إذ لا أحب إلى الرجل من الزوجة البشوشة، لأن البشاشة تنير وجهها وإن يكن غير جميل فالفتاة الجميلة الفاتنة التي تصنع بعد زواجها حنجرة كدرة لا تقدر أن توجه لوماً إلا على نفسها إذا غاب رجلها كثيراً عن المنزل، لأَنَّهُ من طبع الرجل كراهة الوجه المنقلب والسحنة الشكسة.

وعلى المرأة أن تدرس طباع وأخلاق رجلها درساً جيداً لتستطيع السلوك معه بحسب مشتهاه، لأنها إن فعلت ذلك لا ريب تصيب لديه المنزلة الأولى، والمقام الأجل فتصبح إرادته رهن رضاها أو مناه تلبية أمرها اللهم إلا إذا كان بعيداً من الإنسانية بشيء لا يخفى داخل جسده البشري ذا قلب وحشي لا يلين ومن أهم واجب الزوجة الذي قلما تكثرت به المحافظة على حسن صحتها في الاعتدال في المأكل والمشرب والملبس لئلا تبتلى بداء يرميها العمر على فراش السقام فتكون حملاً لا يطاق على عاتق رجلها، فضلاً عن أنها تخسر محبته الأولى وهذا أمر بديهيّ إذ الرجل لم يقترن بالمرأة ليمرضها بل لتكون عونه وشريكته في حمل أثقال الحياة ومتاعبها الجمة وما قصدت بهذا أن يراد الرجال الذين لا يعتنون بنسائهم كلا لأنه من أوّل واجب الرجل أن يبذل مستطاعه في تطبيب زوجته إذا فاجأها مرض أو بلاء، بل لأذكر المرأة بأمر ربما لم يخطر لها ببال فتستفيد للاستقبال حقاً واجباً.

إن واجب الزوجة نحو رجلها فرض مقدس سنّ من قبل الخالق والوجود فإهماله يعود عليها بشقاء مستمر إذ إنها تخسر محبة زوجها وثقته بها، ويا لعظم الخسارة فيصرفان حياتهما في تعسر وتكدير بخلاف ما إذا قامت بمطلوبات مركزها بجهد وأمانة فالسعادة تظلها بأجنحتها والبركة والسلام يأويان منزلها، وكم قد أَطنب الشعراء والكتبة في وصف الزوجة الصالحة ورفعوا من منزلتها، وأكثروا من مدحها وذلك دلالة على سموّ شأنها وعزيز نفعها في عالم الوجود.

والزوجة الصالحة هي التي تمتاز بأفكارها الطاهرة الشريفة وبشعورها الخفي اللطيف وبأخلاقها البهجة الأنيسة، وبصبرها الجميل، وعريكتها اللينة، وعفتها النقية فتراها مرتدية النظافة واللياقة ثوباً، ومغتذية مع عائلتها على حدود الاعتدال والاقتصاد تلك التي تسر يدها بالعمل، وتكره رجلها التبختر، فتنهض في الصبح باكراً متسربلة القوّة والنشاط لترتيب أشغال

Marfat.com

النهار، والقيام بمهام منزلها فتكون ينبوع سعادة رجلها، وفخر أولادها الذين يسمعون أناشيد مدحها فيهيمون طرباً ويزيدون من إكرامها شيئاً عظيماً، هذه هي المرأة التي ترفع شأن الإنسانية وتعمل في تقدم الجنس البشري أشرف وأجل عملاً والتي فوائدها لا تحصى، وآثارها لا تستقصى فإنها تفعل في ارتقاء العالم أكثر جداً من التعليم والإنذار، والتوبيخ وبدونها لا تفيد وسائل التقدم شيئاً مذكوراً، ولذلك كانت حاجتنا نحن الذين أخذنا نتدرّج سلم المعالي لمثلها شديدة فإني أرى البلاد ظمأى لتأثيرها المحيي، ومآثرها الغراء فرجائي أن يصيب مقالي في قلوب نسائنا ثرى ثرياً ليجتنبن نكراً، ويزددن فضلاً، ويثمرن معروفاً، فتسمو بهن البلاد والعباد، والله ولينا وبه نتوفق إلى خير الأحوال.

[مريم خالد]

وقالت حضرة الكاتبة الأديبة «**مريم خالد**» في مقالتها التي عنوانها: «وجوب تعليم البنات رداً على معترض هذا المقصد».

لا أدري ما الذي دفع بالمتعرّض إلى هذا القول، ولا أعلم ما هذا الغشاء الذي قام أمام عينيه فلم يعد ينظر من ورائه الفوائد الحاصلة التي لا ينكرها إلا من أعماه الجهل، وخيَّم فوق رأسه الغرور، وكأني به وقد رأى كلاً يبدي رأياً ويتكلم بما يعنّ له من محسنات ومسببات النجاح كقوله: «هل تقصد أن ترسل ابنتك للمكتب...؟» أراد أن يتكلم. فبحث في زوايا دماغه وفتش مخبآت قريحته فلم ير إلا أن تعلمنا صورة خارجية وضرر عظيم، فهل يظن أن العلم خلق للرجل.

لعمري إنه في ضلال مبين وخطأ عظيم، ولنفرض أننا سلمنا اعتقاده وجاريناه على قصده حسب زعمه أن العلم لا ينفع البنات بل ينتج المضار فما هي يا ترى؟ أيحسب أن أولها النفقات التي تبذل لوضعهن في المدارس؟.

ثم إن المدارس جامعة البنات من رتب وطبائع مختلفة فتدخل الابنة بسيطة لا تعرف الحيّ من اللي فتستنير [بعدئذٍ][1]، وتتغلب عليها آفة الغيرة فتجرّب أن تجاري البنات اللواتي هن أعظم منها رتبة وغنى بالملابس والزينة الخارجية، وتقتبس كل عوائدهن حتى يصعب على الإنسان أن يرى الفرق بين الغنية والفقيرة وتتمرن على الراحة والرفاهية حتى متى رجعت إلى البيت تراها شامخة بأنفها، معجبة بنفسها لا يعجبها العجب ولا تمارس الأشغال البيتية، فتخسر والديها مبالغ لا طائل تحتها فكان الأجدر بها أن تبقى في البيت مثل هذه حجة المعترض لتكن.

---

(١) وردت في الأصل: «بعد إذ»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

Marfat.com

وا أسفاه على المعترض لا يعلم أن هذا الغلط غير لاحق بالبنات فقط بل بالشبان أيضاً فإني أقر بهذا الغلط، ولكنه ليس عموماً ألا يعلم أن للناس طبائع وأميالاً مختلفة فالبعض يميلون إلى الإسراف والتبذير، والبعض إلى العلم والتهذيب، والبعض لغرور العالم وشهواته. فلا خوف على ابنة واقعة تحت ظروف كهذه فمهما كانت طائشة وميالة للإسراف لا بد من أن يعلق في ذهنها أثر التهذيب، والتي لا يفعل فيها التهذيب المدرسي، لا يفعل فيها لو لزمت البيت، فكفى أن المدرسة تربي فيها ميلاً للعلم والأدب، وتدرّبها في أعمال الحياة بعد خروجها من المدرسة، ودخولها في العالم. ومن جهة الأشغال البيتية لا يلزمها أفكار وتعب جزيل لتتعلم ممارستها، فعليك أيها المعارض أن تتشجع ولا تخاف من هذه المضارّ بل أن تصوّب آمالك للفوائد الجمة التي تنتج من تعليم البنات، ولا تحتقر علمهن فإنك بذلك تحتقرهن، ولا تنسَ أن المرأة هي المحور الذي تدور عليه أسباب النجاح، وهي سبب التقدم والفلاح، وهي حافظة للهيئة الاجتماعية، ومرآة الآداب العمومية.

لا مشاحة أنها تبلغ في العالم مبلغ الرجل أحياناً فلذلك يجب تعويدها على إطلاق أعنَّة الأقلام في ميادين التصوّرات العقلية لتجتني من الطبيعة عسلها الشهي، وبذلك يعلم العالم أنها على شيء وينطق لسان الأبكم بفضلها و[عندئذٍ][1] تبكم الألسنة القائلة بحطة عقلها وحقوقها.

أما أنا فعندي أن صرير أقلامنا الحاضرة سيدوي في وديان سوريا، ويؤثر في آذان الهيئة الاجتماعية. فعلينا أيتها السيدات بالتحفظ من كل أمر يحط شأننا وملازمة الخطة التي ترفع قدرنا ومقامنا. واعلمن بأن الأنظار تراقبنا والإصلاحات تنتظرنا، والمرأة مرآة الوطن فيها يظهر هيكله، ومنها يعرف كيف هو، ورجاؤنا أن نكون نحن الرابحات والمعترضون الخاسرين.

وأخيراً، يجب علينا الشكر لله ولوفرة اهتمام الحضرة العلية الشاهانية في ترقي البلاد والرعية، وأكثر الآباء الآن أدركوا أهمية تعليم بناتهم حتى صار تعليمهن عند البعض أمراً لازماً فأطلقوا قيودهن حتى بادرن على نزر المساعدة المبذولة لهن إلى مجاراة الرجال.

[استيرازهري]

وقالت حضرة الأديبة الآنسة «استيرازهري» مقالتها التي عنوانها «الإحسان الكتابي»:

المرء بعد الموت أحدوثة يفنى وتبقى منه آثاره

(١) وردت في الأصل: «عند إذ»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

Marfat.com

وأحسن الحالات حال امرئ تطيب بعد الموت أخباره

وماذا يفضل حالة من يكرس نفسه لنشر الآداب وإعلاء منارها، وأيّ خبر نشره أطيب ممن يصل سواد ليله ببياض نهاره سعياً وراء هداية غيره سبل المعرفة مستجلياً عويصها له، كاشفاً غوامضها، لا يأخذه بذلك ملل، ولا يناله كلل أجل أليست هذه حالة العلماء والفلاسفة منذ نشأ العلم إلى اليوم أشغلوا جلّ أوقاتهم بكتابة الكتب التي تعود على عموم العالم بالنفع وتدرأ عنهم المضارّ، وبهذه الواسطة لم تقصر إفاداتهم على الجيل الذي عاشوا معه، أو البقعة التي قضوا فيها حياتهم، بل لا تزال منتشرة في كل قطر مدّت المعرفة سماءها عليه لابسة من الحياة ثوباً قشيباً لا تبليه الأيام، ولا يؤثر به كرور الأعوام فخلدت أسماؤهم وكانت خير أثر. ومن رغب في أن يأتي بالإحسان الكتابي لا يحتاج أن يجمع الشعب من حوله ليلقي عليهم معارفه كما كانت تفعل العلماء في سالف الأيام بل خوّلته التقدمات العصرية مقدرة على وضع أفكاره وتعاليمه في كتاب ينشره بين الملأ فتتناوله الأيدي، ويقطف أثماره القاصي والداني، ونرى تأليفه يقوم مقامه في كل عصر حتى إذا فنى المؤلف ولعبت الديدان في جسده، بقي كتابه بين أيدي الذين بعده يغذون عقولهم بموادّه.

وعليه نرى الإحسان الكتابي آلة يستخدمها المحسنون لإذاعة الآداب واستمرارها فتغني الطلاب عن الأساتذة فكم من الناس الذين لم تسمح لهم أحوالهم بالدخول إلى المدارس، وجدوا هذا الأستاذ ينادي بصوته الجهوري قائلاً: «تعالوا يا محبي المعرفة وراغبي التقدم، فها أنا أستقبلكم على الرحب والسعة وسترون مني أستاذاً شفوقاً محباً محسناً أرغب في تقدمكم وإعلاء شأنكم، لا أطلب منكم أجراً ولا تعويضاً فلا أترك غامضاً في السماء أو تحت الثرى إلا وأجلوه لكم، وأظهر مخبآته فلا يأخذكم بذلك ملل، بل ثابروا على خطتكم واجتهدوا بالثبات فيها تروني طلق المحيا لا أسأم عندما يتعذر عليكم فعل أمر، وها أنا أهدي الشاب منكم صراطاً سوياً وأعد شيخكم بالتقدم ممثلاً له قول الشاعر:

لا تقل قد ذهبت أربابه كل من سار على الدرب وصل»

فأطاعوا دعوته وولجوا حدائقه الناضرة ومروجه الخضراء، فاقتطفوا منها ما طاب لهم، وعادوا ظافرين [فعندئذٍ][1] شعروا بفضل ومنّة من أحسن إليهم بتآليفه التي أنارت عقولهم، فاقتدوا به وبدأوا بتأليف الكتب التي تخفف على الغير مشاق الدرس الذي لزمهم، فأحسنوا كما أحسن إليهم ومن يتأمل المتاعب التي تحدق بالعلماء لا يتبعد عن إكرامهم وتبجيلهم ما أمكن فضلاً عن الاضطهادات التي كان يجازى بها من صرّح بحقيقة لم يدركها زملاؤه في

(١) وردت في الأصل: «فعند إذ»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

135462

Marfat.com

الأجيال الغابرة وكفى «بغليلو»[١] برهاناً فعندما صادق على قول «كوبرنيكوس»[٢] بكون الشمس ساكنة والأرض متحركة نفي إلى سجن مدينة غربية بعيداً عن أهله وخلانه، ومات فيه. وعليه «فغليلو» كان أسير الاعتصاب كما قال «ملتني»[٣] الشاعر الإنكليزي عند محاماته عنه: ألا أن أضداده لم يقدروا على سجن الحقيقة التي أذاعها «غليلو»، وعليه فكم يجب علينا أن نقدم الشكر لله تعالى الذي أوجدنا في هذا العصر الحميدي تاج العصور الغابرة ففسح فيه للعلماء مجال بث حقائقهم بين الشعوب فكان ذلك أكبر نصير لتقدم العلوم وأعظم عاضد لنشرها.

ومما مر نرى أن العلماء لم يكن يستفزهم وعد أو يرهبهم وعيد، بل كانوا يقبلون الموت فداء لحقائقهم فكانوا يساقون لتناول ضروب العذاب كمن يذهب لينال إكليل الظفر، ولولا ذلك لانفنت المعرفة وعم الفساد وإذا رغبوا في الحياة لا تكون غايتهم منها سوى نفع الغير فينكرون ذواتهم في سبيل الإحسان ويؤيد ذلك ما قاله «ملتون»[٤] عندما كان يؤلف كتابه المسمى «**بدفاع الإنكليز**» عندما أنذره الأطباء بالعمى إن لم يكف عن الدرس والتأليف فقال: «إن كثيرين يبتاعون الخير الصغير بالشر الكبير، أما أنا فحسبي أن أبتاع الخير الكبير بالشر الصغير». حاسباً عمى عينيه شراً صغيراً في جنب الخير الكبير الذي هو خير بلاده.

وعلى الراغب بالإحسان كتابياً أن لا يرهب في الحق لومة لائم، بل يذيع الصواب منتصراً له بكليته ولو خانته المسكونة بأسرها مبتعداً عن أن يطوي عليه كشحاً، وإذا فعل ذلك لا يكون قد أدّى المعارف حق خدمتها، ولكن عليه أن يراعي ذوق الجمهور بالبحث عن كل ما يرى منهم الإقبال عليه فإذا أراد مثلاً ردعهم عن طرق ألفوها، وهي مضرة لهم لبعدهم عن التقدم فعليه أن يظهر وجوه المضار التي تحصل منها الوسائط للابتعاد عنها ولا يؤخذ من كلامه لهجة الأمر، بل كمريد الإصلاح وعليهم حسن الاختبار وعند ذلك يكونون قد قاموا بالخدمة المطلوبة منهم.

---

(١) غليلو: أو غليليه «Galilei»، عالم إيطالي ولد سنة ١٥٦٤ م من أهم علماء الفيزياء، والفلك المشهورين. اكتشف حركة دوران الأرض حول الشمس، دانته الكنيسة سنة ١٦٣٣ م، ثم برّأته سنة ١٩٩٢ م. من مخترعاته ميزان الحرارة والمنظار الفلكي «Telescope».

(٢) كوبرنيكوس: هو نقولا كوبرنيك(Nicolas Copernic) ولد سنة ١٤٧٣ م، فلكي پولوني. برهن عن دوران الكرة الأرضية على ذاتها وحول الشمس. توفي سنة ١٥٤٣ م.

(٣) ملتني: أو جون ملتون (John Milton)، ولد سنة ١٦٠٨ م وهو من مشاهير الشعراء الإنكليز. فقد نظره فأَمْلَى على زوجته وابنتيه ملحمته الخالدة «الفردوس المفقود» (The Lost Paradise). توفي سنة ١٦٧٤ م.

(٤) ورد سابقاً «ملتني» وترجمنا له على أنه «ملتون» توخياً الوضوح وإزالة اللُبس.

Marfat.com

وقالت حضرة الكاتبة الأديبة الآنسة «**استير هوري**» في مقالتها التي عنوانها: «الروايات» التي تلتها في دار المدرسة الإسرائيلية عند تمثيل رواية: «المسرف»:

الروايات والكل تعلمون حقائق لا بل فوائد ملبسة بلباس الهزل، ومنافع قدّمت في معرض المجون تلذ للسامع، وتخوّل الناظر قوة تحكم بين صحيح الأمور وفاسدها فيراها بعين الخبرة وقد أميط النقاب عن مؤدّاها ويسبر غور تجارب أخذت قسماً عظيماً من الزمن بما يفوق القليل منه فتحنكه بلا تعب ولا كدّ وربما عن غير قصد في معرض اللذة التي ينالها عند تمثيلها فتفيده، وبالحري تربيه بالوقائع التي يشاهدها كأنها مرت عليه وقد قال الشاعر:

تعطي التجارب حكمة لمجرّب حتى تربي فوق تربية الأب

وفوائدها أعظم من أن تحصر بخطاب يدوّنه قلم عاجزة نظيري ومقالة يحصرها يراع قاصرة مثلي. بيد أني وجدت للكلام مجالاً فعملت بقول من قال: «وإن وجدت قائلاً فقل».

فإذا تمعنا في الروايات منذ نشأتها إلى عهدنا هذا نرى أنها كانت عنوان فضائل الأجيال الغابرة، أو أخلاقها بحسب الموضوع الذي كتبت فيه، ولكن عند ابتداء عهدها كانت لعقاب المجرمين، وإعدام الأسرى، فكانت تمثل في ذلك الوقت بهيئة تقشعر منها الأبدان وتشمئز منها النفوس بحيث إن ممثليها قلما يستطيعون أن يلعبوا دورهم بعد ذلك في رواية الحياة الكبرى.

ثم سمت غايتها [بعدئذٍ][1] فاستعملت لإظهار بعض العقائد الدينية ثم صارت لتسلية الملوك والأمراء إلى أن تحسنت أكثر فأكثر وصارت غايتها العظمى إصلاح ما فسد من العوائد والأخلاق، وبيان مصير تابعيها إلى النتائج الرديئة التي تكدر كأس صفاء حياتهم، وتعبث براحتهم من كل جانب وإظهار ما للفضائل من المزايا الحسنى لكي نقتدي بها، ولا نحب أن يعزب عن بالنا ما لها من الفوائد التاريخية فتخبر الجمع الحاضر بكل ما جرى فيما سلف من الزمان.

وهي مفيدة لتلامذة المدارس بما ليس دون فائدتها في الناس بل أسمى وأجلّ لأن تأثير الحوادث في مخيلة الأحداث يفوق بمرات تأثير الكلام المجرد فيها، فإذا راجع كل منا تاريخ حياته يرى صحة قولي وناهيك بالفوائد التي يجتنيها المشخصون أنفسهم من عبارات يلتقطونها، وأمثال يحفظونها، وحكم يستوعبونها فكلما طرقوا خزانة التذكار يرون ما الذي وعوه فيها من الآثار، ولا حاجة أن نقول: إن وقوفهم وهم في هذا السن في محفل حافل كهذا

---

(١) وردت في الأصل: «عند إذ»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

Marfat.com

يجعل وقوفهم في المستقبل بأحسن مما ترون مني إلا تصفيق. وللروايات شروط لو تعدتها لسقطت فوائدها وعبث بالمقصود منها، غير أني أضرب عن تعدادها الآن، ولدينا رواية تنطق بأوضح ما يعبر عنه لسان موضوعها من أحسن المواضيع ومادتها من أغزر المواد ومغزاها أحسن مغزى فهي قد خاضت بحر الشعر والنثر، فالتقطت منها أنفس الدرر، وتقلدت بها زينة وبهاء فشكر الناسج بردها أفاض فأجاد، ولمساعي رئيس المدرسة الهمام ومدحاً لفتية نجباء أحسنوا التمثيل وأجادوا الإلقاء نسأل الله دائماً نفعنا بما نراه فهو المجيب السميع.

وقالت حضرة الأديبة «**سارة نوفل**» تحت عنوان «الصحة أفضل من المودة[1]» (**الزِّيّ**):

هرعت نساء الغرب إلى دائرة التفنن بأنواع البهارج، وأساليب الزخارف، وأخذن بمناظرة بعضهن في اختراع الأزياء والتلاعب في صورها وأشكالها تباهياً وافتخاراً حتى وصلن بها إلى ما هي عليه في الوقت الحاضر من الوضع والتركيب ولسان حالهن يقول:

لـم يـرق لـي منـزل بعـد النقـا لا ولا مستحسـن مـن بعـد مـي

ولما كانت هذه الأزياء بعيدة عنا غريبة منا، كانت نساؤنا وبناتهن قانعات بما ورثنه من التقاليد والعوائد سواء كانت صحيحة المبنى، أو سقيمة المبدأ، راضيات بما يختاره رجالهن وآباؤهن من الأزياء وأشكالها والأثواب وألوانها، وكنّ بحالتهن هذه ممتّعات بتمام الرفاهية والهناء، وكمال الصحة والصفاء.

ولكن لم تلبث أن تقدّمت نحونا تلك المناظرة بخيلها ورجلها ودخلت بلادنا ضيفاً غير محتشم واستمالت قلوب النساء والبنات إلى الأخذ بناصرها فتغيَّرت الحالة الأولى بضدها واستحالت عوائدنا القديمة إلى عكسها، وارتفع علم «المودة» (أي الزِّيّ الجديد) في ربوعنا حتى راجت بضاعته، ونال من أفئدتنا بغيته، وما كان رافعه إلا بعض اللواتي أغمضن الجفن عما يتخلل هذه المودة من الإضرار بالصحة العمومية، وأقدمن بحكم التشبه والتمثل ببنات جنسهن الغربيات إلى الانقياد لحكم الأزياء الجديدة التي لو عرضناها على الأقدمين لظنوها من أثواب الهزل كأثواب المساخر التي تلبسها الآن بعض النساء في أيام المرافع لما فيها من إعداد التقاطيع والأشكال، وعديد الصور والألوان، ولو تصفّح هذا البعض كتب الحكمة وقانون الصحة لحكمن على نفوسهن بالخطأ، وعلمن كيف تورّطن بأهوائهن إلى ما يمس الواجب المفروض عليهن في نظام الصحة العامة التي يترتب على سلامتها نمو الجنس البشري وصيانته من آفة الأمراض الوراثية.

---

(١) المودة: وهي ما نعرفه بالعامية: «الموضة» وهي «الزِّيّ» (Fashion).

Marfat.com

ومن البديهي المقرر في الأذهان أن الأثواب الضيقة جدّاً هي وحدها عثرة للدورة الدموية في جسم لابسها ومتى اختل نظام هذه الدورة الطبيعي كان الجسم معرّضاً لكثير من الأمراض فكيف لو شدّت النساء خصورهن بمشدّ موسوم بلغة الإفرنج «بكورسيه»[1] أو «بوسطوري» حبال متينة وأضلاع حديدية لا يقوَى على احتمال قوتها الضاغطة جسم، أو ضمَمْن أرجلهن وأصابعهن بأحذية لا نقدر أن نفيها حق التشبيه إلا بقولنا بالأحذية الصينية صغراً وقالباً حتى لا يستطعن بعد ذلك أن يأكلن بلذة أو يمشين مستقيمات بحرّية، بل نرى الواحدة منا مع هذه المضايقة وذاك الأسر ممسكة بأذيال هذه العادة الوخيمة صاغرة لأحكامها الصارمة قائمة بأمرها إلى ما شاء الله.

وإذا سألنا إحدى اللواتي ربين في مهد الفضيلة والآداب وتثقفت عقولهن في مدارس الحكمة حتى عرفن أن الكمال إنما هو بمحاسن الأعمال أن أيّ الثوبين الآتي ذكرهما أحسن نفعاً وأكثر فائدة وألطف منظراً، أثوب بسيط منسوج من الصوف أو من القطن أو الحرير، أو الكتان يوافق كلاً من فصول السنة الأربعة ويجر بذيله عنوان العفة والوقار، وسمات الطهارة والقناعة، ثم يحفظ بوسعه القليل راحة المرأة وصحتها مدى الحياة، أو ثوب من أثواب الأزياء الجديدة الحاكمة علينا بالخضوع لأحكام التقليد واستبداده فضلاً عما يلهيها من الإسراف والتبذير لقالت:

وما عن رضا كانت سليمى بديلة ... بليلى ولكن للضرورة أحكام

نعم، نقدر أن نلومك أيتها القائلة إذا كنت متوسطة الوجاهة والثروة، ولا ننكر عليك حكم الضرورة التي أشرت إليها لأنك معذورة بعدم انفرادك عن زميلاتك والاقتداء ببنات جلدتك، على أننا نلوم ولا نعذر تلك المرأة الوجبهة الغنية التي نفح الدهر عليها بواسع الخيرات، وغاية الوجاهة ولم تنثن عزماً عن مناظرة اللواتي هن أقل منها رتبة ومقاماً، وأضعف حالاً وثروة لأنها قادرة أن تجعل نفسها نبراس الفضائل ليقتدي بها النساء اللواتي هن أصغر منها منزلة، وهكذا تقتدي الصغرى بالكبرى تدريجاً حتى تصل إلى حيث المطلوب والمقصود والمرغوب.

أما الآن فنرى المسألة معكوسة من جميع وجوهها حيث نجد المثريات منا اللواتي ينبغي أن يكن قدوة لجمعيات يتسابقن إلى ميدان المودة، ويبرزن بحللهن وحليهن تيهاً وإعجاباً، ويتفاخرن كل يوم بثوب جديد إعلاماً ببذخهن وإسرافهن إلى غير ذلك مما يجدّد في نفوس

---

(١) كورسيه: وهو حزام من القماش والمطاط، ترتديه النساء البدينات فَيَبْدُونَ أقل بدانة بضمّ أضلاع الصدر، وترفيع دائرة الخصر.

Marfat.com

عامة النساء روح الغيرة والاقتدار ويحملهن على إقدامهن على نحو هذا التقليد المضر بصالحهن المادّي والأدبي فضلاً عن إضراره بصحتهن وراحتهن.

وقد سمعت يوماً من إحدى السيدات المثريات ما يعرب عن ميلها إلى استئصال «المودة» ومضارها الصحية والمادية حيث قالت: إنني أودّ من صميم فؤادي أن أحذو حذو السيدات الأمريكيات في أزيائهن لما فيها من اللطافة واللياقة، واللباقة، والراحة لكني أخاف أن أكون البادئة لئلا ينسب إليّ البخل والتقتير المخلان بشرف وجاهتي وثروتي أو يظن بي الفقر، وعدم الاقتدار على مجاراة نسيبتي دعد، وحسيبتي وصاحبتي أسماء وحبيبتي سلمى وهذا أمر يزري بالمجد ويمس التمدّن، ولكن بحكم الوهم على أنني لو رأيت واحدة من أمثالي تقدّمت قبلي إلى نبذ أحكام «المودة» لكنت وأيم الله ثانية لها والله عليم بذات الصدور.

فإلى ذوات الأثر والمآثر وربات الفضل والمبادئ الصحيحة أرفع عجالتي هذه بعد أن ألتمس من منازل لطفهن حلماً، ومن واسع آدابهن عفو العلى أفوز بمن تحمد من هذين الأمرين ما لا يقبل النقض[١] والإبرام[٢] والتنكيت[٣] والتبكيت[٤]، لأن التطرّف بـ«المودة» قد أوصلنا إلى منازل لا تحمد عواقبها والتشبه يقضي بين الأحساب والأنساب، والأقران، والأمثال بأن ينفقوا كل غالٍ حباً للمساواة بين المقلِّد والمقلَّد، وكم من امرأة قد باعت ما لديها من الحليّ والعقار، وابتاعت بقيمته قبعات وأثواباً ومراوح إلى غير ذلك من لوازم «المودة» العائدة بخراب بلادنا، والمنفعة لغيرها من البلاد التي تختلق لنا لزوم ما لا يلزم، فنتهافت إلى ابتياعه ولا تهافت الجياع إلى القصاع حالة كوننا موجودين في عصر كثرت فيه احتياجات الإنسان كما قلَّت موارد الرزق، وسدّت أبواب المصالح تجاه وجوه أربابها، ولم يبق من سبيل للتخلص من الضنك المستحوذ على أكثر الشعوب إلا الاقتصاد بعدم الالتفات إلى مهالك الأزياء.

فعلينا أن نترك التقاليد الإفرنجية ونتمسك بأحاسن العوائد التي يمكننا أن نقتطفها من مجموع عوائد الغربيين والشرقيين وحبذا لو اقتدينا بعقائل نساء الإفرنج اللواتي لا يملن إلا إلى الجدّ والصالح، وحسبنا شاهداً اللواتي نراهن كل عام يَسُحْنَ من جهة إلى جهة ثانية ومن قارة إلى قارة أخرى تبديلاً للهواء واستطلاعاً لما في الوجوه من المناظر والغرائب والآثار والعوائد،

---

(١) النقض: المخالفة. [القاموس، مادة: نقض].
(٢) الإبرام: الحكم القاطع الذي لا مناص منه. [القاموس المحيط، مادة: برم].
(٣) التنكيت: التنديد والتعييب في العقول والعمل. [القاموس المحيط، مادة: نكت].
(٤) التبكيت: التعنيف والتقريع. [القاموس المحيط، مادة: بكت].

Marfat.com

وهن بغاية البساطة في ملابسهن وتقليداتهن، ومن المستحيل أن نرى واحدة منهن لابسة ذاك المشدّ الحديديّ الذي تستلزمه «المودة» لضم أضلاع الصدر وترفيع دائرة الخصر إلى حدّ لا تطيقه المعدة، والمعدة بيت الداء كما لا يخفى وبناء على ذلك يجدر بنا نحن الشرقيات أن نقتبس من أديبات الأجانب ونقتدي بفاضلاتهن ولا نتجرّع كأس الضرر ونحن على علم بأن السم في الدسم، ويجب علينا أن نتحد من الآن فصاعداً على نبذ كل عادة مضرة بأجسامنا ومصالحنا ونعرف ما لنا من الحقوق وما علينا من الواجبات، فهلمّ يا بنات سوريا الأديبات يا من سطعت بكنّ شموس ذوات الخدور فغنيتن بالضياء عن البدور إلى نشر هذه المبادئ في جرائد الوطن ولسان الحال لكي تصير علناً، ونفوز بالأمنية ونستأصل من بين ظهرانينا آفة الاقتداء بغيرنا ممن لا يهمهم همنا، ولا يسرّهم وفاقنا والسلام.

ولنبدأ الآن بسرد التراجم والله المعين في البداية والنهاية.

Marfat.com

حرف الألف

آمنة[1] ابنة وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب أم النبي ﷺ

قال **القرماني**: أعطاها الله تعالى من الجمال والكمال ما كانت تدعى به حكيمة قومها، وكانت من الفصاحة والحكمة والبلاغة على جانب عظيم لم يسبقها إليه أحد من نساء العرب، توفيت بعد مولد النبي ﷺ بست سنوات، ودفنت بالأبواء[2].

قال **ياقوت** في «معجمه»[3]: «والسبب في دفنها هناك أن عبد الله والد رسول الله كان قد خرج إلى المدينة يمتار تمراً، فمات بالمدينة، فكانت زوجته آمنة تخرج إلى المدينة تزور قبره، فلما أتى على رسول الله ﷺ ست سنوات خرجت زائرة لقبره، ومعها عبد المطلب وأم أيمن حاضنة رسول الله، فلما صارت بالأبواء منصرفة إلى مكة ماتت بها.

ويقال: إن أبا طالب زار أخواله بني النجار بالمدينة، وحمل معه آمنة [أمّ رسول الله ﷺ][4]، فلما رجع منصرفاً إلى مكة ماتت آمنة بالأبواء»[5].

وقيل: دفنت بدار رائعة وهو موضع بمكة.

وقيل: بمكة في شعب أبي دبّ، وكانت من شاعرات العرب المجيدات.

---

(١) للاستزادة يراجع: طبقات ابن سعد (١: ٣١، ٥٨، ٦٠، ٧٣). سيرة ابن هشام (١: ٥٣، ٥٧). تاريخ الإسلام (١: ٢١، ٣٥). تهذيب الأسماء واللغات (١: ٢٢، ٢٤). الدر المنثور (١٦). سفينة البحار (١: ٤٤). عيون الأثر (١: ٢٤).

(٢) الأبواء: قرية من أعمال الفُرْع في المدينة، بينها وبين الجُحْفَة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً. معجم البلدان، ج ١/ ص ١٠٢.

(٣) معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج ١/ ص ١٠٢.

(٤) زيادة أثبتناها من معجم البلدان، ج ١/ ص ١٠٢.

(٥) قال الحميري: «وكانت آمنة قدمت به ﷺ المدينة على أخواله من بني عدي بن النجار تزيره إياهم فماتت وهي راجعة به ﷺ إلى مكة. الروض المعطار/ ١٢.

Marfat.com

ومن **شعرها** قولها وهي في نزع الموت وكانت نظرت إلى النبي ﷺ، وهو يلعب بجانبها فتأسفت على تركه صغيراً وأنه سينشأ يتيماً من الأب والأم، ولكن تأست بما يناله من الفخر والمجد في قومه وفي العالم بأسره مما رأته منه في حال صغره وهذا ما قالته:

بـــارك الله فيـــك مـــن غـــلام يـا ابـن الـذي فـي حـومـة الحمـام
نجـــا بعـــون الملـــك العـــلاَّم فـــودي غـــداة الضـــرب بـــالسهـــام
بمـــائـــة مـــن إبـــل ســـوام إن صـح مـا أبصـرت فـي المنـام
فـــأنـــت مبعـــوث إلـــى الأنـــام تبعـث فـي الحـل وفـي الحـرام
تبعـــث بـــالتـــوحيـــد والإســـلام ديـــن أبيـــك البـــرّ أبـــراهـــام
فـــالله أنهـــاك عـــن الأصنـــام أن لا تـــواليهـــا مـــع الأقـــوام

ثم قالت: كل حيّ ميت، وكل جديد بال، وكل كبير يفنى، وأنا ميتة وذكري باقٍ. وسلمت روحها[١].

وقيل: إن بعضهم رثاها بهذه الأبيات:

نبكـــي الفتـــاة البـــرّة الأمينـــه ذات الجمـــال العفـــة الـــرزينـــه
زوجـــة عبـــد الله والقـــرينـــه أم نبـــــي الله ذي السكينـــــه
وصـــاحـــب المنبـــر بـــالمـــدينـــه صـــارت لـدى حفـرتهـا رهينـه
لـــو فـــوديـــت لفـــوديـــت ثمينـــه وللمنـــايـــا شفـــرة متينـــة
لا [تبقـى][٢] ظعـانـاً ولا ظعينـه إلا أتـــت وقطعـــت وتينـــه
أمـــا دللـــت أيهـــا الحـــزينـــه عـن الـذي ذو العـرش يعلـي دينـه
فكلنـــا والهـــة حـــزينـــه نبكيـــك للعطلـــة أو للـــزينـــه

آمنة ابنة عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي[٣]

كانت شاعرة من شاعرات العرب في الجاهلية اللاتي يشار لهن بالبنان، وكان شعرها قليلاً إلا أنه ذو بلاغة عجيبة. وكان أبوها عتيبة قتله ذوّاب بن ربيعة الأسدي يوم خوّ من أيام العرب، ثم أسر ذوّاب وقتل فوراً بعتيبة ولآمنة في أبيها مراث كثيرة لم يصل إلينا منها إلا قولها:

---

(١) كان ذلك عام ٤٥ ق. هـ/ ٥٧٥ م.
(٢) وردت في الأصل: «تبق»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.
(٣) بنو يربوع: بطن من حنظلة من تميم من العدنانية، وهم بنو يربوع بن حنظلة.

Marfat.com

على مثل ابن مية فانعياه بشق نواعم البشر الجيوبا
وكان أبي عتيبة سمهريا فلا تلقاه يدخر النصيبا
ضروباً للكميّ[١] إذا اشمعلَّت[٢] عوان الحرب لا ورعاً هيوبا

آمنة ابنة أبان بن كليب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن

ولها يقول[٣] نابغة بني جعدة[٤]:

وشاركتم قريشاً في تقاها وفي أنسابها شرك العنان
بما ولدت نساء بني هلال[٥] وما ولدت نساء بني أبان[٦]

وكانت آمنة هذه تحت أمية بن عبد شمس[٧] معاصراً لعبد المطلب بن هاشم[٨] جد

---

(١) الكمّي: من ستر نفسه بالدرع والبيضة. [القاموس المحيط، مادة: كمي].
(٢) اشمعلّ: اشمعلّ القوم، واشمعلّت الحرب أي ثارت، والغارة انتشرت. [القاموس، مادة: شمعل].
(٣) ديوان النابغة الجعدي.
(٤) هو النابغة الجعدي، قيس بن عبد الله بن عُدَس بن ربيعة الجعدي العامري، أبو ليلى، شاعر، صحابي من المعمرين، قيل: «اسمه حسّان بن قيس»، سمّي النابغة لأنه أقام ثلاثين سنة لا يقول الشعر، ثم نبغ فقاله، وكان ممن هجر الأوثان، ونهى عن الخمر، قبل ظهور الإسلام. وفد على النبي ﷺ فأسلم، وأدرك صفّين، فشهدها مع علي بن أبي طالب، ثم سكن الكوفة فسيّره معاوية مع أحد ولاتها إلى أصبهان فمات فيها وقد كُفّ بصره، وجاوز المائة. أخباره كثيرة. جمعت الآنسة مارية نلينو «Maria Nallino» ما وجدت من متفرّقات شعره في السيوطي مع ترجمة أيطالية وتحقيقات. للاستزادة يراجع: السيوطي في شرح شواهد المغني (٢٠٩). الأغاني طبعة الساسي (٤: ١٢٦ ـ ١٣٩). الإصابة (٣: ٣٧). الموشح (٦٤). القاموس المحيط، مادة: نبغ. أمالي المرتضى (١: ١٩٠). سمط اللآلي (٢٤٧). طبقات الشعراء (١٠٣).
(٥) بنو هلال: بطن من عامر بن صعصعة بن هوازن من العدنانية.
(٦) بنو أبان: بطن من بني أمية من قريش من العدنانية وهم بنو أبان بن عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية الأكبر.
(٧) هو أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، من قريش. جد الأمويين بالشام والأندلس، جاهلي، كان من سكان مكة. كانت له قيادة الحرب في قريش بعد أبيه. عاش إلى ما بعد مولد النبي ﷺ وكان هو وابن عمه عبد المطلب بن هاشم في من وفد على سيف بن ذي يزن في قصره «غمدان» بصنعاء لتهنئته بانتصاره على الحبشة. وروى له الأزرقي أبياتاً من الشعر في رحلته هذه. ووصفه دغفل النسّابة نقلاً عمن أدركه، قال: رأيت شيخاً قصيراً، نحيف الجسم، يقوده عبده ذكوان. للاستزادة يراجع: سبائك الذهب (٦٨). سمط اللآلي (٦٧٤). الأزرقي (١: ٦٦، ٩٢، ٩٦).
(٨) هو عبد المطلب بن هشام بن هاشم بن عبد مناف، أبو الحارث، زعيم قريش في الجاهلية، وأحد =

Marfat.com

النبي فولدت لأمية العاص وأبا العاص، وأبا العيص والعويص، وصفية، وتوبة، وأروى بني أمية وقد سموا بالأعياص وكانت دائماً تفتخر بهم، فلما مات تزوّجها بعده ابنه أبو عمرو، وكان أهل الجاهلية يفعلون ذلك يتزوج الرجل امرأة أبيه بعده فولدت له أبا معيط فكان بنو أمية من آمنة إخوة أبي معيط وعمومته.

وقيل: إن ابنها أبا العاص زوّجها أخاه أبا عمرو، وكان هذا نكاحاً تنكحه الجاهلية فأنزل الله تعالى تحريمه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢] فسمي نكاح المقت.

وكانت آمنة مسموعة الكلمة مطاعة عند قومها، وكانت موصوفة بالشجاعة والمَنَعة وطالما افتخرت على باقي العرب في عزها ورجالها.

آمنة الرملية رضي الله عنها

كانت من أهل القرن الثالث للهجرة، وكانت من الزاهدات العابدات المنقطعات للتبتل، وكان أكثر زهاد زمانها يتردّدون عليها، ويتبركون بها، وكان بشير بن الحارث ـ رضي الله عنه ـ يزورها. ومرض بشير مرة فعادته آمنة من الرملة فبينما هي عنده إذ دخل الإمام أحمد بن حنبل[1] ـ رضي الله تعالى عنه ـ يعوده كذلك فنظر إلى آمنة فقال لبشير: من هذه فقال له بشير:

= سادات العرب ومقدّميهم. مولده في المدينة سنة ١٢٧ ق. هـ/ ٥٠٠ م، نشأ بمكة. كان عاقلاً، ذا أناة ونجدة، فصيح اللسان، حاضر القلب، أحبّه قومه ورفعوا من شأنه، فكانت له السقاية والرفادة. هو جد رسول الله ﷺ. قيل: اسمه شيبة ولقبه عبد المطلب غلب على اسمه. وهو ممن وفد على الملك سيف بن ذي يزن في وجوه قريش يهنئونه بالنصر على الحبشة. وقيل: هو أول من خضّب بالسواد من العرب. كان أبيض مديد القامة، مات بمكة عن نحو ثمانين عاماً أو أكثر حوالي سنة ٤٥ ق. هـ/ ٥٧٩ م. للاستزادة يراجع: ابن الأثير (٢: ٤). الطبري ٢: ١٧٦). تاريخ الخميس (١: ٢٥٣). اليعقوبي (١: ٢٠٣). خلاصة تاريخ العرب (٣٩). سيرة ابن هشام (١: ٥٧). ملوك حمير (١٥٢ ـ ١٥٥).

(١) هو أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله، الشيباني الوائلي، إمام المذهب الحنبلي، وهو أحد الأئمة الأربعة. أصله من مرو، ولد ببغداد سنة ١٦٤ هـ/ ٧٨٠ م. كان أبوه والي سرخس. فنشأ منكبّاً على طلب العلم، وسافر في سبيله أسفاراً كبيرة إلى الكوفة، والبصرة، ومكة، والمدينة، واليمن، والشام وغيرها. كان أسمر اللون، حسن الوجه، طويل القامة، يلبس البياض، يخضّب رأسه ولحيته بالحناء. في أيامه دعا المأمون إلى القول بخلق القرآن ومات قبل أن يناظر ابن حنبل. تولى المعتصم بعد المأمون فسجن ابن جنبل ثمانية وعشرين شهراً لامتناعه عن القول بخلق القرآن. أطلق سنة ٢٢٠ هـ، ولم يصبه شرّ في زمن الواثق بالله. ولي بعده أخوه المتوكل بن المعتصم، فأكرم الإمام أحمد وقدّمه. =

Marfat.com

هذه آمنة الرملية بلغها مرضي فجاءت من الرملة تعودني فقال أحمد لبشير: فاسألها أن تدعو لنا فقال لها بشير: ادعي الله لنا. فقالت: اللهم إن بشير بن الحارث وأحمد بن حنبل يستجيران بك من النار فأجرهما يا أرحم الراحمين. قال الإمام أحمد: فلما كان من الليل رأيت فيما يرى النائم أن طرحت لي رقعة من الهواء مكتوب فيها: بسم الله الرحمٰن الرحيم قد فعلنا ذلك ولدينا مزيد رضي الله عنهم.

آن لويز جرمان ابنة الكونت نكر وزير مالية فرنسا

ولدت هذه الشهيرة بباريس سنة ١٧٦٦[م]، وتولّت أمها تعليمها ولكنها كانت تجهل مقتضيات التربية ومراعاة حال الأولاد من حيث مزاجهم وميلهم واتجاه عواطفهم، فشدّدت على ابنتها في التعليم، واتخذت الصرامة ديدناً في التربية والتأديب، فلذلك لم يعلق قلب ابنتها بها ولا كان لكلامها وقع قبول في نفسها، ومن جملة ما بين ذلك أنها كانت تحب اللعب بما يشبه التشخيص في المراسح، وتميل إلى ذلك ميلاً شديداً فتعمل ملوكاً وملكات من الورق، وتشخص لها مواقع من فكرتها، وتتكلم في التشخيص عنها. وكانت أمها تكره المراسح والتشخيص وتمنعها من اللعب بتلك الصور غير مراعية ميلها الشديد إلى ذلك فكانت ابنتها تختبئ وتلعب خفية عنها، ولا تكاشفها بشيء مما يخطر ببالها من ذلك.

وأما أبوها: فكان أوفر من أمها حكمة وأكثر معرفة في معاملة ابنته فيلاطفها ويمازحها ويحدّثها حتى تأنس إليه وتكشف له قلبها، وكان رجلاً عظيماً ووزيراً على مالية «[لويس][1] السادس عشر»[2] ملك فرنسا، مهيباً بعيد الصيت والسطوة والنفوذ يختلف إلى بيته عظماء فرنسا، وعلماؤها وشعراؤها، فكانت أمها تأتي بها وهي صغيرة السن إلى قاعة الاستقبال، وتجلسها على كرسي مستدير بجانبها وتوصيها من حين إلى حين بالجلوس مستقيمة لئلا تكون حدباء الظهر متى كبرت فتجلس هناك شاخصة إلى الزوّار وتلتقط كل كلمة تخرج من أفواههم وتصغي أتم الإصغاء إلى أحاديثهم، وتذوق معانيهم حتى يرى الناظر من علامات وجهها أنها

= ومكث مدة لا يولي أحداً إلا بمشورته، وتوفي الإمام أحمد بن حنبل وهو على تقدمه عند المتوكل. له مصنفات عدّة أشهرها: المسند وهو ستة مجلدات يحتوي على ثلاثين ألف حديث. للاستزادة يراجع: ابن عساكر (٢: ٢٨). حلية الأولياء (٩: ١٦١). صفة الصفوة (٢: ١٩٠) تاريخ بغداد (٤: ٤١٢). البداية والنهاية (١٠: ٣٢٥، ٣٤٣).

(١) وردت في الأصل: «لونيس»، ولعل الصحيح ما أثبتناه،

(٢) لويس السادس عشر: ملك من ملوك فرنسا وهو واحد من ثمانية عشر ملكاً من الملوك الفرنسيين الذين حملوا هذا الاسم «لويس». ولد في فرساي سنة ١٧٥٤ م، تزوج ماري أنطوانيت النمساوية. اندلعت الثورة الفرنسية في عهده. أعدم سنة ١٧٩٣ م.

Marfat.com

لا تدع فائدة تفوتها، وأنها تبتلع المعاني ابتلاعاً على صغر سنها، وكانوا كلهم يحدثونها كما يحدثون كبار السن ويباحثونها فيما تعلمته ويحدثونها على درس ما لم تتعلمه، فلم تكثر عليها السنون حتى بلغت قوى عقلها مبلغاً قلما تدركه العقول في سنها ولم تجئ عليها السنة الخامسة عشرة حتى شرعت في التأليف واشتدّ حبها للعلماء والعظماء فكان قلبها ينبض شديداً عند رؤيتهم، وصيتهم يستفزها إلى مجاراتهم ومسابقتهم، ولما بلغت عشرين سنة من عمرها شاع ذكرها في الآفاق، وانطلقت الألسنة بوصفها تزوجت بسفير أسوج في فرنسا واسمه «روستايل» سنة ١٧٨٦[م] فانفتح أمامها باب السياسة، وكانت في بداية عمرها تعتبر فلسفة «جان جاك روسو»[١] اعتباراً عظيماً.

ولما ابتدأت الثورة الفرنساوية وكان أبوها قد أنجد حزب الثائرين مالت إليها حاسبة أنها الطريقة الوحيدة لسعادة فرنسا ونعيمها، ولكن لما تفاقم خطبها ورأت فظائعها، وعلمت أن أحسن أهل وطنها يقتلون بها نفرت منها وجعلت همها تخليص الذين قد وقعوا في حبالها من الموت فسعت في نجاة العائلة الملكية وفرارها إلى بلاد الإنكليز، ولكنها خابت مسعى فعمدت إلى تخليص غيرهم وكانت كلما خلصت شخصاً لا تستريح حتى تخلص كل من يتعلق به من الأقرباء والأصدقاء وتخاطر بنفسها لخلاص غيرها مخاطرة أعظم الناس بأساً، واتفق أن الدول المتحالفة ضيقت على الحكومة الثورية سنة ١٧٩٢[م]، فقال رجال هذه الحكومة: لا نأمن على أنفسنا إن لم نقتل كل من له ضلع مع الملكية في باريس فاستباحوهم قتلاً ونهباً. وكان لمدام «روستايل» أصدقاء كثيرون بينهم فخلصت بواسطتهم حياة كثيرين وبقي رجل اسمه «دومونتسكيو»[٢] فعزمت على أن تخرج به من باريس كخادم لها فلقيها الثائرون في الطريق فأنزلوها من مركبها كرهاً وذهبوا بها إلى زعيمهم فاخترقت الصفوف مرتجفة والسيوف والبنادق قد سدّت الآفاق من حولها، ولو زلت قدمها لقتلت دوساً، ولكنها ثبتت على ضعفها ست ساعات تسمع صراخ القتلى وأنين المعذبين حتى أطلق سبيلها، فخرجت من فرنسا فرحة بأنها قد لقيت ما لقيت فداء نفس خلصتها من الموت، وكتبت كتاباً بليغاً في الدفاع عن الملكة

---

(١) جان جاك روسّو«Rausseau» : كاتب فرنسي وفيلسوف اجتماعي، ولد في جنيف سنة ١٧١٢ م. نادى بطبيعة الإنسان والعودة إلى الطبيعة. تأثّرت بمبادئه الثورة الفرنسية والأدب الرومنطيقي. من أشهر مؤلفاته: «العقد الاجتماعي»، «إميل»، «الأدب الرومنطيقي».

(٢) هو شارل دو مونتسكيو «Montesquieu»، ولد سنة ١٦٨٩ م، كاتب فرنسي له مؤلفات عدّة اجتماعية، وسياسية، أهمها: «روح الشرائع» الذي كان له تأثير كبير في تطور الدستور الفرنسي إبان الثورة. وله أيضاً «الرسائل الفارسية». توفي سنة ١٧٥٥ م.

Marfat.com

«ماري أنتوانت»[١]، ولكنه لم يأتِ بالفائدة المقصودة فجزعت على قتلها جزعاً شديداً.

وفي سنة ١٧٩٧[م]: عادت من سويسرا حيث كانت متوجهة إلى باريس فوقع الخلاف بينها وبين «نابليون بونابارت»[٢] لأنها أوجست منه السوء بعد تعرّفها به بقليل قالت: إني لما تعرفت به أعجبني خلقه وعقله وقلت: إنه قد انفرد بهما كما انفرد بنصراته[٣]، وإنه رجل معتدل الطباع من أهل الجدّ والوقار بعكس زعماء الثورة ذوي الطباع الصعبة الذين كانوا يحكمون قبله، ولكن لما هدأ الجأش من إعجابي به وعدت إلى نفسي شعرت بنفور عظيم منه لما وجدته فيه، فإنه كالسيف البارد الماضي يجمد جموداً على حين يجرح جرحاً، وعلمت أنه يحتقر الأمّة التي يريد أن يملّك عليها.

وجاهرت بمعاندته، فكنت ترى قاعتها غاصّة بجماهير النافرين من «بونابارت» الناقمين عليه، فأوجس «بونابارت» خيفة منها، وحاول أن يرشوها بالمال لترجع عن معاندته فوعدها بأن يدفع لها مليوني ليرة كانا لأبيها على الدولة فرفضت قبول تلك الرشوة. فقال لها «جوزف بونابارت»: «قولي إذاً ماذا تشتهين» قالت: «لا أشتهي شيئاً وإن سيري هذا طبق لما أعتقده».

وكانت تحب سكن باريس محبة شديدة وتخاف النفي منها جداً ولا تسرّ إلا بمعاشرة الأدباء محفوفة بأهل الفضل والأصدقاء. وكان «نابليون بونابارت» يعلم ذلك فلما رأى إصرارها على معاداته أبى إلا أن ينتقم منها، فنفاها إلى مدينة سويسرا ولم يسمح لها بالاستبعاد عن منزلها أكثر من ميلين وحرمها من العودة إلى باريس فكان ذلك عليها مصيبة لا تطاق فقضت باقي أيامها حزينة على فراق باريس، وتولت تربية أولادها فكانت تعلمهم أكثر النهار ولم تنقطع عن ذلك في أشد أيامها حزناً وكآبة، ولذلك كان أولادها يحبونها حباً عظيماً،

---

(١) ماري أنتوانيت: أو ماري أنطوانيت، وهي ابنة ماري تيريز إمبراطورة النمسا، ولدت سنة ١٧٥٥ م. تزوجت لويس السادس عشر ملك فرنسا سنة ١٧٧٠ م. دفعت زوجها إلى الوقوف في وجه الثورة. أعدمت سنة ١٧٩٣ م.

(٢) هو ناپوليون الأول «Napoleon»، ولد في أجاكسيو سنة ١٧٦٩ م، من أسرة بوناپرت. إمبراطور فرنسا من سنة ١٨٠٤ م إلى سنة ١٨١٥ م. اشتهر في حملة أيطاليا الأولى ١٧٩٤ م والثانية ١٧٩٦ م. قاد حملة على مصر سنة ١٧٩٨ ـ ١٧٩٩ م، فانتصر في معركة الأهرام. جلب من الڤاتيكان إلى مصر أول مطبعة عربية (بولاق). كان قنصل أول سنة ١٧٩٩ م، ثم قنصل مدى الحياة سنة ١٨٠٠ م. ربط الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية بالدولة (الكونكوردا ١٨٠١ م). نشر القانون المدني سنة ١٨٠٤ م سمّي إمبراطوراً سنة ١٨٠٤ م. عُزل سنة ١٨١٤ م. انزوى في جزيرة إلبا. عاد إلى باريس بعد شهور قليلة، فتحالفت أوروبا ضده، فهزم في معركة واترلو سنة ١٨١٥ م بعد حكم المائة يوم. نفي إلى جزيرة القديسة هيلانة حيث توفي سنة ١٨٢١ م.

(٣) لعل المقصود بها «بانتصاراته».

Marfat.com

ويخاطرون بأنفسهم دفاعاً عنها كما روى ذلك كثيرون من المؤرخين المشهورين، وقد اشتهرت مدام «روستايل» بمحامد كثيرة ظهر بعضها فيما مرَّ ونزيد عليه محبتها للحق والوقوف على حقائق الأمور ولذلك كانت تبذل جهدها في تعلم كل شيء ولو مهما كلفها من المشقة وكانت تقول:

«جهل الناس للحق والحقائق أكبر دليل على انحطاطهم». وقالت عن بونابارت: «إني علمت بانحطاطه منذ رأيته لا يهتم بحقائق الأمور».

وكانت تحب الموسيقى وتلهو بها عن أشغال التأليف، وتزيد السامعين طرباً بحلاوة صوتها، وكان لها ميل شديد إلى التشخيص، وموهبة عظيمة فيه فكانت تعرف كل المراسح الأجنبية جيداً، وتعلمت في كبرها اللغات التي فاتها تعلمها في صغرها ومن أقوالها: إن درس اصطلاحات اللغة أحسن المثقفات للعقل وأسهل السبل لمعرفة أخلاق أهلها. كما هي وأعظم ما اشتهرت به كتبها التي بلغ عددها ثمانية عشر مجلداً في كل فن مستظرف حتى سموها «فولتير النساء» لكثرة المباحث التي بحثت فيها وقد قضت مؤلفاتها ثلاث غايات من أسمى الغايات.

إحداها: توسيع علم الجمال عما كان في زمانها.

والثانية: مهاجمة فلاسفة فرنسا المؤدبين كـ«ديدرو»[1] و«دولباش» و«كندلاك» وغيرهم. مهاجمة عنيفة زعزعت أركان فلسفتهم.

والثالثة: بث روح الحرية في صدور قومها إذ أبانت لهم أن الحرية أعظم شرط لسلامة الآداب والديانة الصحيحة، وكانت فاضلة تقية ورعة غير مترفضة.

وماتت في ١٤ تموز (يوليو) سنة ١٨١٧[م] بعد أن جالت زماناً في النمسا وروسيا وأسوج وبلاد الإنكليز الذين كانت تعتبرهم اعتباراً عظيماً.

إيت كجُجُك ابنة السلطان أوزبك

قال ابن بطوطة[2] في «رحلته»: اسمها «إيت كجُجُك وإيت» (بكسر الهمزة وياء مد وتاء

---

(١) هو دنيس ديدرو «Diderot» ، ولد سنة ١٧١٣ م وهو فيلسوف فرنسي نشر مبادئ الإلحاد والفلسفة العقلانيّة في القرن الثامن عشر. أسّس «الإنسيكلوبيديا» وأشرف على إصدارها.

(٢) ابن بطوطة: هو محمد بن عبد الله بن محمد إبراهيم اللواثي الطنجي أبو عبد الله، رحّالة، مؤرّخ. ولد سنة ٧٠٣ هـ/ ١٣٠٤ م، في طنجة ونشأ فيها بالمغرب الأقصى. خرج منها سنة ٧٢٥ هـ، طاف في بلاد المغرب، ومصر، والشام، والحجاز، والعراق، وفارس، واليمن، والبحرين، وتركستان، وما وراء النهر، وبعض الهند، والصين، والجاوة، وبلاد التتر، وأواسط إفريقيا. اتّصل بكثير من الملوك =

Marfat.com

مثناة، وكجُجُك بضم الكاف وضم الجيمين). وقال: إنه لما كان عند السلطان «أوزبك» طلب منه أن يزور نساءه وبناته وخواص مملكته على حسب عادة أهل ذلك الزمان فأذن له وكان من ضمن بناته «كجُجُك» هذه قال: إنه لما توجه إلى هذه الخاتون وهي في محلة منفردة على نحو ستة أميال عن محلة والدها أمرت بإحضار الفقهاء والقضاة والسيد الشريف ابن عبد الحميد، وجماعة الطلبة، والمشايخ، والفقراء، وحضر زوجها الأمير عيسى فقعد معها على فراش واحد وهو معتل بالنقرس[1] لا يستطيع السعي على قدميه، ولا ركوب الفرس، وإنما يركب العربة، وإذا أراد الدخول على السلطان أنزله خدمه وأدخلوه إلى المجلس محمولاً ورأى من هذه الخاتون ابنة السلطان من المكارم وحسن الأخلاق ما لم يَره من سواها، وأجزلت له الإحسان وأفضلت، وأما معارفها وعلومها وكرمها فلم يضاهها فيها أحد سواها من نساء زمانها.

أتالانتا ابنة شيني ملك سكروس (مملكة يونانية)

كانت شديدة الكلف بالصيد، فاكتسبت من ذلك سرعة في العدو لا مزيد عليها حتى إنه لم يكن لأحد من الرجال الأقوياء السريعي الجري أن يجاريها في الميدان، وقتلت بالنشاب حيتين كبيرتين تبعاها ليقتلاها وكانت ذات جمال باهر فتان فطلبها كثيرون للاقتران بها وألحوا عليها فأقسمت أن لا تقترن إلا بالذي يسبقها في الميدان بشرط أن يكون عارياً من السلاح، ويكون بيدها حربة تضربه بها إذا أدركته فهلك بمسابقتها كثيرون من طلابها وأتاها «إبومان»، وكان من المقربين عند الكهنة والفائزين بوقايتها فتسابقا ولما وصلا إلى نصف الميدان أخذ «إبومان» ثلاث تفاحات من ذهب كانت قد أعطته إياها الكهنة المذكورون، فرماها على الأرض بعياقة ولياقة، فتشاغلت «أتالانتا» بها فتمكن من سبقها، وتقرر له الفوز فاقترن بها، وبعد ذلك غضب عليهما الكهنة لأنهما دلسا هيكل الزهرة فقتلوهما.

وقد قيل في «أتالانتا» هذه غير ذلك، وهو أنها ولدت في «أركاديا» وأنها ابنة «باسيوس» كان أبوها قد طلب إلى معبوداته أن ترزقه ولداً ذكراً فولدت «أتالانتا» فاغتاظ من ولادتها

= والأمراء، فمدحهم واستعان بهباتهم على أسفاره. عاد إلى المغرب الأقصى، فانقطع إلى السلطان أبي عنان «من ملوك بني رين». فأقام في بلاده. أملى أخباره على محمد بن جزيّ الكلبي بمدينة فاس سنة ٧٥٦ هـ وسمّاها: «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار». كان يحسن التركية والفارسية. استغرقت رحلته ٢٧ عاماً من سنة ١٣٢٥ م ـ ١٣٥٢ م. مات في مراكش سنة ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧ م. للاستزادة يراجع: الدرر الكامنة (٣: ٤٨٠). الرحالة المسلمون (١٧٦ ـ ١٧١).

(١) النقرس: داء معروف يأخذ في الرِجْل وهو ورم يحصل في مفاصل القدم وإبهامها ويسمّى داء الملوك. [القاموس المحيط، مادة: النقرس].

Marfat.com

وألقاها على الجبل البرتنباني فرضعت من دبة وأخذت تنمو حتى بلغت مبلغ النساء، وحافظت على بكارتها، وصارت أسرع الناس جرياً على قدميها، فغلبت الحيتين المقدَّم ذكرهما واشتركت مع الأبطال في قتل خنزير كالبدون وكان لها مواقع في الألعاب البليانية ثم رضي عنها أبوها وألح عليها بأن تتزوج، فكان من أمرها ما تقدم. ولعلّ الرواية الأولى أصح.

أديسا ابنة أدغر ملك إنكلترا

ولدت سنة ٩٦١ للميلاد ربتها أمها في «دير ولتون» بالقرب من «سلزيري»، ولما كانت السنة الخامسة عشرة من عمرها صارت راهبة، وبعد ذلك بثلاث سنين قتل أخوها «إدوارد» الذي خلف أباها، وذلك بأمر رايته «ألفريدا» فعرض عليها تاج الملك فرفضته باتضاع مسيحي وآثرت تخصيص نفسها لتقرية[١] الفقراء والأيتام على تخت الملك، وصرفت أيامها في ذلك إلى أن توفيت سنة ٩٨٤[م]، ودفنت في كنيسة «سان دنيس» التي بنتها في حياتها وتعتبرها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. ولها عندها تذكار في ١٦ أيلول (سبتمبر) من كل سنة.

إديلينه ديباتي المغنية

إن هذه المغنية كانت تربت من صغرها في المراسح وتخرجت بضروب الغناء، وساعدها الحظ بحسن صوتها وجمالها الذي جذب إليها الأنظار ولما آنست رشدها بلغت من الشهرة ما لم يبلغه غيرها من مغنيات الإفرنج وزادت شُهرة في بلادها على شهرة مغنيات الخلفاء في مدة العباسيين والأمويين، ونالت من الثروة ما يبلغ دخله السنوي المليون فرنك، وقد حازت جملة «نياشين»[٢] افتخار من ملوك أوروبا وملكاتها والذي زاد افتخارها تشرف ملوك أوروبا بوضع إمضاءاتهم على مروحتها لأنها كانت تحمل مروحة فريدة في نوعها وبلا مثيل في العالم فإن جميع الملوك والمعاصرين لها كتبوا عليها بخط أيديهم أقوالاً مختلفة تتضمن الثناء عليها والرضا عنها، فكتب القيصر الروسي: «لا شيء يسكن مثل غنائك». وكتب إمبراطور ألمانيا: «إلى بلبل جميع الأزمان» وكتبت الملكة «خرستيان» في إسبانيا: «ملكة تفتخر بأن تحسبك في جملة رعاياها». وكتبت «فكتوريا»[٣] ملكة إنكلترا: «إذا صدقت كلمات الملك ليار القائل: «إن الصوت العذب موهبة» تكونين أنت يا عزيزتي إديلنه أغنى

---

(١) التقرية: إكرام الضيف وتقديم الضيافة. [القاموس، مادة: قَرَي].
(٢) نياشين: لفظة عامية معناها الأوسمة.
(٣) فكتوريا (Victoria): ملكة إنكلترا سنة ١٨٣٧ م وإمبراطورة الهند سنة ١٨٧٦ م. عملت على تقارب إنكلترا وفرنسا. خلفها ابنها إدوار السابع. ولدت عام ١٨١٩ م، وتوفيت سنة ١٩٠١ م.

Marfat.com

النساء». والإمبراطور النمساوي والملكة «إيزابلا»[١] وضعا إمضاءهما أيضاً وكتبت ملكة البلجيك صورة المشرع الأول للأغنية الشهيرة، ثم يوجد في وسط المروحة هذه الكلمات: «أمد إليك يدي يا مليكة الطرب» مذيلة بهذا الإمضاء «بترس» رئيس الجمهورية الفرنساوية إن هذا الافتخار وهذا الاعتبار لم ينله أحد في العالم وما ذلك إلا لحسن الآداب من هذه المرأة التي بها جذبت إليها قلوب أكبر أهل الأرض.

أرجى ابنة أدرستوس

هي زوجة «بوليلينكيوس» اشتهرت بمحبتها لزوجها فإنها بعد انهزام الرؤساء السبعة أمام «طيوه» عاصمة المصريين القدماء ذهبت مع «انتيقونه» امرأة أخيها لتقدم لزوجها الواجبات الأخيرة فقتلت بأمر «كريون» ملك ذاك الزمان وماتت صابرة حباً في زوجها لكي تلحقه في حفرته.

أرّاكة ملكة قسطيلة[٢]

هي بكر «ألفونس السادس»[٣] وأخت «بتريسة» زوجة ملك البرتوغال تزوجت أوّلاً بـ«ريمون البرغوني» الذي جعله «ألفونس السادس» كونت جيليقة[٤]، ثم تزوجت سنة ١١٠٩ [م] «بألفونس لوبانلبود» ملك «نواره» و«أراغون»[٥] ثم كرهها زوجها هذا لابتذال الحرية في سلوكها وعنادها في طلب حقوق الملك إرثاً عن أبيها «ألفونس السادس»، ثم خلعت نائب ملك قسطيلة بواسطة زوجها الذي اتخذ له حزباً قوياً هناك فأسرت وحجز عليها في «أراغون»، لكنها فرّت من السجن وطلبت إلى الكرسي فسخ عقد زوجيتها، فصالحها «ألفونس» مؤقتاً، ثم طلقها ثانياً سنة ١١١١ [م] فلجأت إلى محاربته لتطرده من مملكتها

---

(١) إيزابيلا: الملقبة بالكاثوليكية، ملكة قشتالة ولدت عام ١٥٤١ م تزوجت بفرديناند ملك أراغون فوحّدا الدولة الإسبانية واحتلا غرناطة ١٤٩٢ م. مدّت كولمبس بالسفن في رحلته لاكتشاف أميركا.

(٢) قسطيلة: أوقسطيلية أو قشتالة مدينة بالأندلس وهي حاضرة نحو كورة البيرة كثيرة الأشجار متدفّقة الأنهار تشبه دمشق. معجم البلدان ج ٤/ص ٣٩٦.

(٣) ألفونس: اسم حمله عدد من ملوك إسبانيا والبرتغال وألفونس السادس حاكم من الحكام، والد ألفونس الثامن.

(٤) جيلقية: أو غليثيا (Galicia)، منطقة في شمال غربي إسبانيا، على الأطلسي. نالت الاستقلال الذاتي ١٩٨٠ م.

(٥) أراغون (Aragon): منطقة في شمال شرقي إسبانيا عدد سكانها ١,٢١٣,٠٠٠ نسمة، عاصمتها سرقسطة. تزوج ملكها فرديناند بإيزابيلا ملكة قشتالة فاتّحدت الدولتان ونشأت مملكة إسبانيا سنة ١٤٧٩ م.

Marfat.com

فانكسرت ومضت إلى جيليقة وكان لها من زوجها الأول ولدٌ «ألفونس الثامن»[١] فنادت باسمه ملكاً سنة ١١١٢ [م]، وحكمت باسم محبوبها كونت «لاراه» في سنة ١١١٢ [م] فخلعه كبار قسطيلة ونادوا باسم «ألفونس الثامن» فلم تقبل ذلك أرّاكة إلا بعد معاركة انتشبت بينها وبين ابنها فأسرت وحجز عليها في دير «سردتها» فماتت فيه بعد أربع سنوات.

أريا الرومانية

قد اشتهرت بشجاعتها وذلك أن ابن زوجها دخل في مؤامرة ضد الإمبراطور فحكم عليه بأن يقتل نفسه فلكي تشجعه أخذت خنجراً وطعنت به نفسها، ثم ناولته إياه وقالت: خذه فإنه لا يؤلم ففعل مثلها وماتا معاً.

فهذه لعمري هي المحبة الزائدة التي تفضي إلى الهلاك من جنس النساء خصوصاً.

أرسلان خاتون[٢]

هي خديجة ابنة داود أخي السلطان «طغرلبك»[٣] السلجوقي تزوّجها الخليفة القائم بأمر الله[٤] العباسي سنة ٤٤٨ هجرية، ثم لما وقعت الوحشة بينهما أخذها «طغرلبك» بصحبته إلى الري سنة ٤٥٥ [هـ]، ثم أعيدت إلى بغداد سنة ٤٥٩ [هـ] واستقبلها الوزير فخر الدولة بن جهير على بعد فرسخ.

وهي التي دعتها امرأة السلطان ملك شاه في تزويج ابنتها بالخليفة المقتدي[٥] من غير

---

(١) ألفونس الثامن: ملك قشتالة من سنة ١١٥٨ م حتى سنة ١٢١٤ م. انتصر على الموحّدين في لاس نافاز دي تولوزا سنة ١٢١٢ م.

(٢) خاتون: المرأة الشريفة، والعرب يلقبون بها نساء الملوك وهي لفظة تترية [المنجد في اللغة والأعلام، مادة: الخاتون].

(٣) طغرلبك: ابن ميكائيل المتوفى سنة ١٠٦٣ م هو مؤسس سلالة السلاجقة. قضى على البويهيين ودخل بغداد سنة ١٠٥٥ م فخلع عليه القائم العباسي لقب السلطان وملك الشرق والغرب. قضى على البساسيري وأعاد الخطابة للخليفة العباسي سنة ١٠٦٠ م.

(٤) القائم بأمر الله: هو عبد الله بن أحمد القادر بالله ابن الأمير إسحاق بن المقتدر العباسي، أبو جعفر، القائم بأمر الله، ولد سنة ٣٩١ هـ/١٠٠١م. ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٤٢٢ هـ بعهد منه. كان ورعاً، عادلاً كثير الرفق بالرعية. له فضل، وعناية بالأدب والإنشاء. وفي أيامه كانت فتنة البساسيري سنة ٤٥٠ هـ. ورد في تاريخ ابن الأثير: « أن أمه أرمنية». للاستزادة يراجع: ابن الأثير حوادث سنة ٤٢٢ ـ ٤٦٧. سير أعلام النبلاء المجلد ١٥.

(٥) المقتدي: أو المقتدي بأمر الله، عبد الله بن محمد بن القائم بن المقتدر، أبو القاسم. من خلفاء الدولة العباسية. ولد في بغداد سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م. عهد إليه بالخلافة جده القائم بأمر الله، لقبه المقتدي =

Marfat.com

اشتراط المهر لأنها كانت تعززت واشترطت حمل مهرها أربعمائة ألف دينار، فأشارت عليها أرسلان خاتون بأن تزوجها له بدون اشتراط مهر فوثقت بكلامها، وفعلت ما أرادت وكانت المترجَمة من النساء الكريمات الخيرات محبة للعلماء ولها جملة أوقاف على محلات خيرية مثل جوامع وتكايا وبيمارستانات(١) ومدارس وخلافها في بغداد وغيرها من الممالك الإسلامية.

أرسولا العذراء

هي من الكنيسة الرومانية الكاثوليكية قيل: إنها ابنة أمير مسيحي من بريطانيا، وقد اختلفوا في تاريخ استشهادها فقيل: سنة ٢٣٧ بعد الميلاد. وقيل: سنة ٣٨٣ [م]. وقيل: سنة ٥٤١ [م]. وسبب ذلك قيل: إن أميراً طلب أن يتزوجها فأجابته في الظاهر خوفاً على بيت أبيها من شرّه، لكنها اشترطت أن يعطيها فرصة ثلاث سنوات وإحدى عشرة سفينة وعشر رفيقات من بنات الأشراف، ولها ولكل واحدة منهن ١٠٠٠ عذراء فلما أعطيت ذلك أخذت تدرس معهن فن سلك البحار، ولما دنا وقت زفافها تضرعن إلى الله فأرسل فجأة عاصفة قذفت سفنها إلى مصب نهر «الرين»(٢) ومن هناك إلى «بازل»(٣) فتركن السفن ومضين ماشيات إلى رومية وبينما هن راجعات صادفن في «كولونيا» جيشاً من الهوتيين(٤)، فلما رآهن أمير الجيش دعاهن إليه فلما حضرن أعجبته «أرسولا» فطلب أن يقترن بها فأبت عليه، فأمر بقتلهن جميعاً وتركوهن وانصرفوا، فوارى أهل «كولونيا» أشلاءهن في التراب وأقيم لتذكارهن بعد ذلك معبد مخصوص إلى الآن يوجد في ذلك المعبد مجموع عظام يقال: إنها عظام «أرسولا» ورفيقاتها وجعل «لأرسولا» عيد في ٢١ ت الأول (أكتوبر) من كل سنة.

= فوليها بعد وفاته سنة ٤٦٧ هـ، وعمره ثمانية عشر عاماً، فانصرف إلى عمران بغداد. أمر بنفي المغنيّات والمفسدات، وقلع أبراج الطيور، ومنع إجراء ماء الحمامات إلى دجلة، وألزم أربابها بحفر آبار للمياه. ومنع الملاحين أن يحملوا في زوارقهم الرجال والنساء مجتمعين. كان عالي الهمة. له علم بالأدب والشعر وأيامه خير وسعة واطمئنان. مات فجأة في بغداد سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م.

(١) البيمارستان: محل مُعَدّ لمعالجة المرضى وإقامتهم. ويُعرف بالمستشفى وهو لفظ فارسي الأصل. [المنجد في اللغة والأعلام، مادة: بيم].

(٢) الرين: نهر في شمالي سويسرا.

(٣) بازل، أو بال (Basel) : مدينة في شمالي سويسرا على الرين يبلغ عدد سكانها ٣٦٥٠٠٠ نسمة عقد فيها مَجْمع مسكوني سنة ٤٣١ م، ثم نقل إلى فلورنسا معاهدة بين فرنسا وكل من پروسيا وإسبانيا سنة ١٧٩٥ م فيها مرفأ نهري، ومركز صناعي، ومتاحف غنية.

(٤) الهوتيين: المخنّثين. [القاموس الحميط ، مادة: هَيَّت].

Marfat.com

أرسينوي ابنة بطليموس[١] الأول ملك مصر

تزوّجت بـ«ليسيماخوس»[٢] ملك تراقة[٣] بعد أن طلق امرأته لأجلها فحاولت «أرسينوي»[٤] أن يكون الملك لولدها بعده فسعت بقتل «أغاتوكليس» ابن زوجها، وهربت امرأته بأولادها إلى سوريا ملتجئة إلى «سلوقس»[٥]، وطلبت إليه أن يأخذ بثأرها فنشأت عند ذلك حرب بين ملك تراقة وملك سوريا قتل بها «ليسيماخوس» سنة ٢٨١ قبل الميلاد فمضت «أرسينوي» إلى «كسندريه» من مدن «مكدونية»[٦] وبقيت هي وأولادها مدة تحت ظل الأمان.

فلما قتل «بطليموس» «سيروتوس[٧] سلوقس» واستولى على «مكدونية» سنة ٢٨٠ ق.م طمعاً في الزواج بـ«أرسينوي» ليقتل أولاد «ليسيماخوس».

فلما أجابته إلى الزواج واستولى على كسندرية قتل الأولاد بين يدي أمهم فهربت هي إلى تراقة ومنها إلى مصر فقبلها «بطليموس فلاذ»[٨] بالإكرام ثم تزوج بها.

---

(١) بطليموس: اسم أطلق على ملوك مصر الهلنستيين المعروفين بالبطالسة أو اللاجيين (٣٠٦ ـ ٣٠ ق . م) وعددهم ١٦. أشهرهم: بطليموس الأول وهو سوتير المخلّص (٣٦٠ ـ ٢٨٣ ق . م) ابن لاغس ومؤسس السلالة، من قوّاد الإسكندر الكبير. جعل الإسكندرية عاصمته وأسس فيها خزانة للكتب.

(٢) ليسيماخوس، أو ليسماخس (Lusimakhos): أحد قوّاد الإسكندر، ملك تراقيا ثم مقدونيا، قتله سلوقس الأول سنة ٢٨١ ق . م.

(٣) تراقة، أو تراقيا (Thrakê): منطقة قديمة في جنوب شرقي أوروبا، هي اليوم قسمان: غربي يتبع اليونان، وشرقي يكوّن القطاع الأوروبي من تركيا بين المضايق وبحر مرمرة، أهم مدنه إستنبول على البوسفور والقرن الذهبي.

(٤) أرسينوي، أو أرسينوه: وهو اسم أربع أميرات من البطالسة، أشهرهن أرسينوى الثانية (٣١٦ ـ ٢٧٠ ق . م).

(٥) سَلوقس: اسم ستة من ملوك سوريا السلوقيّين. وهو نيكاتور (٣٠٥ ـ ٢٨٠ ق . م). مؤسس السلالة، من قادة الإسكندر، أسس إنطاكية على العاصي. ملك البلاد ما بين الفرات والهندوس وسوريا وآسيا الصغرى. قتله ليسيماخوس سنة ٢٨٠ ق . م.

(٦) مكدونية، أو مقدونيا: منطقة قديمة في شبه جزيرة البلقان سيطرت على اليونان في عهد فيلبس الثاني والد الإسكندر الكبير (٣٥٦ ـ ٣٣٦ ق . م). حكمها الأنتيغونيون (٢٧٦ ـ ١٦٨ ق . م) وأخضعها الرومان بعد معركة پيدنا تتقاسمها اليوم بلغاريا، واليونان، قاعدتها تسالونيكي، وجمهورية مقدونيا، عاصمتها سكوپيا. أصبحت عضواً في الأمم المتحدة سنة ١٩٩٣ م.

(٧) لعل المقصود هو نيكاتور (٣٠٥ ـ ٢٨٠ ق . م) لأن الفترة الزمنية التي تحدثت عنها المؤلفة لا تنطبق على الفترة التي عاشها سيروتوس.

(٨) بطليموس فيلاذ، أو فيلادلِفُس (٢٨٣ ـ ٢٤٦ ق . م) حامي الفنون والآداب، أنشأ مكتبات ومتاحف، =

Marfat.com

أرسينوي ابنة بطليموس أقلية وأخت كليوباترا الشهيرة[١]

أقامها الإسكندريون ملكة بعد أن أسر القيصر الروماني أخاها «بطليموس دنيسبيوس» سنة ٤٧ قبل الميلاد، ثم وقعت هي أيضاً في قبضة القيصر المذكور سنة ٤٦ ق.م فأرسلها إلى رومية افتخاراً بأسرها غير أن حسن سلوكها مال بالرومانيين إليها فأرجعت إلى مصر، ولما هربت من وجه أختها «كليوباترا» إلى هيكل «ديانا»[٢] أخرجها منه «أنطونيوس»[٣] بأمر «كليوباترا» وقتلها في سنة ٤١ قبل الميلاد.

أرسينوي ابنة بطليموس أقرجيه

تزوج بها أخوها «فيلوباتر»[٤] ورافقته في حربه مع «أنطيوخوس الكبير»[٥] سنة ٢١٧ [قبل الميلاد][٦]، وبعد سنين قليلة قتلها «فيلمون» أحد خواص الملك فنهض أصحابها وقتلوه بثأرها مع كل عائلته، و«أرسينوي» هذه هي أم «بطليموس أبيفانوس فيلوباتر»[٧] قد اشتهرت بحسن سياستها وخبرتها بالأحكام وخصوصاً في الفنون الحربية، ولذلك كان زوجها دائماً يرافقها في غزواته، وقد انتصر على أعدائه جملة مراراً وكل ذلك بآرائها الصائبة.

= وترك آثاراً عمرانية أهمها منارة الإسكندرية. إلى عهده تعود ترجمة التوراة السبعينية.

(١) سترد ترجمتها في حرف الكاف.

(٢) ديانا (Diana): إلٰهة الصيد عند الرومان، هي أرطميس اليونان.

(٣) انطونيوس: هو أنطونيوس مرقس (٨٣ ـ ٣٠ ق . م) قائد روماني فتنته كليوباترا ملكة مصر. انهزم في وقعة أكسيوم البحرية ٣١ ق . م. انتصر في حصار الإسكندرية.

(٤) فيلوباتر: (٢٢١ ـ ٢٠٣ ق . م) هزم أنطيوخوس الثالث في معركة رافيا (رفح) سنة ٢١٧ ق . م.

(٥) أنطويوخوس: اسم حمله ثلاثة عشر ملكاً من السلوقيين في سوريا أنطيوخوس الكبير (٢٢٣ ـ ١٨٧ ق . م) انتصر عليه بطليموس فيلوباتر الرابع في رافيا (رفح) سنة (٢١٧ ق . م) غزا الهند (٢١٢ ـ ٢٠٥ ق . م) انتصر على بطليموس الخامس في پانيون (بانياس) سنة ٢٠٠ ق . م. فثأر لنفسه وانتزع سوريا الجوفاء من البطالسة نزل هنيبعل في بلاطه سنة ١٩٦ ق . م. انتصر عليه سقيپيون في مغنيسيا ١٨٩ ق . م. مما أدّى إلى عقد معاهدة أفامية سنة ١٨٨ ق . م.

(٦) وردت في اوصل : «ميلادية»، لكن سياق الكلام والفترة الزمنية التي عاشت فيها مع «فيلوباتر» و«أنطيوخوس» كانت ما قبل الميلاد. ولعل الصحيح ما أثبتناه.

(٧) بطليموس أبيفانوس فيلوباتر (٢٠٣ ـ ١٨١ ق . م) انتصر عليه أنطوخوس الثالث في معركة «پانيون» (بانياس) سنة ٢٠٠ ق . م. وانتزع منه سورية وفلسطين، فانهارت إمبراطورية البطالسة اللاجيين، وأصبح ملوكها خاضعين لروما وتابعين لسلطتها. آخر ملوكها بطليموس السادس عشر «قيصرون»، ابن قيصر وكليوباترا. أعدمهن أوكتافيانس (أغسطس) بعد معركة أكسيوم سنة ٣٠ ق . م.

Marfat.com

أريانو ابنة منيوس ملك أكريت

هي ابنة «منيوس»[١] من زوجته «باسيفا»[٢] قال: «أوميروس»[٣] أحبت «تيسيوس» لما أتى «أكريت»[٤] لمقابلة «فيوتود» مع الأتيينين الذين أتوا ليقدّموا له الجزية وأعطته ربطة من الخيطان استعان بها على الخروج من البربي التي دخلها لقتل «مينوثور» فعرض عليها «تيسيوس» أن يتزوجها مقابلة لها على صنيعها فأجابته «أريانو» إلى ذلك وسافرت معه إلا أنهما لما وصلا إلى جزيرة «نكسوس» تركها «تيسيوس» ورجع إلى بلاده قائلاً: «إن التي لم يكن لها خير في وطنها وأهله لم يكن لها خير في غيره» وبقيت هناك إلى أن ماتت جوعاً.

أريانو ابنة لاون[٥] ملك اليونان

تزوجت «زينون»[٦] الذي جلس على تخت الملك سنة ٤٧٤ للميلاد وساءها ما بدا من فواحش زوجها وخطئه ويقال: إنها دفنته في الأرض حياً وهو سكران، وتزوجت «أنسطاس»[٧] وأجلسته على تخت الملك بدلاً عنه، وكانت وفاتها سنة ٥١٥ للميلاد ولها جملة مآثر في مملكتها.

---

(١) منيوس أو مينوس (Minos): ملك كريت الأسطوري، ديّان الجحيم. زوج باسيفاييه، والد أريانا أو أريانو، وفيدر. حبس الغول مينوتور في متاهة متشعّبة التلافيف.

(٢) باسيفا: أو باسيفاييه (Pasiphae): زوجة منيوس أو مينوس ملك كريت ووالدة أريانو (أريانا)، وفيدر، ومينوتور.

(٣) أوميروس: أو هوميروس (Homeros) عاش في القرن التاسع ق . م ولد في آسيا الصغرى. شاعر ملحمي يوناني. قيل: إنه كان أعمى. نسب إليه المؤرخون اليونانيون أشعار الإلياذة والأوذيسة والأغاني الهوميرية التي أثرت تأثيراً عميقاً على مستقبل الشعر اليوناني.

(٤) أكريت: أو كريت أو أقريطش قديما (Kriti)، هي جزيرة يونانية في المتوسّط ٨٣٣٦ كلم٢، ٥٢٠٠٠٠ نسمة من مدنها خانيا، وهيراكليون، وكنوسوس. تجتازها سلسلة جبال عالية موازية للساحل الجنوبي، أعلى قممها إيدا ٢٤٥٦ م. مشهورة بـ: الزيتون والزيت وخمور، سياحة من مراكز الحضارة في العالم القديم بلغت أوج ازدهارها في الألف الثاني ق . م. أخذت بالانحطاط بعد القرن الخامس الميلادي. تنازعها العرب والبيزنطيون، احتلها العثمانيون في القرن السابع عشر. استعادتها اليونان سنة ١٩١٣ م.

(٥) لاوُن: اسم ستة أباطرة بيزنطيين وهو من ردّ عن القسطنطينية حملة مَسْلَمة بن عبد الملك.

(٦) زينون (Zenon): إمبراطور بيزنطي (٤٧٤ ـ ٤٩١ م). حاول التوفيق بين القائلين بالطبيعة الواحدة، والرأي الكاثوليكي، فأصدر سنة ٤٨٢ م قرار التوحيد «هينوتيكون» الذي أدى إلى خلاف مع روما دام ٣٥ سنة.

(٧) أنسطاس: أو أنستازيوس الأول، إمبراطور بيزنطي ٤٩١ ـ ٥١٨م. مال إلى المونوفيزية. بنى سور القسطنطينية.

Marfat.com

أُزْدوجا خاتون زوجة السلطان أوزبك

اسمها «أُزْدوجا» (بضم الهمزة وإسكان الراء، وضم الدال المهملة، وجيم وألف) وأورد: بلسانهم المحلة، وسميت بذلك لولادتها في المحلة، وهي ابنة الأمير الكبير «عيسى» بيك أمير الألوس (بضم الهمزة واللام) ومعناه أمير الأمراء.

قال ابن بطوطة في «رحلته»: لما مررت بتلك البلاد وزرت السلطان أوزبك وامرؤته ووزراءه وكان ذلك الأمير حياً وهو متزوج ببنت السلطان «آيت كجُجُك» وابنة «أُزْدوجا خاتون» من أفضل الخواتين وألطفهن شمائل، وأشفقهن وهي التي بعثت إليّ لما رأت بيتي على التل عند جوار المحلة، ولما دخلنا عليها رأينا من حسن خلقها وكرم نفسها ما لا مزيد عليه وأمرت بالطعام فأكلنا بين يديها ودعت بالشراب فشرب أصحابنا وسألت عن حالنا فأجبناها، وانصرفنا من عندها ونحن شاكرون معروفها.

ولها مآثر وخيرات دارّة على مساجد وتكايا ومدارس في بلادها وكانت مقرّبة عند السلطان لتقرب أبيها منه ومسموعة الكلمة عنده.

أروجا ملكة كيلوكرى في بلاد طوالس

هذه الملكة بنت ملك «طوالس» وهي بلاد واسعة مجاورة لبلاد الصين كان أبوها يفتح الفتوحات ويضع فيها من يشاء من أولاده، ولما فتح «كيلوكرى» وضع ابنته «أورجا» لعلمها بالسياسة وشجاعتها بالحرب وإقدامها على الأهوال.

قال ابن بطوطة في «رحلته»: «لما وصلنا إلى «كيلوكرى» ورسينا بميناها استدعت هذه الملكة الناخورة (أي القبودان)[1] صاحب المركب والكواني ـ وهو الكاتب ـ والتجار والرؤساء والتندبل ـ وهو مقدم الرجال ـ وسياه مالار ـ وهو مقدم الرماة ـ لضيافة صنعتها لهم على عادتها، ورغب الناخورة مني أن أحضر معهم فأبيت الذهاب.

فلما حضروا عندها قالت لهم: هل بقي أحد منكم لم يحضر فقال لها الناخورة: لم يبق إلا رجل واحد بَخْشي وهو القاضي بلسانهم (وبخشي بفتح الباء الموحدة وسكون الخاء وكسر الشين المعجمتين) وهو لا يأكل طعامكم فقالت: ادعوه، فجاء جنادرتها[2] وأصحاب

---

(١) القبودان: لعل المقصود بها اللفظ العامي «الربّان السفينة»، وربما كانت تحريف لفظة قبطان (Captin).

(٢) جاندرتها: رجال الملكة وربما المقصود فيها «الشرطة» ولعل هذه اللفظة هي المقصود فيها اللفظ التركي «الجندرمة»(Gendarmerie).

Marfat.com

الناخورة فقالوا: أجب الملكة. فأتيتها وهي بمجلسها الأعظم وبين يديها نسوة بأيديهن الأزمَّة يعرضن ذلك عليها، وحولها النساء القواعد وهن وزيراتها، وقد جلسن تحت السرير على كراسي الصندل وعليه صفائح الذهب، وبالمجلس مساطب خشب منقوش، وعليها [أوانٍ][1] ذهب كثيرة من كبار وصغار كالخوابي والقلال واليواقيل، أخبرني الناخورة أنها مملوءة بشراب مصنوع من السكر مخلوط بالأفاويه يشربونه بعد الطعام وأنه عطر الرائحة حلو المطعم يفرّح ويطيب النكهة، ويهضم.

فلما سلمت على الملكة قالت لي بالتركية: ـ ما معناه ـ: كيف حالك، كيف أنت؟ وأجلستني بالقرب منها، وكانت تحسن الكتابة العربية فقالت لبعض خدمها: آتني دواة وقرطاساً فأتى بذلك، فكتبت:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

فقالت: ما هذا؟ فقلت لها: تنضري تنكرى نام (وتنضري بفتح التاء الفوقية وسكون النون وفتح الضاد وراء وياء) ونام (بنون وألف وميم) ومعنى ذلك اسم الله فقالت: جيد، ثم سألتني من أيّ البلاد قدمت فقلت لها: من بلاد الهند. فقالت: بلاد الفلفل؟ فقلت: نعم، فسألتني عن تلك البلاد وأخبارها، فأجبتها. فقالت: لا بد أن أغزوها وآخذها لنفسي فإني يعجبني كثرة مالها وعساكرها. فقلت لها: افعلي، وأمرت لي بأثواب وحمل فيلين من الأرز وبجاموستين، وعشرين من الضأن، وأربعة أرطال جلاب، وأربعة مرطبانات وهي ضخمة مملوءة بالزنجبيل والفلفل والليمون والضبا، كل ذلك مملوح مما يعدّ للبحر.

وأخبرني الناخورة أن هذه الملكة لها في عسكرها نسوة وخدم وجوار يقاتلن كالرجال وأنها تخرج في عساكر من رجال ونساء فتغير على عدوّها وتشاهد القتال، وتبارز الأبطال.

وأخبرني أنه وقع بينها وبين أعدائها قتال شديد، وقتل كثير من عسكرها وكادوا ينهزمون فدفعت بنفسها وخرجت الجيوش حتى وصلت إلى الملك الذي كانت تقاتله فطعنته طعنة كان فيها حتفه فمات وانهزم عسكره، وجاءت برأسه على رمح فَأَفْتَكَّهُ أهله منها بمال كثير فلما عادت إلى أبيها ملكها تلك المدينة التي كانت بيد أخيها.

وأخبرني أن أبناء الملوك يخطبونها فتقول: لا أتزوج إلا من يبارزني فيغلبني فيحتشمون مبارزتها خوف المعرة أن تغلبهم.

ولهذه الملكة غارات ووقائع غريبة مع ملوك الهند وملوك الصين من المسلمين وعبدة

---

(١) وردت في الأصل: «أواني»، ولعل الصحيح ما أثبتناه، لأنه اسم منقوص.

Marfat.com

الأوثان وما زالت مالكة تلك البلاد مدة من الزمان حتى توفي والدها وإخوتها جميعاً وملكت سائر ملك أبيها وأخيراً قتلت بفراشها بدسيسة أحد ملوك الصين وانقرض ملكها بموتها.

أربلاي المؤلفة

مدام «دو أربلاي» مؤلفة إنكليزية ولدت سنة ١٧٥٢ [م]، وتوفيت سنة ١٨٤٠ [م]، وكانت في حداثتها قليلة الكلام جبانة، لكنها لما كبرت هذب العلم أخلاقها فكتبت سنة ١٧٧٨ [م] قصة تشهد ببراعتها وطول باعها في هذا الفن، ثم كتبت عدّة روايات غيرها واتخذتها الملكة لخدمتها الخصوصية.

وبعد أن خدمت ٥ سنوات ألجأها ضعف جسمها إلى الاستعفاء، واقترنت سنة ١٧٩٣ [م] برجل فرنسي واستمرت على التأليف حتى إن مؤلفاتها زادت جداً وبقيت بعدها ميراثاً لورثتها حتى أغنتهم غنى فائق الحد وطبعت جميع مؤلفاتها وانتشرت في جميع أنحاء العالم الغربي.

أرتمسيا ملكة هاليكرناسوس[١] من كاريا

هذه الملكة كانت من ذوي الحكمة والدراية بالأمور الحربية والسياسية، وكان قورش[٢] ملك فارس لما هاجم بلاد اليونان اشتركت معه لكونها كانت خاضعة له، وأخذت معها أسطولاً مؤلفاً من خمس سفن.

واشتهرت بما كان منها من البسالة والحكمة في معركة «سلاميس» التي انتشبت سنة ٤٨٠ قبل الميلاد، وذكر في رواية مشكوك في صحتها أنها شغفت بحب شاب من «أبيذوس»[٣] اسمه «وردانوس» إلا أنه لم يشاركها في حبها فسملت عينيه لكنها ندمت فيما بعد على قساوتها، واستشارت المعبودات فيما يجب أن تفعل كفارة عن ذنبها فقالت لها: من الواجب أن تطرح نفسها في البحر عن منحر جزيرة «لوكاريا» ففعلت ذلك وماتت غريقة.

---

(١) هاليكرناسوس (Halikarnassos): مدينة يونانية قديمة في آسيا الصغرى، موقعها اليوم في «بودروم». عاصمة كاريا. فيها مدفن «موزول» شادته زوجته أرتمسيا أو أرطميس الثانية في القرن الرابع ق . م. إحدى عجائب الدنيا السبع.

(٢) قورش: اسم اثنين من ملوك السلالة الأخمينية في فارس. وقورش المذكور هنا هو قورش الثاني أو الكبير (٥٥٧ ـ ٥٢٨ ق . م). استولى على آسيا الصغرى وبابل. أذن لليهود بالعودة إلى فلسطين.

(٣) أبيذوس، أو أبيدوس (Abydos): مدينة قديمة في آسيا الصغرى على الدردنيل. صمدت في وجه فيليب الخامس المقدوني سنة ٢٠٠ ق.م.

Marfat.com

أرجوان جارية أبي العباس الذخيرة

وهو محمد بن القائم [بأمر الله][١] العباسي بسببها بقيت الخلافة في ولد القائم لأنه لم يكن له ولد سوى أبي العباس هذا، وتوفي في حياة أبيه ولم يعقب فحزن القائم في أواخر أيامه حزناً لا مزيد عليه، وانقطع أمل الناس من خلافة عقبه وظنوا أن دولة البيت القادري قد انقرضت، وكان أبو العباس يختلف إلى هذه الجارية فاتفق أنها حملت منه، فلما رأى الناس هذه الحالة، وما ألمّ بالقائم من الهمّ والحزن أعلنت حملها فتعلقت آمال الناس بها وتوجهت الأفكار إليها، ثم إنها ولدت بعد وفاة مولاها بستة أشهر غلاماً ففرح القائم فرحاً مفرطاً، وفرح الناس لبقاء الخلافة في بيته، وهذا هو الذي لقب بالمقتدر[٢]، وكان من أمره ما جاء في تاريخه وأرجو أن هذه أم ولد أرمينة تدعى قرة العين وأدركت خلافة ابنه المستظهر بالله[٣] وخلافة ابن ابنه المسترشد بالله[٤].

[أروى ابنة عبد المطلب]

أروى[٥] ابنة عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشية عمة رسول الله ﷺ. ذكرها

---

(١) وردت في الأصل: «القائم بالله» ولعل الصحيح ما أثبتناه.

(٢) المقتدر، أو المقتدر بالله العباسي: هو جعفر بن أحمد بن طلحة، أبو الفضل المقتدر بالله ابن المعتضد ابن الموفق. خليفة عباسي، ولد في بغداد سنة ٢٨٢ هـ/ ٨٩٥ م. بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المكتفي سنة ٢٩٥ هـ فاستصغره الناس، فخلعوه سنة ٢٩٦ هـ ونصّبوا عبد الله بن المعتزّ، ثم قتلوا ابن المعتزّ وأعيد المقتدر بعد يومين، فطالت أيامه وكثرت فيها الفتن. توفي سنة ٣٢٠ هـ/ ٩٣٢ م.

(٣) المستظهر بالله: هو أحمد بن المقتدي الخليفة العباسي الثامن والعشرون (٤٨٧ هـ ـ ٥١٢ هـ). بدأت في عهده الحملات الصليبية وسقط بيت المقدس. كان كريم الأخلاق فاضلاً عارفاً بالآداب، وباسمه ألف الغزالي كتابه «فضائح المعتزلة» ويعرف بالمستظهري.

(٤) المسترشد بالله: الفضل بن أحمد «المستظهر بالله» ابن المقتدي عبد الله بن محمد الهاشمي العباسي. أبو منصور من خلفاء الدولة العباسية بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٥١٢ هـ، وكان عالي الهمّة شجاعاً، فصيحاً، بليغ التوقيعات، له شعر جيّد. حدثت في آخر أيامه فتنة بهمذان، قام بها أمير أمرائه السلطان مسعود بن ملكشاه السلجوقي، فجرّد المسترشد جيشاً لقتاله. ودس له السلطان جمعاً من رجاله، أظهروا الطاعة، حتى نشبت الحرب في موضع يقال له دايمرج فانقلبوا على الخليفة، وانهزم عسكره، وثبت وحده في مقرّه فاعتقله السلطان مسعود وأخذه معه يريد بغداد فلما كانوا على باب مراغة دخل عليه جمع من الباطنية، أرسلهم السلطان سنجر السلجوقي لقتله، فقتلوه، ومثّلوا به، ودفن في مراغة.

(٥) هي أروى ابنة عبد المطلب بن هاشم القرشية، عمّة رسول الله ﷺ وإحدى فضليات النساء في الجاهلية=

Marfat.com

أبو جعفر في الصحابة وذكر أيضاً أختها عاتكة[١] ابنة عبد المطلب قال محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي لما أسلم طليب بن عمير[٢] دخل على أمه أروى بنت عبد المطلب فقال لها: قد أسلمت وتبعت محمداً أوَتتبعينه فقد أسلم أخوك حمزة[٣]. قالت: انظرما تصنع إخوتي ثم أكون مثلهن.

قال: فقلت: إني أسألك بالله ألا أتيته وسلمت عليه وصدّقته، وشهدت أن لا إله إلا الله. قالت: فإني أشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم كانت بعد تعضد النبي ﷺ وتعينه بلسانها وتحض ابنها على نصرته والقيام بأمره وكانت من الشاعرات الأديبات والمتكلمات في العرب.

ومن قولها ترثي والدها عبد المطلب مع باقي أخواتها حين طلب منهن ذلك قبل موته ليعلم قوتهن في الرثاء:

بكـت عينـي وحـق لهـا البكـاء ... علـى سمـح سجيتـه[٤] الحيـاء
علـى سهـل الخليقـة أبطحـيّ ... كـريـم الخَيْـم[٥] شيمتـه العـلاء
علـى الفيـاض شيبـة ذي المعـالـي ... أبيـك الخيـر ليـس لـه كفـاء
طـويـل البـاع أملـس شيظمـي ... أغـرّ كـان غـرّتـه ضيـاء

= والإسلام. كانت راجحة الرأي، تقول الشعر الجيد. أدركت الإسلام فأسلمت، وعمّرت إلى خلافة عمر بن الخطاب، توفيت سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م.

(١) هي عاتكة ابنة عبد المطلب بن هشام، شاعرة، لها في ديوان الحماسة أبيات مختارة، وهي من عمّات النبي ﷺ. اختلف في إسلامها، والثابت أنّها كانت يوم وقعة بدر سنة ٢ هـ/ ٦٢٤ م بمكة. مع مشركي قريش. قال ابن سعد: أسلمت بمكة وهاجرت إلى المدينة.

(٢) هو طُلَيْب بن عُمَيْر بن وهب من بني قصي بن كلاب، القرشي، أبو عدي، صحابي قديم الإسلام ولد سنة ٢٢ ق . هـ/ ٦٠٠ م. هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة. كان من الشجعان الأشداء. شهد كثيراً من الوقائع. قُتل يوم أجنادين، وقيل: في اليرموك سنة ١٣ هـ/ ٦٣٤ م.

(٣) هو حمزة بن عبد المطلب بن هشام، أبو عمارة، من قريش، عمّ النبي ﷺ، واحد من صناديد قريش وسادتهم في الجاهلية والإسلام. ولد سنة ٥٤ ق . هـ/ ٥٥٦ م، نشأ بمكة. كان أعز قريش وأشدها شكيمة. ولما ظهر الإسلام تردد في اعتناقه، ثم علم أن أبا جهل تعرّض للنبي ﷺ، ونال منه، فقصده حمزة وضربه وأظهر إسلامه، فقالت العرب: «اليوم عُزَّ محمد وإن حمزة سيمنعه»، وكفّوا عن بعض ما كانوا يسيئون به إلى المسلمين. هاجر حمزة مع النبي ﷺ إلى المدينة وحضر وقعة بدر وغيرها. قال المدائني: أول لواء عقده رسول الله ﷺ كان لحمزة. وكان شعار حمزة في الحرب «ريشة ناعمة»، لأنه كان يوم بدر مُعلّماً بريشة ناعمة حمراء يضعها على صدره، ولما كان يوم بدر قاتل بسيفين وفعل الأفاعيل، قتل يوم أحد سنة ٣ هـ/ ٦٢٥ م فدفنه المسلمون في المدينة وانقرض عقبه.

(٤) السجية: الطبيعة والخلق. [القاموس المحيط، مادة: سجا].

(٥) الخِيْم: الطبيعة والسجيّة. [القاموس المحيط، مادة: الخام].

Marfat.com

أقبّ[١] الكشح[٢] أورع ذو فضول ... لـــه المجـــد المقـــدّم والثنـــاء
أبـــيّ الضيـــم أبلـــج[٣] هبـــرزي[٤] ... قـــديـــم المجـــد ليـــس لـــه خفـــاء
ومعقـــل مـــالـــك وربيـــع فهـــر[٥] ... وفيصلهـــا إذا التمـــس القضـــاء
وكـــان هـــو الفتـــى كـــرمـــاً وجـــوداً ... وبـــأســـاً حيـــن تنسكـــب الـــدمـــاء
إذا هـــاب الكمـــاة[٦] المـــوت حتـــى ... كـــأنّ قلـــوب أكثـــرهـــم هـــواء
مضـــى قـــدمـــاً بـــذي رأي مصيـــب ... عليـــه حيـــن تبصـــره البهـــاء

وقد أسنت وماتت في خلافة عمر بن الخطاب[٧] ودفنت بما يليق بها من الإكرام.

أروى[٨] ابنة الحارث بن عبد المطلب بن هاشم

كانت فريدة زمانها وبليغة عصرها وأوانها إذا خطبت أعجزت، وإن تكلمت أوجزت، ولا غرو فإنها ابنة البلاغة ومعدن الفصاحة والحصافة.

---

(١) أقبّ: دقيق وضامر. [القاموس المحيط، مادة: قبّ].
(٢) الكشح: من الجسم وهو ما بين السرّة ووسط الظهر. [القاموس المحيط، مادة: كشح].
(٣) أبلج: طلق الوجه. [القاموس المحيط، مادة: بلج].
(٤) هِبْرِزِيّ: الجميل الوسيم من كل شيء. [القاموس المحيط، مادة: هبر].
(٥) فهر: بطن من بني كنانة وهو فهر بن غالب بن مالك بن النضر بن كنانة. ويقال لبني فهر من قريش: الظواهر.
(٦) الكماة: الشجعان أو لابسو الأسلحة، لأنهم يكمون أنفسهم ويحمونها ويسترونها بالدرع والبيضة. [القاموس المحيط، مادة: كمي].
(٧) هو عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين هو ذلك الرجل العظيم الذي يُعدّ من أقوى رجال التاريخ شكيمة، وأشدهم بؤساً نسبه عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رِزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي العدوي، وكنيته أبو حفص. يجتمع نسبه مع الرسول ﷺ في الجد السابع من أبيه، ويجتمع معه من جهة أمه في الجد السادس. للاستزادة يراجع: الفاروق عمر بن الخطاب، ثاني الخلفاء الراشدين، محمد رضا حقّقه وعلّق عليه محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧.
(٨) هي أروى ابنة الحارث بن عبد المطلب القرشية، صحابية اشتهرت بالفصاحة. عاشت إلى زمن معاوية بن أبي سفيان، وكان مقامها بالمدينة، فوفدت عليه إلى دمشق وهي عجوز، معاتبته على خصومته لعلي بن أبي طالب (ابن عمها) وفاخرته ببني هاشم وفضّلتهم على بني أمية. فاعترضها عمرو بن العاص فعيّرته بنسبه، وتكلّم مروان فأفحمته، فاعتذر لها معاوية عنهما وسألها عن حاجتها، فقالت: ما لي إليك حاجة، وقامت فخرجت، فقال معاوية لأصحابه: والله لو كلّمها من في مجلسي جميعاً لأجابت كل واحد بغير ما تجيب به الآخر، وإن نساء بني هاشم لأفصح من رجال غيرهم، وبعث لها قبل رحيلها فأكرمها، وعادت إلى المدينة فتوفيت بها في أيامه سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م.

Marfat.com

قيل: إنها وفدت على معاوية بن أبي سفيان[١] لما ولي الخلافة وكانت عجوزاً كبيرة فلما رآها معاوية قال: مرحباً بك وأهلاً يا خالة فكيف كنت بعدنا فقالت: يا ابن أخي، لقد كفرت يد النعمة، وأسأت لابن عمك الصحبة وتسميت بغير اسمك، وأخذت غير حقك من غير دين كان منك ولا من آبائك، ولا سابقة في الإسلام بعد أن كفرتم برسول الله ﷺ فأتعس الله منكم الجدود، وأضرع منكم الخدود، وردّ الحق إلى أهله ولو كره المشركون، وكانت كلمتنا هي العليا ونبينا ﷺ هو المنصور فوليتم علينا من بعده وتحتجون بقرابتكم من رسول الله ونحن أقرب إليه منكم وأولى بهذا الأمر فكنا فيكم بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون، وكان علي بن أبي طالب[٢] رحمه الله بعد نبينا بمنزلة هارون من موسى[٣] فغايتنا الجنة وغايتكم النار، فقال لها عمرو بن العاص[٤]: كفى أيتها العجوز الضالة وأقصري عن قولك مع ذهاب عقلك إذ لا تجوز شهادتك وحدك. فقالت له: وأنت يا ابن الباغية، تتكلم وأمك كانت أشهر امرأة بغي بمكة وآخذهن للأجرة ادّعاك خمسة نفر من قريش فسئلت أمك عنهم فقالت: كلهم أتاني فانظروا أشبههم به فألحقوه به فغلب عليك شبه العاص بن وائل[٥]

---

(١) هو معاوية بن أبي سفيان، صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشي، الأموي، مؤسس الدولة الأموية في الشام، وأحد دهاة العرب المتميّزين الكبار، أسلم سنة ٨ هـ، وتعلّم الكتابة والحساب، واستعمله النبي ﷺ لكتابة الوحي، هو أول مسلم ركب بحر الروم للغزو، وكان عمر بن الخطاب يقول إذا نظر إليه: «هذا كسرى العرب».

(٢) هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن عم الرسول ﷺ، ولد سنة ٢٣ ق . هـ/ ٦٠٠ م بمكة، أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم. كنيته أبو الحسن، صهر رسول الله ﷺ، على ابنته فاطمة وأبو السبطين (الحسن والحسين ـ رضي الله عنهما ـ). هو أول هاشمي ولد بين هاشميين. وهو الخليفة الراشدي الرابع، وأول خليفة من بني هاشم. وأحد العلماء والشجعان المشهورين، والزهاد المذكورين، والخطباء المفوّهين، حين أسلم لم يكن قد بلغ الحلم. قال ابن إسحاق: إنه كان يومئذٍ ابن عشر سنين. وكان أصغر من جعفر وعقيل وطالب. كفله النبي ﷺ قبل أن يُوحى إليه، لأن قريش أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب كثير العيال قليل المال. فأخذ النبي ﷺ علياً وضمّه إليه. هاجر علي إلى المدينة وشهد بدراً وكلّ معارك المسلمين حتى وفاته سنة ٤٠ هـ/ ٦٦١ م. للاستزادة يراجع: الإمام علي بن أبي طالب، محمد رضا، حقّقه وعلّق عليه محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨.

(٣) منزلة هارون من موسى: هي الوزارة وذلك استناداً للآية الكريمة في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٥].

(٤) هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم، أبو عبد الله السهمي، القرشي، المتوفى سنة ٤٣ هـ أسلم في عام الحديبية، وهو واحد من عظماء العرب ودهاتهم وأولي الرأي والحزم والدهاء.

(٥) هو العاص بن وائل، أو العاصي بن وائل بن هاشم السهمي، من قريش أحد الحكام في الجاهلية. كان=

Marfat.com

فلحقت به. فقال مروان[١]: كفى أيتها العجوز وأَقصري لما جئت له. فقالت له: وأنت أيضاً يا ابن الزرقاء تتكلم، ثم التفتت إلى معاوية فقالت: والله ما جرّأ عليّ هؤلاء غيرك فإن أمك القائلة في قتل حمزة:

نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان لي عن عتبة[٢] من صبر ... وشكر وحشيّ[٣] عليّ دهري

= نديماً لهشام بن المغيرة، أدرك الإسلام، وظلّ على الشرك، ويُعدّ من المستهزئين، ومن الزنادقة الذين ماتوا كفاراً وثنيين. كان على رأس بني سهم في حربِ الفِجار سنة ٣٣ ق . هـ/ ٥٥١ م. قيل في خبر موته: خرج يوماً على راحلته، ومعه أبناء له، ينزه، ونزل في أحد الشعاب، فلما وضع قدمه على الأرض صاح، فطافوا فلم يروا شيئاً، وانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير، ومات. فقالوا: لدغته الأرض وكان ذلك عام ٣ ق . هـ. وهو والد عمرو بن العاص الصحابي المعروف، وفاتح مصر.

(١) هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو عبد الملك، المولود سنة ٢ هـ، خليفة أموي هو أول من ملك من بني الحكم بن أبي العاص، وإليه ينسب بنو مروان، ودولتهم المروانية، ولد بمكة ونشأ بالطائف، سكن المدينة، فلما كانت أيام عثمان جعله خاصته واتخذه كاتباً له، ولما قتل عثمان خرج مروان إلى البصرة مع طلحة والزبير وعائشة، يطالبون بدمه، وقاتل مروان في وقعة الجمل قتالاً شديداً، وانهزم أصحابه فتوارى. شهد صفّين مع معاوية، ثم أمّنه علي فأتاه وبايعه، وانصرف إلى المدينة فأقام إلى أن ولي معاوية الخلافة، فولاه المدينة سنة ٤٢ ـ ٤٩ هـ. أخرجه منها عبد الله بن الزبير، فسكن الشام، ولما ولي يزيد بن معاوية الخلافة، وثب أهل المدينة على من فيها من بني أمية فأجلوهم إلى الشام، وكان فيهم مروان، ثم عاد إلى المدينة، وحدثت فتن كان من أنصارها، وانتقل إلى الشام مدّة، ثم سكن تدمر، وبعد اعتزال معاوية بن يزيد الخلافة، دعا مروان إلى نفسه، فبايعه أهل الأردن سنة ٦٤ هـ، ودخل الشام فأحسن تدبيرها وولى ابنه عبد الملك على مصر بعد أن خرج لها وبعد أن تفشّت فيها البيعة لابن الزبير، ثم عاد إلى دمشق ولم يطل أمره، توفي سنة ٦٥ هـ بالطاعون. وقيل: غطّته زوجته أم خالد بالوسادة وهو نائم، فقتلته. فدام حكمه تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً، وهو أول من ضرب الدنانير الشامية وكتب عليها ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وكان يلقب: خَيْط باطل، لطول قامته واضطراب خَلْقِه.

(٢) هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، أبو الوليد كبير قريش وأحد سادتها في الجاهلية. كان موصوفاً بالرأي والحلم والفضل، خطيباً مفوّهاً، نافذ القول. نشأ يتيماً في حجر حرب بن أمية. وأول ما عُرف عنه توسّطه للصلح في حرب الفِجار بين هوازن وكنانة، وقد رضي الفريقان بحكمه، وانقضت الحرب على يده. وكان يقال: لم يسد من قريش مملق إلاّ عتبة وأبو طالب، فإنهما سادا بغير مال. أدرك الإسلام. وطغى فشهد بدراً مع المشركين، وكان ضخم الجثة، عظيم الهامة، طلب خوذة يلبسها يوم بدر فلم يجد ما يسع هامته، فاعتجر على رأسه بثوب له، وقاتل قتالاً شديداً فأحاط به علي بن أبي طالب وحمزة وعبيدة بن الحارث، فقتلوه سنة ٢ هـ/ ٦٢٤ م.

(٣) هو وَحْشي بن حَرْب الحبشي، أبو دسمة، مولى بني نوفل، صحابي من سودان مكة. كان بطلاً من أبطال الموالي في الجاهلية. وهو قاتل حمزة عمّ النبي ﷺ قتله يوم أُحد. قال ابن عبد البر: استخفى له خلف حجر، ثم رماه بحربة كان يرمي بها رمي الحبشة فلا يكاد يخطئ، ثم وفد على النبي ﷺ مع وفد أهل الطائف، بعد أخذها، وأسلم، فقال له النبي ﷺ: «غيّب عنّي وجهك يا وحشي، لا أراك»، =

Marfat.com

حتـــى تـــرمّ أعظمـــي فـــي قبـــري

فأجابتها ابنة عمي وهي تقول:

خـــزيـــت فـــي بـــدر وبعـــد بـــدر يـــا ابنـــة جبـــار عظيـــم الكفـــر

فقال معاوية: عفا الله عما سلف يا خالة هات حاجتك. فقالت: ما لي إليك حاجة، وخرجت عنه. وبعد خروجها التفت معاوية إلى أصحابه وقال لهم: والله لئن كلمها كل من في مجلسي لأجابت كل واحد منهم بجواب خلاف الآخر بدون توقف.

وهكذا فإن نساء بني هاشم أصعب في الكلام من رجال غيرهن وأمر لها بجائزة تليق بمقامها، وبقيت مكرمة بين قومها إلى أن توفيت بالمدينة[١] بخلافة معاوية.

أروى[٢] ابنة كريز بن عبد شمس

كذا نسبها ابن منده[٣] وأبو نعيم[٤] والصواب ابنة كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس وهي أم عثمان بن عفان وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ ماتت في خلافة عثمان، وكانت عاقلة ورعة لها صحبة بالنبي ﷺ وروتْ عنه الحديث وحدّثت أناساً كثيرين.

أزرميدُخت ابنة أبرويز[٥]

كانت من أجمل النساء وجهاً وأحسنهن ذكاء، وأوفرهن عقلاً، وأليقهن فعلاً ولتعلق الفرس بمحبتها ورغبتهم في علوّ همّتها ملّكوها عليهم بعد قتل «خشينده» من بني عم «أبرويز»

= وشهد اليرموك وشارك في قتل مسيلمة، وزعم أنه رماه بحربته التي قتل بها حمزة، وكان يقول: قتلت بحربتي هذه خير الناس وشرّ الناس. سكن حمص، فمات بها في خلافة عثمان سنة ٢٥ هـ/ ٦٤٥ م.

(١) توفيت سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م.

(٢) يراجع: ذو النورين، عثمان بن عفّان الخليفة الثالث، محمد رضا، حقّقه وعلّق عليه محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧.

(٣) هو ابن منده، أبو عبد الله المتوفى سنة ٣٩٥ هـ/ ١٠٠٥ م. محدّث أصبهاني. من آثاره «فتح الباب في الكُنى والألقَاب».

(٤) هو أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله المتوفى سنة ٤٢٨ هـ/ ١٠٣٨ م. مؤرخ ومحدّث من أهل أصبهان. من مؤلفاته: «حلية الأولياء» و«تاريخ أصبهان» و«دلائل النبوة».

(٥) أبرويز: هو كسرى الثاني أبرويز، ملك ساساني (٥٩٠ ـ ٦٢٨ م). ابن هرمزد الرابع. توصل إلى العرش بمساعدة موريق الإمبراطور البيزنطي. احتل أورشليم سنة ٦١٤ م، انتصر عليه هرقل. اغتيل في السجن، هو خُسرَو زوج شيرين، وقد تغنّى الفردوسي بحبّهما في الشاهنامه.

Marfat.com

والدها الأبعدين، وكان عظيم الفرس يومئذٍ: «هرمز[١] أصبهبد» خراسان[٢] فأرسل إليها يخطبها فقالت: إن التزوّج للملكة غير جائز وغرضك قضاء حاجتك مني فسر إليّ وقت كذا ففعل وسار إليها تلك الليلة فتقدمت إلى صاحب حرسها أن يقتله فقتله وطرح في رحبة دار المملكة، فلما أصبحوا رأوه قتيلاً فغيبوه. وكان ابنه رُسْتَم[٣] وهو الذي قاتل المسلمين بالقادسية[٤] خليفة أبيه بخراسان فسار إليها في عسكر حتى نزل بالمدائن[٥] وحاصرها حتى ضاقت به ذرعاً فطلب أهلها منه الأمان فأمنهم بشرط تسليم الملكة إليه فقبلوا منه ذلك ودخل المدينة وألقى القبض على «أزرميدخت» وسمل عينيها وقتلها[٦]. وقيل: بل سملت نفسها وكانت مدة ملكها ستة عشر شهراً.

أسباسيا زوجة بركليس[٧]

كانت من أشهر نساء اليونان حسناً وجمالاً وعقلاً، وفصاحة، وبلاغة، وأدباً، وفطنة،

---

(١) هُرْمُز: اسم خمسة لملوك الساسانيّين ولعل المقصود هنا هو هرمز الرابع (٥٧٩ ـ ٥٩٠ م) وهو والد كسرى الثاني أبرويز.

(٢) خراسان: منطقة قديمة في آسيا جنوبي مجرى آمودريا وغربيه، من مدنها نيسابور، وهراة، وبَلخ، ومَرو. قامت فيها الدعوة العباسية. تتقاسمها اليوم إيران الشرقية وأفغانستان وتركمانستان. معجم البلدان ج ٢/ ص ٤٠١.

(٣) رسْتَم: بضم الراء وتسكين السين وفتح التاء، هو رُسْتَم بن الفرخزاد. ورُسْتَم لفظة فارسية، معناها: نَجَوْتُ، ويقال: إن أمّه تعذّبت بولادته لشدّة تعَسُّرها. وعندما وضعته صاحت: رُسْتَم أي نَجَوْتُ، فسمّي بهذا الاسم. قتلت أزميدُخت والده. وهو من القواد المشهورين في فارس. هزمه سعد بن أبي وقّاص في معركة القادسية. الفاروق، عمر بن الخطاب، ثاني الخلفاء الراشدين، محمد رضا حقّقه وعلّق عليه محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ص ٧٩ الهامش رقم ٦.

(٤) القادسية: بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً وبينها وبين العذيب أربعة أميال، واختُلف في سبب تسميتها، فقيل: سُميت بالقادسية بقادس هراة. وروى ابن عُيينة قال: مرّ إبراهيم بالقادسية فرأى زهرتها ووجد هناك عجوزاً فغسلت رأسه، فقال: «قدست من أرض»، فسُمّيت القادسية. معجم البلدان ج ٤/ ص ٣٣١.

(٥) المدائن: بالفتح جمع المدينة. قال يزدجر بن مهبندار الكسروي: «... إن الإسكندر لما سار في الأرض ودانت له الأمم، وبنى المدن العظام في المشرق والمغرب رجع إلى المدائن وبنى فيها مدينة وسوّرها وهي ألى هذا الوقت موجدة الأثر. وهي في بلاد العراق قرب بغداد. معجم البلدان، ج ٥/ ص ٨٨.

(٦) أزرميدخت هي من قتلت والد رُسْتَم. الفاروق عمر بن الخطاب، ثاني الخلفاء الراشدين، محمد رضا، حقّقه وعلّق عليه محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ص ٧٩ الهامش، رقم ٦.

(٧) بركليس: أو پركليس (Periklês): سياسي أثيني ٤٩٥ ـ ٤٢٩ ق . م، وطّد الحكم الديمقراطي وبسط سيادة أثينا على مدن اليونان. عُني بالعمران وشجّع الآداب والفنون، فبلغت أثينا في عهده أوج عصرها الذهبي المشهور بعصر پركليس ٤٦١ ـ ٤٢٩ ق . م، من آثاره العمرانية البارثينون.

Marfat.com

وخطاباً لها اليد الطولى على جميع نساء عصرها بموافقتها لزوجها حتى إنها كانت تسير معه أين سار، وتشاركه في كل أعماله العقلية والفعلية، والأتعاب الرياضية وميادين النزال، وتعمل أعمالاً يعجز عنها أقوى الرجال حتى إنها اكتسبت بذلك شجاعة وشهرة لم يسبقها عليها أحد من نساء اليونان، وتقاطرت على بابها العلماء والشعراء والفلاسفة والرياضيون والبلغاء، وكان ناديها أحسن ناد جمع فيه العلم والأدب، ولذلك وصفتها المؤلفة الشهيرة مدام «أون» في كتابها المشتمل على سير أبطال النساء عند ترجمتها إذ قالت: إن بيتها أعظم بيت من بيوت عظماء اللاتينيين فلذلك لو نظرت إلى جدرانه تجدها مرصعة بتماثيل الرجال العظام، وأمام بابه رواق رفيع العماد وعلى الباب أسجاف[١] الأرجوان، وبجانبه أفاريز[٢] من المرمر الأصفر وكوى البيت مشبكة كلها بقضبان النحاس على أشكال وضروب شتى، وأرضه مغطاة بالفسيفساء البديعة الأشكال، وعليها أرائك[٣] من القرمز[٤] والأرجوان، أهدابها مطرزة بالذهب، وفي البيت مكتبة من الخشب الثمين مملوءة بالدروج من الرق والحلفاء فلو نظر القارئ في الصباح إلى هذا البيت يرى «أسباسيا» قد نزلت من غرفتها على درج من المرمر الأبيض ومشت في الصحن، وخرجت إلى الرواق الجنوبي الذي يطل على بستان البيت لتستنشق نسيم الصباح مضمخاً بأريج الأزهار والرياحين، وخرج «بركليس» وهو ماش بجانبها وتجاذبا أطراف الحديث في السياسة والفلسفة وهي طويلة القامة ممشوقة القدّ جعدة الشعر شقراؤه، نجلاء العينين حوراؤهما، شماء الأنف صغيرة الأذنين، حمراء الوجنتين والشفتين.

تفترّ عن لؤلؤ رطب وعن برد وعن أقاح وعن طلع وعن حبب

لابسة رداء أبيض على ردنيه[٥] أبازيم[٦] من الذهب وفوقه رداء قصير من الأرجوان بل أردان أذياله مطرزة بالذهب وعلى كتفيها رداء ثالث مسدول عليهما سدلاً، والنسيم يعبث به في ذهابها وإيابها فتخالها ملكاً ناشراً جناحيه للطيران وفي أصابعها خواتم الذهب مرصعة بالحجارة الكريمة ولم تكن «أسباسيا» من ربات الغنج والدلال اللواتي يباهين بالحلي

---

(١) أسجاف: الستائر أو الحُجُب. [القاموس المحيط، مادة: سجف].

(٢) الأفاريز: الإفريز من الحائط. جمعها أفاريز، طَنْفَة (فارسية). [المنجد في اللغة والأعلام، مادة: سجف].

(٣) أرائك: مفردها أريكة وهو السرير المزيَّن الفاخر. [القاموس المحيط، مادة: أرك].

(٤) القِرْمز: صبغ أحمر أرمني الأصل. [المنجد في اللغة والأعلام، مادة: القرمز].

(٥) الردن: أصل الكمّ، طرف الكمّ الواسع وكانت العرب تضع فيه الدراهم والدنانير. ومنه: «ثقل ردنه». أي كثر ماله. [المنجد في اللغة والأعلام، مادة: ردن].

(٦) أبازيم: مفردها بزيم وهو ورق النخيل يشد بها البقل وهنا بمعنى خيوط رفيعة مطرزة من الذهب. [المنجد في اللغة والأعلام، مادة: بزم].

Marfat.com

والحلل، بل من أهل الحجة المربين مع الفلاسفة والحكماء، وكان بيتها هذا نادياً تتقاطر إليه الفلاسفة ورجال السياسة كسقراط[١] وأفلاطون[٢] وغيرهما فتباحثهم في أسماء المواضيع الفلسفية والسياسية حتى إذا كلّ عصب الدماغ منها ومنهم أدارت أزمّة الحديث إلى الفكاهات واللطائف تديرها عليهم صرفاً فتسكرهم بعذوبة كلامها كما أسكرتهم بسموّ معانيها، وكان سقراط الحكيم يعترف بفضلها عليه ويشهد بأنها هذبت أخلاقه وكملت معارفه و«بركليس» زوجها كان ينسب إليها كل شهرته في الخطابة وقال: إنه تعلم منها البلاغة والسياسة.

وكان نساء أثينا يترددن على بيتها أيضاً ويتعلمن منها التهذيب واللباقة، وكانت الفنون الجميلة كالتصوير والبناء والنقش في أوج مجدها فعضدتها «أسباسيا» بيمينها وسعت جهدها في رفع شأن ذويها ولم تكن هذه الفاضلة من الأثينيات، ولذلك لم تحسب زوجة شرعية لـ «بركليس» لأن شريعة أثينا كانت تحرّم على الأثينيين اتخاذ الزوجات من الأجانب إلا أن جمالها المفرط وسموّ عقلها وغزارة معارفها، وكثرة فضائلها ألجمت ألسن الناس عن الطعن عليها زماناً طويلاً، والحسد ـ وقاك الله منه ـ عدوّ ألد لا يبهره الجمال، ولا تتغلب عليه الفضائل فنفخ في آذان بعض ذويه فقاموا عليها واتهموها باحتقار الأثينيات وبلغت القحّة منهم حتى طعنوا في عرضها واتهموا معها «آتكفوراس»[٣] الفيلسوف «وفيدياس»[٤] النقاش فقتلوا أحدهما ونفوا الآخر نفياً مؤبداً وحامى «بركليس» عنهما بكل جهده فلم يستطع إنقاذهما.

ولما وصل الدور إلى «أسباسيا» صار كله ألسنة وبلاغة فدافع عنها في مجمع «أرنوس باغوس»، وكان من أفصح أهل زمانه لساناً، وأثبتهم جناناً، وأقواهم حجة، ولما عجز لسانه

---

(١) سقراط: نحو ٤٧٠ ـ ٣٩٩ ق.م، هو فيلسوف يوناني، ولد في أثينا وعلّم فيها، فأحدث ثورة في الفلسفة بأسلوبه وفكره. جعل محور معرفة الإنسان.نفسه ودرس تصرّفاته والنواميس التي تدفع إليها وبهذا أسس علم الأخلاق. كان تعليمه شفهياً عن طريق السؤال والجواب فساعد تلاميذه على اكتشاف المعرفة بذاتهم. حارب السفسطة وانتقد الحكم، فاتّهمه أخصامه بالزندقة وحكموا عليه بالإعدام، ففضّل الموت على الهرب احتراماً لشرائع مدينته. شرب السّم فمات في سجنه. وصلت إلينا تعاليمه في كتب تلميذيه: أفلاطون وكسينوفون.

(٢) أفلاطون (Platôn): من مشاهير فلاسفة اليونان ٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق . م، هو تلميذ سقراط ومعلّم أرسطو. درّس في بستان أكاذيمس في أثينا. أساس فلسفته «نظرية الأفكار»، مثالها الأسمى «فكرة الخير» من مؤلّفاته: «الجمهورية»، و«السياسي»، و«المحاورات»، «كريتون»، و«فيدون»، و«تيمِه»، و«الوليمة»، و«الشرائع».

(٣) آتكفوراس: فيلسوف يوناني عاش في القرن الخامس قبل الميلاد وعاصر سقراط وأفلطون.

(٤) فيدياس (Pheidias): أشهر نحاتي اليونان. عهد إليه پركليس بتزيين الپارثينون في القرن الخامس قبل الميلاد تعتبر أعماله ذروة الإبداع في الفن اليوناني.

Marfat.com

عن أقوال إربه دافع عنها بدموع عينيه حتى قيل: إنه أنقذها من الموت بالدمع ولم يكن من ضعاف العزائم الذين تفيض دموعهم عند أخف النكبات ولا كان من المتعلقين بحبال الهوى المنقادين بزمام الشهوات فإنه لما فشا الوباء واختطف ابنته البكر وأخته وكثيرين من أقاربه تحمل هذه النكبة الشديدة بصدر أرحب من البيد، وصبر أغزر من البحر، ولم يسكب عليهم دمعة، ولكنه لما رأى الفضيلة مهانة بإهانة زوجته، والعفة والطهارة مهتوكة أستارهما ظلماً وعدواناً لم يتمالك عن البكاء، وكذا لما اختطفت أيدي المنون ابنته الصغرى وحمل إكليل الفرهر ليكلل به جبينه غلبت عليه الشفقة الأبوية ففاضت دموعه رغماً عنه، وكانت ولادة «أسباسيا» بـ«ملتيوس» سنة ٤٧٠ قبل الميلاد واقترن بها «بركليس» بعد أن هجر زوجته الأولى، وانقاد إليها أشد الانقياد حتى قال «أرستوفاينس»[1]: إنها هي التي حملته على إثارة حرب «ساموس»[2] و«بلويومتبسوس» ولكن «فلوطرخس» المؤرخ الثقة نفى عنها هذه التهمة وتوفي «بركليس» بالطاعون فتزوّجت «أسباسيا» بعده رجلاً من التجار فصار بسببها من مشاهير أثينا وخطبائها.

إستير ستنهوب ابنة كارلوس الثالث في عائلة ستنهوب

امرأة إنكليزية شريفة ذات أطوار غريبة ولدت في لندن في ١٢ أذار (مارس) سنة ١٧٧٦ [م]، وتوفيت في «جون» التابعة إقليم الخروب من جبل لبنان في ٢٣ حزيران (جونيو) سنة ١٨٣٩ [م]، وكانت أكبر أولاد «كارلوس الثالث أرلات ستنهوب» من زوجته «إستير» ابنة «إرل تشتام» دخلت في السنة العشرين من عمرها بيت عمها «وليم بت» فكان يعتمد عليها ويكاشفها أسراره، واستمرت عنده إلى أن مات سنة ١٨٠٦ [م]، وقبل وفاته أوصى بها الأمة الإنكليزية فعين لها مرتب سنوي قدره ٢٠٠ ليرة إنكليزية غير أن المبلغ لم يكف لسدّ المصاريف التي كان يقتضيها مركزها وبذخها فانفردت في «والسن» ثم تركتها وطافت أوروبا وكانت حينئذٍ فتية نضرة جميلة غنية، فقوبلت في البلدان التي زارتها بالتكريم والتعظيم اللذين تقتضيهما صفاتها إلا أنها أبت الزواج مع أن خاطبيها كانوا من أهالي الرفعة والشأن وبعد أن زارت أكبر عواصم أوروبا لاح لها أنها تحصل في الشرق على مركز عظيم

---

(١) أرستوفانس (Aristophanês): أكبر شعراء اليونان الهزليين ٤٤٥ ـ ٣٨٦ ق . م، ولد في أثينا، له مسرحيات هزلية، منها: الغمام، الزنابير، العصافير، الضفادع. هجا رجال الدولة والفلاسفة والمجتمع وحتى الآلهة.

(٢) ساموس (Samos): جزيرة يونانية في بحر إيجة قرب الساحل التركي، وجد فيها آثار من القرن السادس قبل الميلاد (خمور).

Marfat.com

فسارت إلى القسطنطينية، وأقامت فيها بضع سنين واختلف الناس في سبب خروجها من بلادها فذهب بعضهم إلى أنه حملها على ذلك حزنها على جنرال إنكليزي شاب قتل في إسبانيا وكانت تحبه فأثر فيها موته تأثيراً شديداً حتى لم تطب لها الإقامة بعده في إنكلترا، وذهب آخرون إلى أن الذي حملها على ذلك إنما هو ميلها إلى القيام بعظائم الأمور وحب الشهرة.

ثم خرجت من القسطنطينية قاصدة سوريا سنة ١٨١٠ [م] في سفينة إنكليزية كان فيها قسم كبير من ثروتها وأنواع كثيرة مختلفة من الحلي والتحف، فلما وصلت السفينة إلى جون «مكري» تجاه جزيرة «رودس»[١] صدمت صخراً فتحطمت على مسافة بعض أميال من الساحل، وغرقت أمتعة «إستير ستنهوب» وأموالها ولم تنج هي من الموت إلا بعد عناء شديد فحملت على لوح السفينة إلى جزيرة صغيرة قفرة فقامت فيها ٢٤ ساعة لم تذق طعاماً ولم يكن لها منقذ ولا مجير إلا أن جماعة من صيادي «مرموريزا» وجدوها في تلك الجزيرة في أثناء تفتيشهم على بقايا السفينة، فساروا بها إلى «رودس» وهناك أخبرت قنصل إنكلترا فجمعت ما بقي لها من المتاع وباعت قسماً من أملاكها، بأبخس الأثمان وركبت سفينة ملأتها تحفاً نفيسة وهدايا ثمينة للبلدان التي عزمت على السياحة فيها فلم يصادفها في مسيرها نوء. وأتت اللاذقية[٢] فأقامت هناك، وتعلمت اللغة العربية، وعرفت عادات الأهالي وطباعهم، وجهزت قافلة كبيرة وحملت إلى البدو هدايا نفيسة على ظهور الجمال، وطافت أنحاء سوريا كلها، فزارت القدس[٣]، ودمشق[٤]، وحمص[٥]،

---

(١) رودوس (Rodos): جزيرة جبلية يونانية أهم جزر دوديكانيز في بحر إيجة، قاعدتها مرفأ رودس. فيها منتجع صيفي وشتوي. أسوار قديمة وكنائس بيزنطية، وقصر فرسان رودس في القرن الرابع عشر. احتلها سليمان الثاني بعد حصار شاق عام ١٥٢١ م. استولت عليها أيطاليا سنة١٩١٢ م، واستعادتها اليونان سنة ١٩٤٧ م.

(٢) اللاذقية: مدينة في ساحل بحر الشام تُعدّ من أعمال حمص وهي غربي جبلة بينهما ستة فراسخ، وهي الآن من أعمال حلب، معجم البلدان، ج ٥/ ص ٦.

(٣) القدس: قال الليث: القدس تنزه الله عزّ وجل. وهو جبل عظيم بأرض نجد. معجم البلدان، ج ٤/ ص ٣٥٣.

(٤) دمشق: البلدة مشهورة وهي قصبة الشام وهي جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارة ونضارة بقعة وكثر فاكهة ونزاهة رقعة وكثرة مياه. قيل: سميت بذلك لأنهم دمشقوا في بنائها أي أسرعوا. معجم البلدان، ج ٢/ ص ٥٢٧.

(٥) حمص: بالكسر ثم السكون، بلد مشهور قديم مسوّر وفي طرفه القبلي قلعة حصينة وهي بين دمشق وحلب يذكّر ويؤنث، بناه رجل يقال له حمص بن المهر بن جان بن مكنف. وقيل حمص بن مكنف العمليقي. معجم البلدان، ج ٢/ص ٣٤٧.

Marfat.com

وبعلبك[١]، وتدمر[٢]. ولما وصلت إلى تدمر اجتمع إليها كثيرون من قبائل البدو ومكنوها من الوصول إلى تلك المدينة، وكان عددهم حينئذٍ من ٤٠ إلى ٥٠ ألفاً وكانوا كلهم يتعجبون من جمالها ولطفها، وأبهتها فجعلوها ملكة لتدمر وعاهدوها على أن جميع الإفرنج الذين يحصلون على حمايتها يمكنهم أن يزوروا «بعلبك» وتدمر آمنين على أرواحهم، ولكن بشرط أن يدفع كل منهم ضريبة قدرها ألف قرش، واستمرت تلك المعاهدة مدة طويلة يعمل بها وعند رجوعها من تدمر عزمت قبيلة قوية من البدو عدوة لتدمر التعدّي عليها، غير أن أحد حشمها أنبأها في الحال بوقوعها في ذلك الخطر الجسيم فأخذت في السير ليلاً، وكان خيلها من أجود الخيل فاجتازت في مدة ٢٤ ساعة مسافة طويلة وبذلك تمكنت هي ومن معها من النجاة وأتت دمشق وأقامت فيها أشهراً عند الوالي العثماني الذي كان الباب العالي قد وصاه بإكرامها وإعزازها وصرفت زماناً طويلاً في الطواف والجولان في البلاد الشرقية وأذهل الأهالي ما شاهدوه ومن أعمالها وغناها فكانوا يعاملونها كملكة، وكانت هي تحاول بحذاقتها أن تضاهي «زينوبيا»[٣] ملكة الشرق في أعمالها وسنة ١٨١٣ [م].

استوطنت دير القديس إلياس المهجور الواقع في جوار قرينه على مسافة ساعة من صيدا[٤]، فبنت هناك عدة بيوت محاطة بسور أشبه بالأسوار التي كانت تبنى في القرون

---

(١) بعلبك: مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور على أساطين الرخام لا نظير لها في الدنيا. ففيها من عجيب الآثار: الملعبان، الكبير بني في أيام سليمان بن داود ـ عليه السلام ـ وطول الحجر من حجارته عشرة أذرع على عمد شاهقة يروع منظرها، وبهذه المدينة من الهياكل شيء عجيب وهي قديمة البناء جداً حتى إن عوام أهلها يزعمون أن سورها من بنيان الشياطين لا يغيره زمان ولا يؤثر فيه حدثان. معجم البلدان، ج ١/ ص ٥٣٧.

(٢) تدمر: مدينة قديمة مشهورة في برية الشام، بينها وبين حلب خمسة أيام. قيل: سميت بتدمر بنت حسّان بن أذينة بن السميدع بن مَزيد بن عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ وهي من عجائب الأبنية، موضوعة على العمد الرخام، زعم قوم أنها مما بنته الجن لسليمان ـ عليه السلام ـ وأهل تدمر يزعمون أن ذلك البناء قبل سليمان بن داود ـ عليه السلام ـ بأكثر مما بيننا وبين سليمان، ولكن الناس إذا رأوا بناء عجيباً جهلوا بانيه أضافوه إلى سليمان وإلى الجن. معجم البلدان، ج ٢/ ص ٢٠.

(٣) زينوبيا: وهي الزّبّاء بنت عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع. الملكة المشهورة في العصر الجاهلي. صاحبة تدمر وملكة الشام والجزيرة. يسميها الإفرنج (Zenobie) وأمها يونانية من ذرية كليوباتر ملكة مصر. كانت غزيرة المعارف بديعة الجمال، مولعة بالصيد والقنص، تحسن أكثر اللغات الشائعة في عصرها، كتبت تاريخاً للشرق، وَلِيت تدمر وكانت تابعة لروما، ولم تلبث أن طردت الرومان وحاربتهم، فهزمت «هيرقليوس» القائد العام لجيش الإمبراطور غالينوس. أسرها قيصر روما بسلاسل من ذهب وماتت في سجنها سنة ٣٥٨ ق. هـ/ ٢٨٥ م.

(٤) صيدا: قال أبو منصور: الصيداء حجر أبيض يعمل من البِرام جمع بُرمة، وقال النضر: الصيداء =

Marfat.com

المتوسطة، وأنشأت هناك بستاناً على نسق البساتين التركية فغرست فيه الأزهار والأشجار والفاكهة وكروماً، وأقامت كشوكاً مزينة بالنقوش والصور العربية، وجعلت للماء قنوات من الرخام وكانت تنبعث من نافورات وسط بلاط من الرخام مزين بأنواع النقوش أيضاً، وكانت أشجار البرتقال والتين والأترج الملتفة تزيد ذلك البستان جمالاً ونزهة ولم يمكث ذلك الدير حتى صار حصناً وملجأ يلتجئ إليه المظلومون فتجيرهم، فبقيت هناك عدة سنين في أبهة شرقية محاطة بتراجمة سوريين وأوروبيين وحاشية كبيرة من النساء، وجماعة من العبيد السود وكانت تلبس لبس أمير وتتقلد السلاح وتدخن وكان لها علائق حبية وسياسة مع الباب العالي، وعبد الله باشا[١]، والأمير بشير الشهابي[٢] حاكم لبنان، والشيخ بشير جان بلاط[٣] ومشايخ البدو في براري سوريا وبغداد.

ثم اتخذت لها مسكناً في بيت أخذته من رجل دمشقي مسيحي غنيّ واقع على مرتفع يعرف بظرف جون نسبة إلى قرية «جون» التابعة لمديرية إقليم الخروب من جبل لبنان على مسافة ٨ أميال من صيدا، ووسعت دائرة ذلك البيت، وأقامت حوله جنينة وسوراً وبقيت فيه إلى أن توفيت، ثم أخذت ثروتها العظيمة تتناقص لعدم انتظام مصالحها التي لم يكن من يحسن القيام عليها في غيابها فبلغ دخلها السنوي ١٣٠ و٤٠ ألف فرنك وكان مع ذلك غير كافٍ لسد المصاريف التي تقتضيها حالتها، غير أنه مات بعض الذين صحبوها من الإفرنج وتركها البعض الآخر وخمدت محبة الأهالي لها لأن توافدهم كان موقوفاً على مواساتهم بالهدايا

= الأرض التي تربتها أجزاء غليظية الحجارة مستوية الأرض. وهي مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق شرقي صور بينهما ستة فراسخ. معجم البلدان، ج ٣/ ص ٤٩٦.

(١) عبد الله باشا: واحد من الحكام المصريين الذين تناوبوا على جبل لبنان أثناء السيطرة المصرية على المنطقة.

(٢) الأمير بشير الشهابي: هو بشير بن قاسم بن عمر الشهابي، أكبر الأمراء الشهابيين، وكان لهم شأن في لبنان ووادي التيم بسوريا. ولد سنة ١١٧٣ هـ/ ١٧٦٠ م في قرية غزير قرب بيروت. مات أبوه سنة ١١٨١ هـ. فتزوجت أمه وأهملت أمره. فعطفت عليه خادمة كانت لأبيه، فنقلته إلى برج البراجنة وأسعفتها أمه بشيء من الدراهم، ولما بلغ السادسة عشرة من العمر قصد دير القمر وأقام في بيت الدين مدة عبر شيخ خلوة، كان قد توسم فيه النجابة، ثم اتصل بأحمد باشا الجزار والي صيدا فقرّبه، ولم يزل إلى أن ولاّه إمارة لبنان سنة ١٢٠٣ هـ، فكانت له حوادث كثيرة، عُزل مرّات وأُعيد. كثر خصومهن فقاومهم، حتى قدم إبراهيم باشا المصري فآزره الأمير بشير، ولما عاد إبراهيم من سوريا قبض الإنكليز على الأمير بشير ونفوه إلى مالطة سنة ١٢٥٦ هـ، ثم التمس الإقامة في الآستانة فأذن له وتوفي فيها سنة ١٢٦٦ هـ/ ١٨٥٠ م.

(٣) الشيخ بشير جنبلاط: هو من الإقطاعيين اللبنانيين في عهد الأمير بشير الشهابي ومن أهم من حاربهم الأمير بشير للقضاء على الإقطاع.

Marfat.com

والعطايا فأمست منفردة وقلّت علائقها مع الناس، ولكن ظهر منها في هذه الأحوال ما يدهش الخواطر ويحير العقول لأنها صبرت وتجلدت ولم يخطر لها ألبتة أن ترجع عن الأعمال التي أقبلت عليها، ولم تتأسف على ما فات ولا على العالم أجمع ولم يحزنها ترك خلانها وثروتها وميلها إلى الشيخوخة فأقامت وحدها من غير كتب ولا جرائد ولا رسائل من أوروبا ولم يكن عندها صديق يؤانسها ولا سمير يجالسها، بل بقي لها فقط جماعة من الجواري السود وعبيد سود صغار السن، وبضعة فلاحين سوريين يعتنون بشأنها وخيلها، ويسهرون عليها من الطوارق.

وقد تحققت أن ما امتازت به من الصبر والعزم والحزم لم يكن ناشئاً عن طباعها فقط، بل عن مبادئها الدينية المؤذنة بالشطط، وكان في تلك المبادئ ما يدل على أنها جمعت بين الحقائق وعوائد شرقية خرافية ولا سيما غرائب فن التنجيم وعجائبه وقصارى الكلام أنها حصلت بأعمالها على شهرة عظيمة في الشرق وزهدت أوروبا كلها وكان الأهالي عموماً يسمونها بالست الإنكليزية. وأما الإفرنج فتعرف عندهم بـ «لاري ستنهوب».

ولما عزم إبراهيم باشا[1] على فتح سوريا سنة ١٨٣٣ [م] اضطره الأمر إلى أن طلب إليها أن تكون على الحيادة، ويقال: إن بعد حصار عكا[2] في السنة نفسها آوت مئين من الفارّين وكانت تتعاطى فن التنجيم وغيره من الفنون السرية، واستمسكت ببعض عقائد دينية مستغربة فلم تعدل عنها حتى مماتها، ومما يدل على أن عقلها لم يخل من الاختلال في بعض الأمور أنها ربت حجرتين في إسطبل لتركب المسيح واحدة منها عند مجيئه إلى الأرض وتركب هي الأخرى مرافقة له إلى القدس، وفي السنين الأخيرة من حياتها كان قد بلغ أهلها في إنكلترا

---

(١) هو إبراهيم باشا بن محمد علي باشا، قائد، بعيد المطامح من ولاة مصر، ولد في نصرتلي سنة ١٢٠٤ هـ/ ١٧٩٠ م، بالقرب من قَوَلة، قدم مصر مع طوسون بن محمد علي سنة ١٢٢٠ هـ، فتعلّم بها. وأرسله أبوه (أو متبنّيه) محمد علي سنة ١٢٣١ هـ بحملة إلى الحجاز ونجد، ثم جعله قائداً للحملة المصرية في حرب المورة سنة ١٢٣٩ هـ، وفي سنة ١٢٤٧ هـ سيّره بجيش إلى سوريا، فاستولى على عكة ودمشق وحمص وحلب، وانقادت له بلاد الشام. فوجهت الآستانة جيشاً لصده، فظفر به إبراهيم في الإسكندرونة، فتجاوز جبال طوروس وقارب الآستانة فتدخلت الدول الأجنبية وعقدت معاهدة «كوتاهية» وتقضي بضم سوريا إلى مصر وتولية إبراهيم عليها، فعاد إلى سوريا وجعل عاصمته إنطاكية. يقول معاصره «بوا لو كنت»: «إنه كان يجاهر بالقومية العربية ويعدّ نفسه عربياً، وسئل: كيف تطعن في الأتراك؟ وهو منهم. فأجاب: «أنا لست تركياً، فإني جئت مصر صبياً، ومن ذلك الحين مصّرتني شمسها وغيرت دمي وجعلته دماً عربياً».

(٢) عكا: مدينة في فلسطين على المتوسّط. فتحها العرب سنة ٦٣٨ م ازدهرت في عهد الشيخ ظاهر العمر والجزّار في القرن الثامن عشر. اشتهرت بمقاومة حصار بونابرت سنة ١٧٩٩ م.

Marfat.com

ما كان من أمرها، وإسرافها فقطعوا عنها الإمدادات المالية فتراكمت عليها الديون التي كانت تقترضها من الأهالي بسعي رجل يعرف باللقمجي فتوفيت ولم تقدر على وفائها، وهكذا الذين كانوا يحسبون أن في القرب منهاربحاً لهم آل الأمر إلى خسارتهم.

ويقال: إن مضايقاتها المالية مما كان بينها وبين الأمير بشير الشهابي من الاختلاف والضغينة، وقد سبب ذلك فيها من الخوف الذي أوقعها في مرض عضال قضت به نحبها ولم يكن عندها حال وفاتها أحد من الإفرنج، بل أحاط بها جماعة من خدامها من أهل البلاد فنهبوا بيتها حالما أدركتها المنية وعند وفاتها حضر قنصل الإنكليز من بيروت لأجل دفنها، ودفنت بالبستان المجاور لدارها، وقد روى الأهالي عنها قصصاً كثيرة غريبة تكاد أن تكون من الخَرافات لا يوثق بها وكتب الدكتور «مريون» الذي بقي عندها بضع سنين طبيباً لها سيرة حياتها بالإنكليزية في ثلاثة مجلدات رواية عنها وقصة أسفارها في ثلاثة مجلدات طبعت بالإنكليزية بعد وفاتها بمدة قصيرة.

وقد زارها كثير من السياح الأوروبيين ومن جملتهم «دو لامرتين»[1] الشاعر الفرنساوي المشهور فإنه لما كان في سوريا سنة ١٨٣٢ [م] يطوف في نواحيها ويتفرج على بلدانها ومناظرها رغب في زيارة تلك الخاتون إلا أنه كان في ذلك الوقت من أصعب الأمور على الإفرنج أن يقابلوها ولا سيما الإنكليز ومن كانوا من ذوي قرابتها فبعث إليها مع رسول بالرسالة الآتية ترجمتها:

سيدتي، من سائح مثلك في الشرق وغريب في هذه الديار جاءها ليتأمل في مناظر الطبيعة وآثارها وأعمال الله فيها، وقد وصل إلى سوريا منذ مدة مع عائلته وهو يحسب يوماً يتمكن فيه من مقابلة امرأة هي نفسها من عجائب الشرق الذي جاءه زائراً من أجمل أيام سياحته وألذها، فإذا شئت أن تقابليني فاذكري لي اليوم الملائم لذلك وقولي لي أينبغي أن أتوجه وحدي أو يمكنني أن أسير إليك بجماعة من خلاني يرغبون مثلي كل الرغبة في التشرف بمقابلتك، وأرجو يا سيدتي أن لا يكون هذا الطلب سبباً لتكلفك ما يزعجك في عزلتك فإنني أعرف من نفسي قيمة الحرية ومحاسن الانفراد ولذلك لا يسوءني ألبتة رفضك مقابلتي، بل أتلقى ذلك بالتوقير والاحترام إلى آخره.

وفي ٣٠ أيلول (سبتمبر) من السنة نفسها سار إليه طبيبها ودعاه إلى جون فذهب مع

---

(١) هو ألفونس دو لا مارتين (Lamartine): من مشاهير الشعراء الفرنساويين ١٧٩٠ م ـ ١٨٦٩ م. زعيم الحركة الرومنطيفية. زار الشرق وشغف به. من مؤلفاته الشعرية: «التأملات»، و«جوسلين». ومؤلفاته النثرية: «رحلة إلى الشرق».

Marfat.com

الدكتور «ليوزدي» والموسيو «يرسيقال»[1] ولما وصلوا نزل كل منهم في غرفة ضيقة لا نوافذ لها ولا أثاث فيها ولم يتمكنوا من مقابلتها حال وصولهم لأنها لم تكن تقابل الناس قبل الساعة الثالثة بعد الظهر، فلما حان الوقت أتاه غلام أسود وأدخله غرفتها قال: وكان الظلام قد أسبل عليها ذيله فلم أتمكن بسهولة من أن أتبين هيئتها اللطيفة المؤذنة بالهيبة والجلال وذلك الوجه الأبيض الصبيح، فنهضت وهي في زي الشرقيين، ودنت مني، ومدت إلى يدها مسلمة عليّ فأمعنت بها النظر، وإذا فيها من لطف المعاني ما لا تستطيع السنون محوه.

نعم، إن نضارة الوجه واللون والرونق تمضي مع الفتوّة إلا أنه متى كان الجمال في القدّ وهيئة الوجه مع العظمة والجلال، وطرأ عليه تقلبات باختلاف أزمان الحياة لا يزول تماماً، وهذا كله على «لاري ستنهوب» وكان على رأسها عمامة بيضاء وعلى جبهتها عصابة من الكتان أرجوانية اللون طرفاها مرسلان على كتفيها وعلى بدنها شال من الكشمير الأصفر وفستان تركي كبير من الحرير الأبيض، كماه متدليان وهو مشقوق عند الصدر يظهر من تحته فستان آخر من نسج الفرس تتصاعد منه أزهار تكاد أن تصل إلى عنقها وهي مرتبطة بعضها ببعض بخرز من اللؤلؤ، وكان في رجليها خفان تركيان أصفران وهي تحسن لبس ذلك جميعه كأنها تعوّدته من صغرها.

وبعد السلام قالت لي: قد أتيت من مكان بعيد وكلفت مشاق السفر لترى ناسكة فأهلاً بك وإنني قلما يزورني الأجانب فيراني منهم في السنة واحد أو اثنان في الأكثر غير أن مكتوبك أعجبني وودت أن أعرف إنساناً يحب الله والطبيعة والانفراد، وذلك نفس ما أحبه ولاح أيضاً أن يجمعنا متحابين وإننا نتوافق في المشرب ويسرني الآن أني لم أخطئ في ظني وقد توسمت فيك عندما رأيتك أموراً تجعلني أن لا أندم على رغبتي في مشاهدتك، وناهيك أنني لما سمعت وقع قدميك وأنت داخل خالجني نفس تلك الخواطر فاجلس ودعنا نتحدث لأنك قد صرت لي صديقاً فقلت لها: يا سيدتي، وكيف تشرفين بهذا اللقب رجلاً لا تعرفين اسمه ولا سيرته قالت: نعم، إنني لا أعرف حالك قدام الله ولا تحسبني مجنونة كما يسميني العالم في الغالب لأن صدري قد انشرح لك فلا أستطيع أن أخفي عليك شيئاً وقد نشأَ في الشرق علم ضاع الآن في بلادكم غير أنه لم يزل باقياً إلى الآن في البلاد الشرقية، وقد تعلمته وأتقنته فإنني أرصد الكواكب وأدرك أسرارها فكل منا ولد لنار من تلك النيران السماوية التي تولت أمر ولادتنا وتأثيرها، إما حسن وإما رديء وهو يظهر في عيوننا وجباهنا وهيئتنا وأسارير أيدينا وشكل أرجلنا وحركاتنا ومشينا، وبذلك عرفتك حق المعرفة كأننا معاً منذ قرن كامل مع أنني لم أرك إلا منذ بضع دقائق.

---

(١) سيرد اسمه بعد صفحات عدّة: «برسيڤال»، ولعله هو الاسم الصحيح.

Marfat.com

فقلت باسماً: مهلاً يا سيدتي إنني لا أنكر ما أجهل ولا أثبت ما لا يوجد في الطبيعة المنظورة و[غير][1] المنظورة التي تتجاذب فيها الأشياء أو يرتبط بعضها ببعض كائنات كالإنسان دونه الكائنات الكبرى تحت سلطة كائنات أعظم منها كالكواكب والملائكة إلا أنني أحتاج إلى وحيهم لأعرف نفسي التي هي عبارة عن فساد وسقم وشقاوة.

وأما أسرار مستقبلي فأحب أن لا أعرفها وعندي أنني أجازف على الله الذي أخفاها عني إذا طلبت إلى مخلوق أن يوضحها لي، فأمر المستقبل بيد الله وإني لا أعتقد إلا فيه، وفي الحرية والفضيلة. قالت: ما لي ولهذا فاعتقد فيما يحلو لك، أما أنا فأرى أنك خلقت تحت سلطة ثلاثة أنجم سعيدة، قادرة، صالحة فاعتقد مثل تلك الصفات وهي تشوّقك إلى غاية يمكنني أن أكاشفك بها الآن إذا شئت ذلك وقد أرسلك الله إليّ لأنير عقلك وأنت من الرجال الذين حسنت نواياهم وطابت سريرتهم ويستنفذ منك الله بإنفاذ الأعمال العجيبة التي يريد أن يجريها بين الناس وهذا جواب كافٍ وبعد أن أطالا الجدال في هذا الباب.

قالت له: وهل ترى في سياسته ودينه ومعشره كامل الانتظام ولا تشعر بما يشعر به العالم أجمع من أنه لا بد من موحٍ وفاةٍ وهو المسيح الذي تنتظره وتطير شوقاً إليه فلا ترى أحداً موافقاً لك في ذلك، وأن العالم أجمع محتاج إلى الإصلاح، وأني أتوقع أكثر من الناس كلهم قدوم مصلح يقوّم المسالك ويرشد الناس إلى سواء السبيل فإن كان ذلك المصلح هو ما تسميه مسيحاً فهذا أنتظره مثلك، وأرجو أن يظهر بعد أمد وجيز وأطالت الكلام في هذا الباب وقالت لي: اعتقد كما تشاء، أما أنا فعندي أنك رجل من الذين كنت أنتظرهم وقد أرسلتك العناية إلي وسيكون لك دخل كبير في العمل المزمع حدوثه، وسترجع أوروبا إلا أن أوروبا قد مضى زمانها وبقي لفرنسا وحدها أن تقوم بعمل عظيم، وستشترك فيه، ولم أعلم بعد كيف يكون ذلك، ولكنني إن شئت أذكر لك في هذا المساء عندما أستشير أنجمك ولم أعرف إلى الآن أسماءها كلها فقد رأيت منها أكثر من ثلاثة فهي أربعة أو خمسة وربما كانت أكثر ولا شك أن [عطارد][2] من جملتها فهو يهب العقل نوراً، واللسان طلاقة وطلاوة، وأنت شاعر لا محالة لأن في عينيك، والقسم الأعلى من وجهك ما يدل على ذلك إلى أن قالت: فاشكر الله على

---

(١) وردت في الأصل: «الغير»، ولعل الصحيح ما أثبتناه وذلك لأن «غير» عندما تضاف لا يجب أن ترتبط بـ «أل» التعريف. المعجم الميسر في القواعد والبلاغة والإنشاء والعَروض، محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨.

(٢) وردت في الأصل: «عطارداً»، ولعل الصحيح ما أثبتناه وذلك لأنه اسم ممنوع من الصرف على وزن مفاعل.

Marfat.com

هذه النعمة لأنه قلما ولد تحت سلطة أكثر من نجم وندر من كان نجمه سعيداً وإذا كان سعيداً فقلما يخلو من مفاعيل نجم آخر خبيث يقارنه أما أنت فقد كثرت نجومك وأجمعت كلها على أن تخدمك وهي تتعاون على ذلك فما اسمك؟ فذكرت لها اسمي قالت: هذه أوّل مرة سمعت[1] به، ثم ذكرت لها ما نظمته من الشعر وأن اسمي مشهور عند أهل العلم في أوروبا إلا أنه لم يتمكن من اجتياز البحور والجبال حتى يصل إلى الشرق قالت: سيان عندي كونك شاعراً أوغير شاعر فإنني أحبك ولي فيك أمل أتحقق أننا سوف نلتقي ثانية فإنك سترجع إلى الغرب، ولكن لا تلبث حتى تعود إلى الشرق فإنه وطنك، قلت: إن لم يكن وطني فهو ميدان أفكاري. قالت: دع عنك المزح فإنه وطنك الحقيقي ووطن آبائك وقد تحققت ذلك الآن فانظر إلى رجلك فإنها أشبه برجل رجل عربي، وما زلنا نتحادث حتى دخل عبد أسود فخرّ على وجهه ساجداً أمامها ويداه على رأسه، وخاطبها بكلمات عربية لم أفهمها، فالتفتت إلي وقالت: قد هُيِّئ لك الطعام فاذهب فكل، أما أنا فلا أواكل أحداً لأن عيشتي عيشة نسكية فاغتذي بالخبز والثمار عندما أحس بالجوع ولذلك لا ينبغي لي أن أكره ضيفي على مجاراتي.

وبعد أن فرغت من مناولة الطعام استدعتني إليها، فلما حضرت وجدتها تدخن بقضيب طويل، واستحضرت لي قضيباً لأدخن أيضاً قال: وكنت قد رأيت أجمل نساء الشرق وأظرفهن يدخن مثلها فلم أستغرب ذلك، وكان الدخان ينبعث من شفتيها اللطيفتين على شكل أعمدة فتعطرت به الغرفة، وأقمنا نتحدث في أمورها وأطلت فيها التفكر فتبين لي أنها أشبه بالساحرات القديمات المشهورات وهي أشبه بـ «سيرسه»[2] معبودة الأقدمين، وأن عقائدها الدينية وإن كانت غامضة فهي مقتطفة بحذق من أديان مختلفة فقد جمعت بين أسرار «الدروز وتسليم المسلمين واعتقادهم القدر، وانتظار اليهود مجيء المسيح، وعبادة النصارى للمسيح، وممارسة تعاليمه وآدابه، وزد على ذلك التصورات البعيدة الغريبة الناشئة عن فكر مشغوف بالشرق، ومتوقد بطول العزلة والانفراد وبعض إيضاحات أوضحها لها المنجمون العربيون فإذا تصورت ذلك كله انجلى لك شيء من هذا السر العظيم المستغرب الذي يؤثر في الإنسان ما يسميه جنوناً ليتخلص من مشقة البحث وإمعان النظر فيه.

والحق أولى أن يقال: إن هذه المرأة غير مجنونة فإن للجنون أمارات واضحة تظهر في

---

(١) هكذا في الأصل، ولعل هذا الأمر يعود إلى أن المتحدّثة امرأة إنكليزية، وغير ملمّة بالقدر الكافي من اللغة، وإلا فالاستعمال الصحيح للفعل كان يجب أن يقال: «أسمع» بدلاً من «سمعت»، وذلك لأن السياق يقتضي ذلك. وعلى الأرجح فهو نقل حرفي للمؤلفة من المصادر التي اعتمدت عليها.

(٢) سيرسه: لعلها إلٰهة الحصاد عند الرومان وهي ديمتر اليونان.

Marfat.com

العينين وليس له أثر ألبتة في تلك الألحاظ اللطيفة ويظهر الجنون أيضاً في الكلام فإن صاحبه كثيراً ما ينقطع عن الحديث فترى فيه اختلالاً وشططاً أما حديثها فسامي المعاني رمزي متسلسل مرتبط منتسق قوي وفي مذهبي أن جنونها اختياري وأنها تعرف نفسها حق المعرفة ولها أسباب تحملها على التظاهر بما قد تظاهرت به وما أخذ القبائل العربية المجاورة للجبال من العجب من حذقها وبراعتها يدل دلالة واضحة على أن ما ترجم به من الجنون إنما هو وسيلة لبلوغ بعض مآرب ولا يخفى أن سكان أرض أجريت فيها العجائب وكثرت فيها الصخور والبراري وتلونت تصوّراتهم بألوان جوّهم لا يصيخون سمعاً إلا إلى كلام نبي أو إلى كلام من كان كـ «لاري ستنهوب» فإنهم يميلون إلى فن التنجيم والنبوّات [و][1] الوحي وما أشبه وقد عرفت الـ «لاري» المذكورة ذلك واتضحت لها الحقيقة لما هي عليه من قوّة الحذق، ولكن ربما ساقتها القوة المذكورة كما هو الغالب في أمثالها إلى الاهتداء إلى مذهب وضعته لغيرها.

وبعد أن جالت هذه التصوّرات في فكري قلت لها: لا ألومك إلا على أمر واحد، وهو أنك حسبت للحوادث حساباً فعاقك ذلك عن الوصول إلى مركز كان في طاقتك أن تصلي إليه. فأجابته: إنك تتكلم كمن يعتقد اعتقاداً صحيحاً في الإرادة البشرية، ويشك في فعل القدر، فقوّتي على حالها لم تتغير غير أنني انتظر سنوح الفرصة ولا أجدّ في طلبها وقد أمسيت وحدي مهجورة بين هذه الصخور القفرة عرضة لمفاجئ جسور يطرق منزلي فينهب أمتعتي وحولي جماعة من الخدم الخائنين والعبيد الكنودين وهم ينهبونها في كل يوم ويتهدّدون حياتي أحياناً وفي المدة الأخيرة لم ينجني من الموت الأحمر إلا هذا الخنجر (وأرته إياه) الذي اضطرني الأمر إلى استخدامه لأدفع عني عبداً أسود لئيماً ربي في بيتي، ومع ذلك تراني سعيدة بقولي: الله كريم وأتوقع المستقبل الذي أخبرك به ويا حبذا لو كنت تحققه مثلي.

وبعد أن تباحثنا كثيراً وشربنا القهوة التي كان يأتي بها العبيد كل ربع ساعة مرة قالت لي: هلمّ، فإني سأسير بك إلى مكان مقدّس لا يدخله أحد من البشر وهو بستاني فدخلناه وجلسنا فيه مسروري الفؤاد لأنه من أجمل البساتين الشرقية التي رأيتها وكنا من وقت إلى آخر نجلس في الكشوك براحة ونتحدث على النسق الأول فلبثنا مدة على هذه الحالة ثم التفتت إليّ وقالت: إذا كان القدر قد ساقك إلى هذا المكان وما بين نجمينا من الاتفاق يمكنني من مكاشفتك بأمور أخفيها عن كثيرين من بني البشر سأريك بعينك عجيبة من عجائب الطبيعة لا يعرف مستقبلها إلا أنا وأتباعي وهي التي ذكرها الأنبياء الشرقيون منذ قرون عديدة في نبوّاتهم، ثم فتحت باباً من أبواب البستان يشرف على حوش صغير فوقع نظري على حجرتين عربيتين

(١) زيادة أثبتناها لسلامة المعنى واتّساق الكلام.

Marfat.com

جميلتين من أطيب أصل وأكمل شكل فقالت لي: هيا بنا فأريك هذه المهرة الكميت، ألم تتحفها الطبيعة بكل ما هو مكتوب عن المهرة التي ينبغي أن يركبها المسيح (وستوله مسرجة) فأمعنت بها النظر فرأيت فيها من غرائب الطبيعة ما يقوي ذلك الاعتقاد عند قوم لم يزح عنهم الجهل ستارته، لأن لها في مكان المنكبين تجويفاً عميقاً واسعاً يشبه السرج وشيئاً أشبه بركابين في مكان ركوبها من دون سرج صناعي ولاح لي أن تلك المهرة أحست بما لها من المنزلة والاعتبار عند «لاري ستنهوب» وعبيدها بما سيكون من أمرها في المستقبل، لأنها لم تركب ألبتة، وقد عهدت سياستها إلى سائسين عربيين يسهران عليها ليلاً ونهاراً ولا يفارقانها لحظة، وبالقرب منها مهرة أخرى بيضاء أجمل منها تشاركها فيما لها من المنزلة عند الـ «لاري» المذكورة وهي كأختها لم يركبها أحد، وفهمت من كلام مضيفتي أنه وإن كان مستقبل المهرة البيضاء دون مستقبل المهرة الكميت قداسة فهو سري، وهي وإن كانت لم تقل لي ذلك قولاً صريحاً استنتجت منه أنها تركبها هي حين تسير بجانب المسيح إلى أورشليم ثم أمرت السائسين أن يخرجا الحجرتين إلى مرج خارج السور ففعلا وبعد أن أطلت النظر فيهما وتأملت في محاسنهما رجعت إلى الدار وطلبت منها بإلحاح أن تأذن لموسيو «برسيڤال» بمقابلتها فإنه كان صديقي وتبعني رغماً عني وأقام منذ الصباح ينتظر صدور الإذن بمقابلتها وهي تبخل عليه بذلك فأجابتني إلى طلبي بعد التردد مدة ودخلنا جميعاً إلى غرفتها لنصرف فيها ليلتنا فأقمنا ندخن ونشرب القهوة وبعد مباحثة طويلة دارت بيننا في أمور السياسة ونظام الحكومات فانتقلت أنا منها إلى أمور مزحية عن طريقة تنبئها.

قال: وأردت أن أختبرها فسألتها عن سائحين أو ثلاثة من أصحابي مروا بها منذ ١٥ سنة فأدهشني كلامها عن اثنين منهم لأنني رأيتها مصيبة في حكمها كل الإصابة ومن العجب العجاب أنها وصفت بحذق وبلاغة لا مزيد عليهما واحداً من ذينك الاثنين كنت أعرفه حق المعرفة مع أن من أصعب الأمور أن يعرف إنسان طباعه من أوّل وهلة لأن ظواهره تؤذن ببساطة تامة ويخدع أبعد الناس عن الانخداع، ومما أذهلني أيضاً قوّة ذاكرتها لأن السائح المذكور لم يصرف عندها إلاّ ساعتين ومضى بين زيارتي لها وزيارته ١٦ سنة كاملة فلا جرم[1] أن العزلة تجمع قوى النفس وتقويها وقد تحقق ذلك الأنبياء والقديسون وأكابر رجال الدنيا والشعراء فكانوا يطلبون البراري والقفار ويعتزلون الناس وهم بينهم.

ثم تكلمنا عن بونابرت وعن مواضيع أخرى بحرية تامة وما زلنا على تلك الحالة إلى أن مضى أكثر الليل. قال: ولما حان الافتراق ظهر الحزن والكدر على وجهينا فقالت لي: لا

---

(١) لا جَرَم ولا جُرْم أي لا بدّ أو لا محالة أو حقاً. [القاموس المحيط، مادة: جرم].

Marfat.com

تودعني لأننا سنلتقي مراراً في هذه السياحة ونلتقي كثيراً في سياحات أخر لم تخطر لك ببال بعد فاذهب واسترح واذكر أنك قد تركتني في قفار لبنان، ثم مدت إليّ يدها فوضعت يدي على قلبي على عادة العرب مودعاً وكان ذلك خاتمة اجتماعنا.

هذا ملخص ما دار بينها وبين «لامرتين» من الكلام والمقام يضيق دون ما ذكره بالتفصيل أما بيتها في «جون» فقد استولى عليه صاحبه الدمشقي الذي مات بعدها بقليل فانتقل إلى ابن له وحيد مسلم، ثم أفضى به الأمر إلى أن شنق نفسه فأخذت امرأته تبيع كل ما يمكن بيعه من أدوات البناء خوفاً من أن يؤخذ البيت منها. وهكذا عجلت خراب تلك الدار الجميلة حتى أمست الآن خاوية على عروشها يأوي إليها البوم وينعق فيها الغراب وكذلك تكاد آثار الضريح الذي أقيم لها تمحى.

وهكذا لم يبق لتلك المرأة التي حاولت أن تضاهي ملكة الشرق ولا لأعمالها أثر في بطون التواريخ التي حفظت ذكرها ليكون عبرة لمن يعتبر وتذكرة لأولي الألباب.

أسماء ابنة أبي بكر الصديق[١]

هي أسماء ابنة أبي بكر الصديق، وأمها قتيلة بنت عبد العزى وهي أخت عائشة لأبيها تسمى ذات النطاقين لأنها صنعت للنبي ﷺ طعاماً لما هاجر فلم تجد ما تشده به فشقت نطاقها[٢]، وشدت به الطعام فدعيت ذات النطاقين. تزوجها الزبير بن العوام[٣] فولدت له عبد الله[٤] وعدة أبناء، وكان عبد الله أول مولود ولد في الإسلام بعد الهجرة، ثم طلقها الزبير

---

(١) هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن كعب التيمي القرشي، أبو بكر، أول الخلفاء الراشدين، وأول من آمن برسول الله ﷺ، من الرجال، وأحد عظماء العرب. ولد بمكة سنة ٥١ ق. هـ/ ٥٧٣ م. نشأ سيداً من سادات قريش، وغنياً من كبار موسريهم وعالماً بأنساب العرب وقبائلهم وأخبارهم وسياستهم. كانت العرب تلقبه بعالم قريش. حرم على نفسه الخمر في الجاهلية. كانت له في عصر النبوة مواقف كبيرة، شهد الحروب، احتمل الشدائد، بذل الأموال. بويع بالخلافة يوم وفاة النبي ﷺ سنة ١١ هـ. حارب المرتدين والممتنعين عن دفع الزكاة، افتتحت في أيامه بلاد الشام وقسم كبير من العراق. كان موصوفاً بالحلم والرأفة بالعامة، خطيباً لَسِناً، وشجاعاً بطلاً. مدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر ونصف الشهر. توفي في المدينة سنة ١٣ هـ/ ٦٣٤ م. كان لقبه الصديق في الجاهلية، وقيل: في الإسلام لتصديقه النبي ﷺ في خبر الإسراء.

(٢) النطاق: شقّة تلبسها المرأة وتشد وسطها فترسل الأعلى على الأسفل، والأسفل بنجّر على الأرض. وهي أيضاً ما يشدّ به الوسط. [القاموس المحيط، مادة: نطق].

(٣) هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قُصي، كنيته أبو عبد الله، أبو الطاهر، وهو ابن عمة رسول الله ﷺ، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، المتوفي سنة ٣٦ هـ.

(٤) هو عبد الله بن الزبير بن العوام، القرشي، الأسدي، أبو بكر، فارس قريش في زمنه، وأول مولود في المدينة بعد الهجرة سنة ١ هـ/ ٦٢٢ م. شهد فتح إفريقيا زمن عثمان، بويع بالخلافة سنة ٦٤ هـ. =

Marfat.com

فكانت مع عبد الله ابنها بمكة المشرفة حتى قتل ابنها فبلغت من العمر مائة سنة حتى عميت، وماتت بمكة سنة ٧٣ هجرية و٦٩٢ ميلادية.

ولها شعر قليل في رثاء زوجها وابنها ومن كلامها لابنها عبد الله حين قاتل الحجاج[1] إذ دخل عليها وقال لها: يا أماه قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، ولم يبق معي إلا اليسير، ومَن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق، وإليه تعود فامض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك تلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن معك، وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي، ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، لمَ خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن.

فقال: يا أماه، أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني قالت: يا بني إن الشاة لا تتألم بالسلخ فامض على بصيرتك، واستعن بالله.

فقبَّل رأسها وقال: هذا رأيي والذي خرجت به رائياً إلى يومي هذا ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله وأن تستحل حرماته ولكني أحببت أن أعلم رأيك، فقد زدتني بصيرة فانظري يا أماه فإني مقتول في يومي هذا فلا يشتد حزنك وسلمي الأمر إلى الله فإن ابنك لم يعهد بإيثار منكر ولا عمد بفاحشة، ولم يجزِ في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم أو معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به، بل أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسي، ولكني أقوله تعزية لأمي حتى تسلو عني.

فقالت أمه: لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً إن تقدمتني احتسبتك وإن ظفرت سررت

= عقيب موت يزيد بن معاوية فحكم مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر الشام. جعل قاعدة ملكه المدينة. كانت له مع الأمويين وقائع هائلة حتى سيّروا إليه الحجاج الثقفي، ونشبت بينهما حروب انتهت بمقتل ابن الزبير في مكة سنة ٧٣ هـ/ ٦٩٢ م، بعد أن خذله عامة أصحابه وقاتل قتال الأبطال. وهو أول من ضرب الدراهم المستديرة.

(١) هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، أبو محمد، قائد، داهية، سفّاك، خطيب. ولد سنة ٤٠ هـ/ ٦٦٠ م، في الطائف بالحجاز، وانتقل إلى الشام فلحق بروح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان فكان في عديد شرطته، ثم ما زال يظهر حتى قلّده عبد الملك أمر عسكره. أمره بقتال عبد الله بن الزبير، فزحف إليه بجيش كبير فقتل عبد الله وفرّق جموعة. فولاه عبد الملك مكة، والمدينة، والطائف، ثم أضاف إليها العراق والثورة قائمة فقمع الثورة وثبتت له الإمارة عشرين سنة. وكان سفّاكاً سفّاحاً باتفاق جميع المؤرخين. مات بواسط سنة ٩٥ هـ/ ٧١٤ م.

Marfat.com

بظفرك أخرج حتى أنظر إلام يصير أمرك فقال: جزاك الله خيراً فلا تدعي الدعاء. قالت: لا أدعه لك أبداً فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام بالليل الطويل وذلك النحيب والظمأ في هواجر مكة والمدينة، وبرّه بأبيه وبي اللهم قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت فأثبني فيه ثواب الصابرين الشاكرين، فتناول يدها ليقبلها فقالت: هذا وداع فلا تبعد فقال لها: جئت مودعاً لأني أرى هذا آخر أيامي من الدنيا.

قالت: امض على بصيرتك وأدن مني حتى أودعك، فدنا منها فعانقته وقبلته فوقعت يدها على الدرع فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد؟ فقال: ما لبسته إلا لأشدّ متنك. قالت: إنه لا يشدّ متني، فنزعها ثم درج لمته وشدّ أسفل قميصه وجبته تحت أثناء السراويل وأدخل أسفلها تحت المنطقة وأمه تقول له: البس ثيابك مشمرة، فخرج وهو يقول مرتجزاً:

إني إذا أعرف يومي أصبر وإنما يعرف يومه الحر
إذ بعضهم يعرف ثم ينكر

فسمعته فقالت: تصبر إن شاء الله أبوك أبو بكر والزبير وأمك صفية ابنة عبد المطلب، ثم حمل على القوم وقاتل حتى قتل وصلب وطلبته أمه من الحجاج فأبى عليها إعطاءه، فكتبت لعبد الملك، فسمح لها بذلك فغسلته ودفنته، وبقيت بعده قليلاً وماتت بعدما أضرت وذلك في سنة ٧٣ هجرية.

ومن قولها في زوجها الزبير بن العوام حين قتله عمرو بن جرموز المجاشعي وهو منصرف من وقعة الجمل بوادي السباع.

غدر ابن جرموز بفارس بهمة يوم الهياج وكان غير معرّد
يا عمرو لو نبهته لوجدته لا طائشاً رعش الجنان ولا اليد
ثكلتك أمك إن قتلت المسلما حلت عليك عقوبة المتعمد

[أسماء ابنة سلمة]

أسماء ابنة سلمة وقيل: سلام بن مخرمة بن جندل بن أبير بن نهشل بن دارم التميمية الدارمية وهي أم الجلاس، قاله أبو عمر. وقال ابن منده وأبو نعيم: أسماء ابنة محزبة التميمية، وهي أم الجلاس، وأم عياش وعبد الله بن ربيعة[1]. روى عنها عبد الله بن عياش[2]

---

(١) هو عبد الله بن ربيعة بن الحارث، روى عن الفضل بن العباس وروى عنه عمران. موسوعة رجال الكتب التسعة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣.

(٢) هو عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة ـ رضي الله عنه ـ أبو الحارث، المخزومي، صحابي، أخرج له الشافعي في المسند، صحابي شهير ولد بأرض الحبشة إذ هاجر أبوه إليها وأمه أم سلمة بنت مخرمة بن =

Marfat.com

والربيع بن معوز وذكر ابن منده وأبو نعيم حديث عبد الله بن الحارث[١] عن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة قال: دخل النبي ﷺ بعض بيوت أبي ربيعة إما لعيادة مريض أو لغير ذلك فقالت له أسماء التميمية ـ وكانت تكنى أم الجلاس وهي أم عياش بن أبي ربيعة ـ: يا رسول الله ألا توصني؟ قال: «**ائتي إلى أختك بما تحبين أن تأتي إليك**»[٢] ثم أتى بصبي من ولد عياش به مرض فجعل يرقي الصبي ويتفل عليه، وجعل الصبي يتفل على النبي ﷺ، وجعل بعض أهل البيت ينهى الصبي وقال أبو عمر ـ ذكر نسبها كما تقدم ـ وقال: «كانت من المهاجرات هاجرت مع زوجها عياش بن أبي ربيعة إلى أرض الحبشة وولدت له بها عبد الله بن عياش ثم هاجرت إلى المدينة وتكنى أم الجلاس روت عن النبي ﷺ. وروى عنها عبد الله بن عياش وجملة من التابعين وتوفيت في خلافة عمر بن الخطاب».

[أسماء ابنة عميس]

أسماء ابنة عميس بن معبد بن الحارث بن تميم بن كعب بن مالك بن قحافة بن عامر بن ربيعة بن عامر بن معاوية بن زيد بن مالك بن بشر بن وهب الله بن شهران بن عفرس بن حلف بن أقبل وهو خثعم، وأمها هند ابنة عوف بن زهير بن الحارث الكنانية أسلمت أسماء قديماً وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب[٣] فولدت له بالحبشة عبد الله وعوناً ومحمداً، ثم هاجرت إلى المدينة، فلما قتل عنها جعفر بن أبي طالب تزوجها أبو بكر الصديق فولدت له محمداً بن أبي بكر[٤] ثم مات عنها، فتزوجها عليّ بن أبي طالب فولدت له يحيى لا خلاف في ذلك.

= جندل الدارمية. موسوعة رجال الكتب التسعة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣.

(١) هو عبد الله بن الحارث، صحابي من التابعين له رؤية للصحابة. موسوعة رجال الكتب التسعة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣.

(٢) أخرجه في المسانيد (٢: ٥٣١).

(٣) هو جعفر بن أبي طالب المتوفى سنة ٨ هـ/ ٦٢٩ م، صحابي، ابن عمّ النبي ﷺ، استشهد في مؤتة وهو حامل اللواء فلم يتركه حتى بترت يداه. كناه النبي بذي الجناحين.

(٤) هو محمد بن عبد الله (أبو بكر الصديق) بن عثمان بن عامر التميمي القرشي، أمير مصر، وهو ابن الخليفة الأول أبو بكر الصدءق كان يدعى «عابد قريش» ولد بين المدينة ومكة في حجة الوداع، نشأ في المدينة في حجر علي بن أبي طالب ـ وكان قد تزوج أمه أسماء بنت عميس بعد وفاة أبيه ـ وشهد مع علي وقعتي الجمل وصفّين، وولاه علي إمارة مصر، بعد موت الأشتر، فدخلها سنة ٣٧ هـ. ولما اتفق علي ومعاوية على التحكيم فات علياً أن يشترط على معاوية ألا يقاتل أهل مصر، انصرف علي يريد العراق، فبعث معاوية عمرو بن العاص بجيش من أهل الشام إلى مصر فدخلها حرباً، بعد معارك شديدة، واختفى ابن أبي بكر، فعرف معاوية بن خديج مكانه، فقبض عليه وقتله وأحرقه لمشاركته في مقتل عثمان بن عفان، وقيل: لم يحرق. دفنت جثته مع رأسه في مسجد يعرف بمسجد زمام خارج مدينة الفسطاط.

Marfat.com

وزعم ابن الكلبي[١] أن عون بن علي أمه أسماء بنت عميس ولم يقل ذلك غيره وأسماء أخت ميمونة ابنة الحارث[٢] زوجة النبي ﷺ وأخت أم الفضل امرأة العباس[٣] وأخت أخواتها لأمهم وكنّ عشر أخوات لأم. وقيل: تسع أخوات. وقيل: إن أسماء تزوجها حمزة بن عبد المطلب فولدت له بنتاً، ثم تزوجها بعده شداد بن الهاد ثم جعفر وهذا ليس بشيء وإنما التي تزوجها حمزة سلمة ابنة عميس أخت أسماء وكانت أسماء ابنة عميس أكرم الناس أصهاراً فمن أصهارها النبي ﷺ وحمزة والعباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيرهم.

روى عن أسماء عمر بن الخطاب وابن عباس، وابنها عبد الله بن جعفر، والقاسم بن محمد وعبد الله بن شداد بن الهاد وهو ابن أختها وعروة بن الزبير وابن المسيب وغيرهم. وقال لها عمر بن الخطاب: نِعم القوم أنتم، لولا أنّا سبقناكم إلى الهجرة. فذكر ذلك للنبي ﷺ قال: «**لكم هجرتان إلى أرض الحبشة وإلى المدينة**»[٤]. قال عبيد الله بن رفاعة الزرقي: إن أسماء ابنة عميس قالت لرسول الله ﷺ: إن ولد جعفر تسرع إليهم العين أفأسترقي لهم؟ قال: «**نعم**»[٥] وقد توفيت[٦] في خلافة علي رضي الله عنه.

أسماء ابنة النعمان بن شراحيل[٧]

وقيل: أسماء ابنة النعمان بن الأسود بن الحارث بن شراحيل بن النعمان قاله أبو عمر. وقال ابن الكلبي: أسماء بنت النعمان بن الحارث بن شراحيل بن كندي بن الجون بن حجر

---

(١) هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي، أبو النضر، نسَّابة، راوية، عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب، من أهل الكوفة مولده فيها ووفاته فيها سنة ١٤٦ هـ/ ٧٦٣ م.

(٢) هي ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية، آخر امرأة تزوجها النبي ﷺ، وآخر من مات من زوجاته سنة ٥١ هـ/ ٦٧١ م. كان اسمها برة فسمّاها النبي ﷺ، ميمونة بايعت بمكة قبل الهجرة. عاشت ٨٠ سنة، وتوفيت في سرف وهو الموضع الذي تزوجها فيه النبي ﷺ قرب مكة، ودفنت به.

(٣) هو العباس بن عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف، أبو الفضل، من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام، وجد الخلفاء العباسيين. قال رسول الله ﷺ في وصفه: أجود قريش كفّاً وأوصلها، هذا بقية آبائي، وهو عمه. كان محسناً لقومه، شديد الرأي، واسع العقل، مولعاً بإعتاق العبيد، كارهاً للرق، أسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه، أقام في مكة يكتب لرسول الله ﷺ أخبار المشركين، ثم هاجر إلى المدينة، وشهد وقعة حنين فكان ممن ثبت حين انهزم الناس. شهد فتح مكة. كان مولد سنة ٥١ ق. هـ/ ٥٧٣ م ووفاته في المدينة سنة ٣٢ هـ/ ٦٥٣ م.

(٤) أخرجه في المسانيد (٢: ٦٧٣).

(٥) أخرجه في المسانيد (٢: ٦٧٣).

(٦) كانت وفاتها سنة ٤٠ هـ/ ٦٦١ م.

(٧) توفيت في خلافة عثمان سنة ٣٠ هـ/ ٦٥٠ م.

Marfat.com

آكل المرار بن عمرو بن معاوية بن الحارث الأكبر الكندية، تزوجها رسول الله ﷺ فاستعاذت منه ففارقها. وقال يونس عن أبي إسحاق: كان رسول الله ﷺ تزوج أسماء ابنة كعب الجونية فلم يدخل بها حتى طلقها. قال أبو عمر: أجمعوا على أن رسول الله ﷺ تزوجها، واختلفوا في سبب فراقه لها، فقال قتادة: تزوج رسول الله ﷺ من أهل اليمن أسماء بنت النعمان بن الجون فلما دخل عليها دعاها فقالت له: تعال أنت فطلقها، قال: وزعم بعضهم أنها قالت: أعوذ بالله منك، قال: قد عذت بمعاذ وقد أعاذك الله مني فطلقها.

وقيل: إنما التي قالت له كانت امرأة من بلعنبر من سبي ذات الشقوق، كانت جميلة فخاف نساؤه أن تغلبهن على النبي ﷺ فَقُلْنَ لها إنه يعجبه أن يقال: نعوذ بالله منك وذكر نحو ما تقدم في فراقها قال: وقال أبو عبيدة: كلتاهما عاذتا بالله منه.

وقال عبد الله بن محمد بن عقيل: ونكح رسول الله ﷺ امرأة من كندة وهي الشقية، فسألت رسول الله ﷺ أن يردها إلى أهلها ففعل وردها مع أبي أسيد الساعدي وكانت تقول عن نفسها الشقية. وقيل: إن التي قال لها نساء النبي ﷺ: لتتعوّذ بالله منه هي الكندية ففارقها فتزوجها المهاجر بن أبي أمية المخزومي، ثم خلف عليها قيس بن مكشوح المرادي قال: وقال آخرون: إن التي تعوّذت بالله منه امرأة من سبي بلعنبر وذكر في قول أزواج النبي ﷺ لها نحو ما تقدم قال: وقال آخرون: وكان بها وضح[1] كالعامرية ففارقها. وقيل: إنه قال لها: **«هبي لي نفسك»**[2]، قالت: وهل تهب الملكة نفسها للسوقة، فأهوى بيده إليها فاستعاذت منه ففارقها.

قال أبو عمر: الاختلاف في الكندية كثير جداً منهم من يسميها: أسماء، ومنهم من يسميها: أميمة. واختلفوا في سبب فراقها على ما ذكرناه. والاختلاف فيها وفي صواحباتها اللواتي لم يجتمع بهن عظيم.

أسماء ابنة يزيد الأنصارية[3]

من بني عبد الأشهل هي رسول النساء إلى النبي ﷺ روى عنها مسلم بن عبيد أنها أتت

---

(١) وضح: بياض في الجلد لا من البرص. [القاموس المحيط، مادة: وضح].
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣: ٤٩٨). ابن كثير في البداية والنهاية (٥: ٢٩٧).
(٣) هي أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية الأوسية ثم الأشهلية، من أخطب نساء العرب، ومن ذوات الشجاعة والإقدام. كان يقال لها: خطيبة النساء، حضرت وقعة اليرموك سنة ١٣ هـ، فكانت تسقي من الظماء وتضمّد جراح الجرحى، واشتدت المعركة فأخذت عمود خيمتها وانغمرت في الصفوف فصرعت به تسعة من الروم. وتوفيت بعد ذلك بزمن طويل وذلك سنة ٣٠ هـ/ ٦٥٠ م.

Marfat.com

النبي ﷺ وهو بين أصحابه فقالت: بأبي وأمي أنت يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة فآمنا بك وبإلٰهك وإنا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم ومقتضى شهواتكم، وحاملات أولادكم وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل وإن أحدكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مجاهداً حفظنا لكم أموالكم وغزلنا أثوابكم وربينا لكم أولادكم، أفما نشارككم في هذا الأجر والخير؟ فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: «**هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه**»؟ فقالوا: يا رسول الله، ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا. فالتفت النبي ﷺ إليها فقال: «**أفهمي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله**»[1] فانصرفت وهي تهلل حتى وصلت إلى نساء قومها من العرب وعرضت عليهن ما قاله لها رسول الله ﷺ ففرحن وآمنّ جميعهن. وسميت المترجَمة: «رسول نساء العرب إلى النبي ﷺ».

إستير[2] ابنة أبي حائل بن شمعي بن قيس ملكة الفرس

كانت أحسن نساء زمانها جمالاً وأبهاهنّ منظراً وكمالاً، وأعذبهن منطقاً ومقالاً، تزوجت بالملك «أحشويروش»[3] ملك الفرس الذي ملك من الهند إلى «كوش» على مائة وسبع وعشرين كورة، وكانت في ابتداء أمرها رباها رجل إسرائيلي يدعى «مردخاي»، وهو ابن عمها لأن أباها وأمها توفيا فأخذها هو وجعلها ابنة لنفسه وكان في شوشن القصر الذي هو كرسي ملك «أحشويروش» لأنه سبى من أورشليم[4] مع السبي الذي سبي مع «بكنيا» ملك بهوذا الذي سباه «نبوخذنصّر»[5] ملك بابل.

وسبب زواجها بالملك «أحشويروش» المذكور أنه جلس ذات يوم على كرسي ملكه الذي في شوشن القصر وعمل وليمة لجميع رؤسائه وعبيده وجيش فارس وأخذت هذه الوليمة مائة وثمانين يوماً وعند قضاء هذه الوليمة عمل لجميع الشعب الموجودين في شوشن القصر

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٧: ٤٤). والسيوطي في الدر المنثور (٢: ١٥٣).
(٢) هي امرأة يهودية تزوجّها أحشويرش فنالت منه العفو لابناء شعبها. وسفر إستير من كتب العهد القديم.
(٣) هو أحشويرش الأول ملك فارسي أخميني ٤٨٦ ـ ٤٦٥ ق.م.
(٤) أورشليم: وهي التسمية القديمة للقدس أو بيت المقدس.
(٥) هو نبوخذ نصّر أو نبوكد نصّر الثاني ملك بابل ٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق . م. خرّب أورشليم وسبى اليهود سنة ٥٨٦ ق . م.

Marfat.com

من الكبير إلى الصغير وليمة سبعة أيام، وفي اليوم السابع لما طاب قلبه أرسل إلى «وشتى» الملكة زوجته أن تأتي أمامه بتاج الملك ليرى الشعوب والرؤساء جمالها لأنها كانت حسنة المنظر فأبت أن تأتي حسب أمر الملك فاغتاظ جداً واشتعل غضبه، وقال لمن حوله من العارفين بالأزمة: ماذا يعمل بالملكة «وشتى» لأنها خالفت أوامري؟ فقال أحدهم: ليس إلى الملك وحده أساءت بل إساءتها عمَّت جميع الرؤساء وجميع الشعوب الذين في كل بلدان الملك، وسوف يبلغ خبرها إلى جميع النساء حتى يحتقرن أزواجهن في أعينهن عندما يقال: إن الملك «أحشويروش» أمر أن يؤتى بالملكة «وشتى» إلى أمامه فلم تأت، فإن رأى الملك فليكتب أمراً من عنده أن لا تأتي «وشتى» أمامه مطلقاً، وليعط ملكها لمن هي أحسن منها فرأى الملك والرؤساء ذلك صواباً فأرسل كتباً إلى كل بلدانه يخبرهم بذلك.

وبعدما خمد غضب الملك «أحشويروش» قيل له: فليطلب الملك فتيات عذارى حسنات المنظر ويوكل وكلاء في كل بلاده ليجمعوهن بشوشن القصر ويعين عليهن خصياً، ويرتب لهن لوازمهن مما يحتجن إليه وبعد ذلك يختار منهن التي توافقه ويملكها مكان «وشتى» فرأى ذلك حسناً فأمر بجمع البنات حتى اجتمع عنده منهن شيء كثير فلما سمع «مردخاي» مربي «إستير» أمر الملك وقد اجتمعت فتيات كثيرات إلى شوشن القصر أخذ «إستير» إلى بيت الملك وسلمها إلى حارس النساء فلما نظرها الحارس استحسنها ونالت نعمة بين يديه فبادرها بأدهان عطرها بها ونقلها إلى أحسن مكان في بيت النساء ولم تخبر «إستير» عن شعبها وجنسها لأن «مردخاي» أوصاها بذلك واستمرت «إستير» مقيمة إلى أن بلغت نوبتها للدخول إلى الملك بعد أن أقامت اثني عشر شهراً لأنه هكذا كانت تكمل أيام تعطرهن ستة أشهر بزيت المرّ وستّة أشهر بالطياب، فلما دخلت عليه ونظرها أحبها أكثر من جميع النساء ووجدت نعمة وإحساناً أمامه أحسن من جميع العذارى فوضع التاج على رأسها وملكها مكان «وشتى» وعمل وليمة عظيمة لجميع رؤسائه وعبيده ودعاها وليمة «إستير» وأعطى عطايا حسب كرم الملوك.

وفي تلك الأيام بينما «مردخاي» جالساً في باب الملك إذ علم بفتيين ورئيس الخصيان في دار الملك أرادا أن يغتالاه فعلم الأمر عند «مردخاي» فأخبر «إستير» وهي أخبرت الملك باسم «مردخاي» ففحص عن الأمر فوجده حقيقياً، فأمر بصلبهما فصلب كل منهما على خشبة وازداد اعتبار «مردخاي» في عيني الملك وقرّبه منه قرباً عظيماً، وبعد هذه الأمور قدّم الملك «أحشويروش» وزيره «هامان»[1] وجعل كرسيه فوق جميع الرؤساء الذين معه فكان كل من بباب الملك يسجد لـ «هامان»، كما أوصى به الملك.

---

(١) هو هامان وزير أحشويروش الفارسي وعدو اليهود، كما ورد في سفر إستير.

Marfat.com

وأما «مردخاي» فلم يسجد له فقال عبيد الملك الذين ببابه لـ «مردخاي»: لماذا تتعدى أمر الملك ولم تسجد لـ «هامان» فقال: لا أسجد لغير الملك وإني أعلم ما لا تعلمون فأخبروا «هامان» بذلك وأعلموه بأنه يهودي، ولما رأى «هامان» ذلك امتلأ غضباً وأسرَّ في نفسه على إهلاك «مردخاي» وشعبه ولما أمكنته الفرصة قال للملك: إنه موجود شعب متشتت ومتفرق بين الشعوب في كل بلاد مملكتك وسنتهم مغايرة لجميع الشعوب وهم لا يعملون بسنن الملك فلا يليق بالملك تركهم فإذا رأى الملك فليكتب بأن يبادروا وأنا أزن عشرة آلاف وزن من الفضة تعطى للذين يعملون العمل من مالي الخاص، فلما سمع الملك كلامه نزع الخاتم من يده وأعطاه لـ «هامان» وقال له: الفضة قد أعطيت لك من الخزينة الملكية والشعب أيضاً تفعل به ما تريد، فاستدعى بالكتاب وكتب إلى جميع عمال البلاد يأمرهم بإبادة جميع اليهود من الطفل إلى الشيخ وأن يسلبوا أموالهم غنيمة وختم الكتب بختم الملك وسلمها إلى السعاة وخرجت بها ولما علم «مردخاي» كل ما عمل شق ثيابه ولبس مسحاً برماد[1] وخرج إلى وسط المدينة وصرخ صرخة عظيمة وجاء إلى باب الملك وكانت مناحة عظيمة عند اليهود وصياح وبكاء ونحيب.

فلما رأى جواري «إستير» ذلك دخلن عليها وأخبرنها فاغتمت غماً شديداً وأرسلت ثياباً لـ «مردخاي» لأجل نزع مسحه عنه فلم يقبل فدعت «إستير» واحداً من خدامها وأمرته أن يذهب إلى «مردخاي» ويأتيها بالسبب فذهب الخادم إليه وأخبره «مردخاي» بكل ما أصابه وأعطاه صورة الكتب التي صدرت من الملك لجميع الجهات لكي يريها لـ «إستير» ويخبرها ويوصيها أن تدخل إلى الملك وتتضرع إليه وتطلب منه العفو عن شعبها فرجع الخادم إلى «إستير» وأخبرها بكلام «مردخاي» فأمرت الخادم بأن يرجع إليه ويعلمه بأن كل عبيد الملك وشعوب بلاده يعلمون أن كل شخص دخل إلى الملك بالدار الداخلية بدون إذن لم ينج من القتل إلا الذي يمدّ إليه الملك قضيب الذهب فيحيا فأخبره الخادم بذلك فقال له: أخبر «إستير» بأنك لا تفتكري في نفسك إنك تنجين في بيت الملك من دون اليهود، إنك إن سكت في هذا الوقت يكون الفرج والنجاة لليهود من مكان آخر، وأما أنت وبيت أبيك فتبادون فقالت «إستير» للخادم: أخبر «مردخاي» بأن يجمع اليهود الموجودين في شوشن القصر ويصوموا من جهتي ولا يأكلوا ولا يشربوا ثلاثة أيام ليلاً ونهاراً، وأنا أيضاً أصوم كذلك وهكذا أدخل على الملك ولعل الله أن يمد إليّ يد المساعدة.

---

(١) هو الكساء من شعر، أو ما يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفاً وقهراً للجسد، ويبدو أن من عادات اليهود نثر الرماد على ثيابهم عندما يصابون بكارثة.

Marfat.com

فانصرف «مردخاي» وعمل على حسب ما أوصته به «إستير» وفي اليوم الثالث لبست «إستير» ثياباً ملكية ووقفت في دار بيت الملك الداخلية مقابل الملك وهو جالس على كرسي ملكه، فلما رأى «إستير» واقفة مدّ لها قضيب الذهب الذي بيده، فدنت ولمست رأس القضيب فقال لها الملك: ما لك «إستير» وما هي طِلْبَتُك؟ إذا كانت نصف مملكتي تعطى لك؟ فقالت له: إذا رأى الملك فليأت ومعه «هامان» اليوم إلى الوليمة التي عملتها. فقال الملك: أسرعوا بـ «هامان» تنفيذاً لكلام «إستير»، فحضروا به وأتى الملك و«هامان» إلى الوليمة التي عملتها «إستير» فقال لها الملك عند شرب الخمر: ما هو سؤالك وما هي طلبتك فيعطى لك؟ فقالت: إن سؤالي أن يأتي الملك و«هامان» إلى الوليمة التي أعملها لهما غداً وهناك أطلب طلبي، فخرج «هامان» في ذلك اليوم فرحاً.

وفي اليوم الثاني جاء الملك و«هامان» عند «إستير» فقال الملك لـ «إستير» ما هو سؤالك يا «إستير» وما هي طلبتك فأجابته: إن كنت قد وجدت نعمة في عين الملك فيعطي لي الملك طلبتي بالعفو عن شعبي لأنه قد صار بيعنا أنا وشعبي للهلاك والقتل، ولو كنت بعتنا عبيداً وإماء لكنت سكت مع أن العدوّ لا يعرض عن خسارة الملك.

فقال لـ «إستير»: من هو وأين هو الذي يتجاسر بقلبه على أن يعمل هكذا؟ قالت: هو رجل خصم وعدوّ هذا «هامان» الرديء الخبيث، فارتاع «هامان» أمام الملك والملكة فقام الملك بغيظه عن شرب الخمر إلى جنة القصر ووقف «هامان» لنفسه أمام «إستير» الملكة لأنه رأى أن الشر قد أعيد عليه من قبل الملك، ولما رجع الملك من جنة القصر إلى بيت شرب الخمر و«هامان» متواقع على السرير الذي كانت «إستير» عليه قال: وهل أيضاً يدخل على الملكة معي في البيت وأمر بصلبه فصلبوه على خشبة ارتفاعها خمسون ذراعاً ثم سكن غضب الملك.

وفي ذلك اليوم أعطى الملك لـ «إستير» بيت «هامان» وأتى «مردخاي» أمام الملك لأن «إستير» أخبرته فنزع الملك خاتمه الذي أخذه من «هامان» وأعطاه لـ «مردخاي» وأقامت «إستير» و«مردخاي» في بيت «هامان» ثم عادت «إستير» وسقطت عند رجلي الملك وتضرعت إليه أن يزيل شر «هامان» الذي دبره على اليهود، فأجاب طلبها وقال لها ولـ «مردخاي» اكتبا أنتما ما يحسن في أعينكما باسم الملك واختماه بختمي لأن الكتابة التي كتبت أوّلاً لا تردّ، فدعا كتاب الملك في ذلك الوقت وكتب حسبما أمر به «مردخاي» وختم عليه الملك وأرسل إلى كل الجهات وخرج «مردخاي» من أمام الملك بلباس ملكي وتاج من ذهب وكان اليوم عند اليهود يوم بهجة وفرح وصار عيداً يعيدون فيه وهو الثالث عشر من شهر آذار في كل سنة.

Marfat.com

إسكندره ملكة اليهود

وهي زوجة إسكندر ملك بهوذا، ملكت وحدها بعد وفاة زوجها وذلك في مدة قصر ابنها «هرڤانوس الثاني» وقد ارتكب الفريسيون[١] في عهدها مظالم كثيرة. وقد ذكرها ابن خلدون[٢] فقال: «وأوصى إسكندر امرأته الإسكندره قبل وفاته بكتمان موته حتى يفتح الحصن (وهو حصن كان خرج لحصاره ولم يذكر ابن خلدون اسمه) ويسير بشلوه إلى القدس فتدفنه فيه وتصانع الربانيين على ولدها (هوڤانوس الثاني) فتملكه لأن العامة أميل إليه ففعلت ذلك واستدعت من كان نافراً من الربانيين وجمعتهم وقدَّمتهم للمشورة، واستبدَّت بالملك وكان لها ابنان من الإسكندر اسم الأكبر منهما «هرڤانوس» والآخر «أرستيلوس» وكانا صغيرين عند موت أبيهما فلما كبرا عينت «هرڤانوس» للكهنوتية، وقدَّمت «أرستيلوس» على العساكر والحروب وضمت إليه الربانيين وأخذت الرهن من جميع الأمم وسألها الربانيون في الأخذ بثأرهم من القرايين وكانوا خلقاً كثيراً وجاء القرايون إلى ابنها الكهنوت ينكرونه ذلك وإنه إذا فعل بهم ذلك وقد كانوا سيفاً لأبيه الإسكندر فقد تحدث النفرة من سائر الناس وسألوه أن يلتمس إذنها في الخروج عن القدس والبعد عن الربانيين فأذنت له رغبة في انقطاع الفتنة، وخرج معه وجوه العسكر ثم ماتت خلال ذلك لتسع سنين من دولتها ويقال: إن ظهور عيسى ـ صلوات الله عليه ـ كان في أيامها.

وفيما ذكره ابن خلدون في آخر هذه القصة: إنّ ظهور السيد المسيح كان في أيام الإسكندرة مخالفة لم تتفق عليه المؤرخون المحققون. والصحيح أنها توفيت سنة ٧١ أو سنة ٧٠ قبل الميلاد.

أسماء معشوقة جعد بن مهجع العذري

هي من بني كلب ولم أعثر لها على اسم إلا من قوله:

لعمرك ما حبي لأسماء تاركي صحيحاً ولا أقضي به فأموت

---

(١) الفريسيّون: طائفة من اليهود قامت في عهد المكابيّين للدفاع عن الشريعة وصفاء الإيمان، لكنهم تعلّقوا بالحرف دون الروح، لا مهم المسيح بشدة على تزمّتهم فكانوا في طليعة مقاوميه.

(٢) هو عبد الرحْمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون، أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، من ولد وائل بن حجر، الفيلسوف المؤرّخ، العالم الاجتماعي البحّاثة، أصله من إشبيلية، مولده بتونس سنة ٧٣٢ هـ/ ١٣٣٢ م ومنشَأه بها، رحل إلى فاس، وغرناطة، وتلمسان، والأندلس وتولى أعمالاً كثيرة واعترضته دسائس ووشايات، وعاد إلى تونس، ثم توجه إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برقوق. توفي فجأة في القاهرة سنة ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦م. كان فصيحاً، جميل الصورة، عاقلاً، صادق اللهجة، طامحاً للمراتب العليا.

Marfat.com

وكان سبب عشقه لها أن له أخوالاً من كلب حوَّل ماله إليهم خشية التلف فأقام عندهم ثم خرج يوماً على فرس وقد صحب شراباً فاشتد الحر وظهرت له دوحة، فقصدها ونزل تحتها، فما استقر حتى بان له شخص عليه درع أصفر وعمامة سوداء يطرد سخلة وأتاناً فقتلهما وقصد الدوحة ونزل بها فحادثه فوجد في ألفاظه عذوبة لا تقدر وخلب عقله فدعاه إلى الشراب فشرب وقام ليصلح من شأن فرسه فتزحزح الدرع عن ثدي كحق العاج فقال: امرأة أنت؟ قالت: نعم، ولكن شديدة العفاف حسنة الأخلاق والمفاكهة. فعلقها من تلك الساعة وسألها الزيارة فذكرت أن لها إخوة شرسة وأباً كذلك ثم مضت ولازم الوساد سنة كاملة ثم شكى إلى أحد أصحابه، فأشار عليه أن يخطبها من أبيها ومضى معه حتى نزلا بالشيخ، فأحسن ملقاهما فقال له: قد أتيتك خاطباً. قال: فوق الكفاءة. وزوَّجه بها، فبنى بها من ليلته، فلما كان الغد جاء صاحبه فقال: كيف كانت ليلتك وكيف وجدت صاحبتك؟ قال: أبدت لي كثيراً مما أخفته عني قديماً وسألتها فأنشدت:

كتمت الهوى إني رأيتك جازعاً ... فقلت فتى بعد الصديق يريدُ
فإن تطرحني أو تقول فتية ... يضير بها برح الهوى فتعودُ
فورّيت عمّا بي وفي الكبد والحشا ... من الوجد برح فاعلمنَّ شديدُ

فبارك لهما وانصرف فكان ينشد:

يا رب كل غدوة وروحه ... من محرم يشكو الضحى والرحَهْ
أنت حسيب الخصم يوم الروحَهْ

أسماء ابنة حصن

هي ابنة حصن بن حذيفة الفزارية قد استودعها عامر بن الطفيل[1] درعه في يوم الرقم[2]

---

(١) هو عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر العامري، من بني عامر بن صعصعة، فارس قومه، وأحد فُتّاك العرب وشعرائهم وساداتهم في الجاهلية. كنيته أبو علي، ولد ونشأ بنجد. وكان يأمر منادياً في عكاظ ينادي: هل من راجل فنحمله؟ أو جائع فنطعمه؟ أو خائف فنؤمنه؟ خاض المعارك الكثيرة أدرك الإسلام شيخاً، فوفد على النبي ﷺ، وهو في المدينة بعد فتح مكة، يريد الغدر به، فلم يجرؤ عليه، فدعاه إلى الإسلام، فاشترط أن يجعل له نصف ثمار المدينة، وأن يجعله ولي الأمر من بعده، فردّه، فعاد حنقاً، وسمعه أحدهم يقول:

لأملأنّها خيلاً جرداً ورجالاً ... ولأربطن بكل نخلة فرساً

فمات في طريقه قبل أن يبلغ قومه. وكان أعور أصيبت عينه في إحدى وقائعه. ولد سنة ٧٠ ق. هـ/ ٥٥٤ م، وتوفي سنة ١١ هـ/ ٦٣٢ م.

(٢) يوم الرقم كان بين بني فزارة وبني عامر، وكانت المعركة لبني غطفان على بني عامر. والرقم: جبل دون مكة لديار غطفان.

Marfat.com

فأدَّتها إليه بعد ذلك وذكرها في شعره الذي هجا فيه بني غطفان[١] إذ قال:

قد سألت أسماء وهي خفية بصحائها أطردت أم لم أطرد
فلأبغينكم اتصاد عوارضا ولأقبلن الخيل لابة خرغد
ولأبرزن بمالك وبما لك وأخي المروءات الذي لم يسند

وهي طويلة اقتصرنا على هذا المقدار. فأجابه نابغة بني ذبيان[٢] يلومه على تعريض عقائلهم في شعره فقال:

فإن يك عامر قد قال جهلاً فإن مطية الجهل الشباب
فإنك سوف تحلم أو تباهي إذا ما شبت أو شاب الغراب
فكن كأبيك أو كأبي براء توافقك الحكومة والصواب
فلا تذهب بحلمك طامثات من الخيلاء ليس لهن باب

أسماء ابنة رويم

كانت من النساء العاقلات الحكيمات الأديبات الولودات وكانت تسمي أولادها بأسماء الوحوش الضارية. قيل: إنه مرَّ بها وائل بن ساقط فرآها منفردة في خبائها فهمَّ بها فقالت: والله لئن هممت بي لأدعون أسبعي. فقال: ما أرى سواك في الوادي فصاحت ببنيها: يا كلب، يا ذئب، يا فهد، يا دب، يا سرحان، يا سبع، يا ضبع، يا نمر. فجاءوا يتعادون بالسيوف فقال وائل: ما هذا إلا وادي السباع فلزم هذا الاسم ذلك الوادي وقالوا لها: ما شأنك؟ قالت: إنه نزل بنا [ضيفاً][٣] فأحببت أن تكرموه فأكرموه إكراماً زائداً وانصرف وهو يتعجب من ذريتها ومن حضور بديهتها لتحمل العذر الذي أبدته لأولادها.

---

(١) بنو غطفان: بطن من قيس غيلان من العدنانيّة، وهم بنو غطفان بن سعد بن قيس بن غيلان. قال في العبر: هو بطن متّسع كثير الشعوب والبطون. ومنازلهم مما يلي وادي القرى، وجبلي طي أجأ وسلمى، ثم تفرّقوا في الفتوحات الإسلامية واستولى على مواطنهم هناك قبائل طيء.

(٢) هو النابغة الذبياني زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري، أبو أمامة، شاعر جاهلي، من الطبعة الأولى. من أهل الحجاز، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء وتعرض عليه أشعارها. وكان الأعشى، وحسان، والخنساء ممن يعرض شعره على النابغة. وكان أبو عمرو بن العلاء يفضّله على سائر الشعراء. وهو أحد الأشراف في الجاهلية. هو حظي عند النعمان بن المنذر، حتى شبب في قصيدة له بالمتجرّدة (زوجة النعمان) فغضب النعمان، ففر النابغة ووفد على الغسانيين بالشام. وغاب زمناً، ثم رضي عنه النعمان فعاد إليه، شعره كثير، وكان أحسن شعراء العرب ديباجة، لا تكلّف في شعره ولا حشو. عاش عمراً طويلاً توفي سنة ١٨ ق . هـ/ ٦٠٤ م.

(٣) وردت في الأصل: «ضيف»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

Marfat.com

أسماء ابنة محمد بن صصرى

هي أخت قاضي القضاة نجم الدين بن صصرى، كانت شيخة مسندة جليلة مباركة كثيرة البر سمعت العلماء وحدَّثت وحجت مراراً وكانت تتلو في المصحف وتفيد الفائدة التامة لمن يسمع منها ومما قيل فيها:

كذلك فلتكن أخت ابن صصرى تفـوق علـى النسـا صبيـاً وشيبـا
طـراز القـوم أنثـى مثـل هـذي فـلا التـأنيـث لاسـم الشمـس عيبـا

أسماء العامرية

كانت فصيحة ظريفة أديبة لطيفة عذبة المنطق سلسة الألفاظ، لها أشعار رائقة ومعانيها شائقة وقصائد مطوّلة تمدح فيها خلفاء زمانها ونثر منسجم لطيف العبارة، فمن ذلك الرسالة التي أرسلتها إلى عبد المؤمن بن علي[1] التي نمت إليه بنسبها العامري وتسأله رفع الضريبة عن دارها والاعتقال عن مالها وفي آخرها قصيدة أولها:

عـرفنـا النصـر والفتـح المبينـا لسيـدنـا أميـر المـؤمنينـا
إذا كـان الحـديـث عـن المعـالـي رأيـت حـديثكـم فينـا شجـونـا

ومنها:

رويتـم علمـه فعلمتمـوه وصنتـم عهـده فغـدا مصـونـا

فلما اطلع على قصيدتها ومقالها أجاب طلبها في جميع ما سألته عنه.

---

(١) هو عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان، أبو محمد الكومي، المعروف بعبد المؤمن الكومي، أمير المؤمنين، مؤسس دولة الموحدين المؤمنية في المغرب، وإفريقيا، وتونس. نسبته إلى كومية وهي قبيلة من قبائل البربر ولد في تاجرت بالمغرب قرب تلمسان سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م. وهي كما يقول المستشرق الألماني «كرنكو»: «تاجرت اسم بربري، والتاء باللغة البربرية علامة التأنيث كما في العربية إلاّ أنهم يزيدون التاء في أول الكلة وآخرها، ولذلك تكون تاجرت تأنيث أجر وهي قرب تلمسان. نشأ فيها وطلب العلم، وأبوه صانع فَخَّار. حجّ والتقى بابن تومرت فتصادقا، وانتهى الأمر بأن ولي ابن تومرت ملك المغرب الأقصى، ولقّب بالمهدي. فجعل لعبد المؤمن قيادة جيشه واختصه بثقته. ولما توفي المهدي اتفق أصحابه على خلافة عبد المؤمن، فتمّ له الأمر سنة ٥٢٤ هـ. ثم بويع البيعة العامة بجامع تينملل ودعي أمير المؤمنين سنة ٥٢٦ هـ. ونهض للغزو والفتوح، وقاتل الملثّمين بني تاشفين فاستأصلهم، وقتل آخرهم إبراهيم بن تاشفين، ودخل مراكش سنة ٥٤١ هـ. كان عاقلاً حازماً شجاعاً موفقاً كثير البذل للأموال، شديد العقاب على الجرم الصغير، عظيم الاهتمام بشؤون الدين، محباً للغزو والفتوح، ضرب الخراج على قبائل المغرب وهو أول من فعل ذلك هناك. له أبنية وآثار، وأخبار كثيرة توفي في رباط سلا سنة ٥٥٨ هـ/ ١١٦٣ م. ونقل إلى تينملل فدفن فيها إلى جانب قبر ابن تومرت.

Marfat.com

آسية ابنة مزاحم امرأة فرعون

كانت من خيار النساء المعدودات، تزوجت بفرعون موسى ملك مصر ولم تلد منه مدة حياتها معه وكان بحبها مستهاماً ولكلامها مطيعاً.

وكان فرعون رأى مناماً قد هاله، فأحضر الكهنة والمفسرين من أرباب دولته، وقصَّ عليهم رؤياه فحذروه من مولود يولد في ذاك العام ويكون هو سبباً لخراب ملكه، فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في ذاك العام من بني إسرائيل، وكان في دار فرعون بستان فيه نهر كبير فخرجت الجواري إليه ذات يوم ليغتسلن فيه فوجدن تابوتاً فأخذنه وظنن أن فيه مالاً، فحملنه على حالته حتى أدخلنه إلى آسية، فلما فتحته رأت فيه غلاماً فألقى الله عليها محبة منه، فرحمته آسية وأحبَّته حباً شديداً، فلما بلغ الذباحين أن في دار الملك غلاماً استأذنوه بأن يدخلوا داره ويذبحوا الغلام تنفيذاً لأمره، فأذن لهم بذلك، فأقبلوا على آسية بشفارهم ليذبحوا الغلام، فقالت آسية للذباحين: انصرفوا فإن هذا ليس من بني إسرائيل فإن أتى فرعون استوهبته منه، فإن وهبه لي كنتم أحسنتم وإن أمركم بذبحه فلا مانع من ذلك، ثم إنها أتت به إلى فرعون وقالت له: ليس لي ولا لك ولد فلا تقتلوا هذا عسى أن ينفعنا، فسمح به إليها أن تربيه، فلما آمنت آسية عليه سمته موسى وأحضرت المراضع فجعل كلّما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل ثديها حتى أشفقت آسية عليه أن يمنع من اللبن فيموت فأمرت بإخراجه إلى السوق ترجو أن يصيب امرأة يرضعوه من ثديها إلى أن أتت أمه وأعطته ثديها فرضع منها، فانطلق البشير إلى آسية يبشرها بأنه وجد لابنها امرأة مرضعة فأمرت بإحضارها وقالت لها: امكثي عندي لترضعي ابني هذا فإني لم أحب شيئاً مثل حبه قط، فقالت لها: لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي ولا أولي له إلا خيراً فعلت وإلا فإني غير تاركة بيتي، فأعطتها إياه فأخذته ورجعت إلى بيتها، فلما ترعرع قالت آسية لأم موسى: أحب أن تريني ابني، فوعدتها يوماً تريها إياه فيه فقالت لخواصها وجواريها: لا يبقى منكن أحد إلا استقبل ابني بهدية ومكرمة فإني باعثة بأمينة تحصي ما تصنع كل قهرمانة منكن.

فلم تزل الهدايا والتحف تستقبله من وقت أن خرج من بيت أمه إلى أن دخل على آسية، فلما دخل عليها أكرمته وفرحت به وأعجبها ما رأت من حسن أثرها عليه ثم قالت لها: انطلقي به إلى فرعون ليكرمه، فلما دخل عليه أكرمه ووضعه في حجره فتناول الغلام لحية فرعون حتى جذبها ونتف منها بعض شعيرات، فغضب غضباً شديداً وخاف منه وقال: هذا عدوي المطلوب، فأرسل الذباحين ليذبحوه، فبلغ ذلك آسية، فجاءت تسعى إلى فرعون وقالت له:

Marfat.com

ما بدا لك في هذا الصبي الذي وهبته لي؟ فأخبرها بما فعل، فقالت له: إنما هو صبي لا يعقل، وإنما صنع هذا من صباه، وأنا أجعل فيه بيني وبينك أمراً نعرف به الحق وأضع له حلياً من الذهب والياقوت، وأضع له جمراً فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه وإن أخذ الجمر علمت أنه صبي، ثم وضعت له طشتاً فيه الياقوت وطشتاً آخر فيه الجمر فمد الغلام يده إلى الجوهر ليقبض عليه فزاغت عينه إلى الجمر فقبض على جمرة ووضعها في فمه فجاءت على لسانه فأحرقته فقالت له آسية: ألا ترى إلى فعله وأنه صبي لا يعقل فكف عن قتله.

وكانت يوماً متطلعة من كوة في قصر فرعون إذ نظرت إلى الماشطة امرأة «حزقيل» تُعذب وتُقتل فبينما هي كذلك إذ دخل عليها فرعون وجعل يخبرها بخبر الماشطة امرأة «حزقيل» وما صنع بها فقالت آسية: الويل لك يا فرعون. فقال لها: لعلك قد اعتراك الجنون الذي اعترى صاحبتك. فقالت: ما اعتراني جنون ولكني آمنت بالله ربي وربك ورب العالمين، فدعا فرعون أمها وقال لها: إن ابنتك قد أخذها الجنون الذي أخذ الماشطة ثم إنه أقسم لتذوقن الموت أو لتكفرنَّ بإلٰهها فخلت بها أمها وسألتها موافقة فرعون فيما أراد فأبت وقالت: تريدين أن أكفر بالله؟ فلا والله ما أفعل ذلك أبداً، فأمر بها فرعون فمدت بين أربعة أوتاد ثم ما زالت تُعذب حتى ماتت ولسانها لا يفتر عن ذكر الله وهي تقول: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ [التحريم: ١١]. رحمها الله رحمة واسعة.

اعتماد[1] زوجة المعتمد بن عباد

هي أم أولاده وتشتهر بالرميكية، وسبب اتصالها بالمعتمد هو كما قيل: إن المعتمد[2]

---

(١) هي اعتماد الرُّميكيّة، شاعرة أندلسية، كانت جارية لرميك بن حجاج فنسبت إليه. وآلت إلى المعتمد بن عباد، فتزوجها وولد منها: عباد الملقب بالمأمون، وعبيد الله الملقب بالرشيد، ويزيد الملقب بالراضي، والمؤتمن، وبثينة الشاعرة. وهي صاحبة «يوم الطين»، وقد رأت بعض نساء البادية بإشبيلية يبعن اللبن في القِرَب وهن ماشيات في الطين، فاشتهت أن تفعل فعلهن، فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد، وصيرها جميعاً طيناً في قصره وجعل لها قِرَباً وجبالاً من إبريسم، فخاضت هي وبناتها وجواريها في ذلك الطين. أغار يوسف بن تاشفين على إشبيلية فأسر المعتمد والرميكية وأرسلهما إلى أغمات من مراكش، معتقلين بعد أن قتل ولديهما المأمون والراضي، وماتت الرميكية في أغمات سنة ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م. قبل المعتمد بأيام.

(٢) هو محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل اللخمي، أبو القاسم، المعتمد على الله، صاحب إشبيلية وقرطبة وما حولهما، وأحد أفراد الدهر شجاعة وحزماً وضبطاً للأمور. ولد في باجة بالأندلس سنة ٤٣١ هـ/ ١٠٤٠ م. ولي بعد وفاة أبيه سنة ٤٦١ هـ، وامتلك قرطبة وكثيراً من المملكة الأندلسية واتسع سلطانه إلى أن وصل مدينة مرسيه، وأصبح محط الرحال يقصده الشعراء والعلماء والأمراء. وما اجتمع في باب أحد من ملوك عصره ما اجتمع في بابه من أعيان الأدب. وكان فصيحاً شاعراً، =

Marfat.com

ركب في النهر ومعه ابن عمار[١] وزيره وقد زردت الريح النهر فقال ابن عباد لوزيره: أجز (صنع الريح من الماء زرد). فأطال الوزير الفكرة فقالت امرأة من الموجودات على ضفة النهر: أي درع لقتال لو جمد. فتعجب ابن عباد من حسن ما أتت به مع عجز ابن عمار ونظر إليها فإذا هي غاية في الحسن والجمال فأعجبته فسألها: أذات بعل أنت؟ قالت: لا، فتزوّجها وولدت له أولاده الملوك النجباء.

ولما قال الوزير ابن عمار قصيدته اللامية الشهيرة في المعتمد والرميكية أغرت المعتمد به حتى قتله والقصيدة أوّلها:

ألا حيّ بالغرب حياً حلالاً أناخوا جمالاً وحازوا جمالا
وعرّس بيومين أم القرى ونم فعسى أن تراها خيالا

ويومين في قرية بإشبيلة[٢] كانت منها أوّلية بني عباد ومنها:

تخيرتها من بنات الهجان رميكية ما تسوّى عقالا
فجاءت بكل قصير العذار لئيماً يجارين عماً وخالا
قصار القدود ولكنهم أقاموا عليها قروناً طوالا
أتذكر أيامنا بالصبا وأنت إذا لحت كنت الهلالا
أعانق منك القضيب الرطيب وأرشف من فيك ماء زلالا
وأقنع منك بدون الحرام فتقسم جهدك أن لا حلالا
سأهتك عرضك شيئاً فشيئاً وأكشف سترك حالاً فحالا
فيا عامر الخيل يا زيدها منعت القرى وأبحت العيالا

ومنها: ولما خلع المعتمد وسجن بأغمات[٣] قالت له:

= وكاتباً مترسلاً، بديع التوقيع. ولم يزل في صفاء ودعة إلى سنة ٤٧٨ هـ وفيها استولى الروم بقيادة ملكهم الأذفونش (ألفونس السادس) على طليطلة. هاجم يوسف بن تاشفين المعتمد وأسره وزوجته وأرسلهما معتقلين إلى أغمات فمات في السجن سنة ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م.

(١) هو ابن عمار، أبو بكر، ١٠٣١ م ـ ١٠٨٤ م، شاعر أندلسي معاصر لابن زيدون. استوزره المعتمد بن عباد، ثم قتله.

(٢) إشبيلية: مدينة كبيرة عظيمة وليس بالأندلس اليوم مدينة أعظم منها. وبها قاعدة ملك الأندلس وسريره، وبها كان بنو عباد. وهي قريبة من البحر يطل عليها جبل الشرف. معجم البلدان، ج ١/ ص٢٣٢.

(٣) أغمات: ناحية في بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش، وهي مدينتان متقابلتان كثيرة الخير، ومن ورائها إلى جهة البحر المحيط. أهلها فرقتان يقال لإحداهما الموسوية من أصحاب ابن وَرْصَنْد، والغالب عليهم جفاء الطبع وعدم الرقّة، والفرقة الأخرى مالكية حشوية، وبينهما القتال دائم، وكل فرقة تصلي في الجامع منفردة بعد صلاة الأخرى. معجم البلدان، ج ١/ ص ٢٦٦.

Marfat.com

فقال:

يـــــا سيـــــدي لقـــد هنـــا هنـــا
قـــالـــت لقـــد هنـــا هنـــا مـــولاي أيـــن جـــاهنـــا
قلـــت لهـــا إلا هنـــا صيـــرنـــا إلـــى هنـــا

أغسطينا عذراء سرقسطه

عذراء توفيت في «كوتا» من إسبانيا في شهر حزيران سنة ١٨٥٧ [م] بعد أن طعنت في السن كانت في صباها تبيع مشروبات في «سرقسطه»(١)، فلما حاصر الفرنسيون المدينة المذكورة سنة ١٨٠٨ [م] وسنة ١٨٠٩ [م] اشتركت في المدافعة واشتهرت بما بدا منها من الشجاعة ولقبت بـ «لرتيلبارا» ومعناه طوبجيه لأنها نزعت فتيلة من لبرطوبجي كان في حالة النزع وأطلقت المدفع على المحاصرين، ومكافأة لها على خدمتها في وقت الحصار وجهت إليها قيادة فرقة من العساكر الإسبانيولية مع عدة نياشين، واستمرت في القتال حتى حازت النصر مراراً بفرقتها على الفرنساويين.

أفروسيني القديسة

ولدت بالإسكندرية(٢) لنحو سنة ٤١٣ للميلاد وكان أبوها من الأغنياء وتربت هي على العبادة والتقوى ونذرت نفسها للبتولية وأنها لا تقبل زوجاً لها أياً كان، فلما بلغت مبلغ النساء أراد أبوها أن يزوجها بأحد أقربائها، فلما أيقنت ذلك لبست ثوب رجل وفرّت من بيت أبيها ولجأت إلى أحد النسَّاك، ثم مضت إلى أحد الأديرة وسمت نفسها «زمرد» فقبلها الرهبان ولم يعرفوا أمرها، فأخذ أبوها يبحث عنها حتى جاء الدير وأخبر الرئيس بالخبر وهي حاضرة تسمع بدون أن يعرفها أبوها ولا الرئيس، فكانت تخاف أن تعرف، وعلى الخصوص أن أباها تردد كثيراً إلى ذلك الدير وكان يشكو للرئيس أمره، واستمرت على هذه الحالة ١٨ سنة. وقيل: ٣٠ سنة وهي ملازمة للصلاة والصوم والتقشفات والعبادة الحارة حتى مرضت وعرفت أن

---

(١) سرقسطة (Zaragoza): مدينة إسبانية على أبرو غربي برشلونة، احتلها العرب سنة ٧١٢ م، من عواصم الأندلس عاصمة بني تُجيب وبني هود من ملوك الطوائف. عاصمة مملكة أراغون في القرن الثاني عشر، فيها مركز ثقافي وفني، قصور وكنائس أثرية، متاحف غنية.

(٢) الإسكندرية: مدينة مصرية على المتوسط غربي فرع رشيد فوق شريط ضيق يفصل بحيرة مريوط عن المتوسط، أهم مرفأ في مصر تربطها بالقاهرة مواصلات حديدية وبرية ونهرية. أسسها الإسكندر سنة ٣٣٢ ق . م، فغدت عاصمة البطالسة ومركزاً للثقافة العالمية. اشتهرت بمدرستها للاهوتية والفلسفية، ومكتبتها الغنية في القرنين الثاني والثالث من أشهر علمائها أفلوطين. معجم البدان، ج ١/ ص ٢١٧.

Marfat.com

أجلها قد اقترب فدعت والدها وكشفت له أمرها وتوسلت إليه أن يفرح بذلك، ثم توفيت.

أفروسيني إمبراطورة الشرق

هي امرأة «ألكسيس الثالث»[١] الملقب «أنجلوس» (أي الملاك) ودبرت على وضعه على تخت الملك عوضاً عن أخيه إسحاق «أنجلوس» سنة ١١٩٥ [م]، غير أنها هي التي ملكت بالحقيقة وكانت موصوفة بجودة العقل والشجاعة والفصاحة غير أنها كانت متكبرة وسيرتها غير مرضية فعلم بذلك «ألكسيس» سنة ١١٧٨ [م] وخشي حدوث فتنة شديدة فطردت «أفروسيني» من البلاط وحبست في دير. وسنة ١١٨٤ [م] استدعاها الإمبراطور إلى البلاط غير أنها لم تهنأ بالملك ثانية من جراء ثورة «ألكسيس» الملقب بالشباب وهو ابن أخي «ألكسيس» الإمبراطور فإنه ثار على الإمبراطور بعد خذلانه في حرب البلغاريين واستنجد الجيوش الصليبية فأتت لمساعدته، ولما استولى الفرنساويون في الحرب الصليبية الخامسة على القسطنطينية هربت «أفروسيني» وطافت مدة مع زوجها في آسيا ثم قبض على زوجها وحبس فبقيت منفردة من سنة ١٢١٠ [م] إلى أن توفيت سنة ١٢١٥ [م].

أفذوكسيا[٢] زوجة الإمبراطور أركاريوس

«أثليا» ابنة الكونت «بوثون» الفرنجي، قائد «بتودسيوس الكبير»[٣] زوجها «أطروبيوس» الخرجبي بالإمبراطور «أركاديوس»[٤] وباسم «أركاديوس» ملك كلاهما، ولما سقط «أطروبيوس» من الملك حكمت «أفذوكسيا» بالقسط بين الناس ولم تقبل رشوة ألبتة كعادة ملوك ذلك الزمان، ولما نفت القديس «يوحنا فم الذهب» سنة ٤٠٣ م لأنه وعظ عن زينة النساء وأبطل زهوهن وشعب عليها الشعب فاستدعته بعد أشهر ثم نفته سنة ٤٠٤ م لأنه وبخ الشعب بقوة على ما حدث من الأمور [غير][٥] اللائقة عند نصب تمثال «أفذوكسيا» ثم توفيت «أفذوكسيا» وكانت قد ولدت لـ «أركاديوس» «تيورسيوس الثاني».

---

(١) ألكسيس الثالث: إمبراطور (١٢٠٤ م) قتله الصليبيون واحتلوا بيزنطة.

(٢) أفذوكسيا: أو أفدوكية (Eudoxia): توفيت ٤٠٤ م وهي إمبراطورة بيزنطية زوجة أركاريوس أو أركاديوس اشتهرت بتسلّطها. قاومها القديس يوحنا فم الذهب فنفته.

(٣) بتودسيوس: أو ثيودوسيوس هو أول إمبراطور بيزنطي.

(٤) أركاريوس: أو أركاديوس (Arcadius) ابن تيودوسيوس أول إمبراطور بيزنطي ٣٩٥ ـ ٤٠٨ م.

(٥) وردت في الأصل: «الغير»، ولعل الصحيح ما أثبتناه وذلك لأن «غير» عندما تضاف لا يجب أن ترتبط بأل التعريف. المعجم الميسر في القواعد والبلاغة والإنشاء والعَروض، محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨.

Marfat.com

أفذوكسيا[١] ابنة الفيلسوف ليونكيوس اليوناني

امرأة «تيودسيوس الثاني»[٢] كان اسمها قبل أن تعمدت وتزوجت «أثيناس» وكان أبوها قد علمها العلوم الفلسفية والمعارف والآداب وكانت فوق ذلك بديعة الجمال ولما رآها أبوها في درجة عالية من حسن العقل والجد حرمها من ميراثه لعلمها بكفايتها في تحصيل أكثر مما يلزمها فتوجهت إلى القسطنطينية تطلب حقها من الإمبراطور «بلكيريوس» فعجب من علمها وحسن تصرفها وزوّجها بأخيه «تيودوسيوس» سنة ٤٢١ م فلم تهمل العلوم واشتهرت بها ونشطتها فازدحمت على بابها أقدام العلماء وأحبها واحد منهم يقال له: «يولنبوس» فقتله «تيودوسيوس» غيرة إذ رأى كثرة اتصاله بها وأسقط منزلة «أفذوكسيا» فطلبت الرحيل إلى بيت المقدس، فأذن لها وأتبعها الملك بالرقباء، وأمر والي أورشليم بقتل «خوري» و«شماس» كانا يترددان إليها فغضبت «أفذوكسيا» وقتلت الوالي فنزع عنها الملك كل شرف واستحقاق ملكي.

وكانت «أفذوكسيا» قد تبعت رأي «أوطنجا»[٣] غير أنها ارتدت بإرشادات القديس «أفتيموس»[٤].

وتوفيت بأورشليم سنة ٤٦٠ [م] بعد أن برأت نفسها بالإقسام من التهم التي اتهمها بها الإمبراطور، وكانت قد أسست أديرة وكنائس وألفت عدة تآليف وكتب سيرة حياتها «فليفور» المؤرخ الشهير.

أفذوكسيا أنفثاث زوجة فالنتيانوس

كانت «أفذوكسيا» امرأة «تيودوسيوس» وتلقب بالفتاة، ولدت في القسطنطينية [سنة] ٤٢٢ [م]، ولما قتل زوجها كان شخص يدعى «مكسيميوس» شريكاً في قتله وهي لم تعلم ذلك فتزوجته وزوجت ابنتها بابنه لكنها لما علمت الأمر من نفس «مكسيميوس» استدعت

---

(١) أفذوكسيا: أو أفدوكية (Eudoxia) توفيت ٤٦٠ م هي إمبراطورة بيزنطية زوجة ثيودوسيوس الثاني. أسهمت في انتشار الهلنستية في إمبراطورية الشرق.

(٢) بتودسيوس: أو ثيودوسيوس الثاني إمبراطور بيزنطي ٤٠٨ م ـ ٤٥٠ م. ابن أركاديوس وخلفه، تأثر بزوجته أفدوكية وبأخته، فمال إلى رأي نسطو ودعا إلى عقد مؤتمر أفيس، حيث خُذل. أسس جامعة القسطنطينية ٤٢٥ م وأمر بجمع القانون الثيودوسي.

(٣) أوطنجا: أو أوطيخا الذي توفي حوالي سنة ٤٥٤ م، هو راهب بيزنطي قال بوحدة الطبيعة أي المونوفيزية فحرّمه المجمع الخلقيدوني سنة ٤٥١ م.

(٤) أفتيموس: أو أفتيمُس الكبير ٣٧٧ م ـ ٤٧٣ م. هو قديس ولد في ملطية، ينسّك في فلسطين، أسس عدة أديرة قاوم المونوفيزية.

Marfat.com

إلى إيطاليا «جنسريك» ملك القندالة فاكتسح رومية وأبقى «أفذوكسيا» عنده سبع سنين ثم رجعت إلى القسطنطينية سنة ٤٦٢ [م]، وأكملت حياتها بالرياضات والعبادة.

أفذوكسيا زوجة الإمبراطور قسطنطين دوكاس[١]

دعت لنفسها بالملك بعد وفاة زوجها سنة ١٠٦٧ [م] لتثبت لأولادها حق الملك وأراد بعض كبراء الدولة أن يخلعها من السلطنة فحكمت بقتله غير أنها لما رأته خلب لبها بجماله غضت عنه وجعلته قائد جيوش المشرق، ثم تزوجته سنة ١٠٦٨ [م] بعد أن احتالت على البطريك «كسيفينوس»[٢] وأخذت منه صكاً كانت قد تعهدت فيه لزوجها الأول إنها لا تتزوج بعد موته طول حياتها ولما تولى الإمبراطورية ابنها «ميخائيل»[٣] بعد ثلاث سنين من زواجها حبسها في دير، وكانت «أفذوكسيا» قد تضلعت من العلوم وألفت تآليف معتبرة منها تآليف في نسب المعبودات والأبطال من رجال ونساء وهو كتاب لطيف جداً وكتاب في تعليم النساء، وكتاب في شغل الأميرات، وكتاب في عيشة الرهبانية إلى غير ذلك من الكتب العلمية والتاريخية التي خلدت لها ذكراً في بطون الأوراق.

أفذوكسيا لابوشين إمبراطورة روسيا

هي أول امرأة لبطرس الأكبر[٤] وأم «ألكسيس»[٥] ـ المنكود الحظ ـ اتهمها زوجها بمواصلة رجل من الأشراف اسمه «كلبو» وهجرها ثم نفاها إلى دير بالقرب من بحيرة «لادوغا»[٦]، وأما «كلبو» فحكم عليه بالموت تحت العذاب الشديد ومع ذلك لم ينطق إلا

---

(١) دوكاس: أسرة بيزنطية من الأباطرة منها: قسطنطين العاشر ـ وهو المقصود هنا ـ وميخائيل السابع، وألكسيس الخامس.

(٢) كسيفينوس: أو يوحنا كسيفيلين (Xiphilin)، هو بطريرك القسطنطينية ١٠٦٤ م ـ ١٠٧٥ م، من فقهاء زمانه.

(٣) ميخائيل: ينحدر من أسرة دوكاس البيزنطية وهي من أسر الأباطرة منها: قسطنطين العاشر، وميخائيل السابع ـ وهو المقصود هنا ـ وألكسيس الخامس.

(٤) بطرس الأكبر: أو بطرس الأول الأكبر ١٦٧٢ ـ ١٧٢٥ م، هو قيصر روسيا ١٦٨٢ م، وحّد السلطة ونظم الإدارة والجيش، وسع حدود بلاده، وفرض سيادة الدولة. زار بلاد أوروبا. أسس بطرسبرج سنة ١٧٠٣ م، وجعلها عاصمة، شجع العلوم، فرض نظام السيندوس. من أكبر قياصرة روسيا وأعظمهم خلفته زوجته كاترين الأولى.

(٥) ألكسيس: هو ألكسيس ميخائليوفيتش (Alxis Mikhailovitch)، ابن بطرس الأكبر من أفذوكسيا لابوشين.

(٦) لادوغا (Ladoga): بحيرة روسية شرقي بطرسبرج تشكل امتداداً لخليج فنلندا، فيها جزر عديدة، =

Marfat.com

ببراءة «أفذوكسيا» ثم استرجع الإمبراطور امرأته وماتت بعد ذلك بقليل.

أكتافيا شقيقة الإمبراطور أوغسطوس(١)

زوجة «مرقس أنطونيوس» توفيت سنة ١١ قبل الميلاد، تزوجت أولاً بـ«كلوريوس مرشلوس» وكان «يوليوس قيصر»(٢) يرغب في فصلها عنه ليزوجها بـ «بمباي»(٣) إلا أن «بمباي» أبى ذلك فبقيت مع زوجها، ولما توفي سنة ٤١ قبل الميلاد تزوجها «مرقس أنطونيوس» فتمكّن بذلك الاتحاد بينه وبين «أكتافيوس» وصحبت زوجها الجديد في حروبه بالشرق وبواسطتها زال ما كان بينه وبين أخيها من الخلاف سنة ٣٧ قبل الميلاد.

ثم سار «مرقس أنطونيوس» لمحاربة البرثيين فشغف بحب «كليوباتره» ولما أتت «أكتافيا» إلى بلاد الشرق سنة ٣٥ قبل الميلاد بنجدات ومهمات ونقود لزوجها قبل ما أتته به ولكنه أبى مقابلتها، فرجعت إلى إيطاليا ولم ترغب قط في مقابلة زوجها، بل أقامت في بيته وكانت تربي أولاده إلا أن أخاها «أوغسطوس» ساءه ذلك وعزم على الأخذ بالثأر، فشهر الحرب على «أنطونيوس» وكسره في موقعة «أكتيوم»(٤) المشهورة غير أن «مرقس» بعث إلى «أكتافيا» بكتاب الطلاق سنة ٣٢ قبل الميلاد فانتقلت إلى بيت أخيها «أوغسطوس» وبعد وفاة زوجها المذكور جعلت أولاده من «فولڤيا» و«كليوباتره» مع أولادها فكانت تربيهم تربية واحدة من دون فرق بينهم وكان لها خمسة أولاد ثلاثة من «مرشلوس»، وابنتان من «مرقس أنطونيوس» اسم كل منهما «أنطونيا»، إحداهما تزوجت بـ«دوميتيوس أهينو بريوس دتيرون»

= تصب فيها بحيرات: أونيفا، وإيلمن، وسايما، فيها ملاحة ناشطة تربط البلطيق بالبحر الأبيض والفولغا.

(١) أوغسطوس: (٦٣ ق.م ـ ٤١ م) ابن قيصر بالتبني اشترك في حكم المثلث الثاني مع أنطونيوس وليبيدس انفرد بالحكم وأسس النظام الإمبراطوري بعد انتصاره في أكسيوم سنة ٣١ ق . م. أقر السلم وشجع الأدباء. في أيامه ولد المسيح.

(٢) يوليوس قيصر (Caesar): من كبار رجال الدولة والقواد في روما والعالم ١٠١ ـ ٤٤ ق . م. ألف المثلث الأول بومپيوس وكراسوس ٦٠ ق . م. انتخب قنصلاً سنة ٥٩ و٥٦ ق . م. فتح غاليا سنة ٥٨ ـ ٥١ ق . م. وعاد إلى روما ففرض حكمه الفرد عليها رغم الحرب الأهلية. تخلص من بومپيوس بعد معركة فارسال سنة ٤٨ ق . م. عشق كليوباترا ملكة مصر ورزق منها ولداً. أعاد تنظيم الإدارة الرومانية. تآمرت عليه الطبقة الأرستقراطية في مجلس الشيوخ فاغتيل. له تاريخ في الحرب الأهلية.

(٣) بمباي: أو بومپيوس (Pompeius) سنة ١٠٦ ق ـ ٤٨ ق . م. قائد روماني. أحد حكام روما الثلاثة مع قيصر وكراسيس. فتح سوريا وجعلها إقليماً رومانياً سنة ٦٤ ق . م.

(٤) أكسيوم (Actium): مدينة قديمة في اليونان اشتهرت بمعركة بحرية انتصر فيها أوكتافيانس وأغريپا على أنطونيوس سنة١٣ ق . م.

Marfat.com

الذين جلسوا على تخت الإمبراطورية الرومانية وماتت «أكتافيا» حزناً على ابنها «مرشلوس» الذي ولد لها من زوجها الأول فإنه توفي في عنفوان شبابه بعد أن كان «أوغسطوس» قد زوجه ابنته «جوليا» وعيَّنه وارثاً له في الإمبراطورية.

وكانت «أكتافيا» على جانب عظيم من التهذيب وحسن الأخلاق، وجودة العقل، وسعة المعارف. وقد أجمع أهل زمانها على أنها كانت أجمل من «كليوباتره».

أكتافيا ابنة الإمبراطور كلوريوس

من زوجته «مسالينا» خطبها «لوسيوس سيلاتوس» حفيد «أوغسطوس» إلا أن أمها أبطلت تلك الخطبة وزوجتها بابنها «نيرون»[١] من زوجها «دوميتيوس أهينو بريوس» فطلقها لما جلس على تخت الملك مدعياً أنها عاقر، وتزوَّج بـ«بوبيا» وبعد ذلك نفاها إلى «أكميانيا» لأن «بوبيا» اتهمتها بعشق عبد مصري شاب اسمه «أوساروس» كان يحسن الغناء بالمزمار فاضطرب لذلك، وساءهم هذا الظلم جداً، فاضطر إلى أن يطفئ غيظهم «نيرون» فاستدعى «أكتافيا» إلى رومية فقابلها الشعب بإكرام وسرور لا مزيد عليهما، وكسروا تمثال «بوبيا» فعزمت هذه على الانتقام وحرمت «نيرون» بتذمرها لذيذ المنام فأمر «أنبسيت» قاتل أمه أن يصرِّح أنه ضاجع «أكتافيا» فنفاها إلى جزيرة «بنداثاريا»، وهناك قُطعت عروقها لقتلها بنزف دمها فمنعت الرعية جريان الدم فخنقت ببخار حمام حار، وأرسل رأسها إلى «بوبيا» سنة ٦٢ للميلاد وكان لها من العمر حينئذٍ ٢٠ سنة فقط.

أليصابات زوجة زكريا[٢]

هي أم القديس «يوحنا المعمدان»[٣] وقد ولدته في شيخوختها بعد أن كانت عاقراً وكان أبوها من نسل «هارون»[٤] وأمها من سبْط «يهوذا»[٥]، ولذلك كانت من ذوات قرابة السيدة

---

(١) نيرون (Nero): إمبراطور روماني ولد ٣٧ م حكم من سنة ٥٤ م ـ ٦٨ م. هو ابن كلوديوس بالتبنّي. اتبع في البَدء نصائح معلّمه الفيلسوف سينيكا، ثم طغا. قتل أغريبينا أمّه، وأوكتافيا امرأته. اضطهد المسيحيّين واتّهمهم بإحراق روما. اشتهر بفظائعه. انتحر سنة ٦٨ م.

(٢) زكريا: كاهن هيكل أورشليم.

(٣) يوحنا المعمدان: من أنسباء يسوع المسيح، عاش في بريّة اليهوديّة، ثم ظهر على شاطئ الأردن يعمّد بالماء ويبشّر بمجيء المسيح. قطع هيردوس رأسه بتحريض هيروديّة زوجته نحو سنة ٣١ م.

(٤) هارون: أخو موسى وأوّل أحبار بني إسرائيل.

(٥) يهوذا: أو تَدَّاوس الرسول أحد أنسباء يسوع المسيح، ومن تلاميذه الاثني عشر.

Marfat.com

مريم العذراء[١]، وقد زارتها السيدة المذكورة في حبرون (الخليل)[٢] في أيام حملها، وذهب القديس «بطرس الإسكندري» إلى أنها تركت تلك المدينة عندما قتل «هيرودس»[٣] الأطفال والتجأت مع ولدها إلى كهف في جبال «بهوذا» فماتت هناك بعد أربعين يوماً من دخولها الكهف المذكور، وتركت القديس «يوحنا» وحده من دون معين فأقام على هذا الحال مدة طويلة. وقد أطنب المؤرخون في تعداد فضائلها ووصف تقواها.

أليصابات ابنة هنري الثامن، ملكة إنكلترا

ولدت لـ«هنري»[٤] من زوجته «حنة بولين» وآخر من ملك من بيت «تودور» ولدت سنة ١٥٣٣ [م]، وتوفيت سنة ١٦٠٣ [م]. جعلت ولية للعهد حال ولادتها وذلك بموجب قرار صدر من المجلس العالي، وبه حرمت أختها «ماري» ابنة «كاترينا» الأراغونية من الملك مع أنها كانت أكبر منها بسبع عشرة سنة.

وفي السنة الثالثة من عمرها حدث ما أفضى إلى قتل أمها فصرّح بأنها ابنة غير شرعية وتبدل ما كان لها من الاعتبار بالاحتقار، وتعلمت «أليصابات» اللغات اللاتينية والفرنساوية والإيطاليانية، والإسبانيولية، والفلمنكية وترجمت مؤلفاً من اللغة الإيطاليانية إلى الإنكليزية وجعلته تقدمة لرابتها غير أنها كانت تفضل التاريخ على ما سواه من العلوم، وشاركت أخاها في الدروس التي ألقاها عليه رجل من أوفر أهل إنكلترا علماً وأوسعهم معرفة.

ولما توفي «هنري الثامن» في سنة ١٥٤٧ [م] أوصى بالملك من بعده لابنته «ماري» ولـ«أليصابات» من بعدها، وعيَّن لـ«أليصابات» مرتباً وافراً، وكان الناس حينئذٍ يحسبونها مناظرة لأختها «ماري» ورئيسة للحزب البروتستانتي، كما كانت «ماري» رئيسة للحزب الكاثوليكي.

---

(١) مريم العذراء: القديسة العذراء، أم يسوع، ابنة يواكيم وحنّة من سبط يهوذا من آل داود. عاشت في الناصرة حيث ظهر لها الملاك جبرائيل وبشّرها بالحبل.

(٢) حبرون: أو الخليل وهي مدينة في فلسطين بالضفة الغربية. فيها قبر النبي إبراهيم الخليل. وحبرون هي تسميتها القديمة.

(٣) هيرودس: اسم أربعة من ملوك اليهود، والمقصود هنا هو هيرودس الأول الكبير ٧٢ ـ ٤ ق . م. ولد في عسقلان. ملك اليهودية من ٤٠ ـ ٤ ق.م. جمّل هيكل أورشليم وبنى هيكل السامرة. اشتهر بحبّه للعمران. أمر بذبح أطفال بيت لحم.

(٤) هنري الثامن: ملك من ملوك بريطانيا ملك عام ١٥٠٩ م. ولد سنة ١٤٩١ م وتوفي سنة ١٥٤٧ م. انتصر على الفرنسيّين سنة ١٥١٣ م. انفصل عن الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٥٣٥ م. تزوج ست نساء، من بينهن كاترينا الأرغونية، وآن بولين.

Marfat.com

وسنة ١٥٥٤ [م] تزوجت «ماري» بـ«فيليب الثاني»[١]، ملك إسبانيا، وأمست تؤمل أن ترزق منه ولداً يرث الملك من بعدها وكان «فيليب» يعامل «أليصابات» باللطف، ويظهر لها الوداد، وتمكنت الصداقة والمحبة بين الأختين في الأشهر الأخيرة من حياة «ماري»، ولما توفيت ماري سنة ١٥٥٨ [م] خلفتها «أليصابات» على تخت الملك من دون ممانع وبعد ستة أشهر من جلوسها على التخت أبطلت الصلوات الكاثوليكية من كنيستها الخصوصية وأبت في أول الأمر أن تلقب برئيسة الكنيسة البروتستانتية وسمت نفسها والية لها إلا أنها أنفذت فيها سلطتها أخيراً ولم يكن لها معارض فيما تفعله وكان القوم في فرنسا يدعون لـ«ماري ستوارت»[٢] ملكة سكوتلندا بحق التملك على إنكلترا، وكانت هذه الدعوى من شأنها أن تأتي بنتائج رديئة وتسوق إلى الحرب، وأخذت «أليصابات» تتداخل في أمور سكوتلاندا ونجح الحزب البروتستانتي فيها بمساعدتها وحاول البابا «بيوس الرابع»[٣] أن يرد الملكة إلى الدين الكاثوليكي فحبط سعيه، وأرجعت قيمة المسكوكات الإنكليزية إلى ما كانت عليه سنة ١٥٦٠ [م] فنشأ عن ذلك الإصلاح خير عظيم ونجاح للبلاد وأرسلت إلى الهوغنو الفرنساويين إمداداً من المال والسلاح والرجال وأمدَّت أيضاً بروتستانت الفلمنك سراً، ولما طلبت «ماري» ملكة سكوتلاندا أن يسمح لها أن تنطلق بأمان من فرنسا إلى سكوتلاندا لم تجبها «أليصابات» إلى طلبها ويقال: إنها حاولت إلقاء القبض عليها.

وسنة ١٥٦٣ [م] طلب إليها المجلس العالي أن تتزوج لأن مسألة إرث الملك مما يهم رعاياها وخطبها كثيرون من إنكلترا والبلدان الأجنبية وكان من أعظم الإنكليز الذين رغبوا في الاقتران بها «هنري فتزالان»، ثامن عشر أرلات أرندل وآخرهم، وطلب إليها أيضاً أن تعترف بـ«ماري ستوارت» ولية للعهد فأبت، ولم تبرم المسألة وخطبها «شارل التاسع» ملك فرنسا فلم تجبه إلى سؤاله ومن جملة الذين رغبوا في الاقتران الأرشيدوق «كارلوس» ابن إمبراطور ألمانيا وكانت محبة الأرشيدوق تنمو يوماً فيوماً في قلبها، وكان الناس ينتظرون يوماً فيوماً اقتران الملكة بحبيبها وساء «أليصابات» تزوّج «دارنلي» بـ «ماري ستوارت» وتكدَّر الإنكليز عموماً من ولادة ولد لهما لأن ذلك دل على أن الملك سينتقل فيما بعد إلى كاثوليكي، وفي تلك الأثناء حدثت قلاقل داخلية جديدة، واشتدت المصاعب الخارجية على الدولة لأن قبول

---

(١) فيليب: اسم حمله خمسة من ملوك إسبانيا أشهرهم فيليب الثاني ابن كارل ١٥٢٧ م ـ ١٥٩٨ م.

(٢) ماري ستوارت: ملكة استكتلندا، ثم ملكة فرنسا بعد زوجها بفرنسوا الثاني. ترمّلت بعد سنة وعادت إلى بلادها. ثار عليها شعبها فعادت إلى إنكلترا، فأسرتها إليزابيت الأولى وأعدمتها. ١٥٤٢ ـ ١٥٨٧ م.

(٣) بيوس: اسم حمله بابوات عدّة والرابع واحد ممّق عاصر إليصابات.

Marfat.com

المضطهدين الفارِّين من الفلمنك في إنكلترا وتأمينهم على أرواحهم ساء إسبانيا فأهينت الراية الإنكليزية في خليج مكسيكو وكذلك سفيرها في مدريد، فاستولت الملكة على مال لإسبانيا وجدته في سفن إسبانيولية التجأت إلى مرافئ إنكلترا ولما حجز الفلمنكيون أملاك الإنكليز في الفلمنك وسجن أصحابها، ألقت القبض على كل الإسبانيول المقيمين في إنكلترا وعلى سفير دولتهم أيضاً وخاطبت فيليب الثاني في ذلك رأساً فأجابها بكبرياء وتهددها بالحرب، وكان دوق «نرفلك» قد انحاز إلى «ماري ستوارت»، وتعلق بها فحذرته «أليصابات» من ذلك، ثم ألقت عليه القبض وسجنته.

وسنة ١٥٦٩ [م] حدثت الثورة الشمالية العظيمة تحت رياسة «أرلي» و«ستمورلاند» و«نورثمبرلاند» الكاثوليكيين فأخمدها «أرل سكس» في الحال، وقتل ٨٠٠ من العصاة.

وسنة ١٥٧٠ [م] حرم البابا «بيوس الخامس»[١] الملكة «أليصابات» وعلَّق رجل من الكاثوليك اسمه «فلتون» نسخة من الحرم على باب قصر الأسقفية في لندن فقبض عليه وقتل صبراً[٢] وبعد أن حبط مسعى القوم في عقد الزواج بينها وبين الأرشيدوق «كارلوس» عرض عليها أن تتزوج بدوق «أنجو» الذي صار فيما بعد ملكاً لفرنسا وسمي «هنري الثالث»[٣] وكان آخر رجل من بيت. قالوا: فلما ألقيت المسألة على ديوان المشورة قال بعض الأعضاء: إن الدوق لا يلائم الملكة لأنه أصغر منها سناً (وكان عمره ٢٠ سنة وعمرها ٣٧ سنة) فأغضبها ذلك جداً.

ويستدل من هذه الحادثة وما أشبهها أنها لم تكن تراعي جانب الخلوص في مثل هذه الأمور، وأنها كانت تغتاظ غيظاً شديداً عندما ترى أحداً من خاطبيها يتزوج بغيرها بعد أن ييأس منها وجعلت «سسيل» لورد «بورليغ» وزيراً لها ووجهت إليه نظارة الخزينة وإلى السير «توماس» سميت مستشارية الدولة، وحصل لـ«هاتون» أهمية كبرى لأن الملكة أحبته كثيراً لكمال صفاته وجماله، واتهمها الناس أنها تعشقه وحباً بنفعه نزعت من أسقف لها كثيراً من الأوقاف وبعثت إليه برسالة في ثلاثة أسطر غاية في الخشونة.

وفي أثناء الكلام عن اقترانها بدوق «أنجو» عرضت عليها أمه أن تزوجها بأخيه «ألنسون»

---

(١) بيوس الخامس: القديس ١٥٦٦ ـ ١٥٧٢ م. حرم إليزابيت الأولى ملكة الإنكليز، تحالف مع البندقية وإسبانيا فكسروا الأتراك بحراً في ليبانت ١٥٧١ م.

(٢) صبراً، ومصبوراً: هو من سجن حتى الموت. [القاموس المحيط، مادة: صبر].

(٣) هنري الثالث: أحد ملوك فرنسا ١٥٥١ ـ ١٥٨٩ م. ملك سنة ١٥٧٤ م. عقد صلحاً مع البروتستانت سنة ١٥٧٦ م قاومه الكاثوليك فانهزم إلى شارتر، وأمر باغتيال كردينال اللورين. قتله جاك كليمان.

Marfat.com

وكان أصغر منها باثنتين وعشرين سنة قبيح الخَلق والخُلق، ثم انقطعت المراسلات بين «أليصابات» و«أنجو» فطلب إليها الإمبراطور «مكسيميليان الثاني»[١] أن تتخذ ابنه «رودلف» بعلاً لها مع أنها كانت في العمر أكبر من أمه وعرض عليها أيضاً «هنري دو نوارة» إلا أن قلبها كان لم يزل متعلقاً بدوق «أنجو» وأظهرت أنها عدلت عنه لأسباب دينية، وحاول «فيليب الثاني» أن يقتلها فواطأ على ذلك كلاً من «نرفلك» و«ماري ستوارت» فكشفت المؤامرة وقتل «نرفلك» و«ماري ستوارت» ثم استؤنف الكلام عن اقترانها بـ «ألنسون» أخي دوق «أنجو»، وأصدر المجلس العالي قراراً بقتل «ماري ستوارت» فلم تسلم «أليصابات» بذلك، وفي تلك الأثناء حدثت ملحمة «سنت برثلماوس» سنة ١٥٧٢ [م]، فاشتد غيظ الإنكليز وهاجوا على «ماري» وطلبوا قتلها فلم تجبهم «أليصابات» إلى ذلك رأساً، بل قبلت بتسليمها إلى السكوتلانديين الذين كان الإنكليز يعتقدون أنهم يقتلونها حالما يقبضون عليها.

وسنة ١٥٧٥ [م] طلب الهولنديون إلى «أليصابات» أن تملك عليهم لأنهم كانوا يعتبرونها من نسل «فيليبادوهينو» فلم تجبهم إلى ذلك، ولا ساعدتهم، ولكنها قبلت سنة ١٥٧٨ [م] أن تمدهم بالمال والرجال، واشترطت عليهم شروطاً يمكنها بها أن تسترجع ما تنفقه عليهم وحدث في إيرلاندا ما أتبعها وأقلقها، وكان الإيرلانديون يسمون الحرب التي أقامها اللورد «منتجوى» هناك حرب الساحرة استهزاء بالملكة وتكاثرت المؤامرات حولها وكان محورها «ماري ستوارت» وكان لليسوعيين يد قوية فيها وثبتت مداخلة «مندوزا» سفير إسبانيا في إحداها فأكره على الخروج من إنكلترا وقتل وسجن كثيرون من المتآمرين.

أما «فيليب هورد أرل أرندل» وابن دوق «نرفلك» فحكم عليه بالقتل وبعد أن حبس مدة طويلة مات في السجن وألف «ليستر» جمعية لوقاية الملكة ممن سماهم بالمتآمرين الثانويين، وأثبت المجلس العالي ذلك بقرار أصدره وعزم على قتل «ماري ستوارت» إذ سعت في قتل «أليصابات» ثم كشفت مؤامرة تحت رياسة «أنثوني بابنفتون» كان في نيتها قتل الملكة وإخلاء سبيل «ماري» فعاد ذلك بالويل على «ماري» بدلاً من أن تجرّ منه نفعاً فجرت محاكمتها واختلف القضاة في ذلك اختلافاً عظيماً غير أنه حكم عليها بالاشتراك في المؤامرة وقتلت في «فوثرنفاي» في ٨ شباط (فبراير) سنة ١٥٨٧ [م] فحزنت عليها «أليصابات» ظاهراً حزناً شديداً، وقد تقرر فيما بعد واتضح جلياً أن توقيعها على الحكم الصادر بقتل «ماري» كان محض تزوير.

---

(١) مكسيميليان: اسم اثنين من الأباطرة الجرمانيين واثنين من ملوك باڤاريا. أشهرهم مكسيميليان الثاني أحد ملوك باڤاريا.

Marfat.com

ومما لا ريب فيه أنها أرسلت إلى قلعة «فوثرنفاي» من دون علمها ولا أمرها، وكانت أحوال فرنسا مما لا يوجب الخوف من هذا القبيل إلا أن البابا وملك إسبانيا كانا من أعداء «أليصابات» الألداء يرغبان في تنكيلها وقهرها فحرمها البابا «سكستوس الخامس»(١) وشهر عليها حرباً صليبية وادّعى «فيليب الثاني» بتاج الملك وبنى دعواه على أنه وارث شرعي لبيت «لانكستر» لكونه من سلالة ابنتي «جون أف غونت» اللتين ملكتا «برتوغال»(٢) و«قسطيلة»(٣) وتجهز جهاراً للحصول على مطالبه ووعده البابا بمساعدات كثيرة شرطية، وفي تلك الأثناء أغار «دراك» على سواحل إسبانيا فعاث فيها ونهب سفنها وهجم على ميناء «قادس»(٤) فألحق بسفنها ضرراً كبيراً وتهيأ الإنكليز بسرعة لملاقاة عسكر «فيليب» فنزعوا الشقاق من بينهم واتحد الكاثوليك والبيورتيانة وباقي الشعب فكانوا يداً واحدة وجهزوا أسطولاً مؤلفاً من ١٨٠ سفينة تحت قيادة اللورد «هورد أف أفنغام» وقيادة «دراك» و«فروبيشر» و«هوكنس» وجمعوا جيشين مؤلفين من ٦٠ ألف مقاتل.

أما الأسطول الإسبانيولي فسار من إسبانيا في ٢٩ أيار (مايس) سنة ١٥٨٨ [م] لغزو إنكلترا ولكن هبت زوبعة شديدة أكرهته على الرجوع ولم يلتق الأسطولان إلا في شهر تموز (جولية) فتقاتلا قرب ساحل إنكلترا وبعد أن استمرت الحرب بينهما سجالاً مدة سبعة أيام انكسر الإسبانيون وتبدد شملهم.

وسنة ١٥٨٩ [م] أرسلت «أليصابات» جيشاً لتخليص البرتوغال من أيدي الإسبانيول فصادف فشلاً مع أنه خرج من البحر، ووصل إلى ضواحي «لبسبون» وأمدت «هنري الرابع» ملك فرنسا بالمال والرجال لأنه كان يحارب إسبانيا والاتحاد المشهور بين سنة ١٥٩٠ [م]، وسنة ١٥٩١ [م]، وسنة ١٥٩٣ [م] التأم المجلس العالي وبعد مشاحة(٥) جرت له مع الملكة خضع لها وساء «أليصابات» عزم «هنري الرابع»(٦) على ترك المذهب البروتستانتي وكشفت

---

(١) سكستوس الخامس: أو سيكستس (Sixte) اسمه حمله خمسة باباوات أشهرهم: سيكستس الخامس ١٥٨٥ ـ ١٥٩٠ م مُصلح الرهبانيات، وباني قبّة كنيسة القديس بطرس الكبرى.

(٢) برتوغال: أو البرتغال (Portugal) جمهورية في جنوب أوروبا على الأطلسي بشبه جزيرة إيبريا غربي إسبانيا. عاصمتها لشبونة وأهم مدنها پورتو.

(٣) قسطيلة: منطقة وسط إسبانيا تقسمها الجبال إلى قسم شمالي وقسم جنوبي.

(٤) قادس: أو قادش (Cadiz)، مدينة إسبانية في الأندلس على خليج قادس بالأطلسي. أسسها الفنيقيون نحو سنة ١١٠٠ ق.م، حصنها العرب.

(٥) مشاحة: صعوبة وشدة.

(٦) هنري الرابع: كان بروتستانتياً حكم فقامت بوجهه معارضة قوية، ثم ارتد إلى الكثلكة ١٥٩٣ م. انتصر على الإسبان. أذاع قرار نانت الذي وضع حداً للحروب الدينية في بلاده، اغتيل سنة ١٦١٠ م، وكانت=

Marfat.com

مؤامرة عقدها جماعة أرادوا أن يدسوا إليها السم في شراب أو غيره وقتلت «رودريا» «غولوبس» وهو بهوري إسبانيولي الأصل كان في خدمتها عدة سنين، وذلك لاشتراكه في تلك المؤامرة وفي ذلك الوقت عمت الاضطهادات الدينية إنكلترا كلها وقتل كثيرون من وجوه البيورتيانة، وكانت الحرب مع إسبانيا جارية على قدم وساق.

وسنة ١٥٩٦ [م] فتح «قادس» أسطول وجيش إنكليزيان تحت قيادة «هورد أف أفنغام» و«أسكس». وكان «أسكس» حينئذٍ أكثر أهل إنكلترا نفوذاً وسطوة، إلا أنه لقصر عقله وسوء تدبيره لم يعد عليه مركزه ولا اعتبار الملكة له بأقل نفع، وكثرت الدسائس في البلاط الملكي فأمسى «أسكس» وهو أكرم رجال الدولة وأقلهم دراية آلة في أيدي أهل الغايات والمطامع وأرسل «أسكس» لمحاصرة الإسبانيين في بلادهم وفي الأقيانوس الأتلنتيكي: أن «فيليب الثاني» حاول أن يجعل ابنته ملكة لإنكلترا فلم يفعل شيئاً فأغضب ذلك الملكة، ولكن لم تلبث أن رضيت عنه وتمكن من مقاومة «بورليغ» ومضادته إلى أن عرف «بورليغ» المذكور أن بينه وبين ملك سكوتلاندا مراسلة، ولما عزم «هنري الرابع» على عقد الصلح مع إسبانيا ورأى أن ذلك مما يغيظ «أليصابات» عرض على إنكلترا وإسبانيا عقد الصلح وتوسط الخلاف بينهم، فصادق «بورليغ» على ذلك وخالفه «أسكس»، وفي مجلس من الوزراء عقدته الملكة للنظر في مصالح «إيرلندا» حوّل «أسكس» قفاه للملكة باستخفاف فصفعته وقالت له: اذهب، لا سلمك الله فأغلظ لها «إرل أسكس» الكلام وهاج وماج وخرج من المجلس وبينما كان قوم يحاولون مصالحتهما توفي «بورليغ» في ٤ آب (أغسطوس) سنة ١٥٩٨ [م].

وبعد ذلك بستة أسابيع توفي «فيليب الثاني» فرجع «أسكس» إلى البلاط الملكي وبعد مدة وجيزة انتخب لوردا والياً لـ «إيرلندا» وكانت تلك البلاد حينئذٍ في حال تعيسة ولم يوجه إليه ذلك المنصب عن حب بل عن غيظ وسعى له فيه أعداؤه المدبرون على هلاكه وكان هو من أهل السياسة الدولية لا من المضطلعين بسياسة الأهالي ومن أهل الشرف لا من رجال الحرب فحبطت مساعيه في «إيرلندا» فرجع منها من دون إذن، وسلك طريق التهوّر والشطط فكان كالباحث على حتفه بظلفه فسيق إلى دكة المجرمين فقتل عليها سنة ١٦٠١ [م]، وأمسى السير «روبرت سسيل بن بورليغ» أكثر وزراء «أليصابات» نفوذاً وكان بينه وبين ملك سكوتلاندا مراسلة وطلبت الملكة أن «هنري الرابع» ملك فرنسا يزورها في «دوڤر» لأنه كان في «كالي» إلا أنه أرسل إليها سفيره «موسيودي روسني» فقابلته ودار بينهما حديث مهم فإنها تكلمت في أول

= ولادته سنة ١٥٥٣ م. به يبدأ الفرع البوربوني في السلالة الفرنسية. اشتهر بإصلاحاته الإدارية، ونال تأييداً شعبياً واسعاً.

Marfat.com

الأمر عن ملك سكوتلاندا، وقالت له: إنه سيخلفها في الملك ويصير ملكاً لبريطانيا العظمى كلها، وهي أول من لقب بهذا اللقب، ثم أرسل إليها «هنري الرابع» سفارة أخرى فأحسنت ملتقاها وكان آخر اجتماعات المجلس العالي في أيامها في شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٦٠١ [م] فقاومت الامتيازات الجائزة التي كانت قد منحتها قبلاً مقاومة شديدة، ولكن إذ رأت أن مقاومتها له لا تجدي نفعاً عدلت عنها بوجه لا يمس فيه شرفها.

وفي أوائل سنة ١٦٠٣ [م] ورد عليها تشكيات شتى فاعتلت لذلك صحتها إلا أن سبب موتها هو أنه أصابها نزل في «رشتمند» فتوفيت فيها ودفنت في ٢٨ نيسان هذا، وإن الحوادث التي جرت في عهدها هي من أهم الحوادث التي جرت في إنكلترا والعصر الـ«أليصاباتي» في التاريخ الإنكليزي هو من أزهى الأعصر وأزهرها وقد جعل له رجال السياسة والحرب والفلاسفة الكثيرون الذين نبغوا فيه من غيرهم من أهل الحذق والدراية مقاماً في تاريخ العالم لم يتجاوزه عصر ألبتة، والحوادث المهمة التي جرت في حياة «أليصابات» مقررة ثابتة لا يتدافع فيها اثنان أما أوصافها فقد اختلف فيها المؤرخون.

وهذه ترجمة ما ذكره عنها «فرويد»[١] في آخر تاريخه قال: «إن مركزها من أول الأمر كان متعباً جداً، وتعلقها بـ «لبستر» تعلقاً مشؤوماً أو غير مرتب جعلها تكره الزواج وما حل بها من اليأس زاد أطوارها غرابة، ولم تتحزب للإصلاح عن طيب خاطر بل ظروف زمانها حكمت عليها بذلك فاضطرّتها إلى وقاية الأراتقة[٢] والعصاة مع أنه لم يكن لها صالح في مقاصدهم ولا كانت تؤمن بتعاليمهم وكانت تشعر بالضرورة حال خضوعها لها وما بدا منها من التردد نشأ عن حملها رغماً عنها على سلوك طريق تكره المسير فيه وكانت حاذقة جداً تدرك دقائق الأمور إلا أنها لم تكن تهتم كثيراً بالأمور الخطيرة وكانت خالية عن الانفعالات النفسية التي تجعل للطبع البشري قوة وثباتاً غير أنه كان لها صفة أدبية سامية جداً وهي الشجاعة فاستمرت ثلاثين سنة عاكفة على قتل الناس ولم يلحق بعقلها من جراء ذلك خلل ولا هالها أمر القساوة وكانت تحتقر التنعم والحلم في غير موضعهما وتحب البساطة في المعيشة وتقوم بأشغال صعبة، وتسلك مسلك الاقتصاد في بيتها ومع أن غرورها لم يقف عند حدّ لم يحل لها التملق ألبتة.

وكانت إذا سمعت غيرها يتكلم بالكذب لا تنفر منه ولذلك هان عليها ارتكاب الكذب،

---

(١) فرويد: سيغمونت فرويد (Frued) ١٨٥٦ ـ ١٩٣٩ م، طبيب نمساوي، مؤسس علم التحليل النفسي، درس أهمية الدوافع والعواطف اللاشعورية، والعوامل الجنسية ولا سيما في طور الطفولة. من كتبه: تفسير الأحلام، قلق في الحضارة، ثلاثة أبحاث في الجنس.

(٢) الأراتقة: الإصلاحيين.

Marfat.com

وكانت كثيرة الدهاء والحيل لا تلوح عليها البساطة إلا عندما تخاتل وتخادع وكانت إذا وعدت بشرفها تنسى ما وعدت به فضلاً عن أنه لم يظهر منها ألبتة ما يدل على أنها تفهم معنى الشرف، ولاغترارها بدرايتها وفهمها كانت لا تقوم بتغيرات يسدّدها إليها «بورليغ» من دون أن تلحق ضرراً بالمملكة وبنفسها معاً ولم تعدل عن مقاومة أو مضادة إلا بعد وقوعها في المشاكل وكانت حذاقة «بورليغ» المذكور وحذاقة «ولسنفهام» مما لا تكاد تكفي لتخليصهما منها، والنتائج العظيمة التي حصلت عليها إنكلترا في أيامها لم تنشأ عن سياستها بل عن سياسة رجالها التي كان من رأيها أن تضعفها وتوهنها مع أن الأمور كانت تقتضي عزماً وحزماً وإجماعاً ولم تركب في إبرام الأمور متن الشتت والعجلة ونسبوا ذلك إلى حكمتها لأنه طالما كانت له نتائج حميدة فربحت بذلك وقتاً وأعقد مشاكلها ما كان حله حلاً مرضياً مما يقدر عليه الوقت فقط، وكانت تحب أن تملك بالراحة إلى حين وفاتها تاركة للأجيال التابعة حل ما يعرض فيها من المشاكل، وكانت ترغب كل الرغبة في أن تشتهر بالحلم والرأفة التي عاملت بها المتآمرين هي من الأمور الغريبة التي لم يبارها فيها أحد إلى الآن، وكان بينها وبين أبيها في هذا الباب بون عظيم فإنه كان يعاقب رؤساء المتآمرين ويعفو عن أتباعهم.

أما «أليصابات» فقلما تمكنت من حمل نفسها على إمضاء أمر بقتل بعض الأشراف على أنها كانت تستطيع أن تأمر بخنق فلاحي «يوركشير»[1] عشرات بموجب النظام الحربي من دون أن يؤاخذها ضميرها في ذلك. والحاصل أنها طالما كانت صارمة عند وجود الحلم وحليمة عند وجود الصرامة وسبب نجاحها وسلامتها إنما هو انقسام أعدائها وضعفهم لا حكمتها وثبات عزمها».

أليصابات ملكة إسبانيا

ولدت سنة ١٦٠٢ [م]، وتوفيت سنة ١٦٤٤ [م]، وهي ابنة «هنري الرابع» ملك فرنسا من زوجته «ماريا رومديشي» زفت إلى «فيليب» ابن ملك إسبانيا سنة ١٦١٥ [م].

وسنة ١٦٢١ [م] جلس زوجها على تخت الملك وسمي «فيليب الرابع»[2] فعهد زمام المملكة إلى كونت «أوليفارز»، وانهمك في اللذات والملاهي فحاولت «أليصابات» أن تنبهه من غفلته وتحمله على مقاومة سياسة وزيره التي كان من شأنها أن تفضي بالبلاد إلى الخراب، فحبط مسعاها.

---

(١) يوركشير (Yorkshire): مقاطعة بريطانية على بحر الشمال. تقسم إلى ثلاث مقاطعات: شمالية، وجنوبية، وغربية. فيها سهل كبير خصب.

(٢) فيليب: اسمه حمله خمسة من ملوك إسبانيا.

Marfat.com

وسنة ١٦٤٠ [م] حدثت ثورة في «قطلونية»، وانفصلت البرتوغال عن إسبانيا وساعدت عسكر فرنسا العصاة فاستفزت الملكة أهالي «قسطيلة» للقتال، وفي مدة بضعة أسابيع جمعت جيشاً مؤلفاً من خمسين ألف مقاتل ثم سارت إلى القصر الذي كان ينعم فيه الملك في «بون رتيرو» فأخذت ولدها من يده وقالت للملك: سيدي، إن هذا الغلام ولدنا الوحيد سيكون أفقر إنسان في أوروبا إن لم تعزل جلالتكم في الحال وزيراً ساق إسبانيا إلى الخراب فنفى «أوليفارز» ودبت الحماسة مؤقتاً في عروق «فيليب» أما «أليصابات» فقطعت كل علائقها مع بيت أبيها لأنهم أمسوا ألداء أعداء إسبانيا وقبضت على زمام المملكة بيدها وأخذ «فيليب» يحاول في مقدمة عساكره استرجاع ما خسره من بلاده فلم يصادف نجاحاً، وأبدت «أليصابات» في إدارة مصالح البلاد حكمة ومحبة لوطنها ووفقت بين الأحزاب بإنذاراتها وفصاحتها، وباعت حليها وقللت مصاريف بيتها كثيراً مساعدة للخزينة حتى حسب الإسبانيول وفاتها مصيبة وطنية وحزنوا عليها حزناً شديداً.

أليصابات بتروفنا إمبراطورة روسيا

هي ابنة «بطرس الكبير» من زوجته «كاترينا الأولى»، ولدت سنة ١٧٠٩ [م]، وتوفيت سنة ١٧٦٢ [م]. تولت الملك بعد وفاة أبيها «بطرس الثاني» ابن «ألكسيس» (سنة ١٧٢٧ [م] أو ١٧٣٠ [م]) وابنة عمها «حنة أبفانثنا» بنت أكبر أولاد «بطرس الكبير» (سنة ١٧٣٠ [م] أو ١٧٤٠ [م]).

ولم تكن «أليصابات» تميل إلى التملك بل كانت تقول: إن لذة الحب أشهى شيء إليها إلا أن «حنَّة» جعلت «إيڤان» ابن «أنطوني أولزيك» دوق «برنسوبك» ولي عهدها تحت وصاية أمه «حنة» لأنه كان ولداً لم يبلغ من العمر إلا بضعة أشهر، وأوصت أن تكون وكالة الملك مدة قصره في يد محبوبها «بيرون» فحرمت «أليصابات» الملك بذلك ثالثة، ولم تقف الأمور عند هذا الحد بل أمست حرية «أليصابات» في خطر، لأن الحسد الذي ربي في عروق أم الغلام الذي جُعل ولياً للعهد حملها على أن تتبصر في التخلص من وكيل الملك، ومن «أليصابات» نفسها، فأشارت عليها أن تترهب إلا أن «لستوق» جراحها ومحبها واطأ جماعة على رد كيد أعدائها في نحورهم وساعده على ذلك الحزب الروسي الوطني ودسائس سفير «لويس الخامس عشر»[1] ملك فرنسا فأفضى الأمر بالمتآمرين إلى حمل السلاح والخروج على

---

(١) لويس الخامس عشر: أحد ملوك فرنسا ملك سنة ١٧١٥ م، بعد وفاة جده لويس الرابع عشر، بوصاية فيليب دورليان لأنه كان صغيراً فقد ولد سنة ١٧١٠ م وتوفي سنة ١٧٧٤ م تقرَّب من النمسا ليقاوم =

Marfat.com

الحكومة، فغلبوا «حنة» «وإيڤان» ونصبوا «أليصابات» إمبراطورة في شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٧٤١ [م].

وجعلت «حنة» مع زوجها وكثيرين من حزبها في السجن وحبس «إيڤان» في قلعة «شلسلبرغ» فلم يخرج منها فيما بعد وعهدت مصالح الدولة والبلاد إلى جماعة من رجال «أليصابات» كانوا مثلها خالين عن الشهامة والدراية واستوت فيها محبة البطل والشهوات وبدا منها أحياناً ما دل على شدّة قساوة، وتوحش إلا أنها كانت مراراً حليمة وكانت كريمة الأخلاق وقد رقت إلى المناصب العالية رجالاً روسيين من الأفاضل وأهل السياسة وعينت «بطرس» ابن أختها «حنة روشيس هلستين غترب» المتوفاة ولياً للعهد.

وانتصرت في حرب جرت لها مع أسوج وانتهت بمعاهدة صلح انعقد في «آبو» سنة ١٧٤٣ [م]، ثم كشفت مؤامرة أقيمت عليها فألقت القبض على المتآمرين وقاصصتهم قصاصاً شديداً وأمدت «مريا تيريزا»(١) بجيش لمحاربة «فرديريك الكبير»(٢) فساعدت بذلك على عقد معاهدة صلح في «أكس لاشابيل»(٣) سنة ١٧٤٨ [م]، ثم حركها كل من «شوفالوف» و«بستوزف» ضد بروسيا وكان قد ساءها استهزاء وقع عليها من ملكها فحالفت النمسا وفرنسا عليه في الحرب المعروفة بحرب السنين السبعة وقامت عساكرها تحت إمرة «سوتيكوف» و«بوتورلين» و«أبراكسين» وفر «مور» بأعمال جرّت ويلات كثيرة على بروسيا فانتصروا في موقعتي «غروس ياغرندرف» و«كورنسدرف» كلتيهما واستولوا على «كلبرغ» وحلوا في نفس برلين، ولما توفيت الإمبراطورة تخلص فرديريك من عدوة قوية وترجى أن يلقى مساعدة من خلفها «بطرس الثالث»، أما الفساد الذي وقع في بلاطها فاستمرّ فيه إلى وفاتها وكان «راز» و«موڤسكي» في الأصل من القزق المجهولي الحسب والنسب فجعلته من بعض حشمها ثم جعلته نديمها ووجهت إليه رتبة فلد مارشال واتخذته لها بعلاً في السر ويقال: إنه أب لثلاثة من أولادها ومن الأعمال الخطيرة التي تذكر بها «أليصابات» تأسيسها المدرسة الكائنة في موسكو

= مطامع پروسيا وإنكلترا، لكن حرب السبع سنوات مع إنكلترا أفقدت فرنسا كندا والهند. مات مُبغضاً من شعبه.

(١) ماري تيريز: من أشهر إمبراطورات النمسا. خلفت ولدها كارل السادس ١٧١٧ ـ ١٧٨٠ م. تحالفت مع فرنسا ضد پروسيا. والدة جوزيف الثاني، وماري أنطوانيت.

(٢) فردريك الكبير: وهو فريدريك الثاني ١٧١٢ ـ ١٧٨٦ م. ملك پروسيا سنة ١٧٤٠ م. رجل حرب وإدارة، قاوم التحالف الفرنسي الروسي النمساوي في حرب السنوات السبع. كان بثقافته الواسعة وانفتاحه على الآداب والفلسفة مثال المستبد المستنير في القرن الثامن عشر.

(٣) أكس لاشاپيل (Aix la-chpelle): وهو الاسم الفرنسي لمدينة« آخن» الألمانية.

Marfat.com

وأكاديمية الفنون المستطرفة في «بطرس برج»[١] وكانت تحب نشر الفنون المذكورة وجرى لها مع «ڤولتير»[٢] المشهور مراسلة مكنته بها من الحصول على المواد اللازمة لتاريخ أبيها.

أليصابات ملكة بوهيميا[٣]

ولدت سنة ١٥٩٦ [م]، وتوفيت سنة ١٦٦٢ [م]، وهي ابنة «جيمس الأوّل» ملك إنكلترا. كانت حسنة الصفات أديبة، خطبها كثيرون فآثرت هي وأبوها «فرديريك الخامس»[٤] المنتخب البلاتيني لأنه كان على مذهب البروتستانت فعقد الزواج باحتفال عظيم سنة ١٦١٣ [م] بلغت مصاريفه ٥٣ ألف ليرة، وكان المهرألف ليرة إنكليزية، وكان زوجها رأس الحزب البروتستانتي في ألمانيا، ولما عرض عليه عصاة بوهيميا سنة ١٦١٩ [م] أن يتملك عليهم ألحت عليه بإجابتهم إلى ذلك، وقالت له: إن كنت تخشى أن تصير ملكاً فلماذا تزوّجت ابنة ملك؟ ثم دخلت «براغ»[٥] وجلست على تخت الملك بأبهة، غير أن مدة ملكها لم تطل لأن جنود الإمبراطورية تقدّمت إلى أملاك «فرديريك» الأصلية وأغارت على بوهيميا أيضاً.

وبعد موقعة «براغ» سنة ١٦٢٠ [م] اضطر الأمر كلاً من «فرديريك» وزوجته الملكة إلى الفرار فأمنهما عمه «موريس دوناسوفي هاغ» وولدت هناك أكثر أولادها، ومن جملتهم البرنس «روبرت» المشهور في تاريخ الحروب الأهلية الإنكليزية أما صغرى أولادها فصارت أميرة منتخبة لـ «هانوفر»[٦] وهي جدّة البيت الملكي الإنكليزي الحالي، ولدت سنة ١٦٣٠ [م] بعد

---

(١) بطرس برج: سميت پتروغراد ١٩١٤ ـ ١٩٢٤ م، ولينغراد ١٩٢٤ ـ ١٩٩١ م، مرفأ وعاصمة روسيا قديماً على مصب نيڤا في خليج فلندا. أسسها بطرس الأكبر ١٧٠٣ م باسم سان پترسبورغ أو بطرسبرج فأصبحت العاصمة بدل موسكو حتى ١٩١٧ م. وهي مركز ثورتي ١٩٠٥ م و١٩١٧ م. مشهورة بهندستها وعمارتها الرائعة.

(٢) ڤولتير (voltaire): هو فرنسوا ماري أوراي ١٦٩٤ ـ ١٧٧٨م ولد في باريس، مؤلّف فرنسي من نوابغ زمانه. أقام في پروسيا وسويسرا. تزعّم حركة الفلسفة المادية وقاوم رجال السلطة الدينية والمدنية ونقدهم بقلمه الرشيق اللاذع. كتب في الشعر، والتاريخ، والمسرح. والمراسلة، والفلسفة وأجاد في أكثرها من مؤلفاته المحاورات الفلسفية.

(٣) بوهيميا: جمهورية في أوروبا الوسطى بين مورافيا وپولونيا، وألمانيا. والنمسا. عاصمتها براغ.

(٤) فردريك: اسم أربعة ملوك في پروسيا.

(٥) براغ: عامصة بوهيميا على ڤلتافا. كانت عامصة تشيكوسلوفاكيا.

(٦) هانوڤر (Hannover): مدينة في شمال ألمانيا على لين، عاصمة ساكس السفلى، وهي عامصة أمراء هانوڤر ثم ملوكها ١٦٣٦ ـ ١٧١٤ م و١٨٣٧ ـ ١٨٦٦ م.

Marfat.com

ولادة «شارل الثاني»[١] ابن أخيها ورجعت «أليصابات» إلى إنكلترا سنة ١٦٦٠ [م]، فأقامت نحو ستة أشهر في بيت اللورد «كراڤن»، وتوفيت به بعد وفاة زوجها سنة ١٦٣٨ [م]، وكان بينهما مودة عظيمة وقد تغزل السير «هنري وتون» بمحاسنها في بعض أشعاره.

أليصابات دو فالوا أو إيزابلا دو فالوا ملكة إسبانيا

ولدت في «فونتينيلو»[٢] في ١٣ نيسان (أفريل) سنة ١٥٤٥ [م]، وتوفيت في مدريد في ٣ تشرين الأوّل (أكتوبر) سنة ١٥٦٨ [م]، وهي ابنة «هنري الثاني» ملك فرنسا من زوجته «كاترينا دو مديشي»[٣]، خطبت بموجب معاهدة عقدت في «أنجلس» سنة ١٥٥١ [م] لـ «إدورد السادس»[٤] ملك إنكلترا إلا أن «إدورد» المذكور توفي قبل قيام عقد الزواج ثم خطبت بموجب مقدّمات معاهدة الصلح التي أبرمت في «كاتو كمبريسيس» للدون «كارلوس» ابن ملك إسبانيا وفي ٣ نيسان (أبريل) سنة ١٥٥٩ [م] قررت المعاهدة ولكن إذ كانت زوجة «فيليب الثاني» والد الدون «كارلوس »قد توفيت اتخذها زوجة له عوض ابنه. وسنة ١٥٦٠ [م] أقيم في «توليدو»[٥] احتفال عظيم للعرس.

أليونورا رغويانه

هي ابنة «وليم العاشر»[٦] آخر دوقات «أكونيانيا»[٧] ووارثته، ولدت سنة ١١٢٢ [م]، وفي سنة ١٥ من عمرها تزوّجت «لويس الثامن»[٨] ملك فرنسا فجعلت دوقية «غويانه» و«غسكونيا» و«سنتونج» و«بوانو» و«بيارن» مهراً لها إلا أن طيشها وميلها إلى الخلاعة

---

(١) شارل الثاني: ابن شارل الأول ١٦٣٠ ـ ١٦٨٥ م، حكم بعد نهاية الثورة سنة ١٦٦٠م، أثار الاستياء بتقرُّبه من فرنسا ودفاعة عن الكاثوليك.

(٢) فونتينيلو: ولعلها فونتينبلو (Fontainebleau) مدينة فرنسية جنوبي باريس. فيها قصر فرنسوا الأول، جدّده هنري الثاني، ونابليون الثالث، فيه تنازل نابليون الأول عن العرش سنة ١٨١٤ م.

(٣) كاترينا دو مديشي: ١٥١٩ ـ ١٥٠٩ م، أو كاترين دي مديتشي، زوجة هنري الثاني ملك فرنسا، وشارل التاسع، وهنري الثالث. مارست السياسة دون رادع أخلاقي، فكانت سبباً في اضطرام الحروب الدينية وفي المذابح التي رافقتها.

(٤) إدوارد (Edauard): اسم ثمانية من ملوك إنكلترا.

(٥) توليدو (Toledo): أو طليطلة هي مدينة إسبانية على تاخو جنوبي مدريد. اشتهرت في الأندلس، وكانت عاصمة بني «ذو النون» وهم من ملوك الطوائف.

(٦) وليم (William): اسم حمله أربعة من ملوك إنكلترا.

(٧) وردت في الأصل: «أكونيانيا» ولعل الصحيح ما أثبتناه.

(٨) لويس (Louis): اسم حمله ثمانية عشر ملكاً من ملوك فرنسا.

Marfat.com

والملاهي ساء «لويس» زوجها واشتد الختلاف بينهما في أثناء الحرب الثانية الصليبية[١] وكانت قد صحبته فيها سنة ١١٤٧ [م] فاستأذن مجمع «بوجنسي» في طلاقها فسمح له بذلك فطلقها سنة ١١٥٢ [م] وبعد ذلك بستة أسابيع تزوجت «هنري نلانتاجنت» كونت «آنجو» و«روڤ بورمنديا» الذي صار بعد ذلك ملكاً لإنكلترا وسمي «هنري الثاني» سنة ١١٥٤ [م]، فانتقلت بذلك ولايات «أكوتيانيا» إلى إنكلترا إلا أن زواجها هذا لم يكن خيراً من الأول لأن نساء البلاط الملكي حسدنها كثيراً وقتلت «روزمندا» إحداهنّ وألقت الرعب في قلوب أهل البيت الملكي وحركت البنين على آبائهم فملّ «هنري» بأعمالها فسجنها في دير سنة ١١٧٣ [م]، فلم تخرج من سجنها إلا عندما جلس ابنها «رتشرد» الملقب بقلب الأسد على تخت الملك وذلك سنة ١١٨٩ [م]، وعهدت إليها إدارة المملكة مدة غياب «رتشرد»[٢] المذكور في الحرب الثالثة الصليبية وبعد رجوعه إلى إنكلترا بمدة وجيزة دخلت دير «فونتفرو» وبقيت فيه إلى أن ماتت سنة ١٢٠٣ [م].

أليونورا روغوزمان

امرأة إسبانيولية كانت تعتبر في زمانها أجمل نساء إسبانيا، عشقها «ألفونس الحادي عشر»[٣] ملك «قسطيلة» الملقلب بالمنتقم، واستعرت في قلبه نيران الغرام، فغاب عن الهدى وافتضح فيها افتضاح العاشقين، وخلع العذار، وتصامم عن كلام العاذلين، وكان يعاملها معاملة زوجة فلا يستحي في هواها ولا يخشى لوم لائم ولولا أسباب سياسية مهمة جداً لطلق زوجته البرتوغالية، واتخذها له زوجة بدلاً منها، غير أن «أليونورا» لم تكن دون الملكة إلا في اللقب فقط واستمرت ٢٠ سنة مالكة قلب «ألفونس» وولد لها منه توأمان أحدهما «هنري روترتستامار» الذي جلس على تخت الملك والآخر «فرديريك» رئيس «كافليريه مار يوحنا» ولما توفي الملك سنة ١٣٥٠ [م] أرادت الملكة أن تنتقم من عشيقته فألقت عليها القبض في «إشبيلية» سنة ١٣٥١ [م]، ولم يتمكن ولداها من إنقاذها مع أنهما بذلا في ذلك السبيل ما في وسعهما فقتلت خنقاً في قصر الملكة على مرأى منها ومن ولدها «بطرس» الملقب بالعاس.

---

(١) يراجع مجلة الحداثة، الصادرة عن دار الحداثة، بيروت، ١٩٩٩، الحروب الصليبية ونشأتها وأسبابها، بحث، محمد أمين الضناوي.

(٢) رتشرد: أو ريكاردوس قلب الأسد ١١٥٧ ـ ١١٩٩ م، ولد في أوكسفورد. ملك إنكلترا ١١٨٩ ـ ١١٩٩ م شارك في الحملة الصليبية الثالثة. اشتهر بشجاعته وهو من أسره صلاح الدين الأيوبي، وقصتهما مشهورة في التاريخ.

(٣) ألفونس (Alphones): اسم حمله عدد من ملوك إسبانيا والبرتغال، وألفونس الحادي عشر هو أحدهم، ملك قشتالة ١٣١٢ ـ ١٣٥٠ م. انتصر على أبي الحسن المريني في طريف ١٣٤٠ م.

Marfat.com

أليورا زوجة دون جوان دواكنبها

كانت بديعة الجمال وكان زوجها غنياً إلا أنه كان دونها في الشرف وأكبر منها سناً، سار بها إلى بلاط «ليسبون»، ولما رآها «فرديننندو الأول»[١] أسره حسنها ودلالها وحرمه حبها لذيذ المنام، فأخذ يلاطفها ويغازلها ويؤانسها، وطلب إليها أن تكون له عشيقة فأبت، فحمل زوجها على أن يطلقها واتخذها له زوجة بعد أن قطع ما كان بينه وبين بنت ملك «قسطيلة» من العلائق، فنشأ عن ذلك ثورة في «ليسبون»، ولكنها أخمدت في الحال، وجعلت «أليورا» ملكة سنة ١٣٧١ [م].

وكانت على جانب عظيم من الكبرياء والطمع فوجهت إلى ذوي قرابتها أسمى المناصب وخشيت أن يقع بينها وبين أختها زوجة «ألانفنك دون جوان» منازعة على تخت الملك فحملت «دون جوان» المذكور على قتلها وقتلت أيضاً باقي أعدائها وغمرت المتحزبين لها بالعطايا والأموال، ثم جعلت «الدون جوان أنديرو» من أعيان «قسطيلة» رئيساً للوزارة ووجهت إليه لقب كونت «أورين» وذلك لأنها كانت تحبه أكثر من زوجها وجعلها «فيردنند» قبل وفاته وكيلة للملك فأشركت حبيبها المذكور في إدارة المملكة إلا أن الوقت لم يصفُ لهما لأن الـ«دون جوان» أراد أن ينزع الوكالة من يدها فدخل قصرها وقتل «أنديرو» في حضنها سنة ١٣٨٣ [م]، وتفاقم غيظ الشعب من سلوكها فخافت على نفسها وخرجت من «ليسبون» ولم تزل سائرة إلى أن وصلت إلى «شنترين»[٢] فاستدعت صهرها «فرديننندو» ملك «قسطيله» وتخلت له عن الملك وكانت تؤمل أن يأخذ بثأرها من سكان «لبستون» فإنها كانت تبغضهم جداً إلا أنه هو أيضاً خشي عواقب خبثها وطمعها فحبسها في دير «توردیز بلاس» قرب بلاد الوليد فتوفيت فيه سنة ١٤٠٥ [م] بعد أن مزق الحزن فؤادها.

أمستريس زوجة دارا ملك فارس[٣]

اشتهرت بشدة انتقامها من امرأة شقيق زوجها «أردانيت» وكان زوجها قد عشقها وكان من عادة ملوك فارس أن يمنحوا زوجاتهم في بعض الاحتفالات أي شيء طلبنه فانتهزت

---

(١) فرديننند (Ferdinand): اسم حمله عدد من الملوك والأباطرة والملوك في أوروبا، وفرديننند الأول أو فرديننند الكبير ١٠١٧ ـ ١٠٦٥ م. ملك سنة ١٠٣٥ م على قشتالة ثم ليون وناڤارا.

(٢) شنترين: أو سانتاريم (Santarem) هي مدينة في البرتغال على تيجو، هي شنترين في الأندلس قتل في حصارها أبو يعقوب يوسف سلطان الموحدين سنة ١١٨٤ م. وإليها ينتسب عدد من المفكرين والكتَّاب والأدباء ومنهم ابن بسام الشنتريني صاحب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة».

(٣) دارا: لعله دارا شُكوه ولي عند الإمبراطور شاهجان.

Marfat.com

«أمستريس» تلك الفرصة وطلبت أن تدفع إليها «أردانيت» فأجابها إلى ذلك فقطعت أنفها وأذنيها وحاجبيها ولسانها، وثدييها وطرحت شلوها للكلاب فتحرك الغيظ في قلب زوجها «ماسستس» وعزم على أن يأخذ بثأرها فلم تمهله «أمستريس» بل أنفذت إليه من قتله ولكي تؤدي للآلهة شكرها على ما أولتها من نجاح مقاصدها الفظيعة قربت لها ١٤ شاباً من أشراف فارس أمرت بإحراقهم أحياء. انظر إلى هذه العظمة والكبرياء التي كانت أول خراب ملك «دارا» حتى صار كما أراناه التاريخ.

أمستريس ابنة أخي داريوس[١]

وامرأة «ديونسيوس»[٢] طاغية هرقلية النبطش يظن أنها أسست مدينة «أمستريس» المسماة الآن أمصترا أو حسنتها. ويقال: إنها ابنة الملك «داريوس» لا ابنة أخيه كانت ذات جمال فائق وعقل رائق حتى سلبت عقول اليونان بحسن سياستها وتدبير أعمالها حالة كونها ابنة ألدّ أعدائهم، وتوفيت وهم راضون عنها حتى إن بعضهم كان يعظمها مثل المعبودات.

أليصابات كارمن سيلفا ملكة رومانيا

هو الاسم الذي انتخبته لنفسها وأصل اسمها «أليصابات أوتيلي لويز رونويد» ولدت هذه الملكة في ٢٩ خلت من ديسمبر سنة١٨٤٣ [م] ببلدة «موتربو» بقرب «توید» اقترن بها في الخامس عشر من شهر نوفمبر سنة ١٨٦٩ [م] البرنس «شارل دي هوهترلون» الذي ألقيت إليه فيما بعد مقاليد الحكم برومانيا فقبل، وجعل هذه الإمارة من عداد الممالك المشهورة وذلك بعد حرب الترك والروس سنة ١٨٧٧ [م]، وقد رزقه الله في بادئ الأمر ببنت يسحر جمالها الألباب وتأخذ نباهتها وذكاؤها بالقلوب، ولكن لم يكن لها من طول الحياة نصيب حيث قصمت المنية عود شبابها، وقد سبب موتها لوالدتها من الآلام المرّة ما لا يمكن الفهم وصفه ومحا من مخيلتها ما هي فيه من العز والجاه والفخار، ولها الحق في أن تقدم نفسها ضحية على مذبح الهموم والأكدار لأن ابنتها وقطعة كبدها حلت من الأدب والعلم إلى درجة قل أن يدرك شأوها[٣] من كان أكبر منها سناً من الذكور والإناث.

---

(١) داريوس: ملك فارس ٤٢٤ ـ ٤٠٤ ق.م ابن ارتحششتا اشتهر عهده بالاغتيالات. قُتل في بابل.

(٢) ديونسيوس (Dionusios): أو ديونسيوس الأكبر طاغية سيراكوزا ٤٠٥ ـ ٣٦٧ ق.م. طرد القرطاجيين وشجّع الآداب. خلفه ابنه ديونسيوس الأصغر. نفي سنة ٣٥٦ ق.م، ثم عاد إلى الحكم، ونفي مجدّداً ٣٤٤ ق.م.

(٣) شأوها: همتها العالية. [القاموس المحيط، مادة: شأو].

Marfat.com

وكان للملكة ميل غريزي للسفر كامن فيها، فلما توفيت ابنتها برز هذا الميل وقالت من الشعر الرقيق، واللفظ الرشيق حتى إنها حازت بين قومها شهرة لم يسبقها إليها من انتهى إليه علم الشعر وكانت لها المشاركة الكلية في علم الأدب والوقوف التام على كلام الفصحاء.

وأما خصالها الحميدة وأفعالها المحمودة فحدّث ولا حرج فإنها هي التي استحوذت على قلوب قومها، واستولت على عقول عشيرتها بما لها من لهجة الجانب ووداعة الأخلاق، والشفقة على المساكين من الرعايا واللطف بهم. وشاهدنا على ذلك لما كان زوجها يحارب تحت أسوار مدينة بلغتا بشجاعته المشهورة وشهامته التي لا تنكر كانت هي من جهة أخرى تواسي من أصيب بالجروح من العساكر وتسليه بالألفاظ التي لو كان به مهما كان لقام على قدم الصحة وشاركها في طريق العافية والشفاء.

ولما عمل عقد السلم وانقشعت سحب الحرب عادت إلى مقرّ وحدتها ومركز عزلتها وهو قصر السمائية لتسلم نفسها في مخالب الحزن والهم على بنتها وتقطع حبل الوقت بمواصلة الليل بالنهار في المطالعة.

وإليها تنسب الآن نهضة أهل رومانيا في العلوم الأدبية لا سيما في الشعر منها وطالما شدت أذن الشاعر المشهور «إسكندر باشيلي» الذي هو الآن معتمد رومانيا في باريس ومدت إليه يد المساعدة في الأعمال الفكرية والمؤاثرة الشعرية، والمؤلفات المترجمة عديدة كثيرة التباين والاختلاف، فمنها ما هو نثر ومنها ما هو شعر وقد اشتهر فضلها في البلاد الفرنساوية فأخذ علماء هذه الديار في ترجمة مؤلفاتها النفيسة فقد ترجم الكاتب الشهير «لويز أولياك» كتاباً لها عنوانه: «خطرات أفكار ملكة» وترجم الكاتب «سال» مؤلفاتها الشعرية والحوادثية.

وممن تصدى إلى كتابة تاريخ حياة هذه الملكة باللغة النمساوية جناب البارون «هكلرج» وقد طبع تاريخ حياتها جملة مرات، وكانت الطبعة الخامسة بمدينة «هردلبرق» سنة ١٨٨٩ [م] وجناب الموسيو «ميت كرمنتر» طبعه بمدينة «يرسلو» سنة ١٨٨٢ [م]، ومفصل ترجمة حياتها أيضاً بقلم الموسيو «سرجي» طبع في باريس سنة ١٨٩٠ [م]، ولم تشتهر ترجمة ملكة مثل ترجمة هذه الملكة.

أم السعد ابنة عصام الحميري

وتعرف بسعدونة من أهل قرطبة روت عن أبيها وجدها وغيرهما، وأنشدت لنفسها في تمثال نعل النبي ﷺ تكملة لقول غيرها هذا البيت:

Marfat.com

سألثم التمثال إن لم أجد لِلَثْمِ نعل المصطفى من سبيلِ

وهي قولها:

لعلي أن [أحظى][1] بتقبيله في جنة الفردوسِ أسنى مقيلِ
في ظل طوبى ساكناً آمناً أسقى بأكواب من السلسبيلِ
وأمسح القلب به عله يسكن ما جاش به من غليلِ
فطالما استشفى بأطلال من يهواه أهل الحب في كل جيلِ

أم العلاء بنت يوسف الحجاريه

كانت شاعرة، لبيبة، فصيحة، أديبة، ذات حسن، وجمال، وأدب وكمال، لها قصائد طنانة وموشحات رنانة ذكرها صاحب المغرب وقال: إنها من أهل المائة الخامسة. فمن شعرها قولها:

كل ما يصدر منكم حسن وبعلياكم يحلى الزمنُ
تعطف العين على منظركم وبذكراكم تلذ الأذنُ
من يعش دونكم في عمره فهو في نيل الأماني يغبنُ

وعشقها رجل أشيب فكتبت إليه:

الشيب لا ينجع فيه الصبا بحيلة فاسمع إلى نُصحي
فلا تكن أجهل من في الورى يبيت في الحب كما يضحي

ولها أيضاً:

افهم مطارح أحوالي وما حكمت به الشواهد واعذرني ولا تلمِ
ولا تكلني إلى عذر أبينه شر المعاذير ما يحتاج للكلمِ
وكل ما جئته من زلة فبما أصبحت في متن من ذلك الكرم

وتوفيت في بلدها وادي الحجارة[2] بالأندلس.

---

(١) وردت في الأصل: «أخطى»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

(٢) وادي الحجارة: بلد بالأندلس وهو بلد يعرف بمدينة الفرج في الأندلس وهي بين الجوف والشرق من قرطبة، بينها وبين طليطلة خمسة وستون ميلاً. وهي مدينة حسنة كثيرة الأرزاق جامعة لأشتات المنافع والغلاّت ولها أسوار حصينة ومياه معينة، وبغربيها نهر صغير لها عليه بساتين وجنّات وكروم وزراعات، وبها من غلاّت الزعفران الشيء الكثير، يتجهّز به منها إلى سائر البلاد وبينها وبين مدينة سالم خمسون ميلاً. الروض المعطار (٦٠٦).

Marfat.com

أم الكرام

هي ابنة المعتصم بن حماد ملك المرية[١] كانت تنظم الشعر وتقول العروض، ولها الباع الطويل بالموشحات الأندلسية وقد افتخرت بها نساء العرب.

وكانت عشقت الفتى المشهور بالجمال من دانية[٢] المعروف بالسمسار وعملت فيه الموشحات ومن شعرها فيه:

يـا معشـر النـاس ألا تعجبـوا ... ممـا جنتـه لـوعـة الحـبِّ
لـولاه لـم ينـزل بـدر الـدجـى ... مـن أفقـه العلـويّ للتـربِ
حسبـي بمـن أهـواه لـو أنـه ... فـارقنـي تـابعـه قلبـي

أم الهناء ابنة القاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية[٣]

سمعت عن أبيها وكانت حاضرة النادرة، سريعة التمثل من أهل العلم والفهم والعقل، ولها تأليف في القبور ولي أبوها القضاء في المرّية، دخل داره مرة وعيناه تذرفان وجداً لمفارقة وطنه فأنشدته تمثله:

يـا عيـن صـار الـدمـع عنـدك عـادة ... تبكيـن فـي فـرح وفـي أحـزانِ

وهذا البيت من جملة أبيات وهي:

جـاء الكتـاب مـن الحبيـب بـأنـه ... سيـزورنـي فـاستعبـرت أجفـانـي
غلـب السـرور علـيّ حتـى إنـه ... مـن عظـم مـا قـد سـرنـي أبكـانـي

وبعده البيت السابق وبعد هذا البيت الآتي:

فـاستقبلـي بـالبشـر يـوم لقـائـه ... ودعـي الـدمـوع لليلـة الهجـرانِ

---

(١) المرية: هي مدينة كبيرة من كروة ألبيرة من أعمال الأندلس، وكانت هي وبجّانة بابي الشرق منها يركب التجار وفيها تحلّ مراكب التجار، وفيها مرفأ ومرسى للسفن والمراكب، يضرب ماء البحر سورها، دخلها الإفرنج سنة ٥٤٢ هـ، ثم استرجعها المسلمون سنة ٥٥٢ هـ. معجم البلدان، ج ٥/ص ١٤٠.

(٢) دانية: مدينة بالأندلس من أعمال بلنسية على ضفة البحر شرقاً مرساها عجيب يسمّى السُّمّان. لها رساتيق واسعة كثيرة التين والعنب واللوز، وكانت قاعدة ملك أبي الجيش مجاهد العامري. معجم البلدان، ج ٢/ص ٤٩٤.

(٣) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمٰن بن عطية المحاربي، من محارب قيس، الغرناطي، أبو محمد، مفسّر، فقيه أندلسي، من أهل غرناطة، عارف بالأحكام والحديث، له شعر. ولي قضاء المرية، كان يكثر الغزوات في جيوش الملثّمين. توفي في لورقة سنة ٥٤٢ هـ/١١٤٨ م.

Marfat.com

أم بسطام بن قيس النصراني سيد بني شيبان[١]

كانت من نساء العرب المتقدمات في الأدب ذات شعر رائق، ومعنى فائق، فمن قولها ترثي ولدها بسطام[٢] حين قتل يوم الشقيقة[٣] قتله بنو ضبة[٤]:

ليبكِ ابن ذي الجدّين بكر بن وائل[٥] فقد بان فيها زينها وجمالها
إذا ما غدا فيها غدون كأنهم نجوم سماء بينهن هلالها
فيالله عينا من رأى مثله فتى إذا الخيل يوم الروع هب نزالها
عزيز مكرّ لا يهدّ جناحه وليث إذا الفتيان زلت نعالها
وحمال أثقال وعائذ محجر تحل لديه كل ذاك رحالها
سيبكيك عان لم يجد من يفكه وتبكيك فرسان الوغى ورجالها
وتبكيك أسرى طالما قد فككتهم وأرملة ضاعت وضاع عيالها
مفرّج حومات الخطوب ومدرك الـ ـحروب إذا صالت وعز صيالها
فغشى بها حياً كذاك ففجعت تميم بها أرماحها ونبالها
فقد ظفرت منا تميم[٦] بعثرة وتلك لعمري عثرة لا تقالها

---

(١) بنو شيبان: بطن من بكر بن وائل وهم من ذهل بن ثعلبة بن عكابة وكان لشيبان هذا من الولد: سدوس، ومازن، وعلي، وعمرو، وعامر، وأمهم أرنب بنت الوقيان من بني ثعلبة. قال في العبر: وبنو شيبان هؤلاء بطن متّسع كثير الشعوب. وكانت لهم كثرة في صدر الإسلام شرقي دجلة من جهات الموصل. وكان سيدهم في الجاهلية مُرّة بن ذهل بن شيبان، كان له من الولد عشرة، ولدوا عشر قبائل. أشهرهم همّام وجسّاس. قال ابن حزم: تفرّع من همام ثمانية وعشرون بطناً. ومنهم بطن من حمير من القحطانية.

(٢) هو بسطام بن قيس بن مسعود الشيباني، أبو الصهباء، سيد شيبان، ومن أشهر فرسان العرب في الجاهلية. يضرب المثل بفروسيته. وكان يقال: «أكثر فداءً من بسطام بن قيس». أسره عيينة بن الحارث فافتدي بأربعمائة ناقة وثلاثين فرساً. أدرك الإسلام ولم يُسلم. قتله عاصم بن خليفة الضبي يوم الشقيقة.

(٣) يوم الشقيقة: أو الشقيق وهو يوم من أيام العرب كان لضبّة على بني شيبان، والشقيقة فُرجة في الرمال تنبت العشب، وهو يسمّى أيضاً نقا الحسن، والحسن اسم رمل بعينه.

(٤) بنو ضبّة: بطن من طابخة من العدنانية، وهم بنو ضبّة بن أد بن طابخة، كان له من الولد سعد وسعيد، وهما اللذان يضرب بهما المثل فيقال: أسَعْدٌ أم سعيد. وكان ديارهم بجوار بني غنم بالنواحي الشمالية التهامية من نجد، ثم انتقلوا إلى العراق وبها قتلوا المتنبي الشاعر.

(٥) هو بكر بن وائل بن قاسط، من بني ربيعة، من عدنان، هو جد جاهلي من نسله: بنو يشكر، وحنيفة وغيرهم. كان سدنته آل الأسود.

(٦) بنو تميم: بطن من طابخة، وطابخة من العدنانية، وهم بنو تميم بن مُرّ بن أد بن طابخة. والتميم في اللغة هو الشديد. قال الجوهري عن ابن عديم: وكان لتميم من الولد زيد مناة، وعمرو بن الحارث. =

Marfat.com

أصيبت به شيبان والحي يشكر[١] وطير يرى أرسالها وحبالها

أم حكيم ابنة عبد المطلب الهاشمية الملقبة بالبيضاء

كانت من النساء الحكيمات العاقلات في بني هاشم جمعت مع الحكمة وفرة الأدب، ومع البلاغة فصاحة العرب كانت مع أخواتها رثت أباها في حياته كطلبه بهذه الأبيات:

ألا يا عين جودي واستهلي وبكى ذا الندى والمكرماتِ
ألا يا عين ويحك أسعديني بدمعك من دموع هاطلاتِ
وبكى خير من ركب المطايا أبناك الخير تيار الفراتِ
طويل الباع شيبة ذا المعالي كريم الخيم محمود الهباتِ
وصولاً للقرابة هبرزيا وغيثاً في السنين الممحلاتِ
وليثاً حين تشتجر[٢] العوالي تروق له عيون الناظراتِ
عقيل بني كنانة[٣] والمرجي إذا ما الدهر أقبل بالهناتِ
ومفزعها إذا ما هاج هيج بداهية خصيم المعضلاتِ
فبكيه ولا تسمي بحزن وبكى ما بقيت الباكياتِ

أم حكيم ابنة قارظ

هي حليلة عبد الله بن العباس بن عبد المطلب[٤] كانت من فصحاء نساء العرب وأحسنهن أدباً وجمالاً، وأثبتهن جناناً، وكانت تقول الشعر وأكثر أشعارها رثاء على ولديها وكانا صغيرين، اسم أحدهما عبد الرحمٰن، والآخر قثم. فلما فاز معاوية بعد تحكيم الحكمين

= وقال في العبر: وكانت منازلهم بأرض نجد ومن هنالك انتقلوا إلى البصرة، واليمامة، وامتدت إلى الغري من أرض الكوفة، ثم تفرّقوا بعد ذلك في الحواضر، ولم تبق منهم بادية، ومن بطونهم حنظلة، وبنو العنبر.

(١) بنو يشكر: من نسل بكر بن وائل.

(٢) تشتجر: تُمنع وتَصْعُب. [القاموس المحيط، مادة: شجر].

(٣) بنو كِنانة: بطن من مُضر من القحطانية، وكِنانة هذا كان له من الولد على عمود النسب النبوي: النَّظِر. وخارجاً عن عمود النسب، مالك، وملكان، والحارث، وعمرو، وغيرهم. قال أبو عبيد وهم في اليمن.

(٤) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، القرشي، الهاشمي، أبو العباس، حبر الأمة، صحابي جليل ولد بمكة سنة ٣ ق.هـ/ ٦١٩ م. نشأ في بَدء عصر النبوة، فلازم رسول الله ﷺ وروى عنه الأحاديث الصحيحة. شهد مع علي الجمل وصفّين، كُفّ بصره في آخر عمره، فسكن الطائف وتوفي بها سنة ٦٨ هـ/ ٦٨٧ م.

Marfat.com

بعث بالضحاك بن قيس[١]، وبسر بن أرطأة[٢] بجيش وأمرهما أن يقتلا كل من كان من شيعة علي بن أبي طالب حتى الأطفال والحرم فذهب بسر إلى اليمن وكان عبيد الله بن العباس[٣] عاملاً هناك فلما لم يجده أغار على بيته فعثر بولديه المذكورين فذبحهما بشفرة كانت معه فجزعت أمهما عليهما جزعاً شديداً، وخالط عقلها بعض اللمم فصارت لا تعقل ولا تعي ولا تصغي إلى قول داع ولا تقبل على نصح بل علقت تطوف الأحياء وتقصد المنتديات في المواسم وحيثما رأت مجتمعاً رفعت صوتاً يقطعه البكاء وتنشد مراثي يرق لها الجلمود ومن مراثيها قولها:

يا من أحس بابنيَّ اللذين هما ... كالدرتين تشظى عنهما الصدفُ
يا من أحس بابنيَّ اللذين هما ... سمعي وقلبي فقلبي اليوم مردهفُ[٤]
يا من أحس بابنيَّ اللذين هما ... مخ العظام فمخي اليوم مختطفُ
نبئت بسراً وما صدّقت ما زعموا ... من قولهم ومن الإفك الذي اقترفوا
أنحى على ودجي ابني مرهفة ... مشحوذة وكذاك الإفك يقترفُ
حتى لقيت رجالاً من أرومته ... شم الأنوف لهم في قولهم شرفُ

---

(١) هو الضحّاك بن قيس بن خالد الفهري ولد سنة ٥ هـ. القرشي أبو أمية أو أبو أنيس سيد بني فهر في عصره. وأحد الولاة الشجعان. شهد فتح دمشق وسكنها، شهد صفّين مع معاوية، ولاه معاوية على الكوفة سنة ٥٣ هـ. فتفقّد الخورنق (قصر النعمان) وأصلحه، ونقل إلى ولاية دمشق، فتولى الصلاة على معاوية يوم وفاته، وقام بخلافته إلى أن قدم يزيد، ولما خلع معاوية بن يزيد نفسه انصرف يدعو إلى بيعة ابن الزبير بدمشق، مات معاوية سنة ٦٤ هـ، فأقبل أهل دمشق على الضحّاك، فبايعوه على أن يصلي بهم، ويقيم لهم أمرهم، حتى يجتمع الناس على خليفة، وانعقدت البيعة لمروان بن الحكم، والضحّاك في مرج راهط، فامتنع على مروان، فقتل في مرج راهط سنة ٦٥ هـ.

(٢) هو بسر بن أرطاة، أو ابن أبي أرطاة، العامري، القرشي، أبو عبد الرحمٰن، قائد فتّاك من الجبّارين. ولد في مكة قبل الهجرة وأسلم صغيراً، كان من رجال معاوية بن أبي سفيان، شهد فتح مصر. وجهه معاوية سنة ٣٩ هـ في ثلاثة آلاف إلى المدينة، فأخضعها، وإلى مكة فاحتلها، وإلى اليمن فدخلها، وكان معاوية قد أمره بأن يوقع بمن يراه من أصحاب علي، فقتل منهم جمعاً. وعاد إلى الشام، فولاه معاوية على البصرة سنة ٤١ هـ، بعد مقتل علي وصلح الحسن، فمكث يسيراً وعاد إلى الشام، فولاه البحر، فغزا الروم سنة ٥٠ هـ، فبلغ القسطنطينية. أصيب بعد ذلك في عقله، فلم يزل معاوية مقرّباً له، مدنياً منزلته، وهو على تلك الحال، إلى أن مات سنة ٨٦ هـ/ ٧٠٥ م في دمشق.

(٣) هو عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، الهاشمي، القرشي، أبو محمد، ولد سنة ١ هـ. والٍ، كان أصغر من أخيه عبد الله بسنة، رأى النبي ﷺ ولم يروِ عنه شيئاً، استعمله علي على اليمن، فحجّ بالناس سنة ٣٦ هـ، وسنة ٣٧ هـ. كان على مقدمة الحسن بن علي إلى معاوية، مات بالمدينة سنة ٨٧ هـ كان سخياً جواداً ينحر كل يوم جزوراً. قيل: إنه أول من وضع الموائد على الطرق.

(٤) مردهف: ضامر. [القاموس المحيط، مادة: رهف].

Marfat.com

فـالآن ألعـن بسـراً حـق لعنتـه هذا لعمر أبي بسر هو السرفُ[١]
مـن دل والهـة حـرى مـولهـة على حبيبين ضلا إذ غدا السلفُ

فكان كل من يسمعها تنفجر منابع عينيه حزناً عليها وتنفطر صفاة قلبه رثواً إليها فسمعها يوماً يماني ذو نفس أبية ونخوة جاهلية، فذهب إلى بسر وتلطف بالتزلف إليه حتى وثق به فخرج يوماً بولديه إلى وادي أوطاس وقتلهما ثم فرَّ وأنشد:

يا بسر بسر بني أرطاة ما طلعت شمس النهار ولا غابت عن الناسِ
خير من الهاشميين اللذين هما عين الهدى وصمام إلا سوق القاسي
مـاذا أردت إلـى طفلـي مـولهـة تبكي وتنشد من أثكلت في الناسِ
أمـا قتلتهمـا ظلمـاً فقـد شـرقـت من صاحبيك قناتي يوم أوطاسِ
فاشرب بكأسهما ثكلاً كما شربت أم الصبيـن أو ذاق ابـن عبـاسِ

ومن قولها أيضاً:

ألا يـا مـن سبـى الأخـويـ ـن أمهمـا هـي الثكلـى
تسـائـل مـن رأى ابنيهـا وتستسقـي فمـا تسقـى
فلمـا استيـأسـت رجعـت بعبـرة والـه حـرى
تتـابـع بيـن ولـولـة وبيـن مـدامـع تتـرى

وقيل[٢]: إنه لما بلغ علي بن أبي طالب قتل «بسر» الصبيين جزع لذلك جزعاً شديداً ودعا على «بسر» بقوله: اللهم اسلبه دينه ولا تخرجه من الدنيا حتى تسلب عقله. فأصابه ذلك، وفقد عقله وكان يهذي بالسيف ويطلبه فيؤتى بسيف من خشب، ويجعل بين يديه زق منفوخ، فلا يزال يضربه حتى يسأم.[٣]

وقيل: دخل عبيد الله بن العباس على معاوية بن أبي سفيان وعنده بسر بن أرطأة فقال له عبيدالله: أنت قاتل الصبيين أيها الشيخ؟ قال: نعم، أنا قاتلهما. فقال عبيد الله: لوددت أن الأرض كانت أثبتتني عندك.

قال: فقد أثبتتك الآن عندي فقاما فقال عبيد الله: ألا سيف. فقال له «بسر»: هاك سيفي فلما أهوى عبيد الله إلى السيف ليتناوله أخذه معاوية ثم قال لـ «بسر» أخزاك الله شيخاً، قد كبرت وذهب عقلك وذاك رجل من بني هاشم قد وترته وقتلت ابنيه تدفع إليه سيفك إنك لغافل

---

(١) السرف: تجاوز الحّد والاعتدال. [القاموس المحيط، مادة: سرف].
(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي ج ٣/ ص ١٤٠.
(٣) قال ابن معين: كان ابن أبي أرطاة رجل سوء، أهل المدينة ينكرون أن يكون له صحبة.

Marfat.com

عن قلوب بني هاشم والله لو تمكن منه لبدأ بي قبلك. قال عبيد الله: أجل والله، وكنت أثني به.[١]

أم خالد النميرية

كانت من نساء العرب المشهورات بالعقل والذكاء والتدبير في قبيلتها بني نمير[٢] وهي مشهورة بأم خالد وشهرتها غلبت اسمها، ولذلك لم تأتِ الرواة عليه ولها أبيات في ولدها خالد وكان توفي في بعض الغزوات ودفن في الغربة وهي:

إذا ما أتتنا الريح من نحو أرضه ... أتتنا برايات نصاب هبوبها
أتتنا بمسك خالط المسك عنبر ... وريح خزامى باكرتها جنوبها
أحنّ لذكراه إذا ما ذكرته ... وتنهلّ عبرات تفيض غروبها
حنين أسير نازح شدّ قيده ... وأعوال نفس غاب عنها حبيبها

وقالت وهو يروى لأمّ الضحّاك المحاربة:

وكيف يساوي خالداً أو يناله ... خميص في التقوى بطين من الخمر

أم الخير ابنة الحريش بن سراقة البارقية

كانت من المتكلمات الخطيبات البليغات من نساء العرب وفدت على معاوية كما قال عبد الله بن عمر الغساني عن الشعبي[٣] أن معاوية كتب إلى واليه بالكوفة[٤] أن يحمل إليه أم الخير ابنة الحريش ورحلها وأعلمه أنه مجازيه بالخير خيراً، وبالشر شراً بقولها فيه، فلما ورد عليه كتابه ركب إليها فأقرأها كتابه فقالت: وأما أنا فغير زائغة عن طاعته، ولا معتلة بكذب.

---

(١) أشار الذهبي في تاريخ الإسلام (٣: ١٤٠) إلى ما ارتكبه في اليمن في سبي النساء المسلمات.

(٢) بنو نمير: بطن من عامر بن صعصعة، وهم بنو نمير بن عامر بن صعصعة. منهم قيس بن عاصم بن أسيد الصحابي. قال في العبر: وكانت منازلهم الجزيرة الفراتية والشام.

(٣) هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار، الشعبي الحميري، أبو عمرو، راوية من التابعين، يضرب المثل بحفظه، ولد في الكوفة سنة ١٩ هـ/ ٦٤٠ م ومات فجأة في الكوفة سنة ١٠٣ هـ/ ٧٢١ م. اتصل بعبد الملك بن مروان، فكان نديمه وسميره ورسوله إلى ملك الروم. كان ضئيلاً نحيفاً، ولد لسبعة أشهر، سئل عمّا بلغ إليه حفظه، فقال: ما كتبت سوداء في بيضاء، ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته. وهو من رجال الحديث الثقات، استقضاه عمر بن عبد العزيز. كان فقيهاً شاعراً، نسبته إلى شعب، وهو بطن من همدان.

(٤) الكوفة: مصر مشهور بأرض بابل من سواد العراق، ويسميها قوم خد العذراء. قال أبو بكر محمد بن القاسم: سميت الكوفة لاستدارتها. وقيل: سميت الكوفة كوفة لاجتماع الناس بها من قولهم: قد تكوّف الرمل. معجم البلدان، ج ٤/ ص ٥٥٧.

Marfat.com

ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج في صدري فلما شيعها وأراد مفارقتها قال لها: يا أم الخير إن أمير المؤمنين كتب إليّ أنه مجازيني بالخير خيراً، وبالشر شراً فما عندك؟ قالت: يا هذا، لا يطمعك برك بي أن أسرك بباطل ولا يؤيسك معرفتي بك أن أقول فيك غير الحق فسارت خير مسير حتى قدمت على معاوية، فأنزلها مع الحرم.

ثم أدخلها في اليوم الرابع وعنده جلساؤه فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، قال لها: وعليك السلام يا أم الخير بحق ما دعوتني بهذا الاسم. قالت: يا أمير المؤمنين، لكل أجل كتاب. قال: صدقت، فكيف حالك يا خالة وكيف كنت في مسيرك؟ قالت: لم أزل يا أمير المؤمنين في خير وعافية حتى سرت إليك فأنا في مجلس أنيق عند ملك رفيق، قال معاوية: بحسن نيتي ظفرت بكم. قالت: يا أمير المؤمنين، يعيذك الله من دحض المقال وما تخشى عاقبته. قال: ليس هذا أردنا، أخبريني كيف كان كلامك إذ قتل عمار بن ياسر[1]؟ قالت: لم أكن زوّرته قبل ولا رويته بعد وإنما كانت كلمات نفثها لساني عند الصدمة فإن أحببت أن أحدثك مقالاً غير ذلك فعلت، فالتفت إلى جلسائه فقال: أيكم يحفظ كلامها؟ فقال رجل منهم: أنا أحفظ بعض كلامها يا أمير المؤمنين. قال: هات. قال: كأني بها بين بردين زائرين كثيفي النسيج وهي على جمل أرمك، وبيدها سوط منتشر الضفيرة، وهي كالفحل يهدر في شقشقته تقول: «يا أيها الناس، اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم إن الله قد أوضح لكم الحق، وأبان الدليل، وبيَّن السبيل، ورفع العلم ولم يدعكم في عمياء مدلهمة، فأين تريدون رحمكم الله إفراراً عن أمير المؤمنين أم فراراً من الزحف، أم رغبة عن الإسلام، أم ارتداداً عن الحق؟ أما سمعتم الله جل شأنه يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾[محمد: ٣١].

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول: اللهم قد عيل الصبر وضعف اليقين وانتشرت الرغبة وبيدك يا رب أزمّة القلوب فاجمع اللهم بها الكلمة على التقوى وألِّف القلوب على الهدى واردد الحق إلى أهله هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل والرضي التقي، والصديق الأكبر إنها إحن بدرية وأحقاد جاهلية وسببها واثب حين الغفلة ليدرك ثارات بني عبد

---

(١) هو عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن كنانة بن قيس بن الحصين أبو اليقظان، العنسي، القحطاني، صحابي من الولاة الشجعان ذوي الرأي. ولد سنة ٥٧ ق.هـ، وهو أحد السابقين إلى الإسلام والجهر به، هاجر إلى المدينة وشهد بدراً، وأحداً، والخندق، وبيعة الرضوان، وكان النبي يلقبه: الطَّيِّب المُطَيَّب، وفي الحديث: «**ما خُيّر عمّار بين أمرين إلاّ اختار أرشدهما**». هو أوّل من بنى مسجداً في الإسلام، بناه في المدينة وسمّاه قباء، ولاه عمر بن الخطاب الكوفة فأقام زماناً وعزله، شهد الجمل وصفّين مع علي، وقتل في الثانية، وعمره ثلاث وتسعون سنة وكان ذلك عام ٣٧ هـ.

Marfat.com

شمس[١]، ثم قالت: قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون صبراً، يا معاشر المهاجرين والأنصار قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم فكأني بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة فرّت من قسورة لا تدري أياً يسلك بها من فجاج الأرض باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى وعما قليل ليصبحن نادمين حين تحل بهم الندامة فيطلبون الإقالة [ولات حين][٢] مناص إن من ضل والله عن الحق وقع في الباطل، ألا إن أولياء الله استصغروا عمر الدنيا فرفضوها واستطابوا الآخرة فسعوا لها، فالله الله أيها الناس قبل أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، وتقوى كلمة الشيطان فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله ﷺ وصهره وأبي سبطيه[٣] خلق من طينته وترفع من نبعته وجعله باب دينه، وأبان ببغضه المنافقين، وها هوذا مفلق الهام ومكسر الأصنام صلى والناس مشركون، وأطاع والناس كارهون فلم يزل في ذلك حتى قتل مبارزيه وأفنى أهل أُحد[٤] وهزم الأحزاب[٥] وقتل الله به أهل خيبر[٦] وفرّق به جمع أهوائهم فيا لها من وقائع زرعت في القلوب نفاقاً، ورِدَّةً، وشقاقاً، وزادت المؤمنين إيماناً. قد اجتهدت في القول وبالغت في النصيحة وبالله التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله.

فقال معاوية: يا أم الخير ما أردتِ بهذا الكلام إلا قتلي، ولو قتلتك ما حرجت في ذلك. قالت: والله ما يسوءني أن يجري قتلي على يد من يسعدني الله بشقائه. قال: هيهات، يا كثيرة الفضول ما تقولين في عثمان بن عفان[٧] رحمه الله؟ قالت: وما عساني أن أقول في

---

(١) بنو عبد شمس: بطن من حمير من القحطانية، وهم بنو عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن الغوث بن أبين بن الهميسع بن حمير.

(٢) وردت في الأصل: «ولا تحين»، ولعل الصحيح مع أثبتناه، لات من أخوات ليس اسمها محذوف وجوباً ويقدّر من نفس لفظ الخبر. المعجم الميسر في القواعد والبلاغة والإنشاء والعروض ، محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨.

(٣) السبط: ولد الولد، ويغلب هذا التعبير عن ولد البنت مقابل الحفيد الذي هو ولد الابن، وهنا المقصود الحسن والحسين.

(٤) أحد: جبل مشهور في الجزيرة العربية شهد موقعة كبرى بين المسلمين والكفار، هُزم المسلمون فيها على يد خالد بن الوليد. معجم البلدان، ج ١/ ص ١٣٥.

(٥) الأحزاب: موقعة هَزم فيها المسلمون أحزاب الكفار وهنا الإشارة بهذا المعنى.

(٦) خيبر: الموضع المذكور في غزاة النبي ﷺ، وهي ناحية على ثمانية بُرُد من المدينة لمن يريد الشام، وسميت بهذا الاسم لاشتمالها على حصون عدّة، ولفظ خيبر عند اليهود معناها الحصن، ولكن هذه البقعة تشتمل على حصون عدة. معجم البلدان، ج ٢/ ص ٤٦٨.

(٧) هو عثمان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. قرشي، أموي، يجتمع هو والنبي ﷺ، في عبد مناف، وهو ثالث الخلفاء الراشدين. ولد بالطائف بعد الفيل بست سنين على الصحيح =

Marfat.com

عثمان، استخلفه الناس وهم به راضون، وقتلوه وهم له كارهون. قال معاوية: يا أم الخير، هذا ثناؤك الذي تثنين؟ قالت: لكن والله يشهد وكفى بالله شهيداً ما أردت بعثمان نقصاً، ولكن كان سابقاً إلى الخير وإنه لرفيع الدرجة غداً. قال: وما تقولين في الزبير؟ قالت: وما أقول في ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنة وأنا أسألك بحق الله يا معاوية فإن قريشاً تحدّثت أنك أحلمها أن تعافيني من هذه المسائل وتسألني عما شئت من غيرها قال: نعم ونعمة عين قد عفيتك منها.

ثم أمر لها بجائزة رفيعة وردَّها مكرمة إلى الكوفة وبقيت في عزّ إلى أن توفّاها الله.

أم سلمة زوجة السفاح

هي ابنة يعقوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي وكانت ذات أدب وجمال ومال تزوّج بها عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك فهلك عنها، ثم كانت عند هاشم فهلك عنها، وسبب زواجها بالسفاح هو أنها بينما كانت ذات يوم جالسة في منزلها إذ مر بها أبو العباس السفاح[1] وكان جميلاً وسيماً فسألت عنه، فنسب لها، فأرسلت له مولاة لها تعرض عليه أن يتزوجها. وقالت لها: قولي له هذه سبعمائة دينار أوجه بها إليك وكان معها مال عظيم وجوهر وحشم فأتته المولاة فعرضت عليه ذلك فقال: أنا مملق لا مال عندي، فدفعت إليه المال فأنعم لها وأقبل إلى أخيها فسأله التزويج بها فزوجه إياها فأصدقها خمسمائة دينار وأهدى لها مائة دينار ودخل عليها من ليلته وإذا هي على منصة فصعد عليها فإذا كل عضو منها مكلل بالجوهر فلم يصل إليها فدفعت بعض الجواري فنزلت وغيرت لبسها ولبست ثياباً مصيفة وفرشت له فرشاً على الأرض دون ذلك فلم يصل إليها فقالت: لا يغرّك هذا كذلك كان

= ٥٧٦ م. أمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف. يكنى بأبي عبد الله وأبي عمرو، يقال لعثمان ـ رضي الله عنه: «ذو النورين» لأنه تزوج رقية، وأم كلثوم ابنتي النبي ﷺ، ولا يُعرف أحد تزوج بنتي نبي غيره، قتل عثمان سنة ٣٥ هـ/ ٦٥٦ م، عثمان بن عفان، ذو النورين، محمد رضا، تحقيق محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧.

(١) هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله، ابن العباس بن عبد المطلب، أبو العباس السفّاح. أول خلفاء الدولة العباسية، وأحد الجبارين الدهاة من ملوك العرب. ويقال له المرتضى والقائم. ولد بالشراة سنة ١٠٤ هـ/ ٧٢٢ م ونشأ بها، وقام بدعوته أبو مسلم الخراساني. فبويع له بالخلافة جهراً في الكوفة سنة ١٣٢ هـ. وصفا له الملك بعد مقتل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين في الشام. كان شديد العقوبة، عظيم الانتقام. تتبع بقايا الأمويين بالقتل والصلب والإحراق حتى لم يبق منهم غير الأطفال والجالين إلى الأندلس. لقّب بالسفاح لكثرة ما سفح من دمائهم. كانت إقامته بالأنبار، حيث بنى مدينة سمّاها «الهاشمية»، وجعلها مقر خلافته هو أول من أحدث الوزارة في الإسلام، كان سخياً جداً. يوصف بالفصاحة والعلم والأدب. مرض بالجدري فتوفي شاباً في الأنبار سنة ١٣٦ هـ/ ٧٥٤ م.

Marfat.com

غيرك يصيبه مثل ما أصابك فلم تزل به حتى وصل إليها من ليلته، وحظيت عنده وحلف أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى فولدت له محمد وريطة، وغلبت على أمره غلبة شديدة حتى إنه كان لا يقطع أمراً إلا بمشورتها حتى آلت الخلافة إليه فلم يكن يدنو من غيرها لا حرة ولا أمة، ووفى لها بما حلف أن لا يغيرها فبينما كان ذات يوم في خلافته إذ خلا به خالد بن صفوان[1] فقال:

«يا أمير المؤمنين، إني فكرت في أمرك وسعة ملكك وقد ملكت نفسك امرأة واحدة فإن مرضت مرضت، وإن غابت غبت، وحرمت نفسك التلذذ واستطراف الجواري ومعرفة أخبارهن وحالاتهن والتمتع بما تشتهي منهن فإن منهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء، والغضَّة البيضاء، والعقيقة الأدماء، والدقيقة السمراء، والبربرية العجزاء، من مولدات المدينة تفتتن بمحادثتهن وتلذ بخلوتهن، وأين أمير المؤمنين من بنات الأحرار والنظر إلى ما عندهن وحسن الحديث منهن، ولو رأيت يا أمير المؤمنين الطويلة البيضاء، والسمراء اللعساء، والصفراء العجزاء، والمولدات من البصريات، والكوفيات ذات الألسن العذبة، والقدود المهفهفة والأوساط المخصرة، والأصداغ المظرفنة، والعيون المكحلة، والثدي المحققة، وحسن زيهن وزينتهن وشكلهن لرأيت شيئاً حسناً».

وجعل خالد يجيد في الوصف ويجدّ في الإطناب بحلاوة لفظه، وجودة وصفه، فلما فرغ كلامه قال له أبو العباس: ويحك يا خالد ما حك مسامعي والله قط كلام أحسن مما سمعته منك فأعد عليّ كلامك فقد وقع مني.

فأعاد عليه خالد أحسن من الأول ثم انصرف وبقي أبو العباس مفكراً فيما سمع منه، فدخلت عليه أم سلمة امرأته، فلما رأته مفكراً مغموماً قالت: إني لأنكرك يا أمير المؤمنين فهل حدث أمر تكرهه أو أتاك خبر فارتعت منه؟ قال: لم يكن من ذلك شيء قالت: فما قصتك أخبرني عنها؟ فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد فقالت: فما قلت لابن الفاعلة؟ قال لها: سبحان الله ينصحني وتشتميه؟ فخرجت من عنده مغضبة وأرسلت إلى خالد عشرة من الخدم ومعهم العصي وأمرتهم أن لا يتركوا منه عضواً صحيحاً. قال خالد: فانصرفت إلى منزلي وأنا في غاية السرور بما رأيت من أمير المؤمنين وإعجابه بما ألقيت إليه ولم أشك أن صلته ستأتيني

---

(١) هو خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم التميمي المنقري، من فصحاء العرب المشهورين. كان يجالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك، وله معهما أخبار. ولد ونشأ بالبصرة. كان أيسر أهلها مالاً، ولم يتزوج. له كلمات سائرة، قيل له: أي إخوانك أحبّ إليك؟ فقال: الذي يغفر زللي ويقبل عللي ويسدّ خللي. عاش إلى أن أدرك خلافة السفاح العباسي وحظي عنده. وكان لفصاحته أقدر الناس على مدح الشيء وذمه. كان يُرمى بالبخل وكُفّ بصره. توفي سنة ١٣٣ هـ/ ٧٥٠ م.

Marfat.com

فلم ألبث حتى صار أولئك الخدم وأنا قاعد على باب داري، فلما رأيتهم قد أقبلوا نحوي أيقنت بالجائزة واصلة حتى وقفوا عليّ فسألوا عني فقلت: ها أنا ذا خالد فبادر إليّ أحدهم بهراوة كانت معه.

فلما أهوى بها إليّ وثبت فدخلت منزلي وأغلقت الباب عليّ واستترت ومكثت أياماً على تلك الحال لا أخرج من منزلي ووقع في خلدي أني أوتيت من قبل أم سلمة وطلبني أبو العباس طلباً شديداً فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم قد هجموا عليّ وقالوا: أجب أمير المؤمنين، فأيقنت بالموت فركبت وليس عليّ لحم ولا دم، فلما وصلت إليه أومأ إليّ بالجلوس ونظرت فإذا خلف ظهري باب عليه ستور قد أرخيت، وحزكة خلفها فقال: يا خالد لم أرك منذ ثلاث! قلت: كنت عليلاً يا أمير المؤمنين. فقال: ويحك إنك وصفت لي في آخر دخلة من أمر النساء والجواري ما لم يخرق سمعي قط كلام أحسن منه فأعده عليّ.

قلت: نعم يا أمير المؤمنين، أعلمتك أن العرب اشتقَّت اسم الضرة من الضر، وأن أحدهم ما تزوج من النساء أكثر من واحدة إلا كان في جهد فقال: ويحك لم يكن هذا في الحديث قلت: بلى والله يا أمير المؤمنين وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأنهن في قدر يغلي عليهن. قال أبو العباس برئت من قرابتي من رسول الله ﷺ إن كنت سمعت منك هذا في حديثك الأول. قال: وأخبرتك أن الأربعة من النساء شر صريح لصاحبهن يشينه ويهرمنه ويسقمنه قال: ويلك، والله ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت! قال خالد: بلى والله. قال: ويلك أتكذبني؟ قال: أوَ تريد أن تقتلني؟ قال: مرّ في حديثك. قال: وأخبرتك أن أبكار الجواري رجال، ولكن لا خصي لهن قال خالد فسمعت الضحك من وراء الستر قلت: نعم وأخبرتك أيضاً أن بني مخزوم ريحانة قريش وأنت عندك ريحانة من الرياحين وأنت تطمح بعينك إلى حرائر النساء وغيرهن من الإماء قال خالد فقيل لي من وراء الستر: صدقت، والله يا عماه بهذا حدثت أمير المؤمنين، ولكنه بدل وغير ونطق بما في ضميره عن لسانك فقال له أبو العباس: ما لك قاتلك الله وأخزاك وفعل بك وفعل. قال: فتركته وخرجت وهو يشتم وقد أيقنت بالحياة فلما وصلت منزلي أخذت راحتي وصرت أفكر فيما حصل فما أشعر إلا ورسل أم سلمة قد صاروا إليّ ومعهم عشرة آلاف درهم وتخت وبرذون وغلام فأخذتها وانصرفوا وبقيت أم سلمة عند السفاح إلى أن توفاه الله وهي مالكة قلبه.

أم سنان ابنة جشمة

كانت من شاعرات العرب الموصوفات بالأدب اللائي لهنّ اليد الطولى بالنظم والنثر مع رقة المعنى ودقة المبنى والحماسة الزائدة التي تقصر عنها حماسة الرجال وناهيك ما قالته في

Marfat.com

مدح آل البيت وتحريض آل مذحج[١] على نصرتهم، وقد وفدت على معاوية كما قال سعيد بن أبي حذافة قال: إن مروان بن الحكم وهو والي المدينة حبس غلاماً ليس في جناية جناها فأتته جدة الغلام وهي أم سنان ابنة جشمة المذحجية فكلمته في الغلام فأغلظ لها مروان فخرجت إلى معاوية، فدخلت عليه، فانتسبت فعرفها فقال لها: مرحباً يا ابنة جشمة ما أقدمك أرضنا وقد عهدتك تشتمينا وتحضين علينا عدونا؟ قالت: إن لبني عبد مناف[٢] أخلاقاً طاهرة وأحلاماً وافرة لا يجهلون بعد علم، ولا يسفهون بعد حلم، ولا ينتقمون بعد عفو، وإن أولى الناس باتباع ما سنّ آباؤه لأنت قال: صدقت نحن كذلك فكيف قولك:

عذب الرقاد فمقلتي لا ترقد ... والليل يصدر بالهموم ويوردُ
يا آل مذحج لا مقام فشمروا ... إن العدوّ لآل أحمد يقصدُ
هذا عليّ كالهلال تحفه ... وسط السماء من الكواكب أسعدُ
خير الخلائق وابن عم محمد ... إن يهدكم بالنور منه تهتدوا
ما زال مذ شهر الحروب بمظفر ... والنصر فوق لوائه ما يفقدُ

قالت: كان ذلك يا أمير المؤمنين، وأرجو أن تكون لنا خلفاً، فقال رجل من جلسائه كيف يا أمير المؤمنين وهي القائلة:

أما هلكت أبا الحسين فلم تزل ... بالحق تعرف هادياً مهديا
فاذهب عليك سلام ربك ما دعت ... فوق الغصون حمامة قمريا
قد كنت بعد محمد خلفاً كما ... أوصى إليك بنا فكنت وصيا

قالت: يا أمير المؤمنين، لسان صدق وقول حق ولئن تحقق ما ظننا فحظك الأوفر والله ما أورثك الشنآن في قلوب المسلمين إلا هؤلاء فأضحد مقالتهم وأبعد منزلتهم إنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قرباً ومن المؤمنين حباً.

قال: وإنك تقولين ذلك قالت: سبحان الله والله ما مثلك مدح بباطل ولا أعتذر إليه

---

(١) آل مذحج: واسمه مالك، قبيلة من كهلان، قال الجوهري: مذحج على وزن مسجد، وقال أبو عبيد: هو ابن أدد، وقال الجوهري: مذحج بن يخامر بن مالك بن أدد بن زيد بن كهلان.

(٢) بنو عبد مناف: بطن من قريش من العدنانية، وهم عبد مناف بن قصي، وأمه حبي بنت خليل وكانت أمه حبي المذكورة قد أخدمته مناة، وهو صنم عظيم لهم، فخشي أبوه قصي بن كلاب أن يلتبس بعبد مناة بن كنانة، فحوله لعبد مناف، وكان يسمى قمر البطحاء، وكان له شوكة في قريش. قال ابن إسحاق: وكان له من الولد هاشم وعبد شمس وعبد المطلب وأخته. قال ابن حبيب: وهي عاتكة بنت مرة السلمي. وكان قصي قد جعل لابنه عبد الدار في مقابلة شرف عبد مناف الحجابة، واللواء، والندوة، والرفادة، والسقاية، فبقوا على ذلك إلى أن انتزع بنو عبد مناف منهم السقاية والرفادة.

Marfat.com

بكذب وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا كان والله عليّ أحب إلينا منك، وأنت أحب إلينا من غيرك.

قال: فمن قالت من مروان بن الحكم وسعيد بن العاص. قال: وبما استحققت ذلك عندك؟ قالت: بسعة حلمك وكريم عفوك. قال: إنهما يطمعان في ذلك. قالت: هما والله من الرأي على غير ما كنت عليه لعثمان بن عفان رحمه الله. قال: والله لقد قاربت ما حاجتك؟ قالت: يا أمير المؤمنين إن مروان تَبَنَّكَ[1] بالمدينة تَبَنُّكَ من لا يريد منها البراح لا يحكم بعدل ولا يقضي بسنة يتبع إثارات المسلمين، ويكشف عورات المؤمنين حبس ابن ابني فأتيته. فقال: كنت وكنت، فأسمعته أخشن من الحجر، وألقمته أمرّ من الصبر، ثم رجعت إلى نفسي بالملامة، وقلت: لم لا أصرف ذلك إلى من هو أولى بالعفو منه فأتيتك يا أمير المؤمنين لتكون في أمري ناظراً وعليه معدياً.

قال: صدقت لا أسألك عن ذنبه والقيام بحجته اكتبوا لها بإطلاقه قالت: يا أمير المؤمنين وأنّى لي بالرجعة وقد نفد زادي وكلت راحلتي فأمر لها براحلة وخمسة آلاف درهم وانصرفت إلى قومها.

أم عقبة زوجة غسان بن جهضم

كانت ابنة عمه وكان مفتوناً بها لأنها كانت من أجمل النساء وأحسنهن وأفضلهن خصالاً وكان لما حضرته الوفاة جعل ينظر إليها ويبكي، ثم قال لها: إني منشدك أبيات أسألك فيها عما تصنعين بعدي وأعزم عليك أن تصدقيني فقالت: قل فوالله لا أكذبك. فأنشد:

أخبري بالذي تريدين بعدي ... ما الذي تضمرين يا أم عقبَهْ
تحفظيني من بعد موتي لما قد ... كان مني من حسن خلق وصحبَهْ
أم تريدين ذا جمال ومال ... وأنا في الترب رهن سجن وغربَهْ

فأجابته:

قد سمعنا الذي تقول وما قد ... خفته يا خليل من أم عقبَهْ
سوف أبكيك ما حييت شجواً ... ومراث أقولها وبندبَهْ

فقال:

أنا والله واثق بك لكن ... ربما خفت منك غدر النساء
بعد موت الأزواج يا خير من عو ... شر فارعي حقي بحسن وفاء

---

(١) تَبَنَّك: أقام في المكان وفي عزّه تمكّن. [القاموس المحيط، مادة: بَنَكَ].

Marfat.com

إنني قد رجوت أن تحفظي العهـ ـد فكوني إن مت عند رجائي

فلما مات توافد عليها الخطاب فقالت:

سأحفظ غساناً على بعد داره وأرعاه حتى نلتقي يوم نحشرُ
وإني لفي شغل عن الناس كلهم فكفوا فما مثلي من الناس يغدرُ
سأبكي عليه ما حييت بعبرة تجري على الخدين مني فتكثرُ

فلما طالت الأيام وكثر إلحاح الناس أجابت الخاطب فلما كانت الليلة التي زفت فيها جاءها غسان في النوم فأنشد:

غدرت ولم ترعي لبعلك حرمة ولم تعرفي حقاً ولم تحفظي عهدا
ولم تصبري حولاً حفاظاً لصاحب حلفت له يوماً ولم تنجزي وعدا
غدرت به لما ثوى في ضريحه كذلك ينسى كل من سكن اللحدا

فانتبهت مرعوبة كأنما كان معها فقالت النساء لها: ما دهاك؟ قالت: ما ترك غسان لي في الحياة أرباً ولا في السرور رغبة أتاني في المنام فأنشدني هذه الأبيات، ثم جعلت ترددها وتبكي فشاغلنها بالحديث فلما غفلن عنها أخذت شفرة فذبحت نفسها ووفت لزوجها.

أم عمران ابنة وقدان

كانت من النساء المتحمسات في الجاهلية وكلامها يغلب عليها الهيجان بين العرب، قيل: إنها حينما قتل بعض رجال قومها قالت تحرّضهم على أخذ ثأره وتوبخهم على تغافلهم عنه:

إن أنتم لم تطلبوا بأخيكم فذروا السلاح ووحشوا بالأبرقِ
وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا نقب النساء فبئس رهط المرهقِ
ألهاكم أن تطلبوا بأخيكم أكل الخزير ولعق أجرد أمحقِ

أم قيس الضبية

لها في ابن سعد[1] زوجها مراث روى منها صاحب الحماسة قولها:

من للخصوم إذا جدّ الضجاج بهم بعد ابن سعد ومن للضمر القودِ

---

(١) هو محمد بن سعد بن منيع الزهري، مولاهم، أبو عبد الله مؤرخ ثقة، من حفاظ الحديث. ولد في البصرة سنة ١٦٨ هـ/ ٧٨٤ م. وسكن بغداد وتوفي فيها سنة ٢٣٠ هـ/ ٨٤٥ م. صحب الواقدي المؤرخ. قال الخطيب في تاريخ بغداد: محمد بن سعد عندنا من أهل العدالة وحديثه يدل على صدقه، فإنه يتحرّى في كثير من رواياته.

Marfat.com

ومشهـد قـد كفيـت الغـائبيـن بـه في مجمع من نواصي الناس مشهودِ
فـرّجتـه بلسـان غيـر ملتبـس عنـد الحفـاظ وقلـب غيـر مـذؤدِ
إذا قنـاة امـرئ أزرى بهـا خـور هـز ابـن سعـد قنـاة صلبـة العـودِ

أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب

أمها فاطمة[١] ابنة رسول الله ﷺ ولدت قبل وفاة النبي خطبها عمر بن الخطاب إلى أبيها عليّ فقال: إنها صغيرة. فقال عمر: زوجنيها يا أبا الحسن فإني أرصد من كرامتها ما لم يرصده أحد. فقال له: عليّ أنا أبعثها إليك فإن رضيتها فقد زوجتكها فبعثها إليه ببرده فقال لها: قولي له: هذا البرد الذي قلت لك عليه. فقالت: ذلك لعمر. فقال لها: قولي له: قد رضيت رضي الله عنك ووضع يده عليها. فقالت له: أتفعل هذا؟ لولا أنك أمير المؤمنين لكسرت أنفك، ثم جاءت أباها فأخبرته وقالت له: بعثتني إلى شيخ سوء. قال: يا بنية، إنه زوجك فجاء عمر فجلس إلى المهاجرين في الروضة وكان يجلس فيها المهاجرون الأولون. فقال: ارفئوني فقالوا: بماذا يا أمير المؤمنين؟ قال: تزوجت أم كلثوم بنت علي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل سبب ونسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي وصهري**»[٢] وكان لي به ﷺ النسب والسبب فأردت أن أجمع إليه الصهر فرفأوه، فتزوجها على مهر أربعين ألفاً فولدت له زيداً ورقية، وتوفيت أم كلثوم وابنها زيد في وقت واحد وكان زيد قد أصيب في حرب كانت بين بني عدي[٣] خرج ليصلح بينهم فضربه رجل منهم في الظلمة فشجه وصرعه، فعاش أياماً ثم مات هو وأمه وصلى عليهما عبد الله بن عمر[٤]

---

(١) هي فاطمة بنت رسول الله ﷺ بن عبد الله بن عبد المطلب، الهاشمية، القرشية، فاطمة الزهراء، أمها خديجة بنت خويلد من نابهات قريش وهي إحدى الفصيحات العاقلات. تزوجها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في الثامنة عشر من عمره، ولدت سنة ١٨ ق.هـ/ ٦٠٥ م، كانت أحب الناس إلى قلب أبيها ﷺ، أولادها: الحسن، والحسين، وأم كلثوم، وزينب. عاشت بعد أبيها ستة أشهر توفيت سنة ١١ هـ/ ٦٣٢ م. وهي أول من جُعل لها النعش في الإسلام، عملته لها أسماء بنت عميس، وكانت قد رأته يُصنع في بلاد الحبشة.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٧: ١١٤). والحاكم في المستدرك (٣: ١٤٢). والطبراني في المعجم الكبير (٣: ٣٦). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩١٤).

(٣) يراجع: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، القلقشندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٥.

(٤) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، أبو عبد الرحمٰن، صحابي، من أعز بيوتات قريش في الجاهلية. كان جريئاً جهيراً. ولد في مكة سنة ١٠ ق.هـ/ ٦١٣ م. نشأ في الإسلام، وهاجر إلى المدينة مع أبيه، شهد فتح مكة، توفي فيها سنة ٧٣ هـ/ ٦٩٢ م. أفتى الناس في الإسلام ستين سنة. =

Marfat.com

وقدمه الحسن بن علي[١] وذلك بعد وفاة عمر بن الخطاب، ولما قتل عنها عمر تزوجها عون بن جعفر.

وقيل: لما تأيمت[٢] أم كلثوم بنت علي من عمر بن الخطاب دخل عليها الحسن والحسين[٣] أخواها فقالا لها: إنك ممن قد عرفت سيدة نساء المسلمين وبنت سيدتهن وإنك

= ولما قُتل عثمان عرض عليه نفر أين يبايعوه بالخلافة فأبى. غزا إفريقية مرتين الأولى مع ابن أبي سرح، والثانية مع معاوية بن حديج سنة ٣٤ هـ. كُف بصره في آخر حياته. وهو آخر من توفي بمكة من الصحابة.

(١) هو الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي، القرشي، أبو محمد، خامس الخلفاء الراشدين وآخرهم، وثاني الأئمة الاثني عشر عند الإمامية (وهي فرقة من المسلمين تقول بإمامة علي ـ رضي الله عنه ـ بعد النبي ﷺ، وأنها لأبناء علي يتوارثونها وهم متّفقون على أن الأئمة اثنا عشر، وأنهم خُتموا بالمهدي المنتظر وفي أسمائهم خلاف، والأشهر في تسميتهم أنهم: الإمام علي، الحسن، الحسين، زين العابدين، الباقر، الصادق، الكاظم، الرضا، الجواد، الهادي، العسكري، المهدي. ولد في المدينة المنورة سنة ٣ هـ/ ٦٢٤ م. أمه فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، وهو أكبر أولادها وأولهم. كان عاقلاً حليماً محبّاً للخير، فصيحاً من أحسن الناس منطقاً وبديهة وكان معاوية بن أبي سفيان يوصي أصحابه باجتناب محاورة رجلين هما: الحسن بن علي وعبد الله بن عباس، لقوة بداهتهما. حج عشرين حجة ماشياً. وقال أبو نعيم: دخل أصبهان غازياً مجتازاً إلى غزاة جرجان، ومعه عبد الله بن الزبير. بايعه أهل العراق بالخرفة بعد مقتل أبيه سنة ٤٠ هـ، وأشاروا عليه بالمسير إلى الشام لمحاربة معاوية بن أبي سفيان، فأطاعهم وزحف بمن معه. وبلغ معاوية خبره، فقصده بجيشه. فهال الحسن أن يقتتل المسلمون، ولم يستشعر الثقة بمن معه، فكتب إلى معاوية يشترط شروطاً للصلح، ورضي معاوية، فخلع الحسن نفسه من الخلافة وسلم الأمر لمعاوية في بيت المقدس سنة ٤١ هـ، وسمي هذا العام «عام الجماعة» لاجتماع كلمة المسلمين فيه وانصرف الحسن إلى المدينة حيث أقام إلى أن توفي مسموماً، ويقال: إن الذي دس السم للحسن هو امرأته أسماء بنت الأشعث بن قيس، أعطاها معاوية مائة ألف فسقته السم في اللبن، وكانت وفاته سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م.

(٢) تأيمت: فقدت زوجها. [القاموس المحيط، مادة: أيم].

(٣) هو الحسين بن علي بن أبي طالب، الهاشمي، القرشي العدناني، أبو عبد الله، السبط الشهيد، ابن فاطمة الزهراء. ولد في المدينة سنة ٤ هـ/ ٦٢٥ م. نشأ في بيت النبوة، وهو الذي تأصلت العداوة بسببه بين بني هاشم وبني أمية حتى ذهبت بعرش الأمويين، وذلك أن معاوية بن أبي سفيان لما مات، وخلفه ابنه يزيد، تخلف الحسين عن مبايعته، ورحل إلى مكة في جماعة من أصحابه فأقام فيها شهراً، ودعاه أهل الكوفة على أن يبايعوه بالخلافة، وكتبوا إليه أنهم في جيش متهيّئ للوثوب على الأمويين. فأجابهم، وخرج من مكة في مواليه ونسائه وذراريه، ونحو ثمانين من رجاله. علم يزيد بسفره فوجّه إليه جيشاً اعترضه في كربلاء بالعراق قرب الكوفة، فنشب قتال عنيف أصيب الحسين فيه بجراح شديدة، وسقط عن فرسه، فقتله سنان بن أنس النخعي، وقيل: الشمر بن ذي الجوشن، وأرسل رأسه ونساءه وأطفاله إلى دمشق عاصمة الأمويين آنذاك، فتظاهر يزيد بالحزن عليه. واختلفوا في الموضع الذي دُفن فيه الرأس، فقيل: في دمشق، وقيل في كربلاء مع الجثة، وقيل في مكان آخر، فتعددت المراقد، وتعذّرت معرفة مدفنه، وكان مقتله ـ رضي الله عنه ـ يوم الجمعة عاشر المحرم.

Marfat.com

والله إن أمكنتِ علياً من رمتك لنكحك بعض أيتامه، ولئن أردت أن تصيبي بنفسك مالاً عظيماً لا تصيبينه فوالله ما لبثا حتى طلع عليّ يتكئ على عصا فجلس فحمد الله وأثنى عليه وذكر منزلتهم من رسول الله ﷺ وقال: قد عرفتم منزلتكم عندي يا بني فاطمة، وآثرتكم على سائر ولدي لمكانكم من رسول الله ﷺ وقرابتكم منه.

قالوا: صدقت رحمك الله فجزاك الله عنا خيراً. فقال: أي بنية، إن الله عز وجل قد جعل أمرك بيدك، وأنا أحب أن تجعليه بيدي. فقالت: أي أبت إني امرأة أرغب فيما يرغب فيه النساء وأحب أن أصيب مما تصيب النساء من الدنيا، وأنا أريد أن أنظر في أمر نفسي. فقال لها: لا يا بنية ما هذا من رأيك وما هو إلا رأي هذين ثم قام فقال: والله لا أكلم رجلاً منهما أو تفعلين، فأخذا بثيابه فقالا: اجلس يا أبانا فوالله ما على هجرتك من صبر.

فقالا لها: اجعلي أمرك بيده. فقالت: قد فعلت. قال: فإني قد زوّجتك من عون بن جعفر وإنه لغلام. وبعث لها بأربعة آلاف درهم وأدخلها عليه وبقيت معه حتى مات عنها قتيلاً في وقعة كربلاء وهي مع أخيها الحسين ورجعت مع السبايا من العراق إلى الشام ثم إلى المدينة وذلك في قصة مشهورة وتوفيت في المدينة.

أم كلثوم ابنة عقبة بن أبي معيط[١]

أسلمت وهاجرت وبايعت الرسول ﷺ وكانت هجرتها سنة ٧ هجرية وتزوجها زيد بن حارثة[٢] فقتل عنها يوم مؤتة، ثم تزوجها الزبير بن العوام فولدت له زينب وطلقها فتزوجها عبد الرحمٰن بن عوف[٣] فولدت له إبراهيم وأحمد وغيرهما. ومات عنها فتزوجها عمرو بن

---

(١) هو عقبة بن أبان بن ذكوان بن أمية بن عبد شمس من مقدمي قريش في الجاهلية. كنيته أبو الوليد. كان شديد الأذى للمسلمين عند ظهور الدعوة، فأسروه يوم بدر وقتلوه ثم صلبوه، وهو أول مصلوب في الإسلام.

(٢) هو زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، صحابي، اختطف في الجاهلية صغيراً، اشترته خديجة بنت خويلد فوهبته إلى النبي ﷺ حين تزوجها، فتبناه قبل الإسلام، وأعتقه وزوجه بنت عمته، واستمر الناس يسمونه زيد بن محمد، حتى نزلت الآية ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾[الأحزاب: ٥]، وهو من أقدم الصحابة إسلاماً، كان النبي ﷺ لا يبعثه في سرية إلاّ أمّره عليها، وكان يحبه ويقدمه. جعل له الإمارة في غزوة مؤتة، فاستشهد فيها، وكان ذلك سنة ٨ هـ/ ٦٢٩ م.

(٣) هو عبد الرحمٰن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث، أبو محمد، الزهري القرشي، صحابي، من أكابرهم. وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم، وأحد السابقين إلى الإسلام، قيل: هو الثامن. وكان من الأجواد الشجعان العقلاء. اسمه في الجاهلية «عبد الكعبة»، أو «عبد عمرو»، سماه رسول الله ﷺ «عبد الرحمٰن» ولد بعد عام الفيل بعشر =

Marfat.com

العاص فماتت عنده وكانت أول مهاجرة من مكة إلى المدينة.

قيل: مشت على قدميها من مكة إلى المدينة ولما عزمت على المهاجرة أتى أخواها عمارة والوليد[١] يطلبانها فنزلت الآية: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠] وكانت أم كلثوم أخت عثمان ابن عفان لأمه وقد نزلت فيها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] إلى آخرها.

أم كلثوم ابنة عبدود

كانت أحسن نساء زمانها جمالاً، وأوفرهن عقلاً وكمالاً. ذات أدب وفصاحة، وكياسة، وملاحة. ولها باع طويل في الشعر. ولما قتل أخوها يوم الخندق وكان قد خرج في نفر من القرشيين إلى المسلمين وقال لهم: من يبارز فبرز له عليّ بن أبي طالب فقال له: يا عمرو إنّك آليت على نفسك أنه لا يدعوك أحد إلى إحدى ثلاث إلا أجبته وإني أدعوك إلى الإسلام. فقال: لا حاجة لي بذلك.

فقال: أدعوك إلى الانصراف فإن كان محمد صادقاً تقربت عنده بذلك، وإن كان كاذباً فما عليك من كذبه شيء ويقع بيد غيرك. فقال: كيف تقول عني نساء قريش إن تركت النزال ورجعت. فقال له: إني أدعوك إلى النزال. فقال: هذه، ما كنت أظن أحداً من العرب يتجاسر أن يدعوني إليها، ولكن يا ابن أخي فوالله ما أحب أن أقتلك. فقال له علي: لكنني أحب أن أقتلك فحمى عمرو عند ذلك واقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على علي فتنازلا وتجاولا فقتله علي سنة ٥ للهجرة [أو][٢] ٦٢٧ للميلاد وذلك في خبر طويل.

ولما نُعي عمرو إلى أخته أم كلثوم سألت من قاتله فقيل لها عليّ بن أبي طالب فقالت: لم يأتِ يومه إلا على يد كفء كريم وأنشدت:

أسدان في ضيق المكرّ تجاولا ... وكلاهما كفؤ كريم باسلُ

= سنين أي سنة ٤٤ ق.هـ/ ٥٨٠ م. وأسلم وشهد بدراً، وأحداً، والمشاهد كلها. جرح يوم أحد واحد وعشرون جرحاً. وفاته كانت سنة ٣٢ هـ/ ٦٥٢ م في المدينة.

(١) هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط، أبو وهب، الأموي القرشي، والٍ من فتيان قريش وشعرائهم وأجوادهم. فيه ظرف، ومجون، ولهو. وهو أخو عثمان بن عفان لأمه. أسلم يوم فتح مكة، وبعثه رسول الله ﷺ، على صدقات بني المصطلق، ثم ولاه عمر صدقات بني تغلب، وولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص سنة ٢٥ هـ. أقام إلى سنة ٢٩ هـ، فشهد عليه جماعة عند عثمان بشرب الخمر. فعزله ودعا به إلى المدينة وحَدّه وحبسه، ولما قتل عثمان اعتزل الفتنة بين علي ومعاوية، ولكنه رثى عثمان وحرض معاوية على الأخذ بثأره. مات بالرقة سنة ٦١ هـ/ ٦٨٠ م.

(٢) وردت في الأصل: «و»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

Marfat.com

فتخالسَا سلب النفوس كلاهما وسط المجال مجالد ومقاتلٌ
وكلاهما حسر القناع حفيظه لم يثنه عن ذاك شغل شاغلٌ
فاذهب عليّ فما ظفرت بمثله قول سديد ليس فيه تحاملٌ

وأنشدت أيضاً:

لو كان قاتل عمرو غير قاتله لكنت أبكي عليه آخر الأبدِ
لكنّ قاتله من لا يعاب به من كان يدعى أبوه بيضة البلدِ
من هاشم في ذراها وهي صاعدة إلى السماء تميت الناس بالحسدِ
قوم أبى الله إلا أن يكون لهم مكارم الدين والدنيا بلا لددِ
يا أم كلثوم ابكيه ولا تدعي بكاء معولة حرّى على ولدِ

ولما بلغت أبياتها إلى النبي ﷺ علم وفور عقلها وأنها مائلة إلى الإسلام فدعاها إلى ذلك فلبت طلبه وكان ذلك يوم فتح مكة وبقيت إلى أن توفيت في حياته.

أم موسى الهاشمية

هي امرأة أديبة عاقلة حكيمة ذات مكر ودهاء وفطنة قد جعلها المقتدر كهرمانة داره سنة ٢٩٨ هجرية فكانت تؤدي الرسائل من المقتدر وأمه إلى الوزير، وكان لها كلمة نافذة وهي التي تسببت في عزل عليّ بن عيسى[١] عن وزارة المقتدر سنة ٣٠٤ هجرية، وذلك أنها أرادت الدخول عليه لتتفق معه على ما يحتاج حرم الدار والحاشية من الكسوات والنفقات، فوصلت إليه وهو نائم فقال لها صاحبه: إنه نائم فلا أحد يوقظه فاجلسي في الدار ساعة حتى يستيقظ فغضبت من هذا وعادت، فاستيقظ عليّ بن عيسى في الحال وأرسل إليها حاجبه وولده يعتذر لها فلم تقبل ودخلت على المقتدر وتحرشت على الوزير عنده وعند أمه، فعزله وأعيد أبو الحسن عليّ بن الفرات[٢] ثم عزلها المقتدر سنة ٣١٠ [هـ]، وذلك لأنها زوّجت ابنة

---

(١) هو علي بن عيسى بن داود بن الجراح، أبو الحسن البغدادي السني، وزير المقتدر العباس والقاهر. أحد العلماء الرؤساء من أهل بغداد. فارسي الأصل ولد سنة ٢٤٤ هـ/٨٥٩ م. نشأ كاتباً كأبيه. ولي مكة، استقدمه المقتدر إلى بغداد سنة ٣٠٠ هـ فولاه الوزارة، فأصلح الأحوال وأحسن الإدارة ونفاه إلى مكة سنة ٣١١ هـ ومنها إلى صنعاء. أذن له بالعودة إلى مكة سنة ٣١٢ هـ فعاد، ولى فيها الاطلاع على أعمال مصر والشام، فكان يتردد إليهما، أعاده المقتدر إلى الوزارة سنة ٣١٤ هـ، ونقم عليه سنة ٣١٦ هـ فعزله وقبض عليه، ثم جعل له النظر في الدواوين سنة ٣١٨ هـ. وهكذا كانت حياته ملؤها الاضطراب. توفي في بغداد سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٦ م.

(٢) هو علي بن الفرات محمد بن موسى، أبو الحسن، ابن الفرات، وزير من الدهاة الفصحاء الأدباء الأجواد. هو ممهد الدولة للمقتدر العباسي. ولد في النهروان الأعلى بين بغداد وواسط سنة =

Marfat.com

أختها من أبي العباس أحمد بن محمد بن إسحاق بن المتوكل وأكثرت من النثار والدعوات وخسرت أموالاً جليلة فسعى بها أعداؤها إلى المقتدر وقالوا: إنها قد سعت لأبي العباس في الخلافة وحلَّفت له القواد وكثر القول عليها فقبض عليها المقتدر وأخذ منها أموالاً جسيمة وجواهر نفيسة.

أم ندبة زوجة بدر بن حذيفة

كانت عقيلة قومها كريمة بيتها مسموعة كلمتها وكان ولدها ندبة يكنى أبا قرافة قد قتله قيس بن زهير العبسي[1] في حرب داحس والغبراء[2] فقالت ترثيه وتلوم زوجها بقبول الدية:

حذيفة لا سلمت من الأعادي ... ولا وقيت شر النائباتِ
أيقتل ندبة قيس وترضى ... بأنعام ونوق سارحاتِ
أما تخشى إذا قال الأعادي ... حذيفة قلبه قلب البناتِ
فخد ثأراً بأطراف العوالي ... أو البيض الحداد المرهفاتِ
وإلا خلني أبكي نهاري ... وليلي بالدموع الجارياتِ
لعل منيتي تأتي سريعاً ... وترميني سهام الحادثاتِ
أحب إليّ من بعل جبان ... تكون حياته أردى الحياة
فيا أسفي على المقتول ظلماً ... وقد أمسى قتيلاً في الفلاة
ترى طير الأراك ينوح مثلي ... على أعلى الغصون المائلاتِ
وهل تجد الحمائم مثل وجدي ... إذا رميت بسهم من شتاتِ
فيا يوم الرهان فجعت فيه ... بشخص جاز عن حد الصفاتِ
ولا زال الصباح عليك ليلاً ... ووجه البدر مسود الجهاتِ

= ٢٤١ هـ/ ٨٥٥ م. اتصل بالمعتضد بالله، فولاه ديوان السواد. ثم بلغ رتبة الوزارة في أوائل أيام المقتدر، فتولاها ثلاث مرات ثم قبض عليه سنة ٣١٢ هـ فسجن ٣٣ يوماً وضرب عنقه وطرحت جثته في دجلة.

(١) هو قيس بن زهير بن حذيفة بن رواحة العبسي، أمير عبس، وداهيتها، أحد السادة القادة في عرب العراق. كان يلقب بقيس الرأي لجودة رأيه. يكنى أبو هند. من الأمراء والدهاة والشعراء والخطباء الشجعان. ورث الإمارة عن أبيه. أشتهرت وقائعه في حروبه مع بني فزارة وذبيان. خطبه غير قليلة، وشعر جيد فحل. زهد أواخر عمره، فرحل إلى عُمان، وعفّ عن المآكل حتى أكل الحنظل. وما زال في عُمان إلى أن مات سنة ١٠ هـ/ ٦٣١ م. يضرب المثل بدهائه.

(٢) داحس والغبراء: اسمان لفرسين لقيس بن زهير، وقعت الحرب بين عبس وذبيان بسببهما انتهت بصلح. وكان يوم داحس لعبد القيس على فزارة. ومن أيام حرب داحس والغبراء يوم المريقب، وذي حساء، واليعمرية، الهباءة، فروق، قطن.

Marfat.com

ويـا خيـل السبـاق سقيـت سمـاً مـذابـاً فـي الميـاه الجـاريـاتِ
ولا زالـــت ظهـــورك مثقـــلات بصمـــان الجبـــال الـــراسيـــاتِ
لأن سبـــاقكـــم ألقـــى علينـــا همـــومـــاً لا تـــزال إلـــى الممـــاتِ

أمالتونسا ابنة ثيودوريك

وأمها «أوديفليد» أخت «كلوفيس»[١] ملك فرنسا، وكانت «أمالتونسا» بيدها أزمة أحكام البلاد الإيطالية، وذلك لأنه لم يكن «لثيودوريك» ابن يرث ملكه من بعده، فزوج ابنته هذه بفتى، سليل أحد أعضاء العائلة الملكية، الذي فر هارباً إلى إسبانيا فرقاه الملك الفوثي إلى رتبة قنصلية وأمير، ولكن ذلك الفتى لم يتمتع زماناً طويلاً بلذة ارتقائه واقترانه بـ «أمالتونسا»، بل مات مخلفاً طفلاً يدعى «أثالاريك» فتولت زوجته بعد وفاته وموت أبيها أحكام البلاد بالنيابة عن ابنها القاصر، واشتهرت هذه بجمالها البديع وحسنها الباهر وذكائها العظيم، وسعة معارفها، وكثرة عوارفها، وكان لها القدم الأولى في المباحث العلمية والفلسفية.

قيل: إنها درست اللغة اليونانية، واللاتينية، والفوثية، وتضلعت منها حتى أصبحت قادرة أن تتكلم بكل منها بفصاحة ورشاقة ولا ريب أنها كانت حسنة المبادئ كريمة النفس لأنها عاملت الرومانيين سكان روميا وإيطاليا الأصليين معاملة رعاياها وأشفقت عليهم خلافاً للفوثيين الذين لم يزالوا يعتبرونهم أعداء وعبيداً.

وكان ابنها «أثالاريك» خملاً يبغض العلوم والمعارف، ويتأوّه من الدرس ومشقاته وإجهاد العقل في سبيل التحصيل وينفر من والدته لإكراهها إياه على المواظبة والاجتهاد فحدث ذات يوم أن الفوثيين كانوا مجتمعين في قصر «رافنا» ففر هذا الأمير الفتى من غرفة أمه، وانتصب بين الجميع وهو يذرف عبرات الغضب والكبرياء وشكا إلى الحاضرين قساوة أمه وضربها إياه بسبب عصيانه وعناده فأثر هذا الكلام بأولئك المتوحشين وتوهموا أن الملكة راغبة في إهلاك ابنها واختلاس سرير ملكه وطلبوا خلاص الفتى وتربيته كأجداده ورجال أمته في ميادين القتال والعراك لينشأ بطلاً، وقدّروا بفظاظتهم وإلحاحهم أن يحرموا الغلام وسائل التمدن والتهذيب فتركوه وشأنه يقضي أوقاته في السكر والملاهي وارتكاب الفواحش ولما رأت الملكة عصيان ابنها وزيغه و[إحاطة][٢] الأعداء بها من كل جانب خابرت «بوستنيان»

---

(١) كلوفيس (Clovis): أول ملوك فرنسا ٤٦٥ م ـ ٥١١ م، ملك سنة ٤٨١ م. وهو أول ملوكها الأفرنج جرماني الأصل، كان وثنياً ثم اعتنق المسيحية.
(٢) وردت في الأصل: «أحاطت»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

Marfat.com

بقصد السكن في بلاده، وأرسلت إلى مدينة «دارخيوم» في إقليم «أبيروس»[١] ٤٠ ألف دينار غير أن حب التسلط على الناس كان متسلطاً على فؤادها فأعارت صبوة الطمع أذناً صاغية وقلباً واعياً، وحينما أزمعت على مبارحة إيطاليا نجحت بدسائسها وقدرت أن تهلك بعضاً من كبار الرؤساء الثائرين عليها، وتمكنت بموت هؤلاء من الاستبداد بالأحكام والقبض على أزمّة البلاد بالنيابة عن ابنها كما كانت أوّلاً غير أن هذا الفتى الجاهل لم يعش زماناً طويلاً لأن الفسق والفواحش واللذات أضنته، فمات يافعاً لم يتجاوز السادسة عشرة من العمر فاضطرت إذ ذاك إلى مشاركة ابن عمها «سيبودونس» الجبان البخيل فثار الفوثيون عليها ونفوها إلى جزيرة صغيرة في بحيرة «بوليسنا» وهناك قتلوها سنة ٥٣٨ [ق.م] بالحمام خنقاً، وهكذا انتهت حياة هذه الملكة الفاضلة.

أمامة ابنة أبي العاص[٢] بن الربيع بن عبد العزى بن عبد مناف القرشية الهاشمية

أمها زينب[٣] ابنة رسول الله ﷺ ولدت على عهد جدّها ﷺ وكان يحبها وحملها في الصلاة وكان إذا ركع أو سجد تركها، وإذا قام حملها.

وروي عن عائشة[٤] أن رسول الله ﷺ أهديت له هدية فيها قلادة من جزع فقال: **«لأدفعنها إلى أحب أهلي إليّ»**[٥]. فدعا أمامة ابنة زينب فعلقها في عنقها ولما كبرت أمامة

---

(١) أبيروس: أو أبيرُس (Epeiros) مملكة قديمة من البلقان جنوبي مقدونيا. أشهر ملوكها پيرُس الثاني ٢٩٥ ـ ٢٧٢ ق.م.

(٢) هو القاسم بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو العاص، صحابي، من أصهار النبي ﷺ، غلب عليه لقبه: أبو العاص، وكان يلقّب جرو البطحاء، ويقال له: الأمين، وهو زوج زينب كبرى بنات النبي ﷺ تزوجها في الجاهلية، بمكة، وتأخر إسلامه، فكانت عند أبيها في المدينة، وأسلم فأعيدت إليه.

(٣) هي زينب بنت النبي ﷺ، الكبرى توفيت سنة ٨ هـ/ ٦٣٠ م، تزوجها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع.

(٤) هي عائشة بنت أبي بكر الصدّيق عبد الله بن عثمان، من قريش ولدت سنة ٩ ق. هـ/ ٦١٣ م، أفقه نساء المسلمين وأعلمهن بالدين والأدب. كانت تكنى بأم عبد الله. تزوجها النبي ﷺ في السنة الثانية بعد الهجرة، فكانت أحبّ نسائه إليه، وأكثرهن رواية للحديث عنه. لها خطب ومواقف. وما كان يحدث لها أمر إلا أنشدت فيه شعراً. كان أكابر الصحابة يسألونها عن الفرائض فتجيبهم. كان مسروق إذا روى عنها يقول: حدثتني الصدّيقة بنت الصدّيق. كانت ممن نقم على عثمان عمله في حياته، ثم غضبت له بعد مقتله، شاركت في معركة الجمل ضد الإمام علي بن أبي طاب. توفيت في المدينة سنة ٥٨ هـ/ ٦٧٨ م. روي عنها ٢٢١٠ أحاديث.

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٦ : ١٠١).

Marfat.com

تزوّجها عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بعد موت فاطمة ـ عليها السلام ـ وكانت فاطمة أوصت علياً أن يتزوّجها، فلما توفيت فاطمة تزوّجها من الزبير بن العوام لأن أباها قد أوصاه بها، فلما جرح عليّ خاف أن يتزوّجها معاوية فأمر المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب أن يتزوّجها بعده، فلما توفي عليّ وقضت العدّة تزوّجها المغيرة فولدت له يحيى وبه كان يكنى فهلكت عند المغيرة.

أمامة ابنة حمزة بن عبد المطلب

أمها سلمى بنت عميس وهي التي اختصم فيها عليّ وجعفر وزيد ـ رضي الله عنهم ـ لما خرجت من مكة وسألت كل من مر بها من المسلمين أن يأخذها فلم يفعل، فاجتاز بها عليّ فأخذها فطلب جعفر أن تكون عنده لأن خالتها أسماء ابنة عميس[١] عنده وطلبها زيد بن حارثة أن تكون عنده، لأنه كان قد آخى بينهما رسول الله ﷺ فقضى بها النبي ﷺ لجعفر لأن خالتها عنده، ثم زوّجها رسول الله من سلمة ابن أم سلمة وسماها الواقدي عمارة وأخواها لأمها عبد الله وعبد الرحمٰن ابنا شداد وهي من الصحابيات المحدّثات اللاتي أخذ عنهن جملة من مشاهير المحدّثين.

أمامة المريدية

كانت شاعرة من شاعرات نساء العرب إلا أن شعرها قليل ولم يكن في وقتها من يجمع الشعر وكانت صحابية محدّثة أخذ عنها جملة من المحدّثين.

ومما يروى عنها أنها قالت: لما قتل سالم بن عمير أبا عتيك ـ أحد بني عمرو بن عوف[٢]. وكان من المنافقين وظهر نفاقه فقال رسول الله ﷺ: «**من لي من هذا الخبيث؟**»[٣] فخرج إليه سالم بن عمير فقتله ـ فقالت في ذلك:

تكـذب ديـن الله والمـرء أحمـدا لعمري الذي أمناك أن بئس ما يمنّي
حبـاك حنيـف آخـر الـدهـر طعنـة أبا عاتك خذها على كبر السنِّ

---

(١) هي أسماء بنت عميس بن معد بن تيم بن الحارث الخثعمي، صحابية، كان لها شأن، أسلمت قبل دخول النبي ﷺ، دار الأرقم بمكة، هاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب، فولدت له عبد الله ومحمداً وعوفاً، ثم قتل عنها جعفراً شهيداً في وقعة مؤتة سنة ٨ هـ، فتزوجها أبو بكر الصدّيق، فولدت له محمداً. توفي عنها أبو بكر فتزوجها علي بن أبي طالب، فولدت له يحيى وعوناً. ماتت بعد علي سنة ٤٠ هـ/ ٦٦١ م.

(٢) هو عمرو بن عوف بن الخزرج بن حارثة، من الأزد، من القحطانية.

(٣) أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية (٥: ٢٢١).

Marfat.com

أمامة ابنة ذي الأصبع

أبوها ذو الأصبع العدواني[1] الشاعر الفارس المشهور. كانت أمامة شاعرة مشهورة يشار إليها بالبنان، أخذت العلم والشعر عن والدها وهي أصغر أولاده، وكان يحبها محبة عظيمة ولمحبته أحبها جميع قبيلتها ولها يقول ورأته قد نهض وسقط وتوكأ على العصا فبكت فقال:

جزعت أمامة إذ مشيت على العصا ... وتـــذكـــرت إذ نحـــن ملفتيـــانِ
فلقبلمـــا رام الإلٰـــه بكيـــده ... إرمـاً وهـذا الحـيّ مـن عـدوانِ
بعـد الحكـومـة والفضيلـة والنهـى ... طـاف الـزمـان عليهـم بـأوانِ
وتفـرّقـوا وتقطعـت أشـلاؤهـم ... وتبـدّدوا فـرقـاً بكـل مكـانِ
خربوا البلاد فأعقمت أرحامهم ... والـدهـر غيـرهـم مـع الحـدثـانِ
حتـى أبـادهـم علـى أخـراهـم ... صـرعـى بكـل نقيـرة ومكـانِ
لا تعجبيـن أمـام مـن حـدث عـرا ... فـالـدهـر غيـرنـا مـع الأزمـانِ

ومن شعرها قولها ترثي قومها:

كـم مـن فتـى كـانـت لـه منعـة ... أبلـج مثـل القمـر الـزاهـرِ
قـد مـرّت الخيـل بحـافـاتهـم ... مـر غيـث بجبـل عـاطـرِ
قـد لقيـت فهـم وعـدوانهـا ... قتيـلاً وهلكـاً آخـر الغـابـرِ
كـانـوا ملـوكـاً سـادة فـي الـورى ... دهـراً لهـا الفخـر علـى الفـاخـرِ
حتـى تسـاقـوا كـأسهـم بينهـم ... بغيـاً فيـا للشـارب الخـاسـرِ
بـادوا فمـن يحلـل بـأوطـانهـم ... يحلـل بـرسـم مقفـر داثـرِ

أَمة العزيز ابنة دحيّة الأندلسية الشريفة الحسنية

كانت ذات قناع، تفرعت من دوحة سناء أصلها ثابت وفرعها في السماء، وتجردت من سلالة أكابر وأشراف رقاة أسرّة منابر من بني عبد مناف. تصرفت في أثناء شبيبتها بين دراسة معارف وإفاضة عوارف لها أشعار رائقة معناها، بديعة مبناها، منها ما قاله الحافظ أبو

---

(١) هو خُرثان بن الحارث بن محرث بن ثعلبة، من عدوان، ينتهي إلى مضر، شاعر حكيم، شجاع، جاهلي، لقّب بذي الإصبع لأن حيّة نهشت إصبع رجله فقطعها، ويقال كانت له إصبع زائدة. وعاش طويلاً حتى عُدّ من المعمرين. له حروب ووقائع وأخبار. شعره مليء بالحكمة، والعظة، والفخر، قليل الغزل، والمديح.

Marfat.com

الخطاب بن دحية[١] في «المطرب من أشعار المغرب» قال: أنشدتني أخت جدي الشريفة الفاضلة أمة العزيز الحسنية لنفسها:

لحاظكم تجرحنا في الحشا ولحظنا يجرحكم في الخدودِ
جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا فما الذي أوجب جرح الصدودِ

قال العلامة المِقَّري[٢] في كتابه «نفح الطيب»[٣]: هذا السؤال يحتاج إلى جواب وقد رأيت للقاضي الإمام الفاضل أبي الفضل قاسم [العقباني][٤] التلمساني[٥] ـ رحمه الله تعالى ـ جوابه والغالب أنه من نظمه وهو قوله:

أوجبه مني يا سيدي جرح بخد ليس فيه جحودُ
وأنت فيما قلته مدّع فأين ماقت وأين الشهودُ

أمة ابنة خالد بن سعيد

[أمة ابنة خالد بن سعيد[٦]] بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشية

---

(١) هو عمر بن الحسن بن علي بن محمد، أبو الخطاب، ابن دحية الكلبي، أديب، مؤرخ، حافظ للحديث، من أهل سبتة بالأندلس ولد سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٥٠ م. ولي قضاء دانية، ورحل إلى مراكش، والشام، والعراق، وخُراسان، واستقر بمصر. وكان كثير الوقيعة في العلماء والأئمة فأعرض بعض معاصريه عن كلامه، وكذبوه في انتسابه إلى «دحية»، وقالوا: إن دحية الكلبي لم يعقب، وهجاه ابن عنين. توفي في القاهرة سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٦ م.

(٢) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى، أبو العباس المقّري التلمساني، المؤرخ، الأديب، الحافظ. صاحب «نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب» في تاريخ الأندلس السياسي والأدبي. ولد ونشأ في تلمسان بالمغرب وانتقل إلى فاس فكان خطيبها والقاضي بها، ومنها إلى القاهرة ١٠٢٧ م، تنقّل في الديار المصرية، والشامية، والحجازية، توفي في مصر ودفن في مقبرة المجاورين، وقيل: توفي في الشام مسموماً عقب عودته من إسطنبول سنة ١٠٤١ هـ/ ١٦٣١ م. إلى مَقّرة من قرى تلمسان.

(٣) المقّري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج ١/ ص٣٦٨.

(٤) وردت في الأصل: «العقياني»، والصحيح ما أثبتناه استناداً إلى ترجمة القاضي الفاضل قاسم العقباني التلمساني.

(٥) هو قاسم بن سعيد العقباني التلمساني، أبو الفضل، فقيه، بلغ درجة الاجتهاد. ولي القضاء بتلمسان، ثم عكف على التدريس إلى أن مات. له «أرجوزة» في التصوّف، و«تعليق على ابن الحاجب».

(٦) هو خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس، صحابي، من الولاة الغزاة، قديم الإسلام، أسلم ورسول الله ﷺ يبث الدعوة للدين سراً، فكان الثالث أو الرابع من الداخلين في الإسلام بعد البعثة، ولزم رسول الله ﷺ، يصلي معه في نواحي مكة خالياً، فبلغ ذلك أبا أُحيحة وهو أبوه وكان من خصوم الإسلام الأشداء، فدعاه وكلمه في أن يدع ما هو عليه، فأبى، فضربه أبو أحيحة بعصا كانت في يده حتى كسرها على رأسه ثم حبسه وضيق عليه وأجاعه وقطع عنه الماء ثلاثة أيام، وهو صابر، هاجر إلى الحبشة فأقام بضع عشرة سنة، عاد سنة ٧ هـ، فغزا مع النبي ﷺ، وحضر فتح مكة ثم وقعة =

Marfat.com

الأموية تكنى أم خالد مشهورة بكنيتها ولدت بأرض الحبشة مع أخيها سعيد بن خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس، وأمها أميمة بنت خلف تزوج أم خالد الزبير بن العوام وولدت له عمرو بن الزبير وخالد بن الزبير وبه كانت تكنى وهي من المحدّثات المشهورات بالصدق وقد روى عنها جملة من التابعين منهم موسى وإبراهيم ابنا عقبة وكريب بن سليمان الكندي وغيرهم ويروى عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يتعوّذ من عذاب القبر.

أميمة ابنة رقيقة

[أميمة ابنة رقيقة] ابنة خويلد بن أسد[١] أخت خديجة بنت خويلد[٢] فأميمة ابنة خالة أولاد النبي من خديجة، وهي أميمة بنت عبد بن بجاد بن عمير بن الحارث بن حارثة بن سعد بن تيم بن مرة وكانت من المبايعات المحدّثات روى عنها محمد بن المنكدر وابنتها حكيمة بنت أميمة.

وروي عن محمد بن المنكدر أنه سمع أميمة بنت رقيقة تقول: بايعت النبي ﷺ في نسوة فقال لنا: «**فيما استطعتنّ وأطقتنّ**[٣]»[٤] قلت: الله ورسوله أرحم بنا منا بأنفسنا.

ومما روته حكيمة بنت أميمة عن أمها بنت رقيقة قالت: كان لرسول الله ﷺ قدح من عيدان يبول فيه يضعه تحت السرير، فجاءت امرأة اسمها بركة فشربته فطلبه فلم يجده فقيل

= تبوك. كان يكتب للنبي في مكة والمدينة. شهد وقعة مرج الصفر قرب دمشق فقتل فيها سنة ١٤ هـ/ ٦٣٥ م.

(١) هو خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، من قريش، والد خديجة أم المؤمنين، جاهلي. كان من الفرسان يلقب بآبي الخسف. قال يحيى بن عروة بن الزبير بن العوام، وهو من حَفَدَته: أب لي، آبي الخسف.

(٢) هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى، من قريش، زوجة رسول الله ﷺ، الأولى، وكانت أسنّ منه بخمس عشرة سنة، ولدت بمكة، نشأت في بيت شرف ويسار، ومات أبوها يوم الفجار. تزوجت بأبي هالة بن زرارة التميمي فمات عنها. كانت ذات مال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام. تستأجر الرجال وتدفع المال مضاربة. فلما بلغ رسول الله ﷺ، الخامسة والعشرين خرج في تجارية لها إلى سوق بصرى بحوران وعاد رابحاً، فدسّت له من عرض عليه الزواج بها، فأجاب، فأرسلت إلى عمها، فحضر وتزوجها رسول الله ﷺ، قبل النبوة، فولدت له القاسم وكان يكنى به وعبد الله، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة. وكان بين كل ولدين سنة. وكانت تسترضع لهم وتهيّىء ذلك قبل أن تلد. ولما بعث رسول الله ﷺ، دعاها إلى الإسلام، فكانت أول من أسلم من الرجال والنساء. مكثا يصليان سراً إلى أن ظهرت الدعوة. أولاد النبي ﷺ كلّهم منها غير إبراهيم فهو ابن مارية.

(٣) وردت في الأصل: «وأطعتن»، والصحيح ما أثبتناه.

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (١٥٩٧). والنَّسائي في السنن (٧: ١٤٩). وابن ماجه في السنن (٢٨٧٤) وأحمد في المسند (٦: ٣٥٧)

Marfat.com

شربته بركة فقال: «لقد احتظرت من النار بحظار»[١].

أميمة ابنة قيس بن أبي الصلت الغفارية

كانت عابدة زاهدة محبة للخير صانعة للمعروف ناهية عن المنكر لها صحبة حسنة، وروت أحاديث كثيرة وروى عنها جملة من التابعين، وكانت شفيقة على المجاهدين ودائماً تحضر الوقائع وتداوي الجرحى وتدور بين القتلى وكانت تحث الناس على ذلك فقالت يوماً لرسول الله ﷺ وقد جاءته في نسوة من غفار: إنّا نريد أن نخرج معك في وجهك هذا فنداوي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا فقال رسول الله ﷺ: «على بركة الله»[٢] وكان ذاهباً إلى خيبر فذهبن معه وصرن يداوين الجرحى ويوارين القتلى وهي تهديهن لما يلزم لذلك حتى [انتهت][٣] الحرب ورجع المسلمون منصورين فنالت بذلك رضا ربها ومدح قومها.

[أم جعفر ابنة عبد الله بن عرفطة]

أم جعفر ابنة عبد الله بن عرفطة بن قتادة بن معد بن غياث بن نداح بن عامر بن عبد الله بن خطمة بن مالك بن جشم بن الأوس.

كانت ذات عقل وأدب وعفة وكان يشبب بها الأحوص ولم يرها قط فلما كثر تشبيبه وشاع ذكره توعده أخوها أيمن وهدّده ولم ينته، فاستعدى عليه والي المدينة فربطهما في حبل ورفع إليهما سوطين، وقال لهما: تجالدا، فتجالدا، فغلّب أخوها الأحوص وأتبعه أيمن حتى فاته الأحوص هرباً وقد كان الأحوص قال فيها:

لقد منعت معروفها أم جعفر ... وإني إلى معروفها لفقيرُ
وقد أنكرت بعد اعتراف زيارتي ... وقد وغرت فيها عليّ صدورُ
أدور ولولا أن أرى أم جعفر ... بأبياتكم ما درت حيث أدورُ
أزور البيوت اللاصقات ببيتها ... وقلبي إلى بيت الحبيب يزورُ
وما كنت زوّاراً ولكنّ ذا الهوى ... إذا لم يزر لا بد أن سيزورُ
أزور على أن لست أنفك كلما ... أتيت عدوّاً بالبنان يشيرُ

فقال السائب بن عمر يعارض الأحوص في هذه الأبيات ويعيّره بفراره:

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٣: ٧).
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٦: ٣٨٠). والبيهقي في السنن الكبرى (٢: ٤٠٧). ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨: ٢١٤). وابن كثير في البداية (٤: ٢٠٤).
(٣) وردت في الأصل: «انتهى»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

Marfat.com

وقد منع المعروف من أم جعفر أخو ثقة عند الجلاد صبورُ
علاك بمتن السوط حتى اتقيته بأصفر من ماء الصفاق يفورُ

فقال الأحوص:

إذا أنا لم أغفر لأيمن ذنبه فمن ذا الذي يغفر له ذنبه بعدي
أريد انتقام الذنب ثم تردّني يد لا يدين مباركة عندي

ولما أكثر الأحوص من ذكرها جاءت متنقبة فوقفت عليه وهو في مجلس قومه ولا يعرفها فقالت له: اقض ثمن الغنم التي ابتعتها مني. قال: ما ابتعت منك شيئاً فأظهرت كتاباً قد وضعته عليه وبكت وشكت حاجة وفاقة وقالت: يا قوم كلموه، فلامه قومه وقالوا: اقض المرأة حقها فحلف أنه ما رآها قط ولا يعرفها، فكشفت عن وجهها وقالت: ويحك، أما تعرفني فجعل يحلف أنه ما يعرفها ولا رآها قط حتى إذا استفاض قولها وقوله واجتمع الناس وكثروا وسمعوا ما دار وكثر لغطهم وأقوالهم قامت، ثم قالت: أيها الناس، اسكتوا فسكت الناس، ثم أقبلت عليه وقالت: يا عدوّ الله صدقت والله ما لي عليك حق ولا تعرفني، وقد حلفت على ذلك وأنت صادق، وأنا أم جعفر وأنت تقول: قلت لأم جعفر، وقالت لي أم جعفر: فمن أين قلت لك وقلت لي وأنت لم ترني إلا هذه الساعة، فخجل الأحوص وانكسر عن ذلك وبرأت عندهم.

أميمة أم تأبط شراً

وهي من بني القين بطن من فهم[1] ولدت خمسة نفر تأبط شراً[2]، وريش لغب، وريش نسر، وكعب جدر، والأتراكي. وقيل: إنها ولدت سادساً واسمه عمر، وتأبط شراً لقب به لأنه كان رأى كبشاً في الصحراء فاحتمله تحت إبطه فجعل يبول عليه طول طريقه، فلما قرب من الحي ثقل عليه الكبش فلم يقله فرمى به فإذا هو الغول فقال له قومه: ما تأبطت يا ثابت؟ قال: الغول، قالوا: لقد تأبطت شراً فسمي بذلك. وقيل: بل قالت له أمه كل إخوتك يأتيني بشيء

(١) بنو فهم: بطن من بني بحر من لخم من القحطانية، مساكنهم مع قومهم بني بحر بالحي الكبير من الأطفيحية، وإليهم تنسب البلدة المعروفة بالفهمين.

(٢) هو ثابت بن جابر بن سفيان، أبو زهير، الفهمي، المشهور بـ«تأبّط شرّاً» من مضر، شاعر عدّاء، من فُتّاك العرب في الجاهلية. كان من أهل تهامة. شعره فحل، استفتح الضبي مفضلياته بقصيدة له. مطلعها:

يا عيد مالك من شوق وإيراق

يقال: إنه كان ينظر إلى الظبي في الفلاة فيجري خلفه فلا يفوته. قتل في بلاد هذيل وألقي في غار يقال له: رخمان. فوجدت جثته فيه بعد مقتله. الشعراء الصعاليك في الجاهلية، لصوص أم روّاد ثورة اجتماعية، محمد أمين الضناوي، دار الشرق الأوسط، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧.

Marfat.com

إذا راح غيرك. فقال لها: سآتيك الليلة بشيء ومضى فصاد أفاعي كثيرة من أكبر ما قدر عليه ووضعهن في جراب وذهب متأبطاً به فألقاه بين يديها ففتحته فتساعين في بيتها فوثبت وخرجت فقال لها نساء الحي: ماذا أتاك به ثابت؟ فقالت: أتاني بأفاعي في جراب. قلن: كيف حملها؟ قالت: تأبطها. قلن: لقد تأبط شراً فلزمه هذا اللقب.(١)

وكانت شاعرة من شاعرات العرب وقولها منسجم وله طلاوة وأغلبه مراث في ولدها تأبط شراً وخلافه ومن ذلك قولها فيه:

طـــاف يبغـــي نجـــوة مـــن هـــلاك فهلـــكَ
ليـــت شعـــري ضلـــة أيّ شـــيء قتلـــكَ
أمـــريـــض لـــم تعـــد أم عـــدوّ ختلـــكَ
أم تـــولـــي مـــارد غـــال فـــي الـــدهـــر السلـــكَ
والمنـــايـــا رصـــد للفتـــى حيـــث سلـــكَ
أيّ شـــيء حســـن لفتـــى لـــم يـــك لـــكَ
[كـــلُّ](٢) شـــيء قـــاتـــل حيـــن تلقـــى أجلـــكَ
طـــالمـــا قـــد نلـــت فـــي غيـــر كـــدّ أملـــكَ
إن أمـــراً فـــادحـــاً عـــن جـــوابـــي شغلـــكَ
ســـأعـــزي النفـــس إذ لـــم تجـــد مـــن ســـألـــكَ
ليـــت قلبـــي ســـاعـــة صبـــره عنـــك ملـــكَ
ليـــت نفســـي قـــدّمـــت بـــالمنـــايـــا بـــدلـــكَ

ولها فيه أيضاً:

بثـابـت ابـن جـابـر ابـن سفيـان نعـم الفتـى غـادرتـه بئـر خمـانِ
يحـدو ويـروي ظمـأ النـدمـان رواء مـن يحمـي حمـى الإخـوانِ

ولها مراث وأشعار كثيرة غير ذلك.

[أميمة ابنة خلف بن أسعد]

أميمة ابنة خلف بن أسعد بن عامر بن بياضة بن سبيع بن جعثمة بن سعد بن مليح بن عمرو بن ربيعة الخزاعية.

---

(١) الشعراء الصعاليك في الجاهلية، لصوص أم روّاد ثورة اجتماعية، محمد أمين الضناوي، دار الشرق الأوسط، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧.
(٢) وردت في الأصل: «قل»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

Marfat.com

وهي عمة طلحة بن عبد الله بن خلف الملقب طلحة الطلحات[١] وهي زوجة خالد بن سعيد بن العاص هاجرت معه إلى أرض الحبشة وكانت من السابقات إلى الإسلام.

وقيل: اسمها أمينة. وقيل: همينة وولدت بالحبشة سعيد بن خالد وأمة بنت خالد ولها صحبة حسنة وعشرة لطيفة ورجعت مع من رجع من مهاجري الحبشة إلى المدينة.

أميمة ابنة عبد شمس الهاشمي بن عبد مناف القرشي[٢]

وأمها تفخر بنت عبيد بن دوس بن كلاب كانت ذات مجد أثيل وبيت أصيل وباع طويل. تزوجها حارثة بن الأوقص السلمي فولدت له أمية بن حارثة وقتل أبو سفيان بن أمية بن عبد شمس[٣] أخاها في يوم عكاظ من حرب الفِجار[٤] وكان يعدّ أبو سفيان وإخوته من العنابس وهي الأسد فقالت أميمة ترثيه وترثي من قتل في حرب الفِجار من قريش:

أبـــى ليلـــى أن يـــذهـــب ونيـــط الطـــرف بـــالكـــوكـــبِ
ونجـــم دونـــه الأهـــوا ل بيـــن الـــدلـــو والعقـــربِ
وهـــذا الصبـــح لا يـــأتـــي ولا يـــدنـــو ولا يقـــربِ
يعقـــر عشيـــرة منـــا كـــرام الخيـــم والمنصـــب

---

(١) هو طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي، طلحة الطلحات أحد الأجواد المقدمين. كان أجود أهل البصرة في زمانه. ذهبت عينه بسمرقند وكان يميل إلى بني أمية، فيكرمونه، وولاه زياد بن مسلمة على سجستان، توفي فيها سنة ٦٥ هـ/ ٦٨٥ م وكان والياً عليها.

(٢) هي أميمة بنت عبد شمس بن عبد مناف، من قريش، شاعرة جاهلية. اشتهرت في أيام حرب الفجار بين قريش وقيس عيلان. استمرت هذه الحرب أربعة أعوام متتالية. لها شعر في بعض وقائها، منه قصيدة في رثاء من قتل بها من قريش أورد الأغاني ما كان يُتغنى به منها.

(٣) هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، ولد سنة ٥٧ ق.هـ/ ٥٦٧ م، صحابي، من سادات قريش في الجاهلية. وهو والد معاوية رأس الدولة الأموية. كان من رؤساء المشركين في حرب الإسلام عند ظهورة، قاد قريشاً وكنانة يوم أحد ويوم الخندق لقتال رسول الله ﷺ، أسلم يوم فتح مكة سنة ٨ هـ، وأبلى بعد إسلامه البلاء الحسن. شهد حُنيناً والطائف، ففقئت عينه يوم الطائف، ثم فقئت الأخرى يوم اليرموك، فعمي وكان من الشجعان الأبطال، قال المسيب: فقدت الأصوات يوم اليرموك إلا صوت رجل يقول: يا نصر الله اقترب. قال: فنظرت فإذا هو أبو سفيان، تحت راية ابنه يزيد. توفي سنة ٣١ هـ/ ٦٥٢ م.

(٤) حرب الفِجار: بكسرالفاء وهي حرب دام زمنها أربع سنوات وهي بين بكر بن وائل وبين تميم وكانت هذه الحرب فيها أربعة أيام: **الأول**: بين كنانة وهوازن. **الثاني**: بين قريش وكنانة. **الثالث**: بين كنانة ونصر بن معاوية، ولم يكن فيها كبير قتال. **الرابع**: وهو الأكبر كان بين قريش وهوازن، وكان بينه وبين مبعث رسول الله ﷺ، ست وعشرون سنة، شهده الرسول ﷺ، وهو ابن أربع عشرة سنة.

Marfat.com

أحـــال عليهـــم دهـــر حـــديـــد البـــاب والمخلـــبِ
فحـــلَّ بهـــم وقـــد أمنـــوا ولـــم يقصـــر إذا يشطـــبِ
ومـــا عنـــه إذا مـــا حـــلّ مـــن منجـــى ولا مهـــربِ
ألا يـــا عيـــن فـــابكيهـــم يـــدمـــع منـــك مستغـــربِ
فـــإن أبكـــي فهـــم عـــزي وهـــم ركنـــي وهـــم منكـــبِ
وهـــم أصلـــي وهـــم فـــرعـــي وهـــم نسبـــي إذا أنســـبِ
وهـــم مجـــدي وهـــم شـــرفـــي وهـــم حصنـــي إذا أرهـــبِ
وهـــم رمحـــي وهـــم تـــرســـي وهـــم سيفـــي إذا أعضـــبِ
فكـــم مـــن قـــائـــل منهـــم إذا مـــا قـــال لـــم يكـــذبِ
وكـــم مـــن نـــاطـــق فيهـــم خطيـــب مصقـــع معـــربِ
وكـــم مـــن فـــارس منهـــم كمـــيّ معلـــم مجـــربِ
وكـــم مـــن مـــدره فيهـــم أريـــب حـــولـــه مغلـــبِ
وكـــم مـــن جحفـــل فيهـــم عظيـــم النـــار والمـــوكـــبِ
وكـــم مـــن خضـــرم فيهـــم نجيـــب مـــاجـــد منجـــبِ

أميمة ابنة عبد المطلب الهاشمية

كانت صاحبة جمال وجلال، وفصاحة وذكاء وبلاغة، وسخاء وشعر ونثر، ونسب وفخر. قال لها أبوها يوماً مع إخوتها أسمعيني شعرك رثاء بي كأني ميت. فقالت له: أعيذك من ذلك: فقال: لا بد من أن تقولي فقالت:

ألا هلك الراعي العشيرة ذو الفقد وساقي حجيج الله حامي عن المجدِ
ومن يألف الضيف الغريب بيوته إذا ما سماء الناس تبخل بالرعدِ
كسبت وليداً خير ما يكسب الفتى فلـم تنفـكّ تـزداد يـا شيبـة الحمـدِ
أبو الحارث الفياض خلى مكانه فـلا تبعـدن إذ كـل حـيّ إلـى بعـدِ
فـإنـي لبـاك مـا بقيـت ومـوجـع وكان له أهلاً لما كان من وجدِ
سقاك ولي الناس في القبر ممطراً وسوف أبكيه وإن كنت في اللحدِ
وقـد كـان زينـاً للعشيـرة كلهـا وكان حميداً حيثما كان من حمدِ

أم هارون رضي الله عنها

كانت من الخائفات العابدات وكانت تأكل الخبز وحده وكانت تقول: ما أنشرح إلا

Marfat.com

بدخول الليل فإذا طلع النهار اغتممت، وكانت تقوم الليل كله فتقول: إذا جاء السَّحَر دخل قلبي الروع وصرخت مرة فسمعت قائلاً يقول: خذوها فوقعت مغشياً عليها وما دهنت رأسها بدهن مدة عشرين سنة، وكانت إذا كشفت رأسها وجد شعرها أحسن من شعر النساء، وكانت إذا عرض لها الأسد في البرية قالت له: إن كان لك فيّ شيء فكل فيولي راجعاً عنها ـ رضي الله عنها.

أمة الجليل رضي الله عنها

كانت من العابدات الزاهدات، واختلف مرة العابدون في تعريف الولاية على أقوال فقالوا: امضوا بنا إلى أمة الجليل. فقالوا لها: ما الذي عندك من تعريف الولاية؟ فقالت: ساعات الولي ساعات شغل عن الدنيا ليس لولي في الدنيا ساعة يتفرغ منها لشيء دون الله عز وجل، ثم قالت لواحد منهم: من حدثكم أن أولياء الله تعالى لهم شغل بغير الله تعالى فكذبوه رضي الله عنها.

إنياس خليلة شارل السابع[1] ملك فرنسا

ولدت في قرية «فرومنتو» من «تورين» نحو سنة ١٤٠٩ [م]، وتوفيت نحو سنة ١٤٥٠ [م] وهي ابنة «سوريل دوسان جيرار» أحد أعوان الكونت «دوكليرمون». كانت في أول أمرها رفيقة لـ «إيزابو دو سورينه» دوقة «أنجو».

وسنة ١٤٣١ [م] صحبت سيدتها إلى باريس وزارت بلاط «شارل الرابع»، فلما رآها «شارل» المذكور فتن بجمالها وسحر بمحاسنها فأبقاها لديه وجعلها رفيقة للملكة، ثم اتخذها عشيقة بعد أن ماطلته وردت مطاليبه وبلته بهيام شديد. ويقال: إنها لم تستخدم ما كان لها عليه من السطوة إلا لإنهاض همته وإثارة الحمية في صدره لأنه كان قد استغرق في اللذات بينما كان الإنكليز يفتحون بلاده، وبذلك أنقذت فرنسا من وبال عظيم، وخطر جسيم فتمكن حبها من قلب «شارل» فأجزل لها العطاء وفتح لها كفه كما فتح لها قلبه فوهبها القصر المسمى بالفرنساوية «بوتي» ومعناه: الجمال، وهو على ضفة نهر الـ «مرن» بقرب «سانمور» ولذلك لقبت بمدام «لوبوتي» ومعناه سيدة «بوتي» أو الجمال، وفي ذلك من التورية ما لا يخفى وكانت الملكة نفسها تحبها وتكرم مثواها إلا أن غناها وتنعمها حملا رجال البلاط والأمة على كرهها. وسنة ١٤٤٥ [م] أساء إليها ابن الملك «شارل السابع» فتركت البلاط الملكي وأقامت في قصر كان قد بناه لها الملك في «لوس».

---

(١) شارل السابع: ولد في باريس سنة ١٤٠٣ م. ملك سنة ١٤٢٢ ـ ١٤٦١ م. ساعدته القديسة جان دارك بعد تحرير أورليان سنة ١٤٢٩ م على استعادة ممتلكاته فحصر الإنكليز في كاليه.

Marfat.com

وسنة ١٤٥٠ [م] سارت إلى «جومياك» لمقابلة عاشقها فتوفيت هناك فجأة وظن الناس أن ابنه دس إليها السم في بعض المشروبات وكان قد ولد لها من «شارل السابع» ثلاث بنات فاعترف بهن ورباهن وكنّ يعرفن ببنات فرنسا.

أولغا امرأة إيفور دور يكوفتش

ثالث غراندوق روسي وكانت تلقب بالقديسة «أولغا»(١) ولدت من عائلة فقيرة في قرية قرب «بسكوف»(٢) وكانت ذات جمال بارع وذكاء سام، فتزوجها «إيفور» سنة ٩٠٣ [م]، وجلس معها على كرسي الملك سنة ٩١٢ [م]، ومات عنها سنة ٩٤٥ [م]، فحكمت بعده بالنيابة عن ابنها «سفياتوشيلاف» وقد انقسمت حياتها من ذلك الوقت إلى حين وفاتها إلى قسمين ممتازين خصص أحدهما بالسياسة والآخر بالدين والتعبد.

وسبب وفاة زوجها هو أنه جمع عسكراً وخرج به ليغزو قبيلة «الدريفليان» ويجمع منهم الضريبة السنوية وبعد أن جمعها رجع ظافراً وبينما هو على الطريق خطر له أن ما جمعه يسير فأمر عسكره بالرجوع ليجمع ضريبة أخرى، فأبت العسكر أن ترجع معه، فعاد بشرذمة يسيرة، فلما رأته تلك القبيلة سألته ماذا يطلب فأمرها بجمع الجلود والعسل والمال فلما سمعوا ذلك احتدّوا غيظاً وهجموا عليه وقتلوا من معه، وأما هو فمسكوه وأحنوا شجرتين وربطوه بطرفيهما وتركوهما فرجعتا إلى مكانهما فتمزق الأمير إرباً إرباً ومات شهيد الطمع فلما قتله «الدريفليان» انتخبوا منهم عشرين رجلاً وأرسلوهم إلى امرأة «إيفور» يطلبون إليها أن تتزوج أميرهم، فلما أتى إليها الرسل سألتهم ماذا يطلبون فأجابوا: إننا قتلنا زوجك لأنه خرب أرضنا، والآن نطلب أن تقبلي أميرنا زوجاً لك.

فقالت: حسناً تقولون أجيب طلبكم، وإنما أريد أن أعظمكم في أعين شعبي فارجعوا إلى سفينتكم وعندما يأتيكم رسلي اطلبوا إليهم أن يحملوكم على أكتافهم، وبعد انصراف الرسل أمرت «أولغا» أن يحفروا خندقاً وراء قصرها، وأرسلت رسلها وأمرتهم أن يحملوهم ويطرحوهم في الحفرة، فلما أتى رسل «أولغا» إليهم [قال](٣) لهم أولئك: لا نذهب مشاة، ولا نمتطي صهوات الجياد، ولا نركب العجلات احملونا على أكتافكم. فأجابوا طلبهم،

---

(١) أولغا (Olga): أميرة كييف، تنصّرت سنة ٩٥٤ م، توفيت سنة ٩٦٩ م. وهي قديسة روسية.
(٢) بسكوف: أو بسكوف (Pskov) مدينة روسية جنوب غربي بطرسبرج على بحيرة بسكوف.
(٣) وردت في الأصل: «قالوا»، ولعل الصحيح ما أثبتناه لسلامة المعنى، لأن الفعل لا يأخذ إلاّ فاعلاً واحداً.

Marfat.com

وعندما أتوا القصر طرحوهم في الحفرة المعدّة لهم وواروهم التراب وبعد ذلك أرسلت «أولغا» تقول لهم: إذا كنتم ترغبون حقيقة أن أكون امرأة لأميركم فأرسلوا رؤساء قومكم لأحضر معهم، فلما أتوا أمرتهم أن يغتسلوا في الحمام فلما دخلوه أمرت بإحراقه فماتوا عن بكرة أبيهم، وعند ذلك أرسلت تقول «للدريفليان» استعدّوا لاستقبالي وهيئوا المشروبات على قبر زوجي فإني عازمة على أن أبكي هناك ومن ثَمَّ أتزوّج بأميركم فأجابوا طلبها، ولما قدمت إليهم سألوها أين رجالنا فأجابتهم سيحضرون مع عسكر زوجي وبعد ذلك أولمت وليمة عظيمة، وعندما لعبت الخمر في رؤوس «الدريفليان» بطش بهم رجال «أولغا» وقتلوا منهم خمسة آلاف رجل ورجعت على الأعقاب إلى مدينتها، وبعد مضيّ سنة جمعت عسكراً وأخذت ابنها وغزت «الدريفليان» وحاصرت عاصمتهم، ولما لم تقدر أن تأخذها أرسلت تقول لهم: أعازمون أن تموتوا جوعاً وعطشاً؟ اجمعوا لي جزية وأنا أرحل عنكم، وأنا أطلب منكم جزية خفيفة وهي: ثلاث حمامات وثلاثة عصافير من كل بيت فسروا سروراً عظيماً وحالاً جمعوا المطلوب وأرسلوه على جناح السرعة فأمرت «أولغا» عساكرها بأن يربطوا بأذنابها خرقاً ملوثة بموادّ ملتهبة وعندما يبدو لهم الظلام يشعلون الخرق ويطلقون الحمام والعصافير ففعلوا ذلك ورجع كل طير إلى عشه فالتهمت النار البيوت وفراراً من الحريق هرب سكان المدينة فألقتهم «أولغا» بعسكرها وفرقتهم أيدي «سبأ»، ونهبت أرضهم، ودوّخت عدة قبائل، وضربت عليهم الضرائب الثقيلة ورجعت إلى «كييف» ثم سافرت إلى «نوفوغودود» فاستمالت بحكمتها كل القلوب.

وسنة ٦٥٥ [م] سلمت زمام الملك لابنها المذكور وتفرغت لأمور العبادة فاعتنقت المذهب المسيحي وعمدها في القسطنطينية في السنة المذكورة البطريرك بحضور الإمبراطور«قسطنطين بورفيرو جينيتوس» وحاولت إقناع ابنها بالاقتداء بها فلم يغن اجتهادها شيئاً وماتت سنة ٩٦٨ [م] فأسف عليها الناس جدّاً واحترمها الروس احترام قدّيسة. وفي أيامها ذاع اسم روسيا في الأقطار الأوروبية الشاسعة.

[أولمبياس ابنة نيو بتوليمس]

أولمبياس ابنة نيو بتوليمس ملك أبيروس وامرأة فيلبس المكدوني وأم إسكندر الكبير.

اشتهرت بكثرة قبائحها وتسليمها نفسها إلى شهواتها، فهجرها «فيلبس»[1] فمضت إلى

---

(١) فيلبس: أو فيليبس اسم حمله خمسة من ملوك مقدونيا وهذا هو فيليبس الثاني ٣٨٢ ـ ٣٣٦ ق.م، أبو الإسكندر الكبير ملك سنة ٣٥٦ ق.م، أخضع كل المدن اليونانية، وقضى على استقلال اليونان بعد =

Marfat.com

«أبيروس» ودست إلى زوجها من قتله وهو في «بوسانياس»، ثم رجعت إلى «مكدونيا» وأعلنت فرحها بقتل زوجها.

واحتفلت بجنازة «بوسانياس» قاتله بلا وجل ولا خجل، ولما ملك ابنها الإسكندر[١] حاولت أن تشاركه في الملك غير أن حكمته حالت دون مطامعها. ولما مات إسكندر طمعت في الاستيلاء على المملكة غير أن ثبات «أنتيباتر»[٢] وزيره اضطرّها إلى الرجوع إلى «أبيروس» فدعا بها «بوليسيرخون» الذي خلف «إنتيباتر» ولقبها نائبة الملك فلم تلبث أن قتلت «أدخيدوس» ـ وهو ابن «فيلبس» من امرأة أخرى ـ وعدداً كثيراً من أعوانه فكانت مثالاً لسفك دم عائلة الإسكندر، وقتلت «نيكانور» ـ أخي «كاسندروس» ـ فأتى إليها «كاسندروس» وحاصرها في «بدنا» و[حصرت][٣] معها حفيدها «إسكندر أيفوس» ابن الإسكندر الأكبر أملاً في معاونة الأمة لها إذا رأوه معها فلم يلتفت إليها أحد فاستسلمت فلم يجسر «كاسندروس» أن يقتلها بنفسه وهي أم سيده، فوكل بقتلها جماعة من الضابطة المكدونيين غير أن هيبتها وتذكرهم مجد ابنها منعاهم عن إتمام العمل فدعا «كاسندروس» الذين قتلت «أولمبياس» أبناءهم وأقرباءهم، فذبحوها بدون تردد وذلك سنة ٣١٧ قبل المسيح.

أوجين ملكة الفرنسيس

هي حليلة «شارل لويس» بن «لويس نابليون» الذي تولى سدة الملك باسم «نابليون الثالث»[٤] كانت في صباها المشار إليها بالبنان. والمثنى عليها بكل شفة ولسان، ولما أودعها الله من الحسن واللطف وحسن التربية مع الكياسة والرقة والظرف رقت في عصر زوجها مقاماً تحسدها عليه السبع الطباق، وبلغت شأواً أطار ذكرها في الآفاق، وناهيك أنها تصدرت في

= معركة خيرونيا سنة ٣٣٨ ق.م.

(١) هو الإسكندر الكبير ٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق.م من أشهر الغزاة الفاتحين، لقّب بذي القرنين. ابن فيليبس ملك مقدونيا، خلف والده سنة ٣٣٦ ق.م، اجتاح إمبراطورية الفرس فهزم داريوس الثالث في إيسوس سنة ٣٣٣ ق.م، أخضع صور بعد حصار دام سبعة أشهر واحتل مصر وأسس الإسكندرية ٣٣٢ ق.م. تعقّب داريوس فقضى عليه في معركة كوكميلة قرب أربيل بالعراق سنة ٣٣١ ق.م. مات بالحمّى في بابل. تقاسم إرثه قوّاده أنتيغوس، وبَطليموس، وسَلوقس، فنشأت الممالك الهلنستية.

(٢) أنتيباتر: أو أنتيپاترُس (Antipatros) قائد مقدوني، مساعد الإسكندر الكبير، حكم مقدونيا في غياب سيّده، وقضى على ثورة المدن اليونانية بعد موت الإسكندر سنة ٣٢٢ ق.م.

(٣) وردت في الأصل: «حصلت»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

(٤) نابليون الثالث: إمبراطور من ملوك فرنسا ولد سنة ١٨٠٨ م ملك سنة ١٨٥٢ م ـ ١٨٧٠ م، خُلع بعد هزيمته أمام الألمان سنة ١٨٧٠ م. اعتزل في إنكلترا إلى أن مات سنة ١٨٧٣ م.

Marfat.com

مائدة جمعت ملوك الأرض، وكلهم يحسب احترامها كالسنَّة، وتعظيمها كالفرض. وحسبك أنها لما أتت مصر عام الاحتفال بفتح خليج السويس كان عزيز مصر في خدمتها ولفيف من أمراء الشرق والغرب في عداد حاشيتها.

ولما قدمت القسطنطينية استقبلها ساكن الجنان السلطان عبد العزيز حتى المرفأ وأبدى لها من التحية والتبجيل ما يعز عن المثيل.

وإذ ذكت نار الحرب بين الفرنسيس والألمان أقامها الإمبراطور خليفة له على العرش تنظر في أمره، وتقضي في حالتي خله وخمره، وخرج قائداً للجيش يصدم به العدوّ ولسان حالهما يقول:

هـي الـدنيـا تقـول بمـلء فيهـا حـذار حـذار مـن بطشـي وفتكـي
فـلا يغـرركـم منـي ابتسـام فقـولـي مضحـك والفعـل مبكـي

فإن الدهر بعد أن سقاها سلسبيلاً، ودار عليها من الصفو أكواباً كان مزاجها زنجبيلاً في سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود، عاضها بالزقوم والغسلين، وهبط بها من أعلى عليين، إلى أسفل السافلين، فغادرها سموم وحميم، وظل من يحموم لا بارد ولا كريم، وذلك أن زوجها بعد أن كان حالفه النصر في معركة «سادبروك» وأمل العالم لأمة الفرنسيس بالفتح المبين، والفوز المكين، خالفه التوفيق في سائر المعارك فقهره أعداؤه أيّ قهر وكسره مساجلوه أيّ كسر حتى إذا زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر دخل إلى الاستئمان بعد واقعة «سيدان» التي حدثت في أربعة أيلول عام ١٨٧٠ [م]، فاخترط حسامه وسلمه إلى الملك «غليوم»[1] عدوّه الألد مكتفياً من النصر بالأسر مع ثمانين ألفاً من جيشه، وما برح مأسوراً في «فاستافاليا» من بلاد الألمان حتى حميت لظى الحرب بين الفريقين.

ثم لم يأت حين من الدهر حتى ألمَّ به داء في المثانة عياء ذهب به إلى دار الفناء، بعد أن أذاقه صنوف الويل وأفانين البرحاء تاركاً وراءه المسكينة «أوجين» على فراش من القتاد ووسادة من الرمضاء، ولم يكتف بهذا الدهر الظالم حتى نكلها في وحيدها وبقية آمالها البرنس «أميربال» شهيداً في بلاد «الفرولوس» الأفريقية مطعوناً بأسنة أمة بربرية وهو يافع في نضارة العمر وريعان الشباب وبقيت بعده كالغزالة النافرة من زرود جزعاً على خشفها العزيز تنثر لآلئ

---

(١) غليوم: هو غليوم الأول (Guillaume) ملك پروسيا ولد سنة ١٧٩٧ م، ملك سنة ١٨٦١ م وإمبراطور ألمانيا سنة ١٨٧١ م. اتخذ بسمارك وزيراً، وأنشأ جيشاً قوياً. انتصر على الدانمارك سنة ١٨٦٤ م، وعلى النمسا سنة ١٨٦٦ م، وعلى فرنسا سنة ١٨٧١ م وانتزع منها الألزاس واللورين، وحقق الوحدة الألمانية، نودي به إمبراطور ألمانيا في فرساي سنة ١٨٧١ م.

Marfat.com

الدمع على يواقيت الخدود وتغرس عقيق الشفاه ببرد الثغر البرود، ولسان حالها يقول: لقد جئت يا دهر شيئاً فرياً يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً. تحاول الاعتصام بالصبر على ما انتابتها به الأيام. وهو بعيد عنها بعد المسجد الأقصى عن المسجد الحرام وبقيت على ذلك إلى هذه الأيام.

أيريني إمبراطورة بيزنطية

ولدت في أثينا سنة ٧٥٣ [م] وتوفيت في جزيرة «لسيوس»(١) سنة ٨٠٣ [م] واشتهرت بالعقل والجمال، فاختارها «قسطنطين كويردنيموس» زوجة لابنه المعروف بـ «لاون» الرابع، فاستولت على قلبه كل الاستيلاء ولما مات عهد إليها وصاية ابنه «قسطنطين الخامس»(٢) سنة ٧٨٠ [م] فقامت بأعباء الملك حق القيام حتى إذا ساعدها القدر وخدمها السعد بطرت واستكبرت وداخلها الطمع فعقدت مع هارون الرشيد(٣) صلحاً غير موافق لانتفاعها به.

وسنة ٧٨٧ [م] عقدت مجمعاً في «نيقية»(٤) أمرت فيه بعبادة الأيقونات وألغت انشقاق الكنيسة الشرقية فلما رشد ابنها سنة ٧٩٠ [م] نفاها وهجرها في قصر لكنها تخلصت بعد خمس عشرة سنة واتصل بها الأمر لكي تستبدّ بالمملكة إلى أن سملت عيني ابنها بلا خوف ولا خجل ولكي تنسي الناس هذا العمل الفظيع شرعت بأعمالٍ عظيمة فقيل: إنها عرضت نفسها على «شارلمان»(٥) ليتزوّجها أو قبلت بالأقل أن تزوّج إحدى بناتها بأحد أولاده لكن

---

(١) لسيوس: جزيرة يونانية في بحر إيجة قرب الساحل التركي.

(٢) قسطنطين الخامس: أحد أباطرة بيزنطة ٧٤١ م ـ ٧٧٥ م من محطمي الصور.

(٣) هو هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور العباسي، أبو جعفر، خامس خلفاء بني العباس في دولتهم بالعراق، وهو أشهرهم. ولد بالرَّيّ سنة ١٤٩ هـ/٧٦٦ م، لما كان أبوه أميراً عليها وعلى خُراسان. نشأ في دار الخلافة ببغداد. ووْلاه أبوه غزو الروم في القسطنطينية، فصالحته الملكة إيريني (Irene) وافتدت منه مملكتها بسبعين ألف دينار تبعث بها إلى خزانة الخليفة في كل عام. بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة ١٧٠ هـ، فقام بأعبائها، ازدهرت الدولة في أيامه. اتّصلت المودة بينه وبين ملك فرنسا كارلوس الكبير الملقّب بشارلمان فكانا يتهاديان التحف. كان الرشيد عالماً بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقه، فصيحاً، شاعراً، له محاضرات مع علماء عصره، شجاعاً كثير الغزوات يلقب بجبّار بني العباس، حازماً، كريماً، متواضعاً، يحج سنة ويغزو سنة، لم يُر خليفة أجود منه، ولم يجتمع على باب خليفة ما اجتمع على بابه من العلماء، والشعراء، والكتاب، والندماء. كان يطوف أكثر الليالي متنكراً. توفي في سناباذ من قرى طوس سنة ١٩٣ هـ/٨٠٩ م وقبره بها.

(٤) نيقية: أو نيقيا (Nikia) مدينة قديمة في آسيا الصغرى هي اليوم إزنيق في تركيا على بحيرة إزنيق. عقد فيها مجمعان مسكونيان سنة ٣٢٥ م و٧٨٧ م.

(٥) شارلمان: أو شارل الأول الكبير (Charlemangne) ولد سنة ٧٤٢ م. ملك الإفرنج وإمبراطور =

Marfat.com

قبل أن يتم لها ذلك حجر عليها «نيقيفورس» خازنها الأكبر سنة ٨٠٢ [م] ونفاها إلى جزيرة «لسيوس» فحط بها الدهر هناك حتى احتاجت أن تأكل من غزل يدها وهناك ماتت سنة ٨٠٣ [م] فتأثر اليونان لمصائبها وجعلوها قدّيسة وأقاموا عيد تذكار لها في ١٥ آب من كل سنة. واسمها في بعض كتب العرب «أريني».

إيزابيلا الأولى الملقبة بالكاثوليكية[١] ملكة قسطيلة ولاون

ولدت سنة ١٤٥١ [م]، وتوفيت سنة ١٥٠٤ [م] كانت بنت «يوحنا الثاني» ملك قسطيلة من «إيزابيلا» البرتوغالية زوجته الثانية وفي السنة الرابعة من عمرها توفي أبوها فخلفه في الملك ابنه «هنري» من «ماريا» الأراغونية زوجته الأولى واستمرت «إيزابيلا» مع أمها إلى سنة ١٢ من عمرها وكانتا منفردتين في بليدة «أريقالوا» فلما ولدت «جوانا» نقلها «هنري» إلى بلاطه محاولاً بذلك أن يمنع تألف حزب يمكنها إرث الملك من بعده بدل البرنسيس «جوانا» المذكورة وكان حصولها على تاج الملك أمراً مستبعداً لأن أخاها البكري كان ملكاً وله بنت وكان لها أيضاً أخ أصغر منها في قيد الحياة غير أن أكابر ملوك أوروبا أتوها خاطبين أملاً بمستقبلها.

قال «برسكوت»: وكان «فرديننذو» أول من خطبها وهو الذي تزوجها بعد أن حال دون ذلك مصاعب شتى فإنها خطبت في السنة الحادية عشرة من عمرها لأخيه «كارلوس» وكان قد بلغ الأربعين فدفع عنها ذلك المكروه بموت «كارلوس» بالسم. وسنة ١٤٦٤ [م] وعد بها أخوها «هنري ألفونس» ملك البرتوغال فعارضته في ذلك مدعية أن بنات ملوك «قسطيلة» لا يتزوجن إلا بموافقة أشراف المملكة ثم حدثت ثورة تحت رياسة مركيز «ڤلينا» وعمه رئيس أساقفة «طليطلة»[٢] وكان من بواعثها اعتقاد كثيرين من الأشراف أن البرنسيس «جوانا» التي أقسم لها أكابر الدولة بالطاعة بناء على طلب الملك لم تكن من صلبه بل من صلب «بلتران

= الغرب. مؤسس السلالة الكارولية، جعل أكس لا شابيل (آخن) عاصمة له. حاول الاستيلاء على إسبانيا ففشل في سرقسطة سنة ٧٧٨ م. نشر المسيحية، حمى العلماء والأدباء. أقام علاقات تجارية مع الشرق. كانت بينه وبين هارون الرشيد الخليفة العباس علاقات ودّ.

(١) إزابيلا الأولى: ولدت سنة ١٤٥١ م، ملكة قشتالة أو قسطيلة، الملقبة بالكاثوليكية. تزوجت بفرايناند ملك أراغون فوحّدا الدولة الإسبانية واحتلا غرناطة سنة ١٤٩٢ م. مدت كولومبوس بالسفن في رحلته لاكتشاف أميركا. توفيت سنة ١٥٠٤ م.

(٢) طليطلة: مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس يتصل عملها بعمل وادي الحجارة، من أعمال الأندلس، وهي غربي ثغر الروم وبين الجوف والشرق من قرطبة، وكانت قاعدة الملوك القرطبيين وموضع قرارهم. معجم البلدان، ج ٤/ ص ٤٥.

Marfat.com

دولا كويبا» عشيق الملكة فأعلن الثائرون انتقال الملك من «هنري» إلى أخيه «ألفونس» وجمعوا جيشاً لإجراء ذلك فحاول الملك إسكان رؤسائهم بتزوج «إيزابيلا» بالدون «بدرو جيرون» الفاسق أخي مركيز «ڤلينا».

أما هي فقالت لأخيها: إن زوجتني به أشق صدره بخنجر وأرفع عن نفسي العار. غير أن الدون المذكور مات في طريقه إلى العرس وبعد ذلك بسنتين أي سنة ١٤٦٨ [م] توفي «ألفونس» فعرض الثائرون تاج الملك على «إيزابيلا» فرفضته وآثرت أن تجعل وارثة لأخيها فعاهد العصاة «هنري» على أن يطلق الملكة ويعترف بأن «إيزابيلا» وارثة لمملكتي «قسطيلة» و«لاون» وأن لها حقاً في اختيار بعل تتزوجه برضاها ولم يلبث المجلس العالي أن قرر حق «إيزابيلا» في الإرث.

أما «هنري» فلا يبالي بشروط المعاهدة وحاول إكراه أخته على الاقتران بملك البورتغال غير أن السياسة والحب استمالاها إلى «فرديننڈو» برنس «أراغون» فتهددها أخوها بالحبس فلم تعبأ به وعزمت على أن تباشر الأمر بنفسها فردت الرسول الأراغوني بجواب مرضٍ ووقع «فرديننڈو» على عقد الزواج في «سرڤيرا» وذلك سنة ١٤٦٩ [م] وضمن لعروسه جميع حقوقها الملكية الأصلية في «قسطيلة» و«لاون» فأنفذ «هنري» في الحال فرقة من العساكر لإلقاء القبض على شقيقته، فهربت إلى بلاد الوليد وأرسلت إلى «فرديڤندو» تحثه على أن يوافيها بسرعة لإتمام الزواج فلم يتمكن «فرديننڈو» من أن يسير بخفر؛ لأن أباه كان يحارب عصاة «قطالونيا» وكان بيت المال فارغاً فلبس ثوب خادم وسار متنكراً مع ستة رفقاء استأمنهم فلم يعرفه العساكر الذين أقامهم «هنري» لمنعه المرور وخرج من تلك المدينة بزيّ لائق فأغذوا السير إلى بلاد الوليد وتزوج «إيزابيلا» سنة ١٤٦٩ [م].

فأعلن «هنري» أن أخته أضاعت جميع الحقوق التي تقررت لها بموجب المعاهدة، وجعل «جوانا» ولية عهده، فانقسمت البلاد إلى قسمين كبيرين متحاربين، وعضدت فرنسا الملك غير أن «إيزابيلا» كانت بحكمتها وفضائلها تستميل إليها أهالي «قسطيلة» شيئاً فشيئاً وتكتسب طاعتهم وأمانتهم.

وفي سنة ١٤٧٤ [م] توفي «هنري» وبعد يومين من وفاته أقيمت «إيزابيلا» ملكة في «سيروڤيا» فأقسم لها كثيرون من الأشراف بالطاعة إلا أن حزب «جوانا» كان قوياً فلم تعترف البلاد كلها بالملكة إلا بعد حرب جرت لها مع «ألفونس» ملك البرتوغال، وكان قد خطب «جوانا»

ومن ثَمَّ شرعت في أعمال تحلى بها تاريخ إسبانيا فأصلحت قوانين البلاد وأدارت

Marfat.com

الملكة [الشؤون][1] الداخلية وعضدت الآداب والصنائع وبذلت جهدها في تغير تصرفات زوجها فإنها كانت قرينة القساوة والخداع ومع أنها كانت روح الحرب التي شهرت على العرب وكانت تحارب فيها بنفسها وتلبس درعاً لم يزل محفوظاً إلى الآن في مدريد[2] كانت تقاوم القساوة التي اتخذها الإسبانيول في تلك الأيام سياسة نحو الأمة المذكورة ولم تأمر بطرد اليهود من «قسطيلة» ولا سلمت على غير إرادتها بإجراء الفحص الديني إلا لاعتقادها أن سلامة الدين الكاثوليكي تتوقف على ذلك وزادها شهرة مساعدتها «كرستوفورس كولومبوس»[3] فاتح أميركا على إنفاذ مقاصده فإن الأسطول الذي اكتشف به أميركا جهز على نفقتها وضادّت استرقاق الهنود الأميركان.

فلما وصل الأسرى الذين أرسلهم إليها «كرستوفورس» المذكور أمرت بإرجاعهم إلى بلادهم وبمساعدة الكردينال «كسيمنس» أصلحت الراهبات وبذلك جعلت للكنيسة في إسبانيا نظاماً ثابتاً راهناً كالنظام الذي سنته للدولة ولم يكن المال ولا علو المرتبة يشفعان عندها بالمذنبين، بل كان سيف العدل يعلو رقاب المجرمين من الأكابر والأصاغر والإكليروس على حد سواء، وكانت «إيزابيلا» جامعة بين عقل الرجال ومحاسن النساء وفضائل ناضرة عديمة النظير فباتت موضوعاً محبوباً للمؤرخين في الأعصر التالية والإسبانيول الآن يحبون ذكرها كما كان رعاياها منهم يحبون شخصها.

أما الموت الفجائي الذي أصاب كلاً من الدون «كارلوس» والدون «بدروجيرون» وأخيها «ألفونس» فلم يوقع عليها أقل شبهة مع أنه نالها بذلك ربح عظيم وكانت تحب زوجها حباً شديداً لا يعتريه فتور ألبتة غير أنه لم يكن يقابلها دائماً بمثل ذلك، وكانت تقواها الطبيعية تزين كل أعمال حياتها، وكان جمال خُلقها يعادل حسن خَلقها، وكانت صافية اللون ذات عينين زرقاوين وشعر أسمر وولد لها خمسة أولاد وهم: «إيزابيلا» التي تزوجت «عمنوئيل» ملك البرتوغال و«جوان» وكان أميراً فاضلاً. توفي سنة ١٤٩٧ [م] وله من العمر ٢٠ سنة و«جوانا» التي تزوجت «فيليب» أرشيدوق «أوستريا» وولد لها منه الإمبراطور «كارلوس الخامس»[4]

---

(١) زيادة أثبتناها لسلامة المعنى واتّساق الكلام.

(٢) مدريد (Madrid): عاصمة إسبانيا فيها مركز فني وثقافي وكنائس وقصور أثرية ومكتبات غنية.

(٣) كرستوفورس كولومبوس: ولد في جنوى بإيطاليا سنة ١٤٥١ م، بحار رائد، توفي في إسبانيا سنة ١٥٠٦ م. مكتشف أميركا، أبحر من پالوس في ٣ آب ١٤٩٢ م، ووجهته بلاد الهند عن طريق الغرب فوصل إلى شواطئ سان سلڤادور في ١٢ تشرين الأول ١٤٩٢ م.

(٤) كارلوس الخامس: ولد سنة ١٥٠٠ م، ملك إسبانيا سنة ١٥١٦ م هو إمبراطور الغرب من ١٥١٩ ـ ١٥٥٦ م حارب الأتراك. دخل في نزاع طويل مع فرنسوا الأول وأسره. اعتزل في دير يوست. مات سنة١٥٥٨ م.

Marfat.com

و«ماريا» التي تزوجت «عمنوئيل» بعد وفاة أختها، و«كاترينا» زوجة «هنري الثامن» ملك إنكلترا.

إيزابيلا الثانية ملكة إسبانيا

ولدت في مدينة «مدريد» سنة ١٨٣٠ [م] وهي بكر بنات «فرديننـدو السابع»[١] من «ماريا كرسنينا» رابع زوجاته نشأ عن مسألة إرثها الملك بعد أبيها حرب أهلية شديدة لأنه لم يكن لأبيها ولد ذكر يخلفه. ففي ٢٩ آذار (مارس) سنة ١٨٣٠ [م] أبطل القانون الذي وضعه «فيليب الخامس» ومآله حرم الإناث تخت الملك وجعل بنته خليفة له وبذلك حرم أخاه الدون «كارلوس» وليّ العهد ما كان له من الحق المقرر بموجب القانون المذكور.

وفي سنة ١٨٣٣ [م] توفي «فرديننـدو» وكانت «إيزابيلا» في السنة الثالثة من عمرها فأقيمت ملكة فشهر الدون «كارلوس» السلاح وعضده حزب كبير سمي بالكارلوسي نسبة إليه ولم تلبث دائرة الخلاف أن اتسعت وصارت إلى حرب أهلية رديئة وانحاز الإكليروس إلى الدون «كارلوس» أما حزب الملكة فسمي بحزب الحرية أو بالحزب النظامي لأن أم الملكة التي استولت على زمام الملك بالنيابة عن ابنتها تعهدت بوضع قانون أساسي لإسبانيا وكان معظم الشعب من حزب إيزابيلا.

وفي سنة ١٨٣٤ [م] أجمع أكثر أعضاء المجلس العالي على حرمان الدون «كارلوس» ونسله الملك.

وفي سنة ١٨٣٩ [م] عقد الصلح بين الجنرال «ماروكي» الكارلوسي والجنرال «إسبرتيرو» النظامي وهرب الدون «كارلوس» إلى فرنسا وفي أثناء الحرب كانت الملكة النائبة تتردّد بين حزب المحافظين أو المعتدلين وحزب الحرية أما وزارة «منديزابال» فغيرت النظام ووسعت دائرة قانون الانتخاب وقامت بإصلاحات أخرى غير أن ديوان المشورة الكبير لم يكتف بذلك وطلب إعادة النظام الذي تقرر سنة ١٨١٢ [م] فحصل عليه أخيراً ثورة حدثت في «مدريد» سنة ١٨٣٧ [م].

وفي سنة ١٨٣٩ [م] حدثت ثورتان في «برشلونا»[٢] و«مدريد» فأكرهت أم الملكة على الفرار إلى فرنسا.

---

(١) فرديننـدو السابع: أو فرديـنان السابع ولد سنة ١٧٨٤ م اعتلى العرش سنة ١٨٠٨ م، خلعه نابوليون وأحلّ مكانه أخاه جوزيف بونابرت استعاد عرشه سنة ١٨١٤ م، فقامت عليه ثورات وتحررت المستعمرات الأميركية مات سنة ١٨٣٣ م.

(٢) برشولونا: (Barcelona): مرفأ في إسبانيا على المتوسط، عاصمة إقليم قتالونية.

Marfat.com

وفي سنة ١٨٤٠ [م] تولى «إسبرتيرو» زمام البلاد. وفي سنة ١٨٤١ [م] جُعل وكيلاً للملك غير أن أصدقاء «كرستينا» والمحافظين ثاروا عليه واضطروه إلى الاستعفاء وكانت الملكة قد ناهزت سن الرشاد ولم يبق إلا ١١ شهراً لبلوغها السن القانونية فضرب عنها المجلس العالي صفحاً وأجلسها على تخت الملك في ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٤٣ [م].

وفي سنة ١٨٤٤ [م] وجهت رياسة الوزارة إلى الجنرال «زڤايز» الذي كان قد تولى رياسة الثائرين. وفي السنة التالية غير النظام تغييراً غير موافق لأهل الحرية.

وفي سنة ١٨٤٦ [م] تزوجت «إيزابيلا» بابن عمها الدون «فرنشسكودواسبس» وفقاً لمشورة الملك «لويس فيليب» وفي الوقت نفسه زوجت أختها «ماريا فرديننڈ لويزا» بدوق «منينسيا» غير أن زواج الملكة أدّى إلى تأويلات مستهجنة ووقع الخلاف بين الزوجين وكثرت الإشاعات فذهب قوم إلى أن الملك ليس كفؤاً للملكة. وكان آخرون يتهمون الملكة بخيانة زوجها وعقدت «إيزابيلا» الصلح مع النمسا وبروسيا.

وفي سنة ١٨٤٩ [م] أنفذت جيشاً لمساعدة البابا. وفي سنة ١٨٥٢ [م] حاول بعضهم قتلها فحملها الحزب المحافظ على فض المجلس العالي واتخاذ وسائل مشدّدة ونفي كثيرين من جنرالية الحزب النظامي.

وفي سنة ١٨٥٤ [م] قام الجنرال «لودونل» والجنرال «دلشي» بثورة عسكرية ومدنية في «مدريد» وتمكن من إقامة حكومة محلية فهربت أم الملكة ثانية إلى فرنسا أما «إيزابيلا» فصرحت بالعفو التام وفتحت مجلساً عالياً جديداً وأباحت بيع الأوقاف.

وفي سنة ١٨٥٦ [م] حاول «أودونل» أخذ القوّة بالبطش وأخمدت الملكة ثورات حدثت في جنوب إسبانيا فتوطد سلطانها وأعادت النظام الذي تقرر سنة ١٨٤٥ [م] فأدّى إلى نهج سياسة مضادة لأهل الحرية.

وكانت نتيجة ذلك سقوط وزارة «ترفايز» في السنة التالية وقيام وزارة أخرى تميل إلى الحزب النظامي وذلك في سنة ١٨٥٧ [م] وتولى «أودونل» قيادة العساكر التي أنفذت لمحاربة مراكش فاستظهر على المراكشيين وانتهت الحرب سنة ١٨٦٠ [م].

ثم تداخلت «إيزابيلا» مع فرنسا في أمور المكسيك وأرسلت إليها جيشاً تحت قيادة الجنرال «بريم» سنة ١٨٦١ [م]، وسنة ١٨٦٢ [م]، إلا أن الجنرال المذكور لم يلبث أن قصر حبل المداخلة وحاولت الملكة الاستيلاء على «سنتود» و«منفو» و«بيرو» و«شيلي» ففشلت.

Marfat.com

وفي سنة ١٨٦٦ [م] استعفى وزراؤها فاضطر الأمر إلى تقرير قرار مبطل نظام سنة ١٨٦١ [م] الذي بموجبه ضمت جمهورية «دومينيكا» إلى الملكة وفي السنة نفسها أمرت ببيع جميع الأملاك المختصة بأفراد البيت المذكور وصرفت أثمانها في أمور نافعة للأمة.

وفي سنة ١٨٦٦ [م] حملها الإكليروس والوزارة الجديدة التي تألفت تحت رياسة «ترفايز» على إبطال حرية المطبوعات وجعل التعليم العمومي في إيدي خدمة الدين فحدثت ثورات تولى قيادة بعضها «بريم» وذلك في السنة نفسها والسنة التالية. وكان الثائرون منتشرين في جهات مختلفة من البلاد غير أن مساعيهم هبطت لعدم انتظامهم. وخلف «ترفايز» في رياسة الوزارة «غنزالز برافو» فضادّ أهل الحرية أكثر من سلفه غير أنه سنة ١٨٦٨ [م] ابتدأت الثورة في قادس فانتشرت في الحال في إسبانيا كلها ونشأ عنها فرار الملكة إلى فرنسا مع أولادها وعشيقها «مرفوري» وقسيسها «كلاريت» فقدّم لها «نابليون الثالث» قصر «بوفاه» صدّرت منه إعلاناً إلى الشعب الإسبانيولي فأقامت به الحجة على الثورة.

وفي سنة ١٨٦٨ [م] صرح في «مدريد» بخلعها فاستوطنت «باريس» غير أنها أقامت مدّة في «جنيفا» في أثناء الحرب التي جرت بين فرنسا وجرمانيا.

وفي ٢٥ حزيران (جون) سنة ١٨٧٠ [م]، تنازلت عن تخت الملك لابنها «ألفونس» فسمى نفسه «ألفونس الثاني عشر» في إسبانيا.

إيزابيلا فيليب لوبل الملقبة بالفرنساوية ملكة إنكلترا

والدها «فيليب» ملك فرنسا، ولدت سنة ١٢٩٢ [م]، وتوفيت سنة ١٣٥٨ [م]، وتزوجت «إدورد الثاني» ملك إنكلترا سنة ١٣٠٧ [م]. غير أنه أهملها لأن ندماءه الأشرار كانوا قد ملكوا قلبه فكان يوافقهم في جميع آرائهم ومشوراتهم فصرحت بخلعه بمساعدة أخيها «شارل لوبل» واستولت على زمام الملك بالوكالة عن ابنها «إدورد الثالث»[1] سنة ١٣٦٢ [م] إلا أن عشيقها «روجر مرتيمر» أهلك «إدورد الثاني» في السنة التالية بعد أن أذاقه أمرّ العذاب فاغتاظ ابنها وخلع نيرها وأمر بقتل «مرتيمر» سنة ١٣٣٠ [م] أما هي فحبسها في سجن ماتت فيه بعد ٢٨ سنة. وقد زعم «إدورد الثالث» وحلفاؤه أن لهم حقاً في ملك فرنسا لأن «إيزابيلا» المذكورة كانت من البيت الملكي الفرنساوي. وقيل: إنها لما توجهت إلى فرنسا لتسوية

(١) إدورد الثالث: ولد سنة ١٣١٢ م، ملك إنكلترا سنة ١٣٢٧ م، أعلن حرب المائة سنة على فرنسا. مات سنة ١٣٧٧ م.

Marfat.com

الخلاف الذي وقع بين أخيها وزوجها رأت كثيرين من الإنكليز الهاربين وهم من أصحاب «أرل لنكستر» وكان أكثرهم إقداماً ونشاطاً شاب اسمه «روجر مرتيمر» فجمعتهم إليها وقرّ رأيهم على خلع «إدورد».

وفي شهر أيلول (سبتمبر) سنة ١٣٢٦ [م] وصلت الملكة إلى ساحل «سفلك» بعساكر أجنبية مؤلفة من ٣٠٠٠ مقاتل تحت قيادة «روجر مرتيمر» و«جون منهينو» فأسرع لملاقاتها أكابر الأشراف والقسوس واستنجد «إدورد» برعاياه فلم ينجده أحد ففرّ هارباً إلى تخوم «ولس» فاقتفت الملكة أثره وقبضت عليه في دير «نيت» من «كونتيه كلامرغان»، وأرسلته إلى قلعة «كبتلورس». وفي تلك الأثناء ألقي القبض على «هدلود سنسر» وقتل خنقاً واجتمع المجلس العالي بأمر «إيزابيلا» و«مرتيمر» فأصدر قراراً في شهر يونيو سنة ١٣٢٧ [م] يؤذن بسقوط «إدورد أُف كرنارفون» ونقله إلى قلعة «بيركلي» وكان حرسه من الأوباش فبقي فيها إلى أن وجد في ٣١ أيلول عند الصباح ملقى ميتاً على فراشه. وكان قد سُمع صراخ وأنين من غرفته ولم تبق جثته على حالها الطبيعية فدل ذلك على أنه قتل قتلاً ذريعاً والمظنون أن أمعاءه أحرقت بحديد محمى بالنار.

ولما بلغ «إدورد الثالث» من العمر اثنتي عشرة سنة أخذته والدته الملكة «إيزابيلا» المذكورة إلى فرنسا ولبثت ملكية «شارل الرابع» في ولايتي «غينا» و«نبتيو» اللتين وهبه إياهما أبوه «إدورد الثاني» وهناك عقدت الملكة «إيزابيلا» بين «إدورد» وبين «فيليب» عقد زواج فتزوجها في ٢٤ يونيو سنة ١٣٢٨ [م]. ولما أسر «إدورد الثاني» وسمي «إدورد الثالث» ملكاً لإنكلترا أمرت الملكة «إيزابيلا» بتعيين أربعة أساقفة وعشرة أشراف لكي يقرروا وكالة الملك وكان أكثرهم من حزبها فقرروا لها ولـ «مورتيمر» الذي صار آرل «مرنش» حق إدارة المملكة من تلك الأثناء فقضى «روبرت تروسل» شروط الهدنة التي كانت بينه وبين مملكة إنكلترا وأنفذ جيشاً عظيماً تحت قيادة «رندولف» و«زغلاس» فحملوا في كتيبة «كمبرلانه» وألقوا فيها الخراب والدمار فأرسلت «إيزابيلا» ولدها «إدورد» إلى «انشيمال» بجيش يزيد عن الأربعين ألف مقاتل وهناك حصل بينه وبين الأسكوتسيين وجرى له معهم موقعتان وهم في مراكز منيعة جداً فلم يتمكن من التغلب عليهم ويقال: إنه بكى لما رأى جماعة يسيرة قد استظهروا عليه وإنها تلك الحرب المشؤومة. فعقد معاهدة اعترف فيها باستقلال «أسكوتسيا» تماماً وهذه الحالة ألقت المسؤولية على «إيزابيلا» و«مرتيمر» وكانا قد غاظا الشعب بأفعالهما ضد «أرل أُف كونت» فإنهما سعيًا في قتله لخيانة كبرى اتهمته بها وذلك سنة ١٣٣٠ [م].

وفي السنة نفسها استبد «إدورد» بالسلطة وتخلص من طاعة أمه ومحبيها وقتل «مرتيمر»

Marfat.com

لخيانة بدت منه وأما «إيزابيلا» فأمر بحبسها طول حياتها في قصر «رشتتغ» حتى توفيت كما تقدم.

إيزابيلا البافارية ملكة فرنسا

وهي ابنة دوق «باباريا» ولدت سنة ١٣٧١ [م]، وتوفيت سنة ١٤٣٥ [م] تزوجت «شارل السادس» سنة ١٣٨٥ [م] فلما جنّ سنة ١٣٩٢ [م] جعلت رئيسة لمجلس الوكالة الملكية وكان من أعضائه دوق «أورليان»[١] أخو الملك و«جان» دوق «بورغونيا» الملقب بعديم الخوف فحصل بين هذين الأميرين مناظرة شديدة نشأ عنها الخصام الذي جرى بين البورغونيين والأرمنياكيين، وكانت «إيزابيلا» تميل إلى دوق «أورليان».

ويقال: إنه كان بينهما علائق حبية فأضمر لها دوق «بورغونيا» الشر وقتل خصمه سنة ١٤٠٧ [م] رغبة في الانتقام منها فغمها الأمر جداً ولكنها رضيت بمعاهدة القاتل لتحفظ لنفسها السلطان، ولما قتل دوق «بورغونيا» نفسه سنة ١٤١٩ [م] واطأت خلفه «فيليب لوبون» على تسليم فرنسا ليد أجنبية حارمة بذلك من الملك نفس ابنها «شارل السابع» ووقعت على معاهدة «تروا» التي بموجبها وجه تخت فرنسا إلى «هنري الخامس»[٢] ملك إنكلترا وذلك سنة ١٤٢٠ [م] وقلت أهميتها بعد وفاة «شارل السادس» و«هنري الخامس» سنة ١٤٢٢ [م] فلم تكن تتداخل في الأحكام وفي سنة ١٤٣٥ [م]، توفيت مصحوبة باحتقار الشعب غير مأسوف عليها.

ألمـس

المغنية الشهيرة التي فاقت كافة أرباب الألحان وآلات الطرب، وحازت شهرة عظيمة لا مزيد عليها وقد جمعت أموالاً كثيرة حتى قيل فيها إنها سلبت أموال القطر المصري برقة صنعتها وحلاوة صوتها الشاجي وكانت ابنة رجل فقير يتعاطى صنعة الصباغة، وكان ظهورها في أواخر أيام سعيد باشا[٣] وأوائل حكم إسماعيل باشا الخديوي[٤] وكانت في ذلك الوقت

---

(١) أورليان (Orleans): مدينة في فرنسا على لُوار، حاصرها الإنكليز فردّتهم عنها جان دارك ١٤٢٩ م.

(٢) هنري الخامس: ولد سنة ١٣٨٧ م، ملك إنكلترا سنة ١٤١٣ م وأصبح وصياً على العرش الفرنسي سنة ١٤٢٠ م. توفي سنة ١٤٢٢ م.

(٣) هو سعيد باشا ولد سنة ١٨٢٢ م والي مصر من سنة ١٨٥٤ ـ ١٨٦٣ م. ابن محمد علي فتح ترعة السويس وبنى بور سعيد. توفي سنة ١٨٦٣ م.

(٤) هو إسماعيل باشا ولد سنة ١٨٣٠ م، حاكم مصر من سنة ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ م، وهو ابن إبراهيم باشا، منحه السلطان عبد العزيز لقب الخديوي. دشن قناة السويس سنة ١٨٦٩ م، اشتهر بمشاريعه العمرانية =

Marfat.com

سائدة على مغنيات مصر لا سيما «ساكنة» المغنية الشهيرة وكانت قد أسنَّت وكانت «ألمس» صغيرة لا تتجاوز على ما بلغني الثانية عشرة من سنيها وكان اسمها الحقيقي «سكينة» ولكنها في مبادئ ظهورها لقبت باسم «ألمس» وقد غلب على الاسم الأصلي فشهرت به، وفي أول ظهورها قد طلبت إحدى سيدات العائلة الخديوية جملة بنات من بنات الأهالي حسنات الأصوات لأجل تعليمهن الألحان فجاءتها إحدى أتباعها بما طلبت ومن جملتهن «ألمس»، فاختبرت أصوات الجميع فلم يرق لها سوى صوت المترجَمة فطلبت إليها الإقامة عندها فامتنعت واعتذرت أنها لا تقدر على ترك والدها الفقير فقبلت عذرها بكل أسف وأنعمت عليها بشيء من النقود وانصرفت ثم بعد ذلك اشتهرت بين سيدات مصر وذواتها فكثر طلبها وتحدث بذكرها الرجال والنساء.

ولما رأت «ساكنة» المغنية ذلك خافت على مركزها وشهرتها أن تسترها «ألمس» بما منحها الله من حسن الصوت ورقة الصنعة فضمتها إليها وصارت من ضمن أتباعها فصار الالتفات الكلي من الأهالي وولاة الأمور لجهة «ألمس» وصارت «ساكنة» لا يُعبأ بها فداخلها الحسد والحقد، فساءت معاملتها ولما رأت المترجَمة ذلك انفصلت عنها وجعلت لها تختاً خصوصياً وكبر شأنها وطلبها ولاة مصر وذواتها وتُركت «ساكنة» ونُسي أمرها فزاد الحقد والحسد لها من جميع مغنين ومغنيات مصر وكان عبده الحمولي[1] المغني الشهير هو المشهور بين الرجال في ذلك الوقت فأخذه الخوف على شهرته وارتعب من إطفاء اسمه كما حصل لـ «ساكنة» فأظهرلـ «ألمس» في بادئ الأمر العداوة ووقع الخلاف حتى صار إذا أراد أن يزين أفراحه ويجعل لها رونقاً جمع ما بينهما في سامر واحد فيظهر كل منهما ما عنده من حسن الصنعة ورقة الصوت فيطرب السامعين ويصح فيهم المثل السائر: «تشاحنت المراكبيه بسعد الركاب»[2].

= والثقافية، ألغى الرق وبنى الإسماعيلية. أدى ارتفاع الديون إلى تدخل الدول وتنازله لصالح ابنه توفيق. توفي في الآستانة سنة ١٨٩٥ م.

(١) عَبْدُه الحَمُولي: المصري مجدد شباب الغناء العربي. ولد في طنطا سنة ١٢٦١ هـ/ ١٨٤٥ م. أولع بالغناء، وكان حسن الصوت جداً، فتصّرف بصناعته تصرفاً عجيباً أخرجها عن طريقتها الساذجة القديمة وألسبها ثوباً رقيقاً شفافاً. زار الآستانة فأخذ عن الموسيقى التركية ما أدخله في الغناء العربي، فكان أول من مزج الغناءين. كان كبير النفس في أخلاقه، شريف السيرة، كريماً، مترفعاً عن طبقة المغنين، يُعدّ من أصحاب الإبداع والاختراع في هذا الفن. توفي في القاهرة سنة ١٣١٩ هـ/ ١٩٠١ م، ومما ذكرناه في ترجمته يتنافى مع ما ورد في متن الكتاب من أنه عمد إلى الحيلة والمكر ليتزوج من ألمس بغية منعها من الغناء والحؤول دون تقدمه ونجاحه.

(٢) مثل شعبي عامّي.

Marfat.com

ولما رأى ذلك عبده الحمولي وأن الأهالي متجهة أفكارها إلى جهة «ألمس» وكثر مادحوها، وقل الالتفات إلى جهته عمد إلى الحيلة والمكر اللذين يتهم بهما النساء وأظهر لها الحب والود الذي لا يُشك فيه، وطلب إليها الاقتران وبذل جهده في إتقان الحيلة حتى قبلت اقترانها به وكانت من قبل تزوجت برجل إيراني وانفصلت منه لا أعلم إن كان بموت أو بالحياة.

ولما دخلت على عبده كان آخر العهد بها فمنعها عن الغناء وتقدم هو فرجعت له شهرته الأولى إذ لم يبق غيره في القطر المصري وأسف الأهالي جميعاً من غياب سناء «ألمس» عن عيونهم وحزن الكثير من هذا الاقتران.

ولما صارت تحت حكمه سلمت له كل مالها وما تملكه ففتح محل تجارة وحيث إنه كان مسرفاً في بذل الأموال لم تدم تجارته إلا قليلاً فقفل محله التجاري.

وكانت المترجَمة حملت منه ولم تلد، بل توفاها الله بحملها وهي في نضارة الشباب وعنفوان الصبا فأسف عليها المصريون كل الأسف وكان لها يوم مشهود جمع أكابر مصر وأصاغرها واحتفل بمشهدها تقله أعناق الرجال وتسقى الأرض بأنهر من الدمع المدرار.

وحزن عبده عليها الحزن الشديد وحاقه الندم على ما فرط منه في معاملتها بالقسوة حيث إنه كان يعاملها بكل فظاظة وهجر حتى قيل: إنه كان يقصد خسارة أموالها فيركب العربة تقلها الخيل الجياد من خيلها فلا يحملانه أكثر من الأسبوع وخسرت التجارة ما ينوف عن الثلاثين ألف جنيه وغير ذلك من الخسائر الباهظة غير ما عاملها به من الهجر والإعراض فلحقها الغم وندمت من حيث لا ينفع الندم حتى قيل: إن ذلك كان سبب موتها لما لحقها من الكدر.

فأثر هذا الأمر في عبده بعد موتها وثابر على الحزن مدة من الزمن وغنى عليها بألحان محزنة نذكرها على سبيل الاستئناس وهو:

مذهب:

شربت الصبر من بعد التصافي ومر الحال ما عرفتش أصافي
يغيب النوم وأفكاري توافي عدمت الوصل آه يا قلبي عليّ

دور:

يقضي لوم يكفاني ملامه وزاد بي الحال يا الله السلامه
مضت بهجة فؤادي يا ندامه عدمت الوصل آه يا وعدي عليّ

Marfat.com

دور:

على عيني بعاد الحلو ساعه ولكن للقضا سمعاً وطاعه
لأن الروح في الدنيا وداعه عدمت الوصل آه يا قلبي عليّ

دور:

زمان الأنس راح عني وودّع وصرت اليوم من ولهي مولع
وبعد الهجر هو الصبر ينفع عدمت الوصل آه يا قلبي عليّ

هذا ما بلغني من ترجمة «ألمس» ولم أجد من يطلعني على شيء من نوادرها وملحها الكثيرة.

Marfat.com

حرف الباء الموحدة

باقو الملقبة بالطاهرة زوجة السلطان مراد الثالث

هي امرأة من البندقية كانت ذات فكر ثاقب وجمال بارع أسرها لصوص البحر سنة ١٥٨٠ [م] وهي سائرة مع أبيها من البندقية[١] إلى «كورفو»[٢] فسيقت إلى القسطنطينية وصارت فيها من جواري السلطان مراد الثالث[٣] ثم تزوجها وجعلها سلطانة وأخذ حبها بمجامع قلبه فنفذت كلمتها وكانت لها سطوة عجيبة في أيام ابنها السلطان محمد الثالث[٤] فكان يستشيرها في مصالح السلطنة غير أن حفيدها السلطان أحمد تغير عليها سنة ١٦٠٣ للميلاد ووضعها في السراية القديمة إلى أن ماتت.

بثينة حبيبة جميل بن معمر العذري

هي بثينة[٥] بنت حبا بن ثعلبة بن لهوذ بن عمر بن الأصب بن حر بن ربيعة، كذلك نسبها صاحب الأغاني وهي من بني عُذرة[٦] هام بها وذكرها في شعره جميل بن عبد الله بن

---

(١) البندقية: أو ڤينيسيا (Venezia)، مدينة إيطالية على الأدرياتيك، مبنية فوق مائة جزيرة صغيرة تفصل بينها القنوات وتربطها ببعضها مئات الجسور. هي من عواصم العالم السياحية المشهورة بمبانيها، منها كنيسة القديس مرقس وساحتها.

(٢) كورفو: أو كركيرا (Corfu,Kerkyra) جزيرة يونانية في البحر الأيوني عند مدخل الأدرياتيك يفصلها عن الساحل مضيق كورفو.

(٣) مراد الثالث: سلطان عثماني ولد سنة ١٥٤٦ م، ملك سنة ١٥٧٤ م، هو ابن سليم الثاني. انتصر على الفرس سنة ١٥٧٦ م واحتل جورجيا. قضى على الأمير قرقماز المعني في لبنان سنة ١٥٨٤ م. توفي سنة ١٥٩٥ م.

(٤) محمد الثالث: سلطان عثماني ولد سنة ١٥٦٦ م، ملك سنة ١٥٩٥ م. اغتال إخوته وحارب النمسا، توفي سنة ١٦٠٣ م.

(٥) هي بثينة شاعرة من بني عذرة، من قضاعة، اشتهرت بأخبارها مع جميل بن معمّر العذري. وهو من قومها. كانت منازلهم بوادي القرى بين مكة والمدينة، في شعرها رقّة ومتانة. مات جميل قبلها، فرثته ولم تعش بعده طويلاً.

(٦) بنو عذرة: بطن من قضاعة من القحطانية، وهم بنو عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن ليث بن أسود بن =

Marfat.com

معمر[1] فعرف بها حتى إنه لا يعرف إلا بجميل بثينة. تزوجها رجل يقال له: نبيه بن الأسود وبقي جميل يتردد عليها بلا ريبة وكانت بثينة من أحسن النساء وأكملهن أدباً وظرفاً وأطيبهن حديثاً ولها مع جميل نوادر وأشعار ومغازلات كثيرة كلها مستورة بالعفة والأدب فمنها أن سبب ما علق بها جميل أنه أقبل يوماً بإبله حتى أوردها وادياً يقال له: بغيض فاضطجع وأرسل إبله ترعى وأهل بثينة يومئذٍ في جانب الوادي فأقبلت بثينة وجارة لها واردتين الماء، فمرتا على فصال له بروك فنفرتهن بثينة (أي انتهرتهنّ) فقال: قد نفرتهن وكانت إذ ذاك جويرية صغيرة فسبها جميل، فبادلته السب وشتمته هي أيضاً فاستحسن سبابها وهام بها من ذاك الحين، وفي ذلك يقول:

وأوّل مـــا قـــاد المـــودة بيننـــا ... بـــوادي بغيـــض يـــا بثيـــن سبـــابُ
وقلنـــا لهـــا قـــولاً فجـــاءت بمثلـــه ... لكـــل كـــلام يـــا بثيـــن جـــوابُ

وخرجت بثينة في يوم عيد وكانت النساء إذ ذاك يتزين ويجتمعن ويدنو بعضهن لبعض ويبدون للرجال في كل عيد فجاء جميل فوقف على بثينة وأختها أم الحسين في نساء من بني الأحب فرأى منهن منظراً لطيفاً فقعد معهن ثم انصرف وكان معه فتيان من بني الأحب فعلم أن القوم قد عرفوا في نظره حب بثينة ووجدوا عليه فراح وهو يقول:

عجـــل الفـــراق وليتـــه لـــم يعجـــل ... وجـــرت بـــوادر دمعـــك المتهلـــل
طرباً وشاقك ما لقيت ولم تخف ... بيـــن الحبيـــب غـــداة بـــرقـــة محـــول
وعرفت أنك حين رحت ولم يكن ... بعـــد اليقيـــن وليـــس ذاك بمشكـــل
لـــن تستطيـــع إلـــى بثينـــة رجعـــة ... بعـــد التفـــرّق دون عـــام مقبـــل

ولما سمعت بثينة أن جميلاً شب بها حلفت بالله أن لا يأتيها على خلوة إلا خرجت إليه ولا تتوارى منه فكان يأتيها عند غفلات الرجال فيتحدث معها ومع أخواتها حتى نمى إلى رجالها أنه يتحدث إليها، وكانوا أصلافاً (أي غيارى)، فرصدوه بجماعة نحو من بضعة عشر

= أسلم بن الحافي بن قضاعة. كان لعذرة من الولد كُثيِّر بطن، وعامر بطن، وكاهل بطن، وإياس وعوف ورفاعة بطن، قال أبو عبيدة: وعذرة هؤلاء هم المعروفون بشدة العشق، كان جميل بن عبد الله بن معمّر وصاحبته بثينة منهم، من أحسن ما يحكى عن بعض العذريين أنه قيل له: ما بال الرجل منكم يموت في هوى امرأة، فقال: لأن فينا جمالاً وعفة.

(١) هو جميل بن عبد الله بن معمّر العذري، القضاعي، أبو عمرو، شاعر، من عشاق العرب، افتتن ببثينة، من فتيان قومه، فتناقل الناس أخبارهما. شعره يذوب رقة، أقل ما فيه المدح، وأكثره في النسيب، والغزل، والفخر. وكانت منازل بني عُذرة في وادي القرى، من أعمال المدينة، ورحلوا إلى إطراف الشام الجنوبية، فقصد جميل مصر، وافداً على عبد العزيز بن مروان، فأكرمه عبد العزيز، وأمر له بمنزل فأقام قليلاً ومات فيه سنة ٨٢ هـ/ ٧٠١ م.

Marfat.com

رجلاً وجاء على الصهباء ناقته حتى وقف ببثينة وأم الحسين وهما تحدثانه وهو ينشدهما قوله:

حلفت برب الراقصات إلى مِنَى هـويّ القطـا تجتـزن بطـن دفيـنِ
لقد ظن هذا القلب أن ليس لاقياً سليمـى ولا أم الحسيـن لحيـنِ
فليت رجالاً فيك قد ندروا دمي وهمـوا بقتلـي يـا بثيـن لقـونـي

فبينما هو على تلك الحال إذ وثب عليه القوم فأطلق عنان الناقة، فخرجت من بينهم كالسهم ووعدت جميلاً يوماً أن يلتقيا في بعض المواضع فأتى لوعدها، وجاء أعرابي يستضيف القوم فأنزلوه وقروه فقال لهم: قد رأيت في بطن هذا الوادي ثلاثة نفر متفرقين متوارين في الشجر وأنا خائف عليكم أن يسلبوا بعض إبلكمْ، فعرفوا أنه جميل وصاحباه فحرسوا بثينة ومنعوها من الوفاء بوعده، فلما أسفر الصبح انصرف كئيباً سيئ الظن بها ورجع إلى أهله فجعل نساء الحي يقرّعنه بذلك ويقلن له: إنما حصلت منها على الباطل والكذب والغدر وغيرها أولى بوصلك منها كما أن غيرك يحظى بوصلها فقال في ذلك:

فلـرب عـارضـة علينـا وصلهـا بـالجـدّ تخلطـه بقـول الهـازلِ
فـاجبتهـا فـي القـول بعـد تستـر حبـي بثينـة عـن وصـالـك شـاغلـي
لو كان في صدري كقدر قلامة فضـلاً وصلتـك أو أتتـك رسـائلـي
ويقلـن إنـك قـد رضيـت بباطـل منها فهل لك في اجتناب الباطلِ
ولبـاطـل ممـن أحـب حـديثـه أشهـى إليّ مـن البغيـض البـاذلِ
ليـزلـن عنـك هـواي ثـم يصلنني وإذا هـويـت فمـا هـواي بـزائـلِ
أبثيـن إنـك قـد ملكـت فـاسحجي وخـذي بحظك من كـريـم واصـلِ

وفي وعدها بالتلاقي وتأخرها يقول أيضاً قصيدته الرائبة التي أولها:

يا صاح عن بعض الملامة أقصر إن المنـى للقـاء أم المسـورِ

ومنها:

وكـأنّ طـارقهـا علـى علـل الكـرى والنجـم وهنـا قـد دنـا لتغـوّرِ
يستـاف ريـح مـدامـة معجـونـة بـذكـيّ مسـك أو سحيـق العنبـرِ

ومنها:

إنـي لأحفـظ غيبكـم ويسـرنـي إذ تـذكـريـن بصـالـح أن تـذكـري
ويكـون يـوم لا أرى لـك مـرسـلاً أو نلتقـي فيـه علـيّ كـأشهـرِ
يـا ليتنـي ألقـى المنيـة بغتـة إن كـان يـوم لقـائكـم لـم يقـدرِ
أو أستطيـع تجلـداً عـن ذكـركـم فيفيـق بعـض صبـابتـي وتفكـري

Marfat.com

لو قد تجنّ كما أجنّ من الهوى لعذرت أو لظلمت إن لم تعذري
والله ما للقلب من علم بها غير الظنون وغير قول المخبرِ
لا تحسبي أني هجرتك طائعاً حدث لعمرك رائع أن تهجري
فلتبكني الباكيات وإن أبح يوماً بسرك معلناً لم أعذرِ
يهواك ما عشت الفؤاد فإن أمت يتبع صداي صداك بين الأقبرِ
إني إليك بما وعدت لناظر نظر الفقير إلى الغني المكثرِ
يعد الديون وليس ينجز موعداً هذا الغريم لنا وليس بمعسرِ
ما أنت والوعد الذي تعدينني إلا كبرق سحابة لم يمطرِ
قلبي نصحت له فردّ نصيحتي فمتى هجرتيه فمنه تكثري

والتقت بجميل بعد طول تهاجر كان بينهما طالت مدته فتعاتبا طويلاً ثم قالت له: ويحك يا جميل أتزعم أنك تهواني وأنت القائل:

رمى الله في عيني بثينة بالقذى وفي الغرّ من أنيابها بالقوادح

فأطرق طويلاً وهو يبكي وينتحب ثم رفع رأسه وقال: بل أنا القائل:

ألا ليتني أعمى أصم تقودني بثينة لا يخفى عليّ كلامها

فقالت: ويحك، ما حملك على هذه المنى أوليس في سعة العافية ما كفانا جميعاً؟

وسعت جارية من جواري بثينة بها إلى أبيها وأخيها وقالت لهما: إن جميلاً عندها الليلة فأتياها مشتملين سيفهما، فرأياه جالساً إليها يحدثها ويشكو إليها وجده بها وشوقه لها، ثم قال لها: يا بثينة، أرأيت ودي لك وشغفي بك ألا تجزينه؟ قالت: بماذا؟ قال: بما يكون بين المتحابين. فقالت له: يا جميل أهذا تبغي والله لقد كنت عندي بعيداً منه، ولئن عاودت تعريضاً بريبة لا رأيت وجهي بعدها أبداً فضحك من كلامها وقال: والله ما قلت لك هذا إلاّ لأعلم ما عندك فيه، ولو علمت أنك تجيبيني إليه لعلمت أنك تجيبين غيري ولو رأيت منك مساعدة عليه لضربتك بسيفي هذا ما استمسك في يدي أو هجرتك إن استطعت إلى الأبد أوما سمعت قولي:

وإني لأرضى من بثينة بالذي لو أبصره الواشي لقرت بلابلُهُ
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجوّ قد خاب أملُهُ
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي أواخره لا نلتقي وأوائلُهُ

فقال أبوها لأخيها: قم بنا فما ينبغي بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من لقائها فانصرفا وتركاهما. وقال جميل يوماً لأحد أترابه: هل لك في مساعدتي على لقاء بثينة، فمضى معه

Marfat.com

حتى كمن له في الوادي وأرسل معه خاتمه إلى راعي بثينة ودفعه إليه فمضى به إليها ثم عاد بموعد منها إليه فلما جن الليل جاءته فتحدثا طويلاً حتى أصبَحا ثم ودعها وركب ناقته وهي باركة قالت له بثينة ادن مني يا جميل فدنا منها وقال:

إن المنـــازل هيجـــت أطـــرابـــي واستعجمـــت آيـــاتهـــا بجـــوابـــي
فتـرى تلـوح بـذي اللجيـن كـأنهـا أنضـــاء رســـم أو سطـــور كتـــابِ
لمـا وقفـت بهـا القلـوص تبـادرت منـي الـدمـوع لفـرقـة الأحبـابِ
وذكـرت عصـراً يـا بثينـة شـاقنـي وذكـرت أيـامـي وشـرخ شبـابـي

وقال كُثيِّر[1]: لقيني جميل مرة فقال لي: من أين أقبلت؟ قلت: من عند أبي الحبيبة ـ أعني بثينة ـ فقال: وإلى أين تمضي؟ قلت: إلى الحبيبة ـ أعني عَزَّة[2] ـ فقال: لا بد أن ترجع عودك على بدئك فتستجد لي موعداً من بثينة. فقال: عهدي بها الساعة وأنا أستحي أن أرجع. فقال: لا بد من ذلك. فقلت: فمتى عهدك بها؟ قال: في أول العيد وقد وقعت سحابة بأسفل وادي الردم فخرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابها، فلما أبصرتني أنكرتني وضربت بيدها إلى ثوب في الماء فالتحفت به تستراً، وعرفتني الجارية فأخبرتها، فتركت الثوب في الماء وتحدثنا حتى غابت الشمس، وسألتها الموعد فقالت: أهلي سائرون. وما وجدت أحداً غيرك يا كُثيِّر حتى أرسله إليها فقال له كُثيِّر: فهل لك في أن آتي الحي فأنزع بأبيات من الشعر أذكر فيها هذه العلامة إن لم أقدر على الخلوة بها.

قال: ذلك الصواب، فأرسله إليها فذهب، وقال: انتظرني حتى أعود، ثم سار حتى أناخ بهم فقال له أبوها: ما ردّك يا كُثيِّر؟ قال: ثلاثة أبيات عرضت لي فأحببت أن أعرضها عليك. قال: هاتها. قال كُثيِّر: فأنشدته وبثينة تسمع من وراء الخدر:

فقلت لها يا عز أرسل صاحبي إليـك رسـولاً والمـوكـل مـرسـلُ

---

(١) هو كُثيِّر بن عبد الرحمٰن بن الأسود بن عامر الخزاعي، أبو صخر، شاعر متيّم مشهور «بكُثيِّر عَزَّة». من أهل المدينة. أكثر إقامته بمصر. وفد على عبد الملك بن مروان فازدرى منظره، ولما عرف أدبه رفع مجلسه، فاختص به وببني مروان، يعظمونه ويكرمونه. كان مفرط القصر دميماً، في نفسه شمم وترفع كان شاعر أهل الحجاز في الإسلام، لا يقدّمون عليه أحد. وفي المؤرخين من يذكر أنه كان من غلاة الشيعة. وينسبون إليه القول بالتناسخ، قيل: كان يرى أنه «يونس بن متّى»، أخباره مع عَزّة بنت حميل (بالحاء) الضمرية كثيرة. كان عفيفاً في حبّه. قيل له: هل نلت من عَزّة شيئاً طول مدتك؟ فقال: لا والله، إنّما كنت إذا اشتد بي الأمر أخذت يدها فإذا وضعتها على جبيني وجدت لذلك راحة. توفي بالمدينة سنة ١٠٥ هـ/ ٧٢٣ م.

(٢) هي عَزّة بنت حميل (بالحاء) الضمرية، صاحبة الشاعر كُثيِّر، عشقها فاشتهر بها واشتهرت به، توفيت في مصر سنة ٧٠٤ م.

Marfat.com

بـأن تجعلـي بينـي وبينـك مـوعـداً وأن تـأمـريـنـي بـالـذي فيـه أفعـلُ
وآخـر عهـدي منـك يـوم لقيتنـي بأسفل وادي الردم والثوب يغسلُ

فضربت بثينة صدرها وقالت: اخسأ اخسأ، فقال أبوها: مهيم[1] يا بثينة؟ قالت: كلب يأتينا إذا نام الناس من وراء هذه الرابية، ثم التفتت إلى الجارية وقالت: أبغينا من الدومات حطباً لنذبح لكُثيِّر شاة ونسوّيها له. فقال كُثيِّر: أنا أعجل من ذلك وخرج وراح إلى جميل فأخبره. فقال له جميل: الموعد الدومات بعد أن تنام الناس. وكانت بثينة قد قالت لأختها أم الحسين، وليلى ونجيا بنات خالتها: إني قد رأيت في نحو نشيد كُثيِّر أن جميلاً معه وكانت قد أنست إليهن واطمأنت بهن وكاشفتهن بأسرارها فخرجن معها، وكان جميل وكُثيِّر خرجَا حتى أتيا الدومات (اسم محل) وجاءت بثينة ومن معها فما برحوا حتى برق الصبح فكان كُثيِّر يقول: ما رأيت عمري مجلساً قط أحسن من ذلك المجلس ولا مثل علم أحدهما بضمير الآخر ولم أدر أيهما كان أفهم. ولما نَدَرَ أهل بثينة دم جميل وأهدره لهم السلطان ضاقت الدنيا بجميل، فكان يصعد بالليل كثيب رمل ويتنسم الريح من نحو حي بثينة ويقول:

أيـا ريـح الشمـال أمـا تـريني أهيـم وإننـي بـادي النحـولِ
هبـي لـي نسمـة مـن ريـح بثـن ومنـي بـالهبـوب إلـى جميـلِ
وقـولـي يـا بثينـة حسـب نفسـي قليلـك أو أقـل مـن القليـلِ

فإذا ظهر الصبح انصرف وكانت بثينة تقول لجوار من الحي عندها: ويحكن، إني لأسمع أنين جميل من بعض الغيران فيقلن لها: اتقي الله فهذا شيء يخيله لك الشيطان لا حقيقة له، واجتمع كُثيِّر بجميل يوماً فقال له: يا جميل، أترى بثينة لم تسمع بقولك:

يقيـك جميـل كـل سـوء أمـالـه لـديـك حـديـث أو إليـك رسـولْ
وقد قلت في حبي لكم وصبابتي محـاسـن شعـر ذكـرهـنّ يطـولْ
فإن لم يكن قولي رضاك فعلمي هبـوب الصبـا يـابثـن كيـف أقـولْ
فما غاب عن عيني خيالك لحظة ولا زال عنهـا والخيـال يـزولْ

فقال جميل أترى عَزَّة يا كُثيِّر لم تسمع بقولك:

يقول العدا يا عز قد حال دونكم شجاع على ظهر الطريق مصممْ
فقلـت لهـا والله لـو كـان دونكـم جهنـم مـا راعـت فـؤادي جهنـمْ
وكيـف يـروع القلـب يـا عـز رائـع ووجهك في الظلماء للسفر معلمْ

(١) مهيم: كلمة استفهام: ما حالك، أو ما حدث لك، أو ما الخبر. [المنجد في اللغة والأعلام، مادة: مهي].

Marfat.com

وما ظلمتك النفس يا عز في الهوى فـلا تنقمـي حبـي فمـا فيـه منقـمُ

قال: فبكيا ليلتهما إلى أن بزغ الصباح، ثم انصرفا وخرج جميل لزيارة بثينة ذات يوم فنزل قريباً من الماء يترصد أمَة لبثينة، أو راعية ليتخذها واسطة لتبليغ رسالته، وإذا بأمَة حبشية معها قربة واردة على الغدير لتملأها، وكانت عارفة به، ولما تبينها وتبينته سلمت عليه وجلست معه وجعل يحدثها ويسألها عن أخبار بثينة ويخبرها بما يعانيه من ألم الفراق، ويحملها رسائله إلى بثينة، ثم أعطاها خاتمه وسألها أن تدفعه لها وأخذ عليها موعداً ترجع له فيه، ومكث ينتظر رجوعها وذهبت الجارية إلى أهلها وقد أبطأت عليهم، فلقيها أبو بثينة وزوجها وأخوها فسألوها عما أبطأ بها فالتوت عليهم ولم تخبرهم بشيء مما حصل لها مع جميل، وتعللت عليهم فضربوها ضرباً مبرحاً، ومن ألم الضرب أعلمتهم حالها مع جميل ودفعت إليهم خاتمه، وصدف أنه مر بها في تلك الحالة فَتَيانِ من بني عذرة فسمعا القصة جميعها وعرفا الموضع الذي فيه جميل، فأحبا أن يدرآ عنه هذا الخطر فقالا للقوم: إنكم إن لقيتم جميلاً وليست بثينة معه ثم قتلتموه لزمكم في ذلك كل مكروه وكان أهل بثينة أعز بني عذرة فدعوا الأمَة وأعطوها الخاتم وأمروها أن توصله إلى بثينة وحذروها من أن تخبرها بأنهم علموا القصة ففعلت، ولم تعلم بثينة بما جرى، ومضى الفَتَيانِ فأنذرا جميلاً وقالا تقيم عندنا في بيوتنا حتى يهدأ الطلب، ثم تبعث إليها فتزورك وتقضي من لقائها وطراً وتنصرف سليماً.

فقال: أما الآن فابعثا إليها من ينذرها فأتياه براعية لهما وقالا له: قل بحاجتك فقال: ادخلي إليها وقولي لها إني أردت اقتناص ظبي فحذره ذلك جماعة اعتوروه من القناص ففاتني الليلة فمضت فأعلمتها ما قال لها فعرفت قصته وبحثت عنها ففهمتها تماماً فلم تخرج لزيارته تلك الليلة ورصدوها فلم تبرح من مكانها ومضوا يقتفون أثره فوجدوا ناقته فعرفوا أنه قد فاتها وفي ذلك يقول جميل:

خليليّ عـوجَـا اليـوم حتى تسلمـا على عـذبـة الأنيـاب طيبـة النشـرِ
ألمَّـا بهـا ثـم اشفعـا لـي وسلمـا عليها سقاها الله من سائغ القطرِ

وقـال:

أبى القلـب إلا حـب بثنـة لـم يـردِ سواها وحب القلب بثنة لا يجدي
إذا ما دنت زدت اشتياقا وإن نأت جـزعـت لنـأي الـدار منهـا وللبعـدِ
سلي الركب هل عجنا لمغناك مرة صدور المطايا وهي موقرة تخدي
وهل فاضت العين الشروق بمائها من اجلك حتى أخضل من دمعها بردي
وإني لأستجري لك الطير جاهدا لتجري بيمن من لقائك من سعدي

Marfat.com

وإني لأستبكي إذا الركب غرّدوا بذكراك أن يحيا بك الركب إذ تحدي
فهل تجزيني أم عمرو بودها فإن الذي أخفى بها فوق ما أبدي
وكل محب لم يزد فوق جهده وقد زدتها في الحب مني على الجهدِ

ولما ضاقت برهط بثينة الحيل ائتمنوا عليها عجوزاً منهم يثقون بها يقال لها: أم منظور فجاءها جميل وقال لها: أريني بثينة، فقالت: لا والله لا أفعل وقد ائتمنوني عليها فقال: أما والله لا أضرنك فقالت: المضرة والله في أن أريكها فخرج من عندها وهو يقول:

ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت بالحجر يوم جلتها أم منظورِ
ولا استلابتها خرساً جبائرها إليّ من ساقط الأوراق مستورِ

قال فما كان إلا قليل حتى انتهى إليهم هذان البيتان فتعلقوا بأم منظور فحلفت لهم بكل يمين فلم يقبلوا منها وعاقبوها على ذلك هكذا رواه صاحب الأغاني[١] عن الزبير بن بكار[٢].

وفي رواية أخرى أن رجلاً أنشد مصعب بن الزبير[٣] البيت الأول من البيتين المذكورين فقال مصعب: لوددت أني عرفت كيف جلتها فقيل له: إن أم منظور هذه حية فكتب في حملها إليه مكرمة فحملت إليه فقال لها: أخبريني عن قول جميل.

---

(١) هو علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المرواني، الأموي، القرشي، أبو الفرج الأصبهاني، من أئمة الأدب، الأعلام في معرفة التاريخ، والأنساب، والسير، والآثار، واللغة والمغازي. ولد في أصبهان سنة ٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م. نشأ وتوفي في بغداد سنة ٣٥٦ هـ/ ٩٦٧ م. قال الذهبي: «والعجب أنه أموي شيعي». وكان يبعث بتصانيفه سراً إلى صاحب الأندلس الأموي فيأتيه إنعامه. من أشهر كتبه «الأغاني»، لم يعمل في بابه مثله. جمعه في خمسين سنة.

(٢) هو الزبير بن بكّار بن عبد الله القرشي، الأسدي، المكي، من أحفاد الزبير بن العوام، أبو عبد الله، عالم بالأنساب وأخبار العرب، راوية. ولد في المدينة سنة ١٧٢ هـ/ ٧٨٨ م. ولي القضاء في مكة فتوفي فيها سنة ٢٥٦ هـ/ ٧٨٠ م.

(٣) هو مصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي، القرشي، أبو عبد الله، أحد الولاة الأبطال في صدر الإسلام. نشأ بين يدي أخيه عبد الله بن الزبير، فكان عضده الأقوى في تثبيت ملكه بالحجاز والعراق. وولاه عبد الله البصرة سنة ٦٧ هـ، فقصدها، وضبط أمورها، وقتل المختار الثقفي. ثم عزله عبد الله عنها مدة سنة، وأعاده في أواخر سنة ٦٨ هـ، وأضاف إليه الكوفة، فأحسن سياستها، فتجرّد عبد الملك بن مروان لقتاله، فسيّر إليه الجيوش، فكان مصعب يفلّها، حتى خرج إليه عبد الملك بنفسه، فلما دخل العراق. خذل مصعباً قوّادُ جيشه وأصحابُه، فثبت فيمن بقي معه، فشد عليه جيش عبد الملك في وقعة عند دير الجاثليق، وطعنه زائدة بن قيس السعدي، فقتله، وحمل رأسه إلى عبد الملك. وبمقتله نقلت بيعة أهل العراق إلى ملوك الشام. كان مصعب أحبّ أمراء العراق إلى أهل العراق، يعطيهم عطاءين، عطاء للشتاء وعطاء للصيف. وكان يشتد في موضع الشدّة ويلين في موضع اللين.

Marfat.com

ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت بـالحجـر يـوم جلتهـا أم منظـورِ

كيف كانت هذه الجلوة؟ قالت: ألبستها قلادة بلح ومخنقة بلح في وسطها تفاحة وضفرت شعرها، وجعلت في فرقها شيئاً من الجلوة ومر بنا جميل راكباً عل ناقته فجعل ينظر إليها بمؤخر عينه ويلتفت إليها حتى غاب عنا فقال لها مصعب: فإني أقسم عليك إلا جلوت عائشة بنت طلحة[1] مثل ما جلوت بثينة ففعلت، وركب مصعب ناقته وجعل ينظر إلى عائشة بمؤخر عينه مثل ما فعل جميل ويسير حتى غاب عنهما ثم رجع. وجاء جميل إلى بثينة ليلة وقد تزيا بزي راعٍ لبعض الحي، فوجد عندها ضيفان لها فانتبذ ناحية وجلس فيها فسألته: من أنت؟ فقال: مسكين مكاتب فعشتّ ضيفانها وعشّته وخده ثم جلست هي وجارية لها تجاه النار تصطليان واضطجع القوم منتحين فقال جميل:

هل البائس المقرور دان فمصطل من النار أو معطى لحافاً فلابسُ

فقالت لجاريتها: صوت جميل والله اذهبي فانظري فذهبت ثم رجعت وقالت: هو والله جميل فشهقت شهقة سمعها القوم فأقبلوا يجرون، وقالوا: ما لك فطرحت برداً لها من حبرة في النار وقالت: احترق بردي، فرجع القوم وأرسلت جاريتها إلى جميل فجاءتها به فحبسته عندها ثلاث ليال ثم ودعها وخرج.

ورصدها ليلة في نجع لبني عذرة حتى إذا صادف منها فرصة وهي مارة مع أترابها في ليلة ظلماء ذات رعود وأمطار فحذفها بحصاة فأصابت بعض أترابها ففزعت وقالت: والله ما حذفني في مثل هذا الوقت إلا الجن فقالت لها بثينة ـ وقد فطنت ـ: انصرفي إلى منزلك حتى نذهب إلى النوم، فانصرفت وبقي مع بثينة أم الحسين وأم منظور فقامت إلى جميل فأخذته إلى الخباء معها وتحدثا طويلاً ثم اضطجع واضطجعت إلى جانبه فذهب بهما النوم حتى أصبحا وجاءها غلام زوجها بصبوح من اللبن بعث به إليها زوجها (يظهر من تواريخ العرب أنهم كانوا على الطريقة التي اتخذها الإفرنج في وقتنا هذا بأن الزوج لا يرقد وزوجته في محل واحد بل كل منهما في محل) فلما رآها نائمة مع جميل مضى لوجهه حتى يخبر سيده فرأته ليلى والصبوح معه وكانت قد عرفت خبر بثينة وجميل فاستوقفته كأنها تسأله عن حاله وبعثت

---

(١) هي عائشة بنت طلحة بن عبيد الله من بني تيم بن مُرّة، أديبة، عالمة بأخبار العرب، فصيحة، أمها أم كلثوم ابنة أبي بكر الصديق، خالتها عائشة أم المؤمنين، وكانت أشبه الناس بها. كانت لا تستر وجهها، فعاتبها زوجها مصعب بن الزبير في ذلك، فقالت: إن الله قد وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس فما كنتُ لأستره، ووالله ما فيَّ وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد. كانت تقيم بمكة سنة، وبالمدينة سنة، وفدت على هشام بن عبد الملك، فبعث إلى مشايخ بني أمية أن يسمروا عنده. فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها إلاّ أفاضت معهم فيه. وما طلع نجم ولا غار إلاّ سمّته.

Marfat.com

بجاريتها لها وقالت: حذري بثينة وجميلاً، فجاءت الجارية فنبهتهما، فلما تبينت بثينة الصبح قد أضاء والناس منتشرين ارتاعت وقالت: يا جميل نفسك نفسك فقد جاءني غلام زوجي بصبوحي من اللبن فرآنا نائمين فقال لها وهو غير مكترث لما خوفته منه:

لعمرك ما خوفتني من مخافة بثين ولا حذرتني موضع الحذر
فأقسم لا يلفى لي اليوم غرّة وفي الكف مني صارم قاطع ذكر

فأقسمت عليه أن يلقي نفسه تحت النضد وقالت: إنما أسألك ذلك خوفاً على نفسي من الفضيحة لا خوفاً عليك، ففعل ما أمرته به ونامت كما كانت، وأضجعت أم الحسين إلى جانبها، وذهبت خادمة ليلى وأخبرتها الخبر فتركت العبد يمضي إلى سيده فمضى والصبوح معه وقال: إني رأيت جميلاً مع بثينة في فراش واحد مضطجعاً إلى جانبها فمضى إلى أخيها وأبيها وأخبرهم الخبر وأخذهما وأتى بهما إلى خباء بثينة وهي نائمة فكشفوا عنها الثوب فإذا أم الحسين إلى جانبها نائمة، فخجل زوجها وسب عبده وقالت ليلى لأخيها وأبيها: قبحكما الله أفي كل يوم تفضحان فتاتكما ويلقاكما هذا الأعور فيها بكل قبيح قبحه الله، وقبحكما معه. وجعلا يسبان زوجها ويقولان له كل قول قبيح وأقام جميل عند بثينة حتى جنّ الليل ثم ودعها وانصرف وخافت بثينة مما جرى فتحامت منه مدة فقال في ذلك:

أإن هتفت ورقاء ظلت سفاهة تبكي على جمل لورقاء تهتفُ
فلو كان لي بالصرم[1] يا صاح طاقة صرمت ولكني عن الصرم أضعفُ
لها في سواد القلب بالحب منعة هي الموت أو كادت على الموت تشرفُ
وما ذكرتك النفس يابثن مرة من الدهر إلا كادت النفس تتلفُ
وإلا اعترتني زفرة واستكانة وجادلها سجل من الدمع يذرفُ
وما استطرفت نفسي حديثاً لخلة أسرّ به إلا حديثك أطرف

وهي قصيدة طويلة منها قوله:

ولست بناس أهلها حين أقبلوا وجالوا علينا بالسيوف وطوّفوا
وقالوا جميل بات في الحي عندها وقد جردوا أسيافهم ثم وقفوا

ولما اشتهرت بثينة بحب جميل إياها اعترضه عبيد الله بن قطنة بني الأحب وهو من رهطها الأقربين فهجاه وبلغ ذلك جميلاً فأجابه وتطاولا فغلبه جميل وكف عنه ابن قطنة واعترضه عمير بن رمل رجل من بني الأحب أيضاً وإياه عنى جميل بقوله:

إذا الناس هابوا خزية ذهبت بها أحب المخازي كهلها ووليدُها

---

(١) الصرم: البعد والجفاء. [القاموس المحيط، مادة: صرم].

Marfat.com

لعمـر عجـوز طـرّقـت بـك إننـي عمير بن رمل لابن حرب أقودُها
بنفســي فــلا تقطـع فـؤادك ضلــة كـذلـك حـزنـي وعثهـا وصعـودُهـا

قال: فاستعدوا عليه عامر بن ربعيّ وكان الحاكم على بلاد عذرة وقالوا: يهجونا ويغشى بيوتنا وينسب بنسائنا فأباحهم دمه وطُلب فهرب، وغضبت عليه بثينة لهجائه أهلها جميعاً فقال جميل:

وما صائب من نائل قذفت به يــد وممــرّ العقــدتيــن وثيــقُ
له من خوافي النسر جمّ تطاير ونصــل كنصــل الــزاعبــي فتيــقُ
علــى نبعــة زوراء أمــا خطــامهــا فمثــن وأمــا عــودهــا فعتيــقُ
بـأوشـك قتـلاً منـك يـوم رميتنـي نــوافــذ لــم تظهــر لهــن خــروقُ
تفــرّق أهــلانــا بثيــن فمنهــم فــريــق أقــامــوا واستمــر فــريــقُ
فلو كنت خوّاراً لقد باح مضمري ولكننــي صلــب القنــاة عــريــقُ
كـان لـم يحـارب يـا بثيـن لـو أنـه تكشــف غمــاهــا وأنــت صــديــقُ

وبعد ذلك بمدة وقع الصلح بينه وبينها وأخذ منها موعداً للقائه فوجدوه عندها فأعذروا إليه وتوعدوه وكرهوا قتله خوفاً من أن ينشب بينهم وبين قومه حرب بدمه وكان قومه أشد بأساً من قوم بثينة فأعادوا شكواه إلى السلطان فطلبه طلباً شديداً فهرب إلى اليمن فأقام بها مدة. ومن شعره وهو في اليمن:

ألــمّ خيــال مــن بثينــة طــارق علــى النـأي مشتـاق إلـيّ وشـائـقُ
سرت من تلاع[1] الحجر حتى تخلصت إلــيّ ودونــي الأشعــرون وعــافــقُ
كأنّ فتيت المسك خالط نشرها تقــلّ بــه أردافهــا والمــرافــقُ
تقــوم إذا قــامــت بــه عــن فــراشهــا ويغدو به من حضنها من تعانقُ

ولم يزل في اليمن إلى أن عزل ذلك الوالي وانتقل أهل بثينة إلى ناحية الشام فرجع إليهم فشكا أكابر الحي إلى أبيه وكان ذا مال وفضل وقدر في أهله فناشدوه الله والرحم وسألوه كف ابنه عن فتاتهم وعن تشببه بها وما يفضحهم به بين الناس فوعدهم كفه ومنعه ما استطاع ثم انصرفوا فدعا به وقال له: يا بني حتى متى أنت أعمى في ضلالك ألا تأنف من أن تتعلق في ذات بعل يخلو بها وأنت عنها بمعزل تغرك بأقوالها وخداعها، وتريك الصفاء والمودة، وهي مضمرة لبعلها ما تضمره الحرة لمن ملكها فيكون قولها لك تعليلاً وغروراً فإذا انصرفت عنها عادت إلى بعلها على حالتها المبذولة إن هذا لذل وضيم وما أعرف أخيب سهماً ولا أضيع

(١) التلاع: ضد ما علا من الأرض، ما سفل منها. [القاموس المحيط، مادة: تلع].

Marfat.com

عمراً منك فأنشدك الله ألا كففت وتأملت في أمرك فإنك تعلم أن ما قلته حق ولو كان إليها سبيل لبذلت ما أملكه فيها، ولكن هذا أمر قد فات واستبدّ به من قدر له وفي النساء عوض؟! فقال له جميل: الرأي ما رأيت والقول كما قلت، ولكن هل رأيت قبلي أحداً قدر أن يدفع هواه عن قلبه أو ملك أن يسلي نفسه أو استطاع أن يدفع ما قضى عليه والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبي، أو أزيل شخصها عن عيني لفعلت ولا سبيل إلى ذلك وإنما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لي، ولكن أنا أمتنع من طروق هذا الحي والإلمام به ولو مت كمداً، وهذا جهدي ومبلغ ما أقدر عليه، وقام وهو يبكي فبكى أبوه ومن حضر جزعاً لما رأوا منه من حب بثينة ثم أنشد:

ألا مـن لقلـب لا يمـل فيـذهـل ... أفـق فـالتعـزي عـن بثينـة أجمـلُ
سـلا كـل ذي ودّ علمـت مكـانـه ... وأنـت بهـا حتـى الممـات مـوكـلُ
فمـا هكـذا أحببـت مـن كـان قبلهـا ... ولا هكـذا فيمـا مضـى كنـت تفعـلْ
فيـا قلـب دع ذكـرى بثينـة إنهـا ... وإن كنـت تهـواهـا تضـنّ وتبخـلُ
وقـد أيـأسـت مـن نيلهـا وتجهمـت ... ولليـأس إن لـم يقـدر النيـل أمثـلُ
وإلا فسلهـا نـائـلاً قبـل بينهـا ... وأبخـل بهـا مسـؤولـة حيـن تسـألُ
وكيف ترجى وصلها بعد بعدها ... وقد جد حبل الوصل ممن تؤملُ
وإن التـي أحببـت قـد حيـل دونهـا ... فكـن حـازمـاً والحـازم المتحـوّلُ
ففي اليأس ما يسلي وفي الناس خلة ... وفي الأرض عمن لا يواتيك معزلُ
بـدا كلـف منـي بهـا فتثـاقلـت ... وما لا يرى من غائب الوجد أفضلْ
هبينـي بـريئـاً نلتـه بظـلامـة ... عفـاهـا لكـم أو مـذنبـاً يتنصـلْ
فتاة من المرّان ما فوق حقوها[1] ... ومـا تحتـه منهـا نقـا يتهيـلُ

والتقى جميل بعمر بن أبي ربيعة[2] فقال له: يا جميل، قم بنا نذهب إلى زيارة بثينة. قال: قد أهدر لهم السلطان دمي إن وجدوني عندها وهاتيك أبياتها فاذهب إليها، فأتاها عمر حتى وقف على أبياتها فقال: يا جارية، أنا عمر بن أبي ربيعة فأعلمي بثينة مكاني فأعلمتها

---

(١) الحقو: الخصر. [القاموس المحيط، مادة: حقو].

(٢) هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، القرشي، أبو الخطّاب، أرقّ شعراء عصره، من طبقة جرير والفرزدق. ولم يكن في قريش أشعر منه، ولد في الليلة التي توفي فيها عمر بن الخطاب سنة ٢٣ هـ/ ٦٤٤ م. فسمي باسمه، كان يفد على عبد الملك بن مروان فيكرمه ويقرّبه. ورُفع إلى عمر بن عبد العزيز أنه يتعرّض لنساء الحج، ويشبب بهن. فنفاه إلى دهلك، ثم غزا في البحر فاحترقت السفينة به وبمن معه، فمات فيها غرقاً سنة ٩٣ هـ/ ٧١٢ م.

Marfat.com

فخرجت إليه في مباذلها وقالت: والله يا عمر لا أكون من نسائك اللاتي يزعمن أن قد قتلهن الوجد بك، فانكسر عمر وقال لها قول جميل:

وهمـــا قـــالتَـــا لـــو أن جميـــلاً عـــرض اليـــوم نظـــرة فـــرآنـــا
بينمـــا ذاك منهمـــا وأتـــانـــي أعمـــل النـــص سيـــرة زفيـــانـــا
نظـرت نحـو تـربهـا ثـم قـالـت قـد أتـانـا ومـا علمنـا منـانـا

فقالت: إنه استملى منك فما أفلح، وقد قيل: اربط الحمار مع الفرس فإن لم يتعلم من جريه تعلم من خلقه فخجل من قولها وانصرف.

ولما ضاقت بجميل الحيل وأراد الخروج إلى الشام هجم ليلاً على بثينة وقد وجد غفلة في الحي فقالت له: أهلكتني والله وأهلكت نفسك ويحك أما تخاف؟ فقال لها: هذا وجهي إلى الشام وإنما جئتك مودعاً فحادثها طويلاً ثم ودعها وقال: يا بثينة ما أرانا نلتقي بعد هذا وبكى بكاءً طويلاً وبكت، ثم قال وهو يبكي:

ألا لا أبـالـي جفـوة النـاس مـا بـدا لنـا منـك رأي يـا بثيـن جميـلُ
وما لم تطيعي كاشحاً أو تبدلي بنـا بـدلاً أو كـان منـك ذهـولُ
وإنـي وتكـراري الـزيـارة نحـوكـم بثيـن بـذي هجـر بثيـن يطـولُ
وإن صبـابـاتـي بكـم لكثيـرة بثيـن ونسيـانيكـم لقليـلُ

وخرج إلى الشام وطال غيابه فيها، ثم قدم وبلغ بثينة خبره فراسلته مع بعض نساء الحي تذكر شوقها إليه وَوَجْدَها به وطلبها للحيلة في لقائه وواعدته لموضع يلتقيان فيه فسار إليها وحدثها وبث إليها أشواقه وأخبرها خبره بعدها وقد كان أهلها رصدوها فلما فقدوها تبعها أبوها وأخوها حتى هجما عليهما فوثب جميل، وانتضى سيفه وشد عليهما فاتقياه بالهرب وناشدته بثينةُ اللَّهَ ألا انصرف وقالت له: إن أقمت فضحتني ولعل الحي أن يلحقوا بك. فأبى وقال: أنا مقيم، وامض أنت وليصنعوا بي ما أحبوا فلم تزل تنشده حتى انصرف وقد هجرته وانقطع التلاقي بينهما مدة وفي ذلك يقول:

ألـم تسـأل الـربـع الخـلاء فينطـق وهل تخبرنك اليوم بيداء سملقُ
وقفـت بهـا حتـى تجلـت عمـايتـي ومـل الـوقـوف إلا رجبـيّ المنـوّقُ
تعـزو إن كـانـت عليـك كـريمـة لعلـك مـن رق لبثنـة[1] تعتـقُ
لعمـركـم إن البعـاد لشـائقـي وبعـض بعـاد البيـن والنـأي أشـوقُ
لعلـك محـزون ومبـد صبـابـة ومظهر شكوى من أناس تفرقوا

(١) ترخيم لاسم بثينة.

Marfat.com

وبيض غريرات تثني خصورها إذا قمن أعجاز ثقال وأسوقُ[١]
عزائز لم يلقين بؤس معيشة يجنّ بهن الناظر المتنوّقُ[٢]
وغلغلت[٣] من وجد إليهن بعدما سريت وأحشائي من الخوف تخفقُ
معي صارم قد أخلص القين صقله له حين أغشيه الضريبة رونقُ
فلولا احتيالي ضقن ذرعاً بزائر به من صبابات إليهن أولقُ
تسوق بقضبان الأراك مفلجا يشعشع فيه القارسي المروّقُ
أبثينة للوصل الذي كان بيننا نضا مثل ما ينضو الخضاب فيخلف
أبثنة[٤] ما تنأين إلا كأنني بنجم الثريا ما نأيت معلقُ

وأقام مرة لا يلم بها ثم لقي ابني عمه روقا ومسعد فشكا إليهما ما به وأنشدهما قوله:

زورا بثينة فالحبيب مزور إن الزيارة للمحب يسيرُ
إن الترحل أن تلبس أمرنا وإعتاقنا قدر أحم بكورُ
إني عشية رحت وهي حزينة تشكو إليّ صبابة لصبورُ
وتقول بت عندي فديتك ليلة أشكو إليك فإن ذاك يسيرُ
غرّاء مبسام كأنّ حديثها درّ تحدّر نظمه منثورُ
مخطوطة المتنين مضمرة الحشا ريا الروادف خلفها ممكورُ
لا حسنها حسن ولا كدلالها دل ولا كوقارها توقيرُ
إن اللسان بذكرها لموكل والقلب صاد والخواطر صورُ
ولئن جزيت الودّ مني مثله إني بذلك يا بثين جديرُ

فقال له رَوْقٌ: إنك لعاجز ضعيف في استكانتك لهذه المرأة وتركك الاستبدال بها مع كثرة النساء ووجود من هو أجمل منها وإنك منها بين فجور أرفعك عنه أو ذل لا أحبه لك، أو كمد يؤديك إلى التلف، أو مخاطرة بنفسك لقومها إن تعذرت لهم بعد إعذارهم إليك، وإن صرفت نفسك عنها وغلبت هواك فيها وتجرعت مرارة الحزم وتصير نفسك عليها طائعة له أو كارهة ألفت ذلك وسلوت.

فبكى جميل وقال: يا أخي، لو ملكت اختياري لكان ما قلت صواباً ولكني لا أملك لي

---

(١) أسوق: جمع ساق. [القاموس المحيط، مادة: سوق].
(٢) المتنوّق: المترفّق. [القاموس المحيط، مادة: نوق].
(٣) غلغل: أسرع في سيره. [القاموس المحيط، مادة: غلغل].
(٤) ترخيم لاسم بثينة.

Marfat.com

اختياراً، ولا أنا إلا كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً، وقد جئتك لأمر أسألك أن لا تكدر ما رجوته عندك فيه بلوم، وأن تحمل على نفسك في مساعدتي.

فقال له: فإن كنت لا بد مهلكاً نفسك فاعمل على زيارتها ليلاً فإنها تخرج مع بنات عم لها إلى ملعب لهن فأجيء معك حينئذٍ سراً ولي أخ من رهط بثينة من بني الأحب نأوي عنده نهاراً فأسأله مساعدتك على هذا فتقيم عنده أياماً نهارك وتجتمع معها بالليل إلى أن تقضي أربك. فشكره ومضى رَوْقٌ إلى الرجل الذي من رهط بثينة فأخبره الخبر واستعهده كتمانه وسأله مساعدته فيه فقال له: لقد جئتني بإحدى العظائم ويحك إن في هذا معاداتي الحي جميعاً إن فطن به فقال: أنا أتحرّز في أمره من أن يظهر فواعده في ذلك ومضى إلى جميل فأخبره بالقصة فأتيا الرجل ليلاً فأقاما عنده وأرسل إلى بثينة بوليدة له بخاتم جميل فدفعته إليها فلما رأته عرفت فتبعتها وجاءته فتحدثا ليلتهما وأقام بموضعه ثلاثة أيام ثم ودعها وقال لها: عن غير قلى والله ولا ملل يا بثينة كان وداعي لك ولكني قد تذممت من هذا الرجل الكريم وتعريضه نفسه لقومه، وقد أقمت عنده ثلاثاً ولا مزيد على ذلك، ثم انصرف وقال في عذل رَوْقٍ له:

لقد لامني فيها أخ ذو قرابة ... حبيب إليه في ملامته رشدي
وقال أفق حتى متى أنت هائم ... ببثنة[1] فيها قد تعيد وقد تبدي
فقلت له فيها قضى الله ما ترى ... عليّ وهل فيما قضى الله من ردِّ
فإن يك رشداً حبها أو غواية ... فقد جئته ما كان مني على عمدِ
لقد لج ميثاق من الله بيننا ... وليس لمن لم يوف لله من عهدِ
فلا وأبيها الخير ما خنت عهدها ... ولا لي علم بالذي فعلت بعدي
وما زادها الواشون إلا كرامة ... عليّ وما زالت مودتها عندي
أفي الناس أمثالي أحب فحالهمْ ... كحالي أم أحببت من بينهم وحدي
وهل هكذا يلقى المحبون مثل ما ... لقيت بها أم لم يجد أحد وجدي

قيل: وقع بين بثينة وجميل هجر في غيرة كان غار عليها من فتى كان يتحدث إليها من بني عمها، فكان جميل يتحدث إلى غيرها، فيشق ذلك على بثينة وعلى جميل، وجعل كل واحد منهما يكره أن يبدي لصاحبه شأنه، فدخل جميل يوماً وقد غلب عليه الأمر إلى البيت الذي كان يجتمع فيه مع بثينة، فلما رأته جاءت إلى البيت ولم تبرز له، فجزع لذلك وجعل كل واحد منهما يطالع صاحبه وقد بلغ الأمر من جميل كل مبلغ فأنشأ يقول:

---

(١) ترخيم لاسم بثينة.

Marfat.com

لقد خفت أن يغتالني الموت عنوة وفي النفس حاجات إليك كما هيا
وإني لتثنيني الحفيظة كلما لقيتك يوماً أن أبثك ما بيا
ألم تعلمي يا عذبة الريق أنني أظل إذا لم أسق ريقك صاديا

فرقت له بثينة وقالت لمولاة لها كانت معها: ما أحسن الصدق بأهله. ثم اصطلحا فقالت له: أنشدني قولك:

تظل وراء الستر ترنو بلحظها إذا مر من أترابها من يروقُها

فأنشدها إياها فبكت وقالت: كلا يا جميل ومن ترى أنه يروقني غيرك.

وروى بعضهم عن عجوز من بني عذرة قالت: كنا على ماء لنا بالجناب وقد تجنبنا الجادّة لجيوش كانت تأتينا من قبل الشام تريد الحجاز وقد خرج رجالنا لسفر وخلفوا معنا أحداثاً فانحدروا ذات عشية إلى صرم قريب منا يتحدثون إلى جوار منهم فلم يبق غيري وغير بثينة إذا انحدر علينا منحدر من هضبة تلقانا فسلم ونحن مستوحشون وجلون فتأملته ورددت السلام فإذا جميل فقلت: أجميل؟ قال: أي والله، وإذا به لا يتماسك جوعاً فقمت إلى قعب لنا فيه أقط مطحون وإلى عكة فيها سمن ورب، فعصرتها على الأقط ثم أدنيتها منه وقلت: أصب من هذا فأصاب منه وقمت إلى سقاء فيه لبن فصببت عليه ماء بارداً فشرب منه، وتراجعت نفسه فقلت له لقد بلغت ولقيت شراً فما أمرك؟ قال: أنا والله في هذه الهضبة التي ترين منذ ثلاث ما أريمها أنتظر أن أرى فرجة فلما رأيت منحدر فتيانكم أتيتكم لأودعكم، وأنا عامد إلى مصر فتحدثنا ساعة، ثم ودعنا وشخص فلم تطل غيبته أن جاء ناعيه.

روي عن رجل كان شاهد جميلاً لما حضرته الوفاة بمصر قال: إنه دعاه فقال: هل لك في أن أعطيك كل ما أخلفه على أن تفعل شيئاً أعهده إليك؟ قال: فقلت: اللهم نعم، قال: إذا أنا مت فخذ حلتي هذه التي في عيبتي فاعزلها جانباً، ثم كل شيء سواها لك، وارحل إلى رهط بني الأحب من عذرة ـ وهم رهط بثينة ـ فإذا صرت إليهم فارتحل ناقتي هذه واركبها ثم البس حلتي هذه واشققها ثم اعل على شرف وصح بهذه الأبيات وخلاك ذم ثم أنشدني هذه الأبيات:

صدع النعيّ وما كنى بجميل وثوى بمصر ثواء غير قفولِ
ولقد أجرّ الذيل في وادي القرى نشوان بين مزارع ونخيلِ
قومي بثينة فاندبي بعويل وابكي خليلك دون كل خليلِ

قال: فلما قضى وواريته أتيت رهط بثينة ففعلت ما أمرني به جميل، فما استتمت الأبيات حتى برزت إليّ امرأة يتبعها نسوة قد فرعتهن طولاً، وبرزت أمامهن كأنها بدر قد برز

Marfat.com

في دجنة وهي تتعثر في مرطها حتى أتتني فقالت: يا هذا والله لئن كنت صادقاً لقد قتلتني، ولئن كنت كاذباً لقد فضحتني. قلت: والله ما أنا إلا صادق وأخرجت حلته فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها واجتمع نساء الحي يبكين معها ويندبنه حتى صعقت فمكثت مغشياً عليها ساعة ثم قامت وهي تقول:

وإن سلـوّي عـن جميـل لسـاعـة ... من الدهر ما حانت ولا حان حينُها
سـواء علينـا يـا جميـل بـن معمـر ... إذا مـت بـأسـاء الحيـاة ولينُهـا

وقيل: إنها كررت هذين البيتين حتى ماتت بعد ثلاثة أيام[1] من سماعها بموت جميل، وله فيها أشعار كثيرة ولو أنه لم يقل فيها سوى هذين البيتين لكفاها شهرة وفخراً وهما قوله من قصيدة طويلة هي من ضمن أشعاره:

هي البدر حسناً والنساء كواكب ... وشتـان مـا بيـن الكـواكـب والبـدرِ
لقد فضلت بثن على الناس مثل ما ... على ألف شهر فضلت ليلة القدرِ

بثينة ابنة المعتمد بن عباد

أمها الرميكية كانت بثينة هذه نحواً من أمها في الجمال والنادرة ونظم الشعر، ولما أحيط بأبيها ووقع النهب في قصره كانت في جملة من سبي ولم يزل المعتمد والرميكية عليها في وله دائم لا يعلمان ما آل إليه أمرها إلى أن كتبتْ إليهما وكان أحد تجار «إشبيلية» اشتراها على أنها جارية ووهبها لابنه فنظر في شأنها وهيئت له فأراد الدخول عليها فامتنعت وأظهرت نسبها، وقالت: لا أحل لك إلا بعقد وإن أذنت بمخاطبة والدي بذلك فعلت وإني أحب أن أكون قرينتك في سنَّة الله تعالى، فوقع عنده كلامها موقعاً عظيماً وداخله سرور زائد لكونه صاهر المعتمد بن عباد وإن كان في نكبته وأذن لها بما أرادت فكتبت لأبيها تستأذنه وكان الذي كتبته بخطها ما صورته:

اسمـع كـلامـي واستمـع لمقـالتـي ... فهـي السلـوك بـدت مـن الأجيـادِ
لا تنكـروا أنـي سبيـت وأننـي ... بنـت لملـك مـن بنـي عبـادِ
ملـك عظيـم قـد تـولـى عصـره ... وكـذا الـزمـان يـؤل لـلإفسـادِ
لمـا أراد الله فـرقـة شملنـا ... وأذاقنـا طعـم الأسـى مـن زادِ
قـام النفـاق علـى أبـي فـي ملكـه ... فـدنـا الفـراق ولـم يكـن بمـرادي
فخرجت هاربة فأعجزني امرؤ ... لـم يـأتِ فـي إعجـازه بسـدادِ

(١) كانت وفاتها سنة ٨٢ هـ/ ٧٠١ م.

Marfat.com

إذ بـاعنـي بيـع العبيـد فضمنـي مـن صـاننـي إلا مـن الأنكـادِ
وأرادنـي لنكـاح نجـل طـاهـر حسـن الخـلائـق مـن بنـي الأنجـادِ
ومضى إليك يسوم رأيك في الرضا ولأنـت تنظـر فـي طـريـق رشـادي
فعسـاك يـا أبتـي تعـرفنـي بـه إن كـان ممـن يـرتجـى لـودادِ
وعسـى رميكيـة الملـوك بفضلهـا تـدعـو لنـا بـاليُمـن والإسعـادِ

فلما وصل شعرها لأبيها وهو بأغمات واقع في شراك الكروب والأزمات سرّ هو وأمها بحياتها، ورأيا أن ذلك للنفس من أحسن أمنياتها إذ علمًا ما آل إليه أمرها، وجبر كسرها، إذ ذاك أخف الضررين، وإن كان الكرب قد ستر القلب منه حجاب وأشهد على نفسه بعقد إنكاحها من الشاب المذكور وكتب إليها أثناء كتابه:

بنيتـي كـونـي بـه بـرة فقـد قضـى الـدهـر بـإسعـافِـهِ

وأخبار المعتمد بن عباد تذيب الأكباد وقد أضربنا عنها خوف الخروج عن الموضوع.

بدور وقيل: قدور الساحرة

هي امرأة مصرية ساحرة كانت في زمان دلوكة، وكانت السحرة تعظمها وتقدمها ولما حل ما حل بفرعون والمصريين من الغرق في البحر الأحمر عند اتباعهم بني إسرائيل ولم يعد في مصر من الرجال المقدمين والأبطال من يقدر على حفظ البلاد بعثت دلوكة إلى بدور تقول لها: إننا قد احتجنا إلى سحرك وفزعنا إليك ولا نأمن أن يطمع فينا الملوك، فاعملي لنا شيئاً نغلب به من حولنا وقد كان فرعون يحتاج إليك فكيف وقد ذهب أكابرنا وبقي أقلنا.

فبنت بدور بَرْبي من حجارة في وسط مدينة منف وجعلت لها أربعة أبواب إلى جهة القبلي والبحري والشرق والغرب، وصوّرت فيه صور الخيل والبغال والحمير، والسفن والرجال وقالت لهم: قد عملت لكم عملاً يهلك به كل من أرادكم من أيّ جهة تؤتون منها براً وبحراً وهذا يغنيكم عن الحصن ويقطع عنكم مؤنة من أتاكم من كل جهة فإنهم إن كانوا في البر على خيل، أو بغال، أو إبل، أو في سفن، أو رجالة تحركت هذه الصور فيصيبهم في أنفسهم قيل: ولم تزل تلك العجوز تدبر مصر نحو أربعمائة سنة وكلما انهدم من تلك البَرْبي شيء لم يقدر على إصلاحه إلا هي أو ولدها أو ولد ولدها، ولما انقرض بيتها تهدّمت البَرْبي ولم يقدر أحد على إصلاحها ـ ذكر ذلك المقريزي[1].

---

(١) المقريزي: هو أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس، الحسيني، العبيدي، تقي الدين المقريزي. مؤرخ الديار المصرية، أصله من بعلبك، ونسبته ألى حارة المقارزة، من حارات بعلبك في أيامه. ولد=

Marfat.com

بديعة ابنة السيد سراج الدين الرفاعي

كانت ذات عرفان ويقين وبكاء وحنين أخذت عن أبيها وسمع منها الإمام محمد الوتري وغيره، وحدّثت ولها شعر عجيب ومنه قولها في مدح النبي ﷺ:

رسول الهدى أدعوك والقلب خاشع هلـوع فيـاللغـارة الأحمـديـةِ
عليـك تحيـاتـي ولـو أن همتـي حطيطـة حـدّ عـن مقـام التحيـةِ
فـإنـك مصبـاح الـوجـودات كلهـا وشمـس أسـاريـر الهـدى للبـريـةِ

ولها كرامات ومناقب وأحوال ظاهرة وكانت من الحياء والدين وعلم الشريعة بمنزلة رفيعة، وتوفيت ـ رضي الله عنها ـ سنة ٨٩٠ هجرية.

بذل المغنية

هي من مولدات المدينة ربيت بالبصرة وهي من المتقدمات الموصوفات بكثرة الرواية للأغاني. قيل: كانت تغني ثلاثين ألف صوت ولها كتاب في الأغاني يشتمل على ١٢ ألف صوت وكانت ظريفة الوجه لطيفة المحاضرة، وأخذت عن أبي سعيد مولى فائد ورحمانة وفليح وابن جامع[١] وإبراهيم الموصلي[٢] وطبقتهم، وقرأت على جحظة البرمكي، واشتراها جعفر بن محمد الهادي فوصفت لمحمد الأمين بن الرشيد[٣] فبعث إلى جعفر يسأله أن يريه

= سنة ٧٦٦ هـ/ ١٣٦٥ م في القاهرة، ونشأ فيها، وتوفي فيها سنة ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م. ولي فيها الحسبة والخطابة والإمامة مرّات، اتصل بالملك الظاهر برقوق، دخل دمشق مع ولده الناصر سنة ٨١٠ هـ. عُرض عليه قضاؤها فأبى، وعاد إلى مصر له مؤلفات كثيرة.

(١) ابن جامع: هو إسماعيل بن جامع المتوفي سنة ٨٠٨ م. مغنّ مكّي كبير. له مع الرشيد وأدباء زمانه أخبار ذكرها صاحب الأغاني.

(٢) هو إبراهيم بن ماهان بن بهمن، الموْصلي التميمي بالولاء، أبو إسحاق النديم، أوحد زمانه في الغناء واختراع الألحان، شاعر من ندماء الخلفاء، فارسي الأصل، من بيت كبير في العجم. انتقل والده إلى الكوفة، فولد بها سنة ١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م. مات أبوه وهو صغير فكفله بنو تميم وربّوه، فنسب إليهم. رحل إلى الموصل فأقام سنة يتعلّم الضرب بالعود، فنسب إليها أيضاً. أجاد الغناء الفارسي والعربي. كانت له عند الخلفاء منزلة حسنة، أول من سمعه منهم هو المهدي العباسي، ثم حبسه لشربه النبيذ، فحذق القراءة والكتابة في الحبس، ولما ولي موسى الهادي، أغدق عليه نعمه، وكذلك هارون الرشيد من بعده، وجعله من ندمائه وخاصته، استصحبه معه إلى الشام، مرض فعاده الرشيد. مات في بغداد سنة ١٨٨ هـ/ ٨٠٤ م.

(٣) هو محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور، الأمين العباسي، خليفة عباسي. ولد في رصافة بغداد سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٧ م بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة ١٩٣ هـ. بعهد منه، فولى أخاه المأمون خراسان وأطرافها. وكان المأمون ولي العهد من بعده. فلما كانت سنة ١٩٥ هـ، أعلن الأمين خلع =

Marfat.com

إياها فأبى، فزاره محمد إلى بيته فسمع شيئاً لم يسمع مثله فقال لجعفر: يا أخي بعني هذه الجارية.

فقال: يا سيدي، مثلي لا يبيع جارية. قال: فهبها لي. قال: هي مدبرة منزلي فاحتال عليه محمد حتى أسكره وأمر ببذل فحملت معه إلى الحراقة وانصرف بها فلما انتبه جعفر سأل عنها فأخبر بخبرها فسكت، فبعث إليه محمد من الغد فجاءه وبذل جالسة فلم يقل شيئاً فلما أراد جعفر أن ينصرف قال محمد: أوقروا حراقة ابن عمي دراهم فأوقرت. قيل: كان مبلغ المال ألف ألف درهم وبقيت بذل في دار محمد إلى أن قتل، ثم خرجت، فكان ولد جعفر وولد محمد يدّعون ولاءها، فلما ماتت ورثها عبد الله بن محمد الأمين.

وقيل: وهب لها محمد من الجواهر شيئاً لم يملك أحد مثله فكانت تخرج منه الشيء بعد الشيء فتبيعه بالمال العظيم فكان ذلك معتمدها مع ما يصل إليها من الخلفاء إلى أن ماتت وعندها منه بقية عظيمة، ولم تقبل أن تتزوج.

وقد رغبت إليها وجوه القوّاد والكتاب والهاشميين، وكان يهواها علي بن هشام ويكتم ذلك وهجرته مدة فاسترضاها، وكان إبراهيم بن المهدي يعظمها ويتوافى لها ثم تغير بعد ذلك استغناء بنفسه عنها فسارت إليه فدعت بعود وغنت في طريقة واحدة وإيقاع واحد وأصبع واحدة مائة صوت لم يعرف إبراهيم منها صوتاً واحداً، ثم وضعت العود وانصرفت فلم تدخل داره بعد ذلك حتى طال طلبه لها وتضرعه إليها في الرجوع إليه.

وقيل: إن إسحاق بن إبراهيم الموصلي خالف بذلاً في نسبة صوت غنته بحضرة المأمون[1] فأمسكت عنه ساعة ثم غنت ثلاثة أصوات وسألت إسحاق عن صانعها فلم يعرفه

= أخيه المأمون من ولاية العهد، فنادى المأمون بخلع الأمين في خراسان، وتسمّى بأمير المؤمنين. وجهّز الأمين وزيره ابن ماهان لحربه، وجهّز المأمون طاهر بن الحسين، فالتقى الجيشان، فقُتل ابن ماهان وانهزم جيش الأمين، فتتبعه طاهر بن الحسين وحاصر بغداد حصاراً طويلاً انتهى بقتل الأمين. قُتل بالسيف بمدينة السلام، وكان الذي ضرب عنقه مولى لطاهر، بأمره سنة ١٩٨ هـ/ ٨١٣ م. كان الأمين أبيض، طويلاً، سميناً، جميل الصورة، شجاعاً، أديباً، رقيق الشعر، مُكثراً في إنفاق الأموال، سيّئ التدبير، يؤخذ عليه انصرافه إلى اللهو ومجالسة الندماء.

(١) هو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد بن المهدي بن أبي جعفر المنصور، أبو العباس، سابع الخلفاء العباسيين في العراق، وأحد أعظم الملوك، في سيرته وعلمه وسعة ملكه ولد سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٦ م. نفذ أمره من إفريقيا إلى أقصى خراسان وما وراء النهر والسند ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة ١٩٨ هـ. فتمم ما بدأ به جده المنصور من ترجمة كتب العلم والفلسفة. أتحف الفلاسفة، فبعثوا إليه بعدد كبير من كتب أفلاطون، وأرسطو، وأبقراط، وجالينوس، وإقليدس، وبطليموس وغيرهم. فاختار لها مهرة التراجمة، فتُرْجِمَت. حضّ الناس على قراءتها، فقامت دولة الحكمة في أيامه. قرّب =

Marfat.com

فقالت: والله يا أمير المؤمنين هي لأبيه أخذتها من فيه فإذا كان هذا لا يعرف غناء أبيه فكيف يعرف غناء غيره فاشتدّ ذلك على إسحاق حتى رؤي في وجهه.

برقا جارية علاء الدين البصري

قال الرياشي: اشترى علاء الدين البصري جارية على أرفع ما يكون من الجمال والفصاحة فكلف بها وكان مسرفاً فأنفق ماله عليها ولم يبق شيئاً، فأشارت عليه بأن يبيعها شفقة عليه، فلما حضر بها إلى السوق أخذت إلى ابن معمر وكان عاملاً على البصرة فاشتراها بمائة ألف درهم فلما قبض المال وهمَّ بالانصراف أنشدت:

هنيئاً لك المال الذي قد حويته ... ولم يبقَ في كفّيّ غير التذكرِ
أقول لنفسي رهن غمّ وكربة ... أقلّي فقد بان الحبيب أو أكثري
إذا لم يكن للأمر عندي حيلة ... ولم تجدي شيئاً سوى الصبر فاصبري

فاشتد بكاء مولاها، وأنشد:

فلولا قعود الدهر بي عنك لم يكن ... يفرّقنا شيء سوى الموت فاصبري
أروح بهمّ في الفؤاد مبرّح ... أناجي به قلباً طويل التفكرِ
عليك سلام لا زيارة بيننا ... ولا وصل إلا أن يشاء ابن معمرِ

فقال ابن معمر: قد شئت خذها ولك المال فانصرفا راشدين فوالله لا كنت سبباً لفرقة محبَّينِ (انظر إلى كرم هذا الأمير) وبقيت عند مولاها إلى أن ماتت وهما في نعمة وأمان، وقد أعاد الله لهما سعدهما وبقيا أحسن مما كانا عليه حين اشتراها.

بربارة القدّيسة[1]

كانت عذراء ذات شهرة معتبرة في الكنيسة اليونانية والرومانية يقال: إنها نالت إكليل الشهادة في «إليوبوليس»[2] سنة ١٣٠٦ للميلاد وفي «نيقوميديا» من «بشينيا» سنة ١٢٣٥ [م] وإنها ولدت في «إليوبوليس» من مصر من أبوين وثنيين وإن أباها حبسها في برج خوفاً من أن

= العلماء، والفقهاء، والمحدثين، والمتكلمين، وأهل اللغة، والأخبار، والمعرفة بالشعر والأنساب. وأطلق حرية الكلام للباحثين، وأهل الجدل والفلسفة، وفي السنة الأخيرة من حياته ابتدع فكرة خلق القرآن. كان فصيحاً مفوّهاً، واسع العلم، محبّاً للعفو. من كلامه: لو عرف الناس حبّي للعفو لتقرّبوا إليّ بالجرائم. توفي بذندون سنة ٢١٨ هـ/ ٨٣٣ م. دفن في طرسوس.

(١) بربارة: عذراء شهيدة قدّيسة كرّمها المسيحيون منذ القرن السابع.

(٢) إليوبولس: أو هليوبولس وهي مدينة بعلبك اللبنانية تعود إلى العهد الفنيقي. مدينة الشمس، مستعمرة رومانية في عهد أغسطس في القرن الأول، مركز عبادة جوبيتر، شيّد فيها الرومان هياكل رائعة.

Marfat.com

تؤخذ منه لجمالها البارع، فبينما كانت في الحبس سمعت بوعظ «أوريجانوس» فكتبت إليه طالبة منه أن يعلمها الديانة المسيحية فأرسل إليها أحد تلاميذه فعلمها الديانة المسيحية وعمدها.

وقيل: إنه لما بلغ أباها ذلك سلمها إلى الوالي فعذبها عذاباً مبرحاً فتهيأ لها الهرب إلى أحد الجبال فجدّ في طلبها والدها إلى أن أدركها فاحتز بالسيف رأسها. ويقال: إنه أصيب وهو راجع بصاعقة مات بها قصاصاً له، ومن ثَمَّ اتخذت محامية للملاحين في النوء وللطبجية وتصور غالباً وبجانبها برج ولها عيد يحتفل به في ٤ كانون الأول ومن عادة أهالي الشرق أن يتخذوا ليلة عيدها حلويات من قطائف وعوّامات ونحوها وأن يطوفوا على البيوت مساخر مؤلفة من أولاد ورجال قد غيروا زيهم وصبغوا وجوههم بالسواد ولا يعلم بالتحقيق أصل هذه العادة وربما كانت تذكار سعي أبيها مع جماعة من الشرط في طلبها، وربما كان الشرط من السودان فيكون ذلك أصلاً لصبغ الوجوه بالسواد.

برنيقة ابنة لاغوس[١] وأنتيفونه

كانت من أجمل وأعقل نساء زمانها صاحبة رأي صائب، وفكر ثاقب. ولما تزوّج «بطليموس الأول»[٢] بـ «أورديفي» بنت ملك سوريا توجهت في موكبها «برنيقة» وكان لها احتفال عظيم، ومن جمالها ومهارتها وإتقانها تزوّج بها «بطليموس» وصارت زوجة ثالثة له وأقنعته بأن يجعل ابنها «بطليموس فيلازلفوس»[٣] خليفة له دون ابن آخر له أكبر منه من «أورديفي» وقد شهر حكمتها وفضلها كل من «جلوترخوس» و«شيوكرأتوس» وبعد وفاتها قضى بها بإكرامات إلٰهية.

برنيقة ابنة بطليموس الثاني

الملقب «فيلازلفوس» وزوجته، «أنطيوخس الثاني»[٤]، ملك سوريا الملقب بـ «توس» فإن «أنطيوخس» عقد معاهدة سنة ٢٩٤ قبل الميلاد قيل بموجبها: أن يطلق زوجته «لبوديكة»

---

(١) لاغوس: والد بطليموس أحد قوّاد الإسكندر وجدّ البطالسة.

(٢) بطليموس الأول: هو سوتير المخلّص ولد سنة ٣٦٠ ق.م ابن لاغوس ومؤسس السلالة. من قوّاد الإسكندر الكبير. جعل الإسكندرية عاصمته، وأسس فيها خزانة للكتب. توفي سنة ٢٨٣ ق.م.

(٣) بطليموس فيلازلفوس: أو فيلادلفوس أو بطليموس الثاني ولد سنة ٢٨٣ ق.م حامي الفنون والآداب، أنشأ مكتبات ومتاحف، وترك آثاراً عمرانية أهمها منارة الإسكندرية إلى عهده تعود ترجمة التوراة السبعينية، مات سنة ٢٤٦ ق.م.

(٤) أنطيوخس الثاني: اسم ملك من ملوك السلوقيين في سوريا.

Marfat.com

ويتزوج «برنيقة»، لكن عند موت «فيلازلفوس» بعد ذلك بسنتين أرجع «أنطيوخس» «لبوديكة» وطلق «برنيقة» في دورها ولكن «لبوديكة» لم تركن إلى «أنطيوخس» فدست إليه سماً مات به، وهربت «برنيقة» من وجه «لبوديكة» إلى دفنى فقتلها هناك مع ابنها وأتباعها قوم من حزب «لبوديكة».

برنيقة ابنة ماغاس ملك القيروان(١)

هي زوجة «بطليموس الثالث»(٢) ملك مصر الملقب «أفرجيتس» وعذبها أبوها «بطليموس» هذا ومات بعد ذلك بقليل وأما أمها فكانت راغبة جداً عن اتخاذ هذا القرين لابنتها ولكي تمنع تزويجها به عرضتها على «ديمتريوس بوليورستس»(٣)، ولكن عند وصول «ديمتريوس» إلى القيروان ليتخذها زوجة علق قلب أمها به فغاظ «برنيقة» تفضيل «ديمتريوس» لأمها عليها فسعت في قتله وهو على ذراعي الملكة وحينئذٍ ذهبت إلى مصر وتزوّجت بـ«أفرجيتس» وعند رجوع زوجها من سفره إلى سوريا، فإيفاء لنذر كانت نذرته قدّمت شعرها إلى الزهرة، ولما علم «بطليموس الرابع»(٤) الملقب بـ «فيلوباتر» هذه التقدمة أمر بقتلها فقتلت وذلك عند جلوسه على سرير الملك.

برنيقة ابنة بطليموس الثامن(٥)

الملقب «لاسيروس» ملك مصر وتسمى أيضاً «كليوباترة» وهي زوجة إسكندر الثاني أي «بطليموس العاشر»(٦) أجلسها أهل الإسكندرية على تخت الملك بعد وفاة أبيها سنة ٨١ قبل الميلاد، فقبل إسكندر الذي جعل ملكاً لـ «سلابان» بأن يتخذها زوجة ويشاركها في الملك إلا أنه بعد أن تزوّج بها بتسعة عشر يوماً سعي في قتلها ويقال: إن ذلك غاظ أهالي الإسكندرية جداً فخرجوا عليه وقتلوه.

---

(١) القيروان: مدينة تونسية مركز ولاية، عاصمة الأغالبة في القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، ثم الفاطميين إلى جانب المهدية، أنشأها عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م. أهم آثارها جامع سيدي عُقبة. معجم البلدان، ج ٤/ ص٤٧٦.

(٢) بطليموس الثالث: أو أفرجانس أو أفرجيتس أي المحسن ولد سنة ٦٤٦ ق.م. انتصر على سلوقس كالينيكس ملك سوريا وعلى الفرس. بلغت الدولة في عهده أوج عزّها، شيّد معابد أدفو.

(٣) ديمتريوس بوليورستس: ملك من ملوك السلوقيين الذين حكموا سوريا.

(٤) بطليموس الرابع: أو فيلوپاتور ولد سنة ٢٢١ ق.م. هزم أنطيوخوس الثالث في معركة رافيا أو رفح سنة ٢١٧ ق.م. توفي بطليموس الرابع سنة ٢٠٣ ق.م.

(٥) بطليموس الثامن: ملك من الملوك الهلنستيين الذين حكموا مصر، وعرفوا بالبطالسة، أو اللاجيين.

(٦) بطليموس العاشر: ملك من الملوك الهلنستيين الذين حكموا مصر، وعرفوا بالبطالسة، أو اللاجيين.

Marfat.com

برنيقة ابنة بطليموس الحادي عشر[١]

الملقب بـ «أفليتس» وهي أكبر أخت لـ «كليوباترة» المشهورة نودي باسمها ملكة عند خلع أبيها سنة ٥٨ قبل الميلاد، وكانت تحب أن تتزوّج بأمير من دم ملكي فأرسلت إلى سوريا في طلب «سلوقس كيبوساكتس»[٢] الذي كان يدَّعي أنه من سلالة السلوقيين الملكية، ولما وجدت ما كان عليه من الدناءة أمرت بخنقه بعد ذلك بأيام قليلة، ثم تزوّجت بـ «أرخيلاوس» من «كومونا» الذي كان يدعي أنه ابن «متريداتس أوباتور» وإن «أفلوس غابينوس» الذي كان يحاول رد «أفليتس» إلى تخت الملك حاربها فكسرها هي وزوجها في ثلاث معارك متوالية سنة ٥٥ قبل الميلاد، وقتل «أرخيلاوس» وأول أعمال «أفليتس» بعد جلوسه على تخت الملك أنه أمر بقتل ابنته المذكورة.

برنيقة ابنة كوستوبارس وسالومي

هي أخت «هيرودس»[٣] الكبير[٤] ملك اليهودية تزوّجت بابن عمها «أرسطو بولس» فعيَّرها «أرسطو بولس» بدناءة أصلها فشكته إلى أمها فزاد بذلك العدوان على زوجها وبعد أن قتل سنة ٦ قبل المسيح تزوّجت بـ «ثوربون» خال «أنتيباتر» وهو أكبر ابن لـ «هيرودس» وبعد وفاة [«ثوربون»][٥] ذهبت مع أمها إلى رومية وبقيت هناك إلى أن أدركتها المنية وهي أم «أغريبال الأول».

برنيقة ابنة أغريبال الأول

تزوّجت «هيرودس»[٦] ملك «كلخيدة» فرزقت منه ولدين وعند موته سنة ٤٧ بعد الميلاد بقيت مع أخيها «أغريبا» مدة، ثم تزوّجت بـ «وليمون» ملك «كليكية»[٧]، ثم تركته

---

(١) بطليموس الحادي عشر: ملك من الملوك الهلنستيين الذين حكموا مصر، وعرفوا بالبطالسة، أو اللاجيين.

(٢) سلوقس كيبوساكتس: ملك من ملوك سوريا السلوقيين.

(٣) هيرودس: هو اسم لأربعة ملوك يهود.

(٤) هيرودس الكبير: أو هيرودس الأول ولد سنة ٧٢ ق.م في عسقلان. ملك اليهودية من سنة ٤٠ ق.م. حتى ٤ ق.م. جمّل هيكل أورشليم، وبنى هيكل السامرة، اشتهر بحبه للعمران. وهو من أمر بذبح أطفال بيت لحم. مات سنة ٤ ق.م.

(٥) وررت في الأصل: «ثوريون»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

(٦) هيرودس: ملك من ملوك اليهود، شارك في قمع المسيحيين، وحارب انتشار المسيحية.

(٧) كيليكية: أو قليقية (Cilicie)، منطقة في تركيا الآسيوية جنوب شرقي الأناضول على المتوسط. =

Marfat.com

وكانت مقيمة في بيت أخيها عندما احتج «بولس»[١] الرسول أمامه في قيسريا[٢] وفي حصار أورشليم رآها «نيطس» فسباه حسنها، فأخذها معه إلى رومية، فرغب أن يتزوّج بها ولكن اضطره الرأي العام في رومية إلى إرجاعها إلى اليهودية ضدّ إرادته وإرادتها وقد بنى «راسين»[٣] على فراقهما تراجيدية مشهورة.

بريجيتا القديسة

ولدت في «أسوج»[٤] سنة ١٣٠٢ للميلاد، وتوفيت في «رومية» في ٢٣ تموز سنة ١٣٧٣ [م]، ويظن أنها ابنة «برجر» وهو برنس أسوجي من سلالة ملوك الغطيط، ولما كان عمرها ١٦ سنة تزوّجت بـ «أولغو» فكان لها منه ثمانية أولاد والكبيرة منهم جعلت في درج القديسين الروماني باسم القديسة «كاترينا» الأسوجية، ثم نظر الوالدان العفة وبنيا مستشفى خيرية كانا يخدمان فيه بنفسهما وسافرا لزيارة «سنتياغوري كومبستلا»، وبينما كانا راجعين عزم «أولغو» على دخول دير «القسستري»، وتوفى سنة ١٣٤٤ [م] وحينئذٍ قسَّمت زوجته الأملاك بين أولادها وبنت ديراً كبيراً في «ورستينا» جعلت فيه ٢٥ راهباً وستين راهبة وذلك على قانون مار «أوغسطنيوس»[٥] فصرفت هناك سنتين منفردة لا تقابل أحداً، ثم ذهبت إلى رومية فبنت هناك منزلاً للمسافرين والطلبة من الأسوجيين وذهبت إلى أورشليم لزيارة الأماكن المقدّسة، ثم رجعت إلى رومية فثبتها البابا «بونيفاشيوس التاسع» سنة ١٣٩١ [م]، والكنيسة الرومانية تعيد لها في ٨ تشرين الأول، وكانت «بريجيتا» مشهورة في «رومية» على

= عُرفت قديماً بأرمينية الصغرى. من مدنها أدنة وطرسوس. كانت مملكة مستقلة في العهد الصليبي من سنة ١١٩٨ م ـ ١٣٧٥ م.

(١) بولس: قديس اشتهر بلقب رسول الأمم. كان من أعنف مضطهدي المسيحية، ثم اهتدى على طريق الشام، وعمّده حَنَنْيا سنة ٣٣ م. اندفع بعدها متفانياً في التبشير بين مدن آسيا الصغرى واليونان. كان اسمه شاوُل قبل اهتدائه، استشهد في روما بقطع الرأس سنة ٦٧ م. له أربع عشرة رسالة موجّهة إلى الكنيسة، أو إلى بعض تلاميذه.

(٢) قيساريا: أو قيصرية، مدينة تركية في الأناضول عاصمة كبدوقية القديمة. من أساقفتها القديس باسيليوس، تنازعها العرب والبيزنطيون. احتلها السلجوقيون سنة ١٠٨٢ م.

(٣) جان راسين (Racine): شاعر فرنسي ولد سنة ١٦٣٩ م، من شعراء العصر الكلاسيكي، استوحى فنّه من الأدب اليوناني، له: «أندروماك»، «فيدر»، «بريتانيكوس»، «أستير»، «عتالية». امتازت تمثيلياته بوحدة الموضوع وإنسانية الأشخاص العميقة، وصفاء الشعر.

(٤) أسوج: أو السويد (Sverige)، مملكة في أوروبا الشمالية باسكندناڤيا بين نروج وفنلندا على خليج بوتنيا وبحر البلطيق، ومضايق بحر الشمال.

(٥) أوغسطنيوس: أوغسطينس الكَنتِربَري المتوفي سنة ٦٠٤ م، قديس أيطالي أرسله الباب غريغورس الأول لتبشير الإنكليز.

Marfat.com

الأكثر بواسطة إعلاناتها وعلى الخصوص المتعلقة بآلام يسوع المسيح، والحوادث التي كانت مزمعة أن تجري في بعض الممالك وقد كتبت عن لسانها ولكن طعن «برسون» في تلك الأخبار بعبارات قاسية إلا أن مجمع باسل ثبتها بعد أن فحصها بالتدقيق «جون دوترا كريماتا» ومن جملة كتاباتها: خطاب في مدح مريم العذراء، وصلوات عن أم المسيح ومحبتها.

بريرة مولاة عائشة

بنت أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ وكانت مولاة لبعض بني هلال. وقيل: كانت مولاة لأبي أحمد بن جحش. وقيل: كانت مولاة أناس من الأنصار فكاتبوها ثم باعوها من عائشة فأعتقتها ولما أرادت عائشة أن تشتري بريرة اشترطوا عليها الولاء فقال النبي ﷺ: «**الولاء لمن أعطى الثمن**»[١] أو «**لمن ولي النعمة**»[٢]. وكان اسم زوجها مغيثاً، وكان مولى فخيرها رسول الله فاختارت فراقه، وكان يحبها فكان يمشي في طرق المدينة وهو يبكي واستشفع إليها برسول الله فقال لها فيه فقالت: أتأمر؟ قال: «**بل أشفع**»[٣]، قالت: فلا أريده، وكان عبداً وقد جعل النبي عدة بريرة حين فارقها زوجها عدة المطلقة.

وروي عن عبد الملك بن مروان[٤] أنه قال: كنت أجالس بريرة بالمدينة فكانت تقول

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٢٥). وأبو داود في السنن (٢٩١٦). السعد في الطبقات الكبرى (٨: ١٨٨).

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (العتق: ١١). والنَّسائي في السنن (الطلاق ب: ٣٢). وأحمد في المسند (٦: ١١٥).

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٢٥). وأبو داود في السنن (٢٩١٦). السعد في الطبقات الكبرى (٨: ١٨٨).

(٤) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو الوليد، من أعاظم الخلفاء ودهاتهم. ولد سنة ٢٦ هـ/ ٦٤٦ م. نشأ في المدينة. كان فقيهاً واسع العلم، متعبداً، ناسكاً شهد يوم الدار مع أبيه. استعمله معاوية على المدينة وهو ابن ست عشر سنة. انتقلت إليه الخلافة بموت أبيه سنة ٦٥ هـ. فضبط أمورها وظهر بمظهر القوة، فكان جباراً على معانديه، قوي الهيبة. اجتمعت عليه كلمة المسلمين بعد مقتل مصعب وعبد الله ابني الزبير في حربهما مع الحجاج. نقلت في أيامه الدواوين من الفارسية والرومية إلى العربية، وضبط الحروف بالنقط والحركات. وهو أول من صك الدنانير في الإسلام، وأول من نقش بالعربية على الدراهم. وكان عمر بن الخطاب قد صك الدراهم. وكان يقال: «معاوية للحلم وعبد الملك للحزم». يقول الشعبي: «ما ذاكرت أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه، إلا عبد الملك، فما ذاكرته حديثاً ولا شعراً إلا زادني فيه»، كان عبد الملك بن مروان أبيض، طويلاً، أعين، رقيق الوجه، أفوه، مفتوح الفم، مشبّك الأسنان بالذهب، مقرون الحاجبين، مشرف الأنف، ليس بالنحيل ولا البدين، أبيض الرأس واللحة، نقش خاتمه: «آمنت بالله مخلصاً»، توفي في دمشق سنة ٨٦ هـ/ ٧٠٥ م.

Marfat.com

لي: يا عبد الملك، إني أرى فيك خصالاً، وإنك لخليق أن تلي هذا الأمر فإن وليته فاحذر الدماء فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرجل ليدفع عن باب الجنة بعد أن ينظر إليها بملء محجمة من دم يريقه من مسلم بغير حق**»(١).

بركة خوند والدة السلطان الأشرف(٢)

كانت أمة مولدة، فلما أقيم ابنها في مملكة مصر عظم شأنها وحجت سنة ٧٧٠ [م] بتجمل كثير وبرج زائد وعلى محفتها العصائب السلطانية والكؤوسات تدق معها ومعها ما يجل وصفه من ذلك قطار جمال محملة مخائر(٣) قد زرع فيه البقل والخضروات وعند قدومها خرج السلطان بعساكره إلى لقائها، وسار إلى البويب(٤) حتى تقابل معها وسار بركابها حتى وصلت إلى مصر، وكانت خيرة عفيفة لها بر كثير ومصروف تحدث الناس بحجتها عدة سنين لما كان لها من الأفعال الجميلة في تلك المشاهد الكريمة، وكان لها اعتقاد في أهل الخير ومحبة في الصالحين. ومن مآثرها المدرسة المشهورة بمدرسة أم السلطان خارج باب زويلة(٥) بقرب القلعة بمصر يعرف خطها الآن بخط التبانة وكان موضعها مقبرة أنشأتها سنة إحدى وسبعين وسبعمائة وعملت بها درساً للشافعية ودرساً للحنيفية، وعلى بابها حوض ماء للسبيل وهي من المدارس الجليلة وفيها دفن الملك الأشرف بعد قتله وبقيت مدة تجتمع فيها الطلبة والمدرسون يدرسون فيها جميع العلوم حتى صارت أخيراً جامعاً بمعرفة أحد ولاة مصر وهو مقام الشعائر لغاية الآن.

وتوفيت الست المشار إليها سنة ٧٧٤ هجرية، ودفنت بمدرستها المذكورة واتفق حين ماتت أنه أنشد الأديب شهاب الدين أحمد بن يحيى الأعرج هذين البيتين:

في ثامن العشرين من ذي القعدة كانت صبيحة موت أم الأشرفِ
فالله يرحمها ويعظم أجرها ويكون في عاشور موت اليوسفي

فكان كما قال وغرق الحائل يوسف في شهر محرم سنة ٧٧٥ [هـ].

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧: ٢٩٨). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٩٩٢١). وابن كثير في البداية والنهاية (٩: ٦٢).

(٢) السلطان الأشرف: هو قانصوه الغوري، سلطان المماليك. البرجيّين، حكم من سنة ١٥٠١ ـ ١٥١٦ م. قتله سليم الأول في مرج دابق من أنحاء سوريا.

(٣) المخر: مَخَرَ الأرض شقّها للزراعة، ولعل المقصود هنا ما نعرفه اليوم بأحواض الزرع.

(٤) البويب: مدخل أهل الحجاز إلى مصر. معجم البلدان، ج ١/ ص ٦٠٧.

(٥) باب زويلة: باب عظيم في القاهرة بناه بدر الجمّالي على أيام المستنصر الفاطمي.

Marfat.com

برة ابنة عبد المطلب الهاشمية

كانت من الشاعرات الأديبات ذوي المعاني الرائقة، والألفاظ الموزونة المتناسقة رثت أباها عبد المطلب في حال حياته مع أخواتها بناء على طلبه بقولها:

أعينـــيّ جـــودا بـــدمـــع درر ... علـى طيـب الخيـم والمعتصـرِ
علـى مـا جـدَّ الجـدّ وارى الـزنـاد ... جميـــل المحيـــا عظيـــم الخطـــرِ
على شيبة الحمد ذي المكرمات ... وذي المجـــد والعـــز والمفتخـــرِ
وذي الحلم والفضل في النائبات ... كثيـــر المكـــارم جـــم الفخـــرِ
لـــه فضـــل مجـــد علـــى قـــومـــه ... منيـــر يلـــوح كضـــوء القمـــرِ
أتتـــه المنـــايـــا فلـــم تشـــوه ... بصـرف الليـالـي وريـب القـدرِ

بصيص جارية ابن نفيس[1]

كانت أعجوبة وقتها في الحسن والغناء ويتمنى كل من سمع بها رؤيتها ولو بذهاب نفسه ولشدّة رغبة الناس في سماع صوتها قال بعضهم فيها هذه الأبيات:

بصيـص أنـت الشمـس مـزدانـة ... فـإن تبـدّلـت فـأنـت الهـلالُ
سبحـانـك اللهـم مـا هكـذا ... فيمـا مضـى كـان يكـون الجمـالُ
إذا دعـت بـالعـود فـي مشهـد ... وعـاونـت يمنـى بيـدّ الشمـالُ
غنـت غنـاء يستفـز الفتـى ... حـذقـا وزان الحـذق منهـا الـدلالُ

وتذاكروا بخل مزيد أبي إسحاق في مجلسها يوماً وكان من جملتهم ابن مصعب فقالت: أنا آخذ منه درهماً فقال مولاها: إن فعلت جعلتك حرة وكسوتك ثوب وشيٍ، وأولمت لك يوماً فقالت: ارفع الغيرة، فقال: إن رفع رجليك لم أقل شيئاً فخرج ابن مصعب فرآه في مسجد بالمدينة فقال له: يا أبا إسحاق أما تحب أن ترى «بصيص» جارية ابن نفيس؟ فقال: امرأتي طالق إن لم يكن الله ساخطاً عليّ فيها، وإن لم أكن أسأله أن يرينيها منذ سنة فما يفعل.

---

(١) هو فتح الله بن معتصم بن نفيس الداودي العناني التبريزي، رئيس الأطباء، وكاتب السر بمصر. ولد بتبريز سنة ٧٥٩ هـ/١٣٥٨ م. نشأ بالقاهرة، تفقّه بالحنفية، وتعلّم لغات عدّة. تفوّق في الطب، ولاّه الظاهر برقوق رياسة الأطباء، ثم كتابة السر. خلع عليه سنة ٨٠١ هـ، فاستمر إلى أن مات الظاهر، وولي خراج الناصر فقبض عليه سنة ٨٠٨ هـ وألزمه بمال فحمله، فأفرج عنه، وأعيد إلى كتابة السر بعد تسعة أشهر. واتسعت حاله ونيط به جل الأمور إلى أن قُتل الناصر، وخلفه المستعين الله العباسي، واستبد أحد الأمراء وهو الشيخ عبد الله المحمودي بالمملكة المصرية واعتقل الخليفة، فقبض على فتح الله سنة ٨١٥ هـ، وسُجن ثم خُنق. وكان من خير أهل زمانه.

Marfat.com

فقال له: اليوم إذا صليت العصر فوافني هٰهنا. قال: امرأتي طالق إن برحت من هنا حتى تجيء صلاة العصر. قال: فانصرفت في حوائجي حتى العصر فدخلت المسجد فوجدته فيه فأخذته بيده وأتيتهم به فأكلوا وشربوا وتساكر القوم وتناوموا، فأقبلت «بصيص» على مزيد فقالت له: يا أبا إسحاق كأن نفسك تشتهي أن أغنيك الساعة:

لقد حثوا الجمال ليهـ ـربوا منا فلم ينلوا

فقال: امرأتي طالق إن لم تكوني تعلمين ما في اللوح المحفوظ. قال: فغنته، ثم سكتت ساعة وقالت: يا أبا إسحاق، كأن نفسك تشتهي أن تقوم فتجلس إلى جانبي وتقرصني قرصات وأغنيك:

قالت وأبثتها وجدي فبحت به قد كنت عندي تحب الستر فاستترِ
ألست تبصر من حولي فقلت لها غطي هواك وما ألقى على بصري

فقال: امرأتي طالق إن لم تكوني تعلمين ما في الأرحام وما تكسب الأنفس غداً وبأي أرض تموت، فغنته ثم قالت: برح الخفاء أنا أعلم أنك تشتهي أن تقبلني وأغنيك هزجاً:

أنا أبصرت بالليل غلاماً حسن الدلِّ
كغصن البان قد أصبـ ـح مسقياً من الطلِّ

فقال: أنت نبية مرسلة فقبلها وغنته، ثم قالت: يا أبا إسحاق أرأيت أسقط من هؤلاء يدعونك ويخرجونني إليك ولا يشترون ريحاناً بدرهم؟ يا أبا إسحاق هلم درهماً أشتري به ريحاناً، فوثب وصاح: وا حرباه، أي زانية أخطأت إستك[1] الحفرة، انقطع والله عنك الوحي الذي كان يوحى إليك، وغطغط القوم وعلموا أن حيلتها لم تنفذ فيه، ثم خرج ولم يعد إليهم وأعاد القوم مجلسهم فكان أكثر شغلهم في حديث مزيد، والضحك منه وبقيت «بصيص» في عز وإقبال مدة حياتها وهي تتفنن في ضروب الألحان حتى فاقت أهل زمانها.

بلقيس ملكة سبأ[2]

المشهورة قصتها مع النبي سليمان بن داود ورد ذكرها في الكتب المنزلة واشتهرت في كتب التواريخ وضرب بها المثل في المجد والسلطان والجمال، وقد شرح العلماء تفاصيل سيرتها وسبب ورودها إلى سليمان بأقوال متباينة مرجعها إلى ما يأتي:

---

(١) الإست: السافلة، أو المؤخّرة. [القاموس المحيط، مادة: أست].
(٢) سبأ: أرض باليمن مدينتها مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام. سيمت هذه الأرض بهذا الاسم لأنها كانت منازل ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. معجم البلدان، ج ٣/ ص ٢٠٣.

Marfat.com

قال المؤرخون في نسب بلقيس[١]: إنها [يلقمة][٢] بنت يشرع بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قطحان. وقيل: أبوها يشرح بن تبع ذي الأذعار بن تبع ذي المنار بن تبع الرائش، ويلقب «هاددأ» و«هداد». وقيل: اسمه الحارث بن سبأ. وقيل: الشيصبان. وقيل: شراحيل.

وقال كثير من الرواة إن أمها كانت جنية ابنة ملك الجن واسمها رواحة أو ريحانة بنت السكن. وقيل: [يلقمة][٣] بنت عمرو بن عمير الجني، وسبب اتصال أبيها بالجن أنه كان ملكاً عظيم الشأن آخر أربعين ملكاً من ملوك اليمن وملك كل تلك الأقاليم ولم يكن في ملوك الأرض من هو كفؤ له فكان يقول لهم: ليس أحد منكم يدانيني. وأبى أن يتزوّج من الإنس لرفعة شأنه فكان يخرج إلى الصيد ويصطاد الجان بصورة الظباء فيخلي عنها فظهر له ملك الجن وشكره على صنيعه، فاغتنمها فرصة وخطب ابنته فأجابه.

وقيل: بل خرج مرة فوجد حيتين سوداء وبيضاء تقتتلان، وقد ظفرت السوداء على البيضاء، فأمر بقتل السوداء وحمل البيضاء وصبَّ عليها ماء حتى أفاقت، فأطلقها وعاد إلى داره فجلس منفرداً، وإذا بجانبه شاب جميل فذعر منه فقال له: لا تخف أنا الحية التي أنجيتها وإني مكافئك بالمال أو علم الطب.

فقال: أما المال فلا حاجة لي به وأما الطب: فقبيح بالملوك ولكني أختار إن كان لك ابنة أن أخطبها إليك فأجابه بشرط أن لا يغير عليها شيئاً تعمله فإذا غير عليها فارقته وشرط أيضاً أن يعطيه ساحل البحر ما بين يبرين[٤] إلى عدن[٥] فأذعن لذلك، ثم تزوّج بالجنية فولدت له غلاماً وألقته في النار فجزع لذلك، ولكنه سكت للشرط، ثم ولدت جارية فألقتها إلى كلبه فعظم عليه الأمر ولكنه صبر، ثم عصى عليه بعض أصحابه فجمع عسكره فسار ليقاتله وهي معه، فلما صاروا في مفازة رأى جميع ما معهم من الزاد يخلط بالتراب والماء ينصب من أفواه القرب فأيقن بالهلاك وعلم أنه فعل الجن بأمر زوجه فضاق ذرعاً عن حمل ذلك الجور فأتى

---

(١) بلقيس: يمانية من أهل مأرب، أشير إليها في القرآن الكريم ولم يسمّها.
(٢) قال الطبري في تاريخ الأمم والملوك: «إن اسم بلقيس يلقمة بنت اليشرح بن الحارث بن قيس». ولعل هذا الصحيح لذلك أثبتناه، فقد ورد في الأصل «بلقمة».
(٣) وردت في الأصل: «بلقمة»، ولعل الصحيح ما أثبتناه، اسناداً إلى الطبري.
(٤) يبرين: رمل لا تُدرك أطرافه عن يمين مطلع الشمس من حجر اليمامة. معجم البلدان، ج ٥/ص ٤٩٠.
(٥) عدن: وهو من قولهم عَدَنَ بالمكان إذا أقام به، وبذلك سميت عَدَن، هي مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. هي بلدة تجارة لذا يجتمع فيها التجار. معجم البلدان، ج ٤/ص ١٠٠.

Marfat.com

وجلس أمامها وأومأ إلى الأرض وقال: يا أرض صبرت لك على إحراق ابني وإطعام ابنتي للكلب، ثم الآن قد فجعتنا بالزاد والماء حتى أشرفنا على الهلاك فقالت له: لو صبرت لكان خيراً لك فإن عدوّك خدع وزيرك فجعل السم في الزاد والماء وتحقيق ذلك أنه يمتنع من شرب شيء من الماء الفاضل، فأمر وزيره بالشرب، فامتنع، فقتله، ثم دلته على نبع وميرة يمتارها ثم قالت: وأما ابنك فقد سلمته إلى حاضنة تربيه وقد مات، وأما ابنتك فهي باقية وإذا بجويرية قد خرجت من الأرض وهي بلقيس وفارقته زوجته وسار إلى عدوّه فظفر به وفوّض إليها أبوها الملك فملكت بعده.

وقيل: بل مات بلا وصية. فاختلف الناس بعد موته، وافترقوا فرقتين: فرقة بايعتها، وفرقة بايعت ابن أخ أبيها. فساء السيرة في الرعية وكان فاحشاً خبيثاً فاسقاً لا يبلغه عن بنت جميلة إلا أحضرها وهتكها، فأراد قومه خلعه فلم يقدروا، فلما رأت بلقيس ذلك أخذتها الغيرة وقد طلب منها الحضور إليه فقالت له: بل احضر أنت عندي وأعدّت له رجلين يقتلانه إذا دخل قصرها، فلما حضر قتلاه فأحضرت وزراءه ووبختهم وقالت: أما كان فيكم من يأنف لكريمته وكرائم عشيرته، ثم أرتهم إياه قتيلاً وقالت: اختاروا رجلاً تملكونه فقالوا لا نرضى بغيرك.

وقيل: بل هي عرضت نفسها عليه فقال: ما منعني إلا اليأس منك فقالت: لا أرغب عنك فإنك كفؤ كريم فاجمع رجال قومي واخطبني إليهم ففعل فسألوها فقالت: قد أجبت فلما زفت إليه سقته الخمر حتى سكر، فحزت رأسه وانصرفت إلى منزلها، وأمرت أن تعلق رأسه على باب دارها، فلما رأى الناس ذلك علموا الحيلة فملكوها عليهم وقال قوم: إن أباها لم يكن ملكاً بل وزير ملك، وكان الملك قبيحاً ـ يفعل ما تقدم ذكره ـ فقتلته بلقيس فملكوها عليهم فعظم شأنها وكثر جندها واتسع نطاق ملكها حتى قال بعضهم: إنه كان تحت يدها أربعمائة ملك، كل ملك منهم على كورة وله ٤٠٠٠٠ [مقاتلاً][1] وكان لها ٣٠٠ وزير يدبرون ملكها، وكان لها ١٢ [قائداً][2] يقود كل واحد ١٢ ألف مقاتل وبالغ بعضهم في ذلك.

وأما عرشها الوارد ذكره في القرآن الحكيم فقيل: كان سريراً ضخماً من ذهب وفضة مرصعاً بالجواهر النفيسة، وكان في جوف سبعة بيوت عليها سبعة أغلاق كل بيت داخل الآخر وهو في آخرها.

وقيل: كان مقدمه من الذهب منضداً بالياقوت الأحمر والزمرد الأخضر ومؤخره من

---

(١) وردت في الأصل: «مقاتل»، ولعل الصحيح ما أثبتناه، لأنها تمييز للعدد منصوب.
(٢) وردت في الأصل: «قائد»، ولعل الصحيح ما أثبتناه، لأنها تمييز للعدد منصوب.

Marfat.com

فضة مكللاً بأنواع الجواهر واللآلئ، وله أربع قوائم قائمة من ياقوت أحمر، وقائمة من ياقوت أصفر، وقائمة من زبرجد أخضر، وقائمة من در أبيض، وصفائح السرير من ذهب، وقيل: أنفقت بلقيس على الكوّة التي تدخل منها الشمس فتسجد لها ثلثمائة ألف أوقية من الذهب.

قال ابن الأثير[1]: قد تواطأوا على الكذب والتلاعب بعقول الجهال حتى يصدقوا المحال لأن أوصاف عرشها، وعدد جيوشها من الأمور التي لا يمكن تصديقها.

وأما سبب مجيئها إلى سليمان وإسلامها على يده فروي أن سليمان رأى يوماً رهجاً قريباً منه ولم يكن يبدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه فسأل عن ذلك الرهج فقالوا: هو عرش بلقيس. فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٨، ٣٩] قال: أريد أسرع من ذلك فقال آصف ابن برخيا: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ﴾ [النمل: ٤٠]، وقيل: إن أحد بني إسرائيل قال لسليمان: أنت أقرب الناس إلى الله فلو طلبت إليه لأحضره بأسرع ما يكون فصلى سليمان وإذا بالأرض انشقت وظهر العرش يتلألأ. وقيل: إن سليمان في بعض مغازيه احتاج إلى الماء من تحت الأرض فطلب الهدهد فلم يره.

وقيل: بل أصابت الشمس سليمان فنظر ليرى من أين نفذت إليه لأن الطير كانت تظله فرأى موضع الهدهد فارغاً فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١].

وكان الهدهد قد مر على قصر بلقيس فرأى بستاناً لها خلف القصر فمال إلى الخضرة فرأى هدهداً فقال له: أين أنت من سليمان؟ وما تصنع هنا؟ فقال له: ومَنْ سليمان؟ فذكر له حاله. فقال: وأين أنت من هذه الدنيا الواسعة والحدائق الأنيقة، والقصور الشاهقة، والرياض البهجة؟ فقال: ولمن هذا كله؟ فقال: هو لبلقيس صاحبة العرش العظيم ووصف له عرشها فأتى الهدهد إلى سليمان وأخبره بخبره فكتب لها سليمان كتاباً وقال له: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٢٨]. فوافاها وهي في قصرها فرمى الكتاب في حجرها فقرأته وأرسلت أعلمت قومها بذلك وإذا بالكتاب ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠و٣١] فقال قومها: ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣].

قالت: إني مرسلة إليهم بهدية فإن قبلها فهو من ملوك الدنيا فنحن أعز منه وأقوى وإن لم

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج ١/ ص ١٣٥.

Marfat.com

يقبلها فهو نبي من الله وإني أمتحنه بها، ثم وجهت إليه الهدية وكانت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجواري وحليهن وخمسمائة جارية على زِيِّ الغلمان كلهم على سروج الذهب والخيل الموسومة، وألف لبنة من ذهب وفضة وتاجاً مكللاً بالياقوت والمسك والعنبر وحِقاً فيه درة يتيمة، وخرزة مثقوبة معوجة الثقب، وأرسلتها مع أشراف رجالها المنذر بن عمرو وآخر ذي رأي وعقل وقالت: إن كان نبياً ميَّز بين الغلمان والجواري وثقب الدرة ثقباً مستوياً، وسلك في الخرزة خيطاً ثم قالت للمنذر: إن نظر إليك غضباً فهو ملك فلا يهولنك أمره، وإن رأيت شيئاً لطيفاً فهو نبي، فأعلم الله سليمان بذلك فأمر الجن فضربوا لبن الذهب والفضة، وفرشت في ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ، وجعلوا حول الميدان حائطاً مشرفة شرفة من ذهب وشرفة من فضة وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر أن يربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبن، وأمر بأولاد الجن فأقيموا على اليمين واليسار ثم قعد على كرسيه والكراسي عن يمينه ويساره، واصطفت الشياطين والجن والإنس صفوفاً فراسخ، والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك، فلما دنا القوم منهم نظروا فرأوا الدواب تروث على الذهب فرموا بما معهم منها فلما وقفوا بين يديه نظر إليهم بوجه طلق، ثم قال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل: ٣٦]، ثم قال: أين الحِق الذي فيه كذا وكذا فقدّموه بين يديه، فأمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت في الدرة وأمر دودة بيضاء وقد جعل خيطاً بفيها فمرت في ثقب الخرزة، ثم دعا بالماء وأمر الغلمان والجواري أن يغسلوا أيديهم ووجوهم فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى وتضرب به وجهها والغلام كان يأخذه يضرب به وجهه، ثم رد الهدية فرجع القوم وأخبروها بما شاهدوا فعلمت أنه نبي وأرادت الشخوص إليه في اثنى عشر ألف فيل.

فلما قربت من مكانه قال حينئذٍ: من يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين فأتى به ـ كما تقدم ـ وكان بين سليمان والعرش مسيرة شهرين للمجدّ فلما علم الجن أنها آتية وأن سليمان ربما تزوجها فتفشي له أخبار الجن لأنها تربت عندهم، وأنها إذا ولدت ولداً انتقل الملك إليه فلا ينفكون من تسخير سليمان وولده أساءوا فيها القول وقبحوها له وقالوا: إنها غير عاقلة ولا تميز وإن رجليها كحافر الفرس وهي شعراء الساقين، فأراد سليمان أن يمتحن ذلك فنكر عرشها بأن جعل تبديلاً في الجواهر حتى ينظر هل تعرفه وأمر أن يبنى له صرح من زجاج وأجرى تحته الماء وجعل فيه من دواب البحر حتى إذا رأته حسبته ماء فتكشف عن ساقيها فيتحقق الأمر.

وقيل: بل بنى الصرح من قوارير زجاج أخضر وجعل له طوابق من قوارير زجاج أبيض وتحت الطوابق صور دواب فصار كأنه البحر، وجلس سليمان على سرير في صدر المكان فلما

Marfat.com

وصلت بلقيس قيل لها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢]. ولقد تركته في حصون وعنده جنود تحفظه فكيف جاء هٰهنا وقيل: إنها عرفته ولكن شبهت عليهم كما شبهوا عليها فلم تقل نعم خوفاً من الكذب ولا خوفاً من التنكيت فعلم سليمان كمال عقلها ثم ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ [النمل: ٤٤]، لتخوضها وقد قالت في نفسها: إن سليمان يريد أن يغرقني وكان القتل أهون عليّ من هذا فلما رآها سليمان صرف نظره عنها ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [النمل: ٤٤] ثم دعاها سليمان إلى الإسلام فأجابت فأراد أن يتزوجها وكره كثرة شعر ساقيها فسأل عن شيء يزيله ولا يضر الجسد فعملت له الشياطين النورة وأشاروا بالحمام.

قيل: فكان ذلك أوّل ظهور النورة فتزوجها وأحبها حباً شديداً وردها إلى ملكها باليمن وكان يزورها في كل شهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام، فولدت له غلاماً سماه داود ومات في حياة سليمان.

وقيل: أمرها سليمان أن تتزوّج برجل من قومها فأنفت من ذلك فقال: لا يكون في الإسلام إلا ذلك فقالت: إن لم يكن بدّ فزوجني ذا تبع ملك همذان فزوجه بها ثم ردها إلى اليمن وسلط زوجها على الملك وأمر الجن من أهل اليمن بطاعته فاستعملهم ذا تبع في بناء عدة قصور حصينة منها: «صلخين». وقيل: «سلجين» و«مرواح» و«قليون» و«هنيدة» و«بنون» وقصر «غمدان» أشهرها فلما مات سليمان لم يطع الجن ذا تبع فانقضى ملكه وملك بلقيس بموت سليمان. وقيل: إن بلقيس ماتت قبل سليمان بالشام وإنه دفنها بتدمر وأخفى قبرها عن الناس.

بكارة الهلالية

كانت من نساء العرب الموصوفات بالشجاعة، والإقدام، والفصاحة، والشعر، والنثر، والخطابة حضرت مع علي بن أبي طالب حرب صفين ولها هناك مقالات حماسية جعلت كل من سمعها يقدم على الهلاك بدون مبالاة بالعواقب وقد دخلت على معاوية يوماً وهو يومئذٍ بالمدينة وكانت قد أسنت وغشي بصرها وضعفت قوتها ترتعش بين خادمين لها فسلمت وجلست فرد عليها معاوية السلام وقال: كيف أنت يا خالة، قالت: بخير يا أمير المؤمنين قال: غيرك الدهر؟ قالت: كذلك هو ذو غير من عاش كبر، ومن مات فقد. فقال عمرو بن العاص هي والله القائلة يا أمير المؤمنين:

يا زيد دونك فاحتفر من دارنا ... سيفاً حساماً في التراب دفيناً
قد كنت أذخره ليوم كريهة ... فاليوم أبرزه الزمان مصوناً

Marfat.com

وقال مروان وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين:

أترى ابن هند للخلافة مالكا هيهات ذاك وإن أراد بعيدُ
منتك نفسك في الخلاء ضلالة أغراك عمرو[١] للشقا وسعيدُ[٢]

وقال سعيد بن العاص وهي والله القائلة:

قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أمية خاطبا
فالله أخر مدتي فتطاولت حتى رأيت من الزمان عجائبا
في كل يوم للزمان خطيبهم بين الجميع لآل أحمد عائبا

ثم سكتوا فقالت: يا معاوية، كلامك أغشى بصري وقصر حجتي أنا والله قائلة ما قالوا وما خفي عليك مني أكثر فضحك. وقال: ليس يمنعنا ذلك من برّك اذكري حاجتك قالت: أما الآن فلا وانصرفت، فوجه إليها معاوية بجائزة سنية.

بلنش ملكة فرنسا

ولدت سنة ١١٨٧ [م]، وتوفيت سنة ١٢٥٢ [م] وهي ابنة «ألفونس التاسع» ملك «قسطيلة» من زوجته «أليونورا» الإنكليزية ابنة «هنري الثاني»[٣] وكانت مقتدرة في الأمور السياسية ولما دعا الأمراء المتحالفون زوجها سنة ١٢١٦ [م] للجلوس على تخت إنكلترا ألحت عليه بإجابة طلبهم وأرسلت إليه مالاً ونجدات ولكن نشأ عن موت الملك «يوحنا» وجلوس ابنه على تخت الملك خضوع الأمراء للحكومة وعند وفاة «فيليب أوغسطوس» وجلوس زوجها على التخت باسم «لويس الثامن»، كانت تقوده بحكمتها وحسن إدارتها وقد رافقته في الحرب الصليبية التي أقيمت على «الألبيجوا»[٤] وعند وفاته جعلت نائبة للملك في مدة قصر ابنها «لويس التاسع»[٥].

---

(١) المقصود عمرو بن العاص.
(٢) المقصود سعيد بن العاص.
(٣) هنري الثاني: ولد سنة ١١٣٣ م ملك إنكلترا سنة ١١٥٤ م. أوقعته سياسته الدينية الطائشة في خلاف مع وزيره بيكيت. مات سنة ١١٨٩ م.
(٤) الألبيجوا: أو الألبيجيّون أو الكتّار (Albigeois) بدعة دينية مسيحية ظهرت أواخر القرن الثاني عشر جنوبي فرنسا. استمدت بعض تعاليمها من المانويّة، حاربها ملوك فرنسا، وقاومها بالوعظ، والتبشير الأخوة الواعظون أو الدومينيكان. تلاشت بعد سنة ١٢٤٤ م.
(٥) لويس التاسع: ملك من ملوك فرنسا ولد سنة ١٢١٤ م. قاد الحملتين الصليبيتين السابعة والثامنة. وصل إلى دمياط سنة ١٢٤٩ م. أُسر في معركة المنصورة سنة ١٢٥٠ م. توفي بالطاعون في تونس سنة ١٢٧٠ م.

Marfat.com

وسنة ١٢٣٤ [م] زوَّجت ابنها وهو في سن ١٩ بـ«مرغريتا» البروفنسية وكان عمرها ١٢ سنة.

وسنة ١٢٣٦ [م] تنازلت عن نيابتها لابنها المذكور وكانت المملكة في أيامها زاهرة زاهية وقد ألحق بها أرض كبيرة مهمة وكان ابنها يعتمد رأيها ولا يدعها تفارقه إلا أنه دخل ضد إرادتها في الحرب الصليبية لإنقاذ الأرض المقدسة، وفي مدة غيابه تسلمت نيابة الأحكام وقابلت بحكمتها وإقدارها المعتادين الصعوبات الجديدة التي حدثت في تلك الأيام وكانت على الدوام ترسل المال والنجدات إلى ابنها لتساعده في تلك الحركة المشؤومة ولما انكسر هو وإخوته وأسروا في مصر التزمت أن تقوم بدفع فدية بليغة لإنقاذهم فنشأ عن ذلك ضرائب جسيمة خسرت بها البلاد ثروتها، ومع ارتباكاتها وتقواها كانت تقاوم تعديات خدمة الدين بنشاط عظيم، وقد حمت منهم بنجاح حقوق التاج الملكي. وقد ناحت البلاد عموماً ولبست الحداد عند موتها وهي تحسب من أشهر من حكم فرنسا.

بمبادور خليلة لويس الخامس عشر

ولدت سنة ١٧٢١ [م] في باريس ،وتوفيت في «فرساليا» سنة ١٧٩٤ [م]، وهي ابنة جزار قد ربتها أمها تربية حسنة وزوّجتها سنة ١٧٤١ [م] بملتزم أعشار، وبعد ذلك بقليل رآها الملك وهو يتصيد في غابة «سنبرت» فعلق قلبه بها ولكن لم يظهر ذلك إلا بعد وفاة مادام «ده شانور».

وسنة ١٧٤٤ [م] وقد رافقت «لويس» في حرب «فونتنوا» في أيار سنة ١٧٤٥ [م] وعند رجوعها عرفت بمركيزة «بمبادور» وكانت تعضد العلوم والصنائع وبمساعدة «ڤولتر» و«بربي» رتَّبت أعياداً زاهرة حتى إنها بعد أن ضعف حبُّ الملك لها حافظت على سطوتها بجعلها نفسها ضرورية لراحته ثم بعد قليل أخذت تريحه من أتعاب الأحكام وكانت تتداخل في المالية وتعزل وتولي الوزراء وتقرب إليها الجنسينين والكوبتبين والكفار والمجلس كلاً في دوره لكي يكون لها عضد من جميع الأحزاب، وقد تملقتها «مريا تريزا» بإرسالها لها كتاباً بخط يدها، وغضبت من «فردريك الثاني» لطعنه في حكومتها فعقدت محالفة بين فرنسا والنمسا ضدّ بروسيا، نشأ عنها حرب السبع سنين المهلكة.

وسنة ١٧٥٧ [م] حاول «داميان» قتل الملك فاضطرها الأمر أن تخرج من البلاط ولم يمض إلا قليل حتى دعيت إليه ثانية فسعت في معاقبة الوزراء الذين أشاروا بطردها وكانت سطوتها في تعيين المأمورين العسكريين من أعظم أسباب قتل العساكر في الحرب، فتوفيت

Marfat.com

مصحوبة ببعض الشعب وعدم أسف الملك، وكان لها زيادة على مرتبها السنوي الباهظ مداخيل جسيمة في العقارات، وكانت تعطي الفقراء بسخاء وتساعد المخترعين والصنّاع، وأصحاب المعارف. وجمعت كمية عظيمة من أعمال الصناعة والتحف. وكانت ماهرة في التصوير والنقش وقد كتب كثيرون سيرة حياتها وينسب إليها ترجمات ورسائل ليست لها.

بنلوبا زوجة عولس اليوناني(١)

هي أم «تلبماك» ابنة «أبكاريوس» وقد خطبها كثيرون ولكنّ أباها وعد بها من يغلب في سباق العدو فغلب «عولس». ولما ألح عليها أبوها أن تبقى معه ولا ترافق زوجها إلى «أنباكي» سمح لها زوجها بأن تفعل كما تشاء فأظهرت عزمها على مرافقته بسترها وجهها بمنديل خجلاً ولما كان «عولس» في حصار تروادة(٢) أحاط بها عشاق كثيرون ألحوا عليها بإجابة طلبهم فخدعتهم بقولها إنه يجب أن تكمل كفناً كانت تنسجه لعمها الشيخ قبل أن يقرّ رأيها إلا أنها كانت تحل ليلاً كل ما كانت تنسجه نهاراً فلما عرف عشاقها بمكيدتها كان«عولس» قد رجع بعد أن غاب ٢٠ سنة فقتلهم جميعاً.

وقد أشاع بعض المضادّين لها أنها ولدت بنتاً من عشاقها فطلقها زوجها عند رجوعه من تروادة، فذهبت عند ذاك إلى «إسبرطه»(٣) ومنها إلى «منتينا» وقد استدل قوم على قبرها هناك بعد ذلك بزمان طويل.

بهية ابنة عبد الله البكري

من بكر بن وائل وفدت مع أبيها إلى النبي ﷺ فبايع الرجال وصافحهم وبايع النساء ولم يصافحهنّ قالت: فنظر إليّ ودعاني ومسح رأسي ودعا لي ولولدي، ولما رجعت وتزوجت كثرت عليّ الأولاد وامتلأ المنزل، وخشيت الفقر من كثرة العيال وكان عدد أولادي ستين ولداً، أربعون رجلاً وعشرون امرأة، فاستشهد منهم عشرون في الجهاد بين يدي النبي ﷺ والصحابة، ولم يعلم بامرأة ولدت ستين ولداً غير هذه فسبحان الخالق الرازق.

---

(١) عولس اليوناني (Ulysse): من أبطال اليونان الأسطوريين في حرب طروادة. ملك إيتاق وزوج پينيلوب وأبو تيليماك.

(٢) تروادة: أو طروادة أو إليون (Toria) وهي مدينة قديمة غرب تركيا. ازدهرت في الألف الثالث ق.م. خرّبتها حروب وزلازل عديدة، أشهرها حرب أسطورية قام بها اليونان وحاصروها سنة ١١٩٣ ق.م، حتى سنة ١١٨٤ ق.م. تغنى هوميروس بمعاركها في الإلياذة.

(٣) إسبرطة (Spate): من عواصم اليونان القديمة. زاحمت أثينا على السيادة وتغلّب عليها في حرب پيلوپونيز سنة ٤٠٤ ق.م. أخضعها الرومان سنة ١٤٦ ق.م خربتها الحروب والغزوات.

Marfat.com

بوديسيا ملكة ألايسينه

هي أم قبيلة بريطانيا كان موطنها ما يدعى الآن ببلاد «كمبردج» و«سقولك» و«نورفولك» و«هردفرد»، توفيت نحو سنة ٦٢ بعد المسيح ولما توفي زوجها «براسوتغوس» ملك «ألايسينه» جعل ابنتيه مع الإمبراطور «نيرون» ورثة لثروته العظيمة لأنه كان يأمل أنه بذلك يحفظ عائلته ومملكته من تعديات الغزاة ولكن حالما مات أخذ قائد المائة الروماني مملكته وجلدت الملكة البريطانية جهاراً لذنب حقيقي أو وهمي، وتركت بناتها لشهوة العبيد فاستغنمت «بوديسيا» فرصة غياب «سويتونيوس باولينوس» الحاكم الروماني من تلك الجهة من إنكلترا وجمعت كل القوة العسكرية من شيعتها البرابرة وثارت في مقدمتهم على مستعمرة لندن الرومانية وقتلت بالسيف في تلك المستعمرة والأماكن المجاورة لها سبعين ألفاً على الأقل من الرومان والتجار والإيطاليان، وغيرهم من رعايا الملكة، فبادر «سويتونيوس» إلى محل تلك القطائع، وكان تحت قيادة ملكة «ألايسينه» ١٢٠ ألف جندي وكان عددهم يتزايد شيئاً فشيئاً حتى بلغوا ٢٣٠ [ألفاً][1] حال كون «سويتونيوس» لم يكن قادراً أن يأتي إلى ميدان القتال بعشرة آلاف جندي فانتشبت نيران القتال، وأظهرت «بوديسيا» شجاعة عظيمة، ولما قهرت العساكر الرومانية المنتظمة عساكرها أخذت سماً وابتلعته فماتت به، وأما الغالبون فلم يعفوا عن شيء فإنهم قطعوا الأولاد والدواب والكلاب جميعاً إرباً. ويقال: إنه ذُبح في ذلك اليوم ثمانون ألف بريتوني وأما العساكر الرومانية فلم يقتل منها إلا ٤٠٠ شخص وجرح بقدرهم.

بوران ابنة أبرويز بن هرمز[2]

كانت من أحسن نساء بني الترك والفرس وملكت الناس بعد «شهريار بن أبرويز»[3] وأصلحت القناطر والجسور، وردّت خشبة الصليب إلى ملك الروم، ولما جلست على السرير قالت: ليس ببطش الرجل تدوخ البلاد، ولا بمكايدهم ينال الظفر وإنما ذلك بعون الله وقدرته، وأقامت سبعة أشهر ويقال: إن «فيروز بن رستم» صاحب خراسان خطبها فقالت: لا ينبغي للملكة أن تتزوج علانية وواعدته أن يقدم عليها سراً في ليلة عينتها له فجاءها في تلك الليلة فقتلته، فسار إليها رستم فقتلها، وذلك بخبر طويل في تاريخ الفرس.

---

(١) وردت في الأصل: «ألف»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.
(٢) هو كسرى الثاني وقد سبق الحديث عنه.
(٣) من أشهر ملوك الفرس في بطشه وظلمه وهو زوج شهرزاد، وهما محور قصص التراث الشعبي «ألف ليلة وليلة».

Marfat.com

بوران ابنة الحسن بن سهل[١]

كانت أحسن نساء زمانها وأجملهن وأكرمهن أخلاقاً، وأفضلهن أدباً وأوفرهن عقلاً، لها إلمام بصناعة الطرب. تربت في بيت أبيها أحسن تربية، وخالطت نساء الرشيد، واكتسبت من آدابهن.

ولما ولي المأمون الخلافة افتتن بها وخطبها من أبيها الحسن، وكان وزيره بعد أخيه الفضل بن سهل[٢]، وقد زفت إليه بناحية فم الصلح (بلدة من العراق) في شهر رمضان سنة ٢١٠ هجرية.

فلما دخل عليها كانت عنده حمدودة بنت الرشيد وزبيدة بنت جعفر وأم الفضل والحسن جدة «بوران» فنثرت عليه أم الفضل ألف لؤلؤة من أنفس ما يكون فأمر بجمعها فجمعت فأعطاها لـ«بوران» وقال: هذه نحلتك وسلي حوائجك، فأمسكت فقالت لها جدّتها: سلي سيدك، فقد أمرك أن تسأليه، فسألته الرضا عن إبراهيم بن المهدي فقال: قد فعلت وسألته الإذن لزبيدة في الحج فأذن لها وبنى بها في ليلته وأوقدوا في تلك الليلة شمعة عبروا وزنها أربعين مناً، وأنفق الحسن على المأمون مالاً جزيلاً قيل: إنه أقام عند الحسن تسعة عشر يوماً يعدّ له في كل يوم ولجميع من كان معه ما يحتاجون إليه، فكان مبلغ النفقة عليه خمسين ألف ألف درهم، وأمر له المأمون عند منصرفه بعشرة آلاف ألف درهم، وأقطعه فم الصلح ـ المذكورة ـ فجلس الحسن وفرق المال على قوّاده وحشمه وعسكره.

وقيل: احتفل أبوها بأمرها وعمل من الولائم والأفراح ما لم يعهد مثله في عصر من الأعصر فإنه نثر على الهاشميين والقوّاد والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وجوار ودواب وغير ذلك فكانت البندقة إذا وقعت بيد رجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة فإذا علم ما فيها

---

(١) هو الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسي، أبو محمد وزير المأمون العباسي، أحد كبار الولاة والقادة في عصره المولود سنة ٢٣٦ هـ/ ٧٨٢ م. اشتهر بالذكاء المفرط، والأدب والفصاحة وحسن التوقيعات، والكرم. هو والد بوران زوجة المأمون. كان المأمون يجلّه ويبالغ في إكرامه، وللشعراء فيه أماديح. أصيب بمرض السويداء سنة ٢٠٣ هـ فتغيّر عقله حتى شُدّ في الحديد، ثم شُفي منه قبل زوج المأمون بابنته سنة ٢١٠ هـ. توفي في سرخس سنة ٢٣٦ هـ/ ٨٥١ م.

(٢) هو الفضل بن سهل السرخسي، أبو العباس، المولود سنة ١٥٤ هـ/ ٧٧١ م. وزير المأمون وصاحب تدبيره. اتصل به في صباه وأسلم على يده سنة ١٩٠ هـ. وكان مجوسياً. صحبه قبل أن يلي الخلافة، فلما وليها جعل له الوزارة وقيادة الجيش معاً، فكان يلقّب بذي الرياستين (الحرب والسياسة). توفي في سرخس سنة ٢٠٢هـ/ ٨١٨ م. قتله جماعة بينما كان في الحمام. قيل: إن المأمون دسّهم له، وقد ثقل عليه أمره.

Marfat.com

ذهب إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويستلم ما فيها، ثم نثر على سائر الناس الدنانير والدراهم، ونوافج المسك، وبيض العنبر على المأمون وقوّاده وجميع أصحابه وأجناده وأتباعه وكانوا خلقاً لا يحصون وعلى الحمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره فلم يكن في العسكر من يشتري شيئاً لنفسه أو لدابته وقد قالت الشعراء والخطباء في ذلك الزفاف أشياء كثيرة ومما يستطرف في ذلك قول محمد بن حازم الباهلي[١]:

بـــــارك الله للحســـــن ولبـــوران فـــي الخَتَـــنِ[٢]
يـــا إمـــام الهـــدى ظفـــر ت ولكـــن ببنـــت مـــن

وبقيت «بوران» عند المأمون إلى أن توفي سنة ٢١٨ [هـ]، وتوفيت هي سنة ٢٧١ [هـ] وعمرها ٨٠ سنة.

بيلمون زوجة السلطان أوزبك

قال ابن بطوطة في «رحلته»: اسمها «بيلون» ـ وهي ابنة ملك القسطنطينية العظمى السلطان «تكفور» ـ قال: لما مررنا ببلاد السلطان «أوزبك» ودخلنا عليه التزمنا بعد خروجنا من عنده أن ندخل على الملكة «بيلون» زوجته حسب عادة تلك الديار أنه متى زار أحد الملك يلزم أن يزور أزواجه وعائلته، وأكابر مملكته، فدخلنا على هذه الخاتون وهي قاعدة على سرير مرصع قوائمه فضة وبين يديها نحو مائة جارية، روميات، وتركيات، ونوبيات منهن قائمات وقاعدات، والفتيات على رأسها، والحجاب بين يديها من رجال الروم. فسألت عن حالنا ومقدمنا وعن بعد أوطاننا وبكت ومسحت وجهها بمنديل كان في يدها رقة منها وشفقة، وأمرت بالطعام فأحضر وأكلنا بين يديها، ولما أردنا الانصراف قالت: لا تنقطعوا عنا وترددوا علينا، وطالبونا بحوائجكم وأظهرت مكارم الأخلاق وبعثت في أثرنا بطعام وخبز كثير وسمن وغنم ودراهم وكسوة جيدة وثلاث من جياد الخيل وعشرة من سواها ـ قال ـ: وبقيت هذه الخاتون عند السلطان «أوزبك» مدة طويلة وهي تتفقدنا بخيراتها ومبراتها حتى قصدت الذهاب إلى القسطنطينية فذهبت معها وكان ذهابها لأجل زيارة أهلها ومكثت هناك ولم ترجع لزوجها إلى أن ماتت.

---

(١) هو محمد بن حازم بن عمرو الباهلي بالولاء، أبو جعفر، شاعر مطبوع، كثير الهجاء، لم يمدح من الخلفاء غير المأمون العباسي. ولد ونشأ في البصرة، وسكن في بغداد ومات فيها سنة ٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م.

(٢) الختن: الصهر. [القاموس المحيط، مادة: ختن].

Marfat.com

حرف التاء

تحفة الزاهدة

هي جارية لبعض تجار بغداد كانت بارعة في الجمال تحسن صنعة العود وكان سيدها صرف عليها ماله وزاد في تعليمها وتهذيبها وكان شراؤها عليه بعشرين ألف درهم وغايته الربح فيها مثل ثمنها لحسن صنعتها وكمال أدبها واستقامتها فبينما هي يوماً جالسة والعود في حجرها وهي تغني وتقول:

وحقك لانقضت الدهر عهدا ... ولا كدّرت بعد الصفو ودًّا
ملأت جوانحي والقلب وجدًا ... فكيف ألذ أو أسلو أو أهدًا
فيا من ليس لي مولى سواه ... تراك تركتني في الناس عبدًا

ثم كسرت العود وقامت وبكت وانتحبت فاتهمها سيدها بمحبة إنسان فاستقصى عن ذلك فلم يجد له أثراً فحار سيدها في أمره ولم يجد لها سلوى عن الاكتئاب والهيام وقيام الليل ومناشدة الأشعار وطول التذكار وتشتت الأفكار فسألها عما أصابها فأنشدت تقول:

خاطبني الحق من جناني ... فكان وعظي على لساني
قربني منه بعد بعد ... وخصني الله واصطفاني
أجبت لما دعيت طوعاً ... ملبياً للذي دعاني
وخفت مما جنيت قدماً ... فأوقع الحب بالأمانِ

ولما أعيته الحيل ذهب بها إلى المارستان راجياً أن تشفى مما أصابها ولما دخلت البيمارستان أودعوها في حجرة مغلولة اليدين مقيدة الرجلين فلما رأت ذلك بكت بكاء مراً وأنشدت تقول:

أعيذك أن تغل يدي ... بغير جريمة سبقتْ
تغل يدي إلى عنقي ... وما خانت وما سرقتْ
وبين جوانحي كبد ... أحس بها قد أحترقتْ

Marfat.com

وحقـــك يـــا منـــى قلبـــي يمينـــاً بـــرّة صـــدقـــتْ
فلـــــو قطعتهـــــا قطعـــــاً وحقـــك عنـــك مـــا رجعـــتْ

ويروى عن السري السقطي[١] أنه قال: دخلت يوماً على تحفة في المارستان فوجدتها أنضر الناس وجهاً وعليها أطمار حسنة، فشممت منها رائحة عطرية وهي تفوح شذاها إلى خارج المارستان، فسألت القيم عنها فقال: هي جارية مملوكة قد اختل عقلها فحبسها مولاها لعلها تنصلح، فلما سمعت كلامه اغرورقت عيناها بالدموع، ثم أنشدت:

معشـــر النـــاس مـــا جننـــت ولكـــن أنـــا سكـــرانـــة وقلبـــي صـــاحـــي
أغللتـــم يـــدي ولـــم آت ذنبـــاً غير جهدي في حبه وافتضاحي
أنـــا مفتـــونـــة بحـــب حبيـــب لست أبغي عن بابه من براحِ
فصلاحي الذي زعمتم فسادي وفسادي الذي زعمتم صلاحي
ما على من أحب مولى الموالي وارتضـــاه لنفســـه مـــن جنـــاحِ

قال السري: فسمعت ما أقلقني وأشجاني، وأحرقني وأبكاني، فلما رأت دموعي قالت: يا سري، هذا بكاؤك من الصفة فكيف لو عرفته حق معرفته ثم أغمي عليها، فلما أفاقت جعلت تقول:

ألبستني ثوب وصل طاب ملبسه فأنت مولى الورى حقاً ومولائي
كـــانـــت بقلبـــي أهـــواء مفـــرّقـــة فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي
من غص داوى بشرب الماء غصته فكيف يصنع من قد غص بالماءِ
قلبي حزين على ما فات من زللي والنفس في جسدي من أعظم الداءِ
والشوق في خاطري مني وفي كبدي والحب مني مصون في سويداءِ
إليك منك قصدت الباب معتذراً وأنـــت تعلـــم مـــا ضمتـــه أحشـــائـــي

فقال لها السري: يا جارية سمعتك تذكرين المحبة فلمن تحبين؟ قالت: لمن تعرّف إلينا بنعمائه وجاد علينا بجزيل عطائه، فهو قريب إلى القلوب، مجيب لطلب المحبوب، سميع عليم، بديع حكيم، جواد كريم، غفور رحيم، ثم أنشأت تقول:

قلبـي أراه إلـي الأحبـاب مـرتـاحـاً سكران من راح[٢] حب بالهوى باحا

---

(١) هو سريّ بن المغلس السقطي، أبو الحسن، من كبار المتصوفة، بغدادي المولد والوفاة سنة ٢٥٣ هـ/٨٦٧ م. هو أول من تكلّم في بغداد بلسان التوحيد وأحوال الصوفية، كان إمام البغداديين وشيخهم في وقته. وهو خال الجنيد، وأستاذه.

(٢) الراح: الكف، كفّ اليد. [القاموس المحيط، مادة: الراح].

Marfat.com

يا عين جودي بدمع خوف هجرهم فـرب دمـع أتـى للخيـر مفتـاحـا
ورب عيـــن رآهـــا الله بـــاكيـــة بالخوف منه تنال الروح والراحا
لله عبـــد جنـــى ذنبـــاً فـــأحـــزنـــه فبات يبكي ويذري الدمع سفاحا
مستـوحـش خـائـف مستيقـن فطـن كـأن فـي قلبـه للنـور مصبـاحـا

قال السري: فبينما نحن كذلك إذا بسيدها أقبل فقال للقيم: أين تحفة؟ قال: هي في الداخل، وعندها السري السقطي ـ رضي الله عنه ـ ففرح سيدها ودخل وسلم عليه وعظَّمه فقال له السري: هي أولى بالتعظيم مني فما الذي تكرهه منها حتى حبستها هٰهنا؟ فقال: أمور كثيرة، وجعل يعدّد له خصالها فقال له السري: عليّ الثمن وأزيدك فصاح سيدها وا فقراه! من أين لك ثمن هذه الجارية وأنت رجل فقير؟ فقال له: لا تعجل دعها في المارستان حتى آتي بثمنها، ثم ذهب باكي العين رأفة على الجارية حتى طرق باب أحمد بن المثنى فأخبره بالخبر، فدفع له ثمنها ومثله معه، فلما كان الغد أقبل إلى المارستان فقال له: قد جئتك بثمن الجارية ومثله معه فقال: لا والله لو أعطيتني الدنيا ما قبلت بل هي حرة لوجه الله تعالى فلما سمعت ذلك بكت بكاءً مراً وأنشأت تقول:

هـــربـــت منـــه إليـــه بكيـــت منـــه عليـــهِ
وحقـــه هـــو مـــولـــى لا زلـــت بيـــن يـــديـــهِ
حتـــى أنـــال وأحظـــى بمـــا رجـــوت لـــديـــهِ

وتوجهت إلى مكة وهناك دخلت الكعبة وجعلت تقول:

محـب الله فـي الـدنيـا سقيـم تطـاول سقمـه فـدواه داهُ
سقـاه مـن محبتـه بكـأس فـأرواه المهيمـن إذ سقـاهْ
فهـام بحبـه وسمـا إليـه فلـيس يـريـد محبـوبـاً سـواهُ
كـذاك مـن ادّعـى شـوقـاً إليـه يهيـم بحبـه حتـى يـراهُ

ثم مكثت على ذلك مدة وهي بين الخوف وانرجاء إلى أن توفاها الله بمكة المكرمة وبعدما خرجت من المارستان سأل السري السقطي مولاها عن سبب عتقه لها وعدم قبوله ثمنها بعدما كان مشدّداً على لزوم استلام الثمن إن وجد من يدفعه إليه ولما عرض عليه ازدراه واستهزأ بقوله ظاناً أنه لا يقدر على ثمنها فقال له مولى الجارية أنه بعدما حصل منه ذلك راجع صوابه وقال: إن السري السقطي مع ضيق ذات يديه وعدم اقتداره على ثمن جارية مثل هذه تعهد بأن يستحضر ثمنها ولا بد ذلك أن يكون من أهل الخير وليس هم بأكرم مني حالة كوني قادراً على عمل الخير بدون أن يحصل لي ضرر وغلب عليّ الكرم ففعلت ما فعلت وأرجوك

Marfat.com

الدعاء فدعا له السري بإصلاح حاله، وبزيادة البركة في ماله، وتصدق بثمن الجارية الذي استحضره من أحمد بن المثنى المارّ ذكره.

تذكارباي خاتون

هي ابنة الظاهر «بيبرس»[1] كانت تقية صالحة محبة للخير مقربة للفقراء، وأخصهن النساء الصالحات حتى إنها من محبتها لهن بنت لهن رباطاً وسمته برباط البغدادية، وصفه المقريزي بقوله: إن هذا الرباط بداخل الدرب الأصفر تجاه خانقاه «بيبرس» حيث كان المتجر ومن الناس من يقول: رواق البغدادية وهذا الرباط بنته الست الجليلة «تذكارباي خاتون» ابنة الملك الظاهر «بيبرس» في سنة ٦٨٤ [هـ] للشيخة الصالحة زينب ابنة أبي البركات المعروفة ببنت البغدادية فأنزلتها به، ومعها النساء الخيرات وما برح إلى وقتنا هذا (أي وقت المقريزي) يعرف سكانه من النساء بالخير وله دائماً شيخة تعظ النساء وتذكرهن وتفقههن، وآخر من أدركنا فيه الشيخة الصالحة سيدة نساء زمانها زينب بنت فاطمة بنت عباس البغدادية، توفيت سنة ٧١٤ [هـ] في ذي الحجة، وقد أنافت على الثمانين وكانت فقيهة، وافرة العلم، زاهدة، قانعة باليسير، عابدة، واعظة حريصة على النفع والتذكير ذات إخلاص وخشية وأمر بالمعروف.

انتفع بها كثير من نساء دمشق ومصر وكان لها قبول زائد ووقع في النفوس وصار بعد كل من قام بمشيخة هذا الرباط من النساء يقال لها البغدادية أقامت به عدة سنين على أحسن طريقة إلى أن ماتت يوم السبت لثمانٍ بقين من جمادى الآخرة سنة ٧٩٦ [هـ]، وأدركنا هذا الرباط وتودع فيه النساء اللاتي طلقن أو هجرن حتى يتزوّجن أو يرجعن إلى أزواجهن صيانة لهن لما كان فيه من شدة الضبط وغاية الاحتراز والمواظبة على وظائف العبادات.

---

(١) هو بيبرس العلائي البندقداري الصالحي، ركن الدين الملك الظاهر، صاحب الفتوحات والأخبار والآثار. مولده بأرض القبچاق سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٨ م. أسر فبيع في سيواس، ثم نقل إلى حلب، ومنها إلى القاهرة، فاشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار، وبقي عنده، فلما قبض عليه الملك الصالح نجم الدين أيوب أخذ بيبرس، فجعله من خاصة خدمه، ثم أعتقه. وما زالت همّته تصعد به حتى أصبح أتابك العساكر بمصر، في أيام الملك المظفّر قُطُز، قاتل معه التتار في فلسطين. ثم اتفق مع أمراء الجيش على قتل قُطُز، فقتلوه، وتولى بيبرس سلطنة مصر والشام سنة ٦٥٨ هـ وتلقّب بالقاهر أبي الفتوحات. كان شجاعاً جباراً، يباشر الحروب بنفسه. له وقائع هائلة مع التتار والصليبيين، وله الفتوحات العظيمة، منها بلاد النوبة ودنقلة، ولم تُفتح قبله مع كثرة غزو الخلفاء والسلاطين لها. في أيامه انتقلت الخلافة إلى البلاد المصرية. توفي في دمشق سنة ٦٧٦ هـ/١٢٧٧ م. ومرقده فيها معروف، أقيمت حوله المكتبة الظاهرية.

Marfat.com

ثم لما فسدت الأحوال في عهد حدوث المحن بعد سنة ٨٠٦ [هـ] تلاشت أمور هذا الرباط ومنع مجاوروه من إقامة النساء المتعبدات فيه، وهذا الرباط قد زال بالكلية وبني في محله الآن الحوانيت المتسعة على باب الدرب الأصفر.

تركان خاتون الجلالية ابنة طغفاج خان من نسل فراسياب التركي

هي زوجة السلطان «ملكشاه»[١] ووالدة السلطان «محمود بن ملكشاه»[٢] كانت من النساء العاقلات الدينات والحكيمات المدبرات. شهدت لها التواريخ وألسنة الأقلام بالحكمة والتدبير وعلوّ الهمة والإقدام، وكانت مطاعة في أوامرها، مسموعة الكلمة عند أمراء المملكة، محبوبة لديهم.

وكانت تبذل لهم العطايا والإقطاعات وكان زوجها لا يردّ لها طلباً وهي المالكة والمشاركة له في الملك، وكانت من حسن سياستها وتدبيرها، توصلت لأن تصاهر الخليفة المقتدي بأمر الله العباسي، وذلك من كثرة تردّدها على حريم الخلافة ومعها ابنتها «خاتون» وهي كانت من الجمال على جانب عظيم وصفوها للمقتدى فأحبها على الوصف وأراد الاقتران بها، فأرسل الوزير فخر الدولة أبا نصر بن جهير إلى السلطان «ملكشاه» يخطب ابنته، ولما سار فخر الدولة إلى أصبهان ووصل إلى السلطان يخطب منه ابنته للخليفة فقال له: إن ذلك مما يزيدني شرفاً، ولكن الأمر في ذلك إلى والدتها «تركان خاتون» فيجب أن تذهب إليها.

وأمر نظام الملك أن يمضي معه إلى «تركان خاتون» ويتكلم معها في هذا المعنى فمضيا إليها فخاطباها فقالت: إن ملك غزنة وملوك الخانية، وما وراء النهر طلبوها وخطبوها لأولادهم وبذلوا أربعمائة ألف دينار فلم أرض، فإن حمل الخليفة هذا المال فهو أحق منهم، فبلغ الخبر «أرسلان» والدة الخليفة فتأثرت من ذلك وأرسلت إلى «تركان خاتون» تقول: إن ما يحصل لها من الشرف والفخر بالاتصال بالخليفة لم يحصل لأحد غيرها وكلهم عبيده وخدمه، ومثل الخليفة لا يطلب منه مال فأجابت إلى ذلك وشرطت أن يكون الحمل المعجل خمسين ألف دينار وأنه لا يبقى له سرية ولا زوجة غيرها ولا يكون مبيته إلا عندها، فأجيبت إلى ذلك، فأعطى السلطان يده فعاد فخر الدولة إلى بغداد.

---

(١) ملكشاه الأول: سلطان سلجوقي ولد سنة ١٠٥٥ م خلف أباه ألب أرسلان سنة ١٠٧٢ م اتخذ نظام الملك وزيراً فأسس النظاميات، وبلغت الدولة في عهده أوج ازدهارها ولمع في أيامه عمر الخيّام، واحتل حسن الصباح قلعة الموت. خلفه ولداه محمود ثم بركياروق بعد موته سنة ١٠٩٢ م.

(٢) محمد بن ملكشاه من السلاطين السلاجقة تولى الحكم والسلطنة بعد وفاة والده سنة ١٠٩٢ م.

Marfat.com

وفي محرم نقل جهازها إلى دار الخليفة على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الرومي وكان أكثر الأحمال من الذهب والفضة وثلاث عماريات وعلى أربعة وستين بغلاً مجللة بأنواع الديباج الملكي وأجراسها وقلائدها من الذهب والفضة، وكان على ستة منها اثنا عشر صندوقاً من فضة لا يقدّر ما فيها من الجواهر والحلي، وبين يدي البغال ثلاث وثلاثون فرساً من الخيل الرائعة، عليها مراكب الذهب مرصعة بأنواع الجواهر ومن عظيم إكسير الذهب، وسار بين يدي الجهاز سعد الدولة «كوهرائين» والأمير «برسق» وغيرهما. ونثر أهل نهر ملى عليهم الدنانير والثياب وكان السلطان خرج من بغداد متصيداً، ثم أرسل الخليفة الوزير أبا شجاع إلى «تركان خاتون» وبين يديه نحو الثلثمائة موكبه ومثلها مشاعل ولم يبق في الحريم غرفة إلا وقد شعلت فيها الشمعة والاثنتان، وأكثر من ذلك، وأرسل الخليفة مع «ظفر» خادمه محفة لم ير مثلها.

وقال الوزير لما وصل لـ «تركان خاتون»: إن سيدنا ومولانا أمير المؤمنين يقول: إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وقد أذن في نقل الوديعة إلى داره، فأجابت بالسمع والطاعة، وحضر نظام الملك فمن دونه دولة السلطان، وكل منهم معه من الشمع والمشاعل شيء كثير، وجاء نساء الأمراء والكبار ومن دونهم كل واحدة منهن منفردة في جماعتها وتجملها وبين أيديهن الشموع الموكبيات والمشاعل يحمل ذلك جميعه الفرسان، ثم جاءت الخاتون ابنة السلطان بعد الجميع في محفة مجللة عليها من الذهب والجواهر أكثر شيء وقد أحاط بالمحفة مائة جارية من الأتراك بالمراكب العجيبة، وسارت إلى دار الخلافة وكانت ليلتهم مشهودة لم ير ببغداد مثلها، فلما كان الغد أحضر الخليفة أمراء السلطنة وخلع عليهم كلهم وعلى كل من له ذكر في العسكر وأرسل الخلع إلى «تركان خاتون» وإلى جميع الخواتين وعاد السلطان من الصيد بعد ذلك، وبعدما مكثت مدة في دار الخليفة وولدت منه ولداً لم يطب لها المقام معه فأخبرت والدتها بذلك وهي أرسلت إلى الخليفة تطلب ابنتها طلباً لا بد منه، وسبب ذلك أن الخليفة أكثر الاطراح لها والإعراض عنها، فأذن لها في المسير، فسارت في ربيع الأول سنة ٤٨٢ [هـ] وسار معها ابنها من الخليفة أبو الفضل جعفر بن المقتدي بأمر الله ومعهما سائر أرباب الدولة، ومشى مع محفتها سعد الدولة «كوهرائين» وخدم دار الخلافة الأكابر، وخرج الوزير وشيعهم إلى النهروان وعاد وسارت الخاتون إلى أصبهان فأقامت بها إلى ذي القعدة، وتوفيت، وجلس الوزير ببغداد للعزاء سبعة أيام وأكثر الشعراء مراثيها ببغداد وبعسكر السلطان.

وسار «ملكشاه» بعد قتل نظام الملك إلى بغداد ودخلها في الرابع والعشرين من شهر

Marfat.com

رمضان سنة ٤٨٥ [م] لقيه وزير الخليفة عميد الدولة بن جهير واتفق أن السلطان خرج إلى الصيد وعاد ثالث شوال مريضاً وأنشب الموت أظفاره فيه، وكان سبب مرضه أنه أكل لحم صيد فحم وافتصد ولم يصر إخراج الدم فثقل مرضه، وكانت حمته محرقة فتوفي ليلة الجمعة في النصف من شوال سنة ٤٨٥ [هـ].

ولما ثقل نقل أرباب الدولة أموالهم إلى حريم دار الخلافة، ولما توفي سترت زوجته «تركان خاتون» موته وكتمته وأعادت جعفر بن الخليفة من ابنة السلطان إلى أبيه المقتدي بأمر الله وسارت إلى بغداد والسلطان معها محمولاً وبذلت الأموال للأمراء سراً، واستحلفتهم لابنها محمود، وكان تاج الملك يتولى ذلك لها، وأرسلت قوام الدولة «كربوقا» إلى أصبهان بخاتم السلطان، فاستنزل مستحفظ القلعة وتسلمها وأظهر أن السلطان أمره بذلك ولم يسمع بسلطان مثله ولم يصل عليه أحد ولم يلطم عليه وجه.

وكان مولده سنة ٤٧٦ [هـ]، وكان من أحسن الناس صورة ومعنى وخطب له من حدود الصين إلى آخر الشام من أقصى بلاد الإسلام في الشمال إلى آخر بلاد اليمن وحمل إليه ملوك الروم الجزية ولم يفته مطلب، وانقضت أيامه على أمن عام وسكون شامل وعدل مطرد وما ذلك إلا باتحاده مع «تركان خاتون»، وعدم إتيانه أمراً إلا برأيها ومشورتها حتى دانت لهما العباد، وذلت لسلطانهما البلاد.

ولما مات «ملكشاه» وفعلت زوجته كما ذكر أرسلت إلى الخليفة المقتدي في أمر الخطبة بأن يخطب لولدها محمود فأجابها بشرط أن يكون اسم السلطنة لولدها والخطبة له ويكون مدير زعامة الجيوش الأمير «أنز» يصدر عن رأي تاج الملك وهو الذي يدبر الأمر بين يدي «تركان خاتون» فلما جاءت رسالة الخليفة إلى «خاتون» بذلك امتنعت من قبوله فقيل لها: إن ولدك صغير ولا يجيز الشرع ولايته، وكان مخاطبها الغراني، فأذعنت له وأجابته إليه ولقب ناصر الدنيا والدين، وأرسلت «تركان خاتون» إلى أصبهان في القبض على «بركيارق»[1] أكبر أولاد السلطان خيفة أن ينازع ولدها في السلطنة، فقبض عليه، فلما ظهر موت «ملكشاه» وثبت المماليك النظامية على سلاح كان لنظام الملك بأصبهان فأخذوه وساروا من البلد وأخرجوا «بركيارق» من الحبس وملكوه بأصبهان وكانت والدته زبيدة بنت ياقوتي بنت عم «ملكشاه» خائفة على ولدها من «تركان خاتون» أم محمود فأتاها الفرج بالمماليك النظامية

---

(١) بركيارق: أو بركياروق سلطان سلجوقي ولد سنة ١٠٨٠ م، خلف أباه ملكشاه سنة ١٠٩٢ م. نازعه الملك أمّه، وإخوته، وأخواله معظم أيّام حكمه. رضي بتقسيم السلطنة سنة ١١٠٤ م. كانت نهاية ملكه بداية انحطاط السلاجقة. توفي سنة ١١٠٥ م.

Marfat.com

وسارت «تركان خاتون» من بغداد إلى أصبهان فطالب العسكر تاج الملك بالأموال فوعدهم، فلما وصلوا إلى قلعة برجين صعد إليها لينزل الأموال منها، فلما استقر فيها عصى على «تركان خاتون» ولم ينزل خوفاً من العسكر فساروا عنه ونهبوا خزائنه فلم يجدوا بها شيئاً، ولما وصلت «تركان خاتون» إلى أصبهان لحقها تاج الملك واعتذر لها بأن مستحفظ القلعة حبسه وأنه هرب منه إليها، فقبلت عذره.

وأما «بركيارق» فإنه لما قاربت «تركان خاتون» وابنها محمود أصبهان خرج منها هو ومن معه من النظامية وساروا نحو الري فلقيهم «أرغش» النظامي في عساكره وصاروا يداً واحدة، فلما اجتمعوا حاصروا قلعة «طبرق»[1] وأخذوها عنوة، وسيرت «تركان خاتون» العساكر إلى قتال «بركيارق» فالتقى العسكران بالقرب من «بروجرد»[2]، فاجتاز جماعة من الأمراء والذين في عسكر «خاتون» إلى «بركيارق» منهم الأمير «يلبرد» و«كمشتكين الجاندار» وغيرهما فقوى بهم وجرى الحرب بينهم، وآخر ذي الحجة اشتد القتال فانهزم عسكر «خاتون» وعادوا إلى أصبهان وصار «بركيارق» في أثرهم فحصرها بأصبهان.

وكان تاج الملك في عسكر «خاتون» وشهد الوقعة، فهرب إلى نواحي «بروجرد» فأخذ وحمل إلى عسكر «بركيارق» وهو يحاصر أصبهان، وكان يعرف كفاءته، فأراد أن يستوزره، فشرع تاج الملك في إصلاح كبار النظامية وفرق فيهم مائتي ألف دينار سوى العروض فزال ما في قلوبهم، فلما بلغ عثمان نائب نظام الملك الخبر ساءه، فوضع الغلمان الأصاغر على الاستغاثة وأن لا يقنعوا إلا بقتل قاتل صاحبهم ففعلوا فانفسخ ما دبره تاج الملك وهجم النظامية عليه فقتلوه، وفصلوه أجزاء وكان قتله في محرم سنة ٤٨٦ [هـ] وحمل إلى بغداد إحدى أصابعه وكان كثير الفضائل جمّ المناقب، وإنما غطى جميع محاسنه ممالأته على قتل نظام الملك، وهو الذي بنى تربة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي وعمل المدرسة التي إلى جانبها، ورتب بها الشيخ أبا بكر الشاشي، وكان عمره حين قتل سبعاً وأربعين سنة.

وفي شعبان سنة ٤٨٦ أرسلت «تركان خاتون» إلى إسماعيل بن ياقوتي بن داود خال «بركيارق» وابن عم «ملكشاه» تطمعه أن تتزوّج به وتدعوه إلى محاربة «بركيارق»، فأجابها إلى ذلك وجمع خلقاً كثيراً من التركمان وغيرهم أصحاب «سرهنك ساوتكين» في خيله، وأرسلت إليه «تركان خاتون» «كربوقا» وغيره من الأمراء في عسكر كثير، مدداً له، فجمع «بركيارق»

---

(١) بروجرد: مدينة إيرانية في لورستان، مشهورة بصناعة السجاد.
(٢) طُبُرق: مدينة ليبية فيها مرفأ في محافظة درنة قرب الحدود المصرية. كانت موقعاً عسكرياً في الحرب العالمية الثانية.

Marfat.com

عساكره وسار إلى حرب خاله إسماعيل، فالتقوا عند الكرج فانحاز الأمير «يلبرد» إلى «بركيارق» وصار معه فانهزم إسماعيل وعسكره وتوجه إلى أصبهان، فأكرمته «تركان خاتون» وخطبت باسمه وضربت اسمه على الدنانير بعد ابنها محمود بن «ملكشاه» وكاد الأمر في الوصلة يتم بينهما، فامتنع الأمراء عند ذلك لا سيما الأمير «أنز» وهو مدبر الأمر ورئيس الجيش وآثروا خروج إسماعيل عنهم، وخافوه وخاف هو أيضاً منهم، ففارقهم وأرسل يستأذن أخته «زبيدة» والدة «بركيارق» في اللحاق بهم فأذنت له في ذلك، فوصل إليهم وأقام عندهم أياماً يسيرة، فخلا به «كمشتكين الجاندار» و«آقسنقر» و«بوزوان» وبسطوا له في القول فأطلعهم على سره وأنه يريد السلطنة وقتل «بركيارق» فوثبوا عليه فقتلوه وأعلموا أخته خبره فسكتت عنه.

وفي سنة ٤٨٦ [هـ] أرسلت «تركان خاتون» جيشاً مع الأمير «أنز» لقتال «توران شاه بن قاورت بيك» حاكم بلاد فارس فسار إليه وحاربه وأخذ أكثر بلاده وبقي حاكماً عليها، ولما لم يحسن الأمير «أنز» تدبير بلاد فارس استوحش منه الأجناد واجتمعوا مع «توران شاه»[١] وهزموا «أنز»، ومات «توران شاه» بعد الكسرة بشهر من سهم أصابه فيها.

وبقيت «تركان خاتون» في عز ورفعة ومنعة لم يقدر عليها أحد من الملوك والسلاطين، وطالما حاول «بركيارق» إذلالها وأخذ السلطنة منها فلم يقدر عليها، وذلك من كثرة حكمتها وكرمها وحسن إدارتها فإن جميع الأمراء كانت تحبها وتسعى في خدمتها إلى أن توفيت في رمضان سنة ٤٨٧ [هـ] بأصبهان.

وكانت قد برزت من أصبهان لتسير إلى تاج الدولة «تتش»[٢] لتتصل به فمرضت وعادت وماتت، وأوصت إلى الأمير «أنز» وإلى الأمير «سرمز» شحنة أصبهان بحفظ المملكة على ابنها محمود ولم يكن بقي بيدها سوى قصبة أصبهان ومعها عشرة آلاف فارس أتراك وكان لها جملة آثار مثل: بناء مساجد وأضرحة، ومداوس، وبيمارستانات وخلاف ذلك في جميع أنحاء المملكة، وأسف الناس عليها أسفاً شديداً تغمدها الله برحمته.

تقية ابنة أبي الفرج

ذكرها الحافظ السلفي في تعليقه وأثنى عليها وأخذت عنه العلم بثغر الإسكندرية وفاقت

---

(١) توران شاه بن أيوب المتوفى سنة ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م. أمير أيوبي، أخو صلاح الدين الأكبر.

(٢) تتش: أوتاج الدولة المتوفي سنة ١٠٩٥ م. ابن ألب أرسلان السلجوقي. حكم الشام سنة ١٠٧٩ م حاول الوصول إلى العرش بعد وفاة أخيه ملكشاه. حارب الأمراء مناصري بركياروق بن ملكشاه، وأخضع آمد والموصل، وقتل أقسنقر حاكم حلب سنة ١٠٩٤ م، قتله بركياروق.

Marfat.com

الرجال فيه ولها زيادة على ذلك الباع الطولى في الشعر والأدب ولطائفها الأدبية مع الحافظ المذكور كثيرة منها أنه كان ماراً بمنزله، فعثر فجرح قدمه فقطعت جارية من الدار قطعة من خمارها وعصبت بها قدمه فأنشأت تقية تقول:

لو وجدت السبيل جدت بخدي عوضاً عن خمار تلك الوليدهْ
كيف لي أن أقبل اليوم رجلاً سلكت دهرها الطريق الحميدهْ

ومن غرائبها في الأدب أنها مدحت الملك المظفر بن أخي السلطان صلاح الدين بقصيدة خمرية. فقال ممازحاً: أتعرف الشيخة هذه الأحوال من صباها؟ فبلغها ذلك فنظمت قصيدة أخرى حربية وصفت فيها الحرب وما تتعلق به أحسن وصف وبعثتها إليه وقالت: علمي بهذا كعلمي بذاك وهي في القرن السادس من الهجرة.

تماضر الشهيرة بالخنساء[1]

هي ابنة عمرو بن الحارث بن الشريد بن رياح بن يقظة بن عصية بن خفاف بن امرئ القيس بن بهثة. وقيل: تهبة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس بن عيلان بن مضر، وتكنى أم عمرو، وإنما الخنساء لقب غلب عليها وهي الظبية وكان دريد بن الصمة[2] رآها يوماً وهي تهنأ جملاً فعلق بها وقال فيها:

حيوا تماضر واربعوا صحبي وقفوا فإن وقوفكم حسبي
أخناس قد هام الفؤاد بكم وأصابه تبل من الحبِّ

وخطبها بعد ذلك إلى أبيها فقال له أبوها: مرحباً بك يا أبا قرة إنك لكريم لا يطعن في حسبه واليد لا تردّ عن حاجته ولكن لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيرها وإنما أذكرك لها ثم دخل عليها وقال: يا خنساء، أتاك فارس هوازن وسيد بني جشم دريد بن الصمة يخطبك وهو ممن تعلمين، ودريد يسمع قولها فقالت: يا أبت، أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح وناكحة شيخ بني جشم هاته اليوم أو غداً وأنشأت تقول:

---

(١) للاستزادة يراجع: شرح الشواهد (٩٨). معاهد التنصيص (١: ٣٤٨). الشعر والشعراء (١٢٣). الدر المنثور (١٠٩). الشريشي (٢: ٢٣٣). أعلام النساء (١: ٣٠٥). حسن الصحابة (٩٤). خزانة الأدب (١: ٢٠٨). جمهرة الأنساب (٢٤٩).

(٢) هو دريد بن الصمّة الجشمي البكري، من هوازن، شجاع، من الأبطال، الشعراء، المعمرين في الجاهلية، كان سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم، وغزار نحو مائة غزوة لم يُهزم في واحدة منها، عاش حتى سقط حاجباه عن عينيه، وأدرك الإسلام، ولم يسلم، فقتل على دين الجاهلية يوم حُنين، وكانت هوازن خرجت لقتال المسلمين فاستصحبته معها تيمناً به، وهو أعمى، ولما انهزمت جموعها أدركه ربيعة بن رفيع السلمي فقتله. الصمة لقب أبيه معاوية بن الحارث.

Marfat.com

أتخطبنـــي هبلـــت علـــى دريـــد وتطـــرد سيـــداً مـــن آل بـــدرِ
معـــاذ الله ينكحنـــي خبـــر كـــي يقـــال أبـــوه مـــن جشـــم بـــن بكـــرِ
ولـــو أمسيـــت فـــي جشـــم هـــديـــا لقـــد أمسيـــت فـــي دنـــس وفقـــرِ

فخرج إليه أبوها فقال: يا أبا قرة، قد امتنعت ولعلها أن تجيب فيما بعد فقال دريد: سمعت ما دار بينكما وانصرف غضبان وقال يهجو الخنساء:

لمـــن طلـــل بـــذات الخمـــس أمـــس عفـــا بيـــن العقيـــق فبطـــن خـــرسِ
أشبهـــا غمـــامـــة يـــوم دجـــن تـــلألأ بـــرقهـــا أو ضـــوء شمـــسِ

وهي طويلة أضربنا عنها فقيل للخنساء: ألا تجيبيه؟ فقالت: لا أجمع عليه أن أرده وأهجوه، ولما ردت دريداً خطبها رواحة بن عبد العزيز السلمي فولدت له عبد الله، ثم خلف عليها مرداس بن أبي عامر فولدت له يزيد ومعاوية وبنتاً اسمها عمرة.

حكى بعضهم أنه لما كانت ليلة زفاف عمرة كانت أمها جالسة ملتفة بكساء أحمر وقد هرمت وهي تلحظ ابنتها لحظاً شديداً فقال القوم: يا عمرة، ألا تحرّشت بأمك فإنها الآن تعرف بعض ما أنت فيه، فقامت عمرة تريد شيئاً، فوطأت على قدمها وطأة أوجعتها فقالت لها وقد اغتاظت: حسن إليك يا حنفاء كأنما تطئين أمة ورهاء أنا كنت أكرم منك عرساً، وأطيب ورساً، وذلك زمان إذ كنت فتاة أعجب الفتيان، لا أذيب الشحم ولا أرعى البهم، كالمهرة الصنع لا مضاعة ولا عند مضيع، فضحك القوم من غيظها.

وكانت الخنساء من شواعر العرب المعترف لهن بالتقدم وهي تعدّ من الطبقة الثانية في الشعراء، وأكثر شعرها في رثاء أخويها معاوية وصخر. وكان معاوية أخاها لأمها وأبيها، وكان صخر أخاها لأبيها وأحبهما إليها واستحق صخر ذلك منها لأنه كان موصوفاً بالحلم مشهوراً بالجود معروفاً بالتقدم والشجاعة، محظوظاً في العشيرة وأجمل رجل في العرب، فلما قتل جلست الخنساء على قبره زماناً طويلاً تبكيه وترثيه وفيه جل مراثيها، وكانت في أول أمرها تقول البيتين أو الثلاثة حتى قتل أخوها معاوية وصخر وقد أجمع الشعراء على أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها.

وقيل لجرير[1]: مَنْ أشعر الناس؟ فقال: أنا لولا هذه الخبيثة ـ يعني الخنساء ـ قال

---

(١) هو جرير بن عطية بن حذيفة الخَطَفي بن بدر الكلبي اليربوعي، من تميم، أشهر أهل عصره. ولد سنة ٢٨ هـ/ ٦٥٠ م في اليمامة. عاش عمره كلّه يناضل شعراء زمانه ويساجلهم وكان هجّاءً مُرّاً، فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل. وكان عفيفاً، وهو من أغزل الناس شعراً. كان يُكنى بأبي حَزْرَة مات في اليمامة سنة ١١٠ هـ/ ٧٢٨ م.

Marfat.com

بشار[١]: لم تقل امرأة قط شعراً إلا تبين الضعف في شعرها. فقيل له: أَوَكذلك الخنساء؟ قال: تلك فوق الرجال. وكان الأصمعي[٢] يقدّم ليلى الأخيلية[٣] عليها.

قال المبرد[٤]: كانت الخنساء وليلى فائقتين في أشعارهما متقدمتين لأكثر الفحول، وكان النابغة الذبياني يجلس للشعراء في سوق عكاظ[٥] وتأتيه الشعراء فتنشده أشعارها فأنشدته الخنساء في بعض المواسم قصيدتها الرائية التي في أخيها صخر، فأعجبه شعرها وقال لها: اذهبي فأنت أشعر من كانت ذات ثديين، ولولا هذا الأعمى أنشدني قبلك ـ يعني الأعشى[٦] ـ لفضلتك على شعراء هذا الموسم فإنك أشعر الإنس والجن، وكان ممن عرض شعره في ذلك الموسم حسان بن ثابت[٧] فغضب وقال: أنا أشعر منك ومنها. فقال: ليس الأمر كما ظننت،

---

(١) هو بشّار بن بُرد العُقيلي، بالولاء، أبو معاذ، أشعر المولدين على الإطلاق. أصله من طخارستان غربي نهر جيحون ونسبته إلى امرأة عقيلية قيل إنها أعتقته من الرق. وكان ضريراً. ولد سنة ٩٥ هـ/ ٧١٤ م. نشأ في البصرة وقدم بغداد. أدرك الدولتين الأموية والعباسية. شعره كثير متفرّق من الدرجة الأولى. توفي سنة ١٦٧ هـ/ ٧٨٤ م.

(٢) هو عبد الملك بن قُريب علي بن أطمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي. راوية العرب. أحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. نسبته إلى جدّه أَصْمَع. مولده في البصره سنة ١٢٢ هـ/ ٧٤٠ م. كان كثير التطواف في البوادي، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها، ويتحف بها الخلفاء، فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة. كان الرشيد يسميه: «شيطان الشعر». كان يقول: إنني أحفظ عشرة آلاف أرجوزة.

(٣) هي ليلى بن عبد الله بن الرحال بن شداد بن كعب، الأخيلية، من بني عامر بن صعصعة. شاعرة فصيحة ذكية جميلة. اشتهرت بأخبارها مع توبة بن الحمير. قال لها عبد الملك بن مروان: ما رأى منك توبة حتى عشقك؟ فقالت: ما رأى الناس منك حتى جعلوك خليفة. وفدت على الحجاج مرّات عدة فكان يكرمها ويقرّبها. طبقتها في الشعر تلي طبقة الخنساء. كان بينها وبين النابغة الجعدي مهاجاة. ماتت في ساوة ودفنت بها سنة ٨٠ هـ/ ٧٧٠ م.

(٤) هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس المعروف بـ«المبرّد». ولد سنة ٢١٠ هـ/ ٨٢٦ م في البصرة. إمام العربية ببغداد في زمنه، وأحد أئمة الأدب والأخبار. توفي في بغداد سنة ٢٨٦ هـ/ ٨٩٩ م.

(٥) عكاظ: قال الليث سمّي عكاظ عكاظاً لأن العرب كانت تجتمع فيه، فيعكظ بعضهم بعضاً بالفخار (أي يدعك). وهو اسم لسوق من أسواق العرب في الجاهلية. كانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ في كل سنة ويتفاخرون فيها ويحضرها شعراؤهم ويتناشدون. معجم البدان، ج ٤/ ص ١٦٠.

(٦) هو عامر بن الحارث بن رياح الباهلي، المعروف بـ«الأعشى» من همدان، شاعر جاهلي، يكنى أبو قحفان، أشهر شعره رائية له في رثاء أخيه لأمه المنتشر بن وهب.

(٧) هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حَرَام بن عمرو، أبو عبد الرحمٰن، الأنصاري، الخزرجي، شاعر الرسول ﷺ، المتوفى سنة ٥٤ هـ، وله من العمر ١٢٠ سنة، عاش ٦٠ سنة من عمره في الجاهلية و٦٠ سنة في الإسلام، مخضرم، كانت له ناصية يسدلها بين عينيه، وكان يضرب بلسانه روثة أنفه من طوله، كان شديد الهجاء فحل الشعراء، قال المبرّد في الكامل في التاريخ والأدب: «أعرق قوم كانوا في الشعر آل حسّان».

Marfat.com

ثم التفت إلى الخنساء. وقال: يا خناس خاطبيه، فالتفتت إليه الخنساء وقالت: ما أجود بيت في قصيدتك هذه التي عرضتها آنفاً؟ قال قولي فيها:

لنا الجفنات الغرّ يلمعن في الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فقالت: ضعفت افتخارك وأندرته في ثمانية مواضع في بيتك هذا. قالت: قلت لنا: الجفنات[1] والجفنات ما دون الغر، ولو قلت: الجفان لكان أكثر، وقلت: الغرّ، والغرة: بياض في الجبهة، ولو قلت: البيض لكان أكثر اتساعاً، وقلت: يلمعن، واللمع: شيء يأتي بعد شيء، ولو قلت: يشرقن لكان أكثر لأن الإشراق أدوم من اللمعان. وقلت: بالضحى ولو قلت: بالدجى لكان أكثر إطراقاً، وقلت: أسياف، والأسياف: ما دون العشرة، ولو قلت: سيوفاً لكان أكثر، وقلت: يقطرن، ولو قلت: يسلن لكان أكثر، وقلت: دماً، والدماء: أكثر من الدم.

فسكت حسان ولم يردّ جواباً وكان في أثناء ذلك ظهور الإسلام، فقدمت الخنساء على رسول الله ﷺ فأسلمت واستنشدها فأنشدته فأعجب بشعرها وهو يقول: «**هيه يا خنساء**»[2]. ثم انصرفت.

وقيل: إن عمر بن الخطاب سألها ما أقرح مآقي عينيك؟ قالت: بكائي على السادات من مضر. قال: يا خنساء، إنهم في النار. قالت: ذاك أطول لعويلي عليهم إني كنت أبكي لهم من الثأر، وأنا اليوم أبكي لهم من النار. وقيل: إنها أقبلت في خلافته حاجة، فنزلت بالمدينة بزي الجاهلية فقام إليها عمر في أناس من الصحابة فدخل عليها فإذا هي كما وصفت له فعذلها ووعظها، وقال لها: إن الذي تصنعين ليس صنع الإسلام، وإن الذين تبكين هلكوا في الجاهلية وهم أعضاء اللهيب وحشو جهنم. فقالت: اسمع مني ما أقول في عذلك إياي ولومك لي فقال: هات، فأنشدته من شعرها في أخويها فتعجب من بلاغتها. وقال: دعوها فإنها لا تزال حزينة أبداً.

وقيل: إنها أتت عائشة فنظرت إليها وعليها الصدار وهي محلوقة الرأس تدب من الكبر على عصي فقالت لها عائشة: أخناس؟ فقالت: لبيك يا أماه، قالت: أتلبسين الصدار وقد نُهي عنه في الإسلام؟ فقالت: لم أعلم بنهيه. قالت: ما الذي بلغ بك ما أرى؟ قالت: موت أخي صخر. قالت عائشة: ما دعاك إلى هذا إلا صنائع من جميله، فصفيها لي. قالت: نعم، إن لشعاري سبباً، وذلك أن زوجي كان رجلاً متلافاً للأموال يقامر بالقداح، فأتلف فيها ماله حتى بقينا على غير شيء فأراد أن يسافر فقلت له: أقم وأنا آتي أخي صخراً فأسأله، فأتيته، فشكوت

---

(١) الجفنات: الخمرة. [القاموس المحيط، مادة: جفن].
(٢) أخرجه مسلم في الصحيح (الشعر: ١).

Marfat.com

إليه حالنا وقلة ذات أيدينا فشاطرني ماله، فانطلق زوجي فقامر به فقمر حتى لم يبق لنا شيء فعدت إليه في العام المقبل أشكو إليه حالته فصار لي بمثل ذلك فأتلفه زوجي، فلما كان في الثالثة أو في الرابعة خلت بصخر امرأته فعذلته ثم قالت: إن زوجها مقامر وهذا ما لا يقوم به شيء فإن كان ولا بد من صلتها فأعطها خمس مالك فإنما هو متلف والخير فيه والشر سيان، فأنشأ يقول لامرأته.

والله لا أمنحهـــا شـــرارهـــا وهـي حصـان قـد كفتنـي عـارهـا
ولـو هلكـت مـزقـت خمـارهـا واتخـذت مـن شعـر صـدارهـا

ثم شطر ماله فأعطاني أفضل شطريه، فلما هلك اتخذت هذا الصدار، والله لا أخلف ظنه ولا أكذب قوله ما حييت.

وكان للخنساء أربعة بنين فلما ضرب البحث على المسلمين بفتح فارس صارت معهم وهم رجال، وحضرت وقعة القادسية[1] سنة ١٦ هجرية وسنة ٦٣٨ ميلادية وأوصتهم من الليل بقولها: يا بنيّ، إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة ما هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم واعلموا إن الدار الآخرة خير من الدار الفانية ﴿ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، وجللت ناراً على أرواقها، فتيمموا وطيسها وجالدوا رسيسها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة، فلما أضاء لهم الصبح باكروا إلى مراكزهم فتقدموا واحداً بعد واحد ينشدون أراجيز يذكرون فيها وصية العجوز لهم حتى قتلوا عن آخرهم فبلغ الخبر إليها فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة، وكان عمر بن الخطاب يعطيها أرزاق بنيها الأربعة، وكان لكل منهم مائة درهم حتى قبض.

وأخبار الخنساء كثيرة وهي أشهر من أن تذكر، ومن شعرها قولها في أخويها معاوية وصخر وأبيها عمرو:

أبكـي أبـي عمـراً بعيـن غـريـرة قليـل إذا نـام الخلـيّ هجـودُهـا
وصنـويّ لا أنسـى معـاويـة الـذي لـه مـن سـراة الحـرّتيـن وفـودُهـا
وصخراً ومن ذا مثل صخر إذا غدا بسلهبـة الآطـال قَـرْمٌ[2] يقـودُهـا

---

(١) يراجع: عمر بن الخطاب، ثاني الخلفاء الراشدين، محمد رضا، حققه وعلّق عليه محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ص ٨٨ ـ ١٣١.
(٢) قَرْم: فحل. [القاموس المحيط، مادة: قرم].

Marfat.com

وقولها في أخويها:

من حس بالأخوين كالـ ـغصنين أو من رآهُما
قرمين لا يتظالمان ن ولا يرام حماهُما
ويلي على الأخوين والـ ـقبر الذي واراهُما
رمحين خطيين في كبد السماء ثناهُما
ما خلفا إذ ودّعا في سودد ثرواهُما
سارا بغير تكلف عفواً بفيض نداهُما

وقولها ترثي أخاها معاوية:

ألا لا أرى في الناس مثل معاويه إذا طرقت إحدى الليالي بداهيهْ
بداهية يصغي الكلاب حسيسها وتخرج من سر النجيّ علانيهْ
ألا لا أرى كالفارس الورد فارساً إذا ما علته جهرة وعلانيهْ
وكان لزاز الحرب عند شبوبها إذا شمرت عن ساقها وهي ذاكيهْ
بلينا وما تبلى نضار وما ترى على حدث الأيام إلا كما هيهْ
فأقسمت لا ينفك دمعي وعولتي عليك بحزن ما دعا الله داعيه

وقولها أيضاً فيه وكان مقتله في بني مرة:

ألا ما لعينك أم مالها لقد أخضل الدمع سربالَها
أبعد ابن عمرو من آل الشريـ ـد حلت به الأرض أثقالَها
وأقسمت آسي على هالك وأسأل نائحة ما لَها
سأحمل نفسي على آلة فإما عليها وإما لَها
نهين النفوس وهون النفو س يوم الكريهة أبقى لَها
ورجراجة فوقها بيضها عليها المضاعف أقتالَها
ككر فئة الغيث ذات الصبيـ ـر ترمي السحاب ويرمى لَها
وقافية مثل حد السنا ن تبقى ويهلك من قالَها
نطقت ابن عمرو فسهلتها ولم ينطق الناس أمثالَها
فإن تك مرّة أودت به فقد كان يكثر تقتالَها
تزول الكواكب من فقده وجللت الشمس إجلالَها

وأما مراثيها في أخيها صخر فكثيرة جداً كما قلنا وأشهر ما قالت فيه قولها عندما مات:

اذهب فلا يبعدنك الله من رجل درّاك ضيم وطلاب بأوتارِ

Marfat.com

قد كنت تحمل قلباً غيره مؤتشب مـركـب فـي نصـاب غيـر خـوّارِ
فسوف أبكيك ما ناحت مطوّقة وما أضاءت نجوم الليل للساري
شـدوا المـآزر حتـى تستعـاد لكـم وشمـــروا إنهـــا أيـــام تشمـــارِ
وابكـوا فتـى الحـيّ لاقتـه منيتـه وكـل حـيّ إلـى وقـت ومقـدارِ

وقولها:

يـذكـرنـي طلـوع الشمـس صخـراً وأذكـره لكـل غـروب شمـسِ
ولـولا كثـرة البـاكيـن حـولـي علـى مـوتـاهـم لقتلـت نفسـي
ومـا يبكـون مثـل أخـي ولكـن أعـزي النفـس عنـه بـالتـأسـي

وقولها:

أعينـــيّ جـــودا ولا تجمـــدا ألا تبكيـــان لصخـــر النـــدَا
ألا تبكيـــان الجـــريء الجميـــل ألا تبكيـــان الفتـــى السيـــدَا
طـويـل النجـاد رفيـع العمـا د سـاد عشيـرتـه أمـردَا[1]
إذا القـوم مـدّوا بـأيـديهـم إلـى المجـد مـدّ إليـه يـدَا
فنـال الـذي فـوق أيـديهـم إلـى المجـد ثـم مضـى مسعـدَا
يحملـه القـوم مـا عـالهـم وإن كـان أصغـرهـم مـولـدَا
تـرى المجـد يهـدي إلـى بيتـه يـرى أفضـل المجـد أن يحمـدَا
وإن ذكـــر المجـــد ألفيتـــه تـأزر بـالمجـد ثـم ارتـدَى

وقولها:

قـذى بعينيـك أم بـالعيـن أعـور أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدارُ
تبكـي لصخـر العبـرَى وقـد ذرفـت ودونـه مـن جـديـد التـرب أستـارُ
لا بدَّ من موتة في صرفها غيَر والدهر في صرفه حول وأطوارُ
يـا صخـر وارد مـاء قـد تنـاذره أهـل المـوارد مـا فـي ورده عـارُ
مشى السبنتي[2] إلى هيجاء معضلة لـه سـلاحـان أنيـاب وأظفـارُ
فمـا عجـول علـى بـوّ تطيـف بـه لهـا حنينـان إصغـار وإكبـارُ
ترعـى إذا نسيـت حتـى إذا ذكـرت فـإنمـا هـي إقبـال وإدبـارُ
لا تسمن الدهر في أرض وإن رتعت[3] فـإنمـا هـي تحنـان وتسجـارُ

---

(١) الأمرد: الشاب طرَّ شاربه ولم تنبت لحيته. [القاموس المحيط، مادة: مرد]،
(٢) السبنتي: الجريء المقدّم، النمر. [القاموس المحيط، مادة: سبت].
(٣) رتع: أقام في المكان وتنعّم وأكل فيه وشرب ما شاء في خصب وسعة ورغد. [القاموس، مادة: رتع].

Marfat.com

يوماً بأوجد مني يوم فارقني صخر وللدهر إحلاء وإمرارُ
فإن صخراً لوالينا وسيدنا وإن صخراً إذا نشتو لنحارُ[١]
وإن صخراً التأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نارُ
لم تره جارة يمشي بساحتها لريبة حين يخلى بيته الجارُ
ولا تراه وما في البيت يأكله لكنه بارز بالصحن مهمارُ
مثل الردينيّ لم تنفد شبيبته كأنه تحت طيّ البرد أسوارُ
في جوف رمس مقيم قد تضمَّنه في رمسه مقمطرات وأحجارُ
طلق اليدين لفعل الخير ذو فخر ضخم الدسيعة[٢] بالخيرات أمارُ
في رفقة حار حاديهم بمهلكة كأن ظلمتها في الطخية[٣] القارُ
كان دمعي لذكراه إذا خطرت فيض يسيل على الخدّين مدرارُ
تبكي خُنَاس[٤] على صخر وحق لها إذ رابها الدهر إن الدهر ضرارُ

وتوفيت الخنساء[٥] في البادية في خلافة معاوية بن أبي سفيان رحمة الله عليها.

تماضر زوجة زهير

كانت من بنات بني عبس الأكابر الذين ورثوا المجد كابراً عن كابر، تزوّجت بالملك زهير العبسي على محبة ووفاق وزادت به شرفاً ومقاماً، وإجلالاً وإكراماً، وولدت له جملة أولاد نجباء، منهم: قيس، ومالك ابنا زهير، وزوجها زهير ملك بني عبس، ولها رثاء قليل في ولدها مالك قتله حذيفة بن بدر[٦]، ومن قولها:

كأن العين خالطها قذاها لغيبتكم فلم تعطَ كراها
على ولد وزين الناس طراً إذا ما النار لم تَر من صلاها
لئن حزنت بنو عبس عليه فقد فقدت بنو عبس[٧] فتاها

---

(١) نحّار: كثير النحر أي الذبح وهذا دليل الكرم والغنى. [القاموس المحيط، مادة: نحر].
(٢) الدسيعة: العطية الجزيلة، المائدة الكريمة. [القاموس المحيط، مادة: دسع].
(٣) الطُخيه، الطَخية، الطِخية: القطعة من السحاب، [القاموس المحيط، مادة: طخا].
(٤) خُنَاس: ترخيم الخنساء، تحبباً.
(٥) كانت وفاتها سنة ٢٤ هـ/ ٦٤٥ م.
(٦) هو حذيفة بن بدر، يضرب به المثل في سرعة السير. كان في عصر المنذر بن ماء السماء، في الجاهلية، قيل: سار في ليلة مسيرة ثماني ليالٍ، فضُرب به المثل.
(٧) بنو عبس: بطن من غطفان من العدنانية، وهم بنو عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان، كان له من الولد قطيعة وورقة. منهم زهير بن قيس صاحب حرب داحس والغبراء.

Marfat.com

فمن للضيف إن هبت شمال ... مزعزعة يجاوبها صداها
أسيدكم وحاميكم تركتم ... على الغبراء منهدماً رحاها
نرى الشم الجحاجح[١] من بغيض ... تبدّد جمعها يوماً رآها
فيتركها إذا اضطربت بطعن ... وينهبها إذا اشتجرت[٢] قناها
حذيفة لا سقيت من الغوادي ... ولا روّتك هاطلة[٣] نداها
كما أفجعتني بفتى كريم ... إذا وزنت بنو عبس وفاها
فدمعي بعده أبداً هطول ... وعيني دائم أبداً بكاها

تنوسة جارية علية بنت المهدي العباسي[٤]

كانت ذات حسن وجمال، وبهاء وكمال، وأدب ما له مثال. تعلمت الغناء حتى صارت أحسن المغنين والمغنيات، وساعدها على ذلك صوتها وحدّة ذهنها وشدّة استحضارها. وكانت تختلف إلى الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر[٥] وترتاح لمنادمته، وهو يشتاق لسماع صوتها.

وقيل: إن محمد بن عبد الله جلس يوماً في مجلس أنسه وكان عنده صديقه الحسن بن محمد بن طالوت، وكان أخص الناس به فقال له: لا بد لنا في يومنا هذا من ثالث نطيب بمعاشرته، ونلتذ بصحبته ومؤانسته حتى نسمع صوت «تنوسة» فمن ترى أن يكون طاهر الأعراق غير دنس الأخلاق، فأعمل فكره الحسن وأمعن نظره وقال: أيها الأمير قد خطر ببالي

---

(١) الجحاجح: السيد المسارع إلى الكَرَم. [القاموس المحيط، مادة: جحّ].
(٢) اشتجرت: اشتجر القوم أي تشاجروا. [القاموس المحيط، مادة: شجر].
(٣) هاطلة: المطر نزل متتابعاً متفرقاً عظيم القطر. [القاموس المحيط، مادة: هطل].
(٤) هو محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي العباسي، أبو عبد الله، المهدي بالله، من خلفاء الدولة العباسية في العراق. ولد بإيذج من كور الأهواز سنة ١٢٧ هـ/ ٧٤٤ م. ولي بعد وفاة أبيه وبعهد منه سنة ١٥٨ هـ. أقام في الخلافة عشر سنين وشهراً، مات في ماسبذان سنة ١٦٩ هـ/ ٧٨٥ م. كان محمود السيرة والعهد، محبباً إلى الرعية حسن الخَلق والخُلق، جواداً، هو أول من مُشي بين يديه بالسيوف المصلتة والقسي والنشّاب والعُمد، وهو أول من لعب بالصوالجة في الإسلام. بنى جامع الرصافة، وتربته بها، انمحى أثر الجامع والتربة بعد ذلك.
(٥) هو محمد بن عبد الله بن طاهر الخزاعي، أبو العباس ولد سنة ٢٠٩ هـ/ ٨٢٤ م، أمير حازم، من الشجعان، من بيت مجد ورياسة. ولي نيابة بغداد في أيام المتوكل العباسي، توفي بها سنة ٢٥٣ هـ/ ٨٦٧ م. له في فتنة «المعتز بالله» أخبار كثير. كان فاضلاً أديباً جواداً، قال الخطيب البغدادي: كان مَألفاً لأهل العلم والأدب. قال الشابشتي: لما مات محمد بن عبد الله بن طاهر اشتد وجد «المعتزّ» عليه وكان يرى أن الأتراك يهابونه من أجله، ورثاه.

Marfat.com

رجل ليست علينا في مجالسته كلفة قد خلا من إبرام المجالسة وبرئ من ثقل المؤانسة خفيف الوقفة إذا أحببت، سريع الوثبة إذا أمرت. قال: ومَن ذاك؟ قال: «مان الموسوس»[١]. قال: أحسنت والله فتقدم إلى أصحاب الأرباع بطلبه، فما كان بأسرع من أن اقتنصه صاحب ربع الكرخ[٢] فسار به إلى باب الأمير فأدخل الحمام وأخذ من شعره، وألبس ثياباً نظافاً، ثم أدخل عليه فقال: السلام عليك يا أمير. فقال: عليك السلام يا «مان»، ألم يأن أن تزورنا على حين توقان منا إليك، ومنازعة قلوبنا نحوك. فقال «مان»: الشوق شديد، والمزار بعيد، والحجاب عتيد، والبوّاب فظ عنيد ولو سهل الإذن لسهلت علينا الزيارة. قال: لقد ألطفت في الاستئذان، فلا تمنع في أيّ وقت جئت من ليل أو نهار، ثم أذن له فجلس، ثم دعا له بالطعام فأكل، ثم غسل يديه وأخذ مجلسه. وكان محمد قد تشوّق إلى السماع من «تنوسة» جارية ابنة المهدي، فأحضرت فكان أوّل ما غنت:

ولســت بنــاس إذ غــدوا فتحملــوا دموعي على الأحباب من شدّة الوجدِ
وقولي وقد زالت بليل حمولهم بواكر تخدى لا يكن آخر العهدِ

فقال «مان»: أحسنت والله، ألا زدت فيه:

أقمت أناجي الفكر والدمع حائر بمقلة موقوف على الجهد والضدِّ
ولــم يعــدنــي هــذا الأميــر بعــزه على ظالم قد لج في الهجر والبعدِ

فاندفعت تغنيه، فرق محمد بن عبد الله له وقال: أعاشق أنت يا «مان»؟ قال: فاستحيا وغمزه ابن طالوت أن لا يبوح له بشيء فيسقط من عينه فقال: بل هلع، وطرب أعز الله الأمير وشوق كان كامناً فظهر وهل بعد المشيب من صبوة، ثم اقترح محمد على «تنوسة» هذا الصوت من شعر أبي العتاهية[٣]:

---

(١) هو محمد بن القاسم، أبو الحسن، المعروف بـ«ماني الموسوس» شاعر كان من أظرف الناس وألطفهم، من أهل مصر. رحل إلى بغداد أيام المتوكل العباسي.

(٢) الكرخ: هو تجمّع التجار أو السوق وقد بُني بأمر من المنصور. معجم البلدان، ج ٤/ ص ٥٠٨.

(٣) هو إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، العنزي، من قبيلة عنزة بالولاء، أبو إسحاق الشهير بـ«أبي العتاهية»، شاعر مكثر سريع الخاطر، في شعره إبداع. كان ينظم المائة والمائة وخمسون بيتاً في اليوم، حتى لم يكن للإحاطة بجميع شعره في سبيل. وهو يُعدّ من مقدّمي المولدين، من طبقة بشار، وأبي نواس وأمثالهما. كان جيد القول في الزهد والمديح وأكثر أنواع الشعر في عصره. ولد في عين التمر بقرب الكوفة سنة ١٣٠ هـ/٧٤٨ م. نشأ في الكوفة، وسكن بغداد. وكان في بَدء أمره يبيع الجِرار ثم اتّصل بالخلفاء وعلت مكانته عندهم. وهجر الشعر مُدّة، فبلغ ذلك المهدي العباسي، فسجنه ثم أحضره إليه وهدد بالقتل أو يقول الشعر، فعاد إلى نظمه، فأطلقه. توفي في بغداد سنة ٢١١ هـ/٨٢٦ م.

Marfat.com

حجبوها عن الرياح لأني قلت يا ريح بلغيها السلاما
لو رضوا بالحجاب هان ولكن منعوها يوم الرحيل الكلاما

فغنته فطرب محمد، ثم دعا برطل فشربه فقال «مان»: ما على قائل هذا الشعر لو زاد فيه:

فتنفست ثم قلت لطيفي آه لو زرت طيفها إلماما
خصها بالسلام ستراً وإلا منعوها لشقوتي أن تناما

فكان أبعث للصبابة بين الأحشاء وألطف تغلغلاً على كبد الظمآن من زلال الماء مع حسن تأليف نظامه وانتهائه إلى غاية تمامه قال محمد: أحسنت والله يا «مان»، ثم أمر «تنوسة» بإلحاقها هذين البيتين بالأوّلين ففعلت ثم غنت هذين البيتين من شعر أبي نواس[1]:

يا خليليّ ساعة لا تريما وعلى ذي صبابة فأقيما
ما مررنا بدار زينب إلا فضح الدمع سرنا المكتوما

فاستحسنه محمد فقال «مان»: لولا رهبة التعدي لأضفت إلى هذين البيتين بيتين لا يردان على سمع ذي لب إلا صدّ استحسانه لهما. فقال محمد: الرغبة فيما تأتي به حائلة دون كل رهبة فهات ما عندك فقال:

ظبية كالغزال لو تلحظ الصخـ ـر بطرف لغادرته هشيما
وإذا ما تبسمت خلت ما تبدّى من الثغر لؤلؤاً منظوما

قال محمد: أحسنت والله فأجز:

لم تطب اللذات إلا لمن طابت له لذات تنوسهْ
غنت بصوت أطلقت عبرة كانت بحسن الصبر محبوسهْ

فقال «مان»:

وكيف صبر النفس عن غادة تظلمها إن قلت طاووسهْ
وجرت إن شبهتها بانة في جنة الفردوس مغروسهْ

ثم سكت، فقال محمد: فأعد لي وصفك لها، فقال:

---

(١) هو الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكمي، بالولاء، أبو نؤاس. شاعر العراق في عصره، ولد في الأهواز من بلاد خوزستان سنة ١٤٦ هـ/ ٧٦٣ م. نشأ بالبصرة، ورحل إلى بغداد فاتصل فيها بالخلفاء من بني العباس، ومدح بعضهم، وخرج إلى دمشق، ومنها إلى مصر، فمدح أميرها الخصيب، وعاد إلى بغداد فأقام إلى أن توفي فيها سنة ١٩٨ هـ/ ٨١٤ م. كان جدّه مولى للجراح بن عبد الله الحكمي، أمير خراسان، فنسب إليه.

Marfat.com

وغيـــر عـــدل إن قـــرنـــا بهـــا جـــوهـــرة فـــي التـــاج مغـــروســـه
جلـت عـن الـوصـف فمـا فكـرة تلحقهـا بـالنعـت محسـوسـه

فقالت «تنوسة»: وجب علينا يا «مان» شكرك، فساعدك دهرك، وعطف عليك الفك، وقارنك سرورك، وفارقك محذورك، والله تعالى يديم لنا السرور ببقائه اجتمع شملنا فأنشأ يقول:

ليـــس لـــي إلـــف فيقطعنـــي فـــارقـــت نفســـي الأبـــاطيـــلُ
أنـــا مـــوصـــول بنعمـــة مـــن حبلـــه بـــالحمـــد مـــوصـــولُ
أنـــا مشمـــول بمنَّـــة مـــن منـــه فـــي الخلـــق مبـــذولُ
أنـــا مغبـــوط بـــزورة مـــن ربعـــه بـــالمجـــد مـــأهـــولُ

فأومأ إليه ابن طالوت بالقيام فنهض وهو يقول:

ملـــك عـــز النظيـــر لـــه زانـــه الغـــرّ البهـــاليـــلُ
طـــاهـــريّ فـــي مـــركبـــه عـــرفـــه للنـــاس مبـــذولُ
دم مـــن يشقـــى بصـــارمـــه مـــع هبـــوب الـــريـــح مطلـــولُ

فقال محمد: وجب جزاؤك لشكرك على غير نعمة سلفت منا إليك، ثم أقبل على ابن طالوت فقال: يا هذا، ليس خساسة ثوب المرء واتضاع المنظر ونبوّ العين بمذهب جوهر الأدب المركب فيه ولله در صالح بن عبد القدوس حيث يقول:

لا يعجبنـــك مـــن يصـــون ثيـــابـــه حـــذر الغبـــار وعـــرضـــه مبـــذولُ
فلـــربمـــا افتقـــر الفتـــى فـــرأيتـــه دنـــس الثيـــاب وعـــرضـــه مغســـولُ

ثم قال وهو واقف:

مـــدمـــن التحقيـــق مـــوصـــول ومطيـــل اللبـــث مملـــولُ

فأنا استودعكم الله، ثم انصرف فأمر له محمد بن عبد الله بصلة سنية قال ابن طالوت: فما رأيت أحداً أحضر ذهناً منه إذ تقول له الجارية عطف عليك الفك فينفيها بقوله: ليس لي إلف فيقطعني البيت. قال: ولم يزل محمد مجرياً عليه رزقاً سنياً إلى أن مات، وبقيت «تنوسة» معززة مكرمة في منزل علية ابنة المهدي إلى أن ماتت بعدما عمرت ولم يتغير شيء من صوتها وجمالها.

Marfat.com

حرف الثاء

ثبيتة ابنة الضحاك بن خليفة الأنصارية الأشهلية

ولدت على عهد رسول الله ﷺ وكانت على جانب عظيم من الجمال والكمال، واللطافة والأدب، وعزة النفس. وكان يضرب بها المثل في الجمال بين نساء العرب، وكانت كلما خرجت من منزلها تتمايل إليها الأنظار وتهوى إليها القلوب بالأبصار وكان مرة سهل بن أبي حثمة ماراً في الطريق فرأى محمد بن مسلمة[1] يطارد ثبيتة بنظره فقال له: أتفعل هذا وأنت صاحب رسول الله ﷺ. فقال: نعم، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا ألقى الله عز وجل في قلب رجل خطبة امرأة فلا بأس أن ينظر إليها**»[2]. ومن ذلك يتضح أن من أراد الخطبة فله أن ينظر مخطوبته قبل زواجه بها، وبقيت ثبيتة محط أنظار شبان الصحابة حتى تزوجت وهي في غاية العفَّة والصيانة ولم يمدد إليها أحد يده بسوء، ولها صحبة حسنة وأحاديث نبوية.

ثبيتة ابنة مرداس بن قحفان العنبري

كانت من شاعرات العرب وكرمائهن اللاتي يضرب بهن المثل، وكان زوجها كريماً لم يوجد أكرم منه في زمانه.

قيل: إنه أتاه أخو امرأته يوماً فأعطاه بعيراً من إبله وقال لامرأته: هاتي حبلاً يقرن به ما أعطيناه إلى بعيره، ثم أعطاه بعيراً آخر، وقال: هاتي حبلاً، ثم أعطاه ثالثاً فقال: هاتي حبلاً. فقالت: ما بقي عندي حبل. فقال: عليّ الجمال، وعليك الحبال. فرمت إليه خمارها وقالت اجعله حبلاً لبعضها فأنشأ يقول:

---

(١) هو محمد بن مسلمة الأوسي الأنصاري الحارثي، أبو عبد الرحمٰن، صحابي من الأمراء، من أهل المدينة. ولد سنة ٣٥ ق.هـ/ ٥٨٩ م. شهد بدراً وما بعدها إلاّ غزوة تبوك. استخلفه النبي ﷺ على المدينة في بعض غزواته. ولاه عمر على صدقات جهينة. اعتزل الفتنة في أيام علي فلم يشهد الجمل ولا صفّين. كان عند عمر مُعدّاً لكشف أمور الولاة في البلاد. مات بالمدينة سنة ٤٣ هـ/ ٦٦٣ م.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٩: ٢٢٣). والبيهقي في السنن الكبرى (٧: ٨٥).

Marfat.com

لا تعـذليني فـي العطـاء ويسـري لكـل بعيـرجـاء طـالبـه حبـلاً
فـإنـي لا تبكـي علـيّ إفـالهـا إذا شبعت من روض أوطانها بقلاً
فلـم أر مثـل الإبـل مـالاً لمقتـن ولا مثـل أيـام الحقـوق لهـا سبـلاً

فأجابته فوراً:

حلفت يميناً يا ابن قحفان بالذي تكفَّل بالأرزاق في السهل والجبلِ
تـزال حبـال المحصـدات أعـدّهـا لها ما مشى منها على خفه جملِ
فأعطِ ولا تبخل لمن جاء طالباً فعندي لها خطم وقد زالت العللِ

ثبيتة ابنة يعار بن زيد بن عبيد بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف الأنصارية

كانت من المهاجرات الأوائل ومن فاضلات النساء الصحابيات وهي امرأة أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة[١] وهي مولاة سالم مولى أبي حذيفة قتل سالم يوم اليمامة.

وكانت ثبيتة من النساء الأديبات العابدات الزاهدات الصابرات على العبادة مشهورة بحسن صحبتها ولها رواية مثبوتة عند المحدّثين.

الثريا ابنة عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر[٢]

كانت من شهيرات نساء قريش وأبرعهن جمالاً وكمالاً، وكان عمر بن أبي ربيعة مستهاماً بها وكانت تصيّف بالطائف، وكان عمر يغدو إليها كل غداة إذا كانت بالطائف على فرسه فيسائل الركبان الذين يحملون الفاكهة من الطائف عن أخبارها فلقى يوماً بعضهم فسأل أحدهم عن أخبارهم فقال: ما استطرفنا خبراً إلا أنني سمعت عند رحيلنا صوتاً وصياحاً على امرأة من قريش اسمها اسم نجم من السماء، وقد سقط عليّ اسمه فقال عمر: الثريا. قال: نعم، وقد كان بلغ عمر قبل ذلك أنها عليلة فوجه فرسه على وجهه إلى الطائف يركضه ملء فروجه

---

(١) هو أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، ولد سنة ٤٢ ق.هـ/ ٥٧٨ م. صاحبي، هاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة. شهد بدراً وأُحداً، والخندق، والمشاهد كلها، قُتل يوم اليمامة سنة ١٢ هـ/ ٦٣٣ م.

(٢) هو عبد الله بن الحارث، بن نوفل الهاشمي، القرشي، ولد سنة ٩ هـ/ ٦٣٠ م. والٍ من أشراف قريش. من أهل المدينة. أمه هند أخت معاوية. كانت ترقصه وتسميه ببَّة. كان ورعاً ظاهر الصلاح. ولاه ابن الزبير على البصرة. ولما قامت فتنة ابن الأشعث خرج إلى عُمان هارباً من الحجّاج، فتوفي فيها سنة ٨٤ هـ/ ٧٠٣ م.

Marfat.com

وسلك طريق كداء وهي أحسن الطرق وأقربها حتى انتهى إلى الثريا وقد توقعته وهي تتشوق له وتتشوّف، فوجدها سليمة ومعها أختاها رضيا وأم عثمان، فأخبرها الخبر، فضحكت وقالت: والله أنا أمرتهم لأختبر ما لي عندك في ذلك فقال هذا الشعر:

تشكي الكميت الجري لما جهدته ... وبيـــن لـــو يستطيـــع أن يتكلمـــا
فقلـــت لـــه أن ألـــق للعيـــن قـــرّة ... فهـــان علـــيّ أن تكـــلّ وتســـأمـــا
لـــذلـــك أُدنـــي دون خيـــل ربـــاطـــه ... وأُوصـــي بـــه أن لا يهـــان ويكـــرمـــا
عدمت إذاً وفري وفارقت مهجتي ... لئـــن لـــم أقـــل قـــرنـــاً إن الله سلَّمـــا

وسأل مسلمة بن إبراهيم أيوب بن مسلمة: أكانت الثريا كما يصف عمر بن أبي ربيعة فقال: وفوق الصفة، كانت والله كما قال عبد الله بن قيس:

حبـــذا الحـــج والثـــريـــا ومـــن بـــالـــ ... ـــخيف من أجلها وملقى الرحالِ
يـــا سليمـــان إن تـــلاقـــي الثـــريـــا ... تلـــق عيـــش الخلـــود قبـــل الهـــلالِ
درة مـــن عقـــائـــد البحـــر بكـــر ... لـــم يشنهـــا مثـــاقـــب الـــلآلـــي

وحجت رملة بنت عبد الله بن خلف الخزاعية فقال فيها عمر:

أصبـــح القلـــب فـــي الحبـــال رهينـــاً ... مقصـــداً يـــوم فـــارق الظـــاعنينـــا
قلـــت مـــن أنتـــم فصـــدّت وقـــالـــت ... أمبـــدّي ســـؤالـــك العـــالمينـــا
نحـــن مـــن ســـاكنـــي العـــراق وكنـــا ... قبلـــه قـــاطنيـــن مكـــة حينـــا
قـــد صـــدقنـــاك إذ ســـألـــت فمـــن أنـــ ... ـــت عسى أن يجـــرّ شـــأن شـــؤونـــا
وتـــرى أننـــا عـــرفنـــاك بـــالنعـــ ... ـــت بظـــن ومـــا قبلنـــا يقينـــا
بســـواد الثنيتيـــن ونعـــت ... قـــد تـــراه لنـــاظـــر مستبينـــا

وبلغت الأبيات الثريا فبلغتها إياها أم نوفل فقالت: إنه لوقاح صنع بلسانه، ولئن سلمت له لأردن من شأوه ولأثنين من عنانه، ولأعرّفنه نفسه، وهجرت عمر فلما هجرته قال في ذلك:

مـــن رســـولـــي إلـــى الثـــريـــا فـــإنـــي ... ضقـــت ذرعـــاً بهجـــرهـــا والكتـــاب
سلبتنـــي مجـــاجـــة المســـك عقلـــي ... فسلـــوهـــا مـــاذا أحـــل اغتصـــابـــي
وهـــي مكنـــونـــة تحيـــر منهـــا ... فـــي أديـــم الخـــدّيـــن مـــاء الشبـــاب
أبـــرزوهـــا مثـــل المهـــاة تهـــادي ... بيـــن خمـــس كـــواعـــب أتـــراب
ثـــم قـــالـــوا تحبهـــا قلـــت بهـــرا ... عـــدد القطـــر والحصـــا والتـــراب

فلما سمع ابن عتيق قوله: «من رسولي إلى الثريا فإني» قال: إياي أراد وبي نوّه، لا جرم

Marfat.com

والله لا أذوق أكلاً حتى أشخص فأصلح بينهما ونهض. قال بلال مولى ابن أبي عتيق: فركب وركبت معه فسار سيراً شديداً فقلت: أبق على نفسك فإن ما تريد ليس يفوتك. فقال ويحك.

أبـــادر حبـــل الـــود أن يتقضبـــا

وما حلاوة الدنيا إن تم الصدع بين عمر والثريا، فقدما مكة ليلاً غير محرمين، فدق على عمر بابه، فخرج إليه وسلم عليه ولم ينزل عن راحلته فقال له: اركب، أصلح بينك وبين الثريا فأنا رسولك الذي سألت عنه، فركب معه وقدموا الطائف وقد كان عمر أرضى أم نوفل، فكانت تطلبت له الحيل لإصلاحها فلم يمكنها فقال ابن أبي عتيق للثريا: هذا عمر قد جشمني المسير من المدينة إليك، فجئتك به معترفاً لك بذنب لم يجنه معتذراً من إساءته إليك فدعيني من التعداد والترداد فإنه من الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون، فصالحته أحسن صلح وأتمه وأجمله، ورجعوا إلى مكة فلم ينزلها ابن أبي عتيق حتى رحل وزاد عمر في أبياته فقال:

أرهقـــت أم نـــوفـــل إذ دعتهـــا مهجتـــي مـــا لقـــاتلـــي مـــن متـــاب
حيـــن قـــالـــت لهـــا أجيبـــي فقـــالـــت مـــن دعـــانـــي قـــالـــت أبـــو الخطـــاب
فـــاستجـــابـــت عنـــد الـــدعـــاء كمـــا لبى رجال يرجون حسن الثواب

وكانت أم نوفل دعتها لابن أبي عتيق ولو دعتها لعمر ما أجابت:

وأتى عمر الثريا يوماً ومعه صديق له كان يصاحبه ويتوصل بذكره في الشعر، فلما كشفت الثريا الستر وأرادت الخروج إليه رأت صاحبه فرجعت فقال لها: إنه ليس ممن أحتشمه ولا أخفي عنه شيئاً واستلقى فضحك، وكان النساء إذ ذاك يتختمن في أصابعهن العشرة، فخرجت إليه فضربته بظاهر كفها فأصابت الخواتم ثنيتيه العلييين وكادت أن تقلعهما، فعالجهما، فشفيتا واسودتا، وكان يفتخر بهما ويعدّه أثراً عزيزاً عنده، وواعدت الثريا عمر أن تزوره فجاءت في الوقت الذي ذكرته فصادفت أخاه الحارث قد طرقه، وأقام عنده ووجه به في حاجة له ونام مكانه وغطى وجهه بثوب فلم يشعر إلا بالثريا قد ألقت نفسها عليه تقبله فانتبه وجعل يقول: اعزبي عني فلست بالفاسق، أخزاكما الله. فلما علمت بالقصة انصرفت ورجع عمر فأخبره الحارث بخبرها فاغتم لما فاته منها وقال: أما والله لا تمسك النار أبداً وقد ألقت نفسها عليك. فقال الحارث: عليك وعليها لعنة الله.

وتزوّجها سهيل بن عبد العزيز بن مروان، وكان عمر بن أبي ربيعة أخرجه مسعدة بن عمر والي اليمن في أمر عرض له وتزوجت الثريا وهو غائب، فلما رجع وجدها نقلت في ذلك اليوم إلى الشام فأتى المنزل الذي كانت فيه وسأل عنها فأخبر أنها رحلت من يومئذٍ فخرج في أثرها فلحقها في مرحلتين وكانت قبل ذلك مهاجرته لأمر أنكرته عليه، فلما أدركهم نزل عن

Marfat.com

فرسه ودفعه إلى غلامه ومشى متنكراً حتى مر بالخيمة، فعرفته الثريا وأثبتت حركته ومشيته فقالت لحاضنتها: كلميه، فسلمت عليه وسألته عن حاله وعاتبته على ما بلغ الثريا عنه فاعتذر وبكى فبكت الثريا وقالت: ليس هذا وقت العتاب مع وشك الرحيل فحادثها إلى طلوع الفجر، ثم ودعها وبكيا طويلاً، وقام فركب فرسه ووقف ينظر إليهم وهم يرحلون ثم أتبعهم بصره حتى غابوا وأنشأ يقول:

يـا صـاحبـي قفـا نستخبـر الطلـلا ... عن حال من حله بالأمس ما فعلا
فقـال بـالأمـس لمـا أن وقفـت بـه ... إن الخليـط أجـدّوا البيـن فـاحتملا
وخـادعتـك النـوى لمـا رأيتهـم ... في الفجر يحتث حادي عيسهم رحلا
لمـا وقفنـا نحييهـم وقـد صـرخـت ... هواتف البين واستولت بهم أصلا
صـدّت بعـاداً وقـالـت للتـي معهـا ... بالله لوميه في بعض الذي فعلا
وحـدّثيـه بمـا حـدّثـت واستمعـي ... مـاذا يقـول ولا تعـي بـه جـدلا
حتى تـرى أن مـا قـال الـوشـاه لـه ... فينـا لـديـه إلينـا كلـه نقـلا
وعـرّفيـه بـه كـالهـزل واحتفظـي ... في بعض معتبة أن تخطئ الرجلا
فـإن عهـدي بـه والله يحفظـه ... وإن أتى الذنب ممن يكره العذلا
لو عندنا اعتيب أو نيلت نقيصته ... مـا آب معتـابـه مـن عنـدنـا جـذلا
قلت اسمعي فلقد أبلغت في لطف ... وليس يخفى على ذي اللبِّ من هزلا
هـذا أرادت بـه بخـلاً لأعـذرهـا ... وقـد أرى أنهـا لـن تعـدم العلـلا
مـا سمـي القلـب إلا مـن تقلبـه ... ولا الفـؤاد فـؤاداً غيـر أن عقـلا
أما الحديث الذي قالت أتيت به ... فمـا عتبـت بـه إذ جـاءنـي تبـلا
ما إن أطعت بها بالغيب قد علمت ... مقالة الكاشح الواشي إذا محلا
إنـي لأرجعـه فيهـا بسخطـه ... وقـد يـرى أنـه قـد غـرّ بـي زلـلا

وهي قصيدة طويلة وقال فيها أيضاً:

أيهـا الطـارق الـذي قـد عنـانـي ... بعـدمـا نـام سـامـر الـركبـانِ
زار مـن نـازح بغيـر دليـل ... يتخطـى إلـيّ حتـى أتـانـي
أيهـا المنكـح الثـريـا سهيـلا ... عمـرك الله كيـف يلتقيـانِ
هـي شـاميـة إذا مـا استقلـت ... وسهيـل إذا استقـل يمـانِ

وكتب إليها يوماً وقد غلبه الشوق:

كتبـت إليـك مـن بلـدي ... كتـاب مـولـه كمـدِ

Marfat.com

كئيـــب وأكـــف العينيـــن بـــالحســـرات منفـــردِ
يـــؤرقـــه لهيـــب الشـــو ق بيـــن السحـــر والكبـــد
فيمســـك قلبـــه بيـــد ويمســـح عينـــه بيـــدِ

وكتبه في قوهية وشنفه وحسنه وبعث به إليها فلما قرأته بكت بكاء شديداً ثم تمثلت:

بنفســي مــن لا يستقــل بنفســه ومن هو إن لم يحفظ الله ضائعُ

وكتبت إليه تقول:

أتـاني كتـاب لـم يـرَ النـاس مثلـه أمـدّ بكـافـور ومسـك وعنبـرِ
وقـرطـاسـة قـوهيـة ورباطـة بغقد من الياقوت صاف وجوهرِ
وفـي صـدره منـي إليـك تحيـة لقـد طـال تهيـامي بكـم وتـذكـري
وعنـوانـه مـنْ مستهـام فـؤاده إلى هائم صب من الحزن مسعرِ

ولما مات عنها سهيل خرجت إلى الوليد بن عبد الملك[1] وهو خليفة بدمشق في قضاء دين عليها فبينما هي عند أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان إذ دخل عليها الوليد فقال: من هذه؟ فقالت: الثريا جاءتني أطلب إليك قضاء دين عليها وحوائج لها فأقبل عليها الوليد فقال: أتروين من شعر عمر بن أبي ربيعة شيئاً؟ قالت: نعم، يرحمه الله كان عفيفاً أروي قوله:

مـا علـى الـرسـم بـالبليـن لـو بيـ ـــن رجـع السـلام أو لـو أجـابـا
فـإلـى قصـر ذي العشيـرة فـالطـا ئـف أمسـى مـن الأنيـس يبـابـا
إذ فـؤادي يهـوى الـربـاب وإنـي الـ ـدهر حتى الممات أنسى الربابا
وبمـا قـد أرى بـه حـيّ صـدق ظـاهـري العيـش نعمـة وشبـابـا
وحسـانـاً جـواريـا خفـرات حـافظـات عنـد الهـوى الأحسـابـا
لا يكثـرن فـي الحـديـث ولا يتـ ـبعـن يبغيـن بـالبهـام الظـرابـا

(١) هو الوليد بن عبد الملك بن مروان، المولود سنة ٤٨ هـ/٦٦٨ م. أبو العباس من ملوك الدولة الأموية في الشام. ولي بعد وفاة أبيه سنة ٨٦ هـ، فوجّه القواد لفتح البلاد وكان موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد من رجاله. امتدت في زمنه حدود الدولة العربية إلى بلاد الهند، فتركستان، فأطراف الصين شرقاً، بلغت مسافتها مسيرة ستة أشهر بين الشرق والغرب والجنوب والشمال، كان ولوعاً بالبناء والعمران، كتب إلى والي المدينة بحفر الآبار، وإلى البلدان جميعاً، وأمرهم بإصلاح الطرق. منع المجذومين من الاختلاط بالناس، وأجرى لهم الأرزاق. وهو أول من أحدث المستشفيات في الإسلام. وجعل لكل أعمى قائد يتقاضى نفقاته من بيت المال، وأقام لكل مُقعد خادماً. وأقام بيوتاً ومنازل يأوي إليها الغرباء. بنى المسجد الأقصى في القدس ومسجد دمشق الكبير المعروف بالجامع الأموي كانت وفاته بدير مران من غوطة دمشق. ودفن بدمشق سنة ٩٦ هـ/ ٧١٥ م. وكانت مدة خلافته ٩ سنوات و٨ أشهر.

Marfat.com

فقضى حوائجها وانصرفت بما أرادت، فلما خلا الوليد بأم البنين قال لها: لله در الثريا أتدرين ما أرادت بإنشادها ما أنشدتني من شعر عمر؟ قالت: لا. قال: إني لما عرّضت لها به عرّضت لي بأن أمي أعرابية وأم الوليد وسليمان ولادة بنت العباس بن جزي بن الحارث بن زهير بن جذيمة العبسي، فلما ماتت الثريا أتى الغريض المغني إلى كثير بن كثير السهمي فقال له: قل لي أبيات شعر أنح بها على الثريا فقال له هذين البيتين:

ألا يا عين ما لك تدمعينا أمن رمد بكيت فتكحلينا
أم أنت حزينة تبكين شجواً فشجوك مثله أبكى العيونا

ثيودورا زوجة الملك بوستينان

هي ابنة «أكاسيوس» القبرصي، حارس الأدباب في الملعب، فلما مات أبوها باتت مع أختيها «كوميتو» و«أنسطاسيا» في حالة فقر يرثى لها وجميعهن صغيرات في السن لا يتجاوز عمر الكبرى سبع سنوات، وكانت «ثيودورا» جميلة حسناء فقيرة فلم تجد سبيلاً للكسب إلا الانخراط في سلك الممثلات، فأعجبت الناس بمهارتها واتخذت خلاناً وبدّلت أحبة لتعيش في راحة وهناء.

قيل: إنها كانت في بلاد «بافلاغونيا» فحلمت أنها ستصير امرأة ملك قوي فعادت إلى القسطنطينية مسرعة وتابت واتخذت لها بيتاً عاشت به بالبر والطهارة والتقوى تشتغل الليل والنهار بأشغال يدوية لتعيش وتساعد المساكين فعلم بها «بوستينان» ونظرها فتيمه هواها وشغفه جمالها الباهر وأعجبه نشاطها وعفتها، فاقترن بها على رغم مضادة أمه ونسبائه والشرائع القديمة التي تحظر على الشريف أن يقترن بعبيده أو ممثلة أو غريبة وأغرى عمه «بستين» على إصدار أمر يخالف القانون ويبطله ويفتح سبيلاً لتوبة بنات الهوى وأمّلهن بالارتقاء إلى أعلى الدرجات وذروة المجد والفخار.

ولما تولى «بوستينان» العرش شارك امرأته بالملك وأجلسها على عرشه ووضع التاج القيصري على هامته وهامة «ثيودورا» الممثلة بنت «أكاسيوس» حارس الأدباب ولم تنج هذه الملكة بتوبتها من هجو العالمين، فرشقتها ألسنة المبغضين المضادين بسهام الاحتقار والتنديد وجهدوا في تذكيرها حالتها الأولى ونكايتها بكل أوان فهجرت لذلك مدينة القسطنطينية وعاشت بقصورها وجناتها الواقعة على شاطئ البوسفور، واعتزلت الناس، وانتقمت منهم ما استطاعت وكان زوجها في ابتداء ملكها مريضاً فبذلت جهدها في جمع الأموال ليمكنها أن تعيش بها عزيزة بعده مكرمة.

Marfat.com

والحق يقال: إن «ثيودورا» كانت امرأة ذكية فاضلة أتت أعمالاً عظيمة مبرورة مشكورة وساعدت زوجها في السياسة أشد المساعدة بآرائها وحكمتها ولكن الشعب اليوناني أبغضها لاتباعها مذهب «أفتيس» ومضادتها بعض الأساقفة.

وفي حزيران سنة ٥٤٨ [م] ماتت بعلة رديئة كست جسمها بثوراً فتكون مدة ملكها ٢٢ سنة.

ومن أعمالها السديدة ما كان في وقت الثورة المشهورة التي حصلت في القسطنطينية في أيام ملك «بوستينان» وقد اجتمع الملك والوزراء والعظماء حائرين مضطرين يرجون بالهرب خلاصاً فنهضت الملكة «ثيودورا».

وقالت: إنني أحتقر الفرار إلا من الراحة والسلام فإلى الموت مصير الإنسان وحياة الأمراء المالكين كالعدم بعد فقدهم العز والملك فأطلب إلى الله أن لا يجعلني يوماً واحداً عارية من التاج وأدوات الزينة الملكية بل يميتني قبل خلعي وسقوطي عن منصة الفخر والمجد، وإذا اعتمدت أيها الملك على الهرب فجميع وسائله ميسورة لك فهذه خزائنك ملأى بالذهب والجواهر، وهذا البحر مغطى بالسفن المواخر ولكن خَفْ من يوم تعيش به عيشة دنيئة محتقرة في المنفى.

أما أنا فناهجة منهج القدماء القائلين: إن العرش ضريح مجد، وأحيت هذه المرأة بكلامها وشجاعتها شجاعة زوجها فرفض الفرار وعاد إلى التفكير والتدبير، فتيسرت له وسائل إقناع الأقوام بخطئهم فأذعنوا إليه خاضعين وبخضوعهم ذل الآخرون فتمكنت الحكومة من قهرهم وراق الوقت للملك «بوستينان» بسبب مشورة هذه الفاضلة وحسن آرائها.

Marfat.com

حرف الجيم

جان دارك

وتسمى «لابوسل» وتعرف بالسيدة «أوريان» هي فتاة فرنساوية كانت نقية البشرة، مهفهفة القوام، دعجاء العينين، ذات شعر فاحم مسترسل على كتفيها، يلوح على محياها الصبيح سيما الحياء واللطف والدعة، وتبدو من مخايلها أمارات مضاء العزيمة، وبُعد الهمة، وثبات الجأش، ولطالما امتطت الفرس فسابقت عليه وهو غير مسرج ولا مشكوم جراءة وفروسية، وكانت ذات كلام بالغ بين الرشد وأفعال دائرة على محور الاستقامة والصلاح.

ولدت في «دومرمي» من مقاطعة «لورس» سنة ١٤١١ للميلاد من راع يدعى «جان» وكان قد رباه الفقر وهذبه الدين، فنشأت كثيرة الهواجس الدينية، ولما بلغت الخمس سنوات أخذت ترى في هجعتها رؤيا علوية زاعمة أن الملائكة والأولياء تتجلى عليها بمظهر نورانى، فلما أنس أبوها منها ذلك أراها من القسوة والعنف ما حداها إلى الفرار والانطواء إلى أرملة من ربات الفنادق، فأقامت في خدمتها زمناً تبذل عندها من الإخلاص في السعي والإقدام في العمل والعفاف في المسلك ما تذكر به فتشكر، ثم عادت إلى أبيها زمان إذ كانت فرنسا على شفا حفرة من النار والإنكليز يذيقونها من حروبهم ضريع الويل الممزوج بالشنار.

وكان قد مر بقريتها فريق من الأعداء فاكتسحوها واستافوا أموالها فاقتسموها وتركوها خاوية على عروشها يندبها لسان الخراب، ويأوي إلى أطلالها البوم والغراب، فصدع فؤادها الشفاف ذل قومها وبوارهم وانكسارهم للعدوّ المفضي إلى دمارهم، فعاودتها الأحلام والرؤيا وزعمت أنها مأمورة بالإلهام بإنقاذهم وبلادهم من الهلكة والمعرّة، وانتشال قومها من هوّة الحيف والمضرة

وبعد تردد وإعمال رويةٍ سارت إلى «شارل» ملك فرنسا، وذلك في شهر شباط سنة ١٤٢٩ ميلادية وكان عليها أن تقطع مسافة ١٥٠ فرسخاً في أقطار مشحونة بدبابة الإنكليز ومحفوفة بالمكاره والأهوال حتى تبلغ مدينة «لوزين» حيث يقيم الملك فتزيت بزي فارس

Marfat.com

وعلت جوادها بعد أن تقلدت حساماً بتاراً، واخترقت تلك المهامة حتى إذا أشرفت على مقر الملك بعثت تنبئه بقدومها وتخبره بأنها ستكون منقذة العرش ورافعة الحصار عن «أوليان» وأنها ستمهد سبيل تتويجه في «رام»، فلما قدم عليه البشير بذلك النبأ ابتسم ذرياً عن قلب مشحون بالغيظ، ثم استمر مع وزرائه في شأنها ثلاثة أيام، فكان فريق يسخر منها ويضحك عليها، وفريق يذود عنها ويرى إلقاء المقاليد إليها والملك بين ذلك من حزب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء حتى أسفر الرأي عن لقائها فلبس الملك ثياب أحد أتباعه وألبسه ثوبه الملكي اختباراً لأمرها، ثم أذن لها فجاءت تخترق صفوف الحشم والحاشية حتى وقفت بإزائه فانحنت جاثية لديه قائلة له: بلسان ذرب حييت وحبيت أيها الملك الحليم؟

فقال لها: أخطأت فإن الملك هو ذاك مشيراً إلى من ألبسه ثوبه فقالت: ما الملك إلا أنت وما أنت إلا الملك وإني لمأمورة أنا العذراء المسكينة من الروح الأمين بشد أزرك والدأب لأسباب نصرك وما على الرسول إلا البلاغ، فخلا بها الملك حيناً من الدهر ثم ناجى وزراءه فقال لهم: لقد أحاطت لعمر الله بما في سرائري وأدركت مما لا يدركه بعد الله إلا ضمائري وإني لا أشك أن أكون من أمرها على ثقة ولكن لا بأس من التأني ريثما تمتحن.

ثم أتاها برهط من مهرة الأطباء وأساطنة العلماء [و][1]حاولوا أن يفقروها بمسائل مشكلات وغوامض حتى إذا أعيتهم الحيل وعادوا بالخيبة والفشل عززها الملك بكتيبة من خواص فرسانه فبرزت أمام الجيش شاكة السلاح، معتقلة بيدها رمحاً وبالأخرى راية وأخذت تعدو على جوادها متفننة في أنواع الفروسية حتى سحرت الناظرين فهتفوا ترحيباً بها واستحساناً لها وتعجباً منها.

ثم صارت بجيشها تنهب الأرض هملجة[2] وخبباً[3] حتى بلغت العسكر في «أورليان» وإذا بأرواح القوم تكاد تبلغ التراقي والعدوّ محيط بالمدينة إحاطة الهالة بالبدر وأهلها في شدة من ضيق الخناق، فأمرت بادئ بدأة بتطهير العسكر من عواهر النساء، وحضت الرجال على الاستمساك بالتقوى والاعتصام بالرجاء، ثم زحفت على البلد، فاستولى الرعب على قلوب الإنكليز وقالوا: ما هذه بشر إن هي إلا ملك كريم، أو ساحر أثيم، وكانت ترتدي بحلة بيضاء وتركب جواداً أشهب وتنشر فوقها راية بيضاء فإذا بصر بها الإنكليز وهي في هذا الهندام فرّوا من أمامها كأنهم حمر مستنفرة فرّت من قسورة.

---

(١) زيادة أثبتناها لسلامة المعنى واتّساق الكلام.
(٢) الهملجة: التبختر. [القاموس المحيط، مادة: همج].
(٣) الخبب: مشي الفرس بشكل يراوح بين يديه ورجليه، أي قام على إحداهما مّرة وعلى الأخرى مرّة.

Marfat.com

وما برحت تصدق الحملة وتتابعها وتبلي بالعدوّ البلاء الحسن وهي تتجرّع من انحراف جيشها عنها وعدم انقياده لها أنواع الغصص وضروب الإحن حتى استتب لها الفوز فضعف الإنكليز واستكانوا وضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا فألجأوا إلى الجلاء على «أورليان» فكفوا عن حصارها في ١٨ أيار سنة ١٤٢٩ [م]، وانهزموا لا يلوون على شيء فسارت «جان دارك» إلى «بلوا» لتهنئ الملك بما أوتيه على يدها من النصر، وكان القرويون في تلك الأصقاع يتسابقون لمرآها، ويتزاحمون على لثم أقدامها ولمس ثراها، فأكرم رجال البلاد وفادتها، ودعاها الملك إلى وليمة فأبت قائلة: إن الوقت وقت جهد وثبات لا وقت قصف ولذات، وإن الروح أنبأني بأن الموت قد دنا فتدلى حتى صار على قاب قوسين، وأنه لم يبق بيني وبينه أكثر من عامين فاذهب بحقك إلى «رام» حيثما أتوجك بيدي وبعد ذلك يفعل الله ما يشاء، وصارت أمامه بفصيلة من الجيش حتى إذا بلغت «جارجوا» اعترضها العدو فهاجمته، ورقت سلماً نصب لها على السور فرميت من أعلاه بما جند لها من الخندق، فصرعت، ولكنها أفاقت بعد قليل، وجعلت قائد الجيش يستثير حمية العساكر بكلام أرق من السحر وأفعل في الرؤوس من نشوة الخمر، وهي تعاني آلاماً مبرحة فدبت النخوة في صدور الرجال وحملوا حملة صادقة أذاقت العدوّ الأزرق بلاء أسود، وأرته من بريق النصل الأبيض موتاً أحمر، فاستولت على البلد عنوة بعد أن أسرت، ولما طار الخبر إلى الأمير «تلبوت» قائد الإنكليز العام أخلى سائر المدن وكر قافلاً إلى باريس وما برحت «جان دارك» آخذة في سيرها، وكلما عثرت بشرذمة فتكت بها حتى بلغت مدينة «رام»، وهناك تمّ تتويج «شارل» في ١٧ تموز سنة ١٤٢٩ [م]، وكانت «جان دارك» ممسكة بسيفه وعليها أثواب الكماة.

وبعد انقضاء الحفلة جثت عند قدميه وعانقتهما باكية ثم قالت: اليوم أكملت لكم نصركم وأنجزت كل ما وعدتكم فأطلقوا سراحي فأعود إلى أبي قريرة العين حيثما أرعى الماشية وأغزل الصوف جرياً على سنَّة بيت ربيت فيه، ونشأت عليه فامتنع الملك قائلاً: كيف أغادر من بها نجاة الأمة وإليها يرجع أمر استتباب راحتها، وعليها يتوقف استكمال سعادتها، ذلك لأن الناس كانوا قد ازدادوا بها اعتقاداً وعلقوا على بسالتها وإقدامها آمالاً طوالاً حتى كانوا يرون حول رايتها أرواحاً من الفراش البراق، فساءها امتناع الملك وعرتها من تلك الساعة الكآبة والحزن وفارقها ذلك الرشد والنشاط، وذهبت عنها تلك الحمية والبسالة، وانقطعت عنها أحلامها الروحانية حتى أصبحت أعمالها رهينة الحيرة والفشل وأقوالها قرينة الوهم والركاك، وكانت تُرى أبداً حائرة النفس دائمة البكاء.

ولما لم يُجْدِها الإلحاح نفعاً استعادت من معبد «رام» سلاحها وبرزت ثانية في زي

Marfat.com

الأبطال غير أن كبراء القادة وأمراء الجيش كانوا قد أشربوا بغضها وأضمروا لها الحسد والضغينة فصاروا يشنعون عليها ويسيئون معاملتها، ويغرون العساكر على نبذ طاعتها، ويلقبونها بالألقاب المستهجنة، ويتهمونها بهتك حجابها، ويفضحونها أمام العموم، فكانت تردّهم أقبح الرد ولا تجالس إلا حرائر النساء ومصونات الأبكار، ولا تنام إلا مع امرأة تخفرها، فلم يجد أحد فيها محلاً للوم والقذف، ومع أنها جرحت جراحات لم يثبت كونها سفكت بيدها دم أحد، ثم أشارت على الملك بالشخوص إلى باريس ليستخلصها من يد الإنكليز فساروا و«جان دارك» سائرة في ركابه حتى إذا بلغها بعد شق الأنفس أمرها بالهجوم على «قويورسنت» أو ترى حيث يقيم الأعداء فأثخنت في تلك الواقعة جراحاً، وصرعت صرعات، ولما استعادت رشدها قامت فعلقت درعها وسألت الملك الانصراف فأبى ووعدها بإعفاء قريتها من الضرائب ومنحها رتبة جليلة، فعاودت الخدمة مرغمة.

وفي سنة ١٤٣٠ [م] انتدبها الملك إلى إجلاء الإنكليز عن «كوبيين» فسارت متدرّعة بالإقدام بيد أنها لما أرادت الإيقاع بالحاضرين خذلها أتباعها فرميت بسهم، فصرعت واستسلمت إلى الأمير «فندوم». وذلك في ٢٤ أيار سنة ١٤٣٠ [م]، فذاع خبر أسرها في تلك الأصقاع، وأقبل الناس لرؤيتها ثم بويعت للإنكليز وخذلها الملك «شارل» جاحداً جميلها، كافراً نعمتها، لؤماً منه وخسة أصل، وخاض الناس في حديثها، وكان أهل باريس يشدّون عليها النكير، ويغرون الإنكليز على إتلافها، فلبثت مسجونة في قلعة «جان دولكسنبرغ» حتى أقيمت عليها الدعوى في ١٣ شباط سنة ١٤٣١ [م] تحت رياسة «كوشون مترنه بوڤه» من صنائع «هنري السادس»[1] عامل الإنكليز فسيقت إلى المحكمة ست عشرة مرة أبدت في خلالها ثباتاً عجيباً، ودفاعاً مفحماً على أنهم حكموا أخيراً بأنها مبتدعة ساحرة وبأن تجازى بالحبس الأبدي مقصوراً قوتها على الخبز والماء، ثم أرغموها على الحلف بأن لا ترتدي بعد ذلك بلباس الرجال، ثم نصبوا لها شركاً بأن بدلوا ثيابها ليلاً بثياب رجل.

فلما أرادت ترك فراشها لم تجد سوى تلك الثياب، فلبستها مضطرة، فهوجمت وسيقت إلى الحاكم بهذا الزي فحكم بأنها حانثة تستحق الإحراق فقالت بثبات وجلال: إنني أستأنف حكمك إلى عرش الحكيم العظيم، ولكنها لما أخرجت إلى حيث استوقدت النار خارت قواها فأتت متأوّهة، ولما حمى الوطيس ولعلع لسان اللهيب فيه جعلت تدعو وتبتهل بلسان أبكى أعداءها، وحير الكردينال «بوڤور» فحوّل وجهه عنها تألماً والدموع تنحدر من مآقيه كالسواقي

(١) هنري السادس: ملك من ملوك إنكلترا ولد سنة ١٤٢١ م. مُلِّك العرش سنة ١٤٢٢ م. في عهده اشتعلت حرب الوردَتين. مات سنة ١٤٧١ م.

Marfat.com

وقد تم هذا المشهد الأثيم في ٢١ أيار ١٤٣٠ [م] في ساحة تسمى «موضع البكر»، وذرّى رمادها بالهواء فوق نهر السين، ثم بعد عشرين عاماً نقض مطران باريس ومطران «رام» هذا الحكم وأثبتا براءتها.

وفي سنة ١٨٢٠ [م] أقيم لها تمثال في موطنها «دومرمي» وآخر في محل إحراقها «دون» ثم آخر في باريس وهو أجمل تماثيلها.

وفي سنة ١٨٥١ [م] نصب لها أهل «أورليان» تمثالاً في مدينتهم وهم يعيدون تذكارها في ٨ أيار في كل عام وقد عاب الرأي العام «فوليث» بقصيدته التي أودعها ذم «جان دارك» وتسويد صحيفتها بأنواع السب الظالم والقذف الغادر، ولكنه لا يستغرب ذلك ممن أوقف حياته على تقويض عُمد الديانات، وتزييف أوليائها، وقد ألف كتبة الإفرنج بموضوع قصّتها عدّة روايات محزنة من النوع المعروف بـ «التراجيدي» أي الفاجعة وهي مما يذيب تمثيلها القلوب ويشق المرائر فيا قاتل الله الإنسان إنه لكافر.

ليت السباع لنا كانت مجاورة ... وليتنا لا نرى ممن نرى أحدا
إن السباع لتهدا عن فرائسها ... والناس ليس بهاد شرهم أبدا

جليلة بنت مُرَّة الشيباني

هي أخت «جساس»[١] قاتل كليب بن ربيعة[٢] أخي المهلهل[٣]. وكانت جليلة تزوجت

---

(١) هو جسّاس بن مُرّة بن ذهل بن شيبان، من بني بكر بن وائل. شجاع، شاعر، من أمراء العرب في الجاهلية. شعره قليل. وهو الذي قتل كليب وائل، فكان سبباً لنشوب حرب طاحنة هي حرب البسوس بين بكر وتغلب دامت أربعين سنة. قتل جسّاس في أواخرها سنة ٨٥ ق. هـ/ ٥٣٥ م.

(٢) هو كليب بن ربيعة بن الحارث بن مُرّة التغلبي الوائلي ولد سنة ١٨٥ ق. هـ/ ٤٤٣ م، سيّد الحيين: بكر وتغلب في الجاهلية. من الشجعان والأبطال، وأحد من تشبّهوا بالملوك في امتداد السلطة. كان منازله في نجد وأطرافها. بلغ من هيبته أنه كان يحمي مواقع السحاب، فيقول: ما أظلته هذه السحابة في حماي. فلا يرعى أحد ما تظله. وكان يقول: وحش كذا في جواري، فلا يُصاد. وكان لا يورد أحد مع إبله، ولا توقد نار مع ناره، ولا يمّر أحد بين بيوته. ولا يحتبي أحد في مجلسه. ومن أمثالهم: «هو في حِمى كليب»، يقال لمن كان آمناً. هو أخو مهلهل بن ربيعة، وخال امرئ القيس بن حجر الكندي. قتله جسّاس بن مُرّة البكري الوائلي سنة ١٣٥ ق. هـ/ ٤٩٢ م. فثارت حرب البسوس، وهي أطول حرب عُرفت في الجاهلية، بين بكر وتغلب، ودامت أربعين سنة. يقال: إن اسمه وائل وكليب لقب له.

(٣) هو عَدِي بن ربيعة بن مُرّة بن هبيرة من بني، جشم، من تغلب، أبو ليلى، المهلهل، شاعر، من أبطال العرب في الجاهلية. من أهل نجد. وهو خال امرئ القيس الشاعر. قيل: لقب مهلهلاً، لأنه أول من هلهل نسج الشعر، أي رققه. كان من أصبح الناس وجهاً، ومن أفصحهم لساناً، عكف في صباه على =

Marfat.com

بـ «كليب»، فلما قتل «جساس» أخوها «كليباً» زوجها، اجتمع نساء الحي للمأتم فقلن لأخت «كليب»: أخرجي جليلة عن مأتمك فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب. فقالت لها: يا هذه، أخرجي عن مأتمنا فأنت أخت واترنا، وشقيقة قاتلنا، فخرجت وهي تجر أعطافها فلقيها أبوها مُرَّة فقال لها: ما وراءك يا جليلة، فقالت: ثكل العدد، وحزن الأبد، وفقد حليل وقتل أخي عن قليل، وبين ذلك غرس الأحقاد، وتفتت الأكباد فقال لها: أوَيكف ذلك كرم الصفح وإغلاء الديات؟ فقالت جليلة: أمنية مخدوع ورب الكعبة أبالبدن تدع لك تغلب[1] دم ربها! قال: ولما رحلت جليلة قالت أخت «كليب»: رحلة المعتدي وفراق الشامت، ويلٌ غداً لآل مُرَّة من الكرّة بعد الكرّة، فبلغ جليلة قولها فقالت: وكيف تشمت الحرة بهتك سترها، وترقب وترها أسعد الله خيراً أختي أفلا قالت نفرة الحياة وخوف الاعتداء، ثم أنشدت تقول:

يـا ابنـة الأقـوام إن لمـت فـلا ... تعجلـي بـاللـوم حتـى تسـألـي
فـإذا أنـت تبينـت الـذي ... يـوجـب اللـوم فلـومـي واعـذلـي
إن تكـن أخـت امـرئ ليمـت على ... شغـف منهـا عليـه فـافعلـي
جـلّ عنـدي فعـل جسـاس فيـا ... حسـرتـي عمـا انجلـى أو ينجلـي
فعـل جسـاس علـى وجـدي بـه ... قـاطـع ظهـري ومـدن أجلـي
لـو بعيـن فـدّيـت عينـاً سـوى ... أختهـا فـأنفقـأت لـم أحفـل
تحمـل العيـن أذى العيـن كمـا ... تحمـل الأم أذى مـا تفتلـي
يـا قتيـلاً قـوّض الـدهـر بـه ... سقـف بيتـي جميعـاً مـن عـلِ
هـدم البيـت الـذي استحـدثـه ... وانثنـى فـي هـدم بيتـي الأوّلِ
ورمـانـي قتلـه مـن كثـب ... رميـة المصمـى بـه المستـأصـلِ
يـا نسـائـي دونكـنّ اليـوم قـد ... خصنـي الـدهـر بـرزء[2] معضـلِ
خصنـي قتـل كليـب بلظـى ... وأرانـي ولظـى مـن أسفـلِ
ليـس مـن يبكـي ليـومين كمـن ... دائمـاً يبكـي ليـوم ينجلـي
يشتفـي المـدرك بـالثـأر وفـي ... دركـي الثـأر لثكـل المثكـلِ
ليتـه كـان رمـى فـاحتلبـوا ... درراً منـه بـرمـي بـالحلـي

= اللهو والتشبيب بالنساء، فسماه أخوه كليب «زير النساء» أي جليسهن. ولما قَتَل جسّاس بن مُرّة كليباً ثار المهلهل فانقطع عن الشرب واللهو، وآلى أن يثأر لأخيه، فكانت وقائع بكر وتغلب التي دامت أربعين سنة، وكانت للمهلهل فيها العجائب والأخبار الكثرة. أما شعره فعالي الطبقة.

(١) بنو تغلب: حي من وائل من ربيع من العدنانية، والنسبة إليهم تغلبي، وهم بنو تغلب بن وائل.

(٢) الرزء: المصيبة. [القاموس المحيط، مادة: رزأ].

Marfat.com

إننـــي قـــاتلـــة مقتـــولـــة ولعـــلّ الله أن يـــرتـــاح لـــي

جميلة الخزرجية

هي مولاة بني سليم التي قيل فيها:

إن الـــدلال وحســـن الغنـــا ء وســط بيــوت بنــي الخــزرجِ[1]

وتلـــك جميلـــة زيـــن النســـا ء إذا هـــي تـــزدان للمخـــرجِ

كانت جامعة بين أجلّ طبقات الغناء والجمال وأسمى مراتب العفاف والكمال، وقورة السمت، رخيمة الصوت، بهية الشارة، فتانة الملامح، رزينة الحصاة، عذبة الكلام، وجيزة العبارة. أجمع مجيدو عصرها ـ مثل: الغريض[2] وابن سريج[3] وابن محرز، ومعبد بن جامع[4]، وحيابة، وابن عائشة، وسلامة[5] وزمين، وخليدة، وعقيلة العقيقية ـ على كونها إمام هذا الفن ومجلي مضمار السبق فيه شرقاً وغرباً بين الإنس والجن.

وكان معبد يقول: لو لم تكن جميلة لم نكن نحن مغنين، ولطالما تحاكم لديها أولو الفن المجيدون من مكيين ومدنيين وبصريين، فقضت بينهم قضاء آخذاً بناصية الأنصاف مأموناً به جانب الحيف والإجحاف. قيل: حجت ذات سنة فخرج إلى لقائها كبراء مكة وساداتها، ومشاهير مغنيها وقيناتها فكثر الزحام وازدحمت في أرجاء الحرم الأقدام، والتفَّت الساق على الساق، حتى كأنه يوم التلاق، ولما انقضى الحج اقترح عليها الأمراء وعقد مجلس للغناء فقالت: ما كنت يا ذوي الفضل لأخلط الجدّ بالهزل.

ثم عادت إلى يثرب[6] مدينة النبي ﷺ فاستقبلها سراتها وأشرافها يتقدّمهم الأطفال

---

(١) بنو الخزرج: بطن من مزيقيا من الأزد غلب عليهم اسم أبيهم، فقيل لهم: الخزرج الأكبر بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن مزيقيا. هم إحدى قبيلتي الأنصار أخوة الأوس، ويقال لكليهما: بنو قيلة. كان للخزرج هذا من الولد عمرو، وعوف، وجشم، وكعب، والحارث، وكان لهم ملك يثرب قبل الإسلام مع إخوانهم الأوس، نزلوها عند خروج، الأزد إلى اليمن.

(٢) الغريض: لقب عبد الملك المغني المكي، أحد الخمسة المغنين العظام عند العرب. توفي سنة ٧١٦ م.

(٣) ابن سُريج: هو عبيد الله بن سريج، مغنّ من أهل مكّة، اشتهر بالضرب على العود وبألحانه.

(٤) معبد بن جامع: المعروف بـ «معبد المغنّي» من أعصم المغنين في العصر الأموي، نشأ في المدينة ورحل إلى الشام حيث اتّصل بأمرائها ونال شهرة واسعة. توفي سنة ٧٤٣ م.

(٥) سلامة: شاعرة، مغنيّة، من جواري يزيد بن عبد الملك. توفيت سنة ٧٤٨ م.

(٦) يثرب: مدينة رسول الله ﷺ، سميت بهذا الاسم لأن أول من سكنها بعد التفرّق يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ. لما نزل فيها الرسول =

Marfat.com

والنساء، وكان قد صحبها قوم من غرر مكة وأعيانها، فلما حلت دارها أتاها الجميع مهنئين باللطف والإيناس فغصت الساحات والسطوح بتخليط الناس، واصطف المغنون طبقتين متناوحتين، فكان كلما دمدمت وشدت علا من الخلق ضجيج ينطح عنان السماء، وأذن السمع صماء الكل يقول: ما رأينا ولا سمعنا بمثل هذا، ثم اقترحت على المغنين أن يهذبوا شفعاً ووتراً، ففعلوا، فكانت تصلح لكل أغلاطه وتريه وجه الإصابة من الطرب طريقاً حتى أبهتت الناس عجباً، وحيرتهم وأبكتهم طرباً وصبابة، فانصرفوا يقولون: اللهم غفراً، فسبحان من جعلها في كل معنى غاية إنه ولي التوفيق.

جميلة بنت ثابت بن أبي [الأقلح][1] الأنصارية

هي أخت عاصم بن ثابت[2] امرأة عمر بن الخطاب[3] تكنى أم عاصم بابنها عاصم بن عمر بن الخطاب سمته باسم أخيها وكان اسمها عاصية، فلما أسلمت سماها رسول الله ﷺ جميلة، تزوّجها عمر سنة ٧ من الهجرة فولدت عاصماً، ثم طلقها عمر فتزوّجها يزيد بن حارثة، فولدت له عبد الرحمٰن بن يزيد فهو أخو عاصم لأمه.

وقيل: إن عمر ركب إلى قبيلتها فوجد ابنه عاصماً يلعب مع الصبيان فحمله بين يديه، فأدركته جدّته الشموس[4] بنت أبي عامر فنازعته إياه حتى انتهى إلى أبي بكر الصديق فقال له أبو بكر: خل بينه وبينها فما راجعه وسلمه إليها لكونها حاضنته وكانت جميلة إذ ذاك متزوّجة بيزيد بن حارثة.

جنان جارية عبد الوهاب الثقفي

كانت بمنزلة عظيمة من الحب عند أبي نواس ويقال: إنه لم يصدق بحب امرأة غيرها

= سمّاها طيبة وطابة كراهية للتثريب (وهو قُبح الفعْل). وسميت مدينة الرسول لنزوله بها. معجم البلدان، ج ٥/ ص ٤٩٣.

(١) وردت في الأصل: «الأفلح»، لكننا في ترجمة عاصم بن ثابت، وجدنا أن اسمه الأقلح قيس بن عصمة الأنصاري، فأثبتناها استناداً إلى ترجمة عاصم، الإصابة (الترجمة. ٤٣٤).

(٢) هو عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح قيس بن عصمة الأنصاري الأوسي، أبو سليمان، صحابي، من السابقين الأولين من الأنصار شهد بدراً، وأحداً مع رسول الله ﷺ، واستشهد يوم الرجيع سنة ٤ هـ/ ٦٢٥ م، رثاه حسان بن ثابت.

(٣) هو عاصم بن عمر بن الخطاب، القرشي، العدوي، ولد سنة ٦ هـ/ ٦٢٧، شاعر، كان من أحسن الناس خلقاً، كان طويلاً جسيماً، وهو جدّ عمر بن العزيز لأمه. مات بالربذة سنة ٧٠ هـ/ ٦٩٠ م.

(٤) الشموس: عفيرة بن عباد، من بني جديس، شاعرة جاهلية من هل اليمامة بنجد، لها خبر وشعر في تحريض قومها على قتال طسم.

Marfat.com

وكانت حسناء أديبة عاقلة ظريفة تعرف الأخبار وتروي الأشعار. رآها أبو نواس بالبصرة عند مولاها المذكور فاستحلاها وقال فيها أشعاراً كثيرة، وقيل له يوماً: إن جنان عزمت على الحج فقال: إني سأحج على هذا إن أقامت على عزيمتها فلما علم أنها خارجة سبقها، وما كان نوى الحج ولا أحدث عزمه إلا خروجها وقال لما عاد من حجه:

ألـم تـرَ أننـي أفنيـت عمـري بمطلبهـا ومطلبهـا عسيـر
فلمـا لـم أجـد سبيـاً إليهـا يقـرّبنـي وأعيتنـي الأمـور
حججت وقلت قد حجت جنان فيجمعنـي وإيـاهـا المسيـر

وقد أرسل إليها أبو نواس حين عاد من حجه بهذه الأبيات:

إلٰهنـا مـا أعـدلـك مليـك كـل مـن ملَـكَ
لبيـك قـد لبيـت لـك لبيـك إن الحمـد لَـكَ
والملـك لا شـريـك لـك والليـل لمـا أن حلَـكَ
والسـابحـات فـي الفلـك علـى مجـاري المنسلَـكَ
مـا خـاب عبـد أمّلـك أنـت لـه حيـث سلَـكَ
لـولاك يـا رب هلـك كـل نبـيّ وملَـكَ
وكـل مـن أهـلّ لـك سبـح أو لبـى فلَـكَ
يـا مخطئـاً مـا أغفلـك عجـل وبـادر أجلَـكَ
واختـم بخيـر عملـك لبيـك إن الملـك لَـكَ
والحمـد والنعمـة لـك والعـز لا شـريـك لَـكَ

وقيل: كانت جنان قد شهدت عرساً في جوار أبي نواس فانصرفت منه وهو جالس، فلما رآها أنشد بديهاً:

شهـدت جلـوة العـروس جنـان فـاستمـالـت بحسنهـا النظـارة
حسبـوهـا العـروس حيـن رأوهـا فـإليهـا دون العـروس الإشـارة

وغضبت يوماً جنان من كلام كلمها به، فأرسل يعتذر إليها، فقالت للرسول: قل له لا برح الهجران ربعك ولا بلغت أملك من أحبتك، فرجع الرسول إليه فسأله عن جوابها فلم يخبره فقال:

فـديتـك فيـم عتبـك مـن كـلام نطقـت بـه علـى وجـه جميـلِ
وقـولـك للـرسـول عليـك غيـري فليـس إلـى التـواصـل مـن سبيـلِ
فقـد جـاء الـرسـول لـه انكسـار وحـال مـا عليـه مـن قبـولِ

Marfat.com

ولـــو ردّت جنـــان مـــردّ خيـــر تبيـــن ذاك فـــي وجـــه الـــرسـولِ

قيل: ولم تكن جنان تحبه أوّلاً، فما عاتبها به حتى استمالها بصحة حبه لها فصارت تحبه بعد بغضها له قوله:

جنـــان إن جـــدت يـــا منـــاي بمـــا آمـــل لـــم تقطـــر السمـــاء دمـــا
وإن تمـــادى ولا تمـــاديـــت فـــي منعـــك أصبـــح فـــي قفـــرة رممـــا
علقت من لو أتى على أنفس الـ ـمـــاضيـــن والغـــابـــريـــن مـــا نـــدمـــا
لـــو نظـــرت عينـــه إلـــى حجـــر ولـــد فيـــه فتـــوره سقمـــا

وقال الجماز[1]: كنت عند أبي نواس جالساً إذ مرّت بنا امرأة ممن يداخل الثقفيين فسألها عن جنان وألحف[2] في المسألة فاستقصى، فأخبرته خبرها وقالت: قد سمعتها تقول لصاحبة لها من غير أن تعلم أني أسمع، ويحك قد آذاني هذا الفتى وأبرمني، وأحرج صدري وضيق عليّ الطرق بحدة نظره وتهتكه فقد لهج قلبي بذكره والفكر فيه من كثرة فعله لذلك حتى رحمته، ثم التفتت فأمسكت عن الكلام ففرح أبو نواس بذلك فلما قامت المرأة أنشأ يقول:

يا ذا الذي عن جنان ظل يخبرنا بـــالله قـــل وأعـــد يـــا طيـــب الخبـــرِ
قال اشتكتك وقالت ما ابتليت به أراه مـــن حيثمـــا أقبلـــت فـــي إثـــري
ويعمل الطرف نحوي إن مررت به حتـــى ليخجلنـــي مـــن حـــدّة النظـــرِ
وإن وقفـــت لـــه كيمـــا يكلمنـــي في الموضع الخلو لم ينطق من الحصرِ
مـــا زال يفعـــل بـــي هـــذا ويـــدمنـــه حتى لقد صار من همي ومن وطري

وقيل: أرسلت جنان تقول لأبي نواس: قد شهرتني فاقطع زيارتك عني أياماً لينقطع بعض القالة، ففعل وكتب إليها:

إنـــا اهتجـــرنـــا للنـــاس إذ فطنـــوا وبينْنـــا حيـــن نلتقـــي حســـنُ
نـــدافـــع الأمـــر وهـــو مقتبـــل فشـــب حتـــى عليـــه قـــد مـــرنـــوا
فليـــس يقـــذى عينـــاً معـــاينـــة لـــــه ومـــــا إن تمجـــــه أذنُ
ويـــح ثقيـــف مـــاذا يضـــرّهـــم لـــو كـــان لـــي فـــي ديـــارهـــم سكـــنُ

---

(١) هو الجمّاز بن هبة بن جمّاز بن منصور الحسيني، أحد من تولوا إمارة المدينة المنورة في عهد ولاية السلطان برقوق بمصر. جاءته المراسيم منه. ساءت سيرته فامتدت يده إلى قبّة الحرم النبوي، وأخذ بعض قناديلها، واستولى على حاصل المدينة ورحل عنها، فاغتاله بعض عربان مطير، فكان عبرة للناس. قتلوه وهو نائم سنة ٨١٢ هـ/١٤٠٩ م.

(٢) ألحف: ألحف الرجل السؤال، ألحّ ومعنى الإلحاف الشمول بالمسألة. [القاموس المحيط، مادة: لحف].

Marfat.com

أريب ما بيننا الحديث فإن زدنا فزيدوا فما لذا ثمنُ

وقيل: كتب إليها من بغداد:

كفى حزناً أن لا أرى وجه حيلة أزور بها الأحباب في حكمانِ
وأقسم لولا أن تنال معاشر جناناً بما لا أشتهي لجنانِ
لأصبحت منها داني الدار لاصقاً ولكنّ ما أخشى فديت عداني
فوا حزناً حزناً يؤدي إلى الردى فأصبح مأسوراً بكل لسانِ
أراني انقضت أيام وصلي منكم وآذن فيكم بالوداع زماني

وقيل: بلغه أن امرأة ذكرت لجنان عشقه لها، فشتمته جنان وتنقصته وذكرته أقبح الذكر، فقال في ذلك:

وا بأبي من إذا ذكرت له وطول وجدي به تنقصني
لو سألوه عن وجه حجته في سبه لي لقال يعشقني
نعم إلى الحشر والتنادي نعم أعشقه أو ألف في كفني
أصيح جهراً لا استسرّ به عنفني فيه من يعنفني
يا معشر الناس فاسمعوه وعوا إن جناناً صديقة الحسنِ

فبلغها ذلك فهجرته وأطالت هجره، فرآها ليلة في منامه وأنها قد صالحته فكتب إليها:

إذا التقى في النوم طيفانا عاد لنا الوصل كما كانا
يا قرّة العين فما بالنا نشقى ويلتذ خيالانا
لو شئت إذا أحسنت لي في الكرى[1] أتممت إحسانك يقظانا
يا عاشقين اصطلحا في الكرى وأصبحا غضبي وغضبانا
كذلك الأحلام غدّارة وربما تصدق أحيانا

وقيل: رآها يوماً في ديار ثقيف فقابلته بما كره، فغضب وهجرها مدة فأرسلت إليه تصالحه، فرده ولم يصالحها، فرآها في النوم تطلب صلحه فقال:

دست له طيفها كيما تصالحه في النوم حين تأبى الصلح يقظانا
فلم يجد عند طيفي طيفها فرجاً ولا رثى لتشكيه ولا لانا
حسبت أن خيالي لا يكون لما أكون من أجله غضبان غضبانا
جنان لا تسأليني الصلح سرعة ذا فلم يكن هيناً منك الذي كانا

(١) الكرى: النوم. [القاموس المحيط، مادة: الكرى].

Marfat.com

ومن قوله فيها:

أمـا يغنـي حـديثـك عـن جنـان ولا تبقـى علـى هـذا اللسـانِ
أكـل الـدهـر قلـت لهـا وقـالـت فكـم هـذا أمـا هـذا بفـانِ
جعلـت النـاس كلهـم سـواء إذا حـدّثـت عنهـا فـي البيـانِ
عـدوّك كـالصـديـق وذا كهـذا سـواء وإلا بـاعـد كـالأدانـي
إذا حـدّثـت عـن شـأن تـوالـت عجـائبـه أتيتهـم بشـأنِ
فلـو مـوّهـت عنهـا بـاسـم أخـرى علمنـا إذ كنيـت مـن أنـت عـانـي

ومن ظريف ما كتبه إليها قوله:

أكثـري المحـو فـي كتـابـك وامحيـ ـه إذا مـا محـوتـه بـاللسـانِ
وامـرري بـالمحـاء بيـن ثنـايـا ك العـذاب المفلجـات الحسـانِ
إننـي كلمـا مـررت بسطـر فيـه محـو لطعتـه بلسـانـي
تلـك تقبيلـة لكـم مـن بعيـد أهديـت لـي ومـا برحـت مكـانـي

ورآها يوماً في مأتم سيدها تندبه باكية وهي مخضبة فقال مرتجلاً:

يـا قمـراً أبـرزه مـأتـم بنـدب شجـواً بيـن أتـرابِ
يبكـي فيـذرى الـدرّ مـن نـرجس ويلطـم الـورد بعنـابِ
لا تبكـي ميتـاً حـلّ فـي حفـرة وابكـي قتيـلاً لـك بـالبـابِ
أبـرزه المـأتـم لـي كـارهـاً بـرغـم دايـات وحجـابِ
لا زال مـوتـاً دأب أحبـابـه ولا تـزل رؤيتـه دأبـي

ودخل على أبي نواس بعض أصحابه يعودونه وهو مريض، فوجدوا به خفة قالوا: فانبسط معنا فقال: من أين جئتم؟ فقلنا من عند جنان. فقال: أو كانت عليلة؟ قلنا نعم، وقد عوفيت الآن. فقال: والله أنكرت علتي هذه ولم أعرف لها سبباً غير أني توهمت أن ذلك لعلة نالت بعض من أحب ولقد وجدت في يومي هذا راحة ففرحت طمعاً أن يكون الله عافاه منها قبلي ثم دعا بدواة وكتب إلى جنان:

إنـي حممـت ولـم أشعـر بحمـاك حتـى تحـدّث عـوّادي بشكـواكِ
فقلت ما كانت الحمى لتطرقني مـن غيـر مـا سبـب إلا بحمـاكِ
وخصلـة قمـت فيهـا غيـر متهـم عـافـانـي الله منهـا حيـن عـافـاكِ
حتى إذا ما انقضت نفسي ونفسك في هـذا وذاك وفـي هـذي وفـي ذاكِ

وقيل: إن أبا نواس حاول مراراً أن يتزوّج بها ولم ينل ذلك، وتوفي قبلها وبقيت هي في

Marfat.com

منزل سيدها معززة مكرّمة إلى أن ماتت بعد أبي نواس بمدّة قليلة. ويقال: إن سبب وفاتها حزنها على أبي نواس لكونها لم تتصل به.

جنفياف ابنة دوق براينت من أعمال فرنسا

ولدت في فرنسا سنة ٦٨٠ ميلادية وكانت من أبدع نساء عصرها جمالاً ورقة، وأكثرهن لطفاً ورزانة، وأبدعهن حديثاً ومعاشرة. أحبها «سغفريد» ـ كونت «بالاتين» ـ وأحبته، فاقترنا سنة ٧٠٠ [م]. وقبل أن يمضي على قرانهما عام انتدب «شارل مارتل» زوجها لقيادة كتيبة من جيشه المعدّ لمهاجمة العرب في المغرب، فأجاب سؤاله وغادر «جنفياف» إلى عناية «ألكافلير غولو» وكيل أملاكه الذي لما خلا له الجوّ زيَّن له الخَنَّاس[1] مراودة سيدته ومطارحتها الوجد فألفى من عفافها سوراً من حديد لا تخرقه هجمات الماكرين ولا تفعل به مجانيق المحتالين.

ولما قنط وأعيته الحيلة عمد لؤماً وخبث طينة إلى اتهامها بالفحشاء زاعماً أنها حملت بعد ترحال زوجها خيانة، ولما كان بعلها ساذج القلب نزيه الضمير دخلت عليه وشاية أمينه الخائن وحدثت به الحمية والأنفة إلى توقيع أمر بإتلافها مع وليدها الطفل على زعمه بيد أن «غولو» خدع من عهد إليهم قتلها فتركت مع طفلها في توغاب لرحمة الله تعالى فحنت على ولدها وأخذت ترضعه وتدأب على تربيته حتى ترعرع، ولما عاد زوجها من غزوته علم أنها بريئة من الوصمة والعار فندم على فعلته ندم الفرزدق[2] على طلاق نوار، فخرج ذات يوم متجولاً في ذلك الغاب للقنص ترويحاً لكربه وإفراجاً عن قلبه، فلقي «جنفياف» عَرضاً فخيل له أن روحها مثلت لديه لتشدّ النكير عليه، ولم يبد له أنها حية حتى ناجته بما يعهد من رقتها، وأزاحت له الستر عما يعلم من مسألة قتلها ودخيلتها، فتجلت له الدنيا إذ ذاك بثوب بهج وغمر

---

(١) الخَنَّاس: الشيطان، لأنه ينقبض ويتأخّر عند ذكر الله. [القاموس المحيط، مادة: خنس].

(٢) هو همّام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي، أبو فراس، الشهير بالفرزدق. شاعر من النبلاء، من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة. كان يقال: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب، ولولا شعره لذهب نصف أخبار الناس. كان يشبّه بزهير بن أبي سلمى، وكلاهما من شعراء الطبقة الأولى. زهير في الجاهليين، والفرزدق في الإسلاميين. وهو صاحب الأخبار مع جرير والأخطل. كان شريفاً في قومه، عزيز الجانب، يحمي من يستجير بقبر أبيه، وكان أبوه من الأجواد الأشراف، وكذلك جدّه. وفي شرح نهج البلاغة: كان الفرزدق لا ينشد بين يدي الخلفاء والأمراء إلاّ قاعداً، وأراد سليمان بن عبد الملك بن مروان أين يقيمه فثارت طائفة من تميم، فأذن له بالجلوس. كان يُكنى في شبابه بأبي مكية، وهي ابنة له، لقّب بالفرزدق لجهامة وجهه وغِلظه. توفي في بادية البصرة سنة ١١٠ هـ/ ٧٢٨ م وقد قارب المائة. أخباره كثيرة وكان مشتهراً بالنساء، زير غَوانٍ، مع العلم أن ليس له بيت واحد في النسيب مذكور.

Marfat.com

الفرح أهداب أماقيه[١]، فأسبلت الدموع وضم محبوبته وابنها إلى صدره ضمة كادت تستفرشهما الفؤاد لو لم تحل دونه حنايا الضلوع، وذهب بهما إلى قصره الجميل القائم بين مرج أفيح وماء سلسبيل وقال لهما: كلا منها رغداً حيث شئتما لا جُناح بعد اليوم عليكما، فبنت «جنفياف» حيث كانت في الغاب معبداً حمداً لله على حياتها وشكراً وهو لا يزال حتى اليوم عبرة للمارين وذكرى.

قد شيد فيه أخيراً مذبح نقش عليه خلاصة ما كان وضريح دفن به بعد ذلك العروسان، وقد نظم بلغاء الإفرنج المهم من حوادث «جنفياف» المجيدة شعراً، وألف كتبتهم في أنبائها روايات تترى، عرّب إحداها وطبعت ونشرت للعالم وهي على علاتها تثير الأشجان، وتهيج الأحزان، وتتلو على قارئها ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٦].

جنفياف القدّيسة

سميت محامية لباريس ولدت في بلدة «تنشر» نحو سنة ٤٢٢ ميلادية، وتوفيت في باريس سنة ٥١٢ [م] حسب أشهر التقاليد كان أبواها «سفيروس» و«جيرونتيا» فقيرين جداً، وكان عملها وهي صغيرة أن ترعى الماشية على قمة جبل «فالريان» حقل يدعى باسمها، وكذلك نبع ومغارة عند حضيضه، ولما كان عمرها ١٥ سنة أقامها للخدمة الدينية القديس «جرمانوس الأوستري»[٢].

وقد نبأت سنة ٤٤٩ [م] بمهاجمة الهونة تحت قيادة «أطيلا»[٣]، ولما تهدد هذا القائد سنة ٤٥١ [م] أن يهاجم باريس يقال: إن شجاعتها و براعتها خلصت المدينة وكذلك في أثناء حصار الفرنكة لباريس تحت قيادة «كلوڤيس» كانت تقوّي الأهالي وتشجعهم، واتخذت طريقة لإدخال المؤنة إلى المدينة، ولما أخذت باريسن خلصتها شفاعة «جنفياف» من الأعمال القاسية، وكان «كلوڤيس» يعتبرها وقد دُفنت بالقرب منه في كنيسة القدّيسين «بطرس»[٤]

---

(١) الأماق: مجرى الدمع من العين. [القاموس الحيط، مادة: موق].

(٢) جرمانوس: القديس بطريرك القسطنطينية ٧١٥ م ـ ٧٣٠ م. دافع عن تكريم الأيقونات فعُزل. توفي سنة ٧٣٣ م.

(٣) أطيلا: أو أتيلا (Attilla)، ملك الهون ٤٣٢ م ـ ٤٥٣ م، اشتهر بغزواته البربرية. اجتاح بيزنطية والإمبراطورية الرومانية. دحره آيتيوس في الحقول القاتالونية سنة ٤٥١ م. نهب إيطاليا وعفا عن روما. انهارت مملكته بموته.

(٤) كنيسة بطرس: أو القديس بطرس، شادها في روما الإمبراطور قسطنطين سنة ٣٢٤ م أعيد بناؤها في القرن السادس عشر على يد كبار الفنانين مثل: برامانتِه، رافائيل، ميكالانجلو، وبرنيني. ارتفاع قبّتها ١٣٣ م.

Marfat.com

و«بولس» التي بنياها، وقد سميت تلك الكنيسة مع الدير المجاور لها باسمها، وتابوتها الذي يقال: إنه من عمل «سان ألدا» جعل مكانه في القرن الثالث عشر تابوت أكبر وأثمن وكان يحسب زماناً طويلاً ملجأ أهل باريس، وقد أرسل إلى دار الضرب سنة ١٣٩١ [م]، وأحرقت الذخائر التي كانت فيه.

جنوب أخت عمرو ذي الكلب النهدي

كانت شاعرة أديبة فصيحة لبيبة بليغة المعاني ذات ألفاظ رائقة، ومعان فائقة، لها في أخيها مراث قالتها لما قتله بنو كاهل[1] منها ما رواه الجوهري:

أبلغ بني كاهل عني مغلغلة ... والقوم من دونهم سعياً ومركوبُ
والقوم من دونهم أين ومسغبة ... وذات ريد بها رضع وأسكوبُ
أبلغ هذيلاً[2] وأبلغ من يبلغها ... عني حديثاً وبعض القول تكذيبُ
بأن ذا الكلب عمراً خيرهم حسباً ... ببطن شريان يعوي حوله الذيبُ

وقالت تمدحه في خلال رثائها:

فأقسم يا عمرو لو نبهاك ... إذا نبها منك داء عضالا
إذا نبها منك ليث عرين ... مغيثاً مفيداً نفوساً ومالا
وخرق تجوّزت مجهولة ... بوجناء حرف تشكي الكلالا
فكنت النهار به شمسه ... وكنت دجى الليل فيه الهلالا
لقد علم الضيف والمرملون ... إذا أغبر أفق وهبت شمالا
تخلت عن أولادها المرضعات ... ولم ترعين لمزن بلالا
بأنك ربيع وغيث مريع ... وأنك هناك تكون الثمالا
وحرب رددت وثغر سددت ... وعلج شددت عليه الحبالا
ومال حويت وخيل حميت ... وضيف قربت يخاف الوكالا

جهان

والدة السلطان شمس الدين ملك «دهلى» في بلاد الهند وأم السلطان، تدعى المخدومة «جهان» وهي من أفضل النساء، كثيرة الصدقات، عمرت زوايا كثيرة، وجعلت فيها الطعام

---

(١) بنو كاهل: بطن من أسد من خزيمة من العدنانية، وهم بنو كاهل بن أسد، منهم علباء الحارث.
(٢) بنو هذيل: بطن من خندف من مُضر، وهم بنو هذيل بن مدركة بن إلياس، وهما ابني خندف من مُضر. كان له من الولد سعد وجناب بطن، عميرة وهرمة بطن.

Marfat.com

للوارد والصادر وهي مكفوفة البصر وسبب ذلك أنه لما ملك ابنها جاء إليها جميع الخواتين وبنات الملوك والأمراء في أحسن زي وهي على سرير الذهب المرصع بالجواهر، فخدمن بين يديها جميعاً، ومن شدة فرحها بولدها ذهب بصرها للحين، وعولجت بأنواع العلاج فلم ينفع وولدها أشد الناس برّاً بها، ومن بره أنها سافرت معه مرة فقدم السلطان قبلها بمدة، فلما قدمت خرج لاستقبالها وترجل عن فرسه وقبل رجلها وهي في المحفة بمرأى من الناس أجمعين.

قال ابن بطوطة في «رحلته»: «إننا لما انصرفنا من عند السلطان شمس الدين المذكور خرج الوزير ونحن معه إلى باب الصرف وهم يسمونه باب الحرم، وهنالك سكنى المخدومة «جهان»، فلما وصلنا بابها نزلنا عن الدواب وكل واحد منا قد أتى بهدية على قدر حاله ودخل معنا قاضي قضاة الممالك، كمال الدين بن البرهان فخدم الوزير والقاضي عند بابها وخدمنا كخدمتهم، وكتب كاتب بابها هدايانا، ثم خرج من الفتيان جماعة وتقدم كبارهم إلى الوزير فكلموه سراً ثم عادوا إلى القصر.

ثم رجعوا إلى الوزير، ثم عادوا إلى القصر ونحن وقوف، ثم أمرنا بالجلوس في سقيف هنالك، ثم أتوا بالطعام وأتوا بقلال من الذهب يسمونها السُّبني (بضم السين والياء آخر الحروف) وهي مثل قدور ولها مرافع من الذهب تجلس عليها يسمونها السُّبُك (بضم السين والباء الموحدة)، وأتوا بأقداح وطسوت وأباريق كلها ذهب، وجعلوا الطعام سماطين وعلى كل سماط صفان ويكون في رأس الصف كبير القوم الواردين، ولما تقدمنا للطعام خدم الحجاب والنقباء وخدمنا لخدمتهم.

ثم أتوا بالشربة فشربنا. وقال الحجاب: باسم الله ووقف الوزير ووقفنا معه، ثم أخرجوا من داخل القصر ثياباً غير مخيطة من حرير وكتان وقطن فأعطي كل واحد منا نصيبه منها، ثم أتوا بتيفور ذهب فيه الفاكهة اليابسة، وتيفور مثله فيه الجلاب، وتيفور ثالث فيه التبنول، ومن عادتهم أن الذي يخرج له ذلك يأخذ التيفور بيده ويجعله على كاهله، ثم يخدم بيده الأخرى إلى الأرض فأخذ الوزير التيفور بيده قصد أن يعلمني كيف أفعل إيناساً منه وتواضعاً ومبرّة جزاه الله خيراً ففعلت كفعله.

ثم انصرفنا إلى الدار المعدة لنزولنا بمدينة «دهلى» وبمقربة من «دروازة» وبعد وصولنا بعثت لنا الضيافة وهي مع جزار وطحان، وأمرتهما أن يعطونا مقداراً معيناً كل يوم، وذلك مدة إقامتنا في بلادها، وكان وزن اللحم بمقدار وزن الدقيق، ومكثنا نستلم ضيافتها إلى أن انصرفنا من بلادها ولم أر مثلها في نساء الملوك لما حوته من العز والجاه والكرم العديم المثال».

Marfat.com

جورج سند دوفان

كانت صاحبة روايات فرنساوية، سمت نفسها «جورج سند» ولدت في باريس سنة ١٨٠٤ ميلادية، وتوفي أبوها «موريس دوين» ولم يكن لها من العمر سوى أربع سنوات فربتها جدتها الكونتس «دوهدن»، وبعد أن صرفت نحو سنتين في مدرسة يومية في باريس رجعت إلى «توهان» سنة ١٨٢٠ [م]. وعند وفاة جدتها بعد ذلك بأشهر قليلة سكنت مع أصحاب عائلتها في «ملون» حيث تعرّفت بـ«كزمير دوفان» فتزوجت به سنة ١٨٢٢ [م] وسكنت في «توهان» ولم يمض إلا قليل حتى ظهر لهما ما بينهما من الاختلاف في الطباع والأخلاق والذوق وزاد النفور بينهما الارتباك المالي الذي وقع في سنة ١٨٣١ [م]. ولما كانت هي راغبة في امتحان حظها في التأليف حصّلت رخصة من زوجها بأن تصرف ثلاثة أشهر من كل ستة أشهر في باريس، فنشرت بضع نبذ في جرنال «الفيقارو» فظهر لها أنها غير قادرة على الكتابة في الجرائد لما يلزم لذلك من سرعة الخاطر والعمل، وكان زوجها قد عين لها ١٥٠٠ فرنك راتباً سنوياً، فطلبت الاقتصاد، ورغبةً في الدخول إلى المكاتب والملاعب العمومية دون ملاحظة لبست لبس رجل.

وفي تلك الأثناء كتبت بمساعدة صديقها «جول سند» رواية عنوانها «روزه وبلانش» تحت اسم «جول سند» فصادفت قبولاً، فقوّى ذلك عزمها على نشر رواية أخرى من القلم نفسه، ولكن لم تجد عند «جول» ـ المذكور ـ رواية مجهزة إلا أنها كانت قد أكملت رواية عنوانها «أن بانا» نشرت في أيار سنة ١٨٣٢ [م] تحت اسم «جورج سند» فصادفت قبولاً تاماً، ومما زادها قبولاً ما شاع من أنها من قلم امرأة، ثم أردفتها بعد قليل برواية عنوانها «فالنتين» وهي أحسن من الأولى وصادفت قبولاً، ثم صارت بعد ذلك كاتبة روايات الجريدة «الريڤودي ردموند».

وسنة ١٨٣٣ [م] نشرت رواية عنوانها «ليليا» أثرت في العموم تأثيراً بليغاً لمحاماتها عن مبادئ الكفر والخلل في الهيئة الاجتماعية، ومن ذلك الوقت أخذ كثيرون من الذين كانوا يعتبرون مؤلفاتها ينظرون إليها بعين استخفاف فذهبت حينئذٍ إلى إيطاليا طلباً لتبديل الهواء ورافقها «أكفرت دومست» الشاعر، ولكنهما افترقا في البندقية فرجع إلى فرنسا وبقيت هي وكتبت هناك عدة كتابات، وعند رجوعها إلى فرنسا في أوائل سنة ١٨٣٥ [م] التقت بالمتشرع الفصيح «ميشال دوبرج» فساقها إلى الأمور السياسية ومع «لامني» الذي وقع جدال بينه وبينها في أمور دينية ومع «بيرلورو» الذي علمها المبادئ الاشتراكية، وظهر تأثيرهم فيها في كثير من مؤلفاتها وكان حينئذٍ قد ازداد النفور بينها وبين زوجها فحصلت على أمر يؤذن لها بتركه

Marfat.com

ويولجها إدارة أمورها بنفسها وتربية أولادها وبعد ذلك جعلت «توهان» مكاناً لاجتماع أصدقائها، واعتنت بتربية أولادها.

وسنة ١٨٣٨ [م] صرفت الشتاء في جزيرة «ميورقة» حيث رافقها «شوپن»[١] معلم البيانو فبقيت فيها إلى سنة ١٨٤٧ [م] حين اضطرتها ثورة سنة ١٨٤٨ [م] أن تعود ثانياً إلى ميدان السياسة ويقال: إنها عضدت بكتاباتها كثيراً من الأعمال التي اتخذها «لدورولن» وكان حينئذٍ عضواً للحكومة المؤقتة ثم رجعت إلى «توهان».

وسنة ١٨٥٤ [م] نشرت في جريدة «جرس».ترجمة حياتها محتوية على بعض الحوادث التي تخللتها وهي تاريخ لأفكارها وحاسياتها ونشرت نحو ٦٠ رواية منها كتب ومنها نبذ في الجرائد ولها تآليف أخرى كثيرة مطبوعة باللغات الإفرنجية.

جوزفين ابنة الكونت تشاوي لاباجرى الفرنسوي

من مقاطعة بالقرب من «بلو»، وأمها فرنسوية الأصل أيضاً من مستعمرات جزيرة القديس «رومينيكو» التابعة لفرنسا عرَّفها الكونت «تشاوي » لما هاجر إلى تلك الجزيرة سنة ١٧٦٠ [م] ليكون مأموراً بحراً تحت قيادة المركيز «بواهرني»، وإلى الجزيرة وقتئذٍ، فتزوج بها ورزق منها «جوزفين» المذكورة آنفاً. وتوفي والدها بُعيد ولادتها ثم ماتت زوجته وتركا «جوزفين» طفلة يتيمة الوالدين فاعتنت بها عمتها القاطنة في تلك الجزيرة وكانت هي وزوجها من أصحاب الأملاك الكثيرة والثروة الطائلة وعلى جانب عظيم من اللطف والدعة حتى أكرمهما أهالي الجزيرة واشتهرا بكل منقبة ومحمدة حتى كان خدمهما ينظرون إليهما نظر الآلهة وأحبهما جميع معارفهما حباً عظيماً.

فهذان اعتنيا بـ«جوزفين» ورباها على المبادئ الأدبية منذ الصغر وغرسا في قلبها الحنوّ واللطف فكانت تعامل بمثل ذلك العبيد القاطنين في ذاك المكان فأحبوها كثيراً وكانوا يعدّونها كملكة عليهم ولم يكن لها في تلك الجزيرة من تلعب معه من الأولاد سوى أولاد العبيد فهؤلاء كانوا أصدقاءها في الصغر أما أصحاب عمتها وزوجها فكانوا من خاصة الفرنسويين القاطنين في تلك الجزيرة وهم جماعة من المهذبين العارفين بالآداب والفنون المتمسكين بعوائد بلادهم واصطلاحاتها الحسنة، ومن السياح الأوروبيين الذين يأتون الجزيرة ويجولون في أقطار العالم وكانت «جوزفين» تسمع أحاديثهم وتستوعبها في عقلها النير وتحفظ منها أموراً كثيرة لمستقبل

---

(١) وردت في الأصل: «شوين»، ولعل الصحيح ما أثبتناه وهو شوپن، فردريك شوپان (Chopin) مؤلف موسيقي بولوني ١٨١٠ ـ ١٨٤٩ م، نزع في فنه إلى الرومنطيقية. جدد موسيقى البيانو.

Marfat.com

الأيام، ولذلك ظن الناس بعد اقترانها بـ «نابليون» ومطالعة رسائلها الأنيقة أنها تعلمت في أحسن المدارس ودرست كل الفنون على أنها لم تدرس شيئاً منها درساً قانونياً ما عدا الموسيقى والتصوير والرقص، وأما ما بقي فاكتسبته اكتساباً بجدّها واجتهادها وتوقد ذهنها وشدة ميلها إلى الدراسة.

وكانت تضرب الغيثار بحذاقة غريبة وتغني بصوت رخيم يأخذ بمجامع القلوب، وإذا قرأت أثرت في عقول السامعين وسحرتهم بحسن بيانها ورقة كلامها.

وقد اشتهرت بمحبة الأزهار ودرس علم النبات والرقص وبرعت في الخياطة وسائر فنون النساء غير أنها لم تكن تهتم بأمر الملبس اهتماماً خاصاً، ولا كانت تباهي بحسن قوامها وجمال محياها شأن كثيرات من النساء وكانت صديقتها الحميمة في الصغر إحدى البنات الحبشيات اللون. ويقال: إنها ابنة الكونت «تشاوي» والد «جوزفين» قبل اقترانه الشرعي وهي أكبر منها بسنتين ولم تفارقها لفرط محبتها لها وتعلقها بها.

وبينما هما ذاهبتان للنزهة ذات يوم وجدتا عدداً من العبيد حول امرأة سوداء طاعنة في السن تزعم أنها من أهل الكرامات الذين ينبئون بالغيب فوقفت «جوزفين» مع البنات، ودنت إلى المرأة وسألتها أن تنبئها بمستقبل أمرها، فقبضت المرأة على يدها وهزتها فقالت «جوزفين»: أظنك اطلعت على شيء من مستقبلي. فقالت المرأة لها: نعم. قالت «جوزفين» متبسمة: هل تصيبني السعادة أو التعاسة؟ فأجابتها المرأة: التعاسة، ثم سكتت وقالت: ثم تتلوها السعادة. فقالت «جوزفين»: أظنك غلطت فانظري ثانية فرفعت المرأة نظرها إلى السماء وعلامات الكدر تلوح على وجهها وقالت: لا يسوغ لي أن أقول أكثر من ذلك، فسألتها «جوزفين» بإلحاح أن تنبئها بمستقبلها فأجابتها المرأة: أخاف أن لا تصدقيني فألحت عليها، فقالت: إنك تتزوجين عن قريب ثم لا يمضي إلا القليل حتى يموت زوجك ولكنك ستصيرين ملكة فرنسا عدة سنين، ثم تموتين في مستشفى وسط اضطرابات أهلية.

وفي تلك الأثناء هاجر إلى تلك الجزيرة عائلة إنكليزية وسكنت بالقرب من بيت عمة «جوزفين». وبين أفراد هذه العائلة شاب اسمه «وليم» يقارب عمره عمر «جوزفين» فأحب كل منهما الآخر حتى صار أهلهما يلمحون إلى ذلك وظنوا أنهما سيتزوجان عند بلوغهما سن الرشد إلا أن الفتى عاد إلى بلاده مع عائلته لأسباب قضت بذلك فشق عليه فراق «جوزفين» وشعر أن حياته منغصة فتعاهد معها على المحبة والثبات على المودة إلى حين اللقاء.

وكان عمر «جوزفين» وقتئذٍ أربع عشرة سنة وهي في معظم البهاء والجمال أسيلة الخد معتدلة القد واتفق في ذلك الحين أن رجلاً فرنسوياً يلقب بـ«الكونت ڤيس إسكندربواهرني» زار

Marfat.com

عم «جوزفين» لأشغال له وهذا الرجل مولود في جزيرة «دومينيكو»، وقد نال الوسامات وألقاب الشرف على شجاعته في الحرب التي نشبت بين المستعمرات والممالك الأصلية، وهو من المشهورين بالبسالة والنخوة ومساعدة المستعمرات فصيح اللسان ثابت الجنان، أنيس المعشر، لطيف المحضر وقد حضر وقتئذٍ إلى الجزيرة لإثبات حق له على أملاك من جملتها قسم في حوزة عم«جوزفين» واضطر إلى البقاء عدة أيام في بيت عم «جوزفين» لإنجاز أشغاله، وهناك علق قلبه بـ«جوزفين» وسحرت عقله بلطفها وكمالها حتى لم يعد يستطيع فراقها، ولما رأت عمتها وزوجها ميل هذا الشاب إليها ورغبته فيها وهما يعلمان عظم منزلته وغناه سرّا من ذلك وصارا يمسكان عنها كل الرسائل الواردة عليها من خطيبها الأول والمرسلة منها إليه مدة سنة من الزمان.

أما «جوزفين» فحارت في عدم وصول رسائل خطيبها، ولم تنثنِ عن محبته وولائه مع ما أظهره لها الكونت «بواهرني» من شديد المحبة، وكانت تنظر إليه كضيف كريم في بيت عمتها.

وفي بعض الأيام كلمها عمها في أمر زواجها بـ«بواهرني»، ولما كانت تعلم أنه لا قبل لها برفض ذلك وليس لها إلا إبداء رأيها في الأمر حسب عادة تلك الأيام قالت: وكيف ذلك وقد وعدت «وليم» بأن تزوجه بي؟ فأجابها بأن «وليم» نسيك و«بواهرني» أفضل منه، ثم ذكر لها بعض مناقبه، فاضطرت إلى الصمت والتسليم.

وبعد أيام رجع «بواهرني» إلى «رايس» ثم بعد أشهر قليلة عزمت «جوزفين» أيضاً على الذهاب إلى فرنسا، وكانت في تلك المدة تفتكر بـ«وليم» وتؤمل أن تسمع عنه شيئاً، ولكنها قطعت آمالها منه قبل وصولها إلى باريس ولما وصلت إلى باريس وجدت «بواهرني» في انتظارها مع بعض رفقائه ومعارفها فذهبت برفقتهم وعلمت وقتئذٍ أن «وليم» وأباه في ذلك المكان ثم أتيا بعد وصولها بقليل لزيارتها. وفي اليوم التالي أتى «وليم» وحده لزيارتها فرفضت مقابلته فأرسل إليها رسالة يلومها على عدم محافظتها على العهد ويذكر لها الرسائل العديدة التي أرسلها إليها وعدم إجابتها عن شيء منها ويطلب الإفادة عن كل ذلك، فلما قرأت الرسالة ساءها ذلك كثيراً وتأكدت أنه لا يزال يحبها كما كان، وأن عمتها وزوجها خدعاها ليزوجاها بـ«بواهرني»، وقد أخذ منها الغيظ كل مأخذ فطلبت إلى أصحابها أن يسمحوا لها بالذهاب إلى دير تقضي فيه مدة من الزمن فأجابوا طلبها، وتوجهت إلى دير قضت فيه بضعة أشهر بالحزن والقلق.

وكان «وليم» في تلك المدة يترقب الفرص ليراها ولو مرة فلم ينل مرامه فيئس منها وقطع

Marfat.com

الرجاء من الاقتران بها، فتزوج بفتاة غنية قضى وإياها حياة تعيسة.

أما «بواهرني» فقصدها إلى الدير وسمح له أن يكلمها من نوافذ غرفتها، ولما رأت أنه لا سبيل لها إلا الاقتران به حسب رغبة عمتها وزوجها وأن «وليم» تزوج بغيرها طلبت الرجوع من الدير، واقترنت بالقسيس كونت «إسكندر بواهرني» المذكور ولها من العمر ست عشرة سنة، وكانت الهيئة التي تجتمع بها بعد زواجها مؤلفة من أعلى طبقة من الأمراء والأشراف وكانت ترضي جميع الناظرين إليها برقة حديثها وجودة أخلاقها.

أما زوجها فكان معجباً بجمالها وقد عرفها بالبلاط الملكي وبالملكة «ماري أنتوانت» هناك في قصر «فرسالية». وقضت «ماري أنتوانت» و«جوزفين الأولى» ابنة «ماريا تريزا» إمبراطورة النمسا من سلالة قياصرة «أستوريا» وقد أتت من وسط البلاط النمسوي لتكون ملكة فرنسا وزينة البلاط الفرنسوي، والثانية «جوزفين» ابنة رجل مزارع مولودة في جزيرة بعيدة عن العالم وقد رُبيت بين الزنوج ومن كان يظن أو يخطر له ببال أن «ماري أنتوانت» تنحط إلى أسفل دركات الذل وتقتل بالسيف و«جوزفين» تستوي على عرش لم يجلس عليه القياصرة في أيامهم.

وفي تلك الأيام بدأت الثورة وعمَّ الكفر والإلحاد بلاد فرنسا، واستخفوا بالديانة المسيحية، فكثر الفساد وزاد البلاء، ولم يعد للزواج الشرعي أقل احترام بل شاع الطلاق إلى درجة مستهجنة، ولما رأت «جوزفين» أن زوجها «بواهرني» لا يعتقد بالدين ولا يراعي حرمة الآداب، وقد تلطخ بالمفاسد على أنواعها بخلاف ما كانت تعتقده فيه، كبر عليها الأمر وأظهرت له كدرها بلطيف العبارة خوفاً من غيظه منها.

وفي سنة ١٧٨٠ [م] ولدت ابنة وسمتها «هورتنس» فحببت ولادتها «جوزفين» إلى زوجها، ولما كان «بواهرني» على ما تقدم من الأوصاف لا يعرف من الإنصاف والطهارة إلا اسمهما كان يلوم «جوزفين» لإنكارها عليه سوء تصرفه حاسباً إنه ليس لها حق في الكلام معه في هذا الشأن ما دام يعاملها باللطف والمعروف، ومن ثَمَّ لم تعد جوزفين ترى يوماً سعيداً وزادت تعاستها يوماً بعد يوم ولم تجد لها سلوّاً سوى ابنتها الصغيرة.

وفي سنة ١٧٨٣ [م] ولدت ابناً وسمته «أيوجين» فصار لها ولدان تعزت بهما عن جفاء والدهما الذي لم يزل عاكفاً على المنكرات، [ومما زاد «جوزفين» غيظاً فساد المرأة التي يميل إليها «بواهرني»][1] فإنها جاءت مرة إلى «جوزفين» وهي غير عالمة أنها عشيقته وأرتها أنه لا

---

(١) جملة وردت في الأصل بصياغة ركيكة وفي النصّ عبارات وألفاظ ركيكة أخرى، لكنها أقل ركاكة من =

Marfat.com

يستحق محبتها، ثم ذكّرتها بمحبة «وليم» لها، وما زالت تكلمها بمثل ذلك حتى اضطرتها لكتابة رسالة إلى عمها وعمتها ذكرت فيها أنها لولا الأولاد لتركت فرنسا إلى الأبد، وأن واجباتها تقضي عليها بأن تسلو «وليم»، ولكنهما لما زوّجاها به لم تكن تعيسة كما هي الآن إلى غير ذلك من مثل هذا الكلام، فاختلست تلك المحتالة الكتاب وارتدت لـ«بواهرني» مبرهنة له أن بين «وليم» و«جوزفين» مثل ما بينه وبينها فكره «جوزفين» من أجل ذلك كرهاً عظيماً، وحاولت أن تبرئ نفسها مما اتهمها به ظلماً وعدواناً فلم يصغ إليها بل طردها وأخذ ابنها منها، وطلب من المجلس طلاقها فأخذت ابنتها وذهبت إلى دير هناك لتقضي مدة من الزمان ريثما تنتهي محاكمتها ويا لها من مدة قضتها بالعزلة، ومرارة العيش والقلق الذي ما عليه من مزيد على أن المجلس برأها من كل ما اتهمت به بعد محاكمة طالت سنة من الزمان وحكم على «بواهرني» أن يقوم بنفقتها ونفقة ابنتها وأن تنفصل عنه انفصالاً.

وحدث في ذلك الوقت أنها تلقت رسالة من عمها وعمتها من «مرتينيكو» يسألانها فيها الذهاب إليهما فأخذت ابنتها معها وتوجهت إلى هناك فقابلاها بالمحبة والإعزاز، وقضت ثلاث سنين في «مرتينيكو» مغمومة حزينة لا سلوى لها سوى المطالعة وتعليم ابنتها، والتصدق على من حولها، وكان يغلب عليها الافتكار بولدها وما جرى لها مع زوجها فتذهب إلى الأماكن المنفردة وتبكي بكاء مراً نادبة تعس حظها وسوء حالها.

أما «بواهرني» فانغمس في السرور، وانهمك في الشهوات محاولاً نسيان امرأته وابنته فجلب ذلك له عاراً وكثر تحدّث الناس بأمره حتى صار مضغة في الأفواه، ولم ير من يمدحه على أعماله فتذكر زوجته الأمينة وحنوّها وكمالها وجمالها فندم على قسوته وسوء معاملته لها، وأحب أن ترجع إليه ثانياً، فكتب لها مظهراً أسفه على ما فرط منه في الماضي واعداً أن يسلك معها بالمحبة والأمانة، ولا يعود في المستقبل إلى ما كان عليه مؤكداً لها احترامه لصفاتها الشريفة راجياً أن ترجع إليه مع ابنتها لتجمع شمل تلك العائلة المشتتة.

فلما اطلعت «جوزفين» على رسالة زوجها جذبها الوجد والشوق إلى ابنها البعيد عنها وتصوّرت أنها ستضمه إليها فابتهجت بمجرد التصوّر والفكر ولكنها لم تكن قد نسيت الأتعاب والأحزان التي قاستها فذكرت أمرها لأصدقائها وأظهرت لهم أنه لولا شوقها إلى ولدها ما كانت تترك الجزيرة طول عمرها فألح عليها أصدقاؤها بالبقاء فلم ترض، بل ودعتهم ورجعت إلى فرنسا، ولما وصلت إليها قابلها زوجها بالترحاب وكان قد اختبر قيمة العيشة الأهلية، والمحبة الطاهرة النقية، وفرحت «جوزفين» بزوجها وابنها وسر زوجها من اجتماع الشمل بعد

= تلك التي نحن بصدد تصحيحها: «ومما زاد غيظاً «جوزفين» فساد المرأة التي «بوهراني» يميل إليها».

Marfat.com

التفرق وتناسيا الأيام التعيسة الماضية وصمما على المعيشة بالصفاء والسعادة، ولكن الدهر في الناس قلب فإن صفاءهما لم يطل لما حدث من الاضطرابات عند شبوب نار الثورة الفرنساوية فإن البلاد كانت وقتئذٍ قائمة قاعدة، والملك والملكة كانا في السجن، وكان «بواهرني» في ابتداء الثورة من أشد أنصار حزب الحرية وانتخب معتمداً للجمعية التي أقامها ذلك الحزب فكان له إلمام بكل متعلقاتها، ثم انحل عقد الجمعية فرجع إلى الجيش، ولما انتظمت جمعية اتفاق الأمة انضم إلى عضوية هذه الجمعية وانتخب رئيساً لها مرتين.

وانقسمت فرنسا في ذلك الوقت إلى حزبين، حزب مؤلف من العوام وآخر من الأشراف، وقوي حزب العوام على حزب الأشراف وكان قائده رجلاً قاسياً يدعى «دوبس بير» فقبضوا على جمهور غفير من حزب الأشراف وأودعوهم السجن ليقتلوهم بعد المحاكمة، وكان في الجملة «جوزفين» وزوجها فإنهم قبضوا عليهما بعنف وساقوهما إلى السجن ووضعوا كلاً منهما في مكان مظلم بعيداً عن الآخر، ولم يرثوا لحالة ولديهما الصغيرين وكانا في صباح اليوم الذي سجنت «جوزفين» فيه أتتها رسالة من بعض الأصدقاء يخبرونها بما سيجري عليها ويحضونها على الهرب وطلب النجاة، فلما اطلعت «جوزفين» على الرسالة جعلت تتأمل في أمر نجاتها ونجاة أولادها أيضاً ولكنها لم تر باباً للهرب حتى سمعت قرع الباب الخارجي والضوضاء أمامه ففهمت سبب ذلك وأسرعت إلى الغرفة التي كان الولدان نائمين فيها ودنت منهما وهما نائمان والدموع تتساقط على وجنتيها، ثم أكبت عليهما وقبلتهما قبلة الوداع وخرجت من الغرفة وأغلقت الباب لئلا يستيقظا ودخلت غرفة الاستقبال، فرأت فيها عصبة من العساكر المسلحة، فأغلظوا لها الكلام، ثم سلبوا ما في بيتها وساقوها إلى السجن الذي قتل فيه ثمانية آلاف شخص منذ أشهر قليلة.

أما الولدان، فلما استيقظا ووجدا أنفسهما منفردين في البيت مع الخدم سألا عن أمهما فأجابهما واحد أنه قد قبض عليها وأخذت إلى السجن فبكيا وانتحبا، وطلبا أن يذهبا إلى السجن ويقيما مع أبيهما وأمهما وكان لهما عمة فلما علمت بسجن «جوزفين» أخذتهما إليها.

أما «بواهرني» و«جوزفين» فكان كل منهما في سجن مظلم من سجون القتلى وقد تلطخ كل منهما بآثار الذين قتلوا في تلك السجون وكانا لا ينفكان عن الافتكار والبكاء بسبب ما جرى لهما وما سيؤل إليه أمرهما وما آل إليه بيتهما من الخراب ويتشوّقان إلى استماع شيء عن ولديهما وأحوالهما وبينما هما في السجن إذ وصلت الأخبار إلى «جوزفين» عن أمر سلامتهما ففرح قلبها بتلك الأخبار السارة.

وأما «بواهرني» فلم يمكنه أن يسمع شيئاً وكان هذا الحادث الهائل هو العاصف الثاني

Marfat.com

الذي لاقته «جوزفين» في بحر هذه الحياة العجاج. أما السجن الذي كانت «جوزفين» مسجونة فيه فكان دير «الكرمليين» وقد اشتهر في تلك الأيام بكونه مصرح[١] الظلم والعدوان وكان متسعاً وفيه عدة غرف وله أسراب مظلمة حتى لقد وجد داخل جدرانه عشرة آلاف مسجون في وقت واحد وكان كل قسم من هذا البناء العظيم ملطخاً بدماء القتلى الذين قتلوا في تلك الأثناء وكانت الرجال والنساء الهائجون يجرّون الناس إلى السجون بالمئات والألوف، وكان كثير منهم من الكهنة الذين ساقوهم أمام مذبح الكنيسة للاستهزاء برسوم الدين وهناك قتلوهم.

وكان في سجون فرنسا حينئذٍ نحو ثلثمائة ألف مسجون وكلهم من الأبرياء ينتظرون ساعة قتلهم، ولم يكن فيهم أحد من سوقة الناس وجهالهم بل كانوا جميعاً من أشراف فرنسا ومهذبيها، أما سجن «جوزفين» فكان في كنيسة هذا الدير مع مائة وستين نفساً من الرجال والنساء وكانت تظهر البشاشة بقدر الإمكان بين هؤلاء الرفاق وهي موقنة أنه لا ينال زوجها سوء، وراجية أنهما سيخرجان قريباً ويرجعان إلى بيتهما وكانت تكتب إلى زوجها وأولادها تشجعهم وتشدّد عزائمهم وتجذب جميع من في السجن إليها بحسن أخلاقها، ورقة شمائلها حتى امتلكت قلوب المسجونين في زمن قصير فاختاروها لتقرأ لهم الجريدة اليومية لمهارتها في القراءة وكونها ذات صوت رخيم يأخذ بمجامع القلوب، وكانوا يرون العجلات من نوافذ السجن مشحونة بالمسجونين المسوقين إلى الذبح كل يوم فالبعض يرين رجالهنّ والبعض أولادهن وغيرهم من الأعزاء عندهم فيقعون على الأرض فاقدي الشعور.

وفي صباح يوم من الأيام حلمت «جوزفين» أنها خرجت من السجن وجلست مع زوجها وأولادها، فسمعت مناديا ينادي للحضور أمام الحكام فتأكدت من ثَمَّ قرب أجلها لأنها علمت أن لا رادّ للعدو في تلك الشدّة العديمة الشفقة والرحمة، وأن خداع هذه المحاكمة ليس إلا الخطوة الأولى لإعدام حياتها وليس بعدها إلا المذبحة فسقطت آمالها في الخلاص من قمة الرجاء إلى الحضيض واليأس وجذبها الوجد إلى زوجها وأولادها وغلب إلى هنيهة حنوّ المرأة على شجاعتها، ولكنها رجعت إلى نفسها واستعدّت إلى المحاكمة بقدر ما يمكن من الهدوّ[٢] والسكينة، ثم سيقت من سجنها إلى دار المحكمة الملطخة بدماء القتلى وأدخلت إحدى غرفها هي وآخرون أيضاً لكي ينتظروا نوبتهم للمحاكمة التي نتيجتها إما الحياة وإما الموت العاجل.

وبينما كانت «جوزفين» جالسة في هذه الغرفة تنتظر نوبتها إذ فتح باب من الجهة المقابلة ودخل منه فرقة من العساكر المتسلحة ومعهم عدد من الأسرى، وكانوا قد أتوا بهم من سجن

---

(١) مصرح: مكان واسع، أو كلّ بناء عالٍ. [القاموس المحيط، مادة: صرح].
(٢) هكذا في الأصل، ولعلها: «الهدوء».

Marfat.com

آخر، وكانت عيون الجميع محدقة بهم وهم داخلون واحداً بعد آخر ونظرت «جوزفين» فرأت رجلاً مهزولاً ذكَّرها بزوجها فأعادت النظر إليه والتقت العين بالعين فعرف كل منهما الآخر فركض وركضت مسرعين وتذكر «بواهرني» عند ذلك عدم أهليته لكرم أخلاق «جوزفين» ومحبتها له فحنى رأسه المنصدع على كتفها وبكى بكاء الندامة والتوبة فبعد أن قضيا بضع دقائق على تلك الحالة أتى الجنود وجروا «بواهرني» إلى المحكمة، وكانت هذه المرة الأخيرة التي رأى فيها «جوزفين» ورأته ثم أرجعوه إلى السجن ولم يثبت عليه شيء إلا أنه كان من الأشراف والأكابر وعلى ذلك استحق الموت.

ثم أدخلت «جوزفين» في نوبتها ولم يثبت عليها شيء أيضاً سوى أنها كانت امرأة رجل من الأشراف وصاحبة «ماري أنتوانت»، وكانت ذات امتيازات خاصة بها في القصر الملكي وعلى ذلك استحقت الذبح هي أيضاً فردت إلى السجن، ولكنها لم تعلم بشيء من الحكم الذي صدر عليها ولا على زوجها، وكانت واثقة أنهما سيخرجان قريباً إذ لم يدر في خلدها أنه يحكم عليهما بالموت من غير أن يثبت عليهما ارتكاب جريمة، وكانوا يأتون إلى السجن في كل مساء بجريدة أسماء الذين نصيبهم الذبح في الصباح التالي وحدث بعد محاكمة «جوزفين» وزوجها بأيام قليلة في مساء أربعة وعشرين يوليو سنة ١٧٩٤ [م] أن «بواهرني» رأى اسمه بين أسماء الذين سيساقون إلى الذبح عند الصباح.

فلما علم ذلك وتذكر «جوزفين» وأولاده حزن وعزت عليه الحياة، ولكنه تجلَّد واستعدّ للذبح، ثم أخذ وكتب رسالة طويلة إلى «جوزفين» مفعمة بعواطف المحبة، وأكد لها اعتقاده القلبي بطهارتها وسموّ صفاتها وشكرها مراراً لأجل مسامحتها إياه القلبية عن كل ما صدر منه عندما كان مذنباً حيث رجع وطلب محبتها، وطلب منها أيضاً أن تربي ولديها وتعلمهما محبة أبيهما حتى يبقى ذكره بينهما ومحبته في قلوبهما بعد الممات، وبينما كان يكتب الرسالة أتى الجلادون وقصوا شعره لكيلا يبقى شيء معارض للسيف عن قطع رأسه فالتقط خصلة ضفيرة منه لكي يرسلها إلى «جوزفين» تذكاراً أخيراً فمنعه الجلادون القساة، ولم يسمحوا له بذلك ولكنه اشترى منهم بضع شعرات وأرسلها ضمن الرسالة. وفي الغداة كانت عجلات المذنبين واقفة على باب السجن وكان قد حكم في ذلك اليوم بإعدام عدد كثير من المسجونين، ولما كانت العجلات مارة في أسواق باريس مشحونة بالأبرياء المحكوم عليهم كانت عيون الشعب شاخصة إليهم وقد اشمأزت من هذه المظالم، ولما وصلوا إلى المكان المعين لقتلهم قتلوهم جميعاً بلا شفقة حتى إذا أفضت النوبة إلى «بواهرني» صعد إلى المذبحة وهو رابط الجأش ثابت الجنان، فضربوه بالسيف ضربة كانت القاضية.

Marfat.com

أما جوزفين فلم تكن موقنة بما سيقع على بعلها ولا عارفة بشيء من ذلك، ولما أتت جريدة الأخبار اليومية إلى السجن اجتهد بعض السيدات العالمات بذلك أن يخفينها عنها، أما هي فلم تنفك عن طلب الجريدة حتى استلمتها وأول شيء حوّل نظرها إليه أسماء الذين قتلوا فلما وجدت اسم زوجها بينهم سقطت إلى الأرض كميتة وبقيت مدة فاقدة الحواس، ولما استفاقت صرخت في وسط حزنها: آه. يا إلٰهي، أمتني أمتني لأنه لا سلام إلا في القبر، فاجتمع أصدقاؤها حولها وجعلوا يعزونها ويسألونها الحرص على حياتها إكراماً لولديها، ولكنها لم تجد للسلوى سبيلاً، ولا غمض لها جفن في تلك الليلة، ولما بزغ الفجر أتى عصبة من الثائرين القساة العديمي الشفقة إلى السجن بالأخبار التي كانت تفرّح «جوزفين» لولا محبتها لولديها وتعلقها بهما وكان مآل تلك الأخبار أنهم استاقوها هي أيضاً إلى القتل فجاء الجلادون وقصوا شعرها استعداداً للقضاء المبرم كما كانوا يفعلونه بالمحكوم عليهم وقالوا لها: إنك لا تحتاجين إلى هذا الشعر فيما بعد فاجتمع أصدقاؤها حولها وطفقوا يبكون وينوحون.

أما هي فكانت رابطة الجأش ليس عليها شيء من ملامح الحزن والخوف والرعب، ولما رأت أصدقاؤها وما هم عليه من الحزن والغم التفتت إليهم وقالت لهم: ما بالكم تنوحون وتبكون فأنا لم أقتل كما تظنون بل إنني سأصير ملكة فرنسا لأن ذلك مكتوب لي في صحف الحوادث، فلما سمع أصحابها ذلك ازدادوا بكاء وعويلاً ظانين أنها أصيبت بالجنون ونظرت إليها إحدى السيدات. وقالت: إذاً لماذا لا تهيئين الحواشي والحشم لقصرك؟ فقالت لها «جوزفين»: صدقت فإنك أنت تكونين وصيفتي في القصر، وكان كذلك بعد إذ، ولما أرخى الليل سدوله على ذلك السجن شمل الهدوّ والسكون داخله، ثم بزغت شمس الظهيرة في وسط قتام الليل وعلا هتاف الفرح والسرور بين المسجونين من كل جانب، ووقع كثيرون على الأرض فاقدي الشعور غير مصدّقين بما سمعوه من البشرى وذلك أن «دوبسير» القاسي القلب كان قد أمسك وقتل وقام حكام آخرون وفتحوا أبواب السجون التي كانت مفعمة بالأسرى وأطلقوا سبيل الجميع.

أما سبب إمساك «دوبسير» وقتله، فهو أن رجلاً يقال له «تاليان» من المقتدرين مع ذوي الجاه والسطوة كان يحب مدام «فانشاي» وهي سيدة بارعة الجمال وكانت مسجونة مع «جوزفين» وكان يذهب كل يوم إلى السجن ليراها فحدث ذات يوم أنه اتصل بها سراً وأنه قد قربت محاكمتها، فلما علمت ذلك انتظرت وقت حضور «تاليان» إلى دار السجن ولما حضر اقتربت هي و«جوزفين» من نافذة السجن المشبكة بالحديد ورمت ورقة ملفوفة (كرمب) كتبت

Marfat.com

عليها قد دنت محاكمتي والموت مؤكد فإذا كنت تحبني كما تقول فابذل كل ما تستطيعه لإنقاذي وإنقاذ فرنسا، ثم جعلتا تشيران إليه حتى فهم قصدهما والتقط الورقة الملفوفة من الأرض ولما قرأها ثار ثائره ونبض نابضه وذهب حالاً إلى أصدقائه وجعل يهيجهم ضدّ «دوبسير» وأتباعه، وكان الشعب قد ملَّ من مظالم «دوبسير» فوافقه على ذلك حزب كبير منهم وأثاروا ثورة عظيمة في باريس على «دوبسير» فدارت الدائرة عليه وعلى أتباعه فقبضوا عليهم وقتلوهم وخلصوا البلاد من ظلمهم وعدوانهم ثم فتحوا أبواب السجون، وأخرجوا جميع الذين كانوا فيها وعددهم نحو خمسمائة ألف مسجون فأي قلم أو أي لسان يستطيع أن يعبر عما شمل الفرنساويين من الفرح والابتهاج لما انتشرت الأخبار في البلاد بإعدام ذلك الظالم الغشوم وإنقاذ أحبائهم من يده، وتخلصت «جوزفين» بهذه الواسطة من سجنها مثل كثيرين، ولكنها لم تخرج من ظلام السجن إلا إلى عالم أشد ظلاماً وأكثف غماماً فإن زوجها كان قد قتل، وبيتها قد نهب، وأملاكها اغتالها الناس، وكثيرون من أصدقائها قد هلكوا، فأمست وهي أرملة فقيرة ليس عندها شيء ولا لها من تذهب إليه وتطلب معونته، ولم تستطع أن تتعاطى عملاً من الأعمال يمكنها به القيام بمعاشها ومعاش ولديها السبب توقف الحال بالاضطرابات الكثيرة فلم تر بدّاً هي وولداها من بسط كف السؤال وكان ما تجشمته في هذه المدة من أمرّ ما ذاقت وأصعب ما لاقت في كل أيام حياتها فمن هذه الدرجة ترقت «جوزفين» إلى أسمى درجة لا يمكن أحداً من الناس أن يتصورها ولا في منامه.

قلنا: إن «دوبسير» قتل وقام مكانه حكام آخرون وفتحوا أبواب السجون للأسرى إلا أن دم القتلى لم يزل جارياً كما كان لأن هؤلاء الحكام قصدوا قطع شأفة الأشراف من البلاد، فكانوا يجرّون الناس للقتل ذكوراً وإناثاً، كباراً وصغاراً حتى إنهم كانوا يذهبون إلى المدارس ويجرّون تلامذتها صبياناً وبنات ويقتلونهم. فلما رأت «جوزفين» ذلك ارتعدت فرائصها جزعاً على ابنها وحاولت إخفاءه فأرسلته إلى أحد النجارين وظل يعمل عنده بمهنة عدّة أشهر، وهو فرح بذلك.

أما «جوزفين» فلم تبقَ على هذه الحالة وحاشا لسيدة كبيرة النفس، كريمة الأخلاق، حميدة السجايا مثل «جوزفين» أن تترك بين جماعات البشر ولا يلتفت إليها، بل تفتح صدور المنازل وتعطى كل ما تحتاج إليه فإن كل أحد كان يشعر أن ينال شرفاً عظيماً بمصاحبتها، وكانت امرأة تدعى «دوميلين» وهي سيدة عظيمة ذات ميراث عظيم وقد اتفق خلاصها وخلاص أموالها من جور فرنسا فهذه دعت «جوزفين» إلى بيتها وبذلت لها كل ما تحتاج إليه، وكذلك مدام «فانشاي» وهي السيدة التي خلصت نفسها وعدداً كبيراً معها بكتابتها إلى «تاليان» على

Marfat.com

ورقة الملفوف، وكان بعد خلاصها من السجن أنها اقترنت بـ «تاليان» وهي أيضاً كانت من أعز صديقات «جوزفين»، وكانت تبذل لها ما تحتاج إليه مع كثير من غيرها.

ثم إن جوزفين قامت تطالب بحقوقها مع جميعة اتفاق الأمة وهي استرجاع أملاكها المحجوزة وذلك على يد «تاليان» فنجح مسعاها بعد مدة طويلة وأتعاب جسيمة واسترجعت جانباً من أملاكها التي استولوا عليها، فرجعت بذلك ثانية إلى بيتها الخاص وجمعت إليها ولديها «هورتنس» و«أيوجين» وكانت محاطة بأصدقائها المخلصين، وصفت لها الأيام وسالمتها الليالي رويداً، وحدث ذات يوم أنها دعت ابنها إلى غرفتها وأعطته صورة أبيه المقتول وقالت له: خذ هذه يا ولدي إلى غرفتك واجعلها غاية تأملك، ونموذج حياتك الدائم فإن صاحبها كان أول محبوب بين الناس، ولو بقي حياً لكان أحسن والد، فأخذ «أيوجين» الصورة من أمه وخرج وهو يقبلها والدموع تتساقط من عينيه، ثم عاد في المساء إلى والدته وبصحبته ستة من أصدقائه وقد وضعوا على أعناقهم شرائط بيضاً وسوداً على مثال صورة «بواهرني» فنظر «أيوجين» إلى أمه وقال: انظري يا أماه، إلى مؤسسي نظام جديد في الفراسة وهذا قدّيسنا الحافظ لنا وأشار إلى صورة والده وهؤلاء هم أعضاؤها الأوّلون.

ثم عرّفها بكل منهم وقال: إن اسم هذا النظام نظام المحبة البنوية فإذا كنت تحبين أن تكوني شاهدة على افتتاحها فادخلي المجلس الصغير مع هؤلاء الشبان، فدخلت «جوزفين» معهم وإذا جدران الغرفة مزينة تزييناً جميلاً بأكاليل الورد والغار وكانوا قد أخذوا نسق ذلك من مقالات لـ«بواهرني» كانت قد طبعت قبلاً، وكانت الغرفة مستنيرة أيضاً بالشموع المضيئة. وفي أحد حيطانها مذبح كبير وعليه صورة «بواهرني» التي كانت بقدر جسمه تماماً، وقد زين بالأزهار الجميلة، وعلق بإطار الصورة ثلاثة أكاليل معقودة من الورد الأبيض والأحمر وأمامها حنجوران من الطيوب.

ثم رتبوا أنفسهم حول المذبح بكلّ هدوّ واستلوا سيوفهم من أغمادها عند إبداء شارة معينة ثم تعاهدوا على محبة والديهم ومساعدة بعضهم بعضاً، والمحاماة عن بلادهم. ولما فرغوا من معاهدة بعضهم بعضاً تقدمت «جوزفين» إليهم ودموع الفرح من صنيعهم ممزوجة بالتبسمات الوالدية. ثم أخذت يد كل منهم وأظهرت فرحها بتأسيس هذه الجمعية.

وكانت «جوزفين» مع كل ما أصابها لا تزال على ما كانت عليه من اللطف والبشاشة، والنزاهة والفكاهة وذلك ما جذب كثيرين من الأصدقاء إليها، وكانت هيئات باريس الاجتماعية قد انقلبت من التقلبات السياسية وقد ابتدأ الشعب إذ ذاك في إقالتها من عثرتها، ولكنها انقسمت إلى دائرتين عظيمتين:

Marfat.com

الواحدة: مؤلفة من بقايا الأشراف الذين رجعوا إلى باريس وجمعوا بقايا عيالهم وأموالهم وعاشوا بالاقتصاد. **والثانية**: من التجار والصيارفة الذين حصلوا ثروة عظيمة في وسط زوابع الثورة.

وكانت نيران الحرب قد استعرت وقتئذٍ بين فرنسا وبقية دول أوروبا إذ تحالفت جميع دول أوروبا على محاربة فرنسا واقتسامها فيما بينهم وذلك على تلك الحرب الأهلية التي أثارها الأهالي بسبب سوء سياسة جمعية اتفاق الأمة فحار رئيس الجمعية في أمره، ولكنه قال: أنا أعرف من القادر على المحاماة فهو ذلك الشاب الكورسيكي «نابوليون بونابرت» الذي طرد جيوش الإنكليز من «طولون»[1] واسترجع المدينة.

فدعوا «نابوليون» إلى مواجهة الجمعية وكان بمدينة «فالنس» في بداية الثورة في رتبة قائم مقام. وكان حاد الطبع، قليل الكلام والحركة، كثير التفكر، شديد الميل إلى المطالعة. فلما دعته جمعية اتفاق الأمة أجاب الدعوة ومثل لديها. فسأله الرئيس إذا كان يقبل أن يأخذ على نفسه المحاماة عن البلاد فقال: نعم. ثم سأله أنه كان يعلم عظم هذه الشيعة. فأجاب: إنه يعلم ذلك حق العلم فذاعت أخبار ذلك على الأثر وشعر هو بالتبعة التي ألقيت عليه، وأرسل فاستدعى كل قواد الجمعية من جهات البلاد إلى داخل باريس، وشهر الحرب على العُصاة وأرجعهم إلى الطاعة، فذاع اسم «نابوليون بونابرت» في أطراف باريس وتحدثوا به وبأعماله في كل قصر، وبيت، وحانوت، وفي الأزقة، وعلى الطرقات. ولقبه البعض بمخلص «الكونفانيسيون» أي اتفاق الأمة، والبعض بعفريت الحرب.

وفي مساء يوم من الأيام كانت «جوزفين» في بيت أحد أصدقائها وبينما هي تنظر من نافذة إلى بعض أزهار البنفسج إذ دخل «نابوليون» ولم تكن تعرفه ولكن كانت قد سمعت عنه إذ كانت شهرته قد ملأت الحاضرة، ولما دخل سر الجميع به وأحدقت العيون إليه فسلم على الجميع، ثم تقدم وأخذ مكاناً بالقرب من «جوزفين» وجعلا يتحدثان في أمر المعركة الجندية التي جرت في أسواق باريس، وهذه كانت أوّل مواجهة بينهما ولم يمض على ذلك مدة قصيرة حتى أمر «نابوليون» بجمع كل الأسلحة من الأهالي وأخذ بالجملة سيف «بواهرني» فلما علم «أيوجين» بذلك ذهب من الغد إلى «نابوليون» وكان له من العمر حينئذٍ اثنتا عشرة سنة وطلب منه استرجاع سيف والده فسر «نابوليون» من جراءة الولد وحماسته وسمح له به في الحال، وأرادت «جوزفين» إظهار شكرها «لنابوليون» فذهبت إليه بنفسها وشكرته على ذلك فسر منها

---

(١) طولون (Toulon): مدينة في جنوب فرنسا على المتوسّط، قاعدة محافظة فار. فيها أغرق الأسطول الفرنسي نفسه لئلا يقع في يد الألمان سنة ١٩٤٢ م.

Marfat.com

أضعاف سروره من الولد. ومن ثَمَّ صارا يلتقيان كثيراً ولم يخف عن «جوزفين» ميله إليها وحدّثته نفسه من ذلك الوقت بالاقتران بها وأحبها حباً عظيماً، وكانت هي المرأة الوحيدة التي أحبها في حياته، ولم يحل عن حبها مع كثرة ما طرأ عليه من الحوادث والغير.

أما «جوزفين» فكانت في ريب من أمر اقترانها به وقد قالت ذات مرة لبعض أصدقائها: إنها لم ترَ في زمانها إنساناً محبوباً مثله، وإنها شغفة بشجاعته وسعة اختياره، ولكنها لم تكن تحبه مقدار ما كان يحبها، بل كانت ترهبه وترتعد من نظره إليها، وقد قالت مرة لإحدى صديقاتها: ألا تخاف امرأة جعلها «نابوليون» السرية الخفية التي لا يفهمها حتى مديرونا وكتبت مرة إلى أخرى تقول: قد تقضّى شرخ شبابي وهل يوجد رجاء بعد في المطل لكثرة رغبة «نابوليون» فيّ على غير استحقاق مني لها أوَلا يعيرني بما يكون قد احتمله من أجلي إذا كان يترك محبتي بعد اقترانا، ماذا أصنع؟ وبماذا أجيب؟ اكتبي إليّ حالاً ولا تخافي أن توبخيني إذا وجدت أنني مخطئة وأنت تعرفين أن كل ما يخطه يراعك مقبول إن «باراس» أكد أني إذا اقترنت بـ «نابوليون» يوليه على إيطاليا فماذا تقولين عن هذا النجاح؟ انتهى.

وكانت عواصف الثورة قد خمدت وقتئذٍ ولكن أوروبا كلها كانت لم تزل شاهرة السلاح على فرنسا، وكان الحكم غير ثابت والشرائع غير محترمة فوقف هذا القائد الحديث السن كل أيامه لمصلحة الجمهور، ولكنه كان يخصص كل مساء لـ «جوزفين»، ولم يذق في أيامه شيئاً من أفراح الشبان ومسراتها، لأن رغبته في حب الارتقاء غلبت على كل شيء ولكن لم يكن عنده مع كل ذلك شيء أسعد وأبهج من الساعات التي كان يقضيها وحده مع «جوزفين» إما بالأحاديث المفيدة، وإما بالمطالعة النافعة وكانت محبته لها ورغبته فيها تزداد يوماً فيوماً، ولم تكن صفات النساء في فرنسا وقتئذٍ تعدّ في منزلة عالية، وكان «نابوليون» قلما يحترم هذا الجنس ويقول: «إن كل النساء لا يقسن بجوزفين». وقد كان معتاداً أن يرى في بيت «جوزفين» بعضاً من الأصدقاء المخلصين الذين كانوا يحبونها محبة خالصة، ويرغبون في ترقية «نابوليون» إكراماً لها.

أما «نابوليون» فكان ذا عواطف قوية ولكن حبه للارتقاء والارتفاع كان أقوى. وأما «جوزفين» فكانت قانعة بخلوص محبته لها وشدة غرامه بها وما زالا يظهران الحب والتودد لبعضهما حتى كان التاسع من آذار (مارس) سنة ١٧٩٦ للميلاد فاقترن «نابوليون» بـ «جوزفين».

وفي تلك الأثناء تولى «نابوليون» قيادة العساكر الفرنساوية في إيطاليا فترك عروسه بعد زفافه باثني عشر يوماً، وأسرع إلى الجيش وكان كأنه لم يشعر بتعب ولا بجوع ولا نعاس وهو

Marfat.com

على ظهر جواده نهاراً وليلاً ولم يمضِ على توليته قيادة الجيش خمسة عشر يوماً حتى أحرز الغلبة في ست وقائع وغنم إحدى وعشرين راية وخمسة وخمسين مدفعاً، وعدة أماكن حصينة، وأغنى جهات أرض «بيارمونت»، وأسر خمسة عشر ألف أسير وقتل وجرح عشرة آلاف جندي، وطرد النمساويين من إيطاليا وأرجعهم إلى بلادهم فإن إيطاليا كانت في تلك الأيام مقسومة إلى عدة ممالك وولايات صغيرة مستقلة، أكثرها خاضع للنمسا ولما علمت «جوزفين» بانتصار زوجها أتت إليه لكي تشاركه في أفراحه فأخذ قصر «منتبلو» في «ميلان» مسكناً لهما فقضت «جوزفين» هناك عدة من الشهور في سعادة ورخاء، فكان لها كل معدات الثروة والغنى بعدما كانت أرملة فقيرة أصبحت زوجة قائد ظافر قد طبقت شهرته آفاق أوروبا وبعدما كانت أسيرة محكوماً عليها بالموت وجدت نفسها محاطة بالأشراف والأمراء، وكان لها منزلة عالية في قلب كل ميلاني وقد قال «نابوليون» ذات مرة مشيراً إلى ذلك: «إنني تسلطت على الممالك وأما جوزفين فقد تسلطت على القلوب».

ولما أخضع «نابوليون» كل إيطاليا ضرب عليها الضرائب، ووضع لها النظامات الجمهورية وعقد العهود مع دولها وتقدّم إلى محاربة النمسا في أراضيها فانتصر هناك أيضاً انتصاراً عظيماً، وفتح أكثر مدنها، ثم طلبت دولة النمسا الصلح فعقد «نابوليون» معها صلحاً عاد على فرنسا بالفوائد العميمة ثم قفل راجعاً إلى باريس تاركاً «جوزفين» وأولادها في «ميلان» لكي تحفظ له انقيادهم إليه بأنسها وبشاشتها، وحسن معاملتها. فكانت تدعوهم غالباً إلى بيتها وتفتح أنديتها لهم فعدّها أهل «ميلان» ملكة بينهم وكثيراً ما كانت تتعب من أجلهم، ولكنها لم تكن تعبأ بالتعب إكراماً لزوجها وحباً له، وكان «نابوليون» يكتب إليها يومياً وهي كذلك وقد قال في نهاية حياته: «إنه مديون لها في كل دقيقة سعيدة حصل عليها على وجه هذه البسيطة».

وكانت «جوزفين» في أثناء إقامة «نابوليون» بباريس تسهر على مصالح الجمهور وتجهد أيضاً في المحافظة على مصلحة «نابوليون» وتؤيد سطوته، وكانت معجبة بتقدمه راغبة في ازدياد شوكته ومع أن حاشيتها كانت من الأمراء والأشراف، فإن العامي لم يشعر أنها بعيدة عنه ولا الفقير أنها لا تلتفت إليه، بل شعروا جميعاً بقربها منهم والتفاتها إليهم الفقير كالغني والصعلوك كالأمير، وكانت إذا صادفت صديقاً أقام على صداقتها مدى العمر، والذي مكنها من ذلك قواها العقلية وخلوص محبتها وسهولة الاقتراب منها، ولولا مساعدتها لـ«نابوليون» ما أوصلته بسالته إلى الدرجة التي وصل إليها فإنه لما كانت «جوزفين» رفيقته ومعينته كان ظافراً منصوراً، ولما تركها كسر وخذل.

Marfat.com

وأقامت «جوزفين» سنة ونصفاً في «ميلان»، ثم رجعت إلى فرنسا حيث «نابوليون» كانت حكومة «الديكرنوا» خائفة منه فأرادت أن تبعده عنها، فعرضت عليه أن يتقلد قيادة الأسطول المعين بغزو الأساكل[1] الإنكليزية، فذهب «نابوليون» يتعهد أحوال تلك الأساكل، وقضى عشرة أيام ثم رجع إلى باريس وقال: «إن النجاح غير مؤكد».

ولكنه أبدى لهم رأياً بفتح الديار المصرية والسورية لتكون باباً للهند ثم يتقدم إلى فتح الهند وطرد الإنكليز منها وتجنيد عساكر من الأهالي وجعل ضباطاً من الأوروبيين عليهم، ففرحت الحكومة بهذا الرأي وأجابت طلبه حالاً لا رغبة في فتح البلدان، بل في إبعاد «نابوليون» عن فرنسا متوقعين أن يهلك ويتخلصوا منه لأنهم أمسوا جميعاً خائفين سطوته، فجهزت الحكومة له ثمانية وعشرين بارجة وأربعمائة سفينة لنقل مهمات الحرب وأربعين ألف جندي.

وفي صباح التاسع عشر من أيار (ماي) سنة ١٧٩٨ [م] كان في ميناء «طولون» طالباً الديار الشرقية، وكانت «جوزفين» قد رافقته إلى «طولون» وقد رغبت كل الرغبة في الذهاب معه إلى مصر، ولكنه لم يسمح لها ووعدها إنه إذا نجح يبعث ليأخذها، ولما أقلعوا كانت «جوزفين» واقفة في شرفة البيت وعيناها مغرورقتان بالدموع محدقتان بذلك المنظر البهيج المحزن، ثم حوّلت عينها وتفرست في المركب الكبير الذي كان ينقل زوجها وابنها سائراً بهما وسط المخاطر، وصار المركب يبعد عنها ويصغر أكثر فأكثر حتى اختفى أخيراً بين مياه البحر المتوسط فدخلت غرفتها وشعرت بانفرادها ووحدتها وكان «نابوليون» قبل ذهابه إلى مصر قد عين «بلومبيا» مسكناً لـ«جوزفين» ريثما يرسل في طلبها.

ولما رأت «جوزفين» أنها منفردة أرسلت فطلبت ابنتها من المدرسة لتقيم معها مدة بعدها عن زوجها وابنها، وكانت تأمل أنه حالما يفتح بلاد مصر ينجز وعده لها وينقلها إلى وادي النيل ولم يمضِ زمان طويل حتى كتب إليها بأن تتأهب للسفر فعما قريب تصل إليها البارجة المسماة «پومونا» لتعبر بها البحر المتوسط إلى مصر ولكن اتفق في صباح يوم من الأيام أنها كانت جالسة وإبرتها في يدها، وحولها عدد من السيدات صديقاتها وابنتها «هورتنس» فخرجت إحدى السيدات إلى الشرفة خارجاً فأبصرت كلباً قريباً ماراً في الزقاق ودعتهن ليرينه فتراكضن إلى الشرفة، ولما وصلن إليها هبطت بهن إلى الأرض وألقتهن جميعاً، فاضطر كثير منهن إلى ملازمة الفراش مدة طويلة وفي جملتهن «جوزفين» فإنه مضى

---

(١) الأساكل: مفردها إسْكِلة، وهو الميناء في بحر الروم. وهي لفظة إيطالية الأصل، مقترضة. [المنجد في اللغة والأعلام، مادة: إسكل].

Marfat.com

عليها مدة أشهر ما أمكنها الخروج من البيت ولكن هذه الحادثة من عظمها كانت قد نجتها من أخرى أعظم منها فإن البارجة التي كان قد أرسلها «نابوليون» لتأخذها إلى مصر كانت قد أخذت في البحر وأرسلت إلى لندن.

فلما علم «نابوليون» بما وقع لـ «جوزفين» وإنه لا يمكنها الحضور بعد إلى مصر كتب إليها بأن تشتري مسكناً خارجاً عن باريس وتنتقل إليه وإنه إذا لم يعقه عائق يصل إليها قريباً، فاشترت «جوزفين» قصراً جميلاً يبعد عشرة أميال عن باريس وخمسة أميال عن «فارساليا» اسمه «ملمازون» بمائة ألف ريال وأضافت إليه أراضي واسعة من كل الجهات وكانت مولعة به لكثرة ما يشرف عليه من المناظر الطبيعية ولما حضر «نابوليون» سر به هو أيضاً وكان من أحب المساكن إليهما.

وفي أوّل فصل الخريف أخذت «جوزفين» تتعافى مما أصابها فتركت «بلوم بيار» وأتت إلى «ملمازون» مع ابنتها وعدد من السيدات، وكان بيتها غاصاً بالأشراف والأدباء، وكانت تكتب إلى «نابوليون» بكل ما يجري في القصر حتى الأحاديث التي تدور بينها وبين زوارها فيسر بأخبارها ويطلب منها أن تجتهد في توثيق رباطات المحبة والمودة بينه وبين أصدقائه القدماء، وأن تبذل جهدها في مصادقة آخرين غيرهم، وكان لـ«جوزفين» تأثير عظيم في أعضاء «الديركتوار» وقد خلصت كثيرين من الضيق وردت إلى كثيرين آخرين الأملاك التي أخذت منهم، ولما رأى البعض تأثير «جوزفين» في «نابوليون» أرادوا أن يحولوا بينهما لغايات سياسية فاستعملوا لذلك نفس الأسباب التي كانت هي تستعملها لكي تكتسب له أصدقاء ونسبوا إليها الخفة والطيش، وكان لهؤلاء الأعداء تأثير عظيم في «نابوليون» فجعلوا يوسوسون في صدره ويهيجونه عليها فأثر كلامهم فيه لحدة مزاجه وقام من فوره فكتب إليها رسالة ضمنها قوارص الكلم فلما اطلعت «جوزفين» عليها تأثرت تأثراً عظيماً، وقامت فكتبت إليه كتاباً لطيفاً رقيقاً لم يسبق له نظير في الخلوص والرقة، وكانت محبتها وصفاء قلبها يظهران في خلال كل سطر من سطوره، ولكن حجزت هذه الرسالة بمساعي المحتالين فلم تصل إلى «نابوليون» وكانت المراكب الإنكليزية وقتئذٍ مراقبة لفرنسا وقد منعت كل مراسلة بينها وبين الجيوش في مصر.

وكانت كل يوم تصل إلى «جوزفين» أخبار سيئة عن أحوال الجيوش في مصر، ومرة وصل إليها خبر أن زوجها مات فاشتغل بالها وأمست في قلق وبلبال، وقد كانت تخاف دائماً أن زوجها ربما يترك محبتها بعد رجوعه محمولاً على ذلك بسعي المفسدين والوشاة، ولكنها لم تزل تبذل غاية جهدها في كل ما يؤل إلى خيره ونجاحه ومع أن قلبها كان تعباً وخاطرها مكسوراً.

Marfat.com

كانت تفعل كل ما تقدر عليه لكي تظهر البشاشة للجميع حسب عادتها، وكانت تسلي نفسها بالأزهار والرياحين فتقضي جانباً من وقتها مع ابنتها «هورتنس» في الحديقة ومعولها ومرشتها في يدها، ثم كانت تقضي جانباً كبيراً من وقتها في زيارة بيوت الفلاحين حواليها، وكان كفها دائماً مفتوحاً لسدّ عوز المحتاجين، فتتصدق عليهم وتفرح لأفراحهم، وتحزن لأحزانهم.

ولما توَّجت إمبراطورة على فرنسا ابتهج هؤلاء الفلاحون ابتهاجاً عظيماً ودعوا لها بطول البقاء، وحسبوها من أجدر النساء بهذا المقام وهكذا قضت «جوزفين» عدة أشهر بعضها في الجولان بين هؤلاء الفلاحين وبعضها في القصر بين الأشراف والأمراء في انتظار استماع الأخبار من «نابوليون».

وفي ذلك الوقت ابتدأت سنة ١٧٩٩ ميلادية فلاح أنها من بدأتها سنة شؤم على فرنسا فإن الفرنساويين كانوا قد تعبوا من مظالم الثورة وكانت حركة الأشغال واقفة، والجوع عاماً في البلاد، وكان النمساويون قد دخلوا إيطاليا ثانية، وأوقعوا بالفرنساويين من كل جانب، وكانت الصلات بين الجيوش في مصر وبين فرنسا مقطوعة وأخبار موت «نابوليون» ذائعة في كل البلاد، وأما حكومة «الديركتوار» فكانت مؤلفة وقتئذٍ من خمسة قد نشأوا في غضون الثورة من بين عامة الناس واستلموا زمام الحكم وكانوا قساة ظالمين لا يعرفون شيئاً من العدل والإنصاف، وكان الشعب قد سئم منهم وكره الاستمرار على هذه الحالة وتمنى مدّ يد قوية لإصلاح الأحوال السياسية وإرجاع الحكم والنظام إلى البلاد.

وفي مساء التاسع من تشرين الثاني (أكتوبر) من تلك السنة دعا رئيس «الديركتوار» إلى بيته أكابر باريس ووجهاءها، وكانت «جوزفين» في جملة المدعوّين وبينما هم جالسون على المائدة عند نصف الليل إذ وصلت رسالة برقية إلى الرئيس حاوية أخبار وصول «نابوليون» إلى «فريجي» (وهي مدينة صغيرة على شاطئ البحر المتوسط) فلما سمعت «جوزفين» ذلك أسرعت إلى بيتها وركبت مركبها وسارت مسرعة لملاقاة زوجها، وكانت راغبة في الوصول إليه قبل أن يصل إليه الأعداء ويسمعوه التهم والوشايات الباطلة، فسارت نهاراً وليلاً بلا أكل ولا نوم حتى إذا وصلت إلى «ليون» أخبرت أن «نابوليون» ترك المدينة إلى باريس منذ يومين فساءها ذلك كثيراً، وجعلت تضرب أخماساً لأسداس وتقول: «ما عسى أن يقول الأعداء عني إذا وصل «نابوليون» إلى باريس ولم يجدني في البيت».

وكان من أخص هؤلاء الأعداء إخوة «نابوليون» ونساؤهم وذلك أنهم لما رأوا النجاح الذي وصل إليه «نابوليون» بتأثير «جوزفين» فيه وأن زمام الأمور سيصبح في قبضة يده عما

Marfat.com

قريب ويكون هو الحاكم المطلق حسدوه وحاولوا أن يقفوا في سبيله فلم يجدوا سوى إلقاء البغض والفساد بينه وبين «جوزفين»، ولما وصل إلى باريس في العاشر من تشرين الثاني (أكتوبر) اجتمعوا حواليه وصاروا يشكون إليه أعمال «جوزفين» وينسبون إليها الخفة والطيش والإسراف وعدم الافتكار به وغير ذلك.

فلما سمع «نابوليون» ذلك هاج غضبه وقال بصوت عالٍ: «إنني لأطلقنها». فالتفت إليه أحد الحضور وقال له: الآن تأتيك معتذرة بلسانها الفصيح وكلامها العذب فتصفح عنها وتعودان إلى ما كنتما عليه. فأجاب «نابوليون» وهو يتمشى في الغرفة ذهاباً وإياباً: «لن أصفح عنها وأنت تعرفني ولولا خوف العاقبة لنزعت هذا القلب وألقيته في النار». وبمثل ذلك عزم «نابوليون» أن يلاقي «جوزفين» بعد غيابه عنها زهاء سنة ونصف من الزمان.

ولما كان اليوم الثالث من وصوله عند منتصف الليل وصلت «جوزفين» وكان «أيوجين» ينتظر وصولها بإفراغ صبر، ولما علم بذلك لاقاها إلى الدار السفلى، ثم صعد بها إلى القسم العلوي حيث كان مجتمع أهل البيت وكان «نابوليون» جالساً هناك مع أخيه يوسف فأخذت «جوزفين» ترتجف وهي صاعدة على السلم خوفاً من «نابوليون»، ولما وصلت إلى الباب رآها «نابوليون» قبل أن تدخل الغرفة فالتفت إليها مغضباً وقال لها: «ارجعي حالاً إلى ملمازون».

فلما سمعت «جوزفين» ذلك غابت عن الرشد وأوشكت أن تسقط إلى الأرض فأمسكها ابنها وذهب بها إلى غرفتها وهو في حال الكدر الشديد، ولم يمض ربع ساعة حتى سمع صوت «أيوجين» وأمه وأخته نازلين على السلم قاصدين الذهاب جميعاً إلى «ملمازون» فلما شعر «نابوليون» بنزولهم أسرع من غرفته وصار يكلم «أيوجين» ويلح عليه بالرجوع وهو لم يكن متوقعاً هذه الطاعة الغريبة في «جوزفين» وكان قلبه لم يزل يحبها وطلب رجوعها، ولما وجدها تاركة البيت وذاهبة أراد إرجاعها، ولكن أنفته منعته من أن يدعوها صريحاً ويرجعها، فصار يكلم «أيوجين» ويلح عليه بالرجوع حتى اضطر أن يرجع بأمه وأخته، ولما رجعوا لم يكلم أحد منهم الآخر بل دخلت «جوزفين» غرفتها وطرحت نفسها على مقعد كان فيها ودخل «نابوليون» غرفته أيضاً وبقيا يومين لم ير أحدهما الآخر وأخذت محبة «نابوليون» لـ«جوزفين» ترجع تدريجاً في هذه المدة، ولم يأتِ اليوم الثالث حتى غلب حبه على كبريائه فقام ودخل غرفتها فرآها جالسة بالقرب من مائدة ورسائل «نابوليون» المرسلة إليها مفتوحة أمامها على المائدة، فلما دخل «نابوليون» وقف هنيهة ثم نادى بصوت خفيف: «يا جوزفين». فرفعت «جوزفين» رأسها وقد غسل الدمع وجهها وأجابت بصوت كئيب، ونغمة حنونة جرحت قلبه ولم ينسها كل أيام حياته فمد يده إليها ومدت يدها إليه ثم حنت رأسها عليه وبكت بكاء شديداً

Marfat.com

وقضيا بضعة ساعات في إيضاح الأمور وإزالة الشكوك، ومن ثَمَّ عادت ثقة «نابوليون» الأولى بـ«جوزفين» ولم يعد شيء يغيره عنها.

وكان «نابوليون» و«جوزفين» مقيمين وقتئذٍ في «دي شنتراين»، وكانت أنديتهما دائماً غاصة بالقوّاد والأدباء والأشراف ـ شأن أندية الملوك والعظماء ـ وهم يتباحثون في أحوال البلاد وكيفية إصلاحها ويقولون: إنه لا رجاء لفرنسا إلا إذا مدّ «نابوليون» يده.

ولم يمضِ شهر على رجوعه إلى باريس حتى انقلبت سياسة فرنسا وأبدلت الحكومة المديرية بالقنصلية وكانت الحكومة القنصلية مؤلفة من ثلاثة قناصل وخمسة وعشرين عضواً و«نابوليون» أحد هؤلاء الثلاثة قناصل ورئيسهم أيضاً، ولما أخذ «نابوليون» على نفسه عهد هذه الخدمة التي دعي إليها لم يفه لأحد ألبتة بذلك حتى ذهب أولاً إلى «جوزفين» وأخبرها عن ذلك وسمع من فمها أولاً كلمات التهاني. وحينئذٍ أخبر الآخرين.

وفي الغد اجتمع الثلاثة قناصل وجمهور كبير من وجهاء باريس وأكابرها وأعلن أن «نابوليون» سيكون الحاكم الأول في البلاد فقبل الجميع ذلك ودعوا له بالنصر ولم يسفك نقطة واحدة من الدماء في هذا التغير، وكان السبب الأعظم في ذلك تأثير «جوزفين» القوي في أهالي باريس مدة غياب «نابوليون» في مصر، وقد شعر «نابوليون» نفسه بعظم مساعدة «جوزفين» له في هذا الأمر فشكرها على ذلك.

وفي غد ذلك نقل «نابوليون» و«جوزفين» من «دي شنتراين» إلى «لوكزمبرج» وكان هذا القصر عتبة «التوبلمري». وفي صباح التاسع عشر من شباط (فبراير) سنة ١٨٠٠ [م] انتقل «نابوليون» إلى «التوبلمري» بموكب عظيم كان انتقاله إليه تبوّأه تخت ملك فرنسا. وفي مساء ذلك اليوم نفسه انتقلت «جوزفين» أيضاً في مركب خاص بها، ولما وصلت إلى «التوبلمري» وجدت زوجها بين سفراء الدول وعظماء المملكة وأشرافها فدخلت عليهم، وعرَّفها بهم فتلقاها الجميع بإجلال واحترام يليقان بملكة عظيمة الشأن، وكان لـ«جوزفين» في ذلك الوقت نحو ثلاث وثلاثين سنة من العمر وقد زادتها هذه السنون حسناً وجمالاً عوضاً عن أن تذهب بنضارة صباها فإنها كانت معتدلة القوام، وضَّاحة الحسن، ذات عينين زرقاوين، ومحيا تقرأ عليه آيات اللطف والكمال وكأن ما جرى لها في حياتها من الأتعاب والأحزان قد زاد اختبارها لهذه الدنيا ووسع نطاق معارفها وثقف عقلها، وكانت قد بلغت أوج عزها وإيناع مجدها، وطارت شهرتها في أنحاء البلاد كما طارت شهرة «نابوليون» في ذلك الحين.

وكان رجال الثورة وقتئذٍ قد غيروا تقسيم الوقت إلى أسابيع، وأبطلوا حفظ الآحاد إلا أنهم جعلوا يوماً واحداً من كل عشرة أيام للراحة من عناء الأعمال وكان «نابوليون» يقضي هذا

Marfat.com

اليوم هو و«جوزفين» في «ملمازون»، وقد كان من أسعد أيامهما لأنهما سئما من عيشة البلاط وازدحامه وكثرة تكلفاته ورسمياته، فإذا أتت ساعة رجوعهما إلى «التوبلمري» ذكر «نابوليون» ذلك لـ «جوزفين» فتنهدا وكان النمساويون مدة غياب «نابوليون» في مصر قد رجعوا إلى إيطاليا وطردوا الفرنساويين من كل الأملاك التي كان «نابوليون» قد رفع فيها راية الجمهورية.

فلما حسن «نابوليون» أحوال البلاد الداخلية وجَّه أفكاره إلى الجيوش المهزومة التي كان قد أوصلها النمساويون إلى الألب فأخبر «جوزفين» بأفكاره وقال لها: إن ذهابه ضروري ولكنه لا يغيب طويلاً فودّعها في السابع من أيار (ماي) سنة ١٨٠٠ [م] في «التوبلمري» وفي الثاني من تموز (يوليو) عاد إليها ظافراً منصوراً، فإنه كان في هذه المدة الوجيزة التي لم تزد على الشهرين قد طرد النمساويين وزينوا المدينة ليلة بعد أخرى وإظهاراً لفرحهم وحبهم له كانوا حيثما يجدونه يتجمهرون ويدعون له بالنصر.

وكانت «جوزفين» قد قضت هذه المدة من غياب «نابوليون» في «ملمازون»، وكانت تكاتبه يومياً، وهو كذلك وكان كثيراً ما يكتب إليها وهو على ظهر جواده، وأحياناً وهو في ساحة القتال، وأحياناً كان يملي على كاتبه من وسط المعركة وطبول الحرب تقرع وجثث القتلى تتساقط فكان يكتب الكاتب الجمل الوجيزة التي يلقنه إياها، ويرسلها إلى «جوزفين».

فهذه الالتفاتات من «نابوليون» إلى «جوزفين» في مثل هذه الأوقات الحرجة تمثل أبهج صورة من حسن معاملته إياها وتؤكد سموّ أخلاق «جوزفين» وآدابها وإلاّ لم يكن رجل نظير «نابوليون» يحسب الكتابة إليها يومياً فرضاً واجباً عليه، وخصوصاً في أحرج أوقاته، وقضت «جوزفين» أكثر مدة غياب «نابوليون» في إصلاح الأشياء التي كانت تظن أن «نابوليون» يسر بإصلاحها، ولما رجع من الحرب صارا يقضيان جانباً من الوقت في «ملمازون» أكثر مما كانا يقضيان فيه قبلاً وفتحا الأندية للزوار كما في «التوبلمري»، وكان لهذه الأوقات التي تقضى فيه شهرة عظيمة، وكانت من أبهج أوقاتهما وقد كانا يقضيان جانباً منها في بعض الملاهي والألعاب اللطيفة ويشاركهما في ذلك ولدا «جوزفين» وبعض الأصدقاء الخصوصيين من ملوك وملكات وأمراء وأشراف وغيرهم من القوّاد المشهورين والضباط المميزين. ولكن «جوزفين» لم تغفل في وسط هذه الأفراح واللذات عن مساعدة الذين كانوا يحتاجون إلى مساعدتها بل كانت تساعد كل من كان في طاقتها مساعدته، وخصصت جانباً معيناً من دخلها لمساعدة المهاجرين وكانت أحياناً تتهم بالإسراف، وبعد تبوّ «نابوليون» القنصلية بقليل أمر برجوع المهاجرين إلى أوطانهم وبذل غاية جهده في إرجاع أملاكهم المحجوزة ولا شك أنه وجد صعوبات كثيرة من جهات بعض الأرامل والأيتام الذين كان لهم ما يكفيهم من المال وأصبحوا

Marfat.com

فقراء مساكين ليس لهم شيء فكانوا يأتون إلى «جوزفين» ويقصون عليها قصصهم المحزنة فتسعى إليهم وترثي لأحوالهم، وتمدهم بالمساعدة التي تمكنها، وكانت دائماً تفي بوعدها معهم شأن الكريم.

وكان عمر «هورتنس» وقتئذٍ نحو ثمان عشرة سنة وعمر «لويس» أحد إخوة «نابوليون» أربعاً وعشرين سنة فاتفق «نابوليون» و«جوزفين» على أن يزوجَا «هورتنس» بـ«لويس». وكان «لويس» شاباً عالماً كثير التأمل، قليل الكلام مثل أخيه «نابوليون»، وكان في كل شيء أشبه سائر إخوته به، ولما كان «نابوليون» في إيطاليا يحارب النمساويين تعرف «لويس» بفتاة من سلالة أحد الملوك القدماء فأحبها وتعلق قلبه بها، ولكن لما رجع «نابوليون» وعلم بذلك لم يسر به لأنه خاف أن اقترانهما ربما يضر به فأبعد «لويس» مع العساكر عن باريس ولم يسمح برجوعه حتى تزوجت الفتاة.

فلما رجع «لويس» وعلم أنها تزوجت تكدر كدراً عظيماً ومن ثَمَّ تكدّر صفو أوقاته ولم تعد الحياة تطيب له. أما «نابوليون» فشعر بهذا الجرح البالغ في قلب أخيه وكان دائماً يجتهد في مرضاته، وأراد أن ينسيه تلك الفتاة، فعزم أن يزوجه بـ«هورتنس» ولكن «لويس» لم يقبل ذلك ـ أولاً ـ غير أنه قبل أخيراً، وكذا «هورتنس» لم ترغب من أول الأمر لأنها كانت تحب أحد القواد وكان من [أصدقائها][1] المقربين، وكان يتكل عليه أكثر من سائر القواد، ولكنها اغترت أخيراً بمواعيد رابها وقبلت أن يكون «لويس» بعلاً لها، ولكنهما قضيا بعد اقترانهما حياة تعيسة إذ لم يكن أحدهما يحب الآخر وفي ساعة زفافهما لاحظ كل من الحاضرين أثر الغم على وجه كل من العروسين ولم تخف [بعدئذٍ][2] تعاستهما التي أدّت إلى انفصال أحدهما عن الآخر.

أما «جوزفين» فرافقت «نابوليون» في سنة ١٨٠٢ [م] عند طوافه ببعض جهات المملكة ورافقته أيضاً في ذهابه إلى «ليون» لأجل ملاقاة نواب إيطاليا، وكانت حيثما ذهبت تدهش الجميع بمزاياها الطبيعية وتأثيرها في زوجها وفي كل من عرفها، ومن ثَمَّ رجعت هي و«نابوليون» إلى قصرهما المحبوب في «ملمازون» وقضيا هناك عدة أسابيع في أفراح وسرور لا يوصف، ثم عاد إلى الجولان في أطراف المملكة الشمالية لاستطلاع أحوال تلك القطائع، وكان الشعب يستقبلهما بالفرح والترحاب في كل مكان، ويثنون على «نابوليون» مزيد الثناء

---

(١) وردت في الأصل: «أصدقاء رابها»، لكننا لم نقف على معنى «رابها» بما يخدم سياق النص، فأثبتناه «أصدقائها» ولعلنا أصبنا.

(٢) وردت في الأصل: «بعد إذ»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

Marfat.com

لإخماد نيران الثورة، وإرجاع النظام إلى المملكة، وتوطيد السلام فيها. وكان حيثما توجه يشعر باستعداد الشعب لتسليمه صولجان فرنسا في أقرب وقت، ولما رجع من سفره استلم قصر القديس «كلود» وكانت هذه خطوة أخرى إلى عرش «البوربون» فإن الشعب كان قد ملَّ من سكينة الجمهورية، وأحب العودة إلى البهجة والأبهة الملكية فجدد هذا القصر وجعل «جوزفين» وأربع سيدات معها للقيام بواجباته، وحينئذٍ سمي «نابوليون» قنصل كل حياته.

وكانت «جوزفين» في ذلك الوقت باذلة غاية جهدها لتقنع «نابوليون» بوجود الله وبإرجاع الديانة المسيحية إلى البلاد لأن الكفر كان قد مد أعراقه في فرنسا و«جوزفين» نفسها لم تكن تعرف كثيراً من التعاليم الدينية، ولا كانت من ذوات التقى إلا أنها كانت قد رأت الكفر وتعاسة البلاد الناشئة عن رفض الديانة المسيحية والأتعاب الأهلية المسببة عن عدم اعتبار الزواج اعتباراً دينياً، وكانت تميز فضائل الدين المسيحي واقتداره على ردع الشعب عن عمل الشر وحملهم على عمل الخير، فاقتنع «نابوليون» بكلامها وأعلن إرجاع الديانة المسيحية إلى البلاد، وفي غد صدور الإعلانات أقيمت الاحتفالات الدينية المرة الأولى في كنيسة «نوتردام» وأرجعت الديانة المسيحية إلى المملكة، ولم يمض بعد ذلك مدة طويلة حتى كثرت الإشاعات في شأن تتويج «نابوليون» ملكاً على فرنسا، وكان كثيرون راغبين في ذلك.

أما «جوزفين» فكانت ترتعد كلما سمعت ذلك، لأنها رأت احتياج «نابوليون» إلى ولد يخلفه إذا توج ملكاً وكانت تسمع البعض يلحون عليه بأن يطلقها ويتزوج بغيرها من الأسرة الملكية قائلين: إن مصالح فرنسا تستلزم أن يكون له ابن يخلفه في الملك، وقد كانت متأكدة شدة محبة «نابوليون» لها إلا أنها كانت خائفة من إنفاذ هذا الأمر لأنها كانت قد عرفت أنه ليس لدى «نابوليون» تقدمة لا يمكنه تضحيتها لأجل مجده وتقدمه في هذه الدنيا.

وفي يوم من الأيام دخلت «جوزفين» غرفة زوجها فوجدته جالساً مع رجل آخر من أصحاب السياسة يتحدث معه في الأمور السياسية، فلما دخلت جلست قليلاً، ثم قالت: إنها لا ترغب ألبتة في تتويج «نابوليون» ملكاً بل تفضل بقاءه قنصلاً كما هو. فضحك «نابوليون» وقال: «لماذا هذا الجنون يا جوزفين إلى متى تصدقين كلام هؤلاء العجائز».

وكان كلما قال أحد أمام «جوزفين» إنها ستكون إمبراطورة فرنسا عما قريب تجيب أنها مكتفية أن تكون امرأة القنصل «نابوليون» فقط.

وفي الثاني من (ماي) سنة ١٨٠٤ [م] قرر المجلس القضائي أن «نابوليون» سيكون إمبراطور فرنسا وأرسل التقرير إلى كل جهات فرنسا، فوافق عليه أكثر من ثلاثة ملايين ونصف من الشعب ولم يزد عدد المضادين على ألفين وخمسمائة.

Marfat.com

وفي غد تبوّء «نابوليون» تخت إمبراطورية فرنسا صنع احتفالاً عظيماً في «التوبلمري» لكل العظماء والأشراف، وبرزت بينهم «جوزفين» في ذلك الاحتفال إمبراطورة لفرنسا، ولكن مخاوف بعض المتوحيات نزعت كل أفراح تلك الساعة منها، ولم تكد تتمالك إظهار غمِّها وحزنها، وذلك لأن المجلس قرر أيضاً أن الإمبراطورية ستدوم في أسرة «نابوليون»، وقد حضر ذلك الاحتفال عدد عظيم من أكابر أوروبا وعظمائها فوجدت «جوزفين» نفسها حينئذٍ في درجة لم يصل إليها أعظم ملكات أوروبا، وكانت شهرة زوجها قد عمت كل أوروبا، وقوّته قد فاقت أعظم ممالكها.

وفي الثاني من تشرين الثاني (أكتوبر) من السنة المذكورة حضر البابا من رومية لكي يتوّجهما إمبراطوراً وإمبراطورة على فرنسا في كنيسة «نوتردام» ولم يحصل على هذا الشرف أحد من ملوك أوروبا قبل «نابوليون» منذ عشرة قرون وكان الهواء في ذلك اليوم رائقاً، والكنيسة مزينة بأفخر الزين والعجلات أمامها تلمع بعدد خيولها الذهبية والأرجوانية، والقوّاد والأبطال في ثيابهم الرسمية الموشاة بالذهب.

ولما كان وقت التتويج دخلت «جوزفين» في حلة من الأطلس الأبيض موشاة بالذهب، وموشحة بالخرز الذهبي، ومزينة بالحجارة الكريمة، ومشمل من المخمل القرمزي مبطن بالأطلس الأبيض، وفرو القاقم على أكتافها وكانت حلي التتويج، تاجين، الواحد لأجل التتويج ولتضعه على رأسها في احتفالات المملكة الخصوصية فقط والآخر لأجل باقي الأوقات الرسمية، ومنطقة أيضاً.

أما التاج الأول فكان له ثمانية فروع ذهبية، أربعة منها على شكل النخل، والأربعة الأخرى على شكل ورق الريحان وكانت حجارة الألماس البرلنتية منثورة عليها كنقط الندى وقد أحاطت بها حلق ذهبية مرصعة بحجارة من الزمرد والجمشت والتاج الثاني كان مصنوعاً من أربعة صفوف من اللؤلؤ ومفصلاً بحجارة ألماس ومن الأمام عدة حجارة من ألماس بلغ وزن واحدة منها مائة وتسعة وأربعين قمحة، وكانت المنطقة من الذهب الأبريز وقد رصعت بتسعة وثلاثين حجراً من ألماس الفلمنكي الملون.

أما «نابوليون» فدخل في حلة من المخمل الأبيض موشاة بالذهب ومزرورة بحجارة ألماس وجبة ومشمل من المخمل القرمزي موشيين بالذهب ومرصعين بحجارة ألماس أيضاً، وكانت المركبة الملكية على غاية ما يكون من الإتقان والجمال فإن ألواحها كانت من الزجاج النقي ويجرّها ثمانية رؤوس خيل حمر الألوان. وكانت المسافة بين «التوبلمري» و«نوتردام» نحو ميل ونصف، وكان عشرة آلاف خيال في ثيابهم الرسمية ملازمين العجلات، وبلغ عدد

Marfat.com

الناظرين نصف مليون، إذ كانت النوافذ والسطوح وشرف البيوت المطلة على الطريق التي مر عليها الموكب غاصة بالوقوف، وكانت الموسيقى تصدح بألحانها المطربة، والمدافع تضرب في الهواء وعشرات الألوف من العساكر تهتف معاً، وكانت تلك الساعة مما لم يسبق لها مثيل في تاريخ العالم، وكان العرش في كنيسة «نوتردام» مغطى بأغطية من المخمل القرمزي وعليه مقعد من المخمل أيضاً يرقى إليه باثنتين وعشرين درجة مستديرة، وكانت مغطاة بالجوخ الأزرق ومحلاة بالخرز الذهبي، فجلس «نابوليون» بجانب «جوزفين» على العرش ووقف كبار القواد على الدرج ثم ابتدأ التتويج وطالت مدته أربع ساعات وكانت تتخلله الموسيقى العسكرية ولما أزف الوقت لأن يضع البابا التاج على رأس «نابوليون» أخذه بيده واقترب إلى «نابوليون»، وقبل أن يضعه على رأسه أخذه «نابوليون» من يده ووضعه هو نفسه على رأسه ثم نزعه عن رأسه ووضعه على رأس «جوزفين»، ثم نزعه عن رأسها حالاً لثقله ووضعه على مسند بجانبه وتوَّجها بآخر أصغر منه ثم جثت «جوزفين» والتاج على رأسها ويداها مكتوفتان وصلَّت لله والتفتت إلى زوجها التفاتة عبَّرت عن شكرها ومحبتها له، وبقي «نابوليون» يتذكر هذه الالتفاتة كل أيامه.

ولما تمَّ التتويج وأزف وقت الانصراف ارتجل «نابوليون» خطبة تناسب المقام ذكر فيها أن نسله سيجلس على هذا العرش من بعده فأثر هذا الكلام تأثيراً عظيماً في «جوزفين» ونشب كحربة في قلبها خصوصاً لما تعهده في «نابوليون» والشعب الفرنساوي أيضاً من الرغبة في أن يكون له ولد ولما عادت إلى «التوبلمري» كان الليل قد أرخى سدوله وأسواق المدينة مزينة بالأنوار و«التوبلمري» يتلألأ بها أيضاً، ودخلت «جوزفين» مخدعها وجثت على ركبتيها وطلبت الإرشاد من ملك الملوك والدموع منسجمة على خدّيها.

أما أهالي باريس فخصصوا الشهر الأوّل من تتويج «نابوليون» و«جورفين» بكل أنواع الأفراح والملاهي العمومية وكانت المدينة تزين كل ليلة بالأنوار. وفي صباح أحد الأيام دخلت «جوزفين» إحدى غرفها فوجدت ناصلة ذهبية مع كل أدواتها وكانت من الذهب أيضاً وقد أهداها إليها مجلس بلدية باريس.

وفي مساء تتويجهما أطلق الشعب منطاداً كبيراً في الجوّ كان مصنوعاً على هيئة التاج الملكي، فبقي مدة ظاهراً فوق باريس ثم سار نحو الجنوب.

وفي مساء اليوم التالي وقع في مدينة رومية ـ وهي تبعد مسافة تسعمائة ميل عن باريس ـ ثم حدث على أثر تتويج «نابوليون» أن مديري جمهورية إيطاليا كتبوا إلى «نابوليون» ـ وكان وقتئذٍ رئيسهم ـ يطلبون إليه أن يرافقهم إلى «ميلانو» ويتوّج ملكاً عليهم إذ كان هو المنقذ لهم

Marfat.com

من أيدي أعدائهم النمسويين، وكان من عوائد «نابوليون» السفر بغير أن يعلم أحداً من قبل، ففي مساء يوم من الأيام بعد عماد الابن الثاني لأخيه «لويس» أمر بإعداد الخيل للسفر إلى إيطاليا الساعة السادسة من الصباح فرافقته «جوزفين» في هذا السفر، وكانا حيثما يصلان يستقبلهما الشعب بالترحاب ويزين لهما المدن ويدعو لهما بالنصر، وكانت «جوزفين» حاصلة حينئذٍ على كل ما من شأنه أن يجعلها أسعد البشر لولا أمر واحد وهو عدم وجود ولد لـ«نابوليون»، ولكنها لما وصلت إلى إيطاليا نسيت غمها وقضت هنالك عدة أيام بغبطة وهناء، وكان بينها وبين البابا «بيوس السابع»[1] صداقة قوية وقد رافقهما بنفسه إلى «تورين»، ولما افترق عنها أهدت إليه كأساً من فخار (ساڤراس) ومن «تورين» أخذها «نابليون» إلى ساحة «مارنفو» حيث نشبت أعظم وقائعه وهناك لبس ثيابه الحربية ووقف في وسط ثلاثين ألف جندي ومثل لها واقعة القتال.

وفي الثامن من (ماي) سنة ١٨٠٥ [م] دخلا ميلانو، وكانت المدينة مزينة والفرح والطرب قائمين فيها. وفي السادس والعشرين من الشهر نفسه توج «نابوليون» ملكاً على إيطاليا في كنيسة «ميلان» ولم يكن هذا الاحتفال أقل من الاحتفال في كنيسة «نوتردام» والذي زاد هذه الحفلة عظمة وأبهة أنه أحضر لـ«نابوليون» ـ سوى التاج المعدّ لتتويجه ـ تاج «شارلمان» الحديدي ولم يكن هذا التاج قد علا رأس المُلوك منذ أيام «شارلمان» من ألف سنة، وهنا أيضاً كما في «نوتردام» لم يدع أحداً يضعه على رأسه بل وضعه هو بنفسه ثم توج «جوزفين» هو أيضاً وأقامَا مدة شهر في «ميلانو» وذهَبا منها إلى «جنوى» ثم رجعَا إلى باريس، وكان «نابوليون» قد أعطى «جوزفين» لائحة عن سفرهما وعن جميع الأماكن التي سيقفان فيها والخطب والأجوبة التي سيخطبها ويجيب بها، والهدايا التي كان يجب عليها تقديمها، والمبالغ التي يمكنها أن تنفقها، فكانت «جوزفينُ» تقضي قسماً من كل صباح في درس هذه المثالات وقد أظهر «نابوليون» لـ«جوزفين» في هذا السفر ما لا مزيد عليه من البشاشة والأنس، وكانا دائماً مسرورين.

وذكرت «جوزفين» فيما بعد أن هذا السفر من أسرّ أسفارها مع «نابوليون»، وكانا حيثما يصلان يتلقاهما الشعب بالترحاب، ويقيم لهما الأفراح، ويولم الولائم. وبعد وصولهما إلى باريس بمدة وجيزة سمعَا أن قصد «أيوجين» ابن «جوزفين» الاقتران بابنة ملك «باڤاريا»[2]

---

(١) بيوس السابع: وقع الكونكوردا مع فرنسا، سجنه نابليون. شغل الكرسي البابوي من ١٨٠٠ ـ ١٨٢٣ م.

(٢) باڤاريا: أو بايرن (Bayern)، أكبر مقاطعة في ألمانيا.

Marfat.com

فذهبَا إلى «ميونخ» ليحضرا الزفاف فاجتمعت «جوزفين» بابنها وفرحت له بعروسه خصوصاً لأنها كانت في كل شيء كما تشتهي، ثم رجعَا من هناك إلى باريس مشيعين بجمهور كبير من أمراء «جرمانيا» وأميراتها، وكانت «جوزفين» وقتئذٍ في ذروة من المجد التي لا يمكن هذا العالم أن يمنحها لأحد البشر فإن كل أوروبا كانت عند قدمي زوجها، وابنتها «هورتنس» كانت ملكة «هولاندا» وابنها «أيوجين» كان نائب ملك إيطاليا، وصهر ملك «باڤاريا». وكان نابوليون قد نزع من فكره طلاقها وقرّر أن ابن أخيه «لويس نابوليون الأكبر» [سـ][1] يكون وارث ملكه فزالت كل الارتباكات في ذلك الوقت من هذا القبيل، وكان «نابوليون» دائماً معجباً بـ«جوزفين» حتى كان يقول في غالب الأوقات «إنه لا نظير لها بين نساء العالم».

أما هي فلم تكن تنسى المحتاجين والحزانى مع ما وصلت إليه من السلطنة والسؤدد، بل كانت دائماً مستعدة لمساعدة كل من طلب مساعدتها سواء كان بمالها أو بكلامها حتى كانت تتهم أحياناً بالتبذير والإسراف، وكانت تحب مرافقة «نابوليون» في أسفاره، وهو أيضاً كان يرغب مرافقتها لأنها كانت الشخص الوحيد الذي يوثق به، ومرة وعدها بمرافقته في إحدى سفراته ولكن الأحوال أحوجته إلى الذهاب سراً فأمر بإعداد لوازم السفر.

وفي الساعة الأولى بعد نصف الليل وهو الوقت الذي ظن أن «جوزفين» تكون فيه مستغرقة في النوم قصد الذهاب، ولكنه لم يصل إلى العجلة حتى كانت «جوزفين» بين يديه، فأمر بإعداد لوازمها في الحال وذهبَا معاً إلى إسبانيا، فأخضع «نابوليون» إسبانيا تحت طاعته وملأها من العساكر الفرنسوية وولى أخاه «لويس» عليها، ثم قفل راجعاً إلى فرنسا، ولكن لم يلبث طويلاً حتى أتته الأخبار أن الإسبانيين طردوا أخاه من العاصمة بمساعي الإنكليز وقتلوا كثيرين من الفرنسويين القاطنين هناك. فرجع مسرعاً إلى إسبانيا وفي هذا الوقت أيضاً طلبت «جوزفين» الإتيان معه، ولكنه لم يسمح لها بذلك بل دخل مدريد عاصمة البلاد وأرجع أخاه إلى مقامه وثبت حكمه فيها ورجع ثانياً إلى فرنسا.

وكانت آمال «نابوليون» و«جوزفين» في ذلك الوقت معلقة بالأمير الصغير ابن «لويس» و«هورتنس»، وشاع في كل فرنسا وهولندا أنه سيكون صاحب الملك من بعد عمه.

ولكن في ربيع سنة ١٨٠٧ [م] بينما كان «نابوليون» يحارب «بروسيا» وهو منتصر عليها انتصاراً عظيماً أصاب الولد داء الخناق ومات في ساعات قليلة وكان له من العمر خمس سنوات فحزنت «جوزفين» لفقده حزناً عظيماً ورجعت إلى مخاوفها القديمة لأنها كانت تعرف

---

(١) زيادة أثبتناها لسلامة المعنى واتّساق الكلام.

Marfat.com

«نابوليون» وتعرف رغبته في أن يكون له وارث يترك الملك له وكانت فرائصها ترتعد كلما افتكرت مرارة تلك الكأس التي كان لا بد لها من تجرعها، وقد بقيت مدة ثلاثة أيام منفردة في غرفتها بلا أكل ولا نوم، تسكب الدموع على عظم مصيبتها.

أما «نابوليون» فلما وصلت إليه هذه الأخبار المحزنة كان في أوج انتصاره إذ كان قد قهر جميع أعدائه وأخضع «بروسيا» تحت طاعته وكان جميع ملوك أوروبا مستعدين لإتمام أوامره، فلما سمع هذه الأخبار جلس ساكتاً وارتفق بيده على وجهه، وسمع وهو في حزنه الشديد يقول لنفسه المرة بعد الأخرى: «لمن أترك كل هذا؟» وكان يتنازع أفكاره عاملان قويان محبة «جوزفين» من جانب ومحبة المجد واشتهاء أن يكون له ولد يرث اسمه وشهرته من جانب آخر. وبقي مدة على هذه الحال وهو لا يذوق طعاماً ولا يغمض له جفن، ولكن رغبته في كسب المجد واعتقاده أنه أوصل فرنسا إلى درجة لم تصل إليها مملكة على وجه الأرض فينبغي أن يخلف من يرثها من نسله جعلاه يضحي [بـ][1]كل سعادته وراحته ويفقد سلامة الذوق، ويحل قوى ربط المحبة وكانت «جوزفين» تعرف زوجها جيداً، فكانت بالخوف والرعب تنتظر قدومه وكانت تقضي أكثر أوقاتها بالنوح والبكاء، وكان أحياناً كثيرة يصدر في الجرائد كلام في شأن طلاقها واقتران «نابوليون» بإحدى بنات الأسرة الملكية.

وفي تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٨٠٧ [م] رجع «نابوليون» من «ڤيينا» فسلم على «جوزفين» بمزيد اللطافة.

أما هي فلاحظت في الحال أنه كان قلقاً في فكره، وأنه كان حينئذٍ يشتغل بهذه المسألة وكثيراً كان يجتمع بوزرائه سراً، فلاحظ رجال البلاط ذلك وكانوا قليلي الكلام، وكان «نابوليون» لا يكثر أن يلتفت إلى امرأته لأنه خاف أنه إذا التفت إلى التي أحبها هذا الحب العظيم يتغير فكره، وكانت «جوزفين» قلقة جداً من هذا القبيل، ولكنها اجتهدت في إخفاء عواطفها، وكانت تلاحظ حركات «نابوليون» وسكناته، فترى في كل يوم أمراً جديداً يؤكد لها ما كانت تخافه.

أما هو فكان يتجنبها ويبتعد عنها وقد قفل الباب الذي بين غرفته وغرفتها، وكان قليلاً ما يدخل مخدعها، وإذا أراد ذلك قرع الباب كل ذلك ولم تكن جرت كلمة واحدة بينهما في هذا الشأن، وكانت «جوزفين» عندما تسمع وقع أقدام «نابوليون» ترتجف وتظن أنه آتٍ إليها بالأخبار المخيفة، ولم تعد تقدر أن تصل من مكانها إلى الباب بغير أن تتمسك بالحائط أو

---

(١) زيادة أثبتناها لسلامة المعنى واتّساق الكلام.

Marfat.com

بشيء آخر، ولكنه مضى كلا شهري تشرين الأول والثاني (أكتوبر ونوڤمبر) ولم يكلم «نابوليون» «جوزفين» بشيء من هذا القبيل مع أنه كان في المذاكرة مع وزرائه في أمر الزواج الجديد والأسرة التي يصاهرها فإنه كان يستصعب مفاتحتها بهذا الشأن، غير أن هذه الصعوبة لم تغير مقاصده الثانية ألبتة، وكانت شهرته وسلطته عظيمتين إلى حد أنه لم يوجد أسرة في أوروبا لم تكن تحسب شرفاً لها أن تعطي من بناتها زوجة لـ«نابوليون»، فأشار عليه وزراؤه أولاً أن يأخذ زوجة من أسرة «البربون» لأنهم افتكروا أنه إذا فعل ذلك يرضي حزب الملكية في فرنسا ويكون ملكه أثبت بهذه الواسطة.

ثم أشاروا عليه أن يأخذ سيدة سكسونية، ولكنهم ظنوا بعد طول التأمل أن يكون الأنسب أن يصاهر جلالة ملك «روسيا» ولكن بعد أن جرى كلام بين البلاطين في ذلك قر الرأي أن يأخذ «ماريا لويزا»[1] ابنة إمبراطورة النمسا وكان في ذلك الوقت قد آن لـ«نابوليون» أن يخبر «جوزفين» بما كان قاصداً أن يفعله، وكان في اليوم الأخير من تشرين الثاني (نوڤمبر) سنة ١٨٠٩ [م] دخل الإمبراطور والإمبراطورة لكي يتعشيَا ولم يدخل معهما أحد، وكانت «جوزفين» كل ذلك النهار في غرفتها تسكب الدموع بغزارة كأنها عرفت أن ذلك اليوم كان يومها المحزن، ولكنها لما أتت ساعة العشاء غسلت عينيها ودخلت غرفة المائدة وبذلت غاية جهدها لكي تضبط نفسها عن البكاء، ولذلك لم تتجاسر أن تفتح فمها بكلمة واحدة.

أما «نابوليون» فكان تائهاً في بحر الأفكار ولم يكلمها بكلمة واحدة فكان حول تلك المائدة حينئذٍ سكوت تام ولم يذق أحدهما شيئاً بل كانت أنواع الطعام تتبدل بغير أن تمس، وكان اصفرار الموت على وجه كل منهما، ولما انتهى تقديم العشاء صرف «نابوليون» الخدم، ثم نهض وأغلق الباب بيده على نفسه و«جوزفين» وحينئذٍ أتت تلك الدقيقة التي كان كل منهما هالعاً منها، فاقترب «نابوليون» إلى «جوزفين» وأخذ يدها وقال لها بصوت منقطع:

«يا جوزفين، يا عزيزتي جوزفين أنت تعلمين كيف أحببتك وإني لك وحدك شاكر على الدقائق القليلة التي بك عرفت فيها السعادة على الأرض، والآن أخبرك أن واجباتي أقوى من إرادتي، وأن عواطفي القوية نحوك يجب أن تخضع لمصلحة فرنسا».

فلما سمعت «جوزفين» ذلك خفق قلبها ونضب الدم في عروقها ووقعت على الأرض مغشياً عليها، فلما رأى «نابوليون» ذلك فتح حالاً الباب ونادى من يساعده، فأتى إليه حالاً عدد من الخدم من الغرفة المجاورة وكان هناك أيضاً الكونت «بومون» فأومأ إليه «نابوليون»

---

(١) ماريا لويزا: أو ماري لويز ابنة الإمبراطور فرنسوا الثاني. ولدت سنة ١٧٩١ م، وهي زوجة نابليون بونابرت الثانية، رُزق منها ابنه ملك روما.

Marfat.com

وهو مرتجف، ووجهه ممتقع بأن يأخذها على يده إلى غرفتها وأخذ هو مصباحاً بيده وذهب أمامه، ولكن لما وصل إلى السلم سلم المصباح إلى أحد الخدم وساعد الكونت في حملها وكانت تقول في غشيها: «آه لا يمكنك أن تفعل ذلك لأنك لا تحب قتلي».

ولما وصلا بها ووضعاها على فراشها صرف «نابوليون» الكونت وقرع الجرس في طلب خادمتها الخصوصية وقضى الوقت بجانبها حتى أخذت تستفيق، ولما ظهر له أنها ابتدأت ترجع إلى نفسها تركها ومضى إلا أنه لم ينم طول ذلك الليل، بل كان يتمشى في غرفته ويأتي إلى باب غرفة «جوزفين» ويسأل الطبيب عن أحوالها، أما الطبيب فلم يفارقها كل ذلك الليل.

وفي مدة الأسبوعين الأوّلين بعد ذلك لم ير الواحد منهما إلا قليلاً مما يتعلق بالآخر، واتفق أنه في تلك المدة كان عيد التتويج ونصرة «أوسترليتز» الشهيرة فكانت المدينة في ذلك الوقت مشتعلة بالأنوار وصوت قرع الأجراس ملأ الفضاء وفي هذين الاحتفالين كانت «جوزفين» مضطرة أن تحضر أمام الشعب وكانت مؤكدة أن كل الملوك والأمراء الذين كانوا حينئذٍ في باريس عالمون بالإهانة المقبلة عليها، وكانت كل أصوات الطرب والابتهاج في مسامعها قرع أجراس حزن مؤذنة بمصيبتها، ومع ذلك فإنها بذلت جهدها في تسليتها لكي تظهر أمام الناس كعادتها غير أن اصفرار وجهها واغريراق عينيها بالدموع كانا ينبئان عما تحاول إخفاءه، وكانت ابنتها «هورتنس» دائماً معها باذلة غاية جهدها في تسليتها وابنها «أيوجين» ترك إيطاليا وأتى باريس إليها، وبعد مواجهتها ذهب إلى «نابوليون» وطلب الاستعفاء من خدمته قائلاً له: إن ابن التي ليست بعد إمبراطورة لا يقدر أن يكون نائب الملك وأنا قصدي أن أتبع أمي في انحطاطها لأنه يجب أن تجد الآن تعزية في أولادها.

أما «نابوليون» فلم يكن خلواً من العواطف بل تساقطت العبرات من عينيه وصار يكلم «أيوجين» بصوت مرتعش ويبين لزوم ذلك ويوضح له الأمور فتأثر «أيوجين» من كلامه، وأما أمه فطلبت منه أن يبقى في خدمة «نابوليون» ويبقى من أصدقائه المخلصين كما كان أولاً.

وفي الخامس عشر من كانون الأول سنة ١٨٠٩ [م] جمع «نابوليون» جميع الملوك والأمراء من أسرة الإمبراطورية وأكثر القواد المشهورين في منتدى «التوبلمري» العظيم حتى يقص عليهم خبر انفصاله من «جوزفين» وكان كل واحد من الحاضرين منذهلاً من غرابة هذا الاجتماع فنهض «نابوليون» في أثناء ذلك وخاطبهم قائلاً:

«إن مصالحي السياسية ورغبة شعبي الذي كان دائماً يدرّب أعمالي تستدعي أن يكون لي وارث يرث محبتي للشعب والعرش الذي وضعتني العناية عليه. وقد مضى عليّ عدة سنوات مع الإمبراطورة «جوزفين» حتى قطعت الأمل من أن يكون لي أولاد منها، وهذا هو الداعي

Marfat.com

الذي حملني على [الـ][(١)]ـتضحية [بـ][(٢)]ـأشدّ عواطف قلبي ومراعاة مصالح رعيتي وطلب انفصالنا. وقد بلغت الآن الأربعين من العمر وآمل أن أعيش طويلاً بعد وأن أحتضن في أفكاري الأولاد الذين تسر العناية بأن تباركني بهم، والله وحده يعلم كم كلفت قلبي هذا المقصد ولكن ليس من أمر مهما كان عزيزاً علي إلا وأنا أضحيه طائعاً مختاراً لمصلحة فرنسا، وليس لي سبب أشكو منه ولا شيء أقوله سوى مدح محبة امرأتي المحبوبة وحنوّها، فإنها زينت خمس عشرة سنة من حياتي فيبقى ذكرها منقوشاً على صفحات قلبي إلى الأبد وأنا بيدي توجتها إمبراطورة ستبقى إمبراطورة في القلب والرتبة وأحب فوق كل ذلك أن لا تشك مطلقاً بعواطفي من نحوها ولا تعتبرني إلا أعز صديق لها».

فأجابت «جوزفين» بصوت منقطع وعينين مغرورقتين بالدموع: «إني أجيب على مآل كلام الإمبراطور من جهة انفصالنا بالقبول لأن اجتماعنا كان حائلاً دون [مسيرة][(٣)] فرنسا بسبب عدم وجود من يسوس يوماً ما هذا الشعب من نسل هذا الإنسان العظيم الذي أقامته العناية لكي يطفئ شرر الثورة المخيفة، ويرجع المذبح والعرش والهيئة الاجتماعية، ولكن هذا الانفصال لا يغيِّر عواطف قلبي بل سيجد الإمبراطور فيّ أحسن صديقة له، وأنا أعلم ماذا كلف هذا العمل السياسي قلب الإمبراطور، ولكن نحن الاثنان نفتخر بهذه [التضحية][(٤)] التي ضحيناها لأجل خير المملكة، وأشعر أنين التعظيم والمجد بإيرادي بإعطائي أعظم برهان على محبتي».

هذا ما أظهرته «جوزفين» جهاراً، وأما في الخفاء فإنها استسلمت للحزن والكآبة وقضت ستة أشهر بالبكاء والنحيب حتى قاربت العمى من شدّة الحزن.

وفي اليوم المعين لإنهاء نظام الانفصال اجتمع المحفل ثانية في نادي الإمبراطور العظيم ليشهدوا تمام نظام الانفصال، فدخل الإمبراطور بحلته الرسمية واصفرار الموت على وجهه، وعلامات اليأس والقنوط تلوح عليه واستند إلى أحد الأعمدة مكتوف اليدين لا يفوه بكلمة وبقي برهة غائصاً في بحور الافتكار كالصنم لا يبدي حراكاً، وكان في وسط النادي مائدة جميلة وعليها كل أدوات الكتابة من الذهب الإبريز، أمامها كرسي أعد لـ«جوزفين» وكان جميع الحاضرين صامتين لا يفوهون بكلمة وكلهم شاخص إلى المائدة وما عليها كأنهم

---

(١) زيادة أثبتناها لسلامة المعنى واتّساق الكلام.
(٢) زيادة أثبتناها لسلامة المعنى واتّساق الكلام.
(٣) وردت في الأصل: «سفيرة»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.
(٤) وردت في الأصل: «الضحية»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

Marfat.com

ينظرون إلى مذبحة أو مشنقة معلقة، ففي وسط هذا فتح باب من جانب المنتدى، ودخلت منه «جوزفين» مستندة إلى يد ابنتها «هورتنس» واصفرار الموت يلوح على وجه كل منهما ولما دخلا غلب البكاء على «هورتنس» ولم تنفك عن ذلك كل مدة الاجتماع.

ولما دخلت «جوزفين» نهض الجميع إجلالاً لها وتساقطت العبرات من عيونهم لشدة تأثرهم من منظرها. أما هي فتقدّمت بحركاتها اللطيفة إلى المكان المعدّ لها، وارتفقت بيدها على وجهها وأصغت إلى قراءة نظام الانفصال والدموع تسكب من عينيها، وكان ابنها «أيوجين» جالساً على مقربة منها وبعد نهاية قراءة النظام حسمت «جوزفين» دموعها وانتصبت واقفة وأخذت على نفسها عهد الانفصال بصوتها الرائق العذب الاعتيادي، ثم جلست وأخذت قلماً ووقّعت اسمها بفك أمتن رُبَط المحبة والوداد التي لا يمكن للعقل البشري أن يتصوّرها، أو للقلب الإنساني أن يشعر بها، ثم استندت ثانية إلى يد ابنتها وخرجت من المكان أما «أيوجين» فوقع على الأرض مغمًى عليه.

أما شدة ذلك اليوم وآلامه فلم تكن قد انتهت، بل كان على «جوزفين» وهي في وسط توهانها في بحور الأحزان ما كان آلم وأشدّ عذاباً من الأول وهو وداع من كان زوجها الوداع الأخير، فانتظرت في غرفتها وهي حزينة القلب مكسورة الخاطر لا تفوه بكلمة، فلما حان الوقت أتى «نابوليون» إلى غرفته قلقاً كئيباً بسبب ما جرى ورمى بنفسه على فراشه.

وفي الساعة نفسها فتح الباب الذي بين غرفته وغرفة «جوزفين» ودخلت هي منه وهي ترتجف وعيناها وارمتان من البكاء وشعرها مسدول على أكتافها وعلامات الحزن والغم الشديدين تلوح على وجهها فتقدمت إلى وسط الغرفة ودنت من سرير «نابوليون»، ثم وقفت بغتة وغطت وجهها بيديها وصارت تبكي بكاء شديداً، وكان ذلك لأنها افتكرت حينئذٍ أنه لا حق لها بعد في الدخول إلى غرفة «نابوليون» ولكن محبتها الشديدة له حالاً تهيجت وأنستها كل ذلك، فتقدّمت إليه وطرحت نفسها بجانبه وغمرته بيدها وصارت تدعوه باكية منتحبة، فتهيجت عواطف «نابوليون» وجعل يؤكد لها محبته الصحيحة الصادقة وهو يبكي وينتحب ويثبت لها أنه سيبقى كذلك إلى يوم موته واجتهد لكي يسليها ويعزي قلبها وبقيا على ذلك برهة من الوقت، ثم قامت «جوزفين» وودعت زوجها الذي أحبته كل هذه السنين الوداع الأخير وافترقت عنه إلى الأبد.

وفي اليوم الثاني ودّعت «جوزفين» البلاط وأهله وفي الساعة الحادية عشرة اجتمع كل حاشية «التوبلمري» على أعلى السلالم وفي الشبابيك والمماشي ليروا افتراق سيدتهم المحبوبة التي كانت زينة ذلك القصر وبهجته، فنزلت على السلالم مغطاة بمنديل من قمة رأسها إلى

Marfat.com

قدمها والدموع ملء عينيها فصارت تلوّح بمنديلها علامة الوداع للأصدقاء الباكين حولها إلى أن وصلت إلى الباب، وهناك وجدت عجلة مطبقة باستنظارها يجرّها ستة من الخيول الجياد فدخلتها وسارت بها وتركت وراءها «التوبلمري» إلى الأبد.

أما محل إقامتها الجديد فكان قصر «ملمازون» الذي كانت تفضله على سائر قصور الإمبراطور، وكانت قد قضت فيه هي و«نابوليون» أسعد أوقاتها فإن «نابوليون» كان يعرف محبتها لهذا القصر وقد أعطاها إياه لكي تقضي فيه باقي حياتها، وكان قد أجرى عليها راتباً سنوياً قدره ستة آلاف ريال وأبقى لها اسمها ومقامها هناك، ومكثت «جوزفين» عائشة كما يعيش الملوك وكانت محبوبة عند كل شعب فرنسا ومعتبرة ومكرمة عند كل أهالي أوروبا وكان «نابوليون» يزورها غالباً ويستشيرها في أعماله، وقد أدرك الناس أن الذي يريد أن يرضي الإمبراطور ويكون من المقربين إليه هو الذي يلتفت إلى «جوزفين» ويحسن معاملتها وإكرامها ومن ثَمَّ أصبح قصر «ملمازون» محل اجتماع كل أعضاء بلاط «نابوليون» يأتون إليه دائماً بحللهم الرسمية الملوكية، وكانت تدعو منهم كل يوم عشرة أو اثني عشر نفساً ليفطروا معها صباحاً.

وفي الساعة الحادية عشرة قبل الظهر كانت تمر أمام الجميع إلى غرفة المائدة يتبعها المدعوّن حسب رتبهم ومقامهم، وكانت تفرز اثنتين منهم للجلوس عن يمينها وعن يسارها، ويقف وقت الطعام خمسة من الخدم وراءها وخادم واحد وراء كل من المدعوّين، وسبعة أفواج من رتب مختلفة كانوا يخدمون على المائدة. أما مدّة الفطور فلم تكن تزيد عن ثلاثة أرباع الساعة إلا فيما ندر وكانت تذهب بعد الفطور مع سيداتها وضيوفها إلى قاعة التحف.

أما أوقات «جوزفين» فكانت تقضى في أعمال الرحمة مع المساكين حواليها والمطالعة واستقبال أعضاء بلاط «نابوليون» فإن منتداها كان دائماً غاصاً بهم، وكان «نابوليون» دائماً يزورها ويقضي عندها ساعات كثيرة يتمشى بها معها في الجنينة أو في محل آخر آخذاً بيدها، وكان يفعل كل ما في وسعه كي يعوّض لها عن معاملته السالفة، وعن الحزن والغم اللذين سببهما لها، وكان قلبه باقياً متعلقاً بها ويحبها محبة شديدة، ومحبته واعتباره لها يزدادان يوماً فيوماً، وكانت «جوزفين» تقضي أوقاتها يومياً على وتيرة واحدة فتنزل في كل يوم الساعة العاشرة صباحاً إلى قاعة الاستقبال وتستقبل زوّارها الذين كانوا من أعيان باريس، وكانوا يشتغلون ببعض الأمور المسلية مثل الصور الجميلة والنقوش البديعة والتحف الغريبة والذي كان لا يرغب في ذلك، يذهب مع «جوزفين» لاستماع تلاوة بعض الكتب المفيدة من الموكل على بيتها وكانوا يقضون الوقت في ذلك إلى الساعة الثانية بعد الظهر فتأتي إذ ذاك ثلاث

Marfat.com

عجلات يجر كلاً منها أربعة من جياد الخيل فتركب «جوزفين» واحدة منها وتذهب مع اثنين من خادماتها الخصوصيات وبعض الأصدقاء وتقضي مقدار ساعتين من الزمان: أحياناً في التنزه، وأحياناً في الجولان بين سكان القرية والتحدث معهم، ثم ترجع في الساعة الرابعة إلى القصر ويذهب كل في طريقه ويفعل ما يشاء إلى الساعة السادسة بعد الظهر ساعة العشاء، وكان يتعشى على المائدة ما بين اثني عشر وخمسة عشر ضيفاً، ثم يقضون الوقت بعد العشاء بالمؤانسة والألعاب المختلفة إلى الساعة الحادية عشرة وحينئذٍ كانت تقدّم الحلواء والشاي، وبعد ذلك الانصراف.

وفي شهر آذار (مارس) سنة ١٨١٠ [م] وصلت «ماريا لويزا» إلى باريس وجرى احتفال إكليلها على «نابوليون» في «سنت كلود»، وكان حافلاً جداً، وبعد الإكليل دوت باريس بأصوات الطرب فأخذ «نابوليون» عروسه إلى «التوبلمري» من حيث خرجت «جوزفين» منذ ثلاثة أشهر وكانت أصوات المدافع وقرع الأجراس وابتهالات الشعب ثقيلة جدّاً على قلب «جوزفين» واجتهدت في إخفاء حزنها وغمها، ولكن عبثاً كانت تفعل ذلك فإن اصفرار وجهها واغريراق عينيها لم يخفيا أمرها.

أما «نابوليون» فبقي يكاتبها ولم تمنع غيرة «ماريا لويزا» زيارته لها وبعد اقترانهما بأكثر من سنة ولد ملك لرومية. وفي نفس المساء الذي وصل به هذا الخبر إلى «جوزفين» كتبت رسالة لطيفة إلى «نابوليون» تهنئه بالمولود وهذه خلاصتها:

«سيدي، هل يمكن صوت امرأة ضعيفة أن يصل أذنيك في وسط التهاني الكثيرة الآتية إليك من كل جهات أوروبا ومدن فرنسا وأفراد جيشك، وهل تتنازل للإصغاء إلى التي طالما سلت أحزانك وخففت أوجاعك فتتكلم معك عن الفرح العظيم الذي به تحققت كل أمانيك أو تتجاسر التي ليست بعدُ امرأتك أن تهنئك بأنك صرتَ والداً. نعم سيدي، لا شك أن من القلب إلى القلب دليلاً وأنا أعرف قلبك ولا أظلمك كما أنك أنت أيضاً تعرف قلبي وأنني أقدر أن أحس معك كما أنك أنت الآن تحس معي ونحن الآن مشتركان بتلك المعاطفة التي تفوق كل شيء وإن كنا مفترقين.

كنت أشتهي أن أسمع منك أنت ميلاد ملك رومية، وليس من أصوات المدافع أو والي المقاطعة غير أني أعلم أن واجباتك الأولى هي للمملكة ولسفراء الدول الأجانب ولعائلتك، وعلى الخصوص للأميرة السعيدة التي بلغتك أعظم أمانيك. نعم، إنها لا تقدر أن تكون محبة لك أكثر مني ولكنها تمكنت من إتمام سعادتك أكثر مني إذ ولدت هذا الولد لفرنسا، ولذلك كان لها الحق الأول لعواطفك الأولى ولكل اعتنائك. وأما أنا فلم أكن إلا رفيقة لك في أيام

Marfat.com

الصعوبات، ولذلك فلا أطلب من فؤادك إلا مكاناً بعيداً جداً عن المكان الذي تحله الإمبراطورة «لويزا» وغاية ما أؤمله الآن أن تأخذ قلمك وتتحادث قليلاً مع أعز صديقة لك، ولكن ليس قبلما ينتهي سهرك بجانب سرير امرأتك، ولا قبلما تتعب من معانقة ولدك وها أناذا بالانتظار.

أما أنا فيتعذر عليّ الإبطاء في إخبارك بأني أفرح لفرحك أكثر من كل إنسان في العالم وأنت لا تشك في خلوص محبتي وصدق كلامي وأنا آسفة على شيء واحد وهو أني لم أفعل حتى الآن ما به الكفاية لأبين لك مقدار حبي لك، وأني لم أسمع شيئاً عن صحة الإمبراطورة سأتجاسر أن أتكل عليك يا سيدي بقدر أملي بك أن أسمع منك عن هذه الحادثة العظيمة التي حصلت دوام الاسم الشريف الذي أنت تمثله وأن «أيوجين» و«هورتنس» سيكتبان لي مفصلاً عن ذلك، ولكني منك أشتهي أن أسمع إذا كان ابنك حسناً أو إذا كان يشبهك أو إذا كان يؤذن لي في رؤيته يوماً ما، وبالاختصار إني انتظر منك ثقة غير محدودة وعلى ذلك سيدي لي حقوق بالنظر إلى محبتي غير المحدودة التي لا تتغير ما دمت حية».

فلما انتهت جوزفين من كتابة هذه الرسالة أرسلتها إلى «نابوليون» ولكنها لم تفتح الباب لترسل رسالتها حتى وقف أمامها رسول «نابوليون» وبيده رسالة منه يبشرها فيها بالمولود فأخذتها «جوزفين» منه وذهبت بها إلى غرفة منامها وبعد نصف ساعة رجعت إلى أصحابها وقد احمرت عيناها من البكاء ورسالة «نابوليون» في يدها ملطخة بالدموع، فدفعت إلى رسول الإمبراطور رسالة أخرى كانت قد كتبتها جواباً للإمبراطور على رسالته وأعطته دبوساً من ألماس وألف ريال من الذهب علامة على اعتبارها قيمة البشرى التي حملها إليها، وبعد أن صرفت الرسول أخذت رسالة الإمبراطور وتلتها على أصحابها الحاضرين.

ولم ينقطع الإمبراطور بعد ذلك عن زيارة «جوزفين» بل كان يذهب إليها كالأول، ودبر طريقة تمكن بها من تقديم الولد على يديه لها حتى تراه، وكان ذلك في المضرب الملوكي قرب باريس وقد ذكرت «جوزفين» بعد ذلك في إحدى رسائلها إلى «نابوليون» أن تلك الدقيقة التي رأته فيها حاملاً ولده على يديه كانت أسعد ما لاقته في حياتها لأنها كانت أوضح علامة أظهر فيها محبته الأكيدة لها.

أما الغرفة التي كانت منام «نابوليون» في «ملمازون» قبل انفصاله عن «جوزفين» فبقيت كما كانت، وكان مفتاحها مع «جوزفين» وكانت هي تذهب إليها يومياً وتنزع الغبار عن أدواتها وأثاثها ولم تسمح ألبتة بتغيير شيء أو نقل شيء من مكانه، وكانت في أوّل مدة إتيانها إلى «ملمازون» حزينة كئيبة، وعلامات الكدر والغم تلوح على وجهها على الدوام فأعطاها

Marfat.com

«نابوليون» قصر «ناڤار» كان حواليه منتزهات فسيحة تجري فيها الأنهار الصافية وتغرّد في أشجارها الطيور الجميلة.

وكان هذا القصر أحد القصور الملكية وهو قائم في وسط غابة «إڤرى» الشهيرة وكان قد تعطل قليلاً في مدة الثورة فأعطى «نابوليون» «جوزفين» ٣٠٠ ألف ريال لترميمه وإصلاحه فرمّمته وأصلحته وحسَّنت فيه أشياء كثيرة حسب ذوقها حتى جعلته كجنة عدن، وصارت تفضله على «ملمازون» وبعد أن نقلت إليه بأيام قليلة كتبت إلى «نابوليون» الرسالة الآتية:

«سيدي، تشرفت هذا الصباح برسالتك العزيزة التي كتبتها إليّ مساء اليوم الذي تركت فيه «سنت كلود» وقد بادرت إلى إجابتك عما فيها من المواضيع اللطيفة الحبّية. والحق أن هذه المواضيع تدهشني، ولكن ما أدهشني غير سرعتها، فإنه ليس لي هنا سوى خمسة عشر يوماً فتأكدت فيها أن محبتك لي تطلب تسليتي وتعزيتي حتى في الوقت الذي نحن فيه منفصلان الانفصال الذي كان لا بد منه لراحتنا كلينا ويقيني أن حسن اعتنائك بي والتفاتك إليّ يتبعاني حيث كنت ويعزياني.

والآن لم يعد لي شيء أشتهيه بعد اختيار محبة كانت مشتركة وآلام محبة ليست بعد مشتركة، وبعد التمتع بكل السرور الممكن للقوة غير المتناهية أن تمنحه، وبعد أن نلت كل السعادة بنظري إلى الإنسان الذي أحبه فوق جميع الناس. نعم، إنني لا أشتهي شيئاً سوى السكون والراحة وهكذا فإني الآن لا أرى أن لي شيئاً من دواعي الحياة سوى عواطفي الحبّية نحوك ومحبتي لأولادي والأمل أنه ربما يمكنني أن أفعل بعد شيئاً من الخير يؤل إلى راحتك وسعادتك، لذلك لا تأسف معي لأني هنا بعيدة عن البلاط الذي يظهر أنك تظن أني أتحسَّر عليه فإني هنا في «ناڤار» محاطة بأحباء أعزاء وحرية لا تباع أميالي في الفنون وإني أجد نفسي أحسن مما لو كنت في أي مكان آخر.

وعندي هناك كثير للعمل لأني أرى حوالي علامات الخرائب التي أحدثتها الثورة الهائلة وسأبذل جهدي لأزيل آثارها من هذا البناء، كما أن سعادتك علمت الناس أن ينسوها، وإصلاح هذه الخرائب ومساعدة المساكين حولي يسرَاني أكثر من تملق سكان البلاط وما يظهرونه من التصنع والتكلف.

إني أخبرتك سابقاً عن كل أعضاء هذا البيت ولكني لم أخبرك ما به الكفاية عن سيادة المطران «بورليايرفاني» كل يوم أتعلم منه أموراً جديدة تجعل اعتبار الإنسان الذي يقرن عمل الخير بالسيرة الممدوحة يعظم في عيني، وسأتكل عليه في توزيع صدقاتي في «إڤرى»، ولما كان هو سيوزعها على الفقراء كنت على ثقة أنها ستوزع على الجميع بالسواء.

Marfat.com

سيدي، إني لا أقدر أن أقوم بالشكر الواجب لك لأجل الحرية التي متعتني بها في انتخاب أعضاء بيتي الذين يزيدون جميعاً في بهجة عيشي البيتية، وليس ما يحسرني ألبتة سوى شيء واحد وهو رسمية اللباس هنا في البرية إلى أن تقول، وإني الآن ألقب بشريفة ليس لأني توّجت إمبراطورة لفرنسا بل لأني كنت مختارتك وليس لي قيمة من دون ذلك وحسبي هذا الفخر لتخليد اسمي أما زواري في هذه المدة المتأخرة فأكثر مما كانوا قبلاً ويسرني منهم إعجابهم وافتخارهم بـ«نابوليون» وبالجملة فإني أجد نفسي كأني في بيتي وأنا في وسط هذا الغاب، لا تنسى صاحبتك، واذكر لها أحياناً أنك حافظ لها جزءاً من محبتك لتنتعش روحها به وكرر لها الكلام عن سعادتك، وتأكد أن مستقبلها سيكون مستقبل سلام كما أن الماضي كان مشؤوماً بالأحزان والأكدار.

وقبل ذهاب «نابوليون» إلى ساحات «روسيا» المهلكة ذهب إلى «جوزفين» وقضى معها ساعتين من الزمان في الجنينة يحادثها بما كان أمامه، وكانت «جوزفين» تحذره من مباشرة هذا العمل الخطير، ولكن ثقته بالنجاح أقنعتها وجعلتها تسلم معه.

وفي الختام قبَّل يدها ونهض للذهاب فرافقته إلى العجلة ولكن لم يمضِ طويل من الزمن حتى رجع «نابوليون» من «موسكو» فوجد أن كل أوروبا متجندة عليه ومتقدمة نحو عاصمته فذهب في وسط هذه المخاطر إلى «جوزفين» وطلب مواجهتها وكانت هذه المواجهة الأخيرة. وفي نهاية هذه الزيارة الأخيرة القصيرة شخص إليها برهة ساكتاً وعلامات الحزن على وجهه ثم قال:

«يا جوزفين إني كنت سعيداً كأسعد الناس عاش على وجه الأرض، ولكني في هذه الساعة عندما أرى عواصف تتجمع فوق رأسي ليس لي في كل هذا العالم الواسع أحد إلا أنت التي ألتفت إليها وأستريح».

وفي أعظم هذه الاضطرابات والانزعاجات الهائلة التي لم يسطر أعظم منها في تاريخ البشر كانت أفكار «نابوليون» دائماً عند «جوزفين» رفيقة صباه، وكان يكتب إليها كل يوم تقريراً ويعلمها بالحوادث الجارية ويخبرها عن أحواله والرسائل التي كتبها إليها من مبادئ تلك الحروب، ومن ساحات القتال كانت ألطف وأرق ما كتب لها في حياته فإن المصائب والنكبات كانت قد دمثت أخلاقه حتى إنه في تلك الأيام المضطربة عندما كان يحارب الجيوش الجرارة وكان عرشه آخذاً في التقلقل تحت قدميه كانت رسالة من «جوزفين» تنعش روحه مهما كانت شواغله عظيمة.

أما الجيوش المتحالفة فكانت آخذة في الاقتراب من باريس وكانت «جوزفين» مهمومة

Marfat.com

مغمومة بسبب ما حلَّ بـ «نابليون» وكانت هي وكل سيداتها في «ملمازون» يقضين أكثر أوقاتهن في إعداد خيوط الكتان للجرحى الذين ملأوا المستشفيات، وأخيراً لما اقتربت جيوش الدول المتحالفة من «ملمازون» وصار بقاء «جوزفين» هناك من الأمور الخطيرة ركبت عجلتها وسارت إلى «ناڤار» وذعرت من أصوات العساكر ثلاث مرات في طريقها إذ كانت على مسافة غير بعيدة منها، وبعد أن قطعت نحو ثلاثين ميلاً من طريقها انكسرت عجلتها وفي نفس ذلك الوقت رأت أمامها عصبة من الخيَّالة أتت نحوها فظنتها من عساكر الأعداء، ومن شدة خوفها تركت عجلتها وصارت تركض مع سيداتها في الحقول وكان المطر يهطل حينئذٍ وبعد أن سرن مسافة أدركن غلطهن ووجدن أن هؤلاء الفرسان فرنسويون، وبعد أن أصلحت العجلة ركبت ثانية وهكذا حتى وصلت «جوزفين» بالسلامة إلى «ناڤار» وكانت ساكتة في معظم الطريق لا تفوه ببنت شفة.

وبعد أن أقامت عدة أيام في «ناڤار» قلقلة مضطربة البال تنتظر الأخبار عن «نابوليون» أرسل إليها الإمبراطور «إسكندر» إمبراطور الروس خفراء يحرسونها من الاعتداء عليها لأن مئات الألوف من العساكر كانت حينئذٍ منتشرة في كل تلك الجهات، وقد ألقت الرعب في قلوب سكان تلك النواحي.

وكانت جوزفين حينئذٍ مغمومة حزينة لما ألمّ بـ «نابليون» كانت تقضي كل أوقاتها إما بالكلام عنه، وإما بتلاوة رسائله فإنه كان يكتب إليها بلا انقطاع ويخبرها بأحوال الحرب وبفراره من مكان إلى آخر، ولكن كثيراً من هذه الرسائل لم يصل إليها لأن العساكر المحتلة التي كانت مالئة تلك الجهات كانت تمسكها عنها وآخر رسالة وصلت إليها قبل الأخيرة كانت من «بريان» يخبرها فيها بما جرى له وبالعصبة القليلة من العساكر الباقية له وأرسل في كتاب آخر يقول:

«إني عندما أتذكر أيام شبابي وأقابل سلام تلك الأيام التي مرت عليّ بالأتعاب والمخاوف التي أتجرّعها الآن أكره الحياة وقد سبق لي مراراً كثيرة أنني طلبت الموت بطرق مختلفة ولا يجب أن أخافه الآن وأنا أرى أن موتي الآن يكون بركة، ولكني أريد ثانية أن أرى جوزفين».

فلما وصلت هذه الرسالة إلى «جوزفين» لم تقطع الأمل من نجاح «نابوليون» بل أملت أن الإنسان الذي كان كيفما توجه يلاقي النصر والنجاح لا بد أن يفوز أخيراً ولو كان حينئذٍ متقهقراً، وكان ذلك رجاءها إلى أن وصلت إليها الرسالة الآتية:

«عزيزتي جوزفين ـ كتبت إليك في الثامن من هذا الشهر ولكن ربما لم يصل كتابي

Marfat.com

إليك. القتال قائم على ساق وقدم، وربما كان إبطاله ممكناً، وينبغي تجديد المفاوضات والمراسلات الآن، وقد دبرت كل أموري ولا شك أن هذه التذكرة تصل إليك ولا أحتاج أن أكرر ما ذكرت لك سابقاً وقد رثيت وقتئذٍ لحالتي، وأما الآن فإني أهنِّئ نفسي لأجلها. إن رأسي وقلبي قد تخلصَا من ثقل عظيم، سقطتي عظيمة، ولكن ربما تكون مفيدة ـ كما قال البعض ـ وسأبدل القلم بالسيف في تقهقري، وسيكون تاريخ ملكي غريباً. العالم إلى الآن لم يرني كما أنا ولكنني سأريهم نفسي تماماً، إن عندي كثيراً من الأمور أريد إظهارها، لقد أفضت النعم والخيرات على ملايين من المساكين، ولكن ماذا فعل هؤلاء لي إنهم خانوني جميعاً إلا «أيوجين» الذي يستحقك ويستحقني ـ والآن أستودعك الله يا عزيزتي جوزفين، سلّمي كما أني أنا أيضاً مسلم ولا تنسي الذي لا ينساك ولن ينساك مدى العمر أستودعك الله ثانية يا جوزفين».

فلما وصلت هذه الرسالة إلى «جوزفين» تكدّرت كدراً عظيماً وسكبت دموعاً غزيرة حتى إذا سكن روعها قليلاً قالت: «لا يجب أن أبقى هنا فإن حضوري لازم للإمبراطور. نعم، إن ذلك من واجبات «ماريا لويزا» أكثر مما هو من واجباتي ولكن الإمبراطور وحده ولا يجب أن أتخلى عنه. نعم، إنه كان في غنى عني في أوقات سعادته، وأما الآن فلا بد أن يكون في انتظاري».

ولما فرغت من هذا الكلام سكتت وتأملت قليلاً، ثم التفتت إلى الموكل على بيتها وقالت له: «ربما أعوّق الإمبراطور عن أعماله إذا ذهبت، وربما يضطر أن يغير مقاصده لأجلي، أنت ستقيم معي هنا حتى أستخبر من الملوك المتحالفين فإنهم سيحترمون المرأة التي كانت زوجة لـ «نابليون».

نعم، إن الملوك المتحالفين ذكروا «جوزفين» وعرفوها فإن سموّ تصرفها عند طلاق «نابوليون» لها كان قد ملأ أوروبا حيرة واندهاشاً، وقد كتب إليها الملوك المتحالفون يظهرون شعائر احترامهم وطلبوا منها أن ترجع إلى «ملمازون»، ووكلوا عدداً وافراً من الحراس بوقايتها، ومن ذلك الوقت كان منتداها مزدحماً بالملوك والأشراف الذين أتوا ليقدموا لها الاحترام على فضائلها الكثيرة، وأوّل من فعل ذلك كان الإمبراطور «إسكندر» إمبراطور الروس، فإنه قال عند أوّل مواجهة لها: «يا سيدة إني كنت ملتهباً بنار الشوق لمعرفتك فإني من يوم دخلت فرنسا لم أسمع اسمك يذكر إلا بالبركة وقد سمعت خبر أعمالك الملائكية من أحقر البيوت إلى أعظم القصور ويسرني أن أقدم لجلالتك احترامات الجمهور التي أنا حاملها».

أما «ماريا لويزا» فلم تكن مفكرة إلا بنفسها وقد أبت أن تصحب «نابوليون» في انحطاطه، وأما «جوزفين» فكتبت إليه رسالة تقول فيها:

Marfat.com

«إني أقدر أن أتصوّر الآن مقدار مصيبة انفكاك اتحادنا الذي فكته الشريعة وإني الآن أندب حظى ويشق عليّ أنني لست صديقة لك. ومن لا يحزن ويقطر قلبه دماً عند حلول مصيبة هذا مقدارها. آه يا سيدي، حبذا لو كان بوسعي أن أطير إليك وأؤكد لك أن البعد لا يغير إلا ذوي العقول السخيفة ولا يستطيع أن يلاشي محبة خالصة زادت المصائب قوّتها. لقد أوشكت أن أترك فرنسا وأتبع خطواتك وأخصص لك بقايا حياة أنت زينتها لو كنت أعلم أني أنا الوحيدة التي ستتم واجباتها باتباعك لكنت أذهب إلى ذلك المكان الوحيد الذي فيه سعادتي وأسليك في وحدتك وتعاستك، قل كلمة واحدة وأنا أذهب حالاً، وأما الآن فأستودعك الله يا سيدي لأني مهما زدت على ذلك كان قليلاً جدّاً، وعواطفي بعد الآن لا تبرهن لك بالكلام بل بالعمل وأرجو أن تسلم بذلك لأنه ضروري».

وبعد كتابة هذه الرسالة بأيام قليلة تناول الإمبراطور «إسكندر» وبعض أصحاب الألقاب والرتب طعاماً مع «جوزفين» وفي أوّل المساء خرج الجميع بنور الشفق إلى خارج وخرجت «جوزفين» معهم، وكانت صحتها منحرفة بسبب الأحزان والأكدار فشعرت بزكام شديد وجعل يزداد يوماً فيوماً وتنحط معه صحتها وقوّتها حتى حكم الطبيب بدنوّ أجلها، وكان ولداها «أيوجين» و«هورتنس» لا يفارقانها ليلاً ولا نهاراً، وأخبراها بكلام الطبيب فتلقت تلك البشرى بفرح وسرور وسألت حضور قسيس فحضر وأتم الفروض الدينية، ثم دخل عليها الإمبراطور «إسكندر» فرأى ولديها «أيوجين» و«هورتنس» جاثيين عند فراشها وقد غسلتهما الدموع فأومأت «جوزفين» إلى الإمبراطور أن يقرب منها، فلما اقترب قالت له ولأولادها: «كنت دائماً أشتهي سعادة فرنسا وقد فعلت كل ما في طاقتي لأجل ذلك وها أناذا أقول لكم في الدقيقة الأخيرة من حياتي أيها الحاضرون الآن إن امرأة «نابوليون الأول» لم تسبب مطلقاً انسكاب دمعة واحدة من عين واحدة».

ثم طلبت صورة الإمبراطور، فلما أحضروها التفتت إليها وعلامات الرقة والمحبة تلوح على وجهها ثم أخذتها وقرّبتها إلى صدرها ووضعت يديها فوقها وصلت قائلة:

«اللهم أحرس الإمبراطور مدة بقائه في صحراء هذه الدنيا وأسفاه إنه ارتكب غلطات فاحشة ولكنه لم يعوّض عنها بآلام عظيمة، وأنت وحدك أيها الإله قد عرفت قلبه وعلمت أنه كان في نفسه أميال شديدة إلى صلاح أشياء كثيرة، فتنازل واصغِ إلى تضرعي الأخير، واجعل هذه الصورة صورة زوجي تشهد أن رغبتي وصلاتي الأخيرة كانتا لأجله ولأجل أولادي».

وكان ذلك في التاسع والعشرين من شهر أيار (مايو) سنة ١٨١٤ [م]، وكانت الشمس قد قاربت الغروب فألقت بعض أشعتها المذهبة من نوافذ غرفة «جوزفين» المفتوحة، وكان

Marfat.com

النسيم اللطيف يتلاعب بالأشجار والطيور تغرّد فيها. وبين حفيف الأشجار وتغريد الأطيار ألقت «جوزفين» عينيها على صورة «نابوليون» وأسلمت الروح، فلما رأى الإمبراطور «إسكندر» أنها قد فارقت الروح قال والدموع تتساقط من عينيه: «ليست بعد تلك المرأة التي سمتها فرنسا: «محبة الخير، وملاك الصلاح»، وكل هؤلاء الذين عرفوا «جوزفين» لا ينسونها فإنها ماتت وتركت الأسف الشديد لأولادها ولأصدقائها ومعارفها».

وبعد موتها بأربعة أيام احتفل بجنازتها، وكان ذلك في الثاني من حزيران (يونيو) عند الظهيرة فأخذوها من «ملمازون» إلى «رويل» وواروها بالتراب في دار الكنيسة وقد شهد احتفال الجنازة أعظم ملوك أوروبا وأشرافها، وبعد تمام كل الواجبات ورجوع الجميع بقي ولداها «أيوجين» و«هورتنس» هناك ثم جثوا على قبرها وبقيا برهة يمزجان الصلاة بالدموع، وقد جاء أكثر من عشرين ألف نفس من الأهالي وشاهدوا جثتها وبقوا يتردّدون عليها مدة أربعة أيام متوالية قبل دفنها.

وقد أقام ولداها بعد ذلك نصباً من الرخام الأبيض مثّلاها به، وهي لابسة الحلة التي توّجت فيها، وقد جثت للتتويج وأقاماه فوق قبرها وكتبا عليه هذه الكلمات: «أيوجين وهورتنس لأجل جوزفين».

Marfat.com

حرف الحاء

الحارثية ابنة زيد

هي بنت زيد بن بدر العرائي والغداني، وكانت من النساء المشهورات بالحماس والافتخار ولها أشعار مقبولة حسنة ومراث بديعة منها ما قالته:

صلى الإلٰه على قبر وطهره ... عند الثوبة تسفى فوقه المورُ
زفت إليه قريش نعش سيدها ... فثمَّ كل التقى والبرّ مقبورُ
أبا المغيرة والدنيا مغيرة ... وإن من غرّت الدنيا لمغرورُ
قد كان عندك للمعروف معرفة ... وكان عندك للتنكير تنكيرُ
لم يعرف الناس مذ كفنت سيدهم ... ولم يجلّ ظلاماً عنهم نورُ
لو خلد الخير والإسلام ذا قدم ... إذا لخلدك الإسلام والخيرُ
قد كنت تخشى وتعطي المال من سعة إن كان بيتك أضحى وهو مهجورُ
والناس بعدك قد خفت حلومهم ... كأنما نفخت فيها الأعاصيرُ

حبابة جارية يزيد بن عبد الملك بن مروان الأموي[1]

هي مولدة مدنية كانت صبيحة الوجه، مليحة النادرة، لطيفة المحاضرة، خفيفة الروح،

---

(١) هو يزيد بن عبد الملك بن مروان، أبو خالد، من ملوك دولة بني أمية في الشام. ولد في دمشق سنة ٧١ هـ/ ٦٩٠ م. ولي الخلافة بعد وفاة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ هـ. بعهد من أخيه سليمان بن عبد الملك. كانت في أيامه غزوات أعظمها حرب الجراح الحكمي مع الترك، وانتصاره عليهم. خرج على يزيد بن المهلّب، بالبصرة، فوجّه إليه أخاه مسلمة فقتله. كان أبيض جسيماً، مدوّر الوجه، مليحه، فيه مروءة كاملة مع إفراط في الانصراف إلى اللذات. مات في إربد من بلاد الأردن سنة ١٠٥ هـ/ ٧٢٤ م. بعد موت قينة له اسمها حبابة. بأيام يسيرة، وكان لحبابة هذه أثر في أحكام التولية والعزل على عهده. نقل الديار بكري في تاريخ الخميس: أنه: مات عشقاً، ولا يُعلم خليفة مات عشقاً غيره. قيل: إنهم أتوه بأربعين شيخاً شهدوا له أن الخلفاء لا حساب عليهم ولا عذاب، وكانت مدة خلافته أربع سنين وشهراً.

Marfat.com

غردة الصوت، شجية الغناء، ضاربة بالعود أخذت أصواتها عن ابن سريج وابن محرز ومالك وكان يزيد مغرماً بالنساء شديد الكلف بهن فهام بها ولا هيام[١] قيس[٢] بليلى[٣]، وعلقها ولا علوق[٤] أبي نواس بجنان[٥]، فتهتك وخلع عذاره، وانقطع إليها ليله ونهاره تاركاً بين أيديها أزمة دينه ودنياه، فكانت تعزل من تشاء وتولي من تشاء وتحول بينه وبين الصوم والصلاة حتى اشتهر أمره وساء ذكره، ولوقائعه معها فكاهات ونوادر تركناها لكثرة تداولها بين الناس. قيل: إنه نزل معها يوماً ببيت رأس (وهي قرية من قرى الشام). فقال: زعم السلف أن الدهر لا يصفو لأحد يوماً كاملاً، وماذا عليّ لو غادرت كلامهم نجماً آفلاً، ثم قال لغلامه: ويحك، لا تمكن أحداً من الوقوف ببابي، ولا تدع إنساناً يخرق حجابي. ثم خلا بحبابة وما برح معها في لهو وطرب، وهزل ولعب، حتى استقام قسطاس النهار فدعا بطبق رمان كأنه شعلة نار أو ياقوت تحته بلار أو حب آس غاص بالجلنار فشرقت حبابة بحبة منه ذهبت بروحها إلى عالم العدم، فصاح يزيد صيحة الألم وطارت نفسه بأثرها شعاعاً وطفق يعض أنامله جزعاً والتياعاً، وما فتئ يقبلها وينوح وهو على مثل شوك القتاد حتى سطع ريحها وأدركها الفساد فأودعوها الثرى حتف أنفه وهو يدمي بثناياه باطن كفه، وما زال يذري بعدها العبرات ويردّد الأنين والحسرات، حتى نزلت به منيته بعد أسبوعين وهو معانق ضريحها فدفن حذاءها ولسان حاله يقول:

أمـوت علـى إثـر الحبيبـة ظـاعنـا ليجتمع الروحان في عالم الخلدِ

---

(١) سترد قصة ليلى وقيس في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٢) هو قيس بن الملوّح بن مزاحم العامري. شاعر غزل من المتيّمين، من أهل نجد. لم يكن مجنوناً، وإنما لقّب بذلك لهَيامه في حب ليلى العامرية. قيل في قصته: نشأ معها إلى أن كبرت وحجبها أبوها، فهام على وجهه ينشد الأشعار، ويأنس بالوحوش، فيُرى حيناً في الشام، وحيناً في نجد، وحيناً في الحجاز، إلى أن وُجد ملقًى بين أحجار وهو ميت سنة ٦٨ هـ/ ٦٨٨ م فحُمل إلى أهله. كان الأصمعي ينكر وجوده، ويراه اسماً بلا مسمّى. الجاحظ يقول: ما ترك الناس شعراً، مجهول القائل، فيه ذكر ليلى إلاّ نسبوه إلى المجنون. يقول ابن الكلبي: حُدّثت أن حديث المجنون وشعره وضعه فتى من بني أمية كان يهوى ابنة عم له.

(٣) هي ليلى بنت مهدي بن سعد، أم مالك العامرية، من بني كعب بن ربيعة. صاحبة المجنون قيس بن الملوّح. وفي وجودهما شكّ كبير. قيل في خبرها: مرّ بها قيس وهي مع بعض النسوة، فتحابّا، وكانت مغرمة بأحاديث الناس والأشعار، وهو من الرواة والحفّاظ للأخبار، وكثر تلاقيهما، وهما من قبيلة واحدة، ثم حُجبت عنه، وامتنع أبوها عن زواجها به، لاشتهار حبهما وأشعاره فيها، وأكرهت على الزواج برجل آخر. قيل في بداية حبهما إنهما نشآ صغيرين يرعيان الغنم، وحُجبت عنه لمّا كبرت. ماتت سنة ٦٨ هـ/ ٦٨٨ م، في السنة نفسها التي مات فيها قيس بن الملوّح المجنون.

(٤) وردت قصة أبو نؤاس وجنان في هذا الكتاب، في ترجمة جنان جارية عبد الله الثقفي.

(٥) سبقت ترجمتها في هذا الكتاب، وهي جنان جارية عبد الله الثقفي.

Marfat.com

وكان ذلك في سنة ١٠٥ للهجرة. ومن شعره فيها:

أبلغ حبابة أسقى ربعها المطر ما للفؤاد سوى ذكراكم وطرُ
إن سار صحبي لم أملك تذكرهم أو عرّسوا فهموم النفس والسهرُ

ومن شعرها له:

إذا أنت لم تعشق ولم تدرِ ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا
فما العيش إلا ما تلذ وتشتهي وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

وكان سبب شراء حبابة أن يزيد قد حج أيام أخيه سليمان[١] فاشترى حبابة بأربعة آلاف دينار وكان اسمها عالية. وقال سليمان: لقد هممت أن أحجر على يزيد فردها يزيد فاشتراها رجل من أهل مصر فلما أفضت الخلافة إلى يزيد قالت له امرأته سعدة: هل بقي من الدنيا شيء تتمناه؟ قال: حبابة، فأرسلت فاشترتها ثم صيغتها وألبستها وأتت بها يزيد فأجلستها من وراء الستر، وقالت: يا أمير المؤمنين، هل بقي من الدنيا شيء تتمناه؟ قال: قد أعلمتك، فرفعت الستر، وقالت: هذه حبابة، وقامت وتركتها عنده، فحظيت سعدة عنده، وأكرمها وسعدة هذه بنت عبد الله بن عمر بن عثمان[٢]. قيل: وغنت حبابة يوماً:

وبين التراقي واللهاة حرارة وما ظمئت ماء يسوغ فتبردا

فأهوى ليطير فقالت: يا أمير المؤمنين، إن لنا فيك حاجة. فقال: والله لأطيرن. فقالت: على من تخلف الأمة والملك؟ قال: عليك والله، ثم قبل يدها. فخرج بعض خدمه وهو يقول: سخنت عينك فما أسخفك.

---

(١) هو سليمان بن عبد الملك بن مروان، أبو أيوب، من ملوك بني أمية، ولد في دمشق سنة ٥٤ هـ/ ٦٧٤ م. ولي الخلافة بعد وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦ هـ. وكان بالرملة، فلم يتخلف عن مبايعته أحد. فأطلق الأسرى وأخلى السجون وعفا عن المجرمين، وأحسن إلى الناس. وكان عاقلاً فصيحاً طموحاً إلى الفتح، جهّز جيشاً كبيراً وسيّره في السفن بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك لحصار القسطنطينية. في عهده فتحت جرجان وطبرستان، وكانتا في أيدي الترك. توفي في دابق من أرض قنسرين بين حلب ومعرّة النعمان، وكانت عاصمته دمشق. مدة خلافته سنتان وثمانية أشهر إلاّ أياماً، توفي سنة ٩٩ هـ/ ٧١٧ م.

(٢) هو عبد اللّه بن عمر بن عثمان بن عفان الأموي القرشي، أبو عمر، كان من الفرسان المعدودين. صحب مسلمة بن عبد الملك في بعض وقائعه بأرض الروم، أبلى معه البلاء الحسن. هو من أهل مكة كان شاعر غزل مطبوع، ينحو نحو عمر بن أبي ربيعة، كان مشغوفاً باللهو والصيد، وكان من الأدباء الظرفاء الأسخياء، ومن الفرسان المعدودين. لقّب بـ«العرجي» لسكناه قرية العرج قرب الطائف. سجنه والي مكة محمد بن هشام في تهمة دم مولى لعبد اللّه بن عمر فلم يزل في السجن إلى أن مات سنة ١٢٠ هـ/ ٧٣٨ م.

Marfat.com

حبيبة هانم بنت علي باشا الهرسكي

من أديبات الأستانة وشاعرات هذا العصر. ولدت سنة ١٢٦٢ هجرية في مدينة «هرسك»[١] وهي نادرة زمانها حازت من الفصاحة والآداب الجزء الأعظم ولها أشعار رائقة ومعان فائقة:

ومن بديع شعرها ما وجدته في كتاب مشاهير النساء لمحمد أفندي ذهني باللغة التركية فأدرجته بحروفه:

جكردة تبغ غمزه ك زخمى واركن آثمه پيكانك تيراى فاشي باي أرتق تيرد بريميه من كانك
نكاه مسنكه جاناكة شابان كوردك اغيارى بنه نوباره لرآچدي درونه تبغ هجرانك
أوغافل بل خبر نادان عدو به همدم أولمشين وصالكدن يزي دورايلدك واراولسون احانك
اميدمرحمت قلمق عبثدرسندن اي كافر سني بي ذين ديمشلردي ازلدن بوقدر آيمانك
حبيبه يى دوادرددن خلاص أولمقده مشكدر اميدا يتمز اسيردرد أولانلر غيرى درمانك

حبوس ابنة الأمير بشير بن محمد الشهابي

ابن [حيدر][٢] بن سليمان بن فخر الدين بن يحيى بن مذحج بن محمد بن جمال الدين أحمد الذي شهد وقعة «مرج دابق»[٣] بين السلطان سليم[٤] وقانصوه الغوري[٥]. ولدت سنة ١١٨٢ هجرية في الشونصات، وكانت حاذقة، سديدة الرأي، ثابتة الجنان، عالية الهمة، كريمة اليد والنفس.

تزوجت بالأمير عباس بن فخر الدين وكانت تجالس الرجال وتقودهم بفصاحة خطابها

---

(١) الهرسك: منطقة تتبع جمهورية البوسنة والهرسيك. احتلها العثمانيون ١٤٦٣ ـ ١٨٧٨ م، ثم النمسا حتى ١٩١٨ م. ألّفت مع الصرب مملكة الصرب وكرواتيا بعد الحرب العالمية الأولى، ثم جمهورية يوغوسلافيا بعد الحرب العالمية الثانية. حتى انحلال يوغوسلافيا الاتحادية. أعلنت استقلالها وأصبحت عضواً في الأمم المتحدة حزيران ١٩٩٢ م. وفي العام الحالي ١٩٩٩ نشبت حرب ضارية بين اليوغوسلاف الصرب ومسلمي الهرسك.

(٢) وردت في الأصل «حبدر»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

(٣) مرج دابق: موقع في سوريا على نهر قُويق بين منبج وأنطاكية، انتصر فيها سليم الأول على المماليك ١٥١٦ م. فكان الفتح العثماني للشرق.

(٤) سليم الأول: هو تاسع السلاطين العثمانيين حكم من ١٥١٢ ـ ١٥٢٠ م، قضى على دولة المماليك في موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦ م، وفتح سوريا، ومصر.

(٥) قانصو الغوري: هو الملك الأشرف، سلطان المماليك البرجيّين، حكم من سنة ١٥٠١ ـ ١٥١٦ م. قتله سليم الأول في معركة مرج دابق.

Marfat.com

تزوجت بالأمير عباس بن فخر الدين وكانت تجالس الرجال وتقودهم بفصاحة خطابها وكانت تعول من يلتجئ إليها وتعامله معاملة القريب والصديق وتجاهد في إقامة الحقوق لهم، وإن لم تكن، وأما من لم يكن على غرضها فلم يجد راحة في معيشة، ولو كان صاحب حق وما ذلك إلا لنفوذ سطوتها عند الحكام.

وفي سنة ١٢٠٨ [هـ] جعلها الأمير بشير حاكمة على مقاطعة العرب فأدارت الحكم بفطنة لا مزيد عليها، ولما سجن الأمير بشير وأخوه الأمير حسن والشيخ بشير جنبلاط في سجن أحمد باشا الجزار[١] بعكا أرسلت إلى الأمير بشير أموالاً جزيلة، وقامت بأمر عياله، وأخذت تجتهد في استمالة الناس إليه. ولما ولى عبد الله باشا على الجبل الأمير حسن والأمير سليمان الشهابيين إذ تعهدا له بزيادة المرتب من المال على الجبل سارت هي برفقة الأمير بشير والشيخ بشير إلى حوران[٢]، وكانت تخابرهما في شأن أحوال البلاد.

ويروى أنها حاربت العرب إذ تعدّوا على دروز حوران واستظهرت عليهم، ثم رجع الأمير بشير إلى ولايته فعادت إلى منصبها، ثم وقع الاختلاف بينها وبين الأمير بشير سنة ١٢٣٧ [هـ] بعد اعتقال عبد الله باشا وتوسط الأمير بشير أمره في مصر وعوده ظافراً، وكانت متحدة مع الشيخ بشير في مقاومة الأمير بشير فصادره الأمير بشير بعد رجوعه وأتعبه، فلما غلب الشيخ بشير سنة ١٢٤٠ [هـ] توجهت إلى بشامون[٣] فأتى الأمير بشير قاسم التهامي بأمر الأمير بشير عمر الحاكم ليصادرها في أموالها، وشدد عليها فما لبثت أن ماتت في تلك الأثناء. قيل: حتف أنفها. وقيل: بدسيسة من الأمير بشير وكان عمرها ٥٨ سنة. ودفنت ببشامون وخلفت أولادها الأربعة وهم: الأمير منصور، والأمير أحمد، والأمير حيدر، والأمير أمين. وكانت اعتنت بتربيتهم بعد موت زوجها اعتناءً تاماً حتى نبغوا بين الأمراء الشهابيين.

حبيبة بنت مالك بن بدر

كانت ذات عقل ثاقب، وفكر صائبْ، ترجع إليها رؤساء قبيلتها بالرأي ويشاورونها في مهام الأمور وكانت بهية الطلعة، حسنة الهيئة، لها بعض أشعار رائقة، ومقالات فائقة. وكان

---

(١) أحمد باشا الجزّار: ولد سينة ١٧٢٠ م والي صيدا والشام، استقر في عكا. لُقِّب بالجزّار لفتكه بالبدو في مجزرة بلغ ضحاياها نحو ٧٠ ألفاً. حصّن عكّا وقاوم حصار بونابرت بمساعدة الأسطول الإنكليزي سنة ١٧٩٩ م. قتل الأمير يوسف الشهابي وولّى الأمير بشير الثاني. مات سنة ١٨٠٤ م.

(٢) حَوْران: كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة، ذات قرى كثيرة ومزارع. قيل: هي قرية أصحاب الأخدود. معجم البلدان، ج ٢/ ص ٣٦٤.

(٣) بشامون: بلدة لبنانية في قضاء عاليه. فيها تشكّلت «حكومة بشامون» المؤقتة أثناء معركة الاستقلال سنة ١٩٤٣ م.

Marfat.com

أبوها مالك بن بدر[١] قتل في حرب داحس والغبراء بسبب الرهان المشهور قتله جنيدب أحد بني رواحة[٢] فقالت ترثيه[٣]:

لله عيناً من رأى مثل مالك ... عقيرة قوم إن جرى فرسانِ
فليتهما لم يشربا قط قطرة ... وليتهما لم يرسلا لرهانِ
أحربه[٤] أمس الجنيدب ندرة ... فأي قتيل كان في غطفانِ
إذا سجعت بالرقمتين[٥] حمامة ... أو الرس[٦] فابكي أنت فارس كنعانِ

حبيبة بنت عبد العزى العوراء

كانت من كرماء النساء المشار إليهن في ذاك الزمان وشاعراتهن الموصوفات، ولقبت بالعوراء لكونها كانت ذات حوَل في عينها. ومن شعرها في ذلك قولها:

أإلى الفتى برّ تلكأ ناقتي ... فكسا مناسمها النجيع الأسودِ
إني ورب الراقصات إلى مِنَى ... بجنوب مكة هديهن مقلدِ
أولى على هلك الطعام أليةً ... أبداً ولكني أبين وأنشدِ
وصى بها جدي وعلمني أبي ... نفض الوعاء وكل زاد ينفدِ
فاحفظ يمينك لا أبا لك[٧] واحترس ... لا تخرقنه فأرة أو جد جدِ

حدقة جارية الملك الناصر بن قلاون

تربت في دار الملك الناصر[٨] وتعلمت الغناء والأدب وتدبير المنزل، وتخرجت على

---

(١) مالك بن بدر: قتله بنو عبس بمالك بن زهير في حرب داحس والغبراء. معجم البلدان، ج ١/ ص ٥٠.
(٢) بنو رواحة: بطن من غطفان من العدنانية، مساكنهم بلاد برقة في بلاد هيب.
(٣) وردت هذه الأبيات في معجم البلدان، ج ٣/ ص ٥٠.
(٤) أَحْرَبَه: طعنه بالحربة فقتله. [القاموس المحيط، مادة: حَرَبَ].
(٥) الرقْمتان: تثنية الرقْمة، وهو مجتمع الماء في الوادي. وهما قريتان بين البصرة والنباج بعد ماوية تلقاء البصرة وبعد حفر أبي موسى تلقاء النباج. معجم البلدان، ج ٣/ ص ٦٦.
(٦) الرس: واديان بنجد أو موضعان. معجم البلدان، ج ٣/ ص ٥٠.
(٧) لا أبا لك: نوع من أنواع القَسَم.
(٨) هو محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي، أبو الفتح، من كبار ملوك الدولة القلاوونية. له آثار عمرانية ضخمة وتاريخ حافل بجلائل الأعمال. ولد سنة ٦٨٤ هـ/ ١٢٨٥ م. كانت إقامته في طفولته بدمشق. ولي سلطنة مصر والشام سنة ٦٩٣ هـ، وهو صبي، خُلع منها لحداثته سنة ٦٩٤ هـ. فأرسل إلى الكرك. أعيد للسلطنة بمصر سنة ٦٩٨ هـ فأقام في القلعة كالمحجور عليه والأعمال في يد الأستادار الأمير بيبرس الجاشنكير ونائب السلطنة الأمير سلاّر. واستمر نحو عشرين سنة ضاق بها صدره من تحكّمها، فأظهر العزم على الحج، فتوجّه بعائلته وحاشيته ومماليكه وخيله، فودّعه بيبرس وسلاّر وبقية =

Marfat.com

«مسكة» القهرمانية، وتعلمت منها جميع ما يلزم للمنازل الملوكية من التدبير. ولما توفيت «مسكة» تولت وظيفتها وقامت مقامها وصارت قهرمانة البيت السلطاني وصاروا يرجعون إليها في الأمور المتعلقة بالأعراس والمهمات وتربية الأولاد وعمرت زيادة عن «مسكة» وبذلك صار لها حظوة عند السلطان وحريمه مسموعة الكلمة منهما، ومن كثرة إحسانها وبرّها تقاطر عليها المحتاجون لقضاء حوائجهم، سواء كان عند السلطان أو حرمه أو عندها، وهي لا تردّ طالباً ولا ترجع أحداً خائباً.

وتقدمت لها هدايا كثيرة من الأمراء والأعيان وكل منهم كان يتمنى رضاها. وقد بنت جملة بنايات خيرية أوقفتها لصرف ريعها في وجوه الخير، وعلى الجامع الذي بنته بخط المريس في جانب الخليج الكبير مما يلي الغرب بالقرب من قنطرة السد التي هي خارج مدينة مصر، وكان انتهاء بناء هذا الجامع في ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٧٣٧ [هـ].

ولما توفيت «حدقة» دفنت فيه وقبرها معروف للآن. وأما الجامع فإنه تخرب ولم يبقَ غير آثاره، وهو غير مقام الشعائر الآن.

حسانة النميرية ابنة أبي الحسين الشاعر الأندلسي

كانت أحسن نساء زمانها، وأفصحهن مقالاً، وأجملهن فعالاً، تأدبت وتعلمت الشعر من أبيها، فلما مات أبوها كتبت إلى الحكم[1] أمير الأندلس[2] ـ وهي إذ ذاك بكر لم تتزوج ـ بهذه الأبيات:

= الأمراء وهم على خيلهم لم يترجّلوا له. بلغ الكرك فنزل بقلعتها واستولى على ما فيها من أموال. فأعلن أنه قد انثنى عزمه عن الحج واختار الإقامة بالكرك وترك السلطنة وكتب إلى الأمراء في مصر بذلك فاجتمع هؤلاء ونادوا بالأمير بيبرس الجاشنكير سلطاناً على مصر والشام سنة ٧٠٨ هـ. ولقّبوه بالملك المظفّر. أمضى الناصر في الكرك قريباً من سنة، ثم وثب، فدخل دمشق، وزحف إلى مصر فقاتل المظفّر بيبرس، وعاد إلى عرشه سنة ٧٠٩ هـ. وقتل بيبرس بيده خنقاً، وشرّد أنصاره وامتلك قيادة الدولة. حكم ٣٢ سنة وشهرين وخمسة وعشرين يوماً. من المؤرخين من يأخذ عليه كثيراً من الشدّة في سياسته ولا سيما أن شيخ الإسلام ابن تيمية مات في قلعة دمشق في عهده مع معرفته الشخصية به.

(١) هو الحكم الثاني، المستنصر ٣٠٢ ـ ٣٦٦ هـ/ ٩١٤ ـ ٩٧٦ م الخليفة الأموي الثاني في الأندلس سنة ٩٦١ م ابن عبد الرحمٰن الثالث. شجّع العلوم والآداب فغدت قرطبة في عهده مركزاً ثقافياً وحضارياً. جمع مكتبة تعتبر من أضخم المكتبات في عصره. غزا ملوك الإسبان وأجبرهم على عقد الصلح معه، وبايعته مدن الأندلس، وملوك زناته وقبائل المغرب.

(٢) الأندلس: هي كلمة أعجمية لم تستعملها العرب في القديم وإنما عرفتها العرب في الإسلام. قيل: إن اسمها في القديم أبارية، ثم سميت بعد ذلك باطقة، ثم سميت أشبانية من اسم رجل ملكها في القديم كان اسمه أَشبان، وقيل: سميت بالأشبان الذين سكنوها في أول الزمان، وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش الذين سكنوها. وهي ما يُعرف اليوم بإسبانيا. معجم البلدان، ج ١/ص ٣١١.

Marfat.com

إنـي إليـك أبـا العـاصـي مـوجعـة أبا الحسين سقته الواكف الديمُ
قـد كنـت أرتـع فـي نعمـاه عـاكفـة فـاليـوم آوي إلـى نعمـاك يـا حكـمُ
أنـت الإمـام الـذي انقـاد الأنـام لـه وملكتــه مقــاليــد النهــى الأمــمُ
لا شيء أخشى إذا ما كنت لي كنفاً آوي إليــه ولا يعــرونــي العــدمُ
لا زلـت بـالعـزة القعسـاء مـرتـديـاً حتـى تـذل إليـك العـرب والعجـمُ

فلما وقف الحكم على شعرها استحسنه وأمر لها بإجراء مرتب وكتب إلى عامله على «ألبيرة»[1] فجهزها بأحسن جهاز.

ويحكى أنها وفدت على ابنه عبد الرحمٰن متشكية من عامله جابر بن لبيد والي «ألبيرة»، وكان الحكم قد وقع لها بخط يده تحرير أملاكها، فلم يفدها، فدخلت إلى الإمام عبد الرحمٰن فأقامت بفنائه وتلطفت مع بعض نسائه حتى أوصلتها إليه، وهو في حال طرب وسرور، فانتسبت إليه، فعرفها وعرف أباها، ثم أنشدت:

إلى ذي الندى والمجد سارت ركائبي على شحط تصلى بنار الهواجرِ
ليجبر صدعي إنه خير جابر ويمنعني من ذي المظالم جابرِ
فإنـي وأيتـامـي بقبضـة كفـه كذي ريش أضحى في مخالب كاسرِ
جـديـر لمثلـي أن يقـال بسـرعـة بموت أبي العاصي الذي كان ناصري
سقاه الحيا لو كان حياً لما اعتدى على زمـان بـاطـش بطـش قـادرِ
أيمحـو الـذي خطتـه يمنـاه جـابـر لقد سام بالأملاك إحدى الكبائرِ

ولما فرغت رفعت إليه خط والده وحكت جميع أمرها فرقَّ لها، وأخذ خط أبيه فقبله ووضعه على عينه وقال: تعدى ابن لبيد طوره حتى رام نقض رأي الحكم، وحسبنا أن نسلك سبيله بعده ونحفظ بعد موته عهده انصرفي فقد عزلته لك، ووقع لها بمثل توقيع أبيه الحكم فقبلت يده وأمر لها بجائزة، فانصرفت وبعثت إليه بقصيدة منها:

ابـن الهشـامين خير النـاس مـأثـرة وخيــر منتجــع يــومــاً لــروّاد
إن هـز يـوم الـوغـى أثنـاء صعـدتـه روّى أنـابيبهـا مـن صـرف فـرصـاد
قـل لـلإمـام أيـا خيـر الـورى نسبـاً مقــابــلاً بيــن آبــاء وأجــداد
جوّدت طبعي ولم ترض الظلامة لي فهــاك فضــل ثنــاء رائــح غــادي
فـإن أقمـت ففـي نعمـاك عـاكفـة وإن رحلــت فقــد زوّدتنــي زادي

---

(١) ألبيرة: كورة كبيرة من الأندلس ومدينة متصلة بأراضي كورة قبرة، بين القبلة والشرق من قرطبة. معجم البلدان، ج١/ص ٢٨٩.

Marfat.com

وبقيت على ذلك مدة حياتها وهي مغمورة بخيراتها ومشهورة بالجود والكرم والأدب والحكم.

حفصة ابنة حمدون

كانت فاضلة، روض فضلها أريج، وحدائق معلوماتها وأدبها بهيج، وشاعرة رقت وكثر اختراعها للمعاني وإبداعها، تسترق القلوب بألفاظها الزاهرة، وتسكر العقول بمعانيها الساحرة تنظم فتأتي بكل عجيبة وتشنف الأسماع بكل غريبة، وتنثر فتفتض أبكار الدقائق بنظرها الثاقب، وتجلى غياهب المشكلات بفكرها الصائب هي من وادي الحجارة بالأندلس، وهي من أهل المائة الرابعة. ومن شعرها:

رأى ابن جميل أن يرى الدهر مجملا ... فكل الورى قد عمهم صيب[1] نعمتَهُ
له خلق كالخمر بعد امتزاجها ... وحسن فما أحلاه من حين خلفتَهُ
بوجه كمثل الشمس يدعو ببشره ... عيوناً ويغشيها بإفراط هيبتَهُ

ولها أيضاً:

لي حبيب لا ينثني بعتاب ... وإذا ما تركته زاد تيهاً
قال لي هل رأيت لي من شبيه ... قلت أيضاً وهل ترى لي شبيهاً

ولها تذم عبيدها:

يا رب إني من عبيدي على ... جمر الغضا ما فيهم من نجيب
أما جهول أبله متعب ... أو فطن من كبره لا يجيب

ومن قولها أيضاً:

يا وحشتي يا وحشتي ... يا وحشة متماديهْ
يا ليلة ودّعتُه ... يا ليلة هي ماهيهْ

حفصة ابنة الحجاج الركونية

كانت أديبة في زمانها، أبلغ شعراء أوانها شعراً وأدقهم نظراً. شعرها جيد ذات رونق فائق، وديباجة حسنة. وكان لها اليد الطولى في سبك المعاني، واستعمال الألفاظ الشائقة. ولم يكن شعرها مع جودته مقصوراً على أسلوب واحد، بل كانت تتفنن فيه وتدخل في أساليب مختلفة، وكانت غزيرة المادة من الأدب مطَّلعة على شعر العرب الخلص وغيرهم.

---

(١) صيب: أحسن، أو الخِيار من كل شيء. [القاموس المحيط، مادة: صاب].

Marfat.com

وكانت تكتب الخط الجيد وهي من أذكياء العرب المشهود لهم بالتفوّق والبراعة قرأت في مبدأ أمرها كثيراً، وحفظت كثيراً، ولما كبرت وشبت ظهر لها جمال بارع كانت تبهر العقول به، وكانت حسيبة نسيبة غنية، ذات مال وافر، هويها جملة من أجلاء عصرها وأدباء زمانها، ولم تلتفت لأحد منهم سوى أبي جعفر بن سعيد، وكانت معه على عفة زائدة. وقالت يوماً ارتجالاً بين يدي أمير المؤمنين عبد المؤمن:

يـا سيـد النـاس يـا مـن يـؤمّـل النـاس رفـدهُ
أمنـن علـيّ بطـرس يكـون للـدهـر عـدّهُ
تخـط يمنـاك فيـه الحمـد لله وحـدهُ

وأشارت بذلك إلى العلامة السلطانية عند الموحدين فإنها كانت بكتب السلطان بيده بخط غليظ في رأس المنشور الحمد لله وحده. ومن قولها أيضاً في الغزل:

ثنائي على تلك الثنايا لأنني أقول على علم وأنطق عن خبرِ
وأنصفهـا لا أكـذب الله إننـي رشفت بها ريقاً أرق من الخمرِ

وولع بها السيد أبو سعيد عبد المؤمن ملك غرناطة[1]، وتغير بسببها على أبي جعفر بن سعيد حتى أدّى تغيره عليه أن قتله، وطلب أبو جعفر منها الاجتماع فمطلته قدر شهرين، فكتب إليها:

يـا مـن أجـانـب ذكـر اسـ ـمـه وحسبـي عـلامـهْ
مـا إن أرى الـوعـد يقضـي والعمـر أخشـى انصـرامـهْ
اليـوم أرجـوك لا أن يكـون لـي فـي القيـامـهْ
لـوقـد بصـرت بحـالـي والليـل أرخـى ظـلامـهْ
أنـوح شـوقـاً ووجـداً إذ تستـريـح الحمـامـهْ
صـب أطـال هـواه علـى الحبيـب غـرامـهْ
لمـن يتيـه عليـه ولا يـردّ سـلامـهْ
إذ لـم تنيلـي أريحـي فـاليـأس يثنـي زمـامـهْ

فأجابته تقول:

يـا مـدّعـي فـي هـوى الحسـ ـن والغـرام الإمـامـهْ
أتـى قـريضـك لكـن لـم أرضَ منـه نظـامـهْ

(١) غرناطة: بفتح الغين، ومعناه «رمّانة» بلسان أهل الأندلس، من أقدم مدن كورة البيره من أعمال الأندلس ومن أعظمها وأحسنها وأحصنها. معجم البلدان، ج٤/ص ٢٢١.

Marfat.com

أمـــدعـــي الحـــب يثنـــي يـــأس الحبيـــب زمـــامـــهْ
ضللـــــت كـــــل ضـــــلال ولـــم تفـــدك الـــزعـــامـــهْ
مـــا زلـــت تصحـــب مـــذ كنـ ـــــت فـــي السبـــاق الســـلامـــهْ
حتـــــى عثـــــرت وأخجلـ ـــــت بـــافتضـــاح الســـآمـــهْ
بـــالله فـــي كـــل وقـــت يبـــدي السحـــاب انسجـــامـــهْ
والـــزهـــر فـــي كـــل حيـــن يشـــق عنـــه كمـــامـــهْ
لـــو كنـــت تعـــرف عـــذري كففـــت غـــرب المـــلامـــهْ

ووجهت هذه الأبيات مع موصل أبياته بعدما لعنته وسبته وقالت له: لعن الله المرسل والمرسول فما في جميعكما خير ولا برؤيتكما حاجة، وانصرف بغاية من الخذلان، ولما أطال على أبي جعفر وهو قلق لانتظاره قال له: ما وراءك يا عصام؟ قال: ما يكون وراء من وجهه خلق إلى فاعلة تاركة. اقرأ الأبيات تعلم، فلما قرأ الأبيات قال للرسول: ما أسخف عقلك وأجهلك: إنها وعدتني للقبة التي في جنت المعروفة بالكمامة، سر بنا. فبادرا إلى الكمامة فما كان إلا قليل وإذا بها قد وصلت وأراد عتبها، فأنشدت:

دعـــي عـــدّ الـــذنـــوب إذا التقينـــا تعـــالـــي لا نعـــدّ ولا تعـــدّي

وجلسا على أحسن حالة، وإذا برقعة الكندي الشاعر لأبي جعفر وفيها:

أبا جعفر يا ابن الكرام الأماجد كتـــوم عليـــم بـــاختفـــاء المـــراصـــدِ
يبيـــت إذا يخلـــو المحـــب بحبـــه ممتـــع لـــذات بخمـــس ولائـــدِ

فقرأها على حفصة فقالت: لعنة الله قد سمعنا بالوارش على الطعام والواغل على الشراب ولم نسمع اسماً لمن يعلم باجتماع محبين فيروم الدخول عليهما فقال لها: بالله سميه لنكتب له بذلك. فقالت: أسميه الحائل لأنه يحول بيني وبينك إن وقعت عيني عليه فكتب له في ظهر رقعته:

يـــا مـــن إذا مـــا أتـــانـــي جعلتـــه نصـــب عينـــي
نـــراك تـــرضـــى جلـــوســـاً بيـــن الحبيـــب وبينـــي
إن كـــــان ذاك فمـــــاذا تبغـــي ســـوى قـــرب حينـــي
والآن قـــد حصلـــت لـــي بعـــد المطـــال بـــديـــنِ
فـــإن أتيـــت فـــدفعـــاً منهـــا بكلتـــا اليـــديـــنِ
أوَ ليـــس تبغـــي وحـــاشـــا ك أن تـــرى طيـــر بينـــي
وفـــي حنينـــك فـــي الخمـ ـــــر كـــل قبـــح وشيـــنِ

Marfat.com

فليـــــــس حقـــــــك إلا الخلـــوّ بـــالقمـــريـــنِ

وكتب له تحت ذلك ما كان منهما من الكلام وذيل ذلك بقوله:

سمـــاك مـــن أهـــواه حـــائـــل إن كنـــت بعـــد العتـــب واصـــل
مـــع أن لـــونـــك مـــزعـــج لـــو كنـــت تحبـس بـالسـلاسـل

فلما رجع إليه الرسول وجده قد وقع بمتمورة النجاسة وصار هتكة، فلما قرأ الأبيات قال للرسول: ارجع وأعلمهما بحالي، فرجع الرسول وأخبرهما بذلك، فكاد أن يغشى عليهما من الضحك وكتبا إليه ارتجالا كل واحد بيتاً، وابتدأ أبو جعفر فقال:

قـــل للـــذي خلصنـــا مـــن الـــوقـــوع فـــي الخـــرا
ارجـــع كمـــا شـــاء الخـــرا ابـــن الخـــرا إلـــى ورا
وإن تعـــد يـــومـــاً إلـــى وصـــالنـــا ســـوف تـــرى
يـــا أسقـــط النـــاس ويـــا أنـــذلهـــم بـــلا مـــرا
هـــذا مـــدى الـــدهـــر تـــلا قـــي لـــو أتيـــت فـــي الكـــرا
يـــا لحيـــة تشـــق فـــي الـ مخـــرا وتنشـــا العنبـــرا
لا قـــرّب الله اجتمـــا عـــاً بـــك حتـــى تقبـــرا

فلما وصلته الرقعة علم أنه ليس مقبولاً لديهما، فانصرف من حيث أتى وبقيَا يومهما ينتهبان اللذات ويتعاطيان المسرات بدون ريبة تقع من أحدهما حتى آن أوان الانصراف، فانصرفا وكل منهما له نحو صاحبه انعطاف. ومن شعرها:

ســـلام يفتـــح فـــي زهـــرة الـ ـكمـــام وينطـــق ورق الغصـــونُ
علـى نـازح قـد ثـوى فـي الحشـا وإن كـان تحـرم منـه الجفـونُ
فـــلا تحسبـــوا العبـــد ينســـاكـــم فـــذلـــك والله مـــا لا يكـــونُ

وقولها من أبيات:

ولو لم يكن نجماً لما كان ناظري وقـد غبـت عنـه مظلمـاً بعـد نـوره
سلام على تلك المحاسن من شج تنـاءت بنعمـاه وطيـب سـروره

وقولها:

سلوا البارق الخفاق والليل ساكن أظـل بـأحبـابـي يـذكـرنـي وهنـا
لعمـري لقـد أهـدى لقلبـي خفقـة وأمطـرنـي منهـل عـارضـه الجفنـا

ونُسب إليها البيتان المشهوران:

أغـــار عليـــك مـــن عينـــي ومنـــي ومنـــك ومـــن زمـــانـــك والمكـــانِ

Marfat.com

ولـو أنـي خبـأتـك فـي عيـونـي إلـى يـوم القيـامـة مـا كفـانـي

وكتبت إلى أبي جعفر:

رأسـت فمـا زال العـداة بظلمهـم وجهلهم النامي يقولون لم رأس
وهـل منكـر أن سـاد أهـل زمـانـه جموح إلى العليا حرون عن الدنس

وقال ابن رحبة: حفصة من أشراف غرناطة رخيمة الشعر، رقيقة النظم والنثر. ومن قولها في السيد أبي سعيد ملك غرناطة تهنئه بيوم عيد وكتبت بذلك إليه:

يـا ذا العـلا وابـن الخليـ ـفـة والإمـام المـرتضـى
يهنيـك عيـد قـد جـرى فيـه بمـا تهـوى القضـا
وأتـاك مـن تهـواه فـي قيـد الإنـابـة والـرضـا
ليعيـد مـن لـذاتـه مـا قـد تصـرم وانقضـى

وسألتها امرأة من أعيان غرناطة أن تكتب لها شيئاً بخطها فكتبت إليها:

يـا ربـة الحسـن بـل يـا ربـة الكـرم غضـي جفـونـك عمـا خطـه قلمـي
تصفحيـه بلحـظ الـودّ منعمـة لا تحفلـي بـرديء الخـط والكلـم

واتفق أنه بات أبو جعفر معها في بستان بحوز مؤمل على ما يبيت به الروض والنسيم من طيب النفحة والنضارة، فلما حان الانفصال قال أبو جعفر وكان يهواها كما سبق:

رعـى الله ليـلاً لـم يـرح بمـذمـم عشيـةً وارانـا بحـوز مـؤمّـلِ
وقد خفقت من نحو نجد أريجة إذا نفحـت هبـت بـريـا القـرنفـلِ
وغـرّد قمـري علـى الـدوح وانثنـى قضيب من الريحان من فوق جدولِ
يرى الروض مسروراً بما قد بدا له عنـاق وضـم وارتشـاف مقبـلِ

وكتب بها إليها بعد الافتراق لتجيبه على عادتها بمثل ذلك فكتبت إليه قولها:

لعمـرك مـا سـر الـريـاض بـوصلْنـا ولكنـه أبـدى لنـا الغـل والحسـد
ولا صفـق النهـر ارتيـاحـاً لقـربنـا ولا غـرّد القمـريّ إلا لمـا وجـد
فلا تحسن الظن الذي أنت أهله فما هو في كل المواطن بالرشد
فما خلت هذا الأفق أبدى نجومه بأمر سوى كيما يكون لنا رصد

وكتبت حفصة إلى بعض أصحابها:

أزورك أم تـزور فـإن قلبـي إلـى مـا تشتهـي أبـداً يميـلُ
فثغـري مـورد عـذب زلال وفـرع ذوائبـي ظـل ظليـلُ
وقـد أمّلـت أن تظمـا وتضحـى إذا وافـى إليـك بـي المقيـلُ

Marfat.com

فعجل بالجواب فما جميل إباؤك عن بثينة يا جميلُ

وقال أبو جعفر بن سعيد: أقسم ما رأيت ولا سمعت بمثل حفصة، ومن بعض ما أجعله دليلاً على تصديق عزمي وبرّ قسمي أني كنت يوماً في منزلي مع من أحب أن أخلو معه من الأجواد الكرام على راحة سمحت بها غفلات الأيام، فلم أشعر إلا بالباب يضرب فخرجت جارية تنظر من الضارب فوجدت امرأة فقالت لها: ما تريدين؟ قالت: ادفعي لسيدك هذه الرقعة فجاءت برقعة فيها:

زائر قد أتى بجيد الغزال مطلع تحت جنحه للهلالِ
بلحاظ من سحر بابل صيغت ورضاب يفوق بنت الدوالي
يفضح الورد ما حوى منه خدّ وكذا الثغر فاضح للألي
ما ترى في دخوله بعد إذن أو تراه لعارض في انفصالِ

قال: فعلمت أنها حفصة وقمت مبادر اللباب وقابلتها بما يقابل به من يشفع له حسنه وآدابه والغرام به، وتفضله بزيارة من دون طلب في وقت الرغبة في الأنس به وفضلنا ليلة لم يسمح لنا بمثلها الزمان ولا لقيصر ولا لكسرى أنوشروان، وبقيت حفصة محافظة على وداد أبي جعفر إلى أن نكب وقتل. وقد رثته بمراثٍ كثيرة لم ير مثلها، ولكون قتل أبي سعيد كان من أجلها لم تتمكن من نشرها، وبقيت بعده مدة طويلة وهي حزينة عليه لا تلتفت إلى المسرات ولا تألف الاجتماعات حتى دعاها داعي المنون فلبت وهي ذات شجون.

حليمة الحضرية

كانت من نساء بني عبس الموصوفات بالعقل والحكمة ولها شعر رائق وروى لها الزبير بن بكار من أبيات رثاء في زوجها:

يقرّ لعيني أن أرى لمكانه ذرى عقدات الأجرع المتفاودِ
وأن أرد الماء الذي شربت به سليمى وإن ملّ السرى كل واحد
وألصق أحشائي ببرد ترابه وإن كان مخلوطاً بسم الأساود
لقد كنت أخشى لو تمليت خشيتي عليك الليالي مرها وانفتالها
فأما وقد أصبحت في قبضة الردى فشأن المنايا فلتصب من بدا لها

حمدونية بنت عيسى بن موسى

كانت ذات حسن وجمال، وصيانة وأدب. حجت إلى بيت الله الحرام في زمن المتوكل العباسي.

Marfat.com

قال محمد بن صالح العلوي[١]: لما خرجنا على المتوكل أخذت أنا وأصحابي قافلة الحاج فجمعنا أموالاً ومتاعاً لا يحصى، وكنت قد جلست على كرسي في بعض المراحل وقت نزولنا وأصحابي يجمعون المال، وإذا أنا بامرأة قد رفعت سجاف هودج فأضاء منها المكان ولا إضاءة الشمس، فقالت: أين الشريف صاحب السرية فلي إليه حاجة؟ قلت: إنه يسمع كلامك. فقالت: أنا حمدونية بنت عيسى بن موسى[٢]، تعلم مكاننا عند الخليفة وأنا أسألك أن تأخذ مني ثلاثين ألف دينار مع أني أعطيتك ما في يدك، ولكن أسألك بفضلك أن لا يكشف لي أحد وجهاً. فناديت أصحابي، فلما اجتمعوا قلت: من أخذ منكم من هذه القافلة عقالاً أذنته بحرب. فردوا حتى الأطعمة وخفرتهم إلى المأمن، فلما ظفر بي الخليفة وحبسني بسر من رأى دخل عليّ السجان يوماً وقال: إن بالباب امرأتين من أهلك تريدان الدخول عليك ولولا أن دفعتا إليّ دملج[٣] ذهب ما أذنت لهما، فقد منع الخليفة أن يدخل عليك أحد، فخرجت فإذا أنا بها مع امرأة وجارية تحمل شيئاً.

فلما بصرت بي قالت: أي والله هو، وبكت لما أنا فيه، ثم قبّلت قدمي وقالت: لو استطعت أن أقيك بنفسي لفعلت، ولكني لا أقصر في خلاصك ودونك هذه النفقة ورسولي يأتيك في كل يوم بما تريد حتى يفرج الله عنك، ودفعت إليّ خمسمائة دينار وثياباً وطيباً وطعاماً وانصرفت وقد أضرمت بقلبي ناراً قدحتها النظرة الأولى، فأنشدت:

طرب الفؤاد وعاودت أحزانه ... وتشعبت بشعابه أشجانُهُ

وبدا له من بعدما اندمل الهوى ... برق تألق موهناً لمعانُهُ

يبدو كحاشية الرداء ودونه ... صعب الذرى متمنعاً أركانُهُ

---

(١) هو محمد بن صالح بن عبد اللّه العلوي الطالبي القرشي، أمير من الشعراء النبلاء. ولي المدينة للواثق العباسي سنة ٢٢٩ هـ. عزله المتوكل، فخرج عليه مع جماعة، فلم يزل المتوكّل يحتال عليه إلى أن أمسكه سنة ٢٤٠ هـ. وسجنه بسامرّاء ثلاث سنين، وأطلقه، فأقام فيها إلى أن مات. قال المرزباني: كان راوية أديباً شاعراً.

(٢) هو عيسى بن موسى بن محمد العباسي، أبو موسى، أمير من الولاة القادة. وهو ابن أخي السفاح. كان يقال له: شيخ الدولة. ولد سنة ١٠٢ هـ/ ٧٢١ م. نشأ في الحميمة. وكان من فحول أهله وذوي النجدة والرأي منهم. له شعر جيد، ولاّه عمّه الكوفة وسوادها سنة ١٣٢ هـ. وجعله ولي عهد المنصور، فاستنزله المنصور عن ولاية عهده سنة ١٤٧ هـ. وعزله عن الكوفة، وأرضاه بمال وفير، وجعل له ولاية عهد ابنه المهدي. فلما ولي المهدي عزله سنة ١٦٠ هـ. بعد تهديد ووعيد، وكان ولي العهد لا يُخلع ما لم يَخلع نفسه ويُشهد الناس عليه، فأقام بالكوفة إلى أن توفي سنة ١٦٧ هـ/ ٧٨٣ م.

(٣) الدملج: حُليّ يُلبس في المعصم. [القاموس المحيط، مادة: دملج].

Marfat.com

يبـدو فينظـر أيـن لاح فلـم يطـق نظــرا إليــه وصــده سبحــانُــهُ
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه والمــاء مــا سحــت بــه أجفــانُــهُ
يا قلب لا يذهب بحلمك باخل بــالنيــل بــاذل تــافــه منــانُــهُ
واقنــع بمــا قســم الإلٰــه فــأمــره مــا لا يــزال علــى الفتــى إتيــانُــهُ
والبؤس ماضٍ لا يدوم كما مضى عصــر النعيــم وزال عنــك أوانُــهُ

ولم يزل رسولها يعاودني بالإحسان وملاطفة السجان إلى أن خرجت وعظم أمري عند الخليفة، فخطبتها، فامتنع أبوها فكان سجن هواها أعظم عليّ من السجن، فلم أر إلا أن أتيت إبراهيم بن المقتدر فأخبرته بذلك، وكان أبوها في ضيعته، فركب إليه فلم يفارقه حتى زوّجني بها وبقينا متمتعين بنعيم عيشنا إلى أن توفيت وأصابني بعدها الحزن والشجون ولابن صالح فيها أشعار كثيرة لم تصل إليّ معرفتها.

حمدة بنت زياد

من وادي أشن بالأندلس، وهي خنساء المغرب وشاعرة الأندلس أديبة زمانها، وغريبة أوانها. كان الأدب نقطة من حوضها، وزهرة من روضها، لها المنطق الذي يقوم شاهداً بفضل لسان العرب، ويفتح على البلغاء أبواب العجز، ويسدّ عليهم صدور الخطب، فإن أوجزت أعجزت بالمقال، وإن أطالت كاثرت الغيث الهطال، مع مطارحة تذهب في الاستفادة مذهب الحكم، وأخلاق تحدّث عن لطف الزهر غب الديم مرمى الترنم بذكرها المتعطر بنشر حمدها وشكرها، والنسيم نم بمرآها على الحدائق، والصبح يشرق بنور الشمس الشارق.

روت عن العلماء الأفاضل ورووا عنها، ومنهم: العالم العلامة، البحر الحبر الفهامة، أبو القاسم بن البراق. ومن عجيب شعرها البديع قولها:

ولمــا أبــى الــواشــون إلا افتــراقنــا ومــا لهــم عنــدي وعنــدك مــن ثــار
وشنــوا علــى أسمــاعنــا كــل غــارة وقــل حمــاتــي عنــد ذاك وأنصــاري
غــزوتهــم مــن مقلتيــك وأدمعــي ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

والبعض يزعم أن هذه الأبيات لبهجة بنت عبد الرزاق، ولكنها لحمدة أثبت وأشهر والله أعلم.

وخرجت حمدة مرة للوادي مع حبيبة لها فرأت الأزهار في جوانبه تتلألأ كأنها نجوم تساقطت من كبد السماء والماء في النهر يتماوج كأنه قطع من لجين ترمقه عيون ذكاء فأعجبها ذلك المنظر البهج، وأحبت أن تخوض بذلك النهر إتماماً لترويح النفس خصوصاً لخلوه من الناس فنضت عنها الثياب وعامت، ثم قالت:

Marfat.com

أبـاح الـدمـع أسـراري بـوادي لـه للحسـن آثـار بـوادي
فمـن نهـر يطـوف بكـل أرض ومـن روض يـروق بكـل وادي
ومـن بيـن الظبـاء مهـاة أنـس سبـت لـي وقـد ملكـت فـؤادي
لهـا لحـظ تـرقـده لأمـر وذاك الأمـر يمنعنـي رقـادي
إذا سـدلـت ذوائبهـا عليهـا رأيـت البـدر فـي أفـق السـوادِ
كـأن الصبـح مـات لـه شقيـق فمـن حـزن تسـربـل بـالحـدادِ

وقولها هذه الأبيات الشهيرة بالبلاد المشرقية وهي:

وقـانـا لفحـة الـرمضـاء واد سقـاه مضـاعـف الغيـث العميـمِ
حللنـا دوحـه فحنـا علينـا حنـوّ المـرضعـات علـى الفطيـمِ
وأرشفنـا علـى ظمـا زلالاً ألـذ مـن المـدامـة للنـديـمِ
يصـد الشمـس أنّـى واجهتنـا فيحجبهـا ويـأذن للنسيـمِ
يـروع حصـاه حـاليـة العـذارى فتلمـس جـانـب العقـد النظيـمِ

حميدة ابنة النعمان بن بشير[1]

كانت من جميلات نساء العرب، وأعلمهن بفنون الأدب. وكانت في القرن الأول للهجرة رُبيت في حجر أبيها مع أختيها: هند وعمرة، فنشأت هي على عز النفس، وصارت لا يُرى لها من قرين يوافقها. ومن عزة نفسها كانت كلما تزوجت برجل ورأت فيه عيباً تهجوه بالشعر حتى خافت من لسانها العرب. ومن ذلك أن الحارث بن خالد[2] لما قدم من المدينة على عبد الملك بن مروان وهو إذ ذاك بدمشق والنعمان بن بشير والٍ على حمص فخطبها الحارث من أبيها، فزوجه بها ولم تمكث معه غير قليل حتى أساء معاملتها فقالت فيه:

فقـدت الشيـوخ وأشيـاعهـم وذلـك مـن بعـض أقـواليَـهْ
تـرى زوجـة الشيـخ مغمـومـة وتمسـي بصحبتـه قـاليَـهْ
فـلا بـارك الله فـي عـرضـه ولا فـي غضـون إستـه الباليَـهْ

---

(١) هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري، أبو عبد اللّه، أمير، خطيب شاعر، من أجلاّء الصحابة، من أهل المدينة ولد سنة ٢ هـ/ ٦٢٣ م. وجّهته نائلة زوجة عثمان بقميص عثمان إلى معاوية، فنزل الشام، شهد صفّين مع معاوية، ولي قضاء دمشق، ثم ولي اليمن لمعاوية، ثم استعمله على الكوفة لتسعة أشهر، ثم عزله وولاّه حمص. بايع ابن الزبير، فتمرد عليه أهل حمص فهرب، فتبعه خالد بن خليّ الكلاعي فقتله سنة ٦٥ هـ/ ٦٨٤ م. وهو أول مولود ولد في الأنصار بعد الهجرة.

(٢) هو الحارث بن خالد بن العاص بن هشام المخزومي، من قريش، شاعر غزل من أهل مكة. نشأ في أواخر أيام عمر بن أبي ربيعة، وكان يذهب مذهبه. توفي سنة ٨٠ هـ/ ٧٠٠ م.

Marfat.com

نكحت المديني إذ جاءني فيا لك من نكحة غاوية
كهول دمشق وشبانها أحب إلينا من الجاليَهْ
صنانهم كصنان التيو س أعيا على المسك والغاليَهْ
وقمل يدب دبيب الجرا د أعيا على الغال والغاليَهْ

فقال الحارث يجيبها:

أسنا ضوء نار ضمرة بالقفـ ـرة أبصرت أم سنا ضوء برقِ
قاطنات الحجون أشهى إلى قلـ ـبي من ساكنات دور دمشقِ
يتضوّعن لو تضمخن بالمسـ ـك صناناً كأنه ريح مرقِ

ولما استحكمت بينهما النفرة طلقها الحارث فخلف عليها روح بن زنباع[1] وعليه كانت الطامة الكبرى. قال صاحب الأغاني: إن قولها: (أحب إلينا من الجاليه) تعني الجالية أهل الحجاز، وكان أهل الشام يسمونهم بذلك لأنهم كانوا يجلون عن بلادهم إلى الشام ولما بلغ عبد الملك قولها قال: لولا أنها قدّمت الكهول على الشبان لعاقبتها. قال عمر بن شبة[2]: لما تزوجها روح بن زنباع نظر إليها يوماً تنظر إلى قومه بني جذام[3] وقد اجتمعوا عنده فلامها فقالت: وهل أرى إلا جذام فوالله ما أحب الحلال منهم فكيف بالحرام وقالت تهجوه:

بكى الخز من روح وأنكر جلده وعجت عجيجاً من جذام المطارفِ
وقال العبا قد كنت حيناً لباسكم وأكسية كردية وقطائفِ

فقال روح:

إن يبك منا يبك ممن يهنينا وإن يهوكم يهوى اللئام المقارقا

واجتمعت يوماً بمجلس فصارت تهزأ به وتضحك عليه ووقعت بينهما مناظرة كان البادئ فيها هو بقوله:

---

(١) هو روح بن زنباع بن روح بن سلامة الجذامي، أبو زرعة، أمير فلسطين، سيد اليمانية في الشام وقائدها وخطيبها وشجاعها. قيل: له صحبة. كان عبد الملك بن مروان يقول: جمع روح طاعة أهل الشام ودهاء أهل العراق وفقه أهل الحجاز. مات سنة ٨٤ هـ/ ٧٠٣ م.

(٢) هو عمر بن شبة واسمه زيد بن عبيدة بن ريطة النميري البصري، أبو زيد، شاعر، راوية مؤرّخ، حافظ للحديث، من أهل البصرة. توفي بسامرّاء.

(٣) بنو جذام: بضم الجيم، بطن من كهلان من القحطانية، وهم بنو جذام بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان. والجذام في الأصل اسم للداء المعروف فيحتمل أن الاسم منقول عنه، ويحتمل أنه مأخوذ من الجذم وهو القطع، وكان لجذام من الولد حرام، وجشم. قال الحمداني: جذام أول من سكن مصر من العرب حين جاء مع عمر بن العاص.

Marfat.com

أثنـي علـيّ بمـا علمـت فـإننـي مثـنٍ عليـك لبئـس حشـو المنطـقِ

فقالت:

أثنـي عليـك بـأن بـاعـك ضيـق وبـأن أصلـك مـن جـذام ملصـقِ

فقال:

أثنـي علـيّ بمـا علمـت فـإننـي مثـنٍ عليـك بمثـل ريـح الجـوربِ

فقالت:

فثنـاؤنـا شـر الثنـاء عليكـم أسـوأ وأنتـن مـن سـلاح الثعلـبِ

فسكت روح عند ذلك فقالت هي:

وهـل أنـا إلا مهـرة عـربيـة سليلـة أفـراس تحللهـا بغـلُ
فإن أنتجت مهراً كريماً فبالحرا وإن يك إقرافاً فما أنجب الفحلُ

فقال روح:

فمـا بـال مهـر رائـع عـرضـت لـه أتـان فبـالـت عنـد جحفلـه البغـلُ
إذا هـو ولَّـى جـانبـاً ربخـت لـه كما ربخت قمراء في دمث السهلُ

وقالت فيه أيضاً:

سميت روحاً وأنت الغم قد علموا لا روّح الله عـن روح بـن زنبـاعِ
لا روّح الله عمـن ليـس يمنعنـا مـال رغيـب وبعـل غيـر ممنـاعِ

فقال:

كبـائـع جـونـة نجـل مخـاصـرهـا دبـابـة شثنـة الكفيـن خِنْبـاعِ[1]

وقال فيها ـ وقد دخل عليها وهي في غاية الزينة والطيب ـ:

تكحـل عينيـك بـرد العشـى كـأنـك مـومسـة زانيَـهْ
وآيـة ذلـك بعـد الخفـوق تغلـف رأسـك بـالغـاليَـهْ
وإن بنيـك لـريـب الـزمـا ن أمسـت رقـابهـم خـاليَـهْ
فلـو كـان أوس حـاضـراً لقـال لهـم إن ذا مـاليَـهْ

وأوس رجل من جذام يقال: إنه استودع روحاً مالاً فلم يرده عليه، فقال روح:

إن يكـن الخلـع مـن بـالكـم فليـس الخـلاعـة مـن بـاليَـهْ

---

(١) خِنْباع: مَشَقٌّ ما بين الشاربين والهُنَيَّة المتدلية وسط الشفّة العليا. [القاموس المحيط، مادة: خمع].

Marfat.com

وإن كـان مـن قـد مضـى مثلكـم فـأفِ وتـفِ علـى المـاضيَـهْ
ومـا إن يـرى الله فـاستبقينـ ـه مـن ذات بعـل ومـن جاريَـهْ
شبيهـاً بـك اليـوم فيمـن بقـي ولـو كـان فـي الأعصـر الخـاليَـهْ
فبعـداً لمحيـاك إذ مـا حييـت وبعـداً لأعظمـك البـاليَـهْ

وقالت له حميدة يوماً ـ وكان أسود ضخماً: كيف تسود وفيك ثلاث خصال؟ أنت من جذام، وأنت جبان، وأنت غيور.

فقال: أما جذام: فأنا في أرومتها وبحسب الرجل أن يكون في أرومة قومه، وأما الجبن: فإنما لي نفس واحدة ولو كان لي نفسان لجدت بإحداهما. وأما الغيرة: فهو أمر لا أحب أن أشارك فيه، وإن [المرء][1] لحقيق بالغيرة على المرأة مثلك الحمقاء الورهاء لا يأمن أن تأتي بولد من غيره فتقدمه في حجره. وكان روح يتنازع معها يوماً بمثل هذه المنافسات فظهرت عليه فلم يكن يسعه إلا أن قال: اللهم إن بقيت بعدي فابتلها ببعل يلطم وجهها ويملأ حجرها قيئاً، فتزوجها بعده الفيض بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل وكان شاباً جميلاً يصيب من الشراب فأحبته فكان ربما أصاب من الشراب مسكراً فيلطم وجهها ويقيء في حجرها فتقول: يرحم الله أبا زرعة قد أجيبت دعوته فيّ.

وكان السبب في زواجها فيضاً هو أنها لما خلعت من روح بن زنباع بقيت زمناً عزباً لا يقدم عليها أحد من أقرانها نظراً لما اشتهرت به من عزة نفسها على الرجال، وبما أن آدابها كانت مشهورة في ذلك الزمان كان الأدباء يتمنون الاقتران بها ويمنعهم من ذلك تسلط لسانها على أزواجها إلى أن قيض الله لها فيض بن محمد بن الحكم المذكور ولجماله وأدبه تزوجت به، ولم تعلم تهتكه وخلاعته، ولما اتصلت به رأت منه رجلاً بخلاف ما رأت من الرجال من سوء خلق وزيادة تهتك وإدمان على شرب المسكرات حتى صار يهينها ويلطم وجهها ويقيء في حجرها، وهناك هجرته وقلته وقالت فيه الأشعار الهجائية وأظهرت مساويه حتى صار عبرة لغيره. ومن أشعارها فيه قولها:

سميت فيضاً وما شيئاً تفيض به إلا سـلاحـك بيـن البـاب والـدار
فتلـك دعـوة روح الخيـر أعـرفهـا سقى الإله صداه الأوطف الساري

وقالت:

ألا يـا فيـض كنـت أراك فيضـاً فـلا فيضـاً أصبـت ولا فـراتـاً

(١) وردت في الأصل «المرأ»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

Marfat.com

وقالت:

وليس فيض بفياض العطاء لنا ... لكنّ فيضا لنا بالقيء فياضُ
ليث الليوث علينا باسل شرس ... وفي الحروب هيوب الصدر حياضُ

وولدت من فيض ابنة فتزوجها الحجاج بن يوسف[١]، وقد كان قبلها عند الحجاج أم أبان بنت النعمان بن بشير فقالت حميدة للحجاج:

إذا تذكرت نكاح الحجاج ... من النهار أو من الليل الداجِ
فاضت له العين بدمع ثجاج ... وأشعل القلب بوجد وهاجِ
لو كان نعمان قتيل الأعلاج ... مستوي الشخص صحيح الأوداجِ
لكنت منها بمكان النساج
قد كنت أرجو بعض ما يرجو الراج ... أن تنكحيه ملكاً أو ذا تاجِ

ثم قدمت حميدة بعد ذلك على ابنتها زائرة فقال لها الحجاج: يا حميدة، إني كنت أتحمل مزاحك مدة وأما اليوم فإني بالعراق وهم قوم سوء فإياك فقالت: سأكف حتى أرحل، وكانت وفاة حميدة بالشام بآخر ولاية عبد الملك بن مروان.

حنة ألبرت

هي «دو ألبرت» ملكة نواره من أعمال فرنسا. ولدت في ناحية «بو» سنة ١٥٢٨ [م]، وتوفيت في باريس سنة ١٥٧٢ [م] كانت ابنة وحيدة لـ «هنري الثاني»[٢] ملك نواره من زوجته «مرغريتا دو انفوليم» شقيقة «فرنسوا الأول»[٣] زفت في ١٥ تموز (يوليو) سنة ١٥٤٠ [م] ولها من العمر ١٢ سنة.

---

(١) هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، أبو محمد، قائد، داهية، سفّاك، خطيب. ولد سنة ٤٠ هـ/ ٦٦٠ م نشأ في الطائف، وانتقل إلى الشام ولحق بروح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان فكان في عديد شرطته، ثم ما زال يظهر حتى قلّدهُ عبد الملك أمر عسكره، وأمره بقتال عبد اللّه بن الزبير، فزحف إلى الحجاز بجيش كبير وقتل عبد اللّه وفرّق جموعه فولاّه عبد الملك مكة والمدينة والطائف. ثم أضاف إليها العراق، والثورة قائمة فيه، فانصرف إلى بغداد في ثمانية أو تسعة رجال على النجائب، فقمع الثورة وثبتت له الإمارة عشرين سنة. كان سفّاكاً سفّاحاً باتفاق معظم المؤرخين.

(٢) هنري الثاني: ملك من ملوك فرنسا. ولد سنة ١٥١٩ م، تولى الحكم سنة ١٥٤٧ م، وحارب كارل الخامس، وعقد صلح قوسيل سنة ١٥٥٦ م، مات في مباراة سنة ١٥٥٩ م.

(٣) فرنسوا الأول: ملك من ملوك فرنسا ولد سنة ١٤٩٤ م تولى الحكم سنة ١٥١٥ م، حارب كارل الخامس إمبراطور إسبانيا والنمسا. أقرّ الفرنسية لغة البلاد الرسمية عوضاً عن اللاتينية. أبرم معاهدة الامتيازات الأجنبية مع السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٣٦ م.

Marfat.com

تزوجها «غيليوم» دوق «كليق» و«جوليه» وكان ذلك على غير إرادتها وإرادة أبويها فأبطل البابا «بولس الثالث» هذا الزواج.

وسنة ١٥٤٨ [م] تزوجت بـ «أنتوان دو بوربون» دوق «قندوم» وجلست معه على تخت الملك في «نواره السفلى» و«بيرن» عند وفاة أبيها. وكانت مشهورة بجمالها وحذقها، واتبعت مذهب «كلڤينوس»[1]. وبعد وفاة زوجها سنة ١٥٦٢ [م] حافظت على أملاكها ولم تبالِ بدسائس إسبانيا ورومية ووعيدهما.

وسنة ١٥٦٧ [م] أعلنت أن مذهب «كلڤينوس» هو المذهب القانوني في مملكتها، وانضمت سنة ١٥٦٩ [م] مع ولديها «هنري» و«كاترينا» إلى كولوني في «لاروشيل» وكانت في رياسة فرقة من اللهو الـ «هوغنو» وبعد أن قتل «برنس كوندي» كانت تعتبر سنداً وحيداً للبروتستانت، وقد بالغ «أوبيني» وغيره من المؤلفين في مديحها بما كان لها من السطوة على الجنود بـ «هوغنو» وسلمت رغماً عنها بزواج ابنها «هنري» (هنري الرابع ملك فرنسا) بـ «مرغرنيا دو ڤالو» وكان قد سعى في ذلك الزواج كل من «كترنياد» و«مديشي» و«شارل التاسع». وفي تلك الأثناء دعيت إلى البلاط الفرنسوي، فتوفيت فيه وذلك قبل حدوث مذبحة «سنت برتلي» بشهرين وظن جماعة أن سبب موتها سم دسته إليها «كترنياد» و«مديشي» والأرجح أنه أصابها حمى خبيثة قضت بها نحبها ولم تشهد زواج ابنها وكانت كلفت بالآداب والمعارف فبرعت فيها كثيراً ولها تآليف في الشعر والنثر وطبع بالآي بعض أشعارها.

حنة أليصابات زوجة ألنبرو

ولدت نحو سنة ١٨٠٧ [م]. وهي ابنة الأميرال «دغبي» تزوّجت بأرل «النبرو» سنة ١٨٢٤ [م].

وسنة ١٨٣٠ [م] هجرت زوجها وهربت إلى إنكلترا مع البرنس «فلكس شورنيرغ» وكان حينئذٍ سفيراً للنمسا في إنلكترا فصدر قرار من المجلس العالي الإنكليزي بطلاقها من زوجها ولكن لم يدم لها حب عاشقها لأنه تركها وشأنها بعد مدة وجيزة غير أن المجلس العالي عين لها بقراره الصادر بطلاقها مرتباً سنوياً وافراً، فصرفت عدة سنين في إيطاليا وغيرها في رغد وانشراح وتزوجت «كنتا» يونانياً، ثم طلقت وصارت إلى الشرق فجعلت تجول فيه. قيل: وبينما كانت

---

(١) كلڤينوس: أو كَلڤين واسمه يوحنا ولد سنة ١٥٠٩ م وهو مصلح فرنسي. نشر في فرنسا وسويسرا مذهباً حمل اسمه. أنشأ في جنيف حكومة تيوقراطية (أي حكومة من رجال الدين). اشتهر بكتابه: «الأسس المسيحية».

Marfat.com

سائرة من تدمر إلى دمشق رافقها شيخ من البدو اسمه مچول مع قوم من عربه لحراستها فأغار عليهم وهم في الطريق جماعة من البدو قاصدين غزوهم فصدهم مچول ببسالة لا مزيد عليها فأحبته لبسالته وأمانته، وطرح نفسه في الخطر حباً فيها ومدافعة عنها فاتخذته زوجاً لها على طريقة البدو وبقيت هي على مذهبها تذهب إلى الكنيسة وهو مذهبه يذهب إلى الجامع، ثم اشترت في دمشق بستاناً بنت فيه بيتاً ظريفاً تصرف فيه بعض السنة بعيشة حضرية.

وأما البعض الآخر فتصرفه في بيت من الشعر لزوجها المذكور بين عربه بعيشة مرضية (وذكر مستر «يريم» في رحلته المعنونة بما ترجمته للسكنى في الخيمة بالأرض المقدسة) إذ زارها سنة ١٨٥٥ [م]، وقد طبع تلك الرحلة في «نيوبرك» من أميركا سنة ١٨٥٧ [م]، وبها تفاصيل لا محل لها هنا ويقال: إنها كتبت سيرتها بيدها ولا بد أن الذين وقفوا على خبرها يميلون إلى مطالعتها.

حنة إسكوخاتون

إنكليزية من «كنتيه لتلكن» أحرقت في «سمتفلد» في ١٢ تموز (يوليو) سنة ١٥٤٦ [م] كانت ذات عقل ثاقب وتعلمت الكتاب المقدس، ثم انحازت إلى «البروتستانت»، وكان زوجها «كيم» من أشد الناس تمسكاً بالمذهب الكاثوليكي فطردها من بيته، فسارت إلى لندن لتطلب إلى الحكومة أن تقرر انفصالها عنه فأجابتها الملكة «كترنيابار» وكثير من خواتين البلاط الملكي إلا أن نكرانها حضور المسيح بالجسد في الافتخار حمل الحكومة على القبض عليها وإيداعها السجن، وذكر «برنت» أنها بعد عذاب مبرح كتبت محرراً نقضت فيه مقالها الأول ولكن ذلك لم ينجها لأنها حبست مرة ثانية في «بنوغات» وطلب إليها أن تشهر أسماء مكاتبيها في البلاط الملكي فلم تفعل مع أنها كانت تعذب على مرأى من حامل أختام الدولة، ولم تستطع الوقوف بعد ذلك العذاب فوضعت في كرسي وطرحت في النار فكان صبرها على عذابها هذا وغيره يذهل الناظرين إليها.

حنة ملكة بريطانيا وإرلانده

هي آخر من جلس على عرش إنكلترا من عائلة «ستورس». ولدت سنة ١٦٦٤ [م] مسيحية، وتوفيت سنة ١٧١٤ [م] وهي ثاني بنت لـ «چمس الثاني» دوق بورك من امرأته الأولى حنة «هترنيا كلارنيدن» الشهرة، وكان ولداها كاثوليكيين، وأما هي فتربت على مبادئ كنيسة إنكلترا الأسقفية، وتزوّجت سنة ١٦٨٣ [م] بالبرنس «جورج» أخي «كرستيان الخامس» ملك الدنمرك وجعلتها دوقة «مرلبورد» التي كانت تحبها محبة شديدة واتحدت مع الحسب

Marfat.com

الفائز فكفل لها ولأولادها تاج إنكلترا بأنه لم يكن لـ «وليم» و«ماري» عقب، فولدت ١٧ ولداً ولكن ماتوا في سن الطفولية إلا أكبرهم فتوفي وله من العمر إحدى عشرة سنة، فلما توفي «وليم» جلست على عرش إنكلترا وذلك سنة ١٧٠٢ [م].

ومع ضعف عزمها تبعت سياسة سلفها في كبح مطامع «لويس الرابع عشر»(١) فتجددت يوم تتويجها المعاهدة الثلاثية بين إنكلترا وهولاندا وألمانيا ضد فرنسا، وأعظم الحوادث السياسية التي زينت ملك حنة هو اتحاد إنكلترا وسكوتسيا وذلك في أيار سنة ١٧٠٧ [م].

وسنة ١٧١٠ [م] أخذت شهرة «مرلبورد» في الانحطاط بعد أن بقي ثماني سنوات في أعلى درجة من الاعتبار والحب عند الملكة، والشعب والمجلس العالي وخسرت امرأته فقوي حزب السوريين الذين كان منهم في ذلك الوقت أقدر رجال السياسة وأحذق الكتّاب ووكل حزب الهويفر قبل سقوطه بمقاومتهم اللاهوتي «ساسيڤمر» بل لأنه صرح في وعظه بأن حق الملوك هو من الله وانتصر السوريون في الانتخابات الجديدة، فأقيمت وزارة جديدة تحت رياسة «هرلي»، وصارت «ماشام» ابنة أحد تجار لندن نديمة للملكة، ومدبرة لبلاطها، فعزموا على عقد الصلح وأهملوا الانتفاع بنتائج الحرب وتركوا حلفاء إكلترا في معاهدة «أسرخت» التي وقّع عليها في «أنيسيان»(٢) سنة ١٧١٣ [م]، ولم تكن الوزارة الجديدة متفقة، وكان قد تقرر أن يكون تاجر إنكلترا بعد موت حنة بدون عقب لسوقيا أكبر بنات «جمس الأول»، وحاول جماعة أن يرروا ذلك لأخيها ابن «جيمس الثاني» فساءت الملكة أعمال وزرائها واختلافاتهم فماتت فجأة، وإذا كان موتها قبل أن أكمل «بلولڤبروك» تدابيره نشأ عنه تقرير سلالته بروتستنتينة لإكلترا بسلام ولم تكن حنة شديدة الحزم، ولكنها كانت وديعة وامتاز ملكها بحروب متوالية انتصرت فيها إنكلترا وقد أطلق على أيام ملكها اسم الأعصر الأوغسطي للآداب [الإنكليزية](٣) وتزين ذلك العصر بكتابات أديبون وبوب وسوڤف وريفوار. وجرائد مشهورة بتلك الأيام.

---

(١) لويس الرابع عشر: ملك من ملوك فرنسا ولد سنة ١٦٣٨ م وهو ابن لويس الثالث عشر وحنّة النمساوية. بدأ حكمه الشخصي بعد وفاة الكردينال مازاران سنة ١٦٦١ م فأبعد فوكه. عمل على إقرار النظام والأمن. أعلن الحرب على هولندا وإسبانيا. اصطدم بالبابوية. بلغت فرنسا في أيامه أوجّها في حقول الأدب، والفن، والعلم، فكان عصره عصرها الذهبي. أقام بلاطه في قصر ڤرساي. مات سنة ١٧١٥ م.

(٢) يعني شهر نيسان.

(٣) وردت في الأصل «الإنكليزي»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

Marfat.com

حنة النمساوية ملكة فرنسا

هي ابنة «فيليب الثالث» ملك إسبانيا ولدت سنة ١٦٠١ [م]، وتوفيت سنة ١٦٦٦ [م]، تزوجها «لويس الثالث عشر»[١] سنة ١٦١٥ [م] فبقيت ٢٢ سنة لا تلد.

وروى بعض المؤرخين أنه عندما هجرها زوجها «لويس» اخترعت إطاراً كانت تلبسه تحت ثيابها لتستر به حملها عن الملك إلى أن ولدت ولداً ذكراً، وكثيراً ما كان زوجها يسيء معاملتها ويعذبها.

ويقال: إن الكردينال «رشليو» كان يهيج الملك إلى كرهها ومقاومتها، فاتفقت مع حماتها «ماري دي موليسي» على عزله، ولكن هبط مسعاهما لأن «ريشليو» كان ذا سطوة وحذق لا مزيد عليهما فاتهمها بأنها كانت متفقة مع أخيها ملك إسبانيا ودوق «لوران» وإنكلترا وكل أعداء فرنسا الخائنين في البلاط على ما هوضد صالح فرنسا، وضد مصلحة الكردينال المذكور وإنها كانت تساعد الشاب التعيس «هنري روتلبر فيدبرنس كاني» في مؤامرته، وتنقاد إليه انقياد أعمى.

فأمر الملك بتفتيش عرق قصر المقال «دوغراس» الذي كانت فيه مع حماتها وكان الملك قد حكم عليها بالخروج من البلاط فخرجتِ حنة أيضاً من القصر ورجعت إلى البلاط الملكي في اللوفر حيث كانت تحتمل عضب زوجها وتضادده، ثم شاع بعد ذلك حملها «بلويس الرابع عشر» سنة ١٦٣٨ [م].

وولدت سنة ١٦٤٠ [م]، «فيليب» دوق «دورليان»، وبعد موت زوجها «لويس الثالث عشر» سنة ١٦٤٣ [م]، أقامها البرلمان رغماً عن إرادته نائبة عن «لويس الرابع عشر» مدة قصره، فكان الكردينال «مازارين»[٢] يحكم باسمها. ويقال: إنه كان متزوجاً بها سراً فتزينت الأيام الأولى من نيابتها بانتصارات البرنس «كوندي» ولكن رفعها لمقام الكردينال «فراريل» وجعلته رئيساً للوزارة هيج بعض عائلة كوندي وبعض عيال من السلالة الملكية وآخرين من عيال فرنسا الشريفة، فنشأت عن ذلك الحرب الأهلية التي تدعى حرب الفرنده (أي حرب القلاع) ومع ذلك كانت تدبر ملكها بإدارة جيدة.

---

(١) لويس الثالث عشر: ملك من ملوك فرنسا، والد لويس الرابع عشر، وزوج حنّة.

(٢) مازاران: أو مازارين وهو جول مازارين (Mazarin) ولد سنة ١٦٠٢ م رجل دولة فرنسي أصبح كاردينالاً بمساعي ريشيليو، وزير حنّة النمساوية ملكة فرنسا سنة ١٦٤٣ م حتى بلوغ لويس الرابع عشر. أنهى حرب الثلاثين سنة بمعاهدة ڤستفاليا سنة ١٦٤٨ م. مات سنة ١٦٦١ م.

Marfat.com

حنة يولين ملكة إنكلترا

وهي إحدى نساء «هري الثامن» قطع رأسها في ١٩ أيار سنة ١٥٣٦ [م]، وأما تاريخ ولادتها فمجهول وبعضهم قال: إنها ولدت سنة ١٥٠٠ [م]، وآخرون سنة ١٥٠٧ [م]. وهي ابنة الأرل «توماس بولن» كانت من السيدات اللواتي رافقن «ماري» شقيقة «هنري الثامن» إلى فرنسا عند تزوجها «بلويس الثاني عشر» سنة ١٥١٤ [م]. ولما رجعت ماري بعد موت زوجها إلى إنكلترا بقيت حنة في فرنسا عند «كلور» زوجة «فرنسيس الأول»، ثم دعيت إلى إنكلترا سنة ١٥٢٢ [م] أو سنة ١٥٢٧ [م]، ودخلت في خدمة «كاترين» الأراغونية، وقد ظهر منها وهي هناك من الحذاقة والهمة والظرف ما لا مزيد عليه ، وأما ما قيل أمن أن سلوكها في البلاط الفرنسوي كان محلاً للشبهة، فلم يزل من دون دليل كافٍ ولم يمضِ إلا زمن قليل حتى أحبها «هنري الثامن» فألزم الكردينال «ولسي» أن يتوسط في فسخ خطبتها من اللورد «برسي» ابن أرل «نرثمدلند»، وكانت تزداد محبة «هنري» لها وتقل ثقته بصحة تزوّجه بـ«كاترين» الأراغونية، فصرح في أواخر سنة ١٥٢٧ [م] الكردينال «ولسي» بقصده أن يتزوّج بحنة حالما طلق «كاترين» فغلبت إرادة «هنري» ورغبته الشديدة مقاومة الكردينال «ولسي» على أن حنة كانت تحسب الكردينال ـ المذكور ـ ضدها فقاومته إلى أن اقتنعت من الملك بعزله فتزوّج «هنري» بحنة في «هويتهل» في ٢٥ كانون الثاني سنة ١٥٣٣ [م] بعد هياج استمر خمس سنين نشأ عن طلاق «كاترين».

وكانت قد صرفت ثلاث سنوات في القصر قبل تزوّجه بها فكانت في تلك المدة دائماً مع «هنري» وجعلها قبل تزوّجه بها ببضعة أشهر مركيزة «بمبروك» وعند ذلك أحيلت مسألة طلاق «كاترين» إلى مجلس «كانتريبري» [الأكليريكي][1] وحكم «كرانمر» في أوّل شهر أيار من تلك السنة بفساد تزوج الملك بـ«كاترين» من أوّله وأن حنة هي امرأته الشرعية.

وفي أوّل حزيران أقيم تتويجها باحتفال عظيم ثم بعد ذلك بثلاثة أشهر ولدت البرنسيس «أليصابات» التي تزين التاريخ الإنكليزي فيما بعد بأخبار ملكها، ولما ابتدأ «هنري» بكرهها ويميل إلى «چين سيمور» لم يكن أميراً صعب الحكم على حنة بارتكاب أمور منكرة، فأقيمت لجنة من اللوردن كان والدها من جملتهم للفحص عن سيرتها وذلك سنة ١٥٣٦ [م]، فقررت تلك اللجنة أنها أتت المنكرات مع «بريرتن» و«نرس»و«رستن» من الحشم الخاص وسميت صاحب موسيقى الملك حتى مع أخيها اللورد «رتشفرد» فأرسل الملك كل المتهمين إلى

---

(١) وردت في الأصل «الأكليبريكي»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

Marfat.com

السجن وحوكمت حنة أمام لجنة من الأمراء تحت رياسة عمها دوق «ترفلك» فثبت أنها مذنبة، وكان ممن أثبته إقرار سميتن مع أنها أقامت الحجة مع باقي المسجونين على براءتها وحكم بفساد تزوّجها لـ«هنري الثامن» وأبطله كما حكم بفساد تزوّج «كاترين» فكانت تقضي ساعات سجنها بين السكينة والقلق وكان تصرفها عند قطع رأسها بجلال ملكي، وأما «سميتن» فعلق وقتل خنقاً. وأما الأربعة الباقون المتهمون فقطعت رؤوسهم.

حنة البريطانية ملكة فرنسا

ولدت في «تنست» سنة ١٤٧٦ [م]. وتوفيت في قلعة «بلوى» سنة ١٥١٤ [م]. كانت ابنة «فرانسيس الثامن» دوق بريطانية وولية لعهده. أعطاها أبوها دوقية بريطانية مهراً لما تزوّجت «شارل الثامن» ابن «لويس الحادي عشر» سنة ١٤٩١ [م]، فصارت الدوقية المذكورة من جملة أملاك فرنسا، وكان قد خطبها قبل ذلك الملك «مكسيميليان»[1] من «أستوريا» ولكن حلّ هذه الخطبة «لويس الحادي عشر» وزوّجها لابنه ووسع بذل في ذلك أملاكه، وتزوجت بعد موت «شارل الثامن» بخلفه «لويس الثاني عشر» سنة ١٤٩٨ [م]. وكان لها سطوة قوية عليه وعلى كل رجال البلاط فكانت قدوة للفضيلة والاجتهاد في أشغالها، وكانت تدير المملكة حق الإدارة مدة غياب زوجها في الحروب التي قام بها ضد إيطاليا.

حنة ملكة نابولي

وهي ابنة «شارل» دوق «كليريا» وحفيدة «روبرت أنجو». ولدت سنة ١٣٢٧ [م]، وقتلت في حصن «مورو» في ولاية «باسيليكانا» في ٢٢ أيار سنة ١٣٨٢ [م]، كان أبوها يحاول أن يجعل اتحاداً بين فرعي عائلة «أنجو» التي كانت تدعى «بتخت نابلي» لتزويجه حنة هذه في سن سبع سنوات بابن عمها «أندرو» المجزي إلا أن تدبيره لم يأت بالغرض المقصود لأنه لما كبر الزوجان كان يبغض أحدهما الآخر بغضاً شديداً، وكان الحزبان المتضادان من أقاربهما يهيجان دائماً تلك الحاسة، وتوفي الدوق «شارل» قبل أبيه «روبرت» ولذلك خلفت حنة أباها عند موته سنة ١٣٤٣ [م]، فانقسم بلاطها بسرعة إلى حزبين حزب معها وحزب مع زوجها فبقي الخصام مدة سنتين إلى أن انتهت سنة ١٣٤٥ [م]، بأن قتل الملك قوم من الثائرين أخرجوه بحيلة من مخدعه وعلقوه في ممشى من مماشي القصر وقد اتهمت حنة بالاشتراك في تلك المؤامرة والسعي، وتدبير كل ما يتعلق بها. والظاهر أنها غير بريئة من هذه التهمة.

---

(١) مكسيميليان: إمبراطور جرماني هو مكسيميليان الأول ولد سنة ١٤٩٣ م تزوج ماري ابنة دوق بورغونيا، فربط هولندا وبلجيكا بالبيت النمساوي. مات سنة ١٥١٩ م.

Marfat.com

وأما ما قيل من أنها كانت تلبس الحبل الذهبي الذي خنق به زوجها «أندرو» فلا يخلو من المبالغة، ثم بعد وفاة زوجها بقليل تزوّجت من دون حل من البابا «لويس دو ثارنتو» وهو أحد أقاربها، ويظن أنه كان عشيقها وإذا كان «لويس» الكبير، صاحب «هنكريا» يطلب فرصة للأخذ بثأر أخيه اتخذ ذلك حجة وأغار سنة ١٣٤٧ [م]، على الأراضي النابولية وإذ كانت حنة غير مستعدة للدفاع هربت إلى «أڤبنيون» التي كانت حينئذٍ موطناً للتابوت وبينما هي هناك إذ أحضرت أمام مجلس حر أقرت بكونها قاتلة زوجها فتخلصت من القصاص بقبولها بتسليم «أڤبنيون» إلى الكرسي المقدّس ملكاً مؤبداً بشرط دفع ثمانين ألف فلوريني ذهباً وإعلان البابا رسمياً بكونها برئت وتثبت زواجها الحديث.

وفي تلك الأثناء رجع ملك «هنكريا» عن «نابلي» تاركاً فيها حامية قوية خرجت منها بعد قليل بتوسط البابا، ثم إن «لويس دو ثارنتو» توفي سنة ١٣٦٢ [م]، فتزوّجت حنة سنة ١٣٦٣ [م]، «بچمسيس» الأراغوني ملك «نيورقه» إلا أنه لم يمض إلا قليل حتى تركها ورجع إلى بيته في إسبانيا وتوفي هناك سنة ١٣٧٦ [م]، فتزوّجت بزوج رابع وهو «أونو برنسويك» فغاظت بذلك الدوق «شارك دورنسوا» الذي كانت زوجته تدَّعي وراثة التخت.

وسنة ١٣٧٨ [م]، لما اختلف البابوان المتناظران وهما «إكليمنفس السابع»[1] و«أوريانوس السادس» تحزبت حنة «لإكليمنفس» فغاظت بذلك «أوريانوس» فاستحضر حالاً الدوق «دورنسوا» وأعلن أن له الحق في تخت «نابلي»، أما حنة فاتباعاً لرأي «إكليمنفس» كتبت وصية مخصوصة جعلت بموجبها ابن ملك فرنسا الثاني وارثاً لها ونزعت بالكلية حق الملك عن الدوق وزوجته فاتخذ «شارل دورنسوا» هذه الحوادث حجة كان يطلبها بعد زمان طويل فأغار على بلاد حنة ولم يصادف من الشعب إلا مقاومة قليلة وتقدم إلى «نابلي» وأسر الملكة وأرسلها تحت الحفظ لـ «أمور» فكانت هناك تحت رحمة ملك «هنكاريا» فأمر بقتلها حالاً، فقطعت بالوسائد أخذاً بثأر «أندرو» على الطريقة التي قتلته بها.

حنة ملكة نابلي ابنة شارل دورتو

ولدت نحو سنة ١٣٧٠ [م]، وتوفيت سنة ١٤٣٥ [م]. تزوجت وهي صغيرة بـ «وليم» ملك «أستوريا» وترملت بعد ذلك عدة سنين، وخلفت أخاها «لاوس لاس» سنة ١٤١٤ [م] بعد موت زوجها وكان بينها وبين «كنت سازونفلوا لوبو» اتصال سري وقد حافظت على ذلك

---

(١) إكليمنفس السابع: هو إكليمنفس (Clèment) أحد البابوات ١٥٢٣ ـ ١٥٣٤ م، قاوم كارلوس الخامس، ولم يسمح لهنري الثامن ملك إنكلترا بالطلاق.

Marfat.com

الاتصال بعد موت زوجها ولم تحاول سترها فإنها وجهت إلى عشيقها ـ المذكور ـ أعلى المأموريات وجعلت مصالح المملكة بيده فعلاً إلا أن أصدقاءها أقنعوها أخيراً بأن تتزوج ثانياً فاختارت «جاكوى دويورلون كنت لامرش» زوجاً لها إلا أن تزوجها لم يكن واسطة لتغير سيرتها ذات الخلاعة، فلما اطلع زوجها على خيانتها نظف البلاط من كل أصدقائها وقطع رأس عشيقها جهاراً وأرسلها إلى مكان منفرد.

ثم إنه صالحها بعد ذلك مصالحة ظاهرة إلا أنها حالما رجعت إلى مركزها في البلاط نجحت بحيلة في سجن زوجها في إحدى قلاع «نابلي»، ولم يخرج من ذلك السجن إلا بصعوبة، وعند خروجه خرج من البلاد ودخل ديراً في «برغونيا» حينئذٍ ابتدأت سلطة المقربين إليها في الرجوع إلى البلاد.

فكان تاريخ ملكها مدة بضع سنين عبارة عن حيل ومكائد وذلك مع بعض الشعب الذي لها في كل المملكة الذي نشأ عنه متأخرات دائمة في البلاط، وتوارث في البلاد، ومما زاد خصام الأحزاب قوّة النزاع الذي جرى بين «لويس الثالث أنجو» و«ألفونسو دو أراغون» اللذين كانا يدعيان حق الخلافة.

أما حنة فحكمت به أولاً لـ «ألفونسو» ثم عكست حكمها وعند وفاة «لويس الثالث» حكمت به لرجل آخر من بيت «أنجو» أما «ألفونسو» فقبض على صولجان الملك رغماً عن الوصية التي حرمته إياها.

حنة مورندي منزوليني

كانت أبرع نساء زمانها بفن التصاوير والتماثيل، لأنها أخذته عن زوجها «منزوليني» وكان ماهراً في التشريح والرسم والتصوير، وفي نقش الشمع لعمل التماثيل، ولكنه ضعيف الرأي عصبي المزاج سوداويه، وكانت زوجته على جانب عظيم من النباهة والفطنة فتعلمت منه عمل التماثيل الشمعية، وأتقنته غاية الإتقان، وكانت تساعده في أعماله.

وكان «منزوليني» ملازماً [لـ][1] «للي» المصوّر الشهير في أعماله ويساعده على أشغاله، فوسوس شيطان الظنون في أذني «منزوليني» وظن أن «للي» عازم على أن يستأثر بالاسم والشهرة من عمل تلك التماثيل ولا يبقى له اسم فيها، فعزم على تركه.

وكان «للي» دائماً يعترف بفضله ويقول: إنه لولا مساعدة «منزوليني» لم يستطع عمل تلك التماثيل، فلما رأت حنة خطأ زوجها عزمت أن تتعلم منه فن التشريح وتتم العمل الذي

---

(١) زيادة أثبتناها لسلامة المعنى واتّساق الكلام.

Marfat.com

أحجم عنه حفظاً لصيته فأجابها إلى طلبها لشدة تعلقه بها وعلمها هذا الفن فدرسته برغبة شديدة، وقرأت أحسن المصنفات فيه وشرحت الأجساد البشرية بيدها رغماً عما وجدته في نفسها من الكراهة الشديدة لذلك فإنها كثيراً ما كانت تمرض من رؤية الأجساد المشرحة ولكنها كانت تتغلب على ما بها من الضعف الطبيعي حتى أتقنت هذا الفن واكتشفت فيه اكتشافات كثيرة.

وفي غضون ذلك أنشأ أحد الأطباء مدرسة لتعليم فن الولادة وطلب إليها أن تصنع له أجنة من الشمع متفاوتة في النمو فصنعت له الأجنة المطلوبة على غاية الإتقان، ثم جعلت تقدم خطاباً في فن التشريح العلمي وتشريح المقابلة وأتقنتهما أشد الإتقان فذاع صيتها حتى عم أوروبا لغزارة معارفها وحسن أسلوبها في التعليم.

وفي سنة ١٧٥٥ [م] توفي زوجها عن ولدين صغيرين فحزنت عليه حزناً شديداً لأنها كانت تحبه حباً مفرطاً مع كثرة عيوبه ولكنها لم تنفك عن خدمة العلم.

وفي السنة الأولى من ترمّلها انتخبت عضواً في المجمع العلمي بـ«بولونيا» ثم في مجامع أخرى كثيرة وجعلتها حكومة «بولونية» أستاذة تشريح في مدرسة «بولونية» الطبية ولكن الانتظام في سلك هذه الجمعيات كان نفعه معنوياً لا مادياً لأنها كانت في حالة يرثى لها من الفقر، ولم تزد أجرتها في مدرسة الطب عن ثلثمائة فرنك في السنة، وكانت على جانب عظيم من الجمال، ولكنها كانت عفيفة النفس طاهرة السيرة والسريرة لأن العلم يعصم ذويه عن ارتكاب الدنايا.

وفي سنة ١٧٦٥ [م] طلبت من الحكومة أن تزيد راتبها وتجعله خمسمائة فرنك في السنة فلم تجبها إلى طلبها ولكن أحد أرباب الحكومة وهو الكونت «أنوزي» أباح لها أن تقيم في بيته آكلة شاربة بشرط أن تعطيه بدل ذلك كل كتبها واستحضاراتها التشريحية، فأقامت عنده لأن الفقر كان قد أذلها.

ولكن الكونت أكرم مثواها وأبقى لها كتبها واستحضاراتها فوهبها للمجمع العلمي حيث هي إلى يومنا وفيها الأجزاء الصغيرة من جسد الإنسان كالأوعية الشعرية التي ترى بالعين، وهي في غاية الضبط والإحكام.

وكانت كغيرها من مشاهير الأرض وإذا تعبت من عمل ترتاح بمزاولة آخر فصنعت أوقات الراحة تماثيل كثيرة لزوجها ولنفسها ولبعض أصدقائها ومثلت نفسها قابضة على الجمجمة وأخذت تشريح الدماغ ومما يكاد يفوق التصديق أن هذه المرأة الفاضلة التي توسلت إلى حكومة «بولونية» لكي يزيد راتبها السنوي مائتي فرنك ولم تجبها إلى طلبها عرض عليها

Marfat.com

مراراً كثيرة أن تأتي إلى مدينة «لوندرة» براتب كبير جداً، وأرسلت إمبراطورة روسيا تدعوها إليها ووعدتها أن تعطيها مهما طلبت وأرسلت مدرسة «ميلان» تدعوها إليها وفوّضت إليها أن تختار الأجرة التي تريدها وتشترط الشروط التي تختارها وطلبت منها مدارس أخرى نفس هذا الطلب.

فأجابت كل هؤلاء أنها تفضل البقاء في مدرسة «بولونية» على ما سواها وأرسلت لكل منهم مجموعاً كاملاً من مصنوعاتها التشريحية وشرحاً كافياً وافياً يغني عنها، ولبثت بين الدفاتر والمحابر والدرس والتدريس إلى أن وافتها المنية سنة ١٧٧٤ [م] ولها من العمر ٦٨ سنة.

Marfat.com

حرف الخـــاء

خديجة ابنة خويلد[1] بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب

أوّل امرأة تزوّجها النبي ﷺ في أوّل أمره بل أوّل إنسان أسلم لم يسلم قبلها أحد لا ذكر ولا أنثى. وقيل: كانت تسمى في الجاهلية الطاهرة وكنيت بأم هند وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم من بني عامر ابن لؤي تزوّجها عتيق بن عائذ المخزومي، فمات عنها وله منها ولد، ثم تزوّجها أبو هالة هند بن زرارة. وقيل: تزوّجها قبل عتيق فمات عنها أبو هالة وله منها هند.

والظاهر أنه خلف لها ثروة عظيمة وكانت هي ذات ثروة وافرة فكانت تستأجر الرجال للتجارة في مالها، وتضاربهم بشيء تجعله لهم منه وكانت قريش تكثر التجارة في بلاد الشام، فلما بلغها عن النبي ﷺ صدق الحديث وعظم الأمانة، وكرم الأخلاق أرسلت إليه ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً مع غلامها ميسرة وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره.

وفي رواية: أنه لما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وعشرين سنة قال له عمه أبو طالب: أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد علينا الزمان، وهذه عِير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيرها فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك، فبلغ ذلك خديجة فأرسلت إليه وقالت له: أنا أعطيك ضعف ما أعطي غيرك

---

(١) هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى، من قريش، زوجة رسول الله ﷺ، الأولى، وكانت أسنّ منه بخمس عشرة سنة، ولدت بمكة، نشأت في بيت شرف ويسار، ومات أبوها يوم الفجار. تزوجت بأبي هالة بن زرارة التميمي فمات عنها. كانت ذات مال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام، تستأجر الرجال وتدفع المال مضاربة. فلما بلغ رسول الله ﷺ، الخامسة والعشرين خرج في تجارية لها إلى سوق بصرى بحوران وعاد رابحاً، فدسّت له من عرض عليه الزواج بها، فأجاب، فارسلت إلى عمها، فحضر وتزوجها رسول الله ﷺ، قبل النبوة، فولدت له القاسم وكان يكنى به وعبد الله، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة. وكان بين كل ولدين سنة. وكانت تسترضع لهم وتهيّىء ذلك قبل أن تلد. ولما بعث رسول الله ﷺ، دعاها إلى الإسلام، فكانت أول من أسلم من الرجال والنساء. مكثا يصليان سراً إلى أن ظهرت الدعوة. أولاد النبي ﷺ كلّهم منها غير إبراهيم فهو ابن مارية.

Marfat.com

من قومك. وفي رواية أخرى: أن أبا طالب أتاها فقال لها: هل لك أن تستأجري محمداً فقد بلغنا أنك استأجرت فلاناً ببكرين ولسنا نرضى لمحمد دون أربع بكرات. فقالت: لو سألت ذلك لبعيد بغيض لفعلنا فكيف وقد سألت لحبيب قريب! فقال أبو طالب: هذا رزق ساقه الله إليك، فخرج النبي ﷺ مع غلامها ميسرة حتى بلغ بصرى[1] من الشام فنزل في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب فقال الراهب لميسرة: من هذا الرجل؟ فقال: رجل من قريش. فقال: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي، ثم باع الرسول واشترى وعاد وقد ربح ضعف ما كان يربح غيره، فلما كانوا بمرّ الظهران تقدم الرسول ﷺ وأخبر خديجة بالربح ثم قدم ميسرة وقد أحب النبي وأخبرها بما سمع من الراهب فأضعفت للنبي ﷺ ما وعدته وقد رأت ربحاً وافراً، وكانت امرأة حاذقة عاقلة شريفة من أوساط نساء قريش نسباً وأكثرهن مالاً وشرفاً، وكان كل من قومها يتمنى أن يتزوّج بها فلم يقدروا، فلما رأت ذلك من محمد ﷺ أرسلت وعرضت نفسها عليه فأتى مع أعمامه إلى أبيها خويلد وخطبها إليه.

ثم تزوّجها وكان عمره إذ ذاك ٢٥ سنة، وعمرها ٤٠ سنة. وقيل: خمسة وأربعون. وقيل: غير ذلك. فولدت له أولاده كلهم إلا إبراهيم. وقيل: الذي زوّجها عمها عمرو بن أسد لأن أباها مات قبل الفجار، ولما ابتدأ الوحي يبدو للنبي ﷺ بواسطة جبريل كان متخوفاً من ذلك، وأخبر خديجة فقالت: أبشر فلن يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

ثم أنطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل[2] وكان قد تنصَّر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل فأعلمته بشأنه وسألته خديجة بعد ذلك قائلة: يا ابن العم، اتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك. قال: نعم. فجاءه جبرائيل فأعلمها. فقالت: قم فاجلس على فخذي اليسرى، ففعل. فقالت: هل تراه. قال: نعم، قالت: فتحوّل على فخذي اليمنى، ففعل. فقالت: هل تراه. قال: نعم، فألقت خمارها. ثم قالت: هل تراه. فقال: لا، قالت: يا ابن العم أثبت وأبشر فإنه ملك وما هو بشيطان فكانت خديجة أول من آمن به وصدقه

ولما علمه جبريل الوضوء والصلاة أتى إلى خديجة وعلمها ذلك فتوضأت كوضوئه

---

(١) بُصْرَى: من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حَوْران، مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً. معجم البلدان، ج١/ص ٥٢٢.

(٢) هو ورقة بن نوفل بن أسد بن العُزّى، من قريش، حكيم جاهلي، اعتزل الأوثان قبل الإسلام، امتنع من أكل ذبائحها، تنصّر وقرأ كتب الأديان. كان يكتب اللغة العربية بالحرف العبراني. أدرك أوائل عصر النبوة، ولم يدرك الدعوة. هو ابن عم خديجة أم المؤمنين. سئل النبي ﷺ عن ورقة فقال: «يُبعث يوم القيامة أمّة وحده».

Marfat.com

وصلت كصلاته، وبقيت خديجة مع النبي ﷺ ٢٤ سنة وأشهراً، ولم يتزوّج عليها. وتوفيت قبل الهجرة بثلاث سنين بعد وفاة أبي طالب بثلاثة أيام. وقيل: بخمسة وخمسين يوماً وعمرها خمس وستون سنة ودفنت بالحجون وحزن النبي عليها ونزل في حفرتها وعظمت عليه المصيبة بوفاة أبي طالب، ثم وفاتها. وكانا من أشد المعضدين له وبعد ثلاث سنين من وفاتها تزوّج بعائشة. وقيل: بسودة بنت زمعة[1].

وروي أنه قال: «**أفضل نساء الجنة خديجة وفاطمة ومريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون**»[2]. وقيل: إن معاوية اشترى المنزل الذي كانت فيه خديجة وجعله مسجداً.

وقال ابن الوردي: لما بعث النبي ﷺ دخل على خديجة فحكى لها ما رأى فقالت: أبشر فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ثم أتت خديجة ابن عمها ورقة بن نوفل بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصي وكان شيخاً كبيراً، وكان قد عمي وتنصَّر في الجاهلية وكتب في التوراة والإنجيل، فلما ذكرت خديجة أمر جبريل وما رأى ميسرة فقال ورقة: إنه ليأتيه الناموس الأكبر، وهذا الناموس الذي أنزل على موسى يا ليتني أكون فيها جذعاً حين يخرجه قومه فأخبرت النبي بذلك فقال ﷺ: «**أوَ مخرجيّ هم؟**»[3]. فقالت: سألته ذلك قال: نعم لم يأتِ أحد قط بمثل ما جاء به إلا عودي وأوذي وإن يدركني يومه أنصره نصراً مؤزراً في ذلك، وإن رأيت أن ترسليه لي فأخبره عن ذلك. وقال أبياتاً منها:

ووصف من خديجة بعد وصف	فقد طال انتظاري يا خديجا
بما أخبرته من قول قس	من الرهبان يكره أن يعوجا
بأن محمداً سيسود يوماً	ويخصم من يكون له حجيجا
ويظهر في البلاد ضياء نور	يقيم به البرية أن تموجا
ألا يا ليتني إن كان ذاكم	شهدت وكنت أولهم ولوجا
رجائي في الذي كرهت قريش	ولو عجت بمنكبها عجيجا

ولما انتهى من أبياته قال: أرسلي لي محمداً فإني مخبره بما أريد ولما ذهب إليه النبي ﷺ أخبره ما قاله لخديجة، وأنشد:

يا للرجال لصرف الهم والقدر	وما لشيء قضاه الله من غيرِ

---

(١) ستأتي ترجمتها بحرف «السين» في هذا الكتاب.
(٢) أخرجه أحمد في المسند (١: ٣٢٢).
(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (١: ٤). ومسلم في الصحيح (الإيمان: ٢٥٢). وأحمد في المسند (٦: ٢٣٣).

Marfat.com

حتى خديجة تدعوني لأخبرها أمراً أراه سيأتي الناس عن أثرِ
فخبرتني بأمر قد سمعت به فيما مضى من قديم الناس والعصرِ
بأن أحمد يأتيه فيخبره جبريل إنك مبعوث إلى البشرِ
فقلت إنّ الذي ترجين ينجزه لك الإلٰه فرجي الخير وانتظري
وأرسليه لنا كيما نسائله عن أمره ما يرى في النوم والسهرِ
فقال حين أتانا منطقا عجبا يقف منه أعالي الجلد والشعرِ
إني رأيت أمين الله واجهني في صورة كملت من أهيب الصورِ
ثم استمرّ وكاد الخوف يذعرني مما يسلم ما حولي من الشجرِ

والله أعلم بالصواب.

خديجة ملكة جزائر زيبة المهل من بلاد الهند

وهي خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر بن السلطان صلاح الدين البنجالي وكان الملك لجدها، ثم لأبيها فلما مات أبوها ولي أخوها شهاب الدين وهو صغير السن فتزوّج الوزير عبد الله بن محمد الحضرمي أمه وتغلب عليه وهو الذي تزوّج أيضاً هذه الملكة خديجة بعد وفاة زوجها الوزير جمال الدين.

فلما بلغ شهاب الدين مبلغ الرجال أخرج ربيبه الوزير عبد الله ونفاه إلى جزائر السويد واستقل بالملك واستوزر أحد مواليه يسمى علي كلكلي، ثم عزله بعد ثلاثة أعوام ونفاه إلى السويد.

وكان يذكر عن السلطان شهاب الدين ـ المذكور ـ أنه يختلف إلى حرم أهل دولته وخواصه بالليل، فخلعوه لذلك ونفوه إلى إقليم «هلدتني» وبعثوا من قتله بها ولم يكن بقي من بيت الملك إلا أخواته خديجة الكبرى ومريم وفاطمة فقدموا خديجة ملكة في سنة ٧٤٠ للهجرة وكانت متزوجة بخطيبهم جمال الدين فصار وزيراً غالباً على الأمر وعين ولده محمداً للخطابة عوضاً عنه ولكن الأوامر إنما تنفذ باسم خديجة وهم يكتبون الأوامر في سعف النخل بحديدة معوجة شبه السكين ولا يكتبون في الكاغد إلا المصاحف، وكتب العلم. ويذكرها الخطيب يوم الجمعة وغيرها فيقول: اللهم انصر أمتك التي اخترتها على علم على العالمين وجعلتها رحمة لكافة المسلمين ألا وهي السلطانة خديجة بنت السلطان جلال الدين بن السلطان صلاح الدين، ومن عادتهم إذا قدم الغريب عليهم ومضى إلى الدار فلا بد له أن يستصحب ثوبين فيقدّم لجهة هذه السلطانة ويرمي بأحدهما، ثم يقدم لوزيرها وهو زوجها

Marfat.com

جمال الدين ويرمي بالثاني وعسكرها نحو ألف إنسان من الغرباء وبعضهم بلديون يأتون كل يوم إلى الدار فيخدمون وينصرفون ومرتبهم الأرز يعطى لهم من البندر في كل شهر، فإذا تم الشهر أتوا الدار وخدموا وقالوا للوزير: بلغ عنا الخدمة، واعلم بأنا أتينا نطلب مرتبنا فيأمر لهم به عند ذلك ويأتي أيضاً إلى الدار كل يوم القاضي وأرباب الخطب وهم الوزراء عندهم فيخدمون ويبلغ خدمتهم الفتيان وينصرفون وأن النساء ليفتخرن بمثل هذه الملكة حيث إنها كانت مالكة نحو ألفي جزيرة من جزائر الهنود التي تزيد عن الأربعين مليوناً من العالم وجميعها من المسلمين.

وبقيت مالكتها مدة من الزمن بالعدل والإنصاف وقد طال ملكها نحو الثلاثين سنة، وفي مدّتها كانت جزائرها في غاية الرونق والبهاء من كثرة الخيرات والأرزاق والأمن، وكان جميع الأهالي مكبين على الأشغال ملتفتين للأعمال، محافظين على جزائرهم من الأعداء، وبارتباطهم هذا كانوا مهابين لا يدخلون أحداً من عدوّهم ساحتهم وبقيت على ذلك إلى أن توفاها الله وأهل مملكتها راضون عنها آسفون عليها.

خرقاء بنت النعمان بن المنذر(١)

كانت أحسن نساء زمانها جمالاً، وأفصحهن مقالاً، وأكملهن عقلاً، وأعظمهن أدباً، وكانت معتنقة الديانة المسيحية ومتعبدة بها تعبداً زائداً وكانت إذا خرجت إلى بيعتها يفرش لها طريقها بالحرير والديباج مغشى بالخز والوشي، ثم تقبل في جواريها حتى تصل إلى بيعتها وترجع إلى منزلها وبقيت على ذلك وهي في غاية العز والإجلال إلى أن هلك النعمان فكلمها(٢) الزمان، فأنزلها من الرفعة إلى الذلة، ولما نزل سعد بن أبي وقاص(٣) بالقادسية أميراً عليها وهزم الله الفرس، وقتل رستم أتت خرقاء بنت النعمان في حفدة(٤) من قومها وجواريها وهن في زيها عليهن المسوح والمقطعات السود مترهبات تطلب صلته، فلما وقفن بين يديه أنكرهن سعد فقال: أيكنّ خرقاء؟ قالت: ها أنا ذا. قال: أنت خرقاء؟ قالت: نعم،

---

(١) هو النعمان بن عمرو بن المنذر الغساني، من ملوك آل غسان في الجاهلية، كانت له حَوْران والأردن وتلك الأنحاء. وليها نحو سنة ٢٩٦ م. فبنى قصر السويداء بحوران، وقصر حارب.

(٢) كَلَمَ: جَرَحَ. [القاموس المحيط، مادة: كَلَمَ].

(٣) هو سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزُّهري، من أخوال النبي ﷺ فهو من بني زُهرة أهل آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ، وقد كان ﷺ يعتزّ بهذه الخُؤولة، أبو إسحاق، هو أحد العشرة المبشَّرين بالجنة، وأوّل من رمى بسهم في سبيل الله، وأحد الستة الذين عيّنهم عمر بن الخطاب للخلافة، ويقال له: فارس الإسلام.

(٤) حفدة: الحافد هو التابع، الناصر من القوم. [القاموس المحيط، مادة: حفد].

Marfat.com

فما تكرارك في استفهامي، ثم قالت: إن الدنيا دارا زوال ولا تدوم على أهلها انتقالاً، وتعقبهم بعد حال حالاً، كنا ملوك هذا المصر يجبى لنا خراجه ويطيعنا أهله مدى الإمرة وزمان الدولة، فلما أدبر الأمر وانقضى صاح بنا صائح الدهر فشق عصانا، وشتت شملنا، وكذلك الدهر يا سعد أنه ليس يأتي قوماً بمسرة إلا ويعقبهم بحسرة، ثم أنشأت تقول:

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة ليس نعرفُ
فأف لدنيا لا يدوم نعيمها تقلب تارات بنا وتصرفُ

فقال سعد: قاتل الله عدي بن زيد[1] كأنه ينظر إليها حيث يقول:

إن للدهر صولة فاحذرنها لا تبيتن قد أمنت الدهورا
قد يبيت الفتى معافى فيرزا ولقد كان آمناً مسرورا

فبينما هي واقفة بين يدي سعد إذ دخل عمرو بن معد يكرب وكان زواراً لأبيها في الجاهلية فلما نظر إليها قال: أنت خرقاء؟ قالت: نعم، قال: فما دهمك فأذهب بجودات شيمك أين تتابع نعمتك وسطوات نقمتك. فقالت: يا عمرو، إن للدهر عثرات وعبرات تعثر بالملوك وأبنائهم فتخفضهم بعد رفعة، وتفردهم بعد منعة، وتذلهم بعد عزان، هذا الأمر كنا ننتظره فلما حل بنا لم ننكره.

فأكرمها سعد وأحسن جائزتها، فلما أرادت فراقه قالت: حيّ أختك بتحيات ملوكنا لا نزع الله من عبد صالح نعمة إلا جعلك سبباً لردها عليه، ثم خرجت من عنده فلقيها نساء المدينة فقلن لها: ما فعل بك الأمير؟ قالت: أكرم وجهي وإنما يكرم الكريم كريم.

حزانة ابنة خالد بن جعفر بن قرط

كانت من الأدب على جانب عظيم ومن الفصاحة والبلاغة على جانب أعظم، والفروسية كانت عندها زائدة، حضرت فتوح العراق مع سعد بن أبي وقاص وخاضت معه المعامع والمعارك وقد حضرت فتوح الحرة حينما استشهد من المسلمين خمسمائة وثلاثون فارساً فقالت ترثيهم في أبيات كما جاء في الحبرة للواقدي[2] في «فتوح الشام»:

---

(١) هو عدي بن زيد بن حمّاد بن زيد العبادي التميمي، شاعر، من دهاة العرب الجاهليين، كان قروياً من أهل الحيرة، فصيحاً، يحسن العربية، والفارسية، والرمي بالنشّاب، ويلعب لعب العجم بالصوالجة على الخيل. وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى، اتخذه في خاصته وجعله ترجماناً بينه وبين العرب. سكن المدائن أقرّه هرمز بن كسرى بعد وفاة والده وكان رسوله إلى بلاد الروم. ثم تزوج هند بنت النعمان بن المنذر. ووشى به أعداء له إلى النعمان بما أوغر صدره فسجنه وقتله في سجنه بالحيرة.

(٢) هو محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، الواقدي. من أقدم =

Marfat.com

أيا عين جودي بالدموع السواجم فقد شرعت فينا سيوف الأعاجمِ
فكم من حسام في الحروب وذابل وطرف كميت اللون صافي الدعائمِ
حزنا على سعد وعمرو ومالك وسعد مبيد الجيش مثل الغمائمِ
هم فتية غرّ الوجوه أعزة ليوث لدى الهيجاء شعث الجماجمِ

ومن قولها أيضاً:

طوى الدهر ما بيني وبين أحبة بهم كنت أعطي ما أشاء وأمنعُ
فلا يحسب الواشون أن قناتنا تلين ولا أنا من الموت نجزعُ
ولكن للآلاف لا بد لوعة إذا جعلت أقرانها تتقطعُ

خماني ابنة أردشير بن بهمن(١)

ملكت بعد أبيها «بهمن» ملكوها حباً في أبيها ولعقلها وفروسيتها، وكانت تلقب بـ «نهرزاد» وقيل: إنها ملكت لأنها حين حملت من «دارا الأكبر» سألته أن يعقد التاج له في بطنها ويؤثره بالملك ففعل «بهمن» وعقد التاج عليه حملاً في بطنها، وكان «ساسان بن بهمن» رجلاً يتصنع للملك فلما رأى فعل أبيه لحق بإصطخر وتزهد ولحق برؤوس الجبال وهلك «بهمن» و«دارا» في بطن أمه فملكوها ووضعته بعد شهر من ملكها فأنفت من إظهار ذلك وجعلته في تابوت وجعلت معه جواهر وأجرته في نهر المكر من إصطخر(٢) وسار التابوت إلى طحان من أهل إصطخر ففرح بما فيه من الجوهر فحضنته امرأته، ثم ظهر أمره حين شب فأقرت «خماني» بإساءتها فلما تكامل امتحن فوجد على غاية ما يكون من أبناء الملوك، فحوّلت التاج إليه وسارت إلى فارس وبنت مدينة إصطخر، وكانت قد أوتيت ظفراً وأعزت

= المؤرّخين في الإسلام، ومن أشهرهم، ومن حفّاظ الحديث. ولد بالمدينة سنة ١٣٠ هـ/٧٤٧ م. كان تاجر حنطة، ضاعت ثروته فانتقل إلى العراق سنة ١٨٠ هـ في أيام الرشيد، واتصل بيحيى بن خالد البرمكي فأفاض عليه عطاياه وقرّبه من الخليفة، فولي القضاء ببغداد. استمر إلى أن توفي سنة ٢٠٧ هـ/٨٢٣ م. قال الخطيب البغدادي: كلمّا ذكرت له وقعة ذهب إلى مكانها فعاينه.

(١) أردشير بن بهمن: أو أردشير الأول مؤسس سلالة الساسانيين في بلاد فارس سنة ٢٢٤ م. احتل طيسفون وقضى على أرطبان الخامس آخر الأرشاقيين الفُرثيين. فرض الزرادشتية ديناً للدولة. توفي سنة ٢٤١ م.

(٢) إصطخر: كورة وبلدة في بلاد فارس، أمّا الكورة فهي أكبر وأجل كُوَر فارس، قاعدتها مدينة إصطخر وبها كثير من المدن والقرى، وبها كانت خزائن الملوك قبل الإسلام، وهي واقعة عل تل صخري، قرب نهر بندمير في إصطخر، وضع هيستاسب كتاب زرادشت نبي المجوس لمّا كانت إصطخر في عظمتها، واسمها القديم برسبوليس.

Marfat.com

الروم وشغلت الأعداء عن تطرق بلادها وخففت عن رعيتها الخراج وكان ملكها ثلاثين سنة.

خولة بنت الأزور الكندي

وهي أخت ضرار بن الأزور[١]. كانت مشهورة بالشجاعة والجمال، خرجت مع أخيها إلى الشام حين فتحها في خلافة أبي بكر الصدِّيق[٢] وكانت تفوق الرجال بالفروسية والبسالة، ولها وقائع مشهورة لا يسعها المقام إذا أحببنا إيرادها ولكنا نقتصر على البعض منها.

قال الواقدي في «فتوح الشام»: إنه لما أسر ضرار بن الأزور في وقعة أجنادين توجه خالد بن الوليد[٣] بطليعة من الجيش لخلاصه فبينما هو في الطريق إذ مر به فارس على فرس طويل وبيده رمح، وهو لا يبين منه إلا الحدق وقد سيق أمامه الناس كأنه نار، فلما نظره خالد قال: ليت شعري من هذا الفارس، وأيم الله[٤]، إنه لفارس ثم اتبعه خالد والناس وسار إلى أن

---

(١) هو ضرار بن مالك (الأزور) بن أوس بن خزيمة الأسدي. أحد الأبطال في الجاهلية والإسلام. كان شاعراً مطبوعاً. له صحبة. وهو الذي قتل مالك بن نويرة بأمر خالد بن الوليد. قاتل يوم اليمامة أشدّ القتال، حتى قطعت ساقه، فجعل يحبو على ركبتيه ويقاتل، والخيل تطأه. مات بعد أيام في اليمامة، سنة ١١ هـ/ ٦٣٣ م.

(٢) هو عبد اللّه بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن كعب التميمي، القرشي، أبو بكر الملقّب بالصدّيق. أول الخلفاء الراشدين، أول من آمن برسول الله ﷺ من الرجال، وأحد أعاظم العرب. ولد بمكة سنة ٥١ ق. هـ/ ٥٧٣ م. نشأ سيداً من سادات قريش، وغنياً من كبار موسريهم، وعالماً بأنساب العرب وأخبارها وسياستها. كانت العرب تلقّبه بعالم قريش. حرّم على نفسه الخمر في الجاهلية، فلم يشربها. ثم كانت له في عصر النبوة مواقف كبيرة، فشهد الحروب واحتمل الشدائد، وبذل الأموال. بويع بالخلافة يوم وفاة النبي ﷺ سنة ١١ هـ/ ٦٣٢ م. حارب المرتدّين والممتنعين من دفع الزكاة، افتتحت في أيامه بلاد الشام وقسم كبير من العراق. كان موصوفاً بالحلم والرأفة بالعامة، خطيباً لَسِناً وشجاعاً بطلاً. مدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر ونصف شهر توفي في المدينة سنة ١٣ هـ/ ٦٣٤ م.

(٣) هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمرو بن مخزوم، المخزومي، القرشي، سيف الله الفاتح الكبير، الصحابي، كان من أشراف قريش في الجاهلية، يلي أعنة الخيل، شهد مع مشركيهم حروب الإسلام إلى عمرة الحديبية، أسلم قبل فتح مكة هو وعمرو بن العاص سنة ١٢ هـ، فسرّ به رسول الله ﷺ وولاّه الخيل، ولمّا ولي أبو بكر وجّهه لقتال مسيلمة ومن ارتدّ من أعراب نجد، ثم سيّره إلى العراق سنة ١٢ هـ، ففتح الحيرة وجانباً عظيماً منه، وحوّله إلى الشام وجعله أمير من فيها من الأمراء. ولمّا ولي عمر عزله عن قيادة الجيوش بالشام وولّى أبا عبيدة بن الجرّاح، فلم يثنِ ذلك من عزمه، واستمر يقاتل بين يدي أبي عبيدة إلى أن تمّ لهما الفتح سنة ١٤ هـ، فرحل إلى المدينة، فدعاه عمر ليولّيه، فأبى، ومات في حمص في سوريا، وقيل: بالمدينة سنة ٢١ هـ. كان مظفراً خطيباً فصيحاً، يشبه عمر بن الخطاب في خَلْقه وصفته، قال أبو بكر: عجزت النساء أن يلدن مثل خالد. روى له المحدّثون ثمانية عشر حديثاً، وأخباره كثيرة.

(٤) أيم الله: اسم وضع للقسم، والتقدير: «أَيْمُنُ الله قسمي».

Marfat.com

أدرك المشركين وقد حمل على عساكر الروم كأنه النار المحرقة، فزعزع كتائبهم، وحطم مواكبهم، فما كانت إلا جولة جائل حتى خرج وسنانه ملطخ بالدماء، وقد قتل رجالاً وجندل أبطالاً وقد عرض نفسه للهلاك ثانية، واخترق القوم غير مكترث وكثر قلق الناس عليه ولا يعلمون من هو ومنهم رافع بن عميرة ومن معه ظنوا أنه خالد وقالوا: ما هذه الحملات إلا لخالد، وبينما هم على ذلك إذ أشرف خالد بمن معه فقال له رافع: مَنْ الفارس الذي تقدم أمامك فلقد بذل نفسه ومهجته؟ فقال خالد: والله إنني أشد إنكاراً منك أعجبني ما ظهر منه ومن شمائله.

فقال رافع: أيها الأمير، إنه منغمس في عسكر الروم ويطعن يميناً وشمالاً. فقال خالد: معاشر المسلمين، احملوا بأجمعكم وساعدوا المحامي عن دين الله فأطلقوا الأعنة وقوّموا الأسنة، وخالد أمامهم إذ نظر إلى الفارس وقد خرج من القلب كأنه شعلة نار، والخيل في إثره، وكلما لحقت به الروم لوى عليهم وجندل، فعند ذلك حمل خالد ومن معه ووصل الفارس ـ المذكور ـ إلى جيش المسلمين فتأملوه ورأوه قد تخضب بالدماء، فصاح خالد والمسلمون: لله درك من فارس بذل مهجته في سبيل الله وأظهر شجاعته على الأعداء، اكشف لنا عن اسمك، وارفع لثامك. فمال عنهم ولم يخاطبهم وانغمس في الروم فتصايحت الروم من كل جانب، وكذلك المسلمون وقالوا: أيها الرجل الكريم أميرنا يخاطبك وأنت تعرض عنه أظهر لنا اسمك لنزداد تعظيماً، فلم يردّ عليهم جواباً.

فلما بعد عن خالد سار إليه بنفسه وقال: ويحك، لقد شغلت قلوب الناس وقلبي بفعلك، من أنت؟ فلما ألح عليه خالد خاطبه الفارس من تحت لثامه قال: إنني أيها الأمير لم أعرض عنك إلا حياء منك لأنك أمير جليل، وأنا من ذوات الخدور وبنات الستور وإنما حملني على ذلك أني محرقة الكبد، زائدة الكمد. فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا خولة بنت الأزور أخت ضرار المأسور بيد المشركين وإني كنت مع بنات العرب وقد أتاني الساعي بأن أسير، فركبت وفعلت ما رأيت، وعند ذلك حمل المسلمون وحملت خولة وعظم على الروم ما نزل بهم من خولة بنت الأزور وقالوا: إن كان القوم كلهم مثل هذا الفارس فما لنا بهم من طاقة، وأما خولة فإنها جعلت تجول يميناً وشمالاً، وهي لا تطلب إلا أخاها وهي لا ترى له أثراً، ولا وقعت له على خبر وجعلت تسأل عنه فلم يجبها أحد ولم ترَ من المسلمين من يخبرها أنه نظره أو رآه أسيراً أو قتيلاً فلما أيست منه بكت بكاء شديداً وجعلت تقول:

يا ابن أمي ليت شعري في أي البيداء طرحوك أم بأي سنان طعنوك، أم بأي حسام قتلوك. يا أخي أختك لك الفداء لو أني أراك أنقذتك من أيدي الأعداء. ليت شعري أترى أني

Marfat.com

أراك بعدها أبداً، فقد تركت يا ابن أمي في قلب أختك جمرة لا يخمد لهيبها ولا يطفأ سعيرها. ليت شعري ألحقت بأبيك المقتول بين يدي النبي ﷺ فعليك مني السلام إلى يوم اللقاء.

فبكى الناس من قولها عند سماعها ونياحها. ومن وقائعها أيضاً ما ظهر من بسالتها يوم أسر النسوة في وقعة صحورا من أعمال الشام وقد جمعت النساء وقامت فيهن خطيبة وكانت هي من ضمن المأسورات فقالت:

يا بنات حِمْيَر[1] وبقية تبع، أترضين لأنفسكن علوج الروم ويكون أولادكن عبيداً لأهل الشرك! فأين شجاعتكن وبراعتكن التي تتحدث بها عنكن أحياء العرب ومحاضر الحضر؟ وإني أراكن بمعزل عن ذلك وإني أرى القتل عليكنْ أهون من هذه الأسباب وما نزل عليكن من خدمة الروم.

فقالت لها عفراء بنت غفار الحميرية: صدقت والله يا بنت الأزور نحن في الشجاعة كما ذكرت، وفي البراعة كما وصفت لنا المشاهد العظام والمواقف الجسام ووالله لقد اعتدنا ركوب الخيل وهجوم الليل غير أن السيف يحسن فعله في مثل هذا الوقت وإنما دهمنا العدو على حين غفلة، وما نحن إلا كالغنم بدون سلاح.

فقالت خولة: يا بنات التبابعة خذوا أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب ونحمل بها على هؤلاء اللئام فلعل الله ينصرنا عليهم فنستريح من معرة العرب.

فقالت عفراء بنت غفار: والله ما دعوت إلا ما هو أحب إلينا مما ذكرت، ثم تناولت كل واحدة عموداً من أعمدة الخيام وصِحْن صيحة واحدة وألقت خولة على عاتقها عموداً وسعت من ورائها عفراء أم أبان بنت عتبة ومسلمة بنت زارع ولبنى ومزروعة بنت عملوق وسلمة ابنة النعمان ومثل هؤلاء فقالت لهن خولة: لا ينفك بعضكن عن بعض وكن كالحلقة الدائرة ولا تتفرقن فتملكن فيقع بكن التشتيت واحطمن رماح القوم واكسرن سيوفهم، وهجمت خولة وهجم النساء وراءها وقاتلن قتالاً شديداً حتى استخلصت النسوة من أيدي الروم وخرجت وهي تقول:

نحن بنات تبع وحمير ... وضربنا في القوم ليس ينكر
لأننا في الحرب نار تسعر ... اليوم تسقون العذاب الأكبر

ومن قولها حين أسر ضرار في المرة الثانية في «مرج دابق»:

ألا مخبر بعد الفراق يخبرنا ... فمن ذا الذي يا قوم أشغلكم عنا

---

(١) بنو حمير: قبيلة من بني سبأ من القحطانية، وهم بنو حمير بن سبأ، اسم حمير العريخج.

Marfat.com

فلـو كنـت أدري أنـه آخـر اللقـا لكنـا وقفنـا للـوداع وودعنـا
ألا يا غراب البين[1] هل أنت مخبري فهـل بقـدوم الغـائبيـن تبشـرنـا
لقـد كـانـت الأيـام تـزهـو لقـربهـم وكنـا بهـم نـزهـو وكـانـوا كمـا كنـا
ألا قـاتـل الله النـوى مـا أمـره وأقبحـه مـاذا يـريـد النـوى منـا
ذكـرت ليـالـي الجمـع كنـا سـويـة ففـرّ قنـاريـب الـزمـان وشتتنـا
لئن رجعوا يوماً إلى دار عزهم لثمنـا خفـاقـاً للمطـايـا وقبلنـا
ولـم أنـس إذ قـالـوا ضـرار مقيـد تـركنـاه فـي دار العـدوّ ويممنـا
فمـا هـذه الأيـام إلا معـارة وما نحن إلا مثل لفظ بلا معنى
أرى القلب لا يختار في الناس غيرهم إذا ما ذكرهم ذاكر قلبي المضنى
سلام على الأحباب في كل ساعة وإن بعـدوا عنـا وإن منعـوا منـا

ثم بكت وقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون فوالله لأخذنا بثأره إن شاء الله تعالى، ولما زحفت عساكر الإسلام إلى أنطاكية لأجل خلاص ضرار سار معهم النساء اللاتي لهن أسرى وفي مقدّمتهن خولة بنت الأزور وهي تنشد قولها من المراثي المبكيات:

أبعـد أخـي تلـذ الغمـض عينـي فكيـف ينـام مقـروح الجفـونِ
سـأبكـي مـا حييـت علـى شقيـق أعـز علـي مـن عينـي اليمين
فلـو أنـي لحقـت بـه قتيـلاً لهـان علـيّ إذ هـو غيـر هـونِ
وكنـت إلـى السلـوّ أرى طـريقـاً وأعلـق منـه بـالحبـل المتيـنِ
وإنـا معشـر مـن مـات منـا فليـس يمـوت مـوت المستكيـنِ
وإنـي إن يقـال مضـى ضـرار لبـاكيـة بمنسجـم هتـونِ
وقـالـوا لـم بكـاك فقلـت مهـلاً أمـا أبكـي وقـد قطعـوا وتينـي

ولما أسر ضرار المرة الثالثة في وقعة «دير المسيح» من أرض البهنسا وسار المسيب ورافع وجماعتهما في طلبه تهللت فرحاً، وأسرعت في لبس سلاحها، وأتت إلى خالد تستأذنه في المسير معهما فقال لهما خالد: أنتما تعلمان شجاعتها وبراعتها فخذاها معكما فقالا: السمع والطاعة، ثم ساروا حتى بلغوا منتصف الطريق وكمنوا قبل مرور القوم فبينما هم كامنون وإذا بالقوم قد أتوا محدقين بضرار وهو متألم من كتافه وهو ينشد ويقول:

ألا بلغـوا قـومـي وخـولـة أننـي أسيـر رهيـن مـوثـق اليـد بـالقيـدِ
فيا قلب مت هماً وحزناً وحسرة ويا دمع عيني كن معيناً على خدي

(١) البين: الفراق. [القاموس المحيط، مادة: البين].

Marfat.com

فلـو أن أقـوامـي وخـولـة عنـدنـا لألـزم مـا كنـا عليـه مـن العهـدِ
ولـو أننـي فـوق المجمـل راكبـاً وقائم حد العضب قد ملكت يدي
لأذللـت جمـع الـروم إذلال نقمـة وأسقيتهم وسط الوغى أعظم الكدِ

فنادته خولة من مكمنها قد أجاب الله دعاءك وقبل تضرعك أنا خولة ثم كبرت وحملت وكبر بقية العسكر وحملوا حتى خلصوا ضرار من الأسر ووقائعها كثيرة وقد أبلت بلاء حسناً في فتوح الشام ومصر، وعمرت طويلاً وكانت وفاتها في أواخر خلافة عثمان بن عفان ـ فعلى مثل هذه يأسف الدهر رحمها الله رحمة واسعة.

خولة ابنة منظور بن زبان(١)

كان والدها منظور مكث أربع سنوات في بطن أمه ولذلك سمي منظوراً، وكانت أمها مليكة بنت خارجة بن سنان بن أبي حارثة المري تحت زبان أبي منظور ولما توفي زبان خلفه عليها منظور وكان ذلك قبل الإسلام ولما أسلم بقيت تحته إلى خلافة عمر بن الخطاب ففرق بينهما وكانت مليكة ولدت له هشاماً وعبد الجبار وخولة.

وكانت خولة ذات حسن وجمال وبهاء وكمال وقدّ واعتدال فتنت فيها شبان قريش وقد خطبها جملة من رجالهم وأبوها يردّهم قولاً منه أنهم ليسوا كفؤاً لها، وبقيت على ذلك حتى تزوّج طلحة بن عبيد الله(٢) مليكة والدة خولة بعد طلاقها من منظور بن زبان، فزوّج خولة من ولده محمد بن طلحة(٣)، فولدت له إبراهيم وداود وأم القاسم ابني محمد بن طلحة ـ وكان أعرج ـ وقتل محمد عنها يوم الجمل فتزوجها الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان سبب زواجها به أنها حينما تكاثر عليها الخطاب بعد قتل زوجها محمد جعلت أمرها بيد الحسن بن

---

(١) هو منظور بن زبان بن سيار الفزاري، شاعر مخضرم، من الصحابة. كان سيد قومه، تزوج امرأة أبيه مليكة بنت خارجة المزنية، قيل: إن أبا بكر، لما ولي الخلافة، بحث عنه فعلم أنه ومليكة في البحرين، فأقدمهما المدينة وفرّق بينهما، وقيل: كان ذلك في خلافة عمر، وأراد عمر قتله فحلف بأنه ما علم أن الله حرّم ذلك، ففرّق بينهما. وله بعد فراقها أشعار رقيقة. يُظن أنه عاش إلى خلافة عثمان.

(٢) طلحة بن عبيد اللَّه أحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ وسمّاه رسول الله ﷺ: طلحة الخير، وطلحة الجود وهو من المهاجرين الأوّلين.

(٣) هو محمد بن طلحة بن عبيد اللَّه القرشي التيمي، أبو سليمان، صحابي، ولد في حياة النبي ﷺ وسمّاه باسمه، يقال له: السجّاد، لكثرة تعبُّده، قتل يوم الجمل سنة ٣٦ هـ.

Marfat.com

علي بن أبي طالب فتزوّجها، فبلغ منظور بن زبان ذلك فقال: أمثلي يفتات عليه في ابنته.

ثم قدم المدينة وركز راية في مسجد رسول الله ﷺ فلم يبقَ قيسي في المدينة إلا دخل تحتها فقيل لمنظور: أين يذهب برك تزوّجها الحسن بن علي وليس مثله أحد؟ فلم يقبل، وبلغ الحسن ذلك فقال: شأنك بها، فأخذها وخرج بها، فلما كانت بقباء جعلت خولة تندّمه وتقول له: الحسن بن علي سيد شباب أهل الجنة! فقال: البثي هٰهنا فإن كان للرجل فيك حاجة سيلحقنا هٰهنا، فلحقه الحسن والحسين وابن جعفر وابن عباس، فلما وصلوا قابلهم بما يليق بهم ثم أرجعها إلى الحسن فتزوّجها، ورجعوا جميعاً، وفي ذلك يقول جبير العبسي:

إن الندى في بني ذبيان قد علموا ... والجود في آل منظور بن سيارِ
والماطرين بأيديهم ندى ديما ... وكل غيث من الوسميّ مدرارِ
تزور جاراتهم وهنا قواضبهم ... وما فتاهم لها سراً بزوارِ
ترضى قريش به صهراً لأنفسهم ... وهم رضا لبني أخت وأصهارِ

وبقيت خولة تحت الحسن بن علي حتى أسنت وقد مات عنها فكشفت قناعها وبرزت للرجال وصارت تجالسهم.

قال معبد: جئتها يوماً أطالبها بحاجة فقالت: غنيني يا معبد. فقلت لها: أوَ بقي بالنفس شيء؟ قالت: النفس تشتهي كل شيء حتى تموت، فغنيتها لحني في شعر قاله بعض بني فزارة وكان خطبها فلم ينكحها إياه أبوها وهو:

قفا في دار خولة فاسألاها ... تقادم عهدها وهجرتماها
بمحلال كأن المسك فيه ... إذا هبت بأبطحه صباها
كأنك مزنة برقت بليل ... لحرّان يضيء لها سناها
فلم تمطر عليه وجاوزته ... وقد أشفى عليها أو رجاها
وما يملأ فؤادي فاعلميه ... سلوّ النفس عنك ولا غناها
وترعى حيث شاءت من حمانا ... وتمنعنا فلا نرعى حماها

فطربت خولة وقالت: أيا عبد بني قطن أنا والله يومئذٍ أحسن من النار الموقدة في الليلة القرة.

وقيل: إنها تزوّجت بعبد الله بن الزبير بعد وفاة الحسن وقد دخلت عليها النوار زوجة الفرزدق مستشفعة بها فشفعتها عند عبد الله. وفي ذلك يقول الفرزدق:

أما بنوه فلم تقبل شفاعتهم ... وشفعت بنت منظور بن زبانا
ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزراً ... مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

Marfat.com

الخيزران ابنة عطاء أم الهادي والرشيد

كانت ذات جمال وبهاء وكمال. اشتراها محمد أبو عبد الله المهدي بمائة ألف درهم واستحظى بها وقدّمها على جميع نسائه لما لها من الأدب واللطف، وقد أخذت بقلبه مكانة عظمى، وولدت له موسى الهادي وهارون الرشيد، وقد تقدّمت في خلافة ولدها موسى الهادي[١] حتى إنها شاركته في الأحكام من كثرة تداخلها معه في أمور المملكة وكان كثير الطاعة لها مجيباً لما تسأله من الحوائج للناس، فكانت المواكب لا تخلو من بابها. ففي ذلك يقول أبو المعافى:

يـــا خيـــزران هنـــاك ثـــم هنـــاك إن العبـــاد يســـوسهـــم ابنـــاك

وكانت يوماً جالسة إذ دخلت عليها جارية من جواريها فقالت: أعز الله السيدة بالباب امرأة ذات جمال وخلقة حسنة، وليس وراء ما هي عليه من سوء الحال غاية تستأذن في الدخول عليك، وقد سألتها عن اسمها فامتنعت أن تخبرني، فالتفتت الخيزران إلى زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس[٢] ـ وكانت في مجلسها: ما تقولين في أمرها؟ قالت لها: أدخليها فإنه لابدّ من فائدة أو ثواب، فدخلت امرأة من أجمل النساء لا تتوارى بشيء، فوقفت بجانب عضادتي الباب، ثم سلمت متضائلة، ثم قالت: أنا مزنة بنت مروان بن محمد الأموي.

فقالت الخيزران: لا حياك الله ولا مرحبا بك، فالحمد لله الذي أزال نعمتك وهتك سترك وأذلك. أتذكرين يا عدوة الله حين أتاك عجائز أهل بيتي يسألنك أن تكلمي صاحبك في الإذن في دفن إبراهيم بن محمد فوثبت عليهنّ وأسمعتيهن ما لا سمعن قبل وأمرت فأخرجن على تلك الحالة، فضحكت مزنة قهقهة حتى علا صوت ضحكها، ثم قالت: السلام عليك، ثم

---

(١) هو موسى (الهادي) بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، أبو محمد، من خلفاء الدولة العباسية ببغداد. ولد بالريّ. وولي بعد وفاة أبيه سنة ١٦٩ هـ، وكان غائباً بجرجان فأقام أخوه الرشيد بيعته. استبدّت أمه الخيزران بالأمر. أراد خلع أخيه هارون الرشيد من ولاية العهد وجعلها لابنه جعفر، فلم ترَ أمه ذلك فزجرها فأمرت جواريها أن يقتلنه فخنقنه، ودفن في بستانه بعيسى آباذ. مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر. كان طويلاً جسيماً أبيض في شفته العليا تقلّص، شجاعاً، جواداً، له معرفة بالأدب والشعر.

(٢) هو سليمان بن علي بن عبد اللّه بن عباس أمير عباسي، ولد سنة ٨٢ هـ/ ٧٠١ م، أمير عباسي من الأجواد الممدوحين. ولاّه ابن أخيه السفاح إمارة البصرة وأعمالها وكور دجلة والبحرين وعُمان سنة ١٣٣ هـ، أقام فيها إلى أن عزله المنصور سنة ١٣٩ هـ، فلم يزل في البصرة إلى أن توفي سنة ١٤٢ هـ/ ٧٥٩ م.

Marfat.com

ولت مسرعة فنهضت إليها الخيزران لتعانقها فقالت: ليس في ذلك موضع مع الحالة التي أنا عليها. فقالت الخيزران لها: فالحمام إذا وأمرت جماعة من جواريها بالدخول معها إلى الحمام.

فلما خرجت من الحمام وافتها الخلع والطيب فأخذت من الثياب ما أرادت ثم تطيبت، ثم خرجت إليها فعانقتها الخيزران وأجلستها في الموضع الذي يجلس فيه أمير المؤمنين المهدي، ثم قالت الخيزران: هل لك بالطعام؟ قالت: والله ما فيكن أحوج مني إليه فعجلوه، فأتي بالمائدة، فجعلت تأكل غير محتشمة إلى أن اكتفت، ثم غسلن أيديهن وقالت لها الخيزران: من وراءك ممن تعنين به؟ قالت: ما خارج هذه الدار من بيني وبينه نسب فقالت: إذا كان الأمر هكذا فقومي حتى تختاري لنفسك مقصورة من مقاصيرنا وتحوّلي لها جميع ما تحتاجين إليه، ثم لا نفترق إلى الموت.

فقامت ودارت بها في المقاصير فاختارت أوسعها وأنزهها ولم تبرح حتى حوّلت إليها جميع ما تحتاج إليه من الفرش والكسوة، ثم تركتها وخرجت عنها.

فقالت الخيزران: هذه المرأة قد كانت فيما كانت فيه وقد مسها الضر وليس يغسل ما في قلبها إلا المال فاحملوا إليها خمسمائة ألف درهم فحملت إليها وفي أثناء ذلك وافى المهدي فسألها عن الخبر، فحدثته حديثها وما لقيتها به، فوثب مغضباً وقال للخيزران: هذا مقدار شكر الله على نعمه وقد أمكنك من هذه المرأة مع الحالة التي هي عليها، فوالله لولا محلك بقلبي لحلفت أن لا أكلمك أبداً فقالت: يا أمير المؤمنين، قد اعتذرت إليها ورضيت وفعلت معها كذا وكذا فلما علم المهدي ذلك قال لخادم كان معه: احمل إليها مائة بدرة وادخل إليها وأبلغها مني السلام وقل لها: والله ما سررت في عمري كسروري اليوم وقد وجب على أمير المؤمنين إكرامك ولولا احتشامك لحضر إليك مسلماً عليك وقاضياً لحقك.

فمضى الخادم بالمال والرسالة فأقبلت على الفور وسلمت على المهدي بالخلافة وشكرت صنيعه وبالغت في الثناء على الخيزران، وقالت: ما على أمير المؤمنين حشمة أنا في عداد حرمه.

ثم قامت إلى منزلها وأقامت عند الخيزران إلى أن قضى المهدي. وأيام الهادي وصدر من أيام الرشيد وماتت في خلافة الرشيد وكان لا يفرق بينها وبين نساء بني هاشم فلما قضيت جزع عليها الرشيد والخدم جزعاً شديداً وأخرجها بمشهد يليق بمثلها.

وكلمت الخيزران ولدها الهادي ذات يوم في أمر فلم يجد إلى إجابتها فيه سبيلاً، فاعتل عليها بعلة فقالت: لا بد من إجابتي. قال: لا أفعل، قالت: فإني قد ضمنت هذه الحاجة

Marfat.com

لعبد الله بن مالك فغضب الهادي وقال: ويل لابن الفاعلة، قد علمت أنه صاحبها لا قضيتها لك. قالت: إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً. قال: إذاً والله لا أبالي.

وقامت مغضبة فقال: مكانك فاستوعي كلامي والله وإلا نفيت من قرابتي من رسول الله لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو من خاصتي أو من خدمي لأضربن عنقه ولأقبضن ماله، فمن شاء فليلزم ذلك ما هذه المواكب التي تغدو إلى بابك كل يوم أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟ إياك، ثم أياك أن تفتحي فاك في حاجة لمسلم ولا ذمي.

فانصرفت وما تعقل ما تجيب فلم تنطق بحلو ولا مر بعدها، ثم إنه قال لأصحابه: أيما خير أنا أم أنتم وأمي أم أمهاتكم قالوا: بل أنت وأمك خير. قال: فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه فيقال: أم فلان فعلت وصنعت. قالوا: لا نحب. قال: فما بالكم تأتون منزل أمي فتتحدثون بحديثها فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها وبعد مدة من الزمن تناست هذه الحادثة فبعث الهادي بأَرُزٍ إلى الخيزران. وقال لها: قد استطبتها فكلي منها فقيل لها: أمسكي حتى تنظري فجاءوا بكلب فأطعموه فسقط لحمه لوقته فأرسل إليها كيف رأيت الأرز؟ قالت: طيباً. قال: ما أكلت منها ولو أكلت منها لاسترحت منك. متى أفلح خليفة له أم؟

وكان سبب وفاة الهادي من قبل أمه الخيزران كانت أمرت الجواري بقتله للسبب عينه وقيل: كان السبب في أمرها بذلك أن الهادي لما جدّ في خلع الرشيد والبيعة لابنه جعفر خافت الخيزران على الرشيد فوضعت جواريها عليه لما مرض وأمرتهن بقتله فقتلوه بالغم والجلوس على وجهه فمات فأرسلت إلى يحيى بن خالد[1] تعلمه بموته وبعد ذلك بقيت معززة مكرمة عند الرشيد والمأمون إلا أنها اقتصرت عن التداخل في الأحكام حتى أدركتها الوفاة في خلافة المأمون وأخرجت باحتفال عظيم لم ينله غيرها من نساء الخلفاء. رحمها الله تعالى.

(١) هو يحيى بن خالد بن برمك، أبو الفضل، الوزير الجواد، سيد بني برمك وأفضلهم ولد سنة ١٢٠ هـ/ ٧٣٨ م. وهو مؤدب الرشيد العباسي ومعلّمه ومربّيه. رضع الرشيد من زوجة يحيى مع ابنها الفضل، فكان يدعوه: يا أبي، أمره المهدي سنة ١٦٣ هـ أن يلازم هارون الرشيد ويكون كاتباً له، وأكرمه بمائة ألف درهم. فقال هي معونة لك على السفر مع هارون. لما ولي هارون الخلافة دفع خاتمه إلى يحيى، وقلّده أمره، فبدأ يعلو شأنه. اشتهر يحيى بجوده وحسن سياسته. بقي إلى أن نكب الرشيد البرامكة، فقبض عليه وسجنه إلى أن مات سنة ١٩٠ هـ/ ٨٠٥ م.

Marfat.com

حرف الدال

دارمية الحجونية

كانت فصيحة اللسان بليغة البيان، غير هيابة في المقال لا يسألها أحد سؤالاً إلا جاوبته بأحسن جواب وأقنع خطاب. قال أبو سهل التميمي لما حج معاوية سأل عن امرأة من بني كنانة كانت تنزل بالحجونية يقال لها: دارمية وكانت سوداء كثيرة اللحم فأخبر بسلامتها فبعث إليها فجيء بها فقال: ما جاء بك يا ابنة حام؟ فقالت: لست بابنة حام أنا امرأة من بني كنانة وأنت طلبتني. قال: صدقت أتدرين لم بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله. قال: بعثت إليك أسألك عَلامَ أحببت علياً وأبغضتني، ووالیته وعاديتني؟ قالت: أوَ تعفيني. قال: لا أعفيك. قالت: أما إذا أبيت فإني أحببت علياً على عدله في الرعية، وقسمته بالسوية، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر وطلبك ما ليس لك به حق، ووالیت علياً على ما عقد له رسول الله ﷺ من الولاء وحبه المساكين وإعظامه لأهل بيته، وعاديتك على سفكك الدماء، وجورك في القضاء، وحكمك بالهوى.

قال: فلذلك انتفخ بطنك وعظم ثدياك وربت عجيزتك. قالت: يا هذا! بهند والله كان يضرب المثل في ذلك لأبي سفيان وهند. قال معاوية: يا هذه! اربعي فإنا لم نقل إلا خيراً، إنه إذا انتفخ بطن المرأة تم خلق ولدها وإذا عظم ثدياها تَروّى رضيعها، وإذا عظمت عجيزتها رزن مجلسها.

فلما سمعت ذلك رجعت وسكن غضبها ثم قال لها: يا هذه! هل رأيت علياً؟ قالت: نعم رأيته. قال: فكيف رأيتيه؟ قالت: رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك ولم تشغله النعمة التي شغلتك. قال: فهل سمعت كلامه؟ قالت: نعم، والله فكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت الصدأ من الطست.

قال: صدقت، فهل لك من حاجة؟ قالت: أوَ تفعل إذا سألتك؟ قال: نعم، قالت: تعطيني مائة نافة حمراء فيها جملها وراعيها قال: ماذا تصنعين بها؟ قالت: أغذوا بألبانها

Marfat.com

الصغار، وأستحيي بها الكبار، وأكتسب بها المكارم وأصلح بها بين العشائر. قال: فإن أعطيتك ذلك فهل أحل عندك محل علي بن أبي طالب؟ قالت: سبحان الله أو دونه. فأنشأ معاوية يقول:

إذا لـم أعـد بـالحلـم منـي عليكـم فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلمِ
خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجد جزاك على حرب العداوة بالسلمِ

ثم قال: أما والله لو كان علي حياً ما أعطى منها شيئاً. قالت: لا والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين ثم أخذتها وانصرفت.

دختنوس[١] ابنة لقيط بن زرارة بن عدس الدارمي[٢]

تزوجها عمرو بن عمرو بن عدس وكانت ابنة عمه وكان عمرو تزوجها بعدما أسنّ وكان أكثر قومه مالاً وأعظمهم شرفاً فلم تزل تولع به وتؤذيه وتسمعه ما يكره وتهجوه حتى طلقها فتزوّجها من بعده ابن عمها عمير بن معبد بن زرارة، وكانت «دختنوس» شاعرة لها شعر كثير منه هجو ومديح ورثاء وكانت ذات شجاعة عظيمة وحكمة غريبة ورأي صائب وكان أبوها لقيط يرجع إلى رأيها ويأخذها في غزواته لكي تهديه إلى الصواب عند الخطأ.

وكان أخذها معه في يوم «شعب جبلة»[٣] بينه وبين عامر[٤] وعبس وكان وجد في طريقه كرب بن صفوان بن الحباب السعدي[٥] وكان شريفاً فطلب منه الصحبة فأبى محتجاً بالبحث

---

(١) في المصادر التي أثبتنا منها ترجمة والد «دختنوس» وهو لقيط بن زرارة. وجدنا اسمها «دختنوس» وليس «دختنوس» كما ورد في الكتاب.

(٢) هو لقيط بن زرارة بن عدس الدارمي، من تميم، فراس، شاعر جاهلي، من أشراف قومه. كنيته «أبو دختنوس» وهي ابنته ولا عقب له غيرها، يقال له: أبو نهشل. كان دينه المجوسية. قتل يوم «شعب جبلة» في نجد، قال ياقوت الحموي: هو يوم بين بني تميم وبني عامر بن صعصعة، من أعظم أيام العرب وأشدّها. قال البكري: كان يوم جبلة في عام مولد النبي ﷺ يقال له: يوم تعطيش النوق. وكان لقيط رئيس تميم فيه. فقتله عمارة الوهاب العبسي، وقيل: شريح بن الأحوص، سنة ٥٣ ق. هـ/ ٥٧١ م.

(٣) يوم شعب وجبلة: كان لعامر من قيس وحلفائهم من عبس على تميم وحلفائهم من ذبيان وأسد. وجبلة جبل طويل له شعب عظيم واسع لا يُرقى إلاّ من قِبَله. ويوم جبلة من أعظم أيام العرب وأشدّها، وكان قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة.

(٤) بنو عامر: بطن من عامر بن صعصعة من هوازن من العدنانية، وهم بنو عامر بن عوف بن مالك بن سعد. قال ابن سعيد: وملكوا أرض اليمامة من بني كيلانة، وكان ملكهم في نحو الخمسين في المائة السابعة. ملكها منهم عصفور وبنوه.

(٥) هو كرب بن صفوان بن شجنة بن عطارد، من بني سعد بن زيد مناة، من تميم، فصيح جاهلي، كان =

Marfat.com

عن إبل له فقال: لا أدعك تذهب فتخبر بي القوم فحلف له أن لا يخبرهم ثم سار عنهم وهو مغضب. فلما دنا منهم أخذ خرقة وصر فيها حنظلة وتراباً وشوكاً وخرقتين من يمانية وخرقة حمراء وعشرة أحجار سود، ثم رمى بها حيث يسقون ولم يتكلم فوصلت إلى قيس بن زهير العبسي فقال: هذا من صنع الله بنا هذا رجل قد أُخذ عليه عهد أن لا يكلمكم فأخبركم أن أعداءكم قد غزوكم وهم بنو حنظلة[1]، وصاحب بن زرارة، وقبيلتان من اليمن، وفي عشرة أيام يكونون عندكم فخذوا حذركم ولما عاد كرب بن صفوان قال له لقيط: قد أنذرت القوم فأعاد الحلف أنه لم يكلم أحداً فأطلقه فقالت له «دختنوس»: ردني إلى أهلي ولا تعرضني لعبس وعامر فقد أنذرهم لا محالة فاستحمقها وساء كلامها وردها وسار إلى بني عامر وعبس وتحاربا وانكسر قومه وأبلى بلاء حسناً حتى اندك الجرف بفرسه فهجم عليه عنترة[2] فطعنه[3] وعند ذلك تذكر ابنته «دختنوس» فقال:

يا ليت شعري عنك دختنوس ... إذا أتاك الخبر المرسوسُ
أتحلق القرون أم تميس ... لإبل تميس إنها عروسُ

فلما بلغها موته قالت ترثيه:

ألا أيها الويلات ويلة من بكى ... لضرب بني عبس لقيطاً وقد قضى
لقد ضربوا وجهاً عليه مهابة ... ولا تحفل الصم الجنادل من توى
فلو أنكم كنتم غداة لقيتم ... لقيطا ضربتم بالأسنّة والقنا
عذرتم ولكن كنتم مثل ظبية ... أضاءت لها القناص من جانب الثرا
فما ثأره فيكم ولكنّ ثأره ... شريح[4] أرادته الأسنّة والقنا

= يجيز الناس من عرفات إلى مزدلفة، ورث ذلك عن أبيه.

(١) بنو حنظلة: بطن من تميم من القحطانية، وهم بنو حنظلة الأكرمين. كان له من الوالد مالك، ويربوع، وربيعة.

(٢) هو عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد العبسي، أشهر فرسان العرب في الجاهلية، ومن شعراء الطبقة الأولى. من أهل نجد، أمه حبشية اسمها زبيبة، سرى إليه السواد منها. كان من أحسن العرب شيمة ومن أعزهم نفساً، يوسف بالحلم على شدة بطشه، وفي شعره رقّة وعذوبة. كان مغرماً بابنة عمه عبلة، فقلّ أن تخلو له قصيدة من ذكرها. اجتمع في شبابه بامرىء القيس الشاعر. شهد حرب داحس والغبراء، عاش طويلاً، قتله الأسد الرهيص أو جبّار بن عمرو الطائي. مات سنة ٢٢ ق.هـ/ ٦٠٠ هـ.

(٣) قيل: إن من طعنه هو شريح بن الأحوص، وقيل: عمارة الوهاب العبسي. ولم يأتِ أحد منهم على ذكر عنترة.

(٤) هو شريح بن الأحوص، الذي يُعتقد أنه طعن لقيط بن زرارة.

Marfat.com

فإن تعقب الأيام من فارس تكن عليكم حريقاً لا يرام إذا سما
ليجزيكم بالقتل قتلاً مضعفاً وما في دماء الخمس يا مال من بوا[١]

وقالت ترثيه أيضاً:

عثر الأغر بخير خند ـدف[٢] كهلها وشبابها
وأضرها لعدوّها وأفكها لرقابها
وقريعها ونجيبها في المطبقات ونابها
ورئيسها عند الملو ك وزين يوم خطابها
وأتمها نسبا إذا رجعت إلى أنسابها
يرعى عموداً للعشـ ـيرة رافعاً لنصابها
ويعولها ويحوطها ويذب عن أحسابها
ويطأ مواطن للعـ ـدوّ وكان لا يمشي بها
فعل المدل من الأسو د لحينها وتبابها
كالكوكب الدري في سيماء[٣] لا يخفى بها
عبث الأغر به وكل منية لكتابها
فرّت بنو أسد[٤] فرا ر الطير عن أربابها
وهوازن أصحابهم كالفأر في أذنابهم

ولها مراثٍ كثيرة لم نعثر إلا على هذه منها.

دلوكة بنت زباء ملكة من ملوك القبط الأوّلين بمصر

كانت أوّل امرأة ملكت بعد هلاك فرعون وجنوده في البحر وكان ملكها عشرين سنة وعملت أعمالاً عظيمة أشهرها الجدار المْعروف بحائط العجوز. قالوا عنه: إنه أحد العجائب العشرين التي بمصر يحيط بمصر شرقاً وغرباً من العريش إلى أسوان ويقال له: جدار العجوز أيضاً.

---

(١) بوا: قلّد وحاكى. [القاموس المحيط، مادة: بوى].
(٢) بنو خندف: بطن من مضر من العدنانية، وهو بنو الياس بن مضر، وخندف اسم امرأته، عرف بنوه بها، وهي خندف اسمها ليلى بنت حلوان بن عمران بن الحافي بن قضاعة.
(٣) سيماء: علامة، سِمة. [القاموس المحيط، مادة: وسم].
(٤) بنو أسد: حي من قريش من العدنانية، وهم بنو أسد بن قصي بن كلاب منهم الزبير بن العوام أحد العشرة المبشَّرين بالجنة.

Marfat.com

وسبب بناء هذا الحائط على ما قيل: إن مصر لما خلت من الأشراف والأبطال بعد غرق فرعون وجنوده بالبحر الأحمر اجتمعت النساء، وملكن عليهن دلوكة وكانت ذات شرف وحكمة ودراية وكان عمرها مائة وستين سنة، فخافت أن يتناولها الملوك فجمعت نساء الأشراف وقالت لهنّ: إن بلادنا لم يكن يطمع فيها أحد ولا يمدّ عينه إليها وقد هلك أكابرنا وأشرافنا وذهب السحرة الذين كنا نقوى بهم وقد رأيت أن أبني حصناً أحدق به جميع بلادنا فأضع عليه المحارس من كل ناحية فإنا لا نأمن من أن يطمع فينا الناس.

فبنت هذا الحائط، وأحاطت به جميع أرض مصر المزارع والمدائن والقرى وجعلت دونه خليجاً يجري فيه الماء وأقامت القناطر والترع وجعلت فيه المسالح والمجارس على كل ثلاثة أميال مجرس ومسلحة أي محل للسلاح والمجارس صفان على كل ميل وجعلت في كل مجرس رجالاً وأجرت عليهم الأرزاق وأمرتهم أن يحرسوا بالأجراس فإذا أتاهم آتٍ يخافونه ضرب بعضهم إلى بعض بالأجراس فيأتيهم الخبر بأي وجه كان في ساعة واحدة فينظرون في ذلك فمنعت بذلك مصر ممن أرادها وفرغت من بنائه في ستة أشهر على ما قيل. وقيل: إنها بنته خوفاً على ولدها لأنه كان كثير القنص فخافت عليه من سباع البر والبحر واغتيال من جاور أرضهم من الملوك والبوادي فحوّطت الحائط من التماسيح وغيرها.

قال المقريزي: وقد بقي من حائط العجوز بقايا كثيرة في بلاد الصعيد وهو مبني من اللبن الكبار.

دليلة الفلسطينية

امرأة فلسطينية من وادي «سوريف» أحبها «شمشون»[1] فعرف أقطاب الفلسطينيين بحبه لها وقالوا لها: انظري بماذا قوّته العظيمة وبماذا نتمكن منه حتى نوقعه أو نقهره ونحن ندفع إليك كل منا ألفاً ومائة درهم من الفضة فقالت لـ «شمشون»: أخبرني بماذا قوّتك العظيمة وبماذا توثق لتقهر؟ فقال لها: إذا أوثقوني بسبعة أوتار طرية لم تحف بعد فإني أضعف وأصير كواحد من الناس، فدفعوها إليها فشدّته بها والكمين رابض عندها في المخدع.

ثم قالت له: قد دهمك الفلسطينيون فقطع الأوتار كما يقطع خيط المشاقة إذا أشيط فقالت له: لقد خدعتني فأخبرني بماذا توثق فقال: إن أوثقوني بحبال جديدة لم تستعمل قط فإني أضعف وأصير كواحد من الناس ففعلت كما فعلت في المرّة الأولى فقطع الحبال كالخيط

---

(١) شمشون: قاضٍ من قضاة العبرانيين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. اشتهر بقوّته الجبّارة وتغلّبه على الفلسطينيين. احتالت عليه دليلة وقصّت شعره فحرمته من قوّته وسلّمته للفلسطينيين.

Marfat.com

فكرّرت السؤال فقال لها: إذا ضفرت سبع خصل من شعر رأسي وربطت بها كالوتد فإني أصير كباقي الرجال فأخذت منه سبع خصل مع السرى فمكنتها بالوتد وقالت له: قد دهمك الفلسطينيون فاستيقظ من نومه وقلع الوتد والنسيج والسرى فعاتبته على مخادعتها وكانت تضايقه كل يوم بكلامها وتضاجره حتى تاقت نفسه إلى الموت فأطلعها على ما في قلبه وقال لها: لم يعل رأسي موس لأني ناسك لله من بطن أمي فإن حلقت رأسي فارقتني قوّتي.

ورأت «دليلة» أنه قد كاشفها بكل ما في قلبه، فأرسلت ودعت أقطاب الفلسطينيين وقالت: اصعدوا هذه المرّة فأضجعته على ركبتيها ودعت رجلاً فحلق سبع خصل رأسه ثم قالت له: قد دهمك الفلسطينيون فاستيقظ ووجد أن قوّته قد فارقته فقبضوا عليه وتلقبت «دليلة» بالمحتالة لاحتيالها على «شمشون» ـ كما مر ـ وخبرها في سفر القضاة «الإصحاح السادس عشر» من التوراة.

دنانير[1] جارية يحيى بن خالد البرمكي[2]

كانت جارية صفراء من مولدات المدينة كان مولاها قد أدّبها وخرجها في الأدب والشعر والغناء حتى صارت أدرى الناس بالغناء القديم وأكمل الجواري آداباً، وأكثرهنّ رواية للغناء والشعر، وأحسنهن وجهاً وأظرفهنّ عشرة.

فلما رآها خالد بن يحيى البرمكي شغف بها واشتراها، وكان الرشيد يسير إلى منزله ويسمعها حتى ألفها واشتدّ عجبه بها فكان أكثر مسيره إلى مولاها ويقيم عندها ويبرها ويفرط حتى إنه وهبها في ليلة عقداً قيمته ثلاثون ألف دينار، وعلمت زبيدة[3] بحاله فشكته إلى أهله وعمومته فعاتبوه على ذلك فقال: ما لي في الجارية أرب في نفسها وإنما أربي في غنائها، فاسمعوها فإن استحقت أن يؤلف غناؤها وإلا فقولوا ما شئتم.

فأقاموا عنده ونقلهم إلى يحيى فلما سمعوها عذروه وعادوا إلى زبيدة، وأشاروا عليها

---

(١) للاستزادة يراجع: أعلام النساء (١: ٣٥٨). الدر المنثور (١٩٢).

(٢) هو يحيى بن خالد بن برمك، أبو الفضل، الوزير الجواد، سيد بني برمك وأفضلهم ولد سنة ١٢٠ هـ/ ٧٣٨ م. وهو مؤدب الرشيد العباسي ومعلّمه ومربّيه. رضع الرشيد من زوجة يحيى مع ابنها الفضل، فكان يدعوه: يا أبي، أمره المهدي سنة ١٦٣ هـ أن يلازم هارون الرشيد ويكون كاتباً له، وأكرمه بمائة ألف درهم. فقال هي معونة لك على السفر مع هارون. لما ولي هارون الخلافة دفع خاتمه إلى يحيى، وقلّده أمره، فبدأ يعلو شأنه. اشتهر يحيى بجوده وحسن سياسته. بقي إلى أن نكب الرشيد البرامكة، فقبض عليه وسجنه إلى أن مات سنة ١٩٠ هـ/ ٨٠٥ م.

(٣) ترجمتها في الجزء الأول من هذا الكتاب في حرف الزاي.

Marfat.com

أن لا تلح في أمرها فقبلت ذلك وأهدت إلى الرشيد عشر جوار، وكان اعتماد «دنانير» في غنائها على ما أخذته من بذل المغنية، وهي التي خرجتها وأخذت أيضاً من الأكابر الذين أخذت البذل عنهم مثل: فليح وإبراهيم الموصلي وابن جامع وإسحاق ونظرائهم. ولها كتاب مجرد في الأغاني مشهور، وكانت تناظر ابن جامع وأمثاله فتغلبهم.

وقيل: إنها عملت يوماً صوتاً أعجب به مولاها يحيى جداً، وأتى إلى إبراهيم الموصلي وطلب إليه أن يسمعه منها لينظر هل هو كما وقع في نفسه. فأتى إبراهيم وغنت «دنانير» الصوت فطرب له إبراهيم واستعاده منها ثلاث مرات لعله يجد موضوعاً فيه قابلاً للإصلاح يصلحه فينسب إليه فلم يجد.

وقال بعضهم: إنها كانت تغني غناء إبراهيم فتحكيه حتى لا يكون بينهما فرق، وكان إبراهيم يقول ليحيى: متى فقدتني و«دنانير» باقية فما فقدتني؟ وقامت «دنانير» عند البرامكة دهراً طويلاً لم تخرج من عندهم ولا كفرت نعمة مولاها. وشغف بها عقيل مولى صالح بن الرشيد فخطبها، فردته، فاستشفع عليها مولاها صالحاً وابن محرز وغيرهما فلم تجبه، فكتب إليها:

يـا دنـانيـر قـد تنكـر عقلـي ... وتحيـرت بيـن وعـد مطـلِ
شغفـي شـافعـي إليـك وإلا ... فاقتليني إن كنت تهوين قتلي
ما أحب الحياة يا أخت إن لم ... يجمـع الله عـاجـلاً بـك شملـي

فكان كالكاتب على صفحات الماء، ومات ولم يجد لعلته من دواء، وأقامت على الوفاء لمولاها وأصابتها علة الجوع الكلبي وهي عند البرامكة فكانت لا تصبر عن الأكل ساعة واحدة فكان يحيى يتصدق عنها في كل يوم من شهر رمضان بألف دينار لأنها كانت لا تصومه.

وحكي أن الرشيد دعا بها بعد نكبة البرامكة وأمرها أن تغني فقالت: يا أمير المؤمنين، آليت أن لا أغني بعد سيدي أبداً. فغضب وأمر بصفعها، فصفعت، وأقيمت على رجليها وأعطيت العود فأخذته وهي تبكي أحر بكاء وغنت صوتاً يفتت الجلمود حزناً فرق لها الرشيد وأمر بإطلاقها، فانصرفت[1].

دهيا[2] ابنة ثابت بن تيفان

وقومها جرادة من زناته، كانت تلقب بالكاهنة ملكة البربر في جبل

---

(١) يقال إنها بعد ذلك خطبت للزواج، لكنها أبت، ولزمت حالها إلى أن توفيت سنة ٢١٠ هـ/ ٨٢٢ م.
(٢) في المصادر التي أثبتنا منها ترجمة حسان بن النعمان وجدنا أن اسم «دهيا» هو «دهينا الكاهنة».

Marfat.com

«أوراس»[١]. قال ابن خلدون: وكان لها بنون ثلاثة ورثوا رياسة قومهم عن سلفهم وربوا في حجرها، فاستبدت عليهم وعلى قومهم بهم، وربما كان لها من الكهانة والمعرفة بغيب أحوالهم وعواقب أمورهم فانتهت إليها رياستهم، فملكت ٣٥ سنة وعاشت ١٢٧ سنة، وكان قتل عقبة بن نافع[٢] بإغرائها وكان المسلمون يعرفون ذلك منها.

قيل: وكان مذهبها ومذهب قومها وقبائل تفوسة اليهودية وكانت تدعى خطاب الشياطين فلما انقضى أمر البربر وقتل «كسيلة»[٣] رئيس «أوراس» عندما غزاهم العرب انضم برابرة «أوراس» ومن جاورهم إلى «دهيا» هذه لما كان لها من السيادة والسلطة والدهاء، فلما غزا أفريقيا حسان بن النعمان الغساني[٤] من قبل عبد الملك بن مروان استولى على قيروان[٥] و«قرطجنة»[٦] ثم سار إلى الكاهنة وحاربها عند نهر «مسكيني» على مرحلة من «باغابة» و«محانة»، فانكسر المسلمون أمامها وقتلت منهم جماً غفيراً، وأسرت جماعة منهم: خالد بن يزيد القيسي، فأطلقتهم جميعاً ما عدا خالد بن يزيد أبقته عندها واتخذته لها ولداً لشجاعته وشرفه. ففارق حسان أفريقيا وكتب إلى عبد الملك أن يمده بالجيوش، وأقام بعمل برقة[٧] خمس سنوات ينتظر ورود الإفادة.

وفي هذه المدة ملكت «دهيا» أفريقيا كلها وبعد الخمس سنوات سير عبد الملك إلى

---

(١) أوراس: سلسلة جبال في شرق الجزائر تشرف على سهول قسنطينة.

(٢) هو عقبة بن نافع بن عبد القيس الأموي القرشي الفهري، فاتح من كبار القادة في صدر الإسلام. هو باني مدينة القيروان. ولد سنة ١ ق.هـ/ ٦٢١ م على حياة النبي ﷺ ولا صحبة له. شهد فتح مصر، وهو ابن خالة عمرو بن العاص. وجّهه عمرو إلى إفريقيا سنة ٤٢ والياً، فافتتح كثيراً من تخوم السودان وكورها في طريقه. ولاّه معاوية إفريقيا استقلالاً سنة ٥٠ هـ، قتل في إحدى المعارك سنة ٦٣ هـ/ ٦٨٣ م.

(٣) كُسَيْلَة: زعيم بربري قاوم الفتح العربي. قتله زهير بن قيس سنة ٦٨٦ هـ.

(٤) هو حسان بن النعمان بن عدي الأزدي الغسّاني، من أولاد ملوك غسان، قائد من رجال السياسة والحرب. من المشهورين في الفتوحات الإسلامية. كان يلقّب بالشيخ الأمين. ولي إفريقيا في زمن معاوية. كانت له وقائع كثيرة في إفريقيا ضد الملكة دهينا الكاهنة البربرية في قابس وجبال الأوراس. دانت له إفريقيا كلها. توفي غازياً أرض الروم سنة ٨٦ هـ/ ٧٠٥ م.

(٥) القيروان: معرّب هو بالفارسية كارَوان. مدينة عظيمة بإفريقيا، ليس بالغرب مدينة أجلّ منها إلى أن قدمت العرب إفريقيا، هي مدينة مُصّرت في الإسلام في أيام معاوية. معجم البلدان، ج٤/ص ٤٧٦.

(٦) قرطجنة: أو قرطاجة هي مدينة فينيقية قديمة في إفريقيا الشمالية أسّستها أليسار، أو ديدون أخت بغماليون ملك صور نحو ٨٢٥ ق.م. أصبحت إمبراطورية قوية نازعت روما في الحروب الفونيّة. أطلالها بضاحية تونس.

(٧) برقة: شبه جزيرة في ليبيا شرقي خليج سرت. في شماليها هضبة الجبل الأخضر. من مدنها بنغازي.

Marfat.com

حسان الجنود والأموال، وأمره أن يناجز «دهيا» الكاهنة، فأرسل حسان رسولاً سراً إلى خالد بن يزيد، فكتب إليه خالد يعرفه تفرق البربر بظلم الكاهنة ويأمره بالسرعة فسار حسان وعلمت الكاهنة فقالت: إن العرب يريدون البلاد والذهب والفضة ونحن إنما نريد المزارع والمراعي ولا أرى إلا أن أخرب أفريقيا حتى ييأسوا منها، ثم فرقت أصحابها فخربوا البلاد وهدموا الحصون ونهبوا الأموال فلما قرب حسان من البلاد لقيه جمّ من أهلها من الروم يشكون إليه ظلم الكاهنة فسار إلى «فانيس» فلقيه أهلها بالأموال والطاعة، فجعل فيها عاملاً، فسار إلى قعصة فأطاعه من بها، واستولى عليها وعلى «قسطيلة» ونفذ أمره وبلغ الكاهنة قدومه، فأحضرت ولديها وخالد بن يزيد وقالت لهم: إني مقتولة هذه المرة فامضوا إلى حسان وخذوا لأنفسكم منه آماناً. فساروا إليه وبقوا معه، وسار حسان نحوها فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم البربر وقتلوا قتلاً ذريعاً، وأدركت الكاهنة فقتلت، ثم استأمن البربر إلى حسان فأمنهم وشرط عليهم أن يكون منهم عسكر مع المسلمين عدتهم اثنا عشر ألفاً فأجابوا فجعل على هذا العسكر أحد ابني الكاهنة المذكورين.

ديدون[1] ابنة الملك بقلوس

هي ملكة «سورو»[2] زوجة «سيته» كاهن «هركليس» الذي كان أغنى الفينيقيين على بكرة أبيهم وأجملهم خَلقاً وخُلقاً ثار أخوها «بكاليون» بزوجها فقتله طمعاً في استلاب كنوزه فجزعت عليه «ديدون» جزعاً عظيماً، ولم تطق بعده المكث في صور ففرت مع أخيها «برقا» وقوم ممن تغيروا على أخيها زاعمة أن زوجها المقتول قد أمرها بالرؤيا أن تبارح صور وكانت قد نقلت خفية إلى محل اسمه «كرنا» واقع بين صور وصيدا قسماً جليلاً من أمتعتها وثروتها فركبت من هناك سائرة إلى شمال فينيقية فعاجت بسيرها لجزيرة قبرص، وكان يوم عيد، فرأت على الشاطئ ربرباً من أجمل بنات الجزيرة مجتمعات هناك للهو والمرح، فاختطف رجالها منهن وأقلعوا حتى إذا بلغوا سواحل «زوجيتا» تجاه جزيرة صقلية، استأذنت «ديدون» ملكها «برياس» في بناء قلعة فأذن لها على شريطة أن تبذل له خراجاً فرضيت وبنت هناك قلعة بصرة ومعناه حصن باللغة الفينيقية فحرفه اليونان في لغتهم فسموها «برسا» أي جلد الثور.

---

(١) ديدون: أو أليسّا (Didon)، ملكة صور الأسطورية وشقيقة بغماليون. هجرت وطنها بعد مقتل زوجها بيد شقيقها واستقرت في شمالي إفريقيا، وأسست قرطاجة نحو ٨١٤ ق.م. ذكر فرجيل في الإنياذة أن إنياس نزل عندها في هربه فهامت به، لكن جوبيتر أمره بتركها إلى إيطاليا، فانتحرت بطعنة خنجر وألقت بنفسها فوق محرقة.

(٢) سورو: هي صور ولعل هذه التمسية فينيقية.

Marfat.com

ثم اشترت من ملك موريطانيا أرضاً أنشأت فيها مدينة قرطاجنة الأفريقية، وذلك سنة ٨٦٠ قبل المسيح وكان «أياریاس» قد شغف بها حباً فخطبها[١] من نفسها ولما لم تسعها مخالفته حرصاً على حياة قومها، وكانت مرتبطة مع زوجها المقتول بقسم أن لا تستبدله بآخر، طلبت مهلة ثلاثة أشهر لكي تستعدّ للزفاف عليه فلباها، ولكنها في نهاية المدة المذكورة علت رابية هناك وطعنت نفسها بخنجر فماتت. فكانت سيرتها موضوعاً جميلاً لكتبة الإفرنج يبنون عليها رواياتهم المفجعة وقد عثر المتأخرون على تمثال لـ «ديدون» منحوت بيد «كيرين» الشهير. قيل: إنه محفوظ الآن بدار الآثار في لندن.

(١) وهناك رواية أخرى ذكرها فرجيل في الإنياذة مفادها: أن إيناس أو أياریاس نزل عندها في هربه فهامت به، لكن جوپيتر أمره بتركها إلى إيطاليا، فانتحرت بطعنة خنجر وألقت بنفسها فوق محرقة.

Marfat.com

حرف الذال

ذات الخال

هي في الأصل لقرين مولى العباسة بنت المهدي[1] ويكنى بأبي الخطاب وكان يعشقها إبراهيم الموصلي وله فيها أشعار كثيرة منها قوله:

ما بال شمس أبي الخطاب قد حجبت يا صاحبيّ لعل الساعة اقتربتْ
أولا فما بال ريح كنت آنسها عادت عليّ بصرّ بعد ما جنبتْ
إليك أشكو أبا الخطاب جارية غريرة بفؤادي اليوم قد لعبتْ
وأنت قيمها فانظر لعاشقها يا ليتها قربت مني وما بعدتْ

وما زال يقول فيها الشعر ويغني فيه حتى شهرها بشعره وغنائه وبلغ الرشيد خبرها فاشتراها بسبعين ألف درهم.

ودعت الرشيد يوماً فوعدها أن يصير إليها وخرج يريدها فاعترضته جارية أخرى، فسألته أن يدخل إليها فدخل وأقام عندها، فشق ذلك على «ذات الخال» وقالت: والله لأطلبن له شيئاً أغيظه به، وكانت من أحسن النساء وجهاً، ولها خال على خدها فقطعته وبلغ ذلك الرشيد فشق عليه وبلغ منه فخرج من موضعه وقال للفضل بن الربيع[2]: انظر من بالباب من الشعراء؟

---

(١) هي عُليّة بنت المهدي بن المنصور من بني العباس ولدت سنة ١٦٠ هـ/ ٧٧٧ م، أخت هارون الرشيد، العباسية، أديبة شاعرة، تحسن صناعة الغناء، من أجمل النساء وأظرفهن وأكملهن فضلاً وعقلاً وصيانة. كان أخوها إبراهيم بن المهدي يأخذ الغناء عنها. وكان في جبهتها اتّساع يشين وجهها فاتّخذت عصابة مكلّلة بالجواهر لتستر جبينها. وهي أوّل من اتخذتها. توفيت سنة ٢١٠ هـ/ ٨٢٥ م.

(٢) هو الفضل بن الربيع بن يونس، أبو العباس، وزير وأديب حازم، كان أبوه وزيراً للمنصور العباسي. استحجبه المنصور لما ولّى أباه الوزارة، فلما آل الأمر إلى الرشيد واستوزر البرامكة كان الفضل من كبار خصومهم، حتى ضربهم الرشيد تلك الضربة. قال صاحب الغربال: كانت نكبتهم على يديه. ولي الوزارة بعد ذلك إلى أن مات الرشيد، استخلف الأمين فاستوزره، فعمل على مقاومة المأمون، توفي بطوس سنة ٢٠٨ هـ/ ٨٢٤ م.

Marfat.com

فقال: رأيت الآن الأحنف[1]. فقال: أدخله. فعرفه الرشيد الخبر، وقال: اعمل في هذا شيئاً على معنى رسمه له، فقال:

تخلصت ممن لم يكن ذا حفيظة وملت إلى من لا يغيره حالُ
فإن يك قطع الخال لما تعطفت على غيرها نفسي فقد ظلم الخالُ

فنهض الرشيد إلى «ذات الخال» مسرعاً مسترضياً وجعل لها هذين البيتين سبباً وأمر للعباس بألفي دينار وأمر إبراهيم الموصلي فغناه في هذا الشعر.

وغضب الرشيد عليها يوماً وقال في مجلسه: أيكم يأخذ «ذات الخال» حتى أهبها له فبكر حمويه الوصيف فقال: أنا يا أمير المؤمنين فوهبها له، فقال إبراهيم:

أتحسب ذات الخال راجية ربا وقد سلبت قلباً يهيم بها حبا
وما عذرها نفسي فداها ولم تدع على أعظمي لحماً ولم تبقي لبا

ثم اشتاقها بعد ذلك الرشيد فقال لحمويه: ويلك يا حمويه، وهبنا لك الجارية على أن تسمع غناءها وحدك قال: يا أمير المؤمنين، مر فيها بأمرك. قال: نحن عندك غداً فمضى فاستعدّ لذلك واستأجر لها من بعض الجوهر بين زينة وعقوداً ثمنها اثنا عشر ألف دينار، فأخرجها إلى الرشيد وهو عليها، فلما رآه أنكره فقال: ويلك يا حمويه من أين لك هذا وما وليتك عملاً تكسب فيه مثله، ولا وصل إليك مني هذا القدْر؟ فصدقه عن أمره فبعث الرشيد إلى أصحاب الجوهر فأحضرت واشترى الجوهر منهم ووهبه لها، ثم حلف أن لا تسأله في يومه ذلك حاجة إلا قضاها فسألته أن يولي حمويه الحرب والخراج بفارس سبع سنين، ففعل ذلك، وكتب له عهده به وشرط على ولي عهده أن يتمها له إن لم تتم في حياته ومضوا يومهم في أحسن ما يكون، ومن قول إبراهيم فيها:

أبد لذات الخال يا ثعلب قول امرئ في الحب لا يكذب
إني أقول الحق فاستيقني كل امرئ في حبه يلعب

وقال فيها أيضاً:

جزى الله خيراً من كلفت بحبه وليس به إلا المموّه من حبي
وقالوا قلوب العاشقين رقيقة فما بال ذات الخال قاسية القلب
وقالوا لها هذا محبك معرضاً فقالت أرى إعراضه أيسر الخطب

---

(١) هو العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفي اليمامي، أبو الفضل، شاعر غزل رقيق، نشأ في بغداد، وتوفي بها سنة ١٩٢ هـ/٨٠٨ م. خالف الشعراء في طريقتهم فلم يمدح، ولم يهجُ، بل كان شعره كله غزلاً وتشبيباً. هو خال إبراهيم بن العباس الصولي.

Marfat.com

فمـــا هـــو إلا نظـــرة بتبســـم فتنشـب رجـلاه ويسقـط للجنـب

وقال فيها أيضاً. ولكن فلنذكر السبب وهو أن إبراهيم الموصلي لعب الشطرنج يوماً مع ابن زيدان صاحب البرامكة فدخل عليهما إسحاق فقال أبوه: ما أفدت اليوم؟ فقال: أعظم فائدة، رجل سألني ما أفخم كلمة في الفم فقلت: لا إلٰه إلا الله. فقال أبوه: إبراهيم أخطأت، هلا قلت دنيا وديناً فأخذ ابن زيدان الشاه فضرب به رأس إبراهيم وقال: يا زنديق، أتكفر بحضرتي فأمر إبراهيم غلمانه فضربوا ابن زيدان ضرباً شديداً فانصرف من ساعته إلى جعفر بن يحيى[١] وحدّثه الخبر وعلم إبراهيم أنه قد أخطأ وجنى، فركب إلى الفضل بن يحيى[٢] فاستجار به فاستوهبه الفضل من جعفر فوهبه له فانصرف وهو يقول:

إن لم يكن حب ذات الخال عناني إذاً فحوّلت في مسك ابن زيدانِ
فـإن هـذي يميـن مـا حلفـت بهـا إلا على الصدق في سري وإعلاني

ذبيّة بنت ثبية[٣] الفهمية

كانت من أحسن نساء بني فهم[٤] حسباً وأعرقهن نسباً، وأكثرهن أدباً، وأبهاهن جمالاً، وألطفهن كمالاً، لها أشعار لطيفة ورثاء مقبول منها: قولها ترثي قومها كانوا قتلوا بصورة[٥] وهو مكان بأراضي مكة:[٦]

ألا إن يـوم الشـر يـوم بصـورة ويـوم فنـاء الـدمـع لـو كـان فـانيـاً

---

(١) هو جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، أبو الفضل، وزير الرشيد العباسي، ولد سنة ١٥٠ هـ/٧٦٧ م في بغداد ونشأ فيها. استوزره هارون الرشيد ملقياً إليه أزمّة الملك. كان يدعوه: أخي. فانقادت له الدولة، يحكم بما يشاء فلا ترد أحكامه إلى أن نقم الرشيد على البرامكة نقمته المشهورة، فقتله في مقدّمتهم، ثم أحرق جثته بعد سنة. كان ذلك في سنة ١٨٧ هـ/٨٠٣ م.

(٢) هو الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي ولد سنة ١٤٧ هـ/٧٦٥ م، وزير الرشيد العباسي، وأخوه في الرضاع، كان من أجود الناس. استوزره الرشيد مدة قصيرة، ثم ولاّه خراسان سنة ١٨٧ هـ/٨٠٣ م، فحسنت سيرته، وأقام إلى أن فتك الرشيد بالبرامكة سنة ١٨٧ هـ/٨٠٣ م. وكان الفضل عنده ببغداد فقبض عليه وعلى أبيه يحيى وأخذهما معه إلى الرقة فسجنهما. توفي الفضل في سجنه سنة ١٩٣ هـ/٨٠٨ م.

(٣) ورد اسمها في معجم البلدان ج٣/ص ٤٩٣، في الحديث عن «صورة»: ذبية بنت «بيشة» الفهمية، وليس بنت «ثبية».

(٤) بنو فهم: بطن من بني بحر بن لخم من القحطانية، مساكنهم مع قومهم بني بحر بالحي الكبير من الأطفيحية، وإليهم تنسب البلدة المعروفة بالفهمين.

(٥) صورة: مكان في صدر «يلملم» من أراضي مكة. ورد ذكره في أخبار هذيل. معجم البلدان، ج٣ص ٤.

(٦) معجم البلدان، ج٣/ص ٤٩٣.

Marfat.com

لعمري لقد أبكت فريم وأوجعوا بجرعة بطن القيل من كان باكيا
قتلتم نجوماً لا يحوّل ضيفهم ولا يذخرون اللحم أخضر ذاويا
عماد سمائي أصبحت قد تهدّمت فخري سمائي لا أرى لك بانيا

ذؤابة امرأة رباح القيسي

كانت ـ رضي الله عنها ـ تقوم الليل كله وكانت إذا مضى الربع الأوّل تقول له: قم يا رباح للصلاة، فلا يقوم، فتقوم ثم تأتيه وتقول له: قم يا رباح، فلم يقم، فتقوم الربع الآخر، ثم تأتيه وتقول: قم يا رباح فلا يقوم، فتقوم الربع الآخر، إلى تمام الليل ثم تأتيه وتقول: قم يا رباح، قد مضى عسكر الليل وأنت نائم فليت شعري من غرني بك يا رباح ما أنت إلا جبار عنيد.

وكانت تأخذ تبنة من الأرض وتقول: والله للدنيا أهون عليّ من هذه وكانت إذا صلت العِشاء تطيبت ولبست ثيابها ثم تقول لزوجها: ألك حاجة فإن قال لا نزعت ثياب زينتها وصلت إلى الفجر ـ رضي الله عنها.

Marfat.com

حرف الراء

راحاب الإسرائيلية

امرأة مشهورة من «أريحاء»[١] قبلت في بيتها الجاسوسين اللذين أرسلهما «يشوع»[٢] ليجسّا الأرض وأخبأتهما عن أبناء بلدتها وأنقذتهما بحيلة كما هو مذكور في «الإصحاح الثاني من سفر يشوع»[٣] غير مطيعة لأمر الملك فكوفئت على ذلك بإنقاذها هي وكل عائلتها عندما فتح الإسرائيليون المدينة، ومن الاتفاق أن بيتها كان مبنياً على السور فأمرها الجاسوسان أن تربط خيطاً من القرمز بالطاق فيكون علامة لهم على بيتها ثم صارت فيما بعد زوجة لسلمون وجدة للمسيح وقصتها مع الجاسوسين إلى غير ذلك من أخبارها مذكورة في «الإصحاح الثاني والسادس من سفر يشوع»[٤]. وذكرت أيضاً في «إنجيل متّى»[٥] والرسالة إلى العبرانيين[٦] ورسالة يعقوب الرسول[٧].

راحيل ابنة لابان

هي زوجة يعقوب وأم يوسف وبنيامين قصتها وردت في «الإصحاح تسعة وعشرين»[٨] إلى «الإصحاح ثلاثة وثلاثين»[٩]. وفي «الإصحاح خمسة وثلاثين من سفر

---

(١) أريحاء: هي أريحا من أعمال فلسطين.
(٢) يشوع: هو يشوع بن نون من سبط إفرائيم. خادم موسى وخلفه. أدخل العبرانيين أرض كنعان، وقاد جيشهم في محاربة العمالقة فاجتاز الأردن ودخل أريحا.
(٣) يراجع الإنجيل العهد القديم.
(٤) يراجع الإنجيل العهد القديم.
(٥) يراجع الإنجيل العهد الجديد إنجيل مَتّى.
(٦) يراجع الإنجيل العهد الجديد الرسالة إلى العبرانيين.
(٧) يعقوب: هو يعقوب بن إسحاق وأخو عيسو. والد يوسف «النبي» وإخوته الذين تنسب إليهم أسباط إسرائيل الاثنا عشر.
(٨) يراجع الإنجيل العهد القديم.
(٩) يراجع الإنجيل العهد القديم.

Marfat.com

التكوين»[١]. وما جرى بينها وبين يعقوب هو من الأمور التي تلذ مطالعتها، فإن جمالها والحب الشديد الذي كان ليعقوب نحوها من حين التقيا أولاً على بئر «حاران» حين قابلها على عادة أهل البادية وأخبرها بأنه ابن رفقة[٢] والخدمة المستطيلة التي خدم بها إياها بصبر حتى كانت السبع سنين عنده كأنها أيام قليلة صبا بها واتخاذه إياها زوجة أخيراً عوض أختها «لبتة» وموتها عند ولادتها ابناً ثانياً كل ذلك مما يزيد قصتها اعتباراً ولذة.

ولما توفيت دفنت على طريق «أفراتة» ـ أي بيت لحم[٣] ـ وأقام يعقوب نصباً على قبرها وهو أول نصب على قبر مذكور في التاريخ لأن أهالي تلك الأزمان كانت عادتهم إلى ذلك الوقت أن يتخذوا المقابر مدافن لهم وكان موقع قبرها معروفاً في أيام «صموائيل»[٤] و«شاول»[٥] كما يستفاد من العدد الثاني من «الإصحاح العاشر من سفر صموائيل الأول»[٦] وقد وصفها «إرميا»[٧] النبي بعبارات مؤثرة جداً: «راحيل» المدفونة تبكي على فقد بنيها وذلك لأن جماهير المسبيين الذين سيقوا إلى بابل[٨] اجتازوا بالقرب من قبرها.

وقد أشار إلى ذلك «متّى الإنجيلي»[٩] عند قتل «هيروس» الأطفال في بيت لحم. وأما موقع الرامة الوارد ذكرها هناك فهو من المسائل الواقعة تحت البحث عند جغرافي فلسطين ولكن موقع قبر «راحيل» على طريق بيت لحم بعيداً قليلاً عن «أفراتة» في تخم بنيامين لم يقع فيه اختلاف وهو على بعد نحو ميلين إلى الجنوب من أورشليم ونحو ميل إلى الشمال من بيت لحم، وهو من الأماكن التي يزورها اليهود والمسلمون والمسيحيون تبركاً به وزاره السائح

---

(١) يراجع الإنجيل العهد القديم.
(٢) رفقة: زوجة إسحاق وأم عيسو ويعقوب.
(٣) أفراتة: بيت لحم، مدينة في فلسطين جنوبي القدس، مهد المسيح.
(٤) صموائيل: أو صموئيل هو آخر قضاة بني إسرائيل من سبط شمعون. مسح الملكين شاول وداود.
(٥) شاول: لعله بولس الرسول.
(٦) يراجع الإنجيل العهد القديم.
(٧) إرميا: أحد كبار أنبياء إسرائيل الأربعة ٦٥٠ ـ ٥٨٥ ق.م. تنبّأ بسقوط أورشليم، ينسب إليه كتاب: مراثي إرميا.
(٨) بابل: أكبر وأشهر مدن الشرق القديم، أنقاضها على الفرات شرقي بغداد قرب الحِلّة. اشتهرت فيها الدولة البابلية الأولى نحو الألف الثاني قبل الميلاد. حلّت محل سومر وأكّد وبلغت عصرها الذهبي مع المشترع الكبير حمورابي ١٧١١ ـ ١٦٦٩ ق.م. ثم تغلّب عليها الحِثّيون والآشوريون. ظهرت فيها الدولة البابلية الثانية ٦٢٦ ـ ٥٣٩ ق.م. أشهر ملوكها نبوخذ نصر الثاني. دمّرها سنحاريب الآشوري سنة ٦٨٩ ق.م. أعاد بناءها أسرحدّون. احتلها قورش ملك الفرس سنة ٥٣٩ ق.م. والإسكندر سنة ٣٣١ ق.م. وفيها توفي، من آثارها باب عشتار وبلاط نبوخذنصّر الثاني، والطريق الملوكي.
(٩) متّى الإنجيلي: من تلاميذ المسيح، حلّ محل يهوذا الإسخريوطي.

Marfat.com

«متدريل» سنة ١٦٩٧ [م]، ووصفه الدكتور «روبنصن» وصفاً يتضمن ملخصه ما وصفه به السائحون الشرقيون قال: هو مزار إسلامي، أو مدفن شخص مقدّس، حقير، مربع، مبني بالحجارة وله قبة وداخله قبر أشبه بقبور المسلمين المألوفة، وكله مطين بالطين من خارج، ومنظر البناء لا يدل على أنه قديم.

وفي القرن السابع لم يكن هناك إلا شبه هرم من الحجارة، وأما الآن فهو مهمل وأخذ في السقوط على أن السائحين من اليهود لا يزالون يزورونه وجدرانه مغطاة بأسماء من عدّة لغات وكثير منها عبراني، واتفاق العموم على أن ذلك المقام هو قبر «راحيل» لا سبيل إلى الاعتراض عليه لأن ما ورد في الكتاب المقدّس يعضده من كل وجه. وقد ذكره أيضاً كثيرون من السائحين منذ سنة ٣٣٣ للميلاد وذلك «ايروتبموس» وغيره في ذلك العصر.

رادغنده ابنة برنير ملك تورتجه

ملكة فرنسوية، ولدت سنة ٥٢١ [م]، فلما قام أخوها «هرمنفرو» على أبيه وقتله واختلس الملك، نهض عليه «سيرى» و«كلوتير الأول» ملك فرنسا وسلباه الملك، واقتسماه بينهما، فوقعت «رادغنده» في حصة «كلوتير» وكانت قد تربت على الوثنية وكان عمرها حينئذٍ عشر سنوات فأدخلها «كلوتير» في المذهب المسيحي حتى إذا تهذبت وترعرعت تزوّجها سنة ٥٣٨ [م]، وألبست تاج الملك في «سواسون» وكان لها ميل شديد إلى العيشة الرهبانية، فلم تمض ست سنوات حتى استأذنت الملك في الاعتزال إلى بعض الأديرة فسمح لها ولم يكن له منها ولد وأقطعها أرضاً تعيش فيها إذا أرادت فأتت أولاً إلى «بواتيه»، ثم انتقلت سنة ٥٤٤ [م] لما قاطعها فاشتهرت في «أكوتيانيا» بفضيلتها وتقواها حتى تقاطر إليها الناس وأشهر الأساقفة.

وفي سنة ٥٥٩ [م] أنشأت ديراً في «بواتيه» على اسم الصليب وذلك لأن الإمبراطور «بوتينوس» كان قد أهدى إليها هدية من جملتها قطعة من خشبة الصليب ثم بنت كنيسة على اسم العذراء وأقامت تمارس الفضائل وأعمال القداسة والتقشف والزهد إلى أن توفيت في ١٣ آب (أغسطس) سنة ٥٨٧ [م] ودفنت تحت الخورس في الكنيسة التي بنتها ونسب إليها فعل عجائب كثيرة ونقلت جثتها إلى «ديجون» عند اكتساح العرب «أكوتيانيا» في القرن الثامن، ثم أعيدت إلى «بواتيه» بعد مدة طويلة.

وقيل: لما فتح قبرها سنة ١٤١٢ [م] كان جسدها باقياً لم يبل وبقي هناك إلى سنة ١٥٦٢ [م] ثم تلاشى وتفرقت أجزاؤه في الحروب الدينية. ولها عيد في ١٣ آب المذكور. وكتب كثيرون من الآباء سيرتها، ونظموا على اسمها قطعاً كثيرة للترتيل، وحفظت

Marfat.com

من خط يدها رسالة بعثت بها قبل موتها بقليل إلى كل أساقفة فرنسا عنوانها وصية «رادغنده».

رادكليف[١] مؤلفة إنكليزية

ولدت في لندن سنة ١٧٦٤ [م]، وتوفيت سنة ١٨٢٣ [م]. وتزوّجت رجلاً من «أكسفرد» صاحب جريدة، واشتغلت في تصنيف قصص على طرز جديد فاشتهرت في وقت قليل بحذقها في الإنشاء وحسن أساليبها وكان مدار مواضيع هذه القصص بث انفعالات شديدة في النفس كالرعب والهول وغوامض الأسرار والأمور العجيبة فالذي يقرؤها يتوهم نفسه محاطاً بالخيالات والأشباح الوهمية والأرواح الجهنمية أو السماوية، ثم يظهر سرها وينكشف أمرها في آخر القصة فتنطبق على أسباب طبيعية.

وقيل: إنها هي نفسها كانت تتخيل مثل هذه الخيالات المطبوعة في مخيلتها أفضى بها الأمر إلى اختلال عقلها في أواخر حياتها، ولما شاعت قصصها وتطلبها الناس برغبة صار بعض الكتبة ينشر قصصه تحت اسمها من قلمه، وإذ لم تر هذه القصص المزورة لائقة بها انقطعت عن التصنيف ولم تكتب منذ ظهورها شيئاً ويقال: إن القصة التي عنوانها «أسرار أودلف» اشتراها منها صاحب المطبعة بمبلغ ٢٥ ألف فرنك وترجمت كل قصصها إلى الفرنساوية.

راعوث امرأة موابيه

كانت أولاً زوجة لـ «محلون» وبعد وفاته تزوجت بـ «بوعز» فولد له منها «عوبيد»[٢] جدّ داود النبي. وهي واحدة النساء الأربع اللواتي ذكرهن القديس متَّى في سلسلة «ميلاد المسيح»[٣] والثلاث الأخر هن «ثاماء» و«راجاب» وزوجة «أوريا»وما جرى لـ«راعوث»[٤] مذكور بطريقة لطيفة في السفر المنسوب إليها وملخصه: أنه حدث جوع شديد في أرض «يهوذا»[٥] ربما نشأ من حلول الموآبيين[٦] تلك الأرض في أيام «عجلون»[٧] فألجئ أليملك

---

(١) رادكليف: هي آن ورد رادكليف (Radcliffe) أديبة إنكليزية ولدت سنة ١٧٦٤ م. لها روايات رعب مشهورة، منها: أسرار أودلف. توفيت سنة ١٨٢٣ م.

(٢) عوبيد: أو عوبديا، أحد أنبياى بني إسرائيل في القرن الخامس قبل الميلاد. له نبوءة.

(٣) لوقا (٢: ١ ـ ٧).

(٤) راعوث: أو راعوت وهي امرأة مؤابيّة، تزوجت بوعز فولدت له عوبيد جدّ داود الملك، يحمل اسمها أحد أسفار العهد القديم.

(٥) يهوذا: هو يهوذا بن يعقوب إليه ينسب أحد أسباط إسرائيل، ومملكة يهوذا.

(٦) الموآبيّون: هم أبناء مؤاب بن لوط، وجدّ المؤابيّين. كانت عاصمتهم ربّة مُؤاب شرقي البحر الميت.

(٧) عجلون: مدينة أردنية فيها أطلال أيّوبية.

Marfat.com

من أهالي بيت لحم «أفراتة» أن يهاجر إلى أرض مداب هو وزوجته نعمى وابناه «محلون» و«كلبون» وبعد مضي عشر سنين ترملت نعمى ومات ولداها وسمعت أنه قد زالت المجاعة من أرض «يهوذا» فرجعت «راعوث» وكنتها معها لأنها كانت تحبها جداً وتحب ديانتها فوصلت إلى بيت لحم في أيام حصاد الشعير فذهبت «راعوث» لتلتقط شعيراً للقيام بأمر حماتها واتفق أنها أتت حقل «بوعز» وكان رجلاً غنياً وقريباً لحميها أليملك وكان القوم قد بلغهم ما كان من صنيعها مع حماتها وأمانتها لها وتفضيلها لأرض بعلها على وطنها فأحسن «بوعز» معاملتها وأعطاها ما التقطته ثم اتخذها له زوجة فرزق منها أولاداً كان من سلالتهم المسيح وإذ كانت «راعوث» جدة نبي الله داود يستنتج أنها كانت في أواخر حبرية «عالي»[1] أو أول حبرية «صموائيل» ومن أراد تفاصيل قصتها فليراجعها في سفر راعوث[2].

راحيل الممثلة الشهيرة

ولدت هذه الشهيرة في الرابع والعشرين من شهر [مارس][3] سنة ١٨٢١ [م] في قرية منف من أعمال سويسرا وكان أبوها يهودياً يحمل البضاعة ويطوف بها على البيوت وكان اسمها في الصغر «أليا» ثم دعيت «راحيل» بعد أن صارت مشخصة وكان لها أخ وأربع أخوات صاروا جميعهم مشخصين.

وانتقلت هذه العائلة من «سويسرا» إلى «جرمانيا»، ثم جاءت فرنسا فاستوطنت أولاً بهون، ثم انتقلت إلى باريس وكانت «راحيل» وأختها «سارة» تغنيان في القهاوي والأزقة، وكان الناس يتصدقون عليهما واتفق يوماً أن رآهما أحد المحسنين فعجب بهما وبالأخص بـ«راحيل» وسألها قائلاً من علمك الغناء؟ فأجابته: قد تعلمته بنفسي. فقال لها: وأين سمعت هذه الأغنية؟ فأجابت: قد سمعتها وأنا في الشوارع أمام الشبابيك، فحفظت منها ما أمكن حفظه فأعطاها بعض الثياب وصرفها ومن ذلك الوقت لم تعد تظهر في الشوارع.

وظهرت «راحيل» أوّل مرة في المرسح الفرنساوي في ١٢ يونيو سنة ١٨٣٨ [م]، ولم يكن في المرسح سوى أربعة أو خمسة أشخاص على الكراسي وبعض اليهود في أعلى التياترو، وهؤلاء كانوا قد أتوا ليسمعوا ابنة ملتهم وقد وصف الدكتور «فرون» تلك الليلة بقوله: ذهبت ذات يوم مساء للتنزه وكان الوقت حاراً قليلاً شأن أيام الصيف عندنا فدخلت

---

(١) عالي: قاضي إسرائيل. مات وولديه في يوم واحد.
(٢) يراجع الإنجيل العهد القديم.
(٣) وردت في الأصل «مارت»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

Marfat.com

المرسح الفرنساوي وإذا في محل التمثيل فتاة جديدة، وقد رأيت على وجه هذه الفتاة ملامح الحذق والذكاء حتى إن كل لفتة منها كانت تأتي بمعنى جديد إلى أن قال: وما أخال أحداً من القراء يجهل هذه الفتاة التي ملأ ذكرها الأسماع ـ ألا وهي «راحيل» الممثلة الشهيرة ـ ولم يأت آخر (أغوسطوس) من تلك السنة حتى ملأ صيتها باريس، وأطنب بمدحها كثيرون من أرباب الأقلام، من جملتهم «جولجانن» الشهير.

وفي مدة لا تزيد عن ثلاثة أشهر توجت ملكة التمثيل وأشغلت الناس عن سواها من ممثلات تلك الأيام واعتبرها الشعب الفرنسوي غاية الاعتبار، فكانت واسطة عقد جمعياتهم وزهرتها، وكانت الدعوات تأتي إليها من كل صوب حتى إنها كتبت إلى أحد أصدقائها تقول: لا يمكن للإنسان أن يأخذ حريته في معيشته إذا كان ممثلاً مشهوراً لدى الشعب الفرنسوي وكانت الوزراء تتردّد على التياترو لسماعها والملك «لويس فيليب»[1] أتى التياترو مرات عديدة إكراماً لها وذلك خلاف عادته ولم ينسها النجاح أهلها بل كانت تودهم كثيراً، وكتاباتها لهم مملوءة من المحبة والحنو، وكانت تود أصحابها القدماء كثيراً، وبلغها ذات يوم وفاة أحدهم فأرسلت إلى عائلته مبلغاً هائلاً من المال.

وقد أحيت بتمثيلها العوائد والمناظر الرومانية واليونانية التي كان قد مضى عليها مدة طويلة في زوايا النسيان، وقد وصفها «إسكندر دوماس» الراوي الشهير بأنها ذات سلطان قوي على عقول السامعين، فتؤثر فيهم حركاتها ونظراتها وصوتها المشجى حتى كانوا يملون من الفترة بين الفصول. وذهبت «راحيل» سنة ١٨٤٠ [م] إلى إنكلترا فأطنبت الجرائد بمدحها منها جريدة «التيمس» التي قالت: «إن تأثيرها في العقول ابتدأ من أول عبارة لفظتها».

وذكر أحد الذين حضروا هناك أنها كانت تظهر أمامهم بجميع المظاهر وتبين لهم القلب البشري بكل أوصافه فكانت تظهر تارة بزي القتلة، فتبدو على وجهها علامات الغضب والشر حتى لا يشك الناظر أنها قاتلة ثم تمثل دوراً لطيفاً فتغلب عليها طبيعة النساء وتظهر من الرقة واللطف ما يخلب الألباب، وهكذا كانت تتلاعب بالحاضرين كأنهم آلة في يدها، ومما يدل على ثباتها وعزمها ما أظهرته في تمثيل رواية «بايزيد» فإنها مثلتها أول مرة في ٢٣ (نوفمبر) سنة ١٨٣٨ [م]، ولم تنجح فعادت بالفشل. وفي اليوم الثاني نشرت الجرائد الخبر في المدينة

---

(١) لويس فيليب: الأول ولد سنة ١٧٧٣ م هو أحد ملوك فرنسا. حكم سنة ١٨٣٠ م وبقي حتى ١٨٤٨ م. قامت عليه ثورات عدّة فقمعها. كان وزيره غيزو هو الحاكم الفعلي منذ سنة ١٨٤٠ م، عُرف بتشديده في رفض الإصلاحات الانتخابية. اعتزل بعد ثورة سنة ١٨٤٨ م. بقي في فرنسا إلى أن توفي سنة ١٨٥٠ م.

Marfat.com

كلها وقام الانتقاد عليها من كل صقع وناد، ولما رأت ذلك سارت إلى صديقها «جانن» الذي مر ذكره لعلها تلطف حكمه عليها ولو قليلاً فقابلها بلطف وبيَّن لها غلطها ونصحها أن لا تقدم على تمثيل هذه الرواية مرة أخرى فقالت له: إني سأمثل هذه الرواية بعد رغماً عن كل أهل باريس ومثلتها، كما قالت، فنجحت النجاح التام حتى أذهلت الحاضرين، وكان «ألفردميست» من جملة المشهِّرين لها فإنه كان يمدحها في الجرائد ويحث الناس على الأخذ بيدها وتنشيطها. حكي أنه صادفها ذات ليلة خارجة من التياترو الفرنساوي فدعته مع بعض الأصدقاء إلى العشاء قال:

لما وصلوا إلى البيت نظرت إلى يديها فرأت أنها نسيت أساورها وخواتمها في التياترو فأرسلت خادمتها تجيء بها إليها، ولما لم يكن في بيت أبيها غير هذه الخادمة قامت هي بنفسها وذهبت إلى المطبخ ثم عادت بعد ربع ساعة ووضعت أمامها صحناً من المرق وبعض اللحم المشوي وطلبت إلينا أن نأكل من الصحون الكبيرة إذ كانت الصحون الصغيرة في الخزانة، والمفتاح مع الخادمة، وكانت وهي على العشاء تحدثنا عن حالتها الأولى وما كان أبوها عليه من الفقر وكانت والدتها وأخواتها ينظرون إليها شزراً ويشيرون إليها بأن تسكت.
أما هي فأجابتهم: أنه لا عيب في الفقر بل إنها تفخر بأنها نشأت من حال كهذه ووصلت إلى ما وصلت إليه بجدّها. وبعد العشاء ذهب [الأصدقاء][1] وبقيت أنا وحدي فأخذت تقرأ لي أشعار «راسين» وقد رأيت أنها تفهمها جيداً، ودامت كذلك حتى مضى نصف الليل ورجع أبوها، فلما رآها انتهرها وأمرها بأن تنام حالاً فقامت والدموع ملء عينها وسمعتها تقول وهي ذاهبة: سأشتري قنديلاً وأضعه في غرفتي الخصوصية حتى لا يمنعني أحد من المطالعة، فذهبت متعجباً من اجتهادها وثباتها.

وذكر في موضع آخر أنه تغدى عندها ذات يوم وكان على الغداء عدة من الأصحاب فنظر أحدهم إلى يدها وقال لها: ما أجمل خاتمك! فقالت له: إذا كان قد أعجبك فسأضعه تحت المزايدة فدفع أحد الحضور خمسمائة فرنك ودفع الآخر ألفاً، وهكذا حتى بلغ ثلاثة آلاف، ثم التفتت إليّ وقالت لي: وأنت كم تدفع؟ فأجبتها: إني أدفع محبتي فرمت بالخاتم إلي وطلبت مني إتمام وعدي بنظم دور كانت طلبته مني.

وذهبت «راحيل» إلى إنكلترا مرة ثانية سنة ١٨٥٥ [م] فشخصت في قصر الملكة فأنعمت عليها الملكة بسوار قد كتبت عليه بالألماس إلى «راحيل» من الملكة «فيكتوريا»، وأرسل إليها «دوق ولنثون» رسالة يقول فيها: إني أرسل احتراماتي إلى الماداموازل «راحيل»

(١) زيادة أثبتناها لسلامة المعنى واتّساق الكلام.

Marfat.com

وقد استأجرت «لوجن» في التياترو حتى أتمكن من حضور تمثيلها.

وذهبت سنة ١٨٥٥ [م] إلى أميركا ولكنها لم تنجح لأن الأميركان لا يهتمون كثيراً بالروايات الفرنساوية لأنهم لا يفهمونها واشتدّ عليها مرض الصدر في نيويورك فرجعت إلى فرنسا وأشار الأطباء عليها بالقدوم إلى مصر فأتت إليها ولكنها لم تستفد كثيراً فيها لأنها شعرت بنفسها أنها وحيدة بعيدة عن أصدقائها حتى إنها كتبت إلى فرنسا تقول: إني سأموت من الوحدة لا من فعل المرض، لأني لا أرى حولي سوى خرائب الهياكل وأنقاض الأبنية ورجعت إلى فرنسا وزارت الملاعب التي كانت تمثل فيها، وتوفيت في الثالث من يناير سنة ١٨٥٨ [م] والإجماع على أنها ملكت زمام التمثيل فانقاد لها طوعاً ومع ما كانت من أمرها فقد أظهرت في عملها من الثبات والعزم رغماً عن ضيق ذات اليد ما تقصر عنه همم الرجال، وقد قالت مراراً عديدة: «إني اتخذت الصبر والثبات دستوراً بمعونة الله فوصلت إلى ما وصلت إليه».

رابعة الشامية

هي زوجة أحمد بن أبي الحواري. كانت من العابدات الزاهدات، وكان فضلها لا يقدر، وكراماتها لا تنكر.

قال أحمد بن أبي الحواري: كانت رابعة لها أحوال شتى، فمرة يغلب عليها الحب، ومرة يغلب عليها الأنس، ومرة يغلب عليها الخوف، فسمعتها في حال الحب تقول:

حبيب ليس يعدله حبيب ... وما لسواه في قلبي نصيبُ
حبيب غاب عن بصري وشخصي ... ولكن عن فؤادي ما يغيبُ

وسمعتها في حال الأنس تقول[1]:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدّثي ... وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس ... وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وسمعتها في الخوف تقول:

وزادي قليل ما أراه مبلغي ... أللزاد أبكي أم لطول مسافتي
أتحرقني بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائي فيك أين مخافتي

قال: فقلت لها مرة ـ وقد قامت بليل ـ: ما رأينا من يقوم الليل كله غيرك. قالت:

---

(١) هذان البيتان لرابعة العدوية أوردهما لها الشيخ شهاب الدين السهروردي في كتاب «عوارف المعارف». وقد أكد ذلك ابن خَلِّكان في «وفيات الأعيان» حيث أثبتهما في ترجمتها عن السهروردي، ج ٢/ ص ٢٣٩.

Marfat.com

سبحان الله مثلك يتكلم بهذا! إنما أقوم إذا نوديت. قال: فجلست على المائدة في وقت قيامها، فجعلت تذكرني فقلت لها: دعينا نتهنا بطعامنا. فقالت: ليس أنا وأنت ممن ينغص عليه الطعام عند ذكر الآخرة. وقالت: لست أحبك حب الأزواج إنما أحبك حب الإخوان. وقالت لزوجها: اذهب فتزوج. قال: فذهبت فتزوجت وكانت تطعمني الطعام وتقول: اذهب لأهلك، وكانت إذا طبخت قدراً قالت: كلها يا سيدي فإنها ما نضجت إلا بالتسبيح. وبقيت على عبادتها إلى أن توفاها الله.

رابعة ابنة الشيخ أبي بكر النجاري

قال في كتاب «الجلاء الغامض»: الست الفاضلة العارفة الكاملة زوجة السيد أحمد أم السيد صالح ست الفقراء رابعة كانت سليمة الصدر، نقية القلب، لها معرفة جاذبة وحزن دائم ولا تأخذها في الله لومة لائم كانت ذات سيرة جميلة وأوصاف حميدة سماها السيد أحمد: ست الفقراء وكناها أم الفقراء. ويقول: طاعتك على الفقراء واجبة، بكت بين يدي السيد أحمد مرة وقالت: كيف حالي بعدك أبقى أنا وحيدة ويغلق باب المسرة والابتهاج في وجهي؟ فقال ـ رضي الله عنه ـ: أهل المملكة يحبونك، وقولك مسموع، والنعمة عليك باقية. فإنقاذ أهل البيت الأحمدي لها مدة حياتها، وكانت تقف على ضريح زوجها وتكلمه وتنتظر الجواب منه فيأتيها شبيه الحلم بالجواب، وما أكرم أحد بعد وفاة زوجها بالولاية إلا وهي كانت عارفة به سألت ربها في خلافة السيد محمد الموت فتوفيت ليلة الجمعة النصف العاشر من شهر شوال سنة ٦١٣ [هـ] ودفنت في القبة المباركة.

رابعة ابنة إسماعيل البصرية العدوية[1] مولاة آل عتيك

كانت ـ رضي الله عنها ـ كثيرة البكاء والحزن، وكانت إذا سمعت ذكر النار غشي عليها زماناً، وكانت تقول: استغفارنا يحتاج إلى استغفار وكانت تردّ ما أعطاه الناس لها وتقول: ما لي حاجة بالدنيا وكانت بعد أن بلغت ثمانين سنة كأنها الخلال البالي تكاد تسقط إذا مشت، وكان كفنها لم يزل موضوعاً أمامها، وكان موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها، وسمعت ـ رضي الله عنها ـ سفيان الثوري[2] يقول: واحزناه فقالت: واقلة حزناه ولو كنت

---

(١) هي رابعة بنت إسماعيل العدوية، أم الخير، مولاة آل عتيك، البصرية، صالحة مشهورة من أهل البصرة، ومولدها بها. لها أخبار في العبادة والنسك، ولها شعر. من كلامها: «اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم». توفيت بالقدس سنة ١٣٥ هـ/ ٧٥٢ م.

(٢) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، من بني ثور بن عبد مناة، من مُضر، أبو عبد الله، أمير المؤمنين في الحديث. كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. ولد سنة ٩٧ هـ/ ٧١٦ م، نشأ =

Marfat.com

حزيناً ما هناك العيش. ومناقبها كثيرة ـ رضي الله عنها ـ ومشهورة. وجاء في ترجمتها لابن خلكان[١]: أنها كانت من أعيان عصرها وأخبارها في الصلاح والعبادة مشهورة، وذكر أبو القاسم القشيري في الرسالة أنها كانت تقول في مناجاتها: «إلٰهي تحرق بالنار قلباً يحبك». فهتف بها مرة هاتف ما كنا نفعل هذا فلا تظني بنا ظن السوء.

وقال بعضهم: كنت أهدي لرابعة العدوية فرأيتها في المنام تقول: هداياك تأتينا على أطباق من نور مخمرة بمناديل من نور، وكانت تقول: «ما ظهر من أعمالي لا أعدّه شيئاً». ومن وصاياها: «اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم».

وأورد لها الشيخ شهاب الدين السهروردي في كتاب عوارف المعارف هذين البيتين:

إني جعلتك في الفؤاد محدّثي وأَبَحْتُ جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وكانت وفاتها في سنة ١٣٥ [هـ] ذكره ابن الجوزي في «شذور العقود». وقال غيره[٢] سنة ١٨٥ [هـ] رحمها الله تعالى. وقبرها يزار وهو بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل يسمى الطور. وذكر ابن الجوزي في كتاب «صفوة الصفوة» في ترجمة رابعة المذكورة بإسناد له متصل إلى عبدة بنت أبي شوال.

قال ابن الجوزي: وكانت من خيار إماء الله تعالى، وكانت تخدم رابعة. قالت: كانت رابعة تصلي الليل كله فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر فكنت أسمعها تقول: إذا وثبت من مرقدها وهي فزعة: «يا نفس كم تنامين وإلى كم تنامين يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور».

وكان ذلك دأبها دهرها حتى ماتت ولما حضرتها الوفاة دعتني وقالت: «يا عبدة لا تؤذني بموتي أحداً وكفنيني في جبتي هذه» وهي جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون قالت: فكفنتها في تلك الجبة وفي خمار من صوف كانت تلبسه ثم رأيتها بعد ذلك بسنة أو نحوها في منامي عليها حلة استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم أر شيئاً قط أحسن منه

= بالكوفة. راوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم، فأبى. خرج من الكوفة سنة ١٤٤ هـ، فكسن مكة والمدينة. ثم طلبه المهدي، فتوارى. انتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفياً. من كلامه: «ما حفظت شيئاً فنسيته».

(١) ابن خَلِّكان، وفيات الأعيان، ج ٢/ ص ٢٣٨.

(٢) في مجلة لغة العرب أن للسيدة مرغريت سميت الإنكليزية كتاباً عن رابعة العدوية رجّحت فيه وفاتها سنة ١٨٥ هـ. وقالت: إنها عاشت وتوفيت ودفنت في البصرة.

Marfat.com

فقلت: يا رابعة، ما فعلت بالجبة التي كفناك فيها والخمار الصوف؟ قالت: «إن الله نزعه عني وأبدلت به ما ترينه عليّ فطويت أكفاني وختم عليها ورفعت في عليين ليكمل لي بها ثوابها يوم القيامة».

فقلت لها: لهذا كنت تعملين أيام الدنيا. فقالت: «وما هذا عندما رأيت من كرامة الله عز وجل لأوليائه» فقلت لها: ما فعلت عبيدة بنت أبي كلاب. فقالت: «هيهات هيهات سبقتنا والله إلى الدرجات العلا» فقلت: وبمَ وقد كنت عند الناس أكبر منها. قالت: إنها لم تكن تبالي على أيّ حال أصبحت من الدنيا أو أمست فقلت لها: فما فعل أبو مالك ـ أعني ضيغماً؟ ـ قالت: «يزُور الله ـ عز وجل ـ متى شاء». قلت: فما فعل بشر بن منصور قالت: «بخ بخ، أعطي والله فوق ما كان يؤمل». قلت: فمريني بأمر أتقرب به من الله عز وجل؟ قالت: عليك بكثرة ذكره يوشك أن تغتبطي بذلك في قبرك رحمها الله تعالى.

وكان الحسن البصري[1] توفيت زوجته فأراد زوجة فقيل له عن رابعة العدوية فأرسل إليها يخطبها، فردته وقالت:

راحتي يا إخوتي في خلوتي ... وحبيبي دائماً في حضرتي
لم أجد لي عن هواه عوضاً ... وهواه في البرايا محنتي
حيثما كنت أشاهد حسنه ... فهو محرابي إليه قبلتي
إن أمت وجداً وما ثم رضاً ... وإعنائي في الورى واشقوتي
يا طبيب القلب ياكل المنى ... جد بوصل منك يشفي مهجتي
يا سروري يا حياتي دائماً ... نشأتي منك وأيضاً نشوتي
قد هجرت الخلق جمعاً أرتجي ... منك وصلاً فهو أقصى منيتي

وكانت تقول مرة: «إلٰهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك بل حباً لك وقصد لقاء وجهك». وتنشد:

أحبك حبين حب الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواك

(١) هوالحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمنه. هو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النسّاك. ولد بالمدينة سنة ٢١ هـ/ ٦٤٢ م. شبّ في كنف علي بن أبي طالب، استكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية. سكن البصرة، عظمت هيبته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، لا يخاف في الحق لومة لائم. مات سنة ١١٠ هـ/ ٧٢٨ م.

Marfat.com

وأمـــا الـــذي أنـــت أهـــل لـــه فكشفـك لـي الحجـب حتـى أراكَ
فـــلا الحمـــد فـــي ذا ولا ذاك لـــي ولكـــن لـــك الحمـــد فـــي ذا وذاكَ

رابعة بنت إسماعيل

كانت تقوم من أول الليل إلى آخره، وكانت تقول: «إذا عمل العبد بطاعة الله تعالى أطلعه الجبار على مساوئ عمله فيتشاغل بها دون خلقه». وكانت تصوم الدهر وتقول: «ما مثلي يفطر في الدنيا».

وكانت تقول لزوجها: «لست أحبك حب الأزواج وإنما أحبك حب الإخوان». وكانت تقول: «ما سمعت أذاناً قط إلا ذكرت منادي يوم القيامة، ورأيت أهل الجنة يذهبون ويجيئون وربما رأيت الحور العين يستترن مني بأكمامهن». ومناقبها كثيرة رضي الله عنها.

الرباب بنت امرئ القيس[1]

ذكر في كتاب «نور الأبصار» ما ملخصه: إن الرباب بنت امرئ القيس بن عدي بن مرداس الكلبي، وكان نصرانياً فأسلم وجاء إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فدعا له برمح وعقد له على من أسلم بالشام من قضاعة[2] فتولى قبل أن يصلي صلاة، وما أمسى حتى خطب منه الحسين بنته الرباب فزوجه إياها فأولدها عبد الله وسكينة وكانت الرباب من خيار النساء وأفطنهن، وخطبت بعد قتل الحسين ـ رضي الله عنه ـ فقالت: ما كنت لاتخذ حماً بعد رسول الله ﷺ. وبقيت بعده سنة لا يظلها سقف بيت إلى أن ماتت رحمهما الله.

---

(١) هو امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المُرار، أشهر شعراء العرب على الإطلاق، يماني الأصل، مولده بنجد سنة ١٣٠ ق.هـ/ ٤٩٧ م. اشتهر بلقبه واختلف المؤرخون في اسمه فقيل: حُنْدُج، وقيل: مليكة، وقيل: عدي. كان أبوه ملك أسد وغطفان، أمه أخت المهلهل الشاعر، فلقَّنه المهلهل الشعر، فقاله وهو غلام. جعل يشبب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب، فبلغ ذلك أباه، فنهاه عن سيرته فلم ينتهِ. فأبعده إلى دمون بحضرموت، موطن آبائه وعشيرته، وهو في نحو العشرين من عمره. فأقام زهاء خمس سنين، ثم جعل ينتقل مع أصحابه في أحياء العرب، يشرب ويطرب ويغزو ويلهو، إلى أن ثار بنو أسد على أبيه وقتلوه، فبلغ ذلك امرأ القيس وهو جالس للشراب، فقال: رحم الله أبي! ضيّعني صغيراً وحمّلني دمه كبيراً، لا صحو اليوم ولا سُكر غداً! اليوم خمر وغداً أمر! نهض من غده فلم يزل حتى ثأر لأبيه من بني أسد. هرب من المنذ رملك العراق إلى السموأل، ثم قصد الحارث بن أبي شمر الغساني، والي بادية الشام، فسيّره إلى ملك الروم يوستينيانس فولاّه إمرة فلسطين. رحل إلى أنقرة فظهرت في جسمه قروح، فأقام إلى أن مات في أنقرة.

(٢) بنو قضاعة: قبيلة من حمير من القحطانية، غلب عليهم اسم أبيهم فقيل لهم قضاعة، وهم بنو قضاعة بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير. =

Marfat.com

رصفة بنت آية

سرية أخذها «شاول» لنفسه من غير الإسرائيليين، فولدت له «أرموني» و«مغيبوشت» وهي من النساء المشهورات في العهد القديم مثل «راعوث» و«راجاب» و«إيزابلا».

والراجح على ما جاء في قاموس التوراة أنها كانت غريبة عن شعب إسرائيل يتصل نسبها [بإحدى][1] العائلات الشريفة فإن «شاول» بأخذه لها وضع عادة جرى عليها ملوك بني إسرائيل من بعده إذ كانوا يتخذون لأنفسهم السراري من غير أبناء جنسهم، وحدث بعد وفاة «شاول» ونزول الفلسطينيين شرقي الأردن أن رصفة ذهبت مع رفيقاتها من عائلة الملك إلى مقرهن الجديد في «محتايم» فوقع لها في هذا المكان حادث ذكر في التوراة، وهو أن «أشبوشت» اتهم «إبيزيا» بالدخول على سرية أبيه فأنكر «إبيزيا» ذلك. وأقام الحجة عليه، ثم أعقبت هذه التهمة حادثة أخرى وهي أن «إبيزيا» قتل بخيانة «يوآب» وانتحر «أشبوشت» بعد ذلك.

والغالب على الظن بناء على ما يؤخذ من إنكار «إبيزيا» ومدلول الواقعة أن التهمة المذكورة كانت محض زور وبهتان، ولم يذكر في التوراة شيء غير ذلك عن رصفة سوى ما ذكر.

وبالاختصار هو أن داود لما رغب إليه الشعب في اقتضاء حقه من عائلة «شاول» وذوي قرباه مقابل ما ناله بسببهم من ضربة الجوع قال لهم: مهما قلتم لي أفعل. فقالوا له: الرجل الذي أفتانا والذين أمروه علينا يبيدونا لكيلا نقيم في كل تخوم إسرائيل، فلنعط سبعة رجال من بنيه فنطلبهم للرب في جوعة «شاول» مختار الرب فأخذ داود ابني رصفة ابنة آية اللذين ولدتهما لـ«الشاول «أرموني» و«مغيبوشت» وبني «ميراب» بنت «شاول» الخمسة الذين ولدتهم بعد «ريئيل بن برلاري المحولي» وسلمهم إلى يد الجبونيين فصلبوهم على الجبل أمام الرب، فسقط السبعة معاً وقتلوا في أيام الحصاد في أولها في ابتداء حصاد الشعير، فأخذت رصفة مسحاً وفرشته لنفسها على الصخر من ابتداء الحصاد حتى انصب الماء عليهم من السماء، ولم تدع طيور السماء تنزل عليهم نهاراً ولا حيوانات الحقل ليلاً.

رضية ملكة دهلي[2] في بلاد الهند

ابنة السلطان شمس الدين كانت من أوفر نساء زمانها عقلاً وأحسنهن وجهاً. تعلمت

---

(١) وردت في الأصل «بأحد»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

(٢) دهلي: أو دِلهي (Delhi)، مدينة في شمال الهند على جمنة، عاصمة الهند من سنة ١٩١١ م - ١٩٣٠ م حتى بناء العاصمة الجديدة نيودلهي في ضاحيتها الجنوبية. احتلها المسلمون في القرن الثاني عشر وجعلوها عاصمة سلطنة دهلي. دمرها تيمورلنك سنة ١٣٩٨ م. أعاد بناءها شاهجان سنة ١٦٣٩ م واتخذها عاصمة لإمبراطورية المغول.

Marfat.com

فنون السياسة من صغرها، ولما بلغت حد الكمال ازدادت رونقاً، وبهاء وعقلاً.

ولما مات أبوها السلطان شمس الدين يلمش اجتمع الناس على أخيها ركن الدين وبايعوه بالملك فافتتح أمره بالتعدي على أخيه معز الدين فقتله، فأنكرت عليه شقيقته رضية ذلك فأراد قتلها وأحست بذلك، فلما كان بعض أيام الجُمَع خرج ركن الدين إلى الصلاة فصعدت رضية على سطح القصر القديم المجاور للجامع الأعظم ولبست عليها ثياب المظلومين وتعرضت للناس وكلمتهم من أعلى السطح وقالت لهم: إن أخي قتل أخاه ظلماً وهو يريد قتلي معه.

وذكرتهم أيام أبيها وفعله الخير وإحسانه إليهم، فثاروا عند ذلك على السلطان ركن الدين، وهو في المسجد، فقبضوا عليه وأتوا به إليها فقالت لهم: القاتل يقتل، فقتلوه قصاصاً بأخيه. وكان أخوها ناصر الدين صغيراً فاتفق الناس على تولية رضية الملك، فولوها، واستقلت بالملك أربع سنين، ثم إنها اتهمت بعبد لها من الحبشة فاتفق الناس على خلعها وتزويجها. فخلعت وتزوّجت من بعض أقاربها وولي الملك أخوها ناصر الدين.

رفقة ابنة بتوئيل

هي أخت «لابان» وزوجة إسحاق وفي «الإصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين»[1] خبر ذهاب عبد إبراهيم بأمر سيده إلى أرام النهرين ليأخذ زوجة لابنه إسحاق وما جرى له مع رفقة، وهو واقف على عين الماء لما خرجت بنات المدينة يستقين ماء وقال: إن الفتاة التي أقول لها ناوليني جرتك لأشرب فتقول: اشرب وأنا أسقي جمالك أيضاً هي التي عينها الإله لعبده إسحاق، وإذ كان لم ينته كلامه خرجت رفقة التي ولدت لـ «بتوئيل» ابن ملكة امرأة نحور أخي إبراهيم وجرتها على كتفها، وكانت الفتاة حسنة المنظر جداً عذراء، فنزلت إلى العين وملأت جرتها وطلعت، فركض العبد للقائها وقال: اسقيني قليل ماء من جرتك. فقالت: اشرب يا سيدي وأسرعت وأنزلت جرتها على يدها وسقته، ولما فرغت من سقيه، قالت: استقِ لجمالك أيضاً حتى تفرغ من الشرب فأسرعت وأفرغت جرتها في المسقاة وركضت أيضاً إلى البئر لتستقي فاستقت لكل جماله والرجل يتفرس فيها طامعاً ليعلم أنجح الله طريقه أم لا وحدث عندما فرغت الجمال من الشرب أن الرجل أخذ خزامة ذهب وزنها نصف شاقل، وأعطاها إياها مع سوارين وزنهما عشرة شواقل ذهب.

وقال: بنت من أنت أخبريني، وهل عند أبيك مكان لنا لنبيت؟ فقالت له: أنا بنت

---

(١) يراجع الإنجيل العهد الجديد.

Marfat.com

«بتوئيل» ابن ملكة وعندنا كل ما تشتهي من القَرى فخر الرجل وسجد لله تعالى وقال: تبارك الله الذي لم يمنع لطفه وحقه عن سيدي إذ كنت أنا في الطريق هداني إلى بيت أخوة سيدي، فركضت الفتاة وأخبرت أبويها عن هذه الأمور، فجاء «لابان» أخوها إلى الرجل وهو واقف عند الجمال على العين فقال: ادخل يا مبارك لماذا تقف خارجاً وأنا قد هيأت البيت ومكاناً للجمال. فدخل الرجل البيت وحلَّ عن الجمل، فأعطي تبناً وعلفاً للجمال، وماء لغسل رجليه، وأرجل الرجال الذين معه، ووضع أمامه الطعام ليأكل فقال: لا آكل حتى أتكلم كلامي. فقال: تكلم. فقال: أنا عبد إبراهيم وإن الله قد أكرم مولاي جداً، فصار عظيماً وأعطاه غنماً وبقراً وفضة وذهباً، وعبيداً وإماء، وجمالاً وحميراً، وولدت سارة امرأته ولداً له أعطاه كل ماله واستحلفني سيدي بقوله لي: لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن في أرضهم بل تذهب إلى بيت أبي وعشيرتي وتأخذ منهم زوجة لولدي.

ثم قصَّ عليهم ما جرى له مع رفقة عند العين، ثم قال: إني أحمد الله الذي هداني في طريق أمين لأخذ ابنة أخ سيدي لابنه والآن إن كنتم تصنعون معروفاً وأمانة مع سيدي فأعطوني ما طلبت وإلا فأنصرف يميناً أو شمالاً فأجاب «لابان» و«بتوئيل» وقالا: من عند الله خرج الأمر لا نقدر أن نكلمك بشر أو بخير، هذه رفقة أمامك خذها واذهب فلتكن زوجة لابن سيدك كما أمر الله فسجد العبد للأرض وأخرج فضة وذهباً وثياباً وأعطاها لرفقة، وأعطى تحفاً لأخيها وأمها، وسألوها: هل تذهبين مع هذا الرجل؟ قالت: أذهب. فأخذها ومضى وسارت معها حاضنتها بعد أن ودعوا رفقة وقالوا لها: أنت بنتنا وأختنا مهما بعدت عنا.

وجاء في التوراة ما يستفاد منه أن إسحاق[1] أحب رفقة لأنها كانت جميلة وصنيعة طائعة لطيفة. ولما مضى عليها تسع عشرة سنة وهي عاقر صلى إسحاق لله ودعاه لأجلها فحبلت وكان في بطنها توأمان وأحبت رفقة يعقوب ولدها الثاني ولما صار إسحاق هرماً من مجاعة إلى الأرض الفلسطينية بات محفوفاً بخطر من جمال زوجته رفقة، كما سمعت إسحاق يقول لعيصو بكرة: ائتني بعنز واصنع لي أطعمة لآكل وأدعو لك قبل وفاتي قالت ليعقوب: اذهب إلى الغنم وخذ لي من هناك جديين من المعز فاصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب فتحضرها إليه ليأكل حتى يدعو لك قبل وفاته، فقال: إن عيصو أشعر وأنا أملس فربما جسني فأجلب على نفسي لعنة لا بركة. فقالت له: لعنتك عليّ يا ابني، فأجابها فألبسته ثياب عيصو الفاخرة وألبست يديه وملاسة عنقه جلود جدي المعز فنال يعقوب البركة، فلما أخبرت رفقة بأن عيصو توعد يعقوب بالقتل بعد وفاة أبيه لغيظه منه لأنه سبقه إلى بركة أبيه دعت يعقوب إليها وأخبرته

(١) إسحاق: هو إسحاق بن إبراهيم وسارة، ووالد يعقوب وعيسو. من آباء العهد القديم.

Marfat.com

بتوعد أخيه وقالت له: فالآن يا بني اسمع لقولي وقم اهرب إلى أخي «لابان» إلى «حاران» وأمم «غنده» أياماً قليلة حتى يرتد سخط أخيك وينسى ما صنعت به، ثم أرسل فآخذك من هناك لئلا أعدمكما في يوم واحد وقالت لإسحاق: مللت حياتي من أجل بنات «حث» إن كان يعقوب يأخذ زوجته من «حث» مثل هؤلاء من بنات الأرض فلما زال حياه وسار برضا أبيه إلى «فزان أران» ولم تذكر رفقة عند عود يعقوب إلى أبيه ولا ذكر دفنها.

رقية ابنة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

ولدت له من أم حبيب الصهباء التغلبية كانت من سبي الذرية الذين أغار عليهم خالد بن الوليد بعين التمر فاشتراها علي ـ رضي الله عنه ـ واستحظى بها فأولدها عمراً ورقية المومى إليها، فعمرو الأكبر شقيق رقية. وفي الفصول المهمة كانا توأمين وعمر عمرو هذا خمساً وثمانين سنة، وحاز نصف ميراث علي ـ رضي الله عنه ـ وذلك أن أخواته أشقاءه وهم عبد الله وجعفر وعثمان قتلوا مع الحسين بالطفّ فورثهم.

وفي الباب العاشر من «المنن» للشعراني قال: وأخبرني الخوّاص أن رقية بنت الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ في المشهد الموجود بتكيتها المعروفة بتكية السيدة رقية بمصر. وهذه التكية في غاية الإتقان والخفة والنورانية وبداخلها ضريح السيدة رقية يعلوه قبة لطيفة الصنعة، وهناك مساكن للصوفية، وحنفيات للوضوء، وجنينة صغيرة ويعمل لها مقرأة وحضرة كل أسبوع، ومولد كل سنة وشعائر هذه التكية مقامة من أوقاف السيدة رقية التي يبلغ مقدارها ثلاثة عشر ألف قرش وسبعمائة قرش وثمانية عشر قرشاً، واثنين وثلاثين باره بالعملة الأميرية المصرية.

رقية بنت الفيف عبد السلام بن محمد مزرع المدينة

كانت عالمة عاملة، عاقلة كاملة، صادقة الرواية، حسنة الطوية. تعلمت العلم عن جملة من العلماء الأخيار وحدّثت بالإجازة عن شيوخ مصر والشام كابن سيد الناس[1] من المصريين والمزي وغيره من الشاميين وأقامت في المدينة وفتحت درساً للحديث وانتفع بها أهل الحجاز وهي من مشاهير المحدثين بتلك الأصقاع ولم يوجد مثلها من نساء ذلك الزمان رحمهما الله رحمة واسعة.

---

(١) هو أبو الفتح محمد، ابن سيد الناس، المولود سنة ١٢٧٣ م، مؤرخ وحافظ، عاش في القاهرة. من تصانيفه: «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير» في سيرة النبي ﷺ.

Marfat.com

[رقاش ابنة مالك بن فهم بن غنم بن أوس الأسدي]

رقاش ابنة مالك بن فهم بن غنم بن أوس الأسدي وقيل التنوخي أخت جذيمة الأبرش. كانت من أبدع نساء زمانها وأحسنهن جمالاً، وكان عدي بن نصر نديماً لجذيمة الأبرش[١] فأبصرته رقاش فعشقته وراسلته ليخطبها إلى جذيمة، وكانت على غاية من الظرف والأدب. فقال لها: لم أجترئ على ذلك ولا أطمع فيه. قالت: إذا جلس على شرابه فاسقه صرفاً، واسق القوم ممزوجاً فإذا أخذت الخمرة فيه فاخطبني إليه فلم يردّك فإذا زوّجك فاشهد القوم ففعل عدي ما أمره فأجابه جذيمة وأملكه إياها فانصرف إليها فأعرس بها في ليلته وأصبح بالخلوق فقال له جذيمة ـ وأنكر ما رأى به ـ: ما هذه الآثار يا عدي؟ قال: آثار العرس. قال: وأي عرس؟ قال: عرس رقاش. قال: من زوّجك بها ويحك؟ قال: الملك زوّجنيها. فندم جذيمة وأكب على الأرض متفكراً وهرب عديّ فلم ير له أثر ولم يسمع له بذكر، فأرسل إليها جذيمة:

خبريني وأنت لا تكذبيني ... أبحرّ زنيت أم بهجينِ
أم بعبد فأنت أهل لعبد ... أم بدون فأنت أهل لدونِ

فقالت: لا بل أنت زوجتني أمرأ عربياً حسيباً، ولم تستأمرني في نفسي، وأنشدت:

أنت زوّجتني وما كنت أدري ... وأتاني النساء للتزيينِ
ذاك من شربك المدامة صرفاً ... وتماديك في الصبا والجنونِ

فكف عنها وعذرها. ورجع عدي إلى أياد[٢] فكان فيهم فخرج معه فتية يوماً متصيدين فرمى به فتى منهم فيما بين جبلين فتكسّر، فمات، فحملت رقاش، فولدت غلاماً فسمته عمراً فلما ترعرع وشب ألبسته وعطرته وأزارته خاله، فلما رآه أحبه وجعله مع ولده.

وخرج جذيمة متبدياً بأهله وولده في سنة خصبة فأقام في روضة ذات زهر وثمر فخرج ولده وعمرو معهم يجتنون الكمأة فكانوا إذا أصابوا كمأة جيدة أكلوها وإذا أصابها عمرو

---

(١) هو جذيمة بن مالك بن فهم بن غنم التنوخي القضاعي. ثالث ملوك الدولة التنوخية في العراق. جاهلي، عاش عمراً طويلاً. كان أعز مِنْ مَن سبقه من ملوك هذه الدولة. اجتمع له ملك ما بين الحيرة والأنبار، والرقة، حتى يبرين وما وراء ذلك. كان يقال له: الوضاح، والأبرش لبرص كان فيه. طمح إلى امتلاك مشارف الشام وأرض الجزيرة فغزاها وحارب ملكها عمرو بن الظرب والد الزبّاء، فقتله وانتهب بلاده، وانصرف. فجمعت الزبّاء الجند في تدمر واستعدت، ثم راسلت جذيمة وعرضت عليه نفسها زوجة، فجاءها في جمع قليل، فقتلته بثأر أبيها سنة ٣٦٦ ق. هـ/ ٢٦٨ م.

(٢) أياد: بنو أياد بن نزار، قبيلة عربية من معد بن عدنان.

Marfat.com

خبأها، فانصرفوا إلى جذيمة يتعادون وعمرو يقول: هذا جناي وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه. فضمه جذيمة إليه والتزمه وسر بقوله وأمر له بحلي من فضة طوّق به فكان أوّل عربي ألبس طوقاً. وقصة عمرو مشهورة مع الزباء وغيرها.

رقية[١] ابنة رسول الله ﷺ

ولدت رقية ولرسول الله ﷺ ثلاث وثلاثون سنة وكان تزوّجها عتبة بن أبي لهب وتزوّج أختها أم كلثوم[٢] عتيبة أخوه فلما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد: ١١١]. قال أبو لهب[٣] لهما: رأسي من رأسكما حرام إن لم تفارقا ابنتي محمد ففارقاهما ولم يكونا دخلا بهما، وتزوج رقية عثمان بن عفان رضي الله عنه بمكة وهاجر بها الهجرتين إلى الحبشة، ثم إلى المدينة وكانت ذات جمال بارع، وكان فتيان أهل الحبشة يتعرضون لها ويتعجبون من جمالها فآذاها ذلك فدعت عليهم فهلكوا جميعاً.

وولدت لعثمان بالحبشة ولداً سماه عبد الله وكان يكنى به وبلغ الغلام ست سنين فنقر عينه ديك فتورّم وجهه ومرض ومات، وتوفيت رقية بالمدينة وكان النبي ﷺ في وقعة بدر[٤] وكان عثمان قد تخلف عن بدر لأجلها فجاء زيد ابن حارثة بشيراً بفتح بدر وعثمان قائم على قبرها وكانت وفاتها لسنة وعشرة أشهر وعشرين يوماً من الهجرة.

---

(١) هي رقية بنت محمد النبي العربي القرشي ﷺ، أمها خديجة بنت خويلد أم المؤمنين رضي الله عنها ولدت ونشأت في الجاهلية. تزوجت عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب، ولما ظهر الإسلام ونزلت آية: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ غضب أبو لهب فأمر ابنه بمفارقتها، ففارقها. أسلمت حين أسلمت أمها خديجة، تزوجها في الإسلام عثمان بن عفان، وهاجرت معه الهجرتين ثم استقرت في المدينة وتوفيت ورسول الله ﷺ ببدر.

(٢) هي أم كلثوم بنت محمد النبي العربي القرشي ﷺ من زوجته الأولى خديجة بنت خويلد أم المؤمنين رضي الله عنها، تزوجها في الجاهلية عتيبة بن أبي لهب، وفارقها للسبب الذي من أجله فارق أخوه «عتبة» أختها رقية. هاجرت مع عيال رسول الله ﷺ إلى المدينة، فلما توفيت أختها رقية سنة ٢ هـ تزوجها عثمان بن عفان سنة ٣ هـ. توفيت عنده بالمدينة سنة ٩ هـ/ ٦٣٠ م، فقال النبي ﷺ: **«لو أن لنا ثالثة لزوّجنا عثمان بها»**.

(٣) هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم، من قريش عم رسول الله ﷺ وأحد الأشراف الشجعان في الجاهلية، من أشد الناس عداوة للمسلمين والإسلام. كان غنياً عتياً، كبر عليه أن يتبع ديناً جاء به ابن أخيه، فآذى أنصاره وحرّض عليهم وقاتلهم. وفيه الآية: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾. كان أحمر الوجه، مشرقاً، لقّب في الجاهلية بأبي لهب. مات بعد وقعة بدر بأيام ولم يشهدها سنة ٢ هـ/ ٦٢٤ م.

(٤) موقعة بدر بين المسلمين وقريش كان النصر فيها للمسلمين وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر مسلماً، بينما كان عدد الكفار بالآلاف، كانت هذه الوقعة سنة ٢ هـ/ ٦٢٤ م عند بئر بدر في الجزيرة العربية.

Marfat.com

رملة بنت الزبير بن العوّام

كانت أخت مصعب بن الزبير بن العوام لأمه، وكانت أمها أم الرباب بنت أليف بن عبيد بن مصار الكلبي تزوجها عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام بن خويلد فولدت له عبد الله بن عثمان، وهو زوج سكينة بنت الحسين بن علي[١] عليها السلام، ثم تزوجها خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان[٢]، وكان قتل ابن الزبير. ولما حج خالد بن يزيد خطب رملة بنت الزبير فأرسل إليه الحجاج صاحبه عبيد الله بن موهب وقال: ما كنت أراك أن تخطب إلى آل الزبير حتى تشاورني وكيف خطبت إلى قوم ليسوا كفؤاً وكذلك قال جدك معاوية وهم الذين قارعوا أباك على الخلافة، ورموه بكل قبيحة، وشهدوا عليه وعلى جدك بالضلالة؟ فنظر إليه خالد طويلاً ثم قال له: لولا أنك رسول والرسول لا يعاقب لقطعتك إرباً إرباً، ثم طرحتك على باب صاحبك قل له: ما كنت أرى أن الأمور بلغت بك إلى أن أشاورك في خطبة النساء.

وأما قولك لي: قارعوا أباك وشهدوا عليه بكل قبيح فإنها قريش يقارع بعضها بعضاً فإذا أقر الله عز وجل الحق قراره كان تقاطعهم وتزاحمهم على قدر أحلامهم وفضلهم.

وأما قولك: إنهم ليسوا بأكفَّاء فقاتلك الله يا حجاج ما أقل علمك بأنساب قريش أيكون العوّام كفؤاً لعبد المطلب بن هاشم بتزوّجه صفية، وبتزوّج رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد ولا تراهم أهلاً لأبي سفيان فرجع إليه فأعلمه ومن شعر خالد فيها:

أليس يزيد السير في كل ليلة ... وفي كل يوم من أحبتنا قربَا[٣]
أحنّ إلى بنت الزبير وقد علت ... بنا العيس خرقاً من تهامة أو نقبَا[٤]
إذا نزلت أرضاً تحبب أهلها ... إلينا وإن كانت منازلها حربَا
وإن نزلت ماء وإن كان قبلها ... مليحاً وجدنا ماءه بارداً عذبَا
تجول خلاخيل النساء ولا أرى ... لرملة خلخالاً يجول ولا قلبَا

---

(١) ترجمتها في حرف «السين» من هذا الكتاب.

(٢) هو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي القرشي، أبو هشام، حكيم قريش وعالمها في عصره. اشتغل بالكيمياء والطب والنجوم فأتقنها وألّف فيها رسائل. كان موصوفاً بالعلم والدين والعقل. توفي سنة ٩٠ هـ/٧٠٨ م. أخباره كثيرة وقد شكّك بعض المؤرخين بعلومه ومعارفه وسنة وفاته.

(٣) تِهامة: بالكسر، وهي اليمن ونجد والحجاز والغَوْر. ويقول الحميري: هي قطعة من اليمن معجم البلدان، ج٢/ص ٧٤ و١٦٠.

(٤) النَقَب: بالفتح، قرية باليمامة لبني عدي بن حنيفة. معجم البلدان، ج٥/ص ٣٤٤.

Marfat.com

أقلـوا علـيّ اللـوم فيهـا فـإننـي تخيـرتهـا منهـم زبيـريـة قـربَـا
أحـب بنـي العـوّام طـرّاً لحبهـا ومن حبها أحببت أخوالها كلبَا[١]

ونشزت سكينة بنت الحسين عليها السلام على زوجها عبد الله بن عثمان فدخلت رملة على عبد الملك بن مروان وهو عند خالد بن يزيد بن معاوية فقالت: يا أمير المؤمنين، لولا أنه يبتذ أمرنا ما كانت لنا رغبة فيمن لا يرغب فينا. سكينة بنت الحسين قد نشزت على ابني. قال: يا رملة إنها سكينة. قالت: وإن كانت سكينة فوالله لقد ولدنا خيرهم، ونكحنا خيرهم، وأنكحنا خيرهم ـ تعني بمن ولدوا فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ومن نكحوا صفية بنت عبد المطلب[٢]، ومن أنكحوا النبي ﷺ ـ فقال: يا رملة، غرني منك عروة بن الزبير[٣]، فقالت: ما غرك، ولكن نصح لك لأنك قتلت أخي مصعباً فلم يأمني عليك. ولم تزل به حتى أصلح بين سكينة وعبد الله بن عثمان.

[رميصاء بنت ملحان]

رميصاء[٤] بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار الأنصارية الخزرجية النجارية، وتلقب أم سليم أم أنس بن مالك[٥]. كانت عند مالك بن النضر والد أنس بن مالك في الجاهلية فغضب عليها وخرج إلى الشام ومات هناك، فخطبها أبو طلحة الأنصاري[٦] ـ وهو مشرك ـ فقالت: إني فيك لراغبة، وما مثلك يردَ

---

(١) بنو كلب: بطن من عامر بن صعصعة، منهم العناكب الشاعر المشهور. كانت ديارهم في حمى ضرية، وهي حمى كلب والربذة في جهات المدينة. ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الشام.
(٢) ترجمتها في حرف «الصاد» من هذا الكتاب.
(٣) هو عروة بن الزبير بن العوّام الأسدي، القرشي، أبو عبد اللّه، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ولد سنة ٩٣ هـ/ ٦٤٣ م. كان عالماً بالدين، صالحاً، كريماً، لم يدخل في شيء من الفتن. انتقل إلى البصرة، ثم إلى مصر فتزوّج وأقام بها سبع سنين. وعاد إلى المدينة فتوفي فيها سنة ٩٣ هـ/ ٧١٢ م. وهو أخو عبد الله بن الزبير لأبيه وأمه. وبئر عروة بالمدينة منسوب إليه.
(٤) هي رميصاء أو غميصاء، صحابية، قال أبو نعيم في وصفها: الطاعنة بالخناجر في الوقائع والحروب. شوهدت مع عائشة مشمرتين تنقلان القِرَب وتفرغانها في أفواه المسلمين، والحرب دائرة، وترجعان فتملآنها. شوهدت قبل ذلك يوم أُحُد تسقي العطشى وتداوي الجرحى ومعها خنجر.
(٥) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم النجاري الخزرجي الأنصاري، أبو ثمامة، أو أبو حمزة. صاحب رسول الله ﷺ وخادمه. روى عنه رجال الحديث ٢٢٨٦ حديثاً. مولده بالمدينة سنة ١٠ ق. هـ/ ٦١٢ م. أسلم صغيراً وخدم النبي ﷺ إلى أن قبض. ثم رحل إلى دمشق، ومنها إلى البصرة، فمات فيها سنة ٩٣ هـ/ ٧١٢ م. وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة.
(٦) هو زيد بن سهل بن الأسود النجاري الأنصاري أبو طلحة. مولده في المدينة سنة ٣٦ ق. هـ/ ٥٨٥ م. من الشجعان الرماة المعدودين في الجاهلية والإسلام. ولما ظهر الإسلام كان من كبار أنصاره، فشهد =

Marfat.com

ولكنك كافر وأنا مرأة مسلمة فإن تسلم فلك مهري ولا أسألك غيره. فأسلم وتزوجها وحسن إسلامه فولدت له غلاماً مات صغيراً وهو أبو عمير وكان معجباً به فأسف عليه، وولدت له عبد الله بن أبي طلحة ـ وهو والد إسحاق ـ فبارك الله في إسحاق وإخوته، وكانوا عشرة كلهم حمل عنه العلم.

وقيل: إن أبا طلحة لما خطب رميصاء قالت: يا أبا طلحة ألست تعلم أن إلٰهك الذي تعبد زينة من الأرض يحبرها حبشي بني فلان؟ قال: بلى، قالت: أفلا تستحي تعبد خشبة؟ إن أنت أسلمت فإني لا أريد منك الصداق غيره. قال: حتى أنظر في أمري.

فذهب ثم جاء فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقالت: يا أنس زوج أبا طلحة، فتزوّجها.

وكانت تغزو مع رسول الله ﷺ. وروت عنه أحاديث. وروى عنها ابنها أنس وكانت من عقلاء النساء رضي الله عنها.

رولاند الفرنساوية

ولدت هذه الفاضلة في ١٧ آذار (مارس) عام ١٧٥٤ [م]، من أبوين فقيري الحال، مختلفي الأخلاق والآراء وكانت أمها دمثة الأخلاق لينة العريكة، قانعة بهبات الباري تعالى. وكان أبوها طماعاً سيئ الطباع كثير التذمر والحقد على المكارم والأشراف، زاعماً أنهم علة تعاسته وسبب فقره.

ولذلك كان يندّد بهم ككثيرين غيرهم من الفرنسويين، وتعلمت القراءة والكتابة قبل بلوغها الرابعة من عمرها، وتعلقت بالمطالعة حين لم يكن لأبويها طاقة على ابتياع الكتب لها، فأرسلاها إلى دير من الأديرة لتقتبس العلوم عن راهباته فأظهرت فيه من النجابة والبراعة في كل علم تعلمته ما جعلها فخراً لمعلماتها وقدوة لرفيقاتها، وأجادت في الموسيقى والتصوير وطالعت كل ما عثرت عليه من التواريخ ودواوين الشعر والرحلات والمقالات الدينية والعلمية والفكاهية والسياسية وبالغت في استقصاء أحوال اليونان والرومان القدماء واشتدّ ميلها إليهم.

قيل: إن أباها وجدها ذات يوم منخرطة في البكاء من أجل أنها لم تولد رومانية وكثيراً ما كانت تتصور أمامها اليونان في سلطتهم والرومان في أوجه عظمتهم وتقابل بين أحوال ذينك

= العقبة وبدراً وأُحُداً والخندق وسائر المشاهد. كان جهير الصوت، وفي الحديث: «**لصوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل**». كان ردف رسول الله ﷺ يوم خيبر. توفي في المدينة سنة ٣٤ هـ/ ٦٥٤ م.

Marfat.com

الشعبين العظيمين وأحوال بلادها التي كانت قد أفرطت في الملاهي والترقي، وتهافتت على الباطل. فتنفر نفسها الأبية من الدنايا التي انغمس فيها أكابر قومها وتتمنى أن يسود الإنصاف وتسن بها الشرائع العادلة أبناء وطنها.

والظاهر أن ذلك رسخ في ذاكرتها منذ نعومة أظفارها لكثرة ما كان أبوها يلقي على مسامعها من الأحاديث عن الملوك والأشراف، وهو يجول بها في شوارع باريس، ويريها قصورها الشاهقة ومبانيها الفاخرة وأشراف المدينة، وسيداتها خارجين إلى المنتزهات العمومية في عجلاتهم المذهبة بالخدم والحشم، لاهين بالأحاديث [الفارغة][1]، وخيولهم تدوس المساكين والبائسين وهم لا يبالون، ثم يقول لها: انظري يا ابنتي أين العدل والإنصاف؟ أين الآخذون بناصر الإنسانية [ليقتصّوا][2] من هؤلاء البرابرة القساة ألا ترين أنهم يتوسدون الحرير والديباج، ويعيشون بالترف والشعب غارق في بحار الهموم محاط بالأتعاب يصل الليل بالنهار في الكدر والكدح ليحصل الخيرية التي يتمتع بها هؤلاء العتاة؟

وخرجت من المدرسة وهي في الرابعة عشرة فجعلت أمها تمرّنها على أشغال البيت فتخضع لأوامرها خضوعاً تاماً علماً منها أن الأشغال البيتية من أهم واجبات المرأة، وكانت تبتاع لوازم بيتها بنفسها، فأكرمها البائعون لنباهتها ورزانتها، ولما بلغت سن الزواج تقاطر عليها الطلاب من كل فج، فرفضت طلبهم قائلة لوالديها: إن الطبيعة والشرائع قد اتفقت على وجوب تفضيل الرجل على المرأة فأخجل أن أختار من لا يكون أهلاً لهذا المقام السامي وحدث أن أحد الأشراف دخل مخزن أبيها ورأى إنشاءاتها فدهش من براعة أساليبها، وراعه إتقان قريحتها، فكتب إليها كتاباً يحثها فيه على التأليف، فأجابته لذلك بأبيات شائقة دقيقة المعنى أظهرت فيها الموانع التي تحول دون وصول المرأة إلى مثل تلك المنزلة الرفيعة، ومن ذلك اليوم جرت المكاتبة بينهما وكان لهذا الشريف ابن من أهل الطيش والجهالة فأراد أن يزوّجه بها ظناً منه أن حكمتها وعزمها يهديانه سواء السبيل، فأبت ومن معرفتها بهذا الرجل تمكنت من معاشرة الأشراف رغبة في الاطلاع على شؤونهم ولكنها لم تقتبس شيئاً من عوائدهم القبيحة ولا شاركتهم في آرائهم، بل زادت بهم احتقاراً إذ كان دأبهم الطرب والملاهي، وهمهم التأنق بالزينة والملابس.

وفي ٤ شباط (فبراير) سنة ١٧٨٠ [م]، تزوجت بـ «رولاند» أحد مفتشي المعامل في مدينة «ليون» وكان رجلاً من ذوي الوجاهة والبراعة في العلوم جامعاً بين الفضائل والمكارم،

---

(١) وردت في الأصل «الفادعة»، ولم أقف على معنى يتناسب مع سياق الكلام، ولعل الصحيح ما أثبتناه.
(٢) وردت في الأصل «ليقتصّ»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

Marfat.com

مشهوراً بالفضل والمآثر، له كتابات عديدة تدل على جودة عقله، فأقاما سنة في باريس ثم انتقلا إلى مدينة «امبان»، ثم رجعا منها إلى «ليون» حيث قضت أسعد أيام حياتها وأظهرت مناقب المرأة الكاملة، فرتبت بيتها على أحسن منوال، وعكفت على تربية ابنتها وتعليمها بنفسها، وكانت إذا انتقلت إلى مصيف زوجها (في لبلاتبيه) تخصص جانباً من وقتها لزيارة المرضى والمساكين المجاورين لها وتعالجهم بنفسها لعدم وجود طبيب يعالجهم، فأحبوها محبة تفوق الوصف واشتهرت بينهم بالفضائل والفواضل.

ولها على زوجها الفضل الأعظم. قال أحد أصحابه: لا أرى بين المحدثين من يشابه كانون الروماني في أكثر من «رولاند». والحق أن يقال: «رولاند» مديون لامرأته بشجاعته ومعارفه فإنها كانت متخذة أفكاره ومعنية بأعماله وكثيراً ما كانت تصلح كتاباته وتقوّم براهينه بغزارة معارفها، وقوّة بيانها، واتقاد تصوّراتها حتى طار صيته في بلاغة الإنشاء وقوّة الكتابة. ولما بلغها نبأ الثورة الفرنسوية تلقته بالترحاب زعماً منها أن الثورة أقرب طريق لسعادة فرنسا وأحسن بشرى بتبديل أحوال هاتيك الأيام بأحسن منها، فبذلت كل قواها في تحريك الخواطر إليها فلم يمضِ طويل الزمان حتى أضرمت نار الغيرة والحماسة في قلوب أهل وطنها وحركت زوجها وأصحابها فأداروا دولاب الثورة بمدينتهم «ليون» وعلقت آمال الشعب «رولاند» وامرأته بخلع غل الظلم عن أعناقهم، فوقف لهما جماعة من الأشراف بالمرصاد ووضعوا عليهما العيون، فما ثناهما ذلك عن عزمهما وزاد الناس حباً في «رولاند» فاختاروه نائباً عن مدينة «ليون» في مجمع الأمة الذي استدعاه «لويس السادس عشر» في بادئ الثورة فتوجه هو وامرأته في ٢٠ شباط (فبراير) سنة ١٧٩١ [م]، إلى باريس وكتبت مدام «رولاند» مقالة في أحوال تلك الأيام كان لها وقع عظيم.

وفي آذار (مارس) سنة ١٧٩٢ [م]، انتخب زوجها وزيراً للداخلية وأعدّ لسكنه قصراً مفروشاً مشيداً بالأثاث الفاخر ومزيناً بالزينة البهية فدخلته مدام «رولاند» وكأنها خلقت له، ولم يبن إلا لها، ثم لما طلب من زوجها أن يشير على الملك بإعلان الحرب على المهاجرين وحلفائهم كتبت باسمه كتاباً للملك قوي الحجة، عظيم التأثير حتى دهش زوجها من جراءتها وقوّة أدلتها، ولكن كانت نتيجته خلع «رولاند» عن وظيفته ولذلك أشارت امرأته عليه أن يعرض كتابه على المجمع لتعلم الأمة سبب خلعه، ففعل، فعدّ ضحية لحب الوطن ثم طبع الكتاب ووزع نسخاً عديدة في كل أنحاء المملكة، فهاجت الأمة بأجمعها حتى التزم الملك أن يرجعه إلى منصبه، فكانت زوجته سبب خلعه ثم نصبه ثانياً.

واتفق أن الجاكوبين اجتهدوا أيام كانت العائلة الملكية في السجن أن يهيجوا الشعب

Marfat.com

لينتقموا من مدام «رولاند» بدعوى أن لها دخلاً في المكيدة التي كان يقصد بها تخليص الملك وإرجاعه إلى عرش الملك وتكلف بإتمام ذلك رجل لئيم يسمى «أشيل ڤيارد» فأظهر حزم «الجيروندیين» وهو يقصد باطناً [أن][1] يتجسس أعمالهم ويدبر على مدام «رولاند» مكيدة فكان محذراً حذرها منه فأوجست منه خيفة وأبعدته عنها احتقاراً واستصغاراً ومع ذلك فقد نجح باتهامها أمام الجمع أنه كان بينها وبين أصحاب النفوذ في فرنسا وغيرها مراسلة سرية واتفاق على إنقاذ الملك فاستدعاها ديوان «الكونڤاتسيون» لمرافعة خصمها والمدافعة عن نفسها فدخلت المحفل وكان غاصاً بالجماهير وهم يحتدمون غيظاً، وقد علا لغطهم، فلما جلست سكتت الضوضاء وأحدقت بها الأنظار، فذافعت عن نفسها وعن أصحابها دفاع أهل الحق والشيمة والشهامة، فبرأت نفسها وتلعثم لسان خصمها عن الكلام فرجع بصفقة خاسرة وأشار الرئيس أن يظهر الأعضاء علامات اعتبارهم لها، فهنأها الجميع وصفقوا لها استحساناً، وكان ذلك أمرّ من العلقم على أعدائها «كدانتون» و«مارات» و«روبس بير».

أما «روبس بير» هذا فهو الذي خلصت حياته من القتل لما ثار الشعب وأرادوا قتله حنقاً عليه ففر مذعوراً وقصدته مدام «رولاند» وزوجها في منتصف الليل وخبأته في بيتها ثم استعانت على خلاصه بصديق لهما بعيد النفوذ والسطوة فبرأه قبل صدور الحكم عليه فما كان من «روبس بير» إلا أنه قابل الإحسان بالإساءة فصار أشد العاملين على مدام «رولاند» وقتلها حتى قال «لامرتين» الشهير في صدد ذلك: «لا شك أن مدام «رولاند» ذكرت في سجنها الليلة التي خلصت حياة «روبس بير» فيها فإن كان هو أيضاً ذكرها وهو في أعلى مجده وقوّته فلا ريب أن ذكرها له كان عليه أشكى من وقوع السهام».

ولا يخفى ما ألم بحزب الجيروندين بعد ذلك وما كان نصيبهم من الثورة ففي ٣١ أيار سنة ١٧٩٣ [م]، أودعت مدام «رولاند» السجن فصبرت على مشاقه كما صبرت وثبتت على الأهوال، ورتبت أحوال معيشتها فيه جاعلة لكل ساعة من النهار شغلاً خصوصياً فعينت وقتاً لدرس اللغة الإنكليزية وآخر لإنشاء مقالات سياسية وآخر للتصوير، وجعلت معظم همها تشجيع قلوب المسجونين ومساعدتهم بما كان يغض عن حاجاتها من المال.

وفي تشرين الثاني (أكتوبر) حكم عليها بالقتل فسيقت للذبح مكتوفة اليدين وعلامات الشجاعة تلوح على وجهها، فلما صارت بمرأى من تمثال الحرية وكان منصوباً حيث المسلة المصرية اليوم التفتت إليه وقالت: أيتها الحرية كم من ذنب يرتكبه الناس باسمك اليوم أيتها الحرية انظري كيف يتلاعبون باسمك. ويقال: إنها طلبت قلماً وقرطاساً لتخط ما جال في

---

(١) زيادة أثبتناها لسلامة المعنى واتّساق الكلام.

Marfat.com

خاطرها وهي أمام الجلاد فلم تعطهما وضربت عنقها وهي في التاسعة والثلاثين من عمرها فكان موتها سبب انتحار زوجها كما عرف من ورقة وجدت في جيبه بعد موته وقد كتب عليها لم يعد لي صبر على البقاء بعد موت امرأتي في عالم ملوث بالآثام.

رحمة زوجة نبي الله أيوب عليه السلام

هي بنت أفرايم بن يوسف بن يعقوب عليهما السلام. كانت من النساء الصالحات، الطائعات لأزواجهن، وقد اتصفت من دون النساء بالصبر الجميل على بلاء زوجها أيوب عليه السلام حيث لم يبقَ له مال ولا ولد ولا صديق، ولا أحد يقرّ به غيرها فإنها صبرت معه على مضض ذاك البلاء الشديد وكانت تسأل وتأتيه بطعام وشراب ويبيتان يحمدان الله سبحانه وتعالى ويرجوان منه عفواً على ما نالهما من البلاء، فلما كانت في بعض الأيام وهي تسأل كعادتها إذ تمثل لها إبليس في صورة رجل فقال لها: أين بعلك يا أمَة الله؟ فقالت: هو ذاك يحك قروحه، وتتردد الديدان في جسده.

فلما سمع منها طمع أن تكون كلمة جزع فوسوس لها وذكرها ما كانت فيه من النعيم والمال، وذكرها جمال أيوب وشبابه وما هو فيه اليوم من الضر وإن ذلك لا ينقطع عنه أبداً فصرخت، فلما صرخت علم أنها قد جزعت فأتى بسخلة وقال لها: ليذبح أيوب هذه لي وسيبرأ، فجاءت تصرخ وقالت: يا أيوب إلى متى يعذبك ربك ولا يرحمك أين المال؟ أين الماشية؟ أين الولد؟ أين الصديق؟ أين ثوبك الحسر قد تغير وصار مثل الرماد؟ وأين جسمك الحسن الذي قد بلي يتردد فيه الدود؟ اذبح هذه السلخة واسترح.

فقال لها أيوب: أتاك عدوّ الله فنفخ فيك فأجبتيه، أرأيت ما تبكين عليه مما كنا فيه من المال والولد والصحة من أنعم علينا به؟ قالت: الله. قال: فكم متعنا به؟ قالت: ثمانين سنة. قال: فمنذ كم ابتلانا الله؟ قالت: منذ سبع سنين. قال: ويلك والله ما عدلت ولا أنصفت ربك. ألا صبرت في هذا البلاء الذي ابتلانا به ربنا كما كنا في الرخاء، والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة كما أمرتيني أن أذبح لغير الله طعامك وشرابك الذي تأتيني به علي حرام لا أذوق مما تأتيني به بعد إذ قلت هذا، فاغربي عني لا أراك، فطردها.

فلما رأى أيوب امرأته وقد طردها وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق وخرّ لله ساجداً وقال: ربّ ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، ثم رد الأمر إلى ربه فقال: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] فأوحى الله إليه أن اركض برجلك فركض فنبعت عين ماء فاغتسل فلم يبقَ من دائه شيء ظاهر إلا سقط بأثره، وأذهب الله عنه وكل ألم وداء كل سقم وعاد عليه شبابه وجماله أحسن ما كان وأفضل مما مضى، وجعل يلتفت يميناً وشمالاً فلم ير شيئاً مما كان من

Marfat.com

أهل وولد ومال إلا وقد ضاعفه الله تعالى، فخرج حتى جلس على مكان مشرف.

ثم إن «رحمة» قالت: أرأيت إن كان قد طردني إلى من أكله أأدعه حتى يموت جوعاً وعطشاً ويضيع فتأكله السباع، فوالله لأرجعن إليه ثم رجعت فلا كناسة ترى ولا تلك الحال التي كانت تعرف وإذا هي قد تغيرت فجعلت تطوف حول هذه الكناسة وتبكي وذلك بمرأى من أيوب فأرسل إليها أيوب فدعاها وقال لها: ما تريدين يا أمة الله؟ فبكت، وقالت: أردت ذلك المبتلى الذي كان منبوذاً على هذه الكناسة لا أدري أضاع أم ماذا فعل به؟ فقال أيوب عليه السلام: ما كان منك؟ فبكت، وقالت: بعلي، فهل رأيته؟ فقال: وهل تعرفينه إذا رأيته؟ قالت: وهل يخفى على أحد رآه ثم إنها جعلت تنظر إليه. وقالت: أما إنه أشبه خلق الله بك إذ كان صحيحاً، قال: فأنا أيوب آمرتيني أن أذبح لإبليس فإني أطعت الله وعصيت الشيطان فرد عليّ ما ترين فاعتنقته فقيل: إنها ما فارقته من عناق حتى مر بها كل ما كان لهما من المال والولد.

فلما برأ أيوب أراد أن يبر يمينه بأن يجلد «رحمة» فأمره الله أن يأخذ من جماعة الشجر مبلغ مائة قضيب خفافاً لطافاً ويضربها ضربة واحدة كما قال الله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾[ص: ٤٤].

وقيل: كانت «رحمة» تكسب له ما تعمل للناس فتبيعه وتجيئه بقوته، فلما طال عليها البلاء وسئمها الناس فلم يستعملها أحد، التمست يوماً من الأيام تطعمه فما وجدت شيئاً فجزت قرناً من رأسها فباعته برغيف فأتته به فقال لها: أين قرنك فأخبرته الخبر فحزن عليها وشكر صنيعها.

روشنك ابنة الدهقاء أوزبرت

كانت مشهورة بالجمال تزوجها إسكندر المكدوني، ولما مات كانت حاملاً ووضعت لثلاثة أشهر من موته ولدها إسكندر الملقب «إيروس» واتفقت مع «برديكاس» وقتلا «ستايترا» زوجة إسكندر لأنها كانت تحاول منع تنصيب ابنها «إيفوس» فصفا له الملك بالإرث من أبيه، ثم اتحدت مع «أولبياس» على «فيليبس أرديوس» وامرأته «أوريدبكي» ثم جعلت نفسها تحت حماية «يوليسيرخون»، ولما وصل «كاسندر» اعتصمت بمدينة «بيدنا»، ولما أخذت هذه المدينة وقتل «أولبياس» حبسها «كاسندر» في «أمغيبولبس» وبها قتلت هي وابنها سنة ٣١١ قبل الميلاد.

والمشهور في تواريخ العرب أن «روشنك» هي ابنة «دارن الأصغر» ملك الفرس ظفر به

Marfat.com

الإسكندر. قال ابن الأثير: إن الإسكندر لما وجد «دارن» وقد ضربه حاجباه الضربة القاضية أخذه وأسند رأسه إلى حضنه وكلمه كلاماً باللطف والاحترام، وطلب أن يوصي بما يريد، فأوصاه بأن يتزوّج ابنته «روشنك» ويرعى حقها ويعظم حقها ويستبقي أحرار فارس ويأخذ له بثأره ممن قتله، ففعل الإسكندر كل ذلك وبنى لـ «روشنك» مدينة بالسواد وقيل: إنه جعل هيئة زفافها إليه على النسق الشرقي وإنها قالت بعد موته: ما كنت أظن أن قاتل «دارن» يقتل.

ريا[١] بنت [الغطريف][٢] السلمي

كانت ذات جمال باهر وأدب ظاهر ولها معرفة بأشعار العرب، وكانت تقول الشعر الجيد، عشقها عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري[٣] علقها بمسجد الأحزاب في المدينة المنوّرة يوم منتزه إذ هو جالس في المسجد ودخل عليه نسوة وفيهن جارية لم ير مثلها فوقفت وقالت: ما تقول في وصل من يطلب وصلك ثم مضت ولم يعرف لها خبر، فلما كان في اليوم الثاني توجه إلى مسجد الأحزاب وجلس في المكان الذي كان فيه بالأمس وإذا بالنسوة قد أقبلن ولم ير الجارية فيهن فقلن له: ما ظنك بطالبة وصالك؟ فقال: وأين هي؟ قلن له: مضى بها أبوها إلى السماوة فأنشد:

خليلـيّ ريـاقـد أجـد بكـورهـا وسارت إلى أرض السماوة عيرهَا
خليلي قد غشيت من كثرة البكا فهـل عنـد غيـري عبـرة أستعيـرهَـا

وتوجه إلى أبيها هو وصاحب له فأكرم وفادتهما وسألهما عن أمرهما وقال: اذكرا حاجتكما فأخبراه بخطبة عتبة إلى ابنته فقال: ذلك إليها فدخل وأخبرها بذلك فأجابت، وشكرت له عتبة، فقال: قد نمى إليّ أمرك معه وأقسم لا أزوجك به فقالت: إن الأنصار لا يردون رداً قبيحاً فإن كان ولا بد فاغلظ عليهم المهر فقال: نِعم، ما أشرت به ثم خرج فقال: قد أجبت ولكن على ألف دينار وخمسة آلاف درهم هجرية ومائة ثوب من الأبراد والخز، وخمسة أقراص من العنبر، فضمنا ذلك وقالا له: إذا أحضرناها لك أجبت؟ قال: أجبت.

---

(١) هي ريا بنت الغطريف السلمية، شاعرة، من أهل العصر الأموي. كانت تسكن بادية السماوة بين الكوفة والشام مع أبيها وأهلها. كان قد أحبها عتبة بن الحباب الأنصاري الشاعر، فخطبها من أبيها فزوجه بها. أقبلت معه من السماوة يريدان المدينة فخرجت عليهما خيل فقُتل عتبة فرثته «ريا» ثم ماتت على أثره، ودفنت بجانبه.

(٢) وردت في الأصل «الفطريق»، لم نعثر على ترجمته ولا حتى على معنى واضح للكملة، وفي ترجمة «ريا» و«عتبة» وقفنا على اسم والد «ريا» وهو ما أثبتناه.

(٣) هو عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري، شاعر غزل، من أهل المدينة. كان في العصر الأموي، وخبره مع عشيقته «ريا» بنت الغطريف مشهورة. قتل على مقربة من المدينة.

Marfat.com

فأحضروا له ذلك فأولم أربعين يوماً، ثم أخذها ومضى، فلما قارب المدينة خرج عليه خيل كثيرة فقاتل عتبة حتى قتل فحين علمت ريا بموته جاءت وبكت بكاء مراً حتى أبكت عليه من كان حاضراً، وأنشدت:

تصبرت لا أني صبرت وإنما أعلل نفسي أنها بك لاحقةٌ
ولو أنصفت روحي لكانت إلى الردى أمامك من دون البرية سابقةٌ
فما أحد بعدي وبعدك منصف خليلاً ولا نفس لنفسي موافقةٌ

ثم شهقت شهقة فماتت فواروهما التراب في قبر واحد فنبت على قبرهما شجرة فسموها شجرة العروسين.

ومن قول عتبة فيها:

أراكم بقلبي من بلاد بعيدة تراكم تروني في القلوب على البعدِ
فؤادي وطرفي يأسفان عليكم وعندكم روحي وذكركم عندي
ولست ألذ العيش حتى أراكم ولو كنت في الفردوس أو جنة الخلدِ

وقوله فيها أيضاً:

يا للرجال ليوم الأربعاء أما ينفك يحدث لي بعد النوى طربَا
ما إن يزال غزال فيه يظلمني يهوى إلى مسجد الأحزاب منتقبَا
يخبر الناس أن الأجر هيمه أو أنه طالب للأجر محتسبَا
لو كان يبغي ثواباً أتى ظهراً مضمخاً بفتيت المسك محتقبَا

ريا ابنة مسعود بن رقاش العشيري التغلبي من ربيعة

كانت ذات ظرافة وفراسة ومعرفة وحسن: نشأت مع الصمة بن عبد الله بن مسعود صغيرين وكانا يتذاكران الأدب وملح الأشعار، ونوادر السير والأخبار حتى صارت أعجوبة زمانها ونادرة أوانها، فأعجب بها وتمكنت منه محبتها، ولم يكن عندها منه مقدار ما عنده منها، فلما شكا ما يجد منها إلى بعض أصدقائه أرشده إلى تزوّجها فخطبها إلى عمه، فأنعم على مائة من الإبل، فمضى إلى أبيه فأعطاه تسعاً وتسعين، فأبى مسعود إلا التمام وعبد الله إلا ذلك، وحلف كل على ما قال، وأوقفوا الأمر، فحملت الصمة الأنفة على أنه خرج عنها إلى العراق فقالت ريا: ما رأيت رجلاً أضاعه أبوه وعمه ببعير إلا الصمة ـ لما عندهما من العلم بحبه لها.

وفد رجل يقال له: علي غاوي، فخطب منه ريا وأمهرها ثلثمائة ناقة برعاتها فزوّجه بها

Marfat.com

فحملها إلى مذحج، فبلغ ذلك الصمة فلزم الوساد وقال:

أمن ذكر دار بالرقاشين أعصفت ... به بارحات الصيف بدأ ورجعَا
حننت إلى ريا ونفسك باعدت ... مزارك من ريا وسعيا كما معَا
فما حسن أن يأتي الأمر طائعاً ... ويجزع إن داعي الصبابة أسمعَا
كأنك لم تسمع وداع مفارق ... ولم تر شعبي صاحبين تقطعَا
بكت عيني اليمنى فلما زجرتها ... عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معَا
ولما رأيت البشر أعرض دوننا ... وحالت بنات الشوق تحتي نزعَا
تلفت نحو الحيّ حتى وجدتني ... رجعت من الإصغاء ألوي وأجزعَا
وأذكر أيام الحمى ثم أنثني ... على كبدي من خشية أن تصدّعَا
فليست عشيات الحمى برواجع ... عليك ولكن خل عينيك تدمعَا
أما وجلال الله لو تذكرينني ... كذكراك ما كفكفت للعين مدمعَا
فقالت بلى والله ذكري لو أنه ... تضمنه صم الصفا لتصدعَا

وقد سمع امرأة تنادي ابنتها: يا ريا، فسقط مغشياً عليه، فاحتملوه إلى بستان هناك وأضجعوه، فلما أفاق أنشد:

يعز بصبر لا وجدك لا ترى ... سنام الحمى إحدى الليالي الغوابرِ
كأنّ لساني من تذكري الحمى ... وأهل الحمى يهتف به ريش طائرِ

ولم يزل يرددها حتى قضي عليه، ولما وصل خبره داخلها من الوجد ما أمسكت معه عن الطعام والشراب وجعلت تبكيه حتى ماتت. ومن لطيف شعره فيها قوله:

ألا من لعين لا ترى قلل الحمى ... ولا جبل الآثال إلا استهلتْ
ألا قاتل الله الحمى من محلة ... وقاتل دنيانا بها كيف ولتْ
غنينا زماناً باللوى ثم أصبحت ... براق الهوى من أهلها قد تخلتْ
فما وجد أعرابية قذفت بها ... صروف اللوى من حيث لم تك ضنتْ
تمنت أحاليب الرغاء وخيمت ... بنجد ولم يقدر لها ما تمنتْ
إذا ذكرت نجداً وطيب ترابها ... وبرد الحصى من أرض نجد أرنتْ

ريطة بنت عاصم بن عامر بن صعصعة

وكانت شاعرة فصيحة، جميلة المنظر، لطيفة المخبر، عذبة المنطق. لها رثاء مقبول لا بأس فيه منه ما قالته في قومها وكانوا قد أصيبوا في يوم من أيام العرب.

وقفت فأبكتني ديار أحبتي ... على رزئهن الباكيات الحواسرُ

Marfat.com

غـدوا بسيـوف الهنـد ورّاد حـومـة من الموت أعيا وردهن المصادرُ
فوارس حاموا عن حريمي وحافظوا بـدار المنـايـا والقنـا متشـاجـرُ
ولـو أن سلمـى نـالهـا مثـل رزئنـا لهـدّت ولكـن يحمـل الـرزء عـامـرُ

ريطة بنت العجلان بن عامر بن برد بن منبه

هي أخت عمرو بن العجلان بن عامر الهذلي قتله بنو فهم في بعض غزواته فقالت أخته ترثيه:

كل امرئ لمحال الدهر مكذوب وكـل مـن غـالـب الأيـام مغلـوبُ
وكـل حـيّ وإن عـزوا وإن سلمـوا يـومـاً طـريقهـم فـي الشّـر عبـوبُ
أبلـغ هـذيـلاً وأبلـغ مـن يبلغهـا عني رسولاً وبعض الظنّ تكذيبُ
بأن ذا الكلب عمراً خيرهم نسباً ببطن شريان يعوي حوله الذيبُ
الطـاعـن الطعنـة النجـلاء يتبعهـا معجز من نجيع الجوف أسلوبُ
التـارك القـرن مصفـراً أنـاملـه كأنه من نجيع الجوف مخضوبُ
تمشـي النسـور إليـه وهـي لاهيـة مشـي العـذارى عليهـن الجـلابيـبُ
والمخرج العاتك العذراء مذعنة في السبي ينفح من أردانها الطيبُ

وكانت ريطة هذه من نساء العرب الموصوفات بالأدب والفصاحة والحماسة، لم يكن في زمانها أحسن منها سيرة وأعذب منطقاً، وألطف شارة. لها جملة مراث غير هذه ولم تمكث زمناً بعد أخيها وذلك لحزنها عليه.

Marfat.com

حرف الزاي

زبيدة[1] بنت جعفر بن المنصور العباسي[2]

هي امرأة هارون الرشيد وأم ولده محمد الأمين. كانت ذات معروف وخير وفضل ونفقة واسعة على البر وأصحاب الحاجات وقصة حجها وما فعلته في طريقها من الإحسان مشهورة في كتب التواريخ شهرة عظيمة فوق ما كان لها من شهرة الشرف والثروة الواسعة فإنها جمعت شرف الخلافة من أطرافها فأبوها ابن خليفة، وعمها المهدي خليفة، وزوجها أشهر الخلفاء وابنها خليفة أيضاً، ولذلك قد كثرت عنها الحكايات والأخبار في كتب العرب.

قال ابن الجوزي: إنها سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار، وإنها أسالت المياه عشرة أميال بحط الجبال ونحت الصخور حتى غلغلته من الحل إلى الحرم، وعملت عقبة البستان فقال لها وكيلها: يلزمك نفقة كثيرة. فقالت: اعملها ولو كلفت مشربة الناس ديناراً، وكان لها مائة جارية تحفظن القرآن ولكل واحدة ورد عشر القرآن وكان يسمع في قصرها كدوي النحل من قراءة القرآن.

وقيل: كان اسمها أمة العزيز فلقبها جدها المنصور زبيدة لبضاضتها ونضارتها.

قال ابن الأثير[3]: وكان مولد زبيدة بقصر حرب وهو قصر بناه حرب بن عبد الله[4] من

---

(١) قال ابن تغزي بردي في وصفها: «أعظم نساء عصرها ديناً وأصلاً وجمالاً وصيانة ومعروفاً». توفيت سنة ٢١٦ هـ/ ٨٣١ م.

(٢) هو جعفر بن عبد الله بن محمد (المنصور) العباسي، أمير. كان يتولى إمارة الموصل. وهو ابن الخليفة المنصور. توفي بمدينة السلام (بغداد)، وهو أول من دفن في مقابر قريش بها. وكان ذلك سنة ١٥٠ هـ/ ٧٦٧ م.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ والأدب (٧: ١٣٠).

(٤) هو حرب بن عبد الله البلخي الراوندي من أكابر قواد المنصور العباسي. كان يتولى شرطة بغداد، ثم ولي شرطة الموصل. سيّره المنصور من الموصل لقتال الترك، وكانوا قد دخلوا تفليس، فقاتلهم حرب فقُتل في إحدى وقائعه معهم سنة ١٤٧ هـ/ ٧٦٤ م.

Marfat.com

أكابر قوّاد المنصور حينما وجهه المنصور مع ولده جعفر أبي زبيدة ليكون نائباً عن مالك بن الهيثم في ولاية الموصل وهذا القصر بأسفل الموصل وتزوّج بها الرشيد سنة ١٦٥ هجرية وكان يحبها كثيراً ويكرمها غاية الإكرام، وكانت هي شديدة البر به والاحتفاظ على رضاه، ولم يكن يمنع عنها شيئاً من كل ما تطلبه من نفقة وما يتعلق بها وبغيرها مما يسرها وينفعها غير أنها بعد تلك الكرامة والعزة والأبهة أصبحت بعد موت الرشيد في حالة سيئة من الكآبة والذل وخفض الجناح، وذلك لما وقع بين الأمين والمأمون من الفتن ولا سيما بعدما قتل ولدها الأمين في تلك الأثناء، وقد كتبت للمأمون بأبيات ترثي بها سوء حالها بعد فقد ولدها وهي:

لخير إمام قام من خير عنصر ... وأفضل سام فوق أعواد منبرِ
لوارث علم الأولين وفهمهم ... وللملك المأمون من أم جعفرِ
كتبت وعيني مستهل دموعها ... إليك ابن عمي من جفون ومحجرِ
وقد مسني ضير وذل كآبة ... وأرق عيني يا ابن عمي تفكري
وهمت لما لاقيت بعد مصابه ... فأمري عظيم منكر عند منكرِ
سأشكو الذي لاقيته بعد فقده ... إليك شكاة المستضير المقهرِ
وأرجو لما قد مر بي مذ فقدته ... فأنت لبيتي خير رب معمرِ
أتى طاهر لا طهر الله طاهراً ... فما طاهر فيما أتى بمطهرِ

وذلك لأن طاهر بن الحسين هو الذي قام بحرب الأمين وكان السبب في قتله:

فأخرجني مكشوفة الوجه حاسراً ... وأنهب أموالي وأخرب أدوري
يعز على هارون ما قد لقيته ... وما مر بي من ناقص الخلق أعورِ
فإن كان ما أبدى بأمر أمرته ... صبرت لأمر من قدير مقدرِ
تذكر أمير المؤمنين قرابتي ... فديتك من ذي حرمة متذكرِ

وقالت زبيدة أم جعفر ترثي ولدها الأمين:

أودي بألفين من لم يترك الناسا ... فامنح فؤادك عن مقتولك الياسَا
لما رأيت المنايا قد قصدن له ... أصبن منه سواد القلب والراسَا
فبت متكئاً أرعى النجوم له ... أخال سنته بالليل قرطاسَا
والموت كان به والهم قارنه ... حتى سقاه التي أودى بها الكاسَا
رزئته حين باهيت الرجال به ... وقد بنيت به للدهر أساسَا
فليس من مات مردوداً لنا أبداً ... حتى يردّ علينا قبله ناسَا

فلما قرأها المأمون بكى وقال: أنا الطالب بثأر أخي قتل الله قتلته، ثم إن المأمون عطف

Marfat.com

على زبيدة فجعل لها مكاناً في قصر الخلافة وأقام لها الوظائف والخدم والجواري، وكانت حاضرة عند دخوله الغرفة التي زفت إليه بها بوران بنت الحسن، وطلبت لها بوران منه الإذن بالحج فأجابها إلى طلبها، وألبست بوران بيدها قسماً من ملابسها.

وأما حجتها المشهورة فقيل: أنفقت فيها في بناء المساجد والصدقات ألف ألف وسبعمائة ألف دينار، وأجرت الماء من دجلة إلى عرفات، ثم إلى مكة حتى سقت أهلها ـ كما مر ـ وهذه مبالغة عظيمة فالماء الذي أجرته إلى مكة ليس من دجلة قيل: وأجرت نبع العرعار من جبل لبنان إلى بيروت حتى وصل إلى وادي المكلس فبنوا له طبقات فناطر حتى جرى الماء فوقها إلى جانبه الآخر وتطرق إلى بيروت لأنها كانت قد مرت من هناك في حجتها ـ المذكورة ـ فوجدت الماء قليلاً وإلى الآن يقال لهذه القناطر: قناطر زبيدة والأرجح أن بانية هذه القناطر إنما هي زنوبية ملكة تدمر المعروفة باسم زبيدة أيضاً ولها آثار كثيرة من مثل ذلك تدعى الزبيدية غالباً نسبت إليها منها بركة في طريق مكة بين العقيق والعذيب بها قصر ومسجد عمرتهما من مالها، ومحلات ببغداد مشهورة أيضاً باسمها، ولكثرة مالها وسعة نفقتها ضرب المثل الحريري بقوله: «لوحبتك شيرين بجمالها وزبيدة بمالها».

ومما يحكى عن حلمها وحسن أخلاقها وفهمها أن أحد الشعراء مدحها بقصيدة يقول من جملتها:

أزبيـــدة ابنـــة جعفـــر طـوبـى لـزائـرك المثـابُ
تعطيـــن مـــن رجليـــك مـــا تعطـي الأكـف مـن الـرغـابُ

فهم الخدم بضربه وطرده وكانت هي خلف الستارة تسمعه فقالت: دعوه لأنه لم يرد إلا خيراً، ولكنه أخطأ الصواب، فإنه سمع شمالك أندى من يمين غيرك وقفاك أحسن من وجه سواك فظن أن الذي ذهب إليه من ذلك القبيل أعطوه ما أمّل، ونبهوه على ما أهمل. وأخبارها كثيرة منها: أنه حصل جفاء بينها وبين المأمون يوماً فوجهت إلى أبي العتاهية تعلمه بذلك وتأمره بأن يقول أبياتاً تعطفه عليها فقال:

ألا إن ريـب الـدهـر يـدنـي ويبعـد ويـؤنـس الآلاف طـوراً ويفقـدُ
أصيبت بريب الدهر مني يدعلت فسلمـت لـلأقـدار والله أحمـدُ
وقلت لريب الدهر إن ذهبت يد فقـد بقيـت والحمـد لله لـي يـدُ
إذا بقي المأمون لي فالرشيد لي ولـي جعفـر لـم يفقـدا ومحمـدُ

فلما سمع المأمون هذه الأبيات حسن موقعها عنده وأحسن إليها وبكى وقام من وقته إليها، وأكب عليها وقبلت يديه وقال لها: ما جفوتك تعمداً ولكن شغلت عنك بما لم يكن

Marfat.com

إغفاله؟ فقالت: يا أمير المؤمنين، إذا حسن رأيك لم يوحشني شغلك وأتم يومه عندها.

قال الحسن بن إبراهيم بن رباح: كان مخارق[١] المغني يهوى جارية لأم جعفر يقال لها: نهار ويستر ذلك عن مولاتها حتى بلغها ذلك فأقصته ومنعته عن المرور ببابها، وكان بها كلفاً، فلما بلغه الخبر أن أم جعفر علمت حبهما قطعها وتجافاها إجلالاً لأم جعفر وطمعاً في السلو عنها، وبقي على ذلك حتى ضاق ذرعه وبينما هو ذات ليلة راكب في زلال، وقد انصرف من دار المأمون وأم جعفر [وكان][٢] يشرف على دجلة إذ جاز دارها فرأى الشمع يزهر فيها، ولما صار بمسمع منها ومرأى اندفع يغني:

إن يمنعوني ممري قرب دارهم فسوف أنظر من بعد إلى الدارِ
سيما الهوى اشتهرت حتى عرفت بها أني محب وما بالحب من عارِ
ما ضر جيرانكم والله يصلحهم لولا شقائي إقبالي وإدباري
لا يقدرون على منعي ولو جهدوا إذا مررت وتسليمي بأشعاري

فقالت أم جعفر: مخارق والله ردوه فصاحوا به قدّم، فقدم، وأمره الخدم بالصعود فصعد، وأمرت له أم جعفر بكرسي وصينية فيها النبيذ فشرب وخلعت عليه وأمرت الجواري فغنينه، ثم ضربت عليه فغنى وكان أول ما غنى به:

أغيب عنك بودّ ما يغيره نأي المحب ولا صرف من الزمنِ
فإن أعش فلعل الدهر يجمعنا وإن أمت فقتيل الهم والحزنِ
قد حسن الله في عينيّ ما صنعت حتى أرى حسناً ما ليس بالحسنِ

ولما انتهى من غنائه اندفعت نهار فغنت كأنها تباين وإنما قصدها إجابته عن معنى ما عرّض لها به:

تعتل بالشغل عنا ما تلمّ بنا والشغل للقلب ليس الشغل للبدنِ

ففطنت أم جعفر أنها خاطبت بما في نفسها فضحكت وقالت: ما سمعنا بأملح مما صنعتما ووهبتها له:

---

(١) هو مخارق، أبو المهنّا بن يحيى الجزار، إمام عصره في فن الغناء. من أطيب الناس صوتاً. كان الرشيد العباسي يعجب به حتى أقعده مرّة على السرير معه، وأعطاه ثلاثين ألف درهم. اتصل بعد ذلك بالمأمون، وزار معه دمشق. توفي بسرّ من رأى. أخباره كثيرة جداً. كان مملوكاً لعاتكة بنت شُهدة بالكوفة، وهي التي علّمته الغناء والضرب على العود. باعته، فصار إلى الرشيد، فذكره له إبراهيم الموصلي، فسمعه، وأعتقه، وأغناه، وكنّاه بأبي المهنأ. وكان لحّاناً، لا يقيم الإعراب، وأبوه جزار من المماليك.

(٢) زيادة أثبتناها لسلامة المعنى واتّساق الكلام.

Marfat.com

ومنها ما قاله أبو العتاهية عن نفسه قال: لما جلس الأمين بالخلافة أنشدت أبياتاً هي:

يـا ابـن عـم النبـي خيـر البـريـه إنمـا أنـت رحمـة للـرعيـهْ
يـا أميـن الهـدى الأميـن المصفـى بلبـاب الخـلافـة الهـاشميـهْ
لـك نفـس أمـارة لـك بـالخيـ ـر وكـف بـالمكـرمـات نـديـهْ
أن نفسـاً تحملـت منـك مـا حمـ ـلـت للمسلميـن نفـس قـويـهْ

وبعد فراغه من الأبيات ذهب لأم جعفر فقالت له: أنشدني ما أنشدت أمير المؤمنين، فأنشدها فقالت: أين هذا من مدائحك في المهدي والرشيد؟ فغضب وقال لها: أنشدت أمير المؤمنين ما يستملح وأنا القائل فيه:

يـا عمـود الإسـلام خيـر عمـود والـذي صيـغ مـن حيـاء وجـودِ
والـذي فيـه مـا يسلـى ذوي الأحـ ـزان مـن كـل هـالـك مفقـودِ
والأميـن المهـذب الهـاشمـي الـ ـقرم محض الآباء محض الجدودِ
إن يـومـاً أراك فيـه ليـوم طلعـت شمسـه بسعـد السعـودِ

فقالت لي: الآن وفيت المديح حقه، وأمرت لي بعشرة آلاف درهم.

قال محمد بن الفضل[1]: كان المأمون يوجه إلى أم جعفر زبيدة في كل سنة مائة ألف دينار جدداً، وألف ألف درهم فكانت تعطي أبا العتاهية منها مائة دينار وألف درهم فأغفلته سنة، فرفع رقعة إلى محمد بن الفضل وقال له: ضعها بين يديها فوضعها، وكان فيها:

خبـرونـي أن فـي ضـرب السنـه جـددا بيضـاً وصفـراً حسنـهْ
سككـاً قـد أحـدثـت لـم أرهـا مثـل مـا كـانـت أرى كـل سنـهْ

فقالت: إنا والله أغفلناه فوجهت إليه بوظيفة على يدي ابن الفضل ـ المذكور ـ ولها أخبار كثيرة خلاف هذه وكانت وفاتها ببغداد في جمادى الأولى سنة [٢١٦] [2]هجرية رحمها الله تعالى.

---

(١) هو محمد بن الفضل الجرجرائي، أبو جعفر، وزير المتوكل على الله، ثم المستعين بالله، العبّاسيّين. كان قبل الوزارة يكتب للفضل بن مروان واستوزره المتوكل، ثم المستعين سنة ٢٤٩ هـ. قال المرزباني: هو شيخ ظريف حسن الأدب عالم بالغناء، له مع إسحاق الموصلي أخبار ومكاتبات. نسبته إلى جرجرايا بلده بين بغداد وواسط. توفي سنة ٢٥١ هـ/ ٨٦٥ م.

(٢) ورد تاريخ وفاتها في الأصل سنة «٣١٦ هجرية». والصحيح ما أثبتناه، وذلك استناداً إلى المصادر التي عملنا على مراجعتها أثناء عملنا في هذا الكتاب. تاريخ بغداد (١٤: ٤٣٣)، النجوم الزاهرة (٢: ٢١٣)، الدر المنثور (٢١٥).

Marfat.com

زبيدة القسطنطينية

هي ابنة أسعد بن إسماعيل بن إبراهيم بن حمزة الحنيفية ذكرها المرادي من جملة مشاهير أبناء القرن الثاني عشر للهجرة وقال: هي أم الفطنة الشاعرة المشهورة وصاحبة الديوان، الأديبة الفاضلة، الكاملة الحاذقة.

ولدت بالقسطنطينية ونشأت بكنف والدها شيخ الإسلام المولى أسعد مفتي الدولة العثمانية وقرأت القرآن واشتغلت بأخذ الفنون وقرأت الفقه واللغة والآداب ونظمت الشعر الفارسي والتركي، وتعلقت على الأدب، واشتهر ذكرها وشاع صيتها وكانت تخترع كل معنى مبتكر تحاربه الألباب، وامتدحت سلاطين وقتها ووزراءه، واشتغلت بمطالعة الكتب واتصل بها المولى الرئيس ودرويش عبد الله نقيب الأشراف وقائد العساكر، وتنافس الناس بشعرها وتداولته الأيدي ـ وكانت وفاتها في ذي القعدة سنة ١١٩٤ [م].

زباء نائلة[١] بنت [عمرو][٢] بن الظرب بن حسان بن أذينة العمليقي

ملك الجزيرة ومشارق الشام كان جذيمة الأبرش قتل أباها فملكت هي بعده ونهضت بالأخذ بثأره من جذيمة قيل: وكانت مملكتها من الفرات إلى تدمر وجنودها بقايا العمالقة وغيرهم، فلما استجمع لها الأمر واستحكم ملكها تأهبت لغزو جذيمة فقالت لها أختها ـ وكانت عاقلة ـ: إن غزوت جذيمة فإنما هو يوم له ما بعده والحرب سجال، ثم أشارت عليها بترك الحرب وإعمال الحيلة فأجابتها إلى ذلك وكتبت إلى جذيمة تدعوه إلى نفسها وملكها، وقالت له: إن ملك النساء قبح في السماع وضعف في السلطان، وإنها لم تجد لملكها ونفسها كفؤاً غيرك.

فلما وصله الكتاب وهو ببقة من شاطئ الفرات استدعى خواصه واستشارهم في الأمر فأجمع رأيهم على أن يسيروا إليها ويستولي على ملكها ويتزوجها، وكان فيهم رجل يقال له: قصير بن سعد من قبيلة لخم وهو ابن جارية لجذيمة كان أبوه تزوجها، وكان أديباً حازماً ناصحاً لجذيمة، مقرباً إليه فخالفهم فيما أشاروا به وقال: رأي فاتر، وعدوّ حاضر.

---

(١) في المؤرخين من يقول: هما اثنتان، **الأولى**: اسمها نائلة ولقبها الزبّاء، وهي التي قتل جذيمة الأبرش أباها، وقتلت نفسها بالسمّ. **والثانية**: زينب المسمّاة عند الرومان «زنوبيا» وهي التي تولت الحكم بعد مقتل زوجها أذينة وماتت في سجن أورليان الروماني.

(٢) ورد اسم أبيها في الأصل «عمر»، والصحيح ما أثبتناه، وذلك استناداً إلى المصادر التي عملنا على مراجعتها أثناء عملنا في هذا الكتاب.

Marfat.com

وقال لجذيمة: اكتب إليها إن كانت صادقة فلتقبل إليك وإلا فلا تمكنها من نفسك، وقد وترتها وقتلت أباها فقال جذيمة: رأيك في الكن لا في الضح (أي في البيت لا في الخارج) ثم دعا بابن أخته عمرو بن عدي[١] فاستشاره فشجعه على المسير وقال: إن قومي مع الزباء فإذا رأوك صاروا معك. فأطاعه فقال: قصير لا يطاع لقصير أمر ثم إن جذيمة استخلف على الملك عمرو بن عدي وعلى خيوله عمرو بن عبد الجن[٢] وسار في وجوه أصحابه ومعهم قصير فلما أبعدوا قليلاً قال لقصير: ما الرأي؟ قال: ببقة تركت الرأي، ثم استقبله رسل الزباء بالهدايا والألطاف فقال: يا قصير كيف ترى؟ قال: خطر يسير وخطب كبير وستلقاك الخيول فإن سارت أمامك فإن المرأة صادقة، وإن أخذت جنبتيك فأحاطت بك فإن القوم غادرون فاركب العصا فإني راكبها ومسايرك عليها (والعصا فرس كانت لجذيمة لا تجاريها الخيل).

فلما لقيته الكتائب حالت بينه وبين العصا فركبها قصير ونظر إليه جذيمة مولياً على متنها فقال: ويل أمه، حزماً على متن العصا ما ضل من تحرى العصا! فلما وصلوا به أدخلوه على الزباء فأجلسته على نطع وأمرت بطشت من ذهب وسقته الخمر بكثرة، ثم أمرت براهشيه فقطعا وقدمت إليه الطشت وقد قيل لها: إن قطر من دمه شيء في غير الطشت طلب بدمه وكانت الملوك لا تقتل بضرب الرقبة تكرمه للملك، فلما ضعفت يداه سقطتا فقطر من دمه خارج الطشت فقالت: لا تضيعوا دم الملك. فقال جذيمة: دعوا دماً ضيعه أهله، ثم هلك جذيمة على هذا الحال.

وأما قصير فقد جرت به العصا إلى غروب الشمس، وقد قطعت أرضاً بعيدة، وقد سقطت به ميتة فدفنها وبنى عليها بناء وسار حتى دخل على عمرو بن عدي وقال له: تهيأ ولا تطل دم خالك فقال: وكيف لي بها وهي أمنع من عقاب الجوّ، وكانت الزباء قد سألت كهنتها عن أمرها وكيفية موتها فقالوا لها: نرى قتلك يكون على يد عمرو بن عدي فحذرت عمراً من ذلك اليوم واتخذت لنفسها سرباً من مجلسها إلى حصن لها داخل مدينتها حتى إذا فاجأها أمر دخلت السرب ومضت إلى الحصن، ثم دعت برجل مصوّر حاذق في صناعته وأرسلته إلى عمرو بن عدي متنكراً وقالت له: صوره قائماً وجالساً ومتفضلاً، ومتنكراً ومتسلحاً بهيئته

---

(١) هو عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة اللخمي، ألو من ملك العراق من بني لخم في الجاهلية. تولى بعد مقتل خاله «جذيمة» وانتقم له من قاتلته «الزبّاء» في خبر طويل. كانت إقامته بالحيرة، وهو أول من اتخذها منزلاً من ملوك العرب، ومات فيها. قال البغدادي: هو أول ملوك لخم. استمر في الملك أكثر من ٥٠ سنة، منفرداً به مستقلاً، لا يدين لملوك الطوائف من الفرس ولا يدينون له.

(٢) هو عمرو بن عبد الجن بن عائذ الله بن أسعد التنوخي. فارس من شعراء الجاهلية وأمرائها. خلف جذيمة الأبرش على ملكه، بعد قتله، ونازعه عمرو بن عدي، ابن أخت جذيمة، فانتزع منه الملك.

Marfat.com

ولبسته ولونه وذلك حتى إذا رأته في أية حالة منها تعرفه ففعل المصوّر ما أمرته به، وأتى إليها بالصور.

وأما قصير فقال لعمرو: اجدع أنفي واضرب ظهري ودعني وإياها ففعل به عمرو ذلك وخرج قصير حتى قدم على الزباء فأدخل عليها، فلما رأته أجدع قالت لأمر مّا جدع قصير أنفه، ثم قالت: ما الذي أراه بك يا قصير؟ قال: زعم عمرو أني غدرت بخاله وزينت له المسير إليك ومالأتك عليه، ففعل بي ما ترين، فأقبلت إليك وقد عرفت أني لا أكون مع أحد هو أثقل عليه منك فأكرمته ورأت ما أعجبها من حزمه وحذقه ودرايته ومعرفته بأمور الملك فلما عرف أنها قد وثقت به قال: إن لي بالعراق أموالاً كثيرة ولي بها طرائف وعطر فابعثيني لأحمل مالي وأحمل إليك من طرائفها ومن صنوف ما يكون بها من التجارة فتصيبين أرباحاً وبعض ما لا يكون للملوك غنى عنه فأذنته ودفعت إليه أموالاً، وجهزت معه الدواب، فسار حتى قدم العراق وأتى عمرو بن عدي مختفياً وأخبره الخبر.

وقال: جهزني بصنوف البز والطرف لعل الله يمكننا من الزباء فتصيب منها ثأرك فأعطاه ما طلب وعاد به إلى الزباء فأعجبها ذلك كثيراً وزادت بقصير ثقتها ثم جهزته بعد ذلك بأكثر مما جهزته في المرة الأولى فسار إلى العراق ولم يدع طرفة الأقدام بها عليها حتى تعجبت منه، ثم عاد الثالثة وقال لعمرو: اجمع لي ثقات أصحابك وجندك وهيّئ لهم الغرائر (وهي كالصناديق كان هو أول من اخترعها) فلما تهيأت جعل كل رجلين في غرارتين على ظهر بعير وجعل معقد رؤوسهما من باطنهما وقال لعمرو: إذا وصلنا أقمتك على باب السرب، ثم أخرجت الرجال من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة فمن قاتلهم قاتلوه وإن أقبلت هي إلى سربها قتلتها أنت، فلما تم ذلك، سار قصير مجداً حتى إذا قرب سبق إليها وبشرها بكثرة ما حمل إليها من المال والتحف والثياب وكان المسير في الليل ويكمن في النهار لراحة القوم فأشرفت الزباء من قصرها أبصرت الإبل مثقلة بالأحمال تسير الهوينا وتكاد قوائمها تسوخ في الأرض فقالت: يا قصير:

ما للجمال مشيها وئيداً ... أجندلاً[1] يحملن أم حديدَا
أم صرفانا تأرزاً شديداً ... أم الرجال جثما قعودَا

ثم دخلت الإبل المدينة فلما توسطتها أنيخت وخرج الرجال من الغرائر ودخل عمرو على باب السرب ثم وضعوا السيف في أهل البلد وأقبلت الزباء تريد الخروج من السرب، فلما أبصرت عمراً عرفته بالصورة فمصت سماً كان بخاتمها وقالت: بيدي لا بيد عمرو وتلقاها

(١) الجندل: الصخر الكبير. [القاموس المحيط، مادة: جندل].

Marfat.com

عمرو بالسيف فقتلها[١] وأصاب ما أصاب من المدينة، ثم رجع إلى العراق وجلس على سرير الملك بعد خاله جذيمة.

الزرقاء جارية بن رامين

كانت من المشهورات بالجمال والحسن والغناء وافتتن بها غالب أهل زمانها، وكان الناس يقصدونها لسماع صوتها، ويبذلون لها مالاً خطيراً فاشتد ولوع يزيد بن عون الصيرفي بها فدخل عليها ومعه لؤلؤتان فقال لها: قد بذل لي فيهما أربعون ألف درهم. فقالت: هبهما لي. فقال: أفعل إن شئت. قالت: شئت، فحلف لا يعطيهما لها إلا من فمه إلى فمها، فغمزت الخادم، فخرج وكان يزيد واقفاً متكسراً بين يديها كاتفاً يديه فجلس أمامها وتقدم إليها، فأقبلت لتنالهما، فجعل يروغ بفمه ليستكثر من مقابلتها فانقضت عليه فأخذتهما وقالت: من هو المغلوب منا. فقال: والله لا يزال طيب هذه الرائحة في فمي ما حييت أبداً.

ولما أفضت إلى جعفر بن سليمان وأبوه عامل المنصور على البصرة، فدخل على ابنه يعتبه على شرائها واشتغاله بها في هذه الأيام، وقد خرج عليهم خارجي فغمز جعفر الخادم فأخرجها إليه، فبهت من جمال طلعتها وحلاوة منطقها فرضي ولم يعتب بعدها أبداً، وقال للزرقاء يوماً: هل تمكن أحد من محبيك منك بشيء؟ فخشيت أن تكتمه ما عساه أن يكون بلغه فأخبرته بموافقة الصيرفي، فاحتال عليه حتى حصل عنده فضربه حتى مات وبقيت الزرقاء عنده في عز وجاه إلى أن ماتت.

الزرقاء ابنة عدي بن قيس الهمدانية[٢]

كانت ذات شجاعة وبلاغة عظيمة، وكانت شهدت مع قومها صفين ولها جملة خطب ألقتها في مواقف القتال حتى خيل لمن يسمعها أنها أضغاث أحلام، وبينما معاوية بن أبي سفيان جالس في ديوانه بدمشق بعدما آل الأمر إليه واجتمع حوله حاشيته تذاكروا حرب صفين فقال أحدهم: إنه رأى الزرقاء وهي راكبة على بعير واقفة بين الصفين وهي تحرض الناس على القتال ولم ترهب أحداً من الفريقين.

فقال معاوية: أوَهي حية إلى الآن؟ فقيل له: نعم، هي مقيمة بالكوفة. فقال: يجب أن نستقدمها إلينا، ثم كتب إلى عامله بالكوفة أن يوقرها مع ثقة من ذوي محارمها وعدّة من

---

(١) كان مقتلها سنة ٣٥٨ ق. هـ/ ٢٨٥ م.

(٢) هي الزرقاء بنت عدي بن غالب بن قيس الهمدانية، خطيبة من ذوات الشجاعة من أهل الكوفة. ماتت سنة ٦٠ هـ/ ٦٨٠ م.

Marfat.com

فرسان قومها، وأن يمهد لها وطاء ليناً ويسترها بستر حصين، ويوسع لها في النفقة. فأرسل إليها فأقرأها الكتاب. فقالت: إن كان أمير المؤمنين جعل الخيار لي فإني لا آتيه وإن كان حتماً فالطاعة أولى، فحملها وأحسن جهازها على ما أمر به، فلما دخلت على معاوية قال: مرحباً وأهلاً قدمت خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين أدام الله لك النعمة. قال: أتدرين فيمَ بعثنا إليك؟ قالت: إني لا أعلم ما لم أعلم. قال: ألست الراكبة الجمل الأحمر الواقفة بين الصفين تحضين على القتال وتوقدين الحرب فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين، مات الرأس وبتر الذنب ولم يعد ما ذهب والدهر ذو غِيرَ، مَن تفكر بصر، والأمر يحدث بعده الأمر.

قال لها معاوية: أتحفظين كلامك يومئذٍ؟ قالت: لا والله لا أحفظه ولقد أنسيته. قال: لكني أحفظه لله أبوك حين تقولين: أيها الناس ارعووا وارجعوا إنكم قد أصبحتم في فتنة غشتكم جلاليب الظلم، وجارت بكم عن قصد المحجة فيا لها فتنة عمياء صماء بكماء لا تسمع لناعقها ولا تنساق لقائدها. إن المصباح لا يضيء في الشمس ولا تنير الكواكب مع القمر، ولا يقطع الحديد إلا الحديد ألا من استرشدنا أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه. أيها الناس إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها فصبراً يا معشر المهاجرين على المضض فكان قد اندمل الشتات والتأمت كلمة الحق ودمغ الحق الظلمة، فلا يجهلن أحد فيقول: كيف وإني ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، الآن آن الأوان خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال الدماء، ولهذا اليوم ما بعده والصبر خير في الأمور عواقباً.

أيها في الحرب قدماً غير ناكصين ولا متشاكسين ثم قال لها: والله يا زرقاء لقد أشركت علياً في كل دم سفكه. قالت: أحسن الله شاركتك وأدام سلامتك مثلك من يبشر بخير ويسر جليسه قال: أوَ يسرك ذلك؟ قالت: نعم والله لقد سررت بالخبر فإني لك بتصديق الفعل، فضحك وقال لها: ولله لوفاؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له في حياته اذكري حاجتك. قالت: يا أمير المؤمنين آليت على نفسي أن لا أسأل أميراً أعنت عليه أبداً. ثم انصرفت وبعد ذلك أرسل لها معاوية جائزتها.

زرقاء اليمامة ابنة مرة الطسمي[1]

هي أخت رياح بن مرة كانت حادة البصر ليس على وجه الأرض أبصر منها وكانت تبصر الراكب على مسيرة ثلاث ليال، فلما أغار على قومها الملك حسان أحد ملوك اليمن وكان

(١) للاستزادة يراجع: ثمار القلوب (٢٤٠)، خزانة الأدب (٤: ٢٩٩).

Marfat.com

أخوها مع القوم وذلك في خبر طويل، وحين قربوا من اليمامة[١] حذرهم رياح من أخته وأخبرهم بأنها تنظر الراكب من مسيرة كذا ميلاً وأمرهم أن يقلعوا الشجر وكل شخص يحمل أمامه شجرة ففعلوا، ثم ساروا، ولما أشرفت من منظرها قالت: يا جديس، لقد سارت إليكم الشجر قالوا لها: ما ذاك؟ قالت: أشجار يسير وراءها شيء وإني لأرى رجلاً من وراء شجرة ينهش كتفاً أو يخصف نعلاً فكذبوها وكان ذلك كما ذكرت فغفلوا عن أخذ أهبة الحرب ففي ذلك تقول الزرقاء لجديس تحذرهم:

إني أرى شجراً من خلفها بشر فكيف يجتمع الأشجار والبشرُ
سيروا بأجمعكم في وجه أوّلهم فإن ذلك منكم فاعلموا الظفرُ

فلم يسمعوا لها وهجم عليهم الملك حسان بحمير فأفناهم وشتت شملهم، فلما فرغ حسان من جديس دعا باليمامة[٢] بنت مرّةْ فأمر بها، فنزعت عيناها، فإذا هي داخلها عروق سود، فسألها عن ذلك فقالت: حجر أسود ـ يقال له الإثمد ـ كنت أكتحل به فنشب إلى بصري وكانت أول من اكتحل به فاتخذوه بعد ذلك كحلاً، وأمر الملك باليمامة فصلبت على باب خيمتها ـ وهو اسم البلد الذي كانت جديس[٣] مقيمة فيها ـ وسميت الزرقاء المذكورة باسمها.

زليخا امرأة قطفير عزيز مصر

قيل: إن اسمها راعيل ابنة عابيل، وقيل: اسمها بكا ابنة فيوش وأكثر التواريخ أن اسمها زليخا.

كان والدها من أولاد ملوك القبط الذين حكموا مصر قبل دخول العرب الذين سماهم المؤرخون ملوك الرعاة. كانت زليخا رأت في نومها أنها ستكون ملكة على مصر وأن القمر صار تاجاً لها ولبسته يوم توليتها على عرش المملكة فقيل لها: إنها ستتزوج بملك مصر، ومضى على ذلك أيام وليال، ولم يظهر لمنامها تأثير حتى إنها تزوجت بقطفير عزيز مصر الذي كان بذاك الزمان محافظاً على البلد من قبل ملكها وظنت أن منامها كان أضغاث أحلام فصرفت أفكارها عما رأت.

وفي أثناء ذلك دخلت العرب إلى مصر واستولت عليها وأبقت من دخلوا تحت الطاعة

---

(١) اليمامة: بينها وبين البحرين عشرة أيام، وهي معدودة من نجد وقاعدتها حَجْر. معجم البلدان، ج٥/ص ٥٠٥.
(٢) اليمامة واسمها الأصلي «جوّ» وسميت باليمامة نسبة إلى الموقع الذي كانت قبيلتها جديس تقطنه.
(٣) بنو جديس: قبيلة من العرب العاربة البائدة، قال ابن الكلبي: وهم جديس بن أرم بن سام بن نوح. قال الكلبي: كانت مساكنهم باليمامة.

Marfat.com

في الأحكام مثل قطفير وخلافه، وبذلك صارت زليخا مسموعة الكلمة مطاعة الأوامر، مقبولة الرجاء عند ملوك الرعاة ولم تطلب أمراً إلا تجاب عليه وبقيت تحت قطفير حتى قيض الله لها يوسف بصفة[1] عبد جاءت به التجار وصارت عليه المزايدة حتى رسا مزاده على قطفير زوج زليخا فأخذه إليها وأمرها بإكرامه، فأخذته إليها وأكرمت مثواه إكراماً لا مزيد عليه حتى جعلته بمثابة أولاد الملوك وكانت تلبسه الديباج وقراطق الحرير وتوقفه على رأسها وتأمره بما تريد من أمرها، ولما تفرس العزيز في يوسف الخير والصلاح لم ينزله منزلة العبيد بل قال لامرأته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهو يومئذٍ ابن سبع سنين. وقيل: سبع عشرة سنة فكانت زليخا تمشط شعره بيدها وتخدمه بنفسها وما زالت زليخا في كل يوم تحسن إلى يوسف وتتولى أمره حتى مال قلبها إليه وتكاثر وجدها عليه وهو مع ذلك لا يلتفت إليها بعينه حياء من ربه ولا ينظر إليها حتى تكاثر همها ودق عظمها وكابدها الشجون وواصلها النحول.

فلما عيل صبرها وضاق صدرها دخلت حاضنتها. فقالت لها: يا سيدتي، أرى غصنك ذابلاً وجسدك ناحلاً، وقلبك مائلاً فقالت لها: وكيف لا وأنا أخدم هذا الغلام منذ سبع سنين ألاطفه بلساني وأتحبب إليه بإحساني، وكلما زدت ميلاً إليه زاد إعراضاً عني وكلما قربت منه تباعد مني. فقالت الحاضنة: يا سيدتي، لو نظر إليك لكان أسرع إليك منك إليه، ولو نظر إلى حسنك وجمالك وصفاء لونك لما قرّ له قرار دونك فقالت لها: وكيف لي به؟ قالت لها: مكنيني من الأموال، فقالت: ها خزائني بين يديك خذي منها ما شئت ودعي ما شئت لا حساب عليك في ذلك، فتمكنت من الأموال ودعت أهل البناء والهندسة وقالت: أريد بيتاً تُرى الوجوه في سقفه وحائطه كما ترى في المرآة المصقولة فأجابوا بالسمع والطاعة ثم بنوا لها بيتاً سمته القيطوم، فلما تكامل بناؤه وتم إتقانه دعت بحضور مصوّر حاذق فصور في الحائط صورة يوسف وزليخا متعانقين ولم يبقَ من صورتهما شيء إلا صوّر، وأمرت بسرير من ذهب مرصع بالدر والياقوت واللؤلؤ، فوضعته في صدر البيت وجعلت عليه فرش الديباج والحرير الملون، ثم فرشت البيت وأرخت الستور، ثم ألبست زليخا من نوع الحلي والحلل النفيسة ما لا يوصف ولا يقدر بقيمة وأجلستها على مرتبة عظيمة مما يليق بمثلها.

ثم خرجت إلى يوسف وهي مستعجلة فقالت: يا يوسف أجب سيدتك زليخا فإنها

---

(١) هو يوسف بن يعقوب نبي الله، كان أثيراً عند أبيه مما جعل إخوته يحقدون عليه ويرمونه في البئر. قصته مشهورة ومعروفة ورد ذكرها كاملة في القرآن الكريم في سورة يوسف. يراجع تفسير الجلالين المذيّل بأسباب النزول، إعداد وتنسيق محمد أمين الضناوي، دار الشرق الأوسط، الطبعة الأولى، ١٩٩٧ م.

Marfat.com

تدعوك في بيتها القيطوم وكان سامعاً لها مطيعاً، وكان بيده قضيب من ذهب يلعب به، فرمى القضيب من يده وأسرع إلى الباب ليدخل فنادته زليخا مستعجلة له بالدخول فظن السوء في نفسه وأراد الرجوع بعد أن وضع رجله داخل العتبة، فتوقف عند ذلك وزاد إحساس قلبه بالشر فأسرعت إليه وجذبته إلى السرير وقالت: هيت لك، فأغمض عينيه وكف يديه ونكس رأسه حياء من الله تعالى فقالت له: يا يوسف، ما أحسن وجهك. قال: الله صوره في الأرحام. قالت: ما أحسن عينيك! قال: هما أوّل ما يسقطان مني في قبري. قالت: ما أحسن شعرك! قال: هو أوّل ما يبلى مني. قالت: يا يوسف، ما أطيب ريحك! قال: لو شممت رائحتي بعد ثلاث لفررت مني، قالت: يا يوسف أتقرب إليك فتتباعد مني! قال لها: أرجو بذلك التقرب من ربي.

قالت: انظر إلي نظرة واحدة. قال لها: أخشى العمى من ربي في آخرتي. قالت: ضع يدك على فؤادي. قال لها: إذا تغل في النار يدي. قالت: أشتريك بمالي وتخالفني. فقال: الذنب لإخوتي إذ باعوني حتى ملكتيني.

قالت: اصبر معي ساعة واحدة في البيت. قال لها: ليس فيه شيء يسترني من ربي قالت: يا يوسف، بأي وجه تخالفني وبأي حكم ترجع عن مرادي ولا ترعى صنعي؟ قال لها: حكم إلٰهي الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه وبطشه وإكراماً لسيدي الذي أكرم مثواي وأنزلني منزلة الأولاد. فقالت له: أما إلٰهك الذي في السماء فإني أفتح بيوت الأموال وأتصدق عنك بها وأهديها إليه حتى يرضَى عنك ويغفر لك، ولا أبالي أنا فيما يفعل في حقي لمرادي وقضاء حاجتي، وأما سيدك الذي أكرم مثواك فأنا أطعمه السم حتى ينتثر لحمه ويسقط عظمه ويموت جهداً وكمداً، وأكون أنا وأموالي وما ملكت يداي ملكك وطوع يمينك. قال: إذاً فما يكون عذري يوم القيامة بين يدي ربي إذ أكون فضلاً عن ارتكاب المعصية سبباً في جريمة قتل سيدي الذي أحسن إلي. وبعد هذه المحاورة التفت يوسف إلى صنم داخل البيت وعليه ستر فقال لها: لماذا سترت هذا الصنم؟

قالت: استحيت منه، فقال: إذا كنت تستحين من هذا وهو لا يسمع ولا يرى ولا ينفع ولا يضر فكيف أنا لا أخاف من ربي وقام وبادر بالخروج من الباب من غير أن يكون بينهما سبب من الأسباب وقد شهد الحق له بذلك في كتابه العزيز بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[يوسف: ٢٤].

ولما رأته فر يريد الباب أدركته وجذبت قميصه من خلفه فتمزق القميص ووافق ذلك الوقت أن العزيز مر بالباب يريد قضاء بعض حوائجه فإذا بوجبة فالتفت فإذا بالباب يحمل

Marfat.com

ويساق فدفع الباب وقال: من؟ فإذا يوسف مقدود الثوب باكي العين وإذا زليخا ناشرة الشعر محمرة الوجه باكية العين. فقال العزيز: فيمَ أنتما؟ فقالت زليخا: يا سيدي غلامك العبراني الذي ائتمنته على أهلك ومننت عليه بفضلك، وأحللته محل ولدك يريد بأهلك السوء.

فأقبل العزيز على يوسف بوجهه وقال: يا يوسف، هذا جزائي منك ائتمنتك على أهلي وأحللتك محل الأولاد المكرمين، ورجوت الخير والانتفاع بك فصرت تخونني في أهلي. فقال يوسف: معاذ الله أن أخونك في أهلك وأرضى بذلك! بل هي راودتني عن نفسي. فوقف العزيز متحيراً ينظر إليها تارة وإليه أخرى فقال يوسف: إن لي شاهداً يشهد ببراءتي. فقال العزيز: ما هو الشاهد ولم يكن معكما أحد في البيت؟ فقال: انظر هذا القميص كيف قدّ من دُبُر فلو كنت أنا المراود لكان القميص قدّ من قُبُل وهذا برهان محسوس على ذلك وكان مع العزيز ابن عم لزليخا، فلما سمع هذا الدليل وجده قاطعاً فقال: انظر إلى قميصه إن كان قدّ من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قدّ من دُبُر فكذبت وهو من الصادقين فنظر العزيز إلى القميص فوجده قدّ من دُبُر فقال لها: إن ذلك من كيدكن إن كيدكن عظيم ثم قال ليوسف: اكتم هذا ولا تبح به لأحد وقال لها: استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ثم تركها وانصرف.

وبعد ذلك قالت ليوسف: قد فضحتني والله لأسلمنك للمعذبين يعذبونك حتى ينسل جسمك كما سللت جسمي. فقال لها: إنْ كنت احتقرتني لغربتي فالله حسبي ونعم الوكيل. واشتغلت عن ذلك بكلفها به وشاع الخبر بمصر أن امرأة العزيز راودت فتاها عن نفسه قد شغفها حباً، وقد اجتمع نساء الملوك والأمراء والقادة مرة وتذاكرن أمرها فاستقبحنه وقلن: إنها في ضلال مبين، فبلغ ذلك زليخا وعظم عليها فأرادت أن تبين عذرها لهن فيه فصنعت لهن صنيعاً وأرسلت إليهن تدعوهن لضيافتها، وهيأت.لهن مجلس أنس وأوجدت فيه كل معدّات الطرب وكن عشر نسوة من نساء الملوك والأمراء وعشر بنات أبكار من بنات الملوك والأمراء، وبعد أن تناولن الطعام قدمت لكل واحدة منهن صحفة من عسل وأترجة وسكيناً حاداً، وقالت لهن: ما حقي عليكن؟ فقلن لها: أنت سيدتنا وكبيرتنا والمطاعة فينا نسمع لك ونطيع. فقالت لهن: بحقي عليكن إذا خرج عليكن فتاي يوسف إلا ما قطعتن له مما في أيديكن وأعطيتنه يأكل. فقلن لها: حباً وكرامة.

فتركتهن وذهبت إلى يوسف وقالت له: يا يوسف، أطعني اليوم واعصني أبداً. قال: أما ما لم يكن فيه سخط ربي فلا أبالي. فقالت له: دعني حتى أزينك وإن كنت مزيناً قال: اصنعي ما بدا لك، فرصعت جوانبه بالدر والياقوت وكللت جبينه بالجوهر وألبسته قباء أخضر ومنطقته

Marfat.com

بمنطقة من ذهب أحمر، ووضعت على عاتقه منديلاً من السندس وكأساً من ذهب في يده وقالت: اخرج عليهن فلو رأين منك ما رأيت لذهبن عن أنفسهن ولتركن الطعام والشراب وَلُمْنَ أنفسهن كما لمنني.

فخرج عليهن وهن قعود يقطعن في الأترج فلما رأينه ظنن أنه صنم زليخا الذي تعبده وكن يسمعن به ويحببن أن ينظرن إليه، فلما بدا لهن يوسف أكبرنه وصرن شبه السكارى والحيارى من كثرة تعجبهن من بهائه وكماله وأمعنّ في نظرهن إلى حسنه وجماله ورمن أن يقطعن ما في أيديهن كما شرطت زليخا عليهن فصرن يقطعن أيديهن وصارت الدماء تسيل في حجورهن ولا يجدن ألم القطع ولا حدة السكاكين ولا وقوع الدم على الأجسام، ويوسف يقول: ويحكن ماذا تصنعن بأنفسكن إنما أنا عبد من عبيد ربي، وزليخا تضحك مما تراه منهن من تقطيع أيديهن وذهاب عقولهن وأمرته بالانصراف، فلما غاب عن عيونهن رجعن إلى حسهن فقالت لهن زليخا: ويحكن من لحظة واحدة فعلتن بأنفسكن هذا وأنا منذ سبع سنين أقاسي منه ما أقاسي، وأخدمه على أطراف البنان وهو لا يعيرني طرفه ولا يلتفت نحوي فقلن لها: حاشى لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم فقالت لهن: ما هذا الذي فعلتنه بأنفسكن، فلما رأين ما نزل بهن أدركهن الخجل وذكرن ما لمنها به.

فقالت لهن: هذا الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم وأبى ولئن لم يفعل ما آمره لأسجننه وأعذبنه حتى يكون من الصاغرين[1]. وقد أقرت لهن بأمرها لكونهن عذّالها ورأتهن وقعن بما وقعت به فقلن لها: إنك لمعذورة فمرينا أن نكلمه بشأنك عساه أن يطيع ويسمع عندما نوبخه عن إعراض نفسه فأذنت لهن بالخلوة طمعاً في أن يملنه إليها، فجعلت كل واحدة منهن إذا خلت به تدعوه إلى نفسها وتشكو إليه وجدها فقال يوسف: يا ربي كانت واحدة ولم أقدر عليها إلا بعنايتك، وقد صرن جماعة ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[يوسف: ٣٣].

ولما رأين أن لا حيلة لهن باستمالته قلن لها افعلي ما بدا لك فيه، فطاولته مدة من الزمن ولما يئست منه قالت لزوجها: إن هذا الغلام فضحني بين الناس ونكس رأسي بين نظرائي وقد شاع خبري وخبره في مصر ولا براءة لي عندهم إلا أن أحبسه في السجن. فقال لها زوجها: لا يحبسه إلا الملك الريان بن الوليد، وكان مراده أن يخرج أمره من يدها لأنه إذا كان أمره بيدها ربما حنت عليه وأخرجته من السجن فلما سمعت ذلك لبست ثيابها وزينتها وجعلت تاجها على رأسها وخرجت حتى أتت إلى الريان بن الوليد وكان في بيته الأعظم وهو بيت من الحديد

---

(١) الصاغرين: الخاضعين. [القاموس المحيط، مادة: صغر].

Marfat.com

والنحاس فيه الزخارف بأنواع الجواهر والمعادن وكان يجلس في أعلى الباب حتى إذا دخل عليه أحد يراه قبل دخوله، فإن شاء أذن له وإلا ينصرف.

ولما رأى زليخا مقبلة أذن لها بالدخول وأمر الغلمان بفتح الأبواب أمامها، وكانت ذات قدر عظيم عنده مسموعة الكلمة لأنها من بنات الملوك، ولما دخلت على الملك خرت له ساجدة فقال لها الملك: ارفعي رأسك فأنت المقربة المرضية وحاجتك عندي مقضية، فرفعت رأسها إليه وأخذت في الثناء عليه بقولها: أيها الملك دام لك العز والبقاء وألبست ثوب النعمة والرخاء لم تزل لي مكرماً ولقضاء حاجتي مسرعاً وأن عبدي العبراني قد استعصى عليّ وأحب أن تأذن لي بحبسه في سجن المجرمين حتى يتأدب ولو بعد حين فقال لها: قد أجبتك وجعلت أمر السجن بيدك فانطلقي فاطلقي من شئت واحبسي من شئت فأخذت إذنه ورجعت إلى منزلها وأمرت بإحضار الحدادين إليها فمثلوا بين يديها فقالت لهم: إني أريد أن تصنعوا لي قيداً محكماً لعبدي يوسف العبراني. فقالوا: أيتها الملكة المطاعة في أمرها العظيمة في قومها إنا نرى بدناً ناعماً وساقاً رقيقاً ووجهاً أنيقاً، وإنه ربي بنعمة كاملة وعافية شاملة، فكيف يقوى على حمل القيد الحديد الثقيل.

فقالت: قيِّدوه وهذا لا يعنيكم. فقال يوسف: افعلوا ما أمرتكم به فإني من أهل بيت البلاء فقيدوه وحملوه على الأكتاف وانطلقوا به إلى السجن وتسامع الناس به فأقبلوا إليه من كل مكان حتى غصت الطرقات وصاروا ينظرون إليه ويقولون: إنه عصى سيدته الملكة وهو منكس رأسه ويقول: هذا خير من عصيان رب العالمين، فلما وصلوا به إلى السجن قالوا للسجان: خذ هذا فإن سيدته غضبت عليه وأمرت أن يسجن في سجن المجرمين، فأدخله السجان إلى السجن ووضعه بين أصحاب الكبائر والجنايات، ودخل العزيز على زليخا وقال: ما فعلت بيوسف؟

قالت: قيدته وحبسته وكان مرادها أن تخرجه عن قريب. فقال لها: أقسمت عليك بالملك الريان ورأسه إلا ما أبقيت يوسف في السجن ما دام الملك حياً فلم يمكنها إلا إبرار القسم وأدركها الندم، ولم تجد عذراً تخرجه به، وكانت تصعد إذا جن الليل إلى أعلى قصرها وتنظر إلى جهة السجن وتبكي وتقول: حبيبي يوسف ليت شعري أنائم أنت أم يقظان أجائع أنت أم عطشان، وتبقى على ذلك النحيب والبكاء حتى ينفجر الصبح وجداً عليه وشوقاً إليه وقد أنحلها الغرام وخالطها الهيام وداخلها السقام وهجرها المنام، وتعذر على ناعتها إثباتها ودامت على ذلك لا تشكو إلا بذكره ولا تسأل إلا عن أمره مدة اثنتي عشرة سنة حتى أذن الله ليوسف بالخروج من السجن كما جاء في قصته، ولم يشأ الخروج إلا بعد براءة ساحته، فجاء

Marfat.com

الملك بالنسوة اللاتي قطعن أيديهن وسألهن عن ذنب يوسف بقوله: ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه وكيف دعوتنه إلى الفاحشة فأقررن عند ذلك.

وقلن: حاشى الله ما علمنا عليه من سوء، ولا كانت رغبة فينا ولا دعوة للزنا وإنه لبريء الساحة طاهر الذيل. فقالت زليخا: هذا وقت بيان الحق[1] واضمحلال الباطل إن مراد حبيبي إقراري. فأنا أقر بذنبي، الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين، ولما ظهرت براءة يوسف وتبوّأ الملك وحصل القحط في مصر نسي زليخا ولم يفتكر بها لكثرة أشغاله، وقد مات العزيز زوجها وهي لكثرة إسرافها نفدت أموالها خصوصاً في أيام القحط التي حصلت بمصر في مدة يوسف حتى صارت لا تملك شيئاً ومدة يدها للسؤال فقيل لها: لو تعرضت للصديق لرحمك وأعطاك شيئاً عن الناس يغنيك.

وقيل لها من آخرين: لا تفعلي فربما يذكر ما كان منك إليه من المراودة وطول السجن والمخالفة فيسيء إليك ويعاقبك فقالت: أنا أعلم بحبيبي منكم إن من خلقه الصفح والاحتمال والفضيلة والابتهال، ثم نهضت حتى جلست على ربوة بطريقه وكان ليوسف يوم يركب فيه في كل أسبوع وكان يركب معه من عظماء دولته ووزرائه وقواده وأرباب مملكته نحو المائة ألف نفس، فلما أقبل يوسف وأحست به قامت ونادت بأعلى صوتها سبحان من جعل العبيد ملوكاً بالطاعة، وجعل الملوك عبيداً بالمعصية. فأمسك العنان ونظر إليها وهي واقفة في ذلك المكان فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا التي كنت أخدمك دهراً وأرجل جمتك وكان مني ما كان في ذلك الزمان قد ذقت وباله ولقيت نكاله، وتغيرت كما ترى أحوالي، وصرت أسأل الناس الذين كانوا يسألوني فمنهم من يرحمني ومنهم من يعرض عني، وهذا جزاء من خالف مولاه واتبع هواه.

فلما سمع الصدِّيق كلامها بكى إشفاقاً عليها ثم قال لها: هل بقي بقلبك شيء مما كان؟ قالت: والله لنظرة فيك أحب إليّ من الدنيا وما فيها ثم قالت: ناولني طرف سوطك فناولها إياه فوضعته على قلبها فأحس يوسف بانتفاض يده مع السوط من شدّة انتفاض قلبها وقال لها: ما أصاب قلبك؟ فقالت: يا يوسف، هو كما ترى. فقال لها: اذهبي إلى منزلك وإنّا سننظر في أمرك، ثم ذهب باكياً وبعد وصوله إلى مستقره أرسل إليها رسولاً فقال لها: يقول لك الملك إن كنت أيماً تزوّجناك وإن كنت ذات بعل أغنيناك. فقالت للرسول: إليك عني فإن الملك أعرف بالله من أن يستهزئ بي فإنه لم يلتفت إليّ أيام شبابي وجمالي فكيف يلتفت إليّ الآن ولم تصدّق قوله، فرجع الرسول وأخبر الصدِّيق بما قالت وذكرت من شأنها، فعلم أنها غير واثقة

---

(١) حَصْحَصَ الحق: بان بعد كتمانه. [القاموس المحيط، مادة: حصحص].

Marfat.com

بما قاله لها الرسول. فلما كان في الأسبوع الثاني مر الصدِّيق عليها بموكبه فرآها على الحالة التي رآها بها أوّل مرة وقالت له كما قالت في الأوّل فقال لها: ألم يبلغك رسولي ما أرسل به إليك فما ترين؟ فقالت: ألم أقل إن نظرة إليك أحب إليّ من الدنيا وما فيها. فلما سمع منها ذلك أمر بحملها إلى قصره وأحضر الشهود وتزوّجها، فلما زفت عليه وأدخلت إليه نظر إليها فزاد إشفاقاً عليها فأكرمها أكراماً لا مزيد عليه، ورتب لها من يقوم بأودها ولم يمضِ زمن حتى عاد إليها جمالها ورونقها وبهاؤها وكمالها وذلك من سرورها بما نالت من حبيبها حلاً بعد الحرام، وانتقالها من دنيا إلى أخرى بقدرة الملك العلام.

وقيل: إنها طلبت إليه أن يدعو الله أن يردّ لها جمالها ففعل، وهنالك تذكرت المنام الذي كانت رأته قبل تزوّجها بقطفير فرأت أن تفسيره قد حصل بزواجها بيوسف، أن لبست تاج مصر في مدته وصارت ملكة كعادة زمانهم ولما دخل عليها يوسف وجدها بكراً فتعجب من ذلك وقال لها: ما كنت تفعلين حين راودتيني عن نفسي قالت: أيها الصدِّيق اعذرني ولا تلمني فإن الله كساك حلة الجمال والبهاء والكمال وكان زوجي عِنّيناً[1] لا يقرب النساء فغلب عليّ حب الشهوة ففعلت ما فعلت.

ولما أتاها ولدت له «إفرايم» وبعده «منشا» وذلك في مدّة أربع سنوات ولم تلد له خلافهما مدّة حياتها.

زوي إمبراطورة المملكة الشرقية

هي ابنة «قسطنطين التاسع»[2]، زفت إلى «رومانوس الثالث» سنة ١٠٢٨ [م]، ثم عشقت صائغاً يدعى «ميخائيل» وهو «ميخائيل الرابع» البافلاغوني فأهلكت زوجها وتزوّجته، فرقي تخت الملك ولم يلبث أن أساء معاملتها فاتفقت مع أخيه وعلى رواية ابن أخيه يوحنا الملقب من ثَمّ «ميخائيل الخامس» وخلعاه ورقي «ميخائيل» تخت الملك سنة ١٠٣٥ [م]، فأساء معاملتها أيضاً، فأثارت هيجاناً في القسطنطينية وخلعت «ميخائيل» ورقت مكانه مع أختها «تيودورا» فتزوّجت وكانت في الثالثة والستين من عمرها «قسطنطين العاشر مونوماخوس» سنة ١٠٤٢ فصفا لها الجوّ وحكمت كيف شاءت إلى أن هلكت سنة ١٠٥٢ ميلادية.

---

(١) العِنّين: من لا يأتي النساء عجزاً، أو لا يريدهن. [القاموس المحيط، مادة: عَنَّ].
(٢) قسطنطين التاسع: هو مونوماكس حكم من سنة ١٠٤٢ م حتى سنة ١٠٥٥ م. هو أحد أباطرة بيزنطة. في أيامه حدث انفصال ميخائيل كرولاريوس عن الكنيسة الكاثوليكية.

Marfat.com

زينب[١] ملكة تدمر

كانت آية زمانها في الجمال ونادرة عصرها في الفضل المقرون بالجلال تعرف عند الرومان بـ «زنوبيا» ملكة الشرق، تولت عرش تدمر[٢] بعد زوجها «أذينه»[٣] المقتول عام ٢٦٧ للميلاد وكان اشتد ساعدها ورسخت في البلاد وطأتها شادت في عاصمتها البناءات الباهية الأنيقة، وغرست في ضواحيها الرياض الزاهية حتى تركتها جنة من الجنان فيها فاكهة، والنخل ذات الأكمام، والحب ذو العصف والريحان.

ثم جنحت إلى المغازي والفتوحات فدانت لشدّة بأسها العباد، وفتنت ببديع حسنها وسحر أساليبها الملوك، فأسكرها الفوز والنصر وبعثها على التمادي في طلاب العز والتماس الفخر فبعثت بالسرايا والصوائف إلى مصر فقهرتها ولقبت ذاتها بألقاب أهاجت عليها حسد مملكة الرومان، فناوتها[٤] وزحف عليها «أورليان»[٥] قيصر الروم، فعبأت الجيوش وقابلته على مقربة من أنطاكية فحمص، فهزمها شر هزيمة حتى اعتصمت منه بقاعدة بلادها تدمر، فأدار عليها رحى الحرب حصاراً وقتالاً حتى تداعت له أسوارها عنوة فأعمل في أهلها السيف، وفي قصورها التخريب حتى غادرها قاعاً صفصفاً يأوي إليها البوم والقطا، نادبة سالف مجدها المذكور، وقديم عزها المأثور.

وأما «زينوبيا» فأسرها «أورليان» وقادها إلى عاصمة الرومان ذليلة صاغرة حيثما دخلها بموكب حافل وهي ترسف بقيودها الذهبية أمام العواجل، وكان ذلك عام ٢٧٢ للميلاد فسبحان الحي الباقي من لا عاصم من يديه ولا واقي.

وأما تدمر فهي مدينة قديمة ذات آثار عظيمة كانت تعرف بمدينة النخل ويسميها

---

(١) في المؤرخين من يقول: هما اثنتان، **الأولى**: اسمها نائلة ولقبها الزبّاء، وهي التي قتل جذيمة الأبرش أباها، وقتلت نفسها بالسمّ. **والثانية**: زينب المسمّاة عند الرومان «زنوبيا» وهي التي تولت الحكم بعد مقتل زوجها أذينة وماتت في سجن أورليان الروماني.

(٢) تدمر أو پلميرا: مدينة في قلب الصحراء السورية شرقي حمص. اشتهرت بعروس الصحراء. تحيط بها تلال كلسية، كانت على طريق القوافل التجارية. عاصمة دولة عربية ازدهرت قديماً، بلغت أوج عزّها مع أُذينة وزوجته زنوبيا التي أسرها أورليانس إمبراطور الروم ودمّر المدينة سنة ٢٧٢ م. فتحها خالد بن الوليد سنة ٦٣٣ م. معجم البلدان، ج٢/ص ٢٠.

(٣) أذينة: ملك تدمر وزوج زنوبيا، هزم الفرس، عيّنه غاليانوس قائد الشرق الأعلى سنة ٢٦٢ م. اغتيل في حمص سنة ٢٦٨ م، وقيل: ٢٦٧ م.

(٤) ناوتها: ناوأتها: أعلنت العداء لها.

(٥) أورليان: أو أورليانوس (Aurelianus)، إمبراطور روماني حكم من سنة ٢٧٠ م حتى سنة ٢٧٥ م. أسر زنوبيا ملكة تدمر وجاء بها إلى روما.

Marfat.com

الأقدمون «بالميرى» واقعة بين نهري الفرات، والعاصمة تبعد بنحو ٩٠ ميلاً عن حمص إلى الشرق و١٥٠ ميلاً عن دمشق إلى الشمال الشرقي.

قيل: إنها سميت باسم تدمر بنت حسان التي بنت المدينة في أيامها والصحيح: أنها من بناء سليمان كما ورد في التوراة، وقد زعم العرب أن الجن بنوها له وعلى ذلك يقول النابغة:

إلا سليمـــان إذ قـــال الإلٰـــه لـــه قم في البرية فاحددها عن الفندِ
وخبـــر الجـــن أنـــي قـــد أمـــرتهـــم يبنـــون تـــدمـــر بـــالصفـــاح والعمـــدِ

ولم تنل تدمر عزاً مثل ما نالته في مدة «زنوبيا» ولم يرجع إليها رونقها الأصلي أبداً حتى صارت خرائب في هذا الزمان يأوي إليها البوم والغربان.

زينب ابنة عبد الله بن عبد الحليم

كانت حنبلية المذهب وهي بنت أخي الشيخ تقي الدين. قال الحافظ ابن حَجرِ[1]: سمعتْ من ابن الحجار وغيره وحدّثت وانتفع الناس بعلمها ولي منها إجازة. وهي من نساء الحديث المشهورات ذات لهجة صادقة، ولذلك عدّت من المحدثين.

زينب ابنة محمد بن عثمان بن عبد الرحمٰن الدمشقية

كانت أحسن نساء زمانها منظراً، وأعذبهن مقالاً، وأفصحهن منطقاً، وأعلمهن بالفقه والحديث وكان يعرف أبوها بابن العصيدة، حدّثت بالإجازة العامة عن فخر الدين ابن الحجار وغيره. ومن تلامذتها: الحافظ ابن حَجر وله منها إجازة وعمرت أكثر من مائة سنة وعشر سنين وكانت حلقة درسها لا تقل عن الخمسين طالباً للحديث ولم يسمع بامرأة مثلها فتحت حلقة درس واجتمع فيه طلاب مثل طلاب حلقة درسها.

زينب ابنة عثمان بن محمد لؤلؤ الدمشقية

كانت من أفاضل العلماء ولها اليد الطولى في علوم السنة سمعت من الحافظ ابن حَجر وأخذ منها الحافظ ابن حَجر. وتوفيت سنة ثمانمائة ولها رسائل في الفقه، والسنة استند عليها كثير من العلماء.

---

(١) هو أبو الفضل أحمد بن حَجَر العسقلاني، محدّث من الأئمة، مؤرخ مصري. من آثاره: «فتح الباري بشرح صحيح البخاري»، «الإصابة في تمييز الصحابة»، «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة». توفي سنة ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٩ م.

Marfat.com

زينب المرية

هي ابنة أحد مشاهير العرب ولدت بالمرية من أعمال الأندلس ولم نقف على تاريخ ولادتها واسم أبيها والذي وصل إلينا أنها كانت ذات حسن وجمال، وبهاء وكمال، وأدب وظرف، وتهذيب ولطف. رقيقة المعاني جزلة الألفاظ حاضرة النادرة لها شعر بديع جالست الأدباء وساجلت الشعراء حتى إنها كان يشار إليها بالبنان في ذلك الأوان، ومن شعرها:

يـا أيهـا الـراكـب الغـادي مطيتـه عرّج أنبئك عن بعض الذي أجدُ
ما عالج الناس من وجد تضمنهم إلا ووجدي بهم فوق الذي وجدوا
حسبـي رضـاه وإنـي فـي مسـرتـه ووده آخـــر الأيـــام أجتهـــدُ

وتوفيت بالمرية مأسوفاً عليها من ذوي الأدب وأهل العلم.

زينب ابنة حدير

كانت من عاقلات ذاك العصر وأطوعهن لأزواجهن وكان زوجها القاضي شريح[1] كما روى عنه الشعبي فإنه قال: قال لي شريح: يا شعبي، عليكم بنساء بني تميم فإنهن النساء قلت: وكيف ذلك؟ قال: انصرفت من جنازة ذات يوم ظهراً فمررت بدور بني تميم فإذا امرأة جالسة في سقيفة على وسادة وفي جانبها جارية كأنها البدر في الليلة الداجية، فاستقيت فقالت لي: أي الشراب أعجب إليك النبيذ أم اللبن أم الماء؟ قلت: أي ذلك تيسر عليكم فقالت: اسقوا الرجل لبناً فإني أخاله غريباً. فلما شربت نظرت إلى الجارية فأعجبتني. فقلت: من هذه؟ قالت: ابنتي. قلت: وممن؟ قالت: زينب بنت حدير إحدى نساء تميم، ثم إحدى نساء بني حنظلة، ثم إحدى نساء بني طهية[2].

قلت: أفارغة أم مشغولة؟ قالت: بل فارغة. قلت: أتزوّجينيها؟ قالت: نعم، إن كنت كفؤاً، لها عم فاقصده. فانصرفت إلى عمها فقال: يا أبا أمية ما حاجتك؟ قلت: إليك. قال: وما هي؟ قلت: ذكرت لي بنت أخيك زينب بنت حدير. قال: ما بي عنك رغبة ولا بك عنها

---

(١) شريح القاضي، هو شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي، أبو أمية، من أشهر القضاة الفقهاء في صدر الإسلام. أصله من اليمن، ولي قضاء الكوفة في زمن عمر، وعثمان، وعلي، ومعاوية. استعفى في أيام الحجّاج، فأعفاه سنة ٧٧ هـ. كان ثقة في الحديث، مأموناً في القضاء، له باع في الأدب والشعر. عمّر طويلاً، ومات في الكوفة سنة ٧٨ هـ/ ٦٩٧ م.

(٢) بنو طهية: بطن من حنظلة من تميم من العدنانية، وهم بنو مالك بن حنظلة. هم بنو أبي سور وجيش ومالك وعوف بن مالك بن حنظلة، وطهية أمهم، عرفوا بها. وهي طهية بنت عبد شمس بن زيد بن مناة بن تميم.

Marfat.com

مقصر وإنك لنهزة وزوّجني بها وبارك القوم لي، ثم نهضنا فما بلغت منزلي حتى ندمت فقلت: تزوّجت إلى أغلظ العرب وأجفاها فهممت بطلاقها، ثم قلت: أجمعها إليّ فإن رأيت ما أحب وإلا طلقتها، فأقمت أياماً ثم أقبل نساؤها يهادينها.

فلما أجلست في البيت أخلي لي البيت فقلت: يا هذه، إن من السنَّة إذا دخلت المرأة على الرجل أن يصلي وتصلي ركعتين ويسألا الله خيراً ليلتهما ويتعوّذا بالله من شرها فقمت أصلي، ثم التفت فإذا هي خلفي فصليت فإذا هي على الفراش، فمددت يدي فقالت: على رسلك. فقلت: إحدى الدواهي منيت بها. فقالت: إن الحمد لله وحده أحمده وأستعينه إني امرأة عربية ولا والله ما سرت سيراً قط أشدّ عليّ منه وأنت رجل غريب لا أعرف أخلاقك فحدّثني بما تحب فآتيه وما تكره فأنزجر عنه.

فقلت: الحمد لله وصلى الله على محمد قدّمت خير مقدم على أهل دار زوجك سيد رجالهم، وأنت سيدة نسائهم أحب كذا وأكره كذا قالت: أخبرني عن أختانك أتحب أن يزوروك؟ فقلت: إني رجل قاضٍ وما أحب أن تملوني. قال: فبت بأنعم ليلة وأقمت عندها ثلاثاً، ثم خرجت إلى مجلس القضاء فكنت لا أرى يوماً إلا هو أفضل من الذي قبله حتى إذا كان عند رأس الحول دخلت منزلي فإذا عجوز تأمر وتنهى، فقلت: يا زينب من هذه؟ فقالت: والدتي. قلت: حياك الله بالسلام. قالت: أبا أمية، كيف أنت وحالك؟ قلت: بخير والحمد لله. قالت: كيف زوجتك؟ قلت: كخير امرأة. قالت: إن المرأة لا ترى في حال أسوأ خلفاً منها في حالين إذا حظيت عند زوجها وإذا ولدت غلاماً فإن رابك منها ريب فالسوط، فإن الرجال والله ما جازت إلى بيوتهم شر من الورهاء المتدللة.

قلت: أشهد أنها بنتك قد كفيتنا الرياضة، وأحسنت الأدب. قال: فكانت في كل حول تأتينا فتذكر هذا، ثم تنصرف. قال شريح: فما غضبت عليها قط إلا مرة واحدة كنت لها ظالماً فيها وذلك أني كنت إمام قومي فسمعت الإقامة، وقد ركعت ركعتي الفجر فأبصرت عقرباً فعجلت عن قتلها فأكفأت عليها الإناء، فلما كنت عند الباب قلت: يا زينب، لا تحركي الإناء حتى أجيء، فعجلت فحركت الإناء فضربتها العقرب فجئت فإذا هي تلوي فقلت: ما لك؟ قالت: لسعتني العقرب، فبهذا السبب كان غضبي لتعجيلها رفعه، وكان لي جار يضرب زوجته فقلت في ذلك:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم ... فشلت يميني يوم تضرب زينبَا
أأضربها في غير جرم أتت به ... إليّ فما عذري إذا كنت مذنبَا
فتاة تزين الحلي إن هي حليت ... كأن بفيها المسك خالط محلبَا

Marfat.com

زينب ابنة حجش[١]

أم المؤمنين بنت حجش بن [الرئاب][٢] زوجة النبي ﷺ، تكنى أم الحكيم، وأمها أميمة بنت عبد المطلب[٣] عمة النبي كانت قديمة الإسلام ومن المهاجرات مع الرسول وكانت قبل النبي ﷺ تحت زيد بن حارثة ومضى النبي يوماً إلى بيته لغرض فرفعت الريح باب الخباء فرأى زينب حاسرة فأعجبته ومن ثَمَّ كرهت إلى زيد فلم يستطع أن يقربها فجاء إلى النبي ﷺ فأخبره فقال: «**أرابك فيها شيء؟**» قال: لا، فقال النبي ﷺ: «**أمسك عليك زوجك واتق الله**». ففارقها زيد، واعتدّت فحلت للرسول ﷺ فأنزل الله عليه ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] فقال النبي ﷺ: «**من يبشر زينب أن الله قد زوجنيها**»[٤] وقرأ عليهم: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] الآية.

فكانت زينب تفتخر على نسائه وتقول: زوجكن أهلكن وزوّجني الله من السماء، وذلك سنة ٥ للهجرة، فلما دخل عليها قال لها: «**ما اسمك؟**»[٥].

فقالت: برة، فسماها زينب ولما تزوجها تكلم في ذلك المنافقون وقالوا: حرم محمد نساء الولد وقد تزوج امرأة ابنه لأن زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ كان يدعى بابن محمد على سبيل التبني فأنزلت الآية وهي: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب ٤٠] والآية الأخرى ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥].

فدعي زيد من ثَمَّ بابن حارثة، وكانت زينب قصيرة جميلة، صنّاع اليدين، صوّامة قوّامة، تشتغل وتتصدّق من شغل يدها.

وقالت عائشة: يرحم الله زينب بنت حجش لقد نالت في هذه الدنيا الشرف الذي لا يبلغه شرف، إن الله عز وجلّ زوّجها بنبيه ونطق به القرآن وإن الرسول قال لنا ونحن حوله:

---

(١) هي زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية، من أسد خذيمة، أم المؤمنين، إحدى شهيرات النساء في صدر الإسلام. كانت زوجة زيد بن حارثة، اسمها «برّة». سمّاها النبي «زينب» كانت من أجمل النساء. بسببها نزلت آية الحجاب. هي أوّل من حُمل بالنعش من موتى العرب، فلما رآه عمر قال: نِعم خباء للظعينة. وكانت الحبشة تحمل به.

(٢) ورد اسمها زينب بنت جحش بن «الرباب» والصحيح «الرئاب». وهذا ما وجدناه أثناء البحث عن ترجمتها في المصادر. ابن سعد (٨: ٧١)، صفوة الصفوة (٢: ٢٤)، حلية الأولياء (٢: ٥١).

(٣) ترجمتها في الجزء الأول من هذا الكتاب.

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح (٨: ٥٤). وأحمد في المسند (٥: ٨٤). والبيهقي في السنن الكبرى (٩: ٣٠٧).

(٥) أخرجه البخاري في الصحيح (٨: ٥٤). وأحمد في المسند (٥: ٨٤). والبيهقي في السنن الكبرى (٩: ٣٠٧).

Marfat.com

«أسرعكن لحوقاً بي أطولكن يداً»[١] فبشرها بسرعة لحوقها به وهي زوجته في الجنة وذلك لأنها أول من توفيت من نسائه بعده، وكان يريد بطول اليد كثرة الصدقة.

وقال لعمر بن الخطاب: «**إن زينب أوّاهة**»[٢] أي خاشعة متصدّعة. وتوفيت سنة ٢٠. وقيل: ٢١ للهجرة وكان عمرها حين تزوجها ٣٥ سنة.

زينب ابنة الحارث

امرأة يهودية من خيبر كانت زوجة سلام بن مشكم، فلما استقر النبي ﷺ في خيبر أهدت له شاة مصلية مسمومة فوضعتها بين يديه، فأخذ مضغة فلم يسغها ومعه بشير بن البراء بن معرور فأكل بشير منها وقال النبي: «**إن هذه الشاة تخبرني أنها مسمومة**» ثم دعا المرأة، فاعترفت، فقال: «**ما حملك على ذلك؟**».

قالت: بلغت من قومي ما لم يخف عليك فقلت: إن كان نبياً فسيخبر، وإن كان ملكاً استرحنا منه.

فتجاوز عنها ومات بشير في تلك الأكلة أما النبي ﷺ فلم يؤثر فيه السم إلا تأثيراً خفيفاً، فحجم بين كتفيه وقال في مرضه الذي مات فيه: «**هذا وإني وجدت انقطاع أبهري من أكلة خيبر**»[٣].

فكان المسلمون يرون أنه مات شهيداً مع كرامة النبوّة وادعى ورثة بشيرعلى زينب فقتلت.

زينب[٤] ابنة الإمام أحمد الرفاعي

لبست الخشن من الثياب، وتركت الطيب من الطعام والشراب، وكانت قد أرخت الحجاب وتملت بعبادة الملك الوهاب، وقنعت بدون اليسير مع القدرة ولزمت حنين أبيها وتبعت أثر طريقته بالذل والانكسار والسكينة والافتقار.

كان السيد أحمد[٥] ـ رضي الله عنه ـ يقول: كأنها خلقت رجلاً والناس يظنون أنها

---

(١) أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية (٤: ١٤٩).
(٢) أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية (٤: ١٤٩).
(٣) أخرجه البيهقي (٨: ٤٦). وابن حجر في الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف (٨).
(٤) هي زينب بنت أحمد (الإمام الرفاعي) بن علي بن يحيى الرفاعي الحسيني، فاضلة صالحة. سلكت طريق أبيها في التصوف، حفظت القرآن وسمعت الحديث، تفقّهت وأخذ عنها أولادها. توفيت سنة ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م.
(٥) هو أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي الحسيني، أبو العباس، الإمام الزاهد، مؤسس الطريقة الرفاعية. ولد في قرية حسن من أعمال واسط في العراق سنة ٥١٢ هـ/١١١٨ م. تفقّه وتأدّب في واسط، =

Marfat.com

خلقت امرأة، وقال السيد عمر الفاروثي: كنت ذات يوم عند السيد أحمد فأظهرني على كثير من أسراره، ثم أخذني بيده ودخل بيته على رابعة، فقال له: سلم عليها واخدمها واسألها أن تدعو لك. فجاءت زينب فقبّل رأسها ثم قال لي: أي عمر سلم عليها واخدمها واسألها أن تدعو لك ولذريتك ففعلت ذلك

ثم قلت في نفسي: الأولى إنه كان يأمرني بالخدمة والتعظيم لرابعة فإنها أكبر سناً، فالتفت إلى السيد أحمد ـ قدّس الله سره العزيز ـ وقال لي: أي عمر، إن الله وعدني أن يحيي بها الآثار ويعمر بها الديار. فقالت زينب: أي سيدي تعيش أنت ويعيش السيد صالح ويجعلني الله فداءك ويحيي الله بك الآثار. فقال: بل فيك. فقالت: يا سيدي أأنا أقعد وأحدّث الناس وأجلس معهم في المجالس ؟ فقال لها: يا زينب، لا ولكن ذريتك يبقون إلى يوم القيامة.

إلا أن صاحب الشفاء[1] أورد هذه الحكاية في كتابه بغير هذا النسق. قالت مريم بنت الشيخ يعقوب: قد قالت لي زينب: نتعب قليلاً ونستريح طويلاً، السفر بعيد، والطريق طويل، والجسد ضعيف، والزاد قليل، وليس لنا بدّ من هذا السفر لو ندركه قبل أن يدركنا ونستقبله قبل أن يستقبلنا لكان خيراً لنا.

قال الزبرجدي: حفظت القرآن وتفقهت وسمعت الحديث من خالها الشيخ أبي البدر الأنصاري الواسطي وأخذ عنها أولادها الأئمة الأعلام، وسمع منها الشيخ الكبير عمر أبو الفرج الفاروثي الكازروني، وكانت عظيمة القدر رفيعة المنزلة أقبل على زروع أهل واسط[2]، وأم عبيدة[3] جيش الجراد فالتجأ الناس إليها فتقنعت وصعدت السطح وقالت: إلٰهي عبيدك ساقهم حسن الظن إليّ، وأنت الذي ألقيت ذلك في قلوبهم وإني أقل من أن أسألك لذنوبي وسواد وجهي وأنت أكرم من أن ترد المنكسرين يا أرحم الراحمين. فزم الجراد زمة واحدة وكأنه إبل ساقها رعاتها حتى لم يبق منه جرادة واحدة.

= وتصوّف فانضمّ إليه خلق كثير من الفقراء كان لهم به اعتقاد كبير. كان يسكن قرية أم عبيدة بالبطائح بين واسط والبصرة. توفي بها سنة ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م. وقبره إلى الآن محط الرحال لسالكي طريقته. مات ولم يخلف عقباً.

(١) صاحب كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» هو القاضي عِياض بن موسى بن عِياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل. المولود سنة ٤٧٦ هـ/ ١٠٨٣ م المتوفى بمراكش مسموماً سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م.

(٢) واسط: بالبطائح من أعمال العراق قرب البصرة. معجم البلدان، ج٥/ص ٤٠٠.

(٣) أم عبيدة: بالبطائح وهي من أعمال واسط في العراق. معجم البلدان، ج٥/ص ٤٠٠.

Marfat.com

توفيت سنة ثلاث وستمائة [ستمائة وثلاثون][١] بأم عبيدة ودفنت بالمشهد الأحمدي المبارك رضي الله عنها.

زينب[٢] ابنة رسول الله ﷺ

هي أكبر أولاده ولدت ولرسول الله ﷺ ثلاثون سنة وماتت سنة ثمان للهجرة في حياة أبيها وأمها خديجة بنت خويلد بن أسد. وقد قيل: إنها لم تكن أكبر بناته وليس بشيء إنما الاختلاف بين القاسم وزينب أيهما ولد قبل الآخر فقال بعض العلماء بالنسب: أول ولد ولد له القاسم، ثم زينب. وهاجرت بعد وقعة بدر، وقد تزوجت لقيطاً الملقب بأبي العاص بن الربيع[٣]، وولدت منه غلاماً اسمه علي فتوفي وقد ناهز الاحتلام، وكان رديف رسول الله ﷺ يوم الفتح وولدت له أيضاً بنتاً اسمها أمامة وأسلم أبو العاص وكان الإسلام قد فرق بين زينب وبين أبي العاص إلا أن رسول الله ﷺ كان لا يقدر أن يفرق بينهما بمكة لعدم قوّة الإسلام بها حينئذٍ. وقيل: إن أبا العاص لما أسلم رد عليه رسول الله ﷺ زينب فقيل: بالنكاح الأول. وقيل: ردها بنكاح جديد.

وتوفيت زينب بالمدينة في السنة الثامنة[للهجرة] ونزل رسول الله ﷺ في قبرها وهو مهموم محزون، فلما خرج سرّي عنه، وقال: «**كنت ذكرت ضعفها**» فسألت الله تعالى أن يخفف عليها ضمة ففعل وهوّن عليها. ثم توفي بعدها زوجها أبو العاص.

وقال آخرون: إن زينب ولدت في سنة ثلاثين من مولده ﷺ وأدركت الإسلام وأسلمت وهاجرت وكان أبوها يحبها وتزوّجها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع ففرق بينهما الإسلام، ثم لما أسلم زوجها جمع ﷺ بينهما. قال بعضهم: ولم يفرق بينهما من أول البعثة لأن تحريم نكاح المشرك للمسلمة إنما كان بعد الهجرة.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان الإسلام فرق بين زينب وبين أبي العاص إلا أن رسول الله ﷺ كان لا يقدر أن يفرق بينهما لأنه كان مغلوباً بمكة وولدت زينب لأبي العاص

---

(١) وردت في الأصل «ثلاث وستمائة»، وهذا خطأ فخلال بحثنا عن ترجمتها وجدنا أنها توفيت سنة ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م. روضة الناظرين (١١٧).

(٢) للاستزادة يراجع: الإصابة كتاب النساء (الترجمة ٤٦٤)، طبقات ابن سعد (٨: ٢٠).

(٣) هو القاسم بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو العاص، صحابي من أصهار النبي ﷺ غلب عليه لقبه أبو العاص، وكان يلقّب جرو البطحاء، ويقال له: الأمين، وهو زوج زينب كبرى بنات النبي ﷺ تزوجها في الجاهلية بمكة، وتأخر إسلامه، فكانت عند أبيها بالمدينة، أسلم فأعيدت إليه. توفي سنة ١٢ هـ/ ٦٣٤ م.

Marfat.com

علياً وأمامة فأما عليّ فمات مراهقاً، وأما أمامة فتزوجها علي بن أبي طالب بعد خالتها فاطمة بوصية من فاطمة وتزوجها بعد موت علي المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بوصية من علي وكان رسول الله ﷺ يحب أمامة وهي التي كان يحملها في الصلاة على عاتقه فإذا ركع وضعها وإذا رفع رأسه من السجود أعادها.

ولما أسر أبو العاص في وقعة بدر وكان مع الكفار أرسلت زينب في فدائه الربيع بمال دفعته إليه من ذلك قلادة لها كانت أمها خديجة قد أدخلتها بها على أبي العاص فقال رسول الله ﷺ: «**إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها الذي لها فافعلوا**». فقالوا: نعم، وكان أبو العاص مصاحباً لرسول الله ﷺ مصافياً، وكان قد أبى أن يطلق زينب لما أمره المشركون أن يطلقها فشكر له صنيعه.

ولما أطلقه النبي ﷺ من الأسر شرط عليه أن يرسل زينب إلى المدينة فعاد إلى مكة وأرسلها إلى المدينة فلهذا قال رسول الله ﷺ: «**حدثني فصدقني ووعدني فوفى**».

ولم تزل زينب بالمدينة وأبو العاص بمكة على شركه، فلما كان قُبيل الفتح خرج بتجارة إلى الشام ومعه أموال من أموال قريش ومعه جماعة منهم.

فلما عاد لقيته سرية لرسول الله ﷺ أميرهم زيد بن حارثة، فأخذ المسلمون ما في تلك العير من الأموال، وأسروا أناساً وهرب أبو العاص بن الربيع، ثم أتى المدينة ليلاً فدخل على زينب فاستجار بها فأجارته.

فلما صلى النبي ﷺ صلاة الصبح صاحت زينب: أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فلما سلم رسول الله ﷺ أقبل على الناس وقال: «**هل سمعتم ما سمعت؟**» قالوا: نعم. قال: «**والذي نفسي بيده ما علمت بذلك حتى سمعتم**». وقال: «**يجير على المسلمين أدناهم**» ثم دخل على ابنته فقال: «**أكرمي مثواه ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له**» قالت: إنه قد جاء في طلب ماله. فجمع رسول الله ﷺ تلك السرية.

وقال: «**إن هذا الرجل منا حيث علمتم وقد أصبتم له مالاً وهو مما أفاء الله عليكم وأنا أحب أن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإن أبيتم فأنتم أحق**»[1].

فقالوا: بل نردّه عليه، فردّوا عليه ماله أجمع فعاد إلى مكة وأدى إلى الناس أموالهم، ثم أسلم وحسن إسلامه.

ثم قدم إلى المدينة ورد عليه رسول الله ﷺ ابنته ولم تزل معه حتى توفيت سنة ثمان من الهجرة.

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨: ٢١).

Marfat.com

[زينب ابنة جزيمة]

زينب ابنة جزيمة بن حارثة بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة الهلالية زوج النبي ﷺ يقال لها: أم المساكين لكثرة إطعامها وصدقتها عليهم، وكانت تحت عبد الله بن جحش[١] فقتل عنها يوم أحد فتزوّجها رسول الله ﷺ وقيل: كانت عند الطفيل بن الحرث بن [عبد][٢] المطلب بن عبد مناف[٣]، ثم خلف عليها أخوه عبيد بن الحارث كانت أخت ميمونة زوج النبي ﷺ لأمها، وتزوجها رسول الله ﷺ بعد حفصة، ولم تلبث عند رسول الله ﷺ إلا يسيراً ـ شهرين أو ثلاثة ـ حتى توفيت وكانت وفاتها في حياته ﷺ لا خلاف فيه.

وقال ابن منده: إن النبي ﷺ قال: «**أسرعكن لحوقاً بي أطولكن يداً**»[٤] فكان نساء النبي يتذارعن أيتهن أطول يداً، فلما توفيت زينب علمن أنها كانت أطولهن يداً في الخير، وهذا وهم فإنه ﷺ قال: «**أسرعكن لحوقاً**»[٥] وهذه سبقته إنما أراد أول نسائه تموت بعد وفاته، وقد تقدم في زينب بنت حجش وهو لها أشبه لأنها كانت كثيرة الصدقة من عمل يدها، وهي أول نسائه، توفيت بعده والله أعلم.

زينب ابنة العوّام أخت الزبير

وهي أم عبد الله بن حكيم بن حزام أُسلمت وبقيتْ إلى أن قتل ابنها يوم الجمل فقالت ترثيه وترثي الزبير أخاها:

أعينيّ جودَا بالدموع فأشرعا ... على رجل طلق اليدين كريمِ
زبير وعبد الله يدعي لحادث ... وذي خلة منا وحمل يتيمِ
قتلتم حواريّ النبي وصهره ... وصاحبه فاستبشروا بجحيمِ

---

(١) هو عبد اللَّه بن جحش بن رئاب بن يعمر الأسدي، صحابي، قديم الإسلام. هاجر إلى بلاد الحبشة، ثم إلى المدينة. كان من أمراء السرايا، وهو صهر رسول الله ﷺ أخو زينب أم المؤمنين. قُتل يوم أُحد شهيداً، فدفن هو وحمزة عم رسول الله ﷺ في قبر واحد سنة ٣ هـ/ ٦٢٥ م.

(٢) هو الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم، صحابي قرشي ولد سنة ٣٨ ق.هـ/ ٥٨٦ م. شهد بدراً، وأُحُداً، والمشاهد كلها. كان من ذوي الشجاعة والشرف. توفي سنة ٣٢ هـ/ ٦٥٣ م.

(٣) زيادة أثبتناها لإثبات نسب الطفيل، استناداً إلى المصادر التي بحثنا فيها عن ترجمته. الإصابة (الترجمة ٤٢٤٠)، نسب قريش (٩٥).

(٤) أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية (٤: ١٤٩).

(٥) أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية (٤: ١٤٩).

Marfat.com

وقد هدّني قتل ابن عفان قبله وجادت عليه عبرتي بسجومِ
وأيقنت أن الدين أصبح مدبراً فماذا تصلي بعده وتصومي
وكيف بنا أم كيف بالدين بعدما أصيب ابن أروى وابن أم حكيمِ

كانت شاعرة أديبة جريئة على القول والفعل ذات شهامة زائدة الجد، وكان لها ميل كلي إلى عثمان وأحزابه وطالما هيجت العرب على حرب عليّ وقد حضرت وقعة الجمل ولها فيها مشاركة، وتوفيت بعدها بقليل.

[السيدة زينب بنت الإمام علي كرم الله وجهه]

السيدة زينب بنت الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ بن أبي طالب[1] وأمها فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ فهي شقيقة الحسن والحسين عليهماالسلام. تزوجها ابن عمها عبد الله بن جعفر[2] الطيار ذو الجناحين ابن أبي طالب وولدت له علياً وعوناً ويدعى بالأكبر وعباساً، ومحمداً وأم كلثوم.

وحضرت مع أخيها الحسين بكربلاء. ذكر ابن الأنباري: أنها لما قتل أخوها الحسين أخرجت رأسها من الخباء وأنشدت رافعة صوتها:

ماذا تقولون إن قال النبيّ لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأممِ
بعترتي وبأهلي بعد فرقتكم منهم أسارى ومنهم خضبوا بدمِ
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

لكن في «كامل ابن الأثير»[3]: أن هذه الأبيات لابنة عقيل بن أبي طالب[4]. وفي «نور

---

(١) هي زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب، شقيقة الحسن والحسين. تزوجها ابن عمها عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فولدت له بنتاً تزوجها الحجاج بن يوسف. وحضرت زينب مع أخيها الحسين وقعة كربلاء، وحُملت مع السبايا إلى الكوفة، ثم إلى الشام. وكانت ثابتة الجنان، رفيعة القدر، خطيبة، فصيحة.

(٢) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، صحابي. ولد بأرض الحبشة لما هاجر أبواه إليها. وهو أول من ولد بها من المسلمين سنة ١ هـ/ ٦٢٢ م. أتى البصرة والكوفة والشام. كان كريماً يسمى بحر الجود. كان أحد الأمراء في جيش علي يوم صفّين، مات بالمدينة سنة ٨٠ هـ/ ٧٠٠ م.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، أحداث سنة ٦١ هـ.

(٤) هو عقيل بن عبد مناف (أبي طالب) بن عبد المطلب الهاشمي، القرشي، كنيته أبو يزيد. أعلم قريش بأيامها، ومآثرها، ومثالبها، وأنسابها. صحابي فصيح اللسان، شديد الجواب. هو أخو علي وجعفر لأبيهما. كان أسنّ منهما، برز اسمه في الجاهلية. كان ممن يُحتكم إليه في المنافرات. بقي مشركاً =

Marfat.com

الأبصار» عن خزيمة الأسدي قال: دخلنا الكوفة سنة إحدى وستين فصادفت منصرف علي بن الحسين ـ عليهما السلام ـ بالدربة من كربلاء إلى ابن زياد[١] بالكوفة ورأيت نساء الكوفة يومئذٍ قياماً يندبن متهتكات الجيوب، وسمعت علي بن الحسين يقول: يا أهل الكوفة، إنكم تبكون علينا فمن قتلنا ورأيت زينب بنت عليّ فلم أرَ والله خفرة أنطق منها كأنما تنزع عن لسان أمير المؤمنين فأومأت إلى الناس أن اسكتوا فسكتت الأنفاس، وهدأت الأجراس فقالت:

«الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين. أما بعد، يا أهل كوفة الختل والخذل أتبكون فلا سكنت العبرة ولا هدأت الرنة، إنما مثلكم مثل التي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم، ألاَ وإن فيكم الصلف والضعف وداء الصدر الشنف، وملق الأمة، وحجز الأعداء كمرعي على دمنة، أو كفضة على ملحودة ألا ساء ما تزرون أي والله تدحضون قتل سليل خاتم النبوّة ومعدن الرسالة ومدار حجتكم، ومنار محجتكم، وسيد شباب أهل الجنة ويلكم يا أهل الكوفة ألا ساء ما سوّلت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون، أتدرون أي كبد لرسول الله ﷺ فريتم، وأي دم له سفكتم، وأي كريمة له أبرزتم لقد جئتم شيئاً إذا تكاد السمٰوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً، ولقد أتيتم بها خرقاء شوهاء طلاع الأرض. أفعجبتم إن أمطرت السماء دماً فلعذاب الآخرة أخزى، وأنتم لا تنصرون. فلا يستخفنكم المهل، فلا يحقره البدار، ولا يخاف عليه فوت [الثأر][٢]، كلا إن ربي وربكم لبالمرصاد». ثم سارت، قال: فرأيت الناس حيارى واضعي أيديهم على أفواههم ورأيت شيخاً قد دنا منها وهو يبكي حتى اخضلت لحيته، ثم قال: بأبي أنتم وأمي كهولكم خير الكهول وشبابكم خير الشباب ونسلكم لا يبور ولا يخزى أبداً.

وفي «كامل ابن الأثير»[٣] أنها سمعت الحسين وهو في كربلاء قبل مشهده يقول:

يا دهر أفٍ لك من خليل ... كم لك بالشريف والأصيلِ
من صاحب أو طالب قتيلْ ... والدهر لا يقنع بالبديلِ
وإنما الأمر إلى الجليل ... وكل هالك سالك السبيلِ

فأعادها مرتين أو ثلاثاً، فلما سمعته لم تملك نفسها أن وثبت تجر في ثوبها حتى انتهت

= حتى موقعة بدر. أسره المسلمون في المعركة ففداه العباس بن عبد المطلب. رجع إلى مكة، وأسلم بعد الحديبية. عمي في أواخر عمره. مات سنة ٦٠ هـ/ ٦٨٠ م.

(١) هو عبد الله بن زياد.

(٢) زيادة أثبتناها لسلامة المعنى واتّساق الكلام.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، أحداث سنة ٦١ هـ.

Marfat.com

إليه ونادت: «وا ثكلاه، ليت الموت أعدمني الحياة اليوم ماتت فاطمة أمي وعلي أبي، والحسين أخي يا خليفة الماضي وثمال الباقي» فذهب فنظر إليها وقال: أخية لا يذهبن حلمك الشيطان! قالت: «بأبي أنت وأمي واستقتلت نفسي لنفسك الفداء» فردد غصته و[زرفت][1] عيناه، ثم قال: لو ترك القطا لنام فلطمت وجهها وقالت: «واويلتاه أفتغصبك نفسك اغتصاباً فذلك أقرح لقلبي وأشد على نفسي». ثم لطمت وجهها وشقت جيبها وخرت مغشياً عليها فقام إليها الحسين فصب الماء على وجهها وقال: اتقي الله وتعزي بعزاء الله واعلمي أن أهل الأرض يموتون وأهل السماء لا يبقون وإن كل شيء هالك إلا وجه الله أبي خير مني، وأمي خير مني، وأخي خير مني ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة حسنة فعزاها بهذا ونحوه.

ولما حملوا السبايا إلى الكوفة اجتازوا بهن على الحسين وأصحابه صرعى فلطمن خدودهن وصاحت زينب أخته: «يا محمداه، صلى عليك ملائكة السماء. هذا الحسين بالعراء، مزمل بالدماء، مقطع الأعضاء وبناتك سبايا، وذريتك مقتلة تسفى عليها الصبا». فأبكت كل عدوّ وصديق.

فلما أدخلوهم على ابن زياد لبست أرذل ثيابها وتنكرت وحفت بها إماؤها فقال عبيد الله: من هذه الجالسة؟ فلم تكلمه فقال ذلك ثلاثاً وهي لا تكلمه فقال بعض إمائها: هذه زينب ابنة فاطمة. فقال لها ابن زياد ـ لعنه الله ـ: الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم. فقالت: «الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد وطهرنا تطهيراً لا كما تقول إنما يفتضح الفاسق، ويكذب العاجز». فقال: كيف رأيت صنع الله بأهل بيتك؟ قالت: «كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتختصمون عنده». فغضب ابن زياد وقال: قد شفي غيظي من طاغيتك والعصاة المردة من أهل بيتك فبكت وقالت: «لعمري لقد قتلت كهلي، وأبرزت أهلي، وقطعت فرعي، واجتثثت أصلي فإن يشفك هذا فقد اشتفيت». فقال لها: هذه شجاعة لعمري لقد كان أبوك شجاعاً. فقالت: «ما للمرأة والشجاعة».

فلما نظر ابن زياد إلى علي بن الحسين قال: ما اسمك؟ قال: علي بن الحسين. قال: أوَلَم يقتل علي بن الحسين؟ فسكت. فقال: ما لك لا تتكلم؟ فقال: كان لي أخ يقال له أيضاً علي فقتله الناس. فقال اللعين ابن زياد: إن الله قتله. فسكت علي، فقال: ما لك لا تتكلم؟ فقال: الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥] فقال: أنت والله منهم، ثم قال لرجل: ويحك، انظر هذا هل أدرك أني لأحسبه رجلاً فكشف عنه مريّ بن معاذ الأحمر فقال: نعم، قد أدرك قال: اقتله. فقال علي: من

---

(١) زيادة أثبتناها لسلامة المعنى واتّساق الكلام.

Marfat.com

يتوكل بهذه النسوة؟ وتعلقت به زينب فقالت: «يا ابن زياد حسبك منا أما رويت من دمائنا وهل أبقيت منا أحداً» واعتنقته، وقالت: «أسألك بالله إن كنت مؤمناً إن قتلته أن تقتلني معه».

وقال علي: يا ابن زياد إن كان بينك وبينهن قرابة فابعث معهن رجلاً تقياً يصحبهن بصحبة الإسلام فنظر إليها ساعة ثم قال: عجباً للرحم والله إني لأظنها ودت لو أني قتلته أن أقتلها معه دعوا الغلام ينطلق مع نسائه، ولما دخلن الشام على يزيد بن معاوية[١] والرأس بين يديه جعلت فاطمة وسكينة ابنتا الحسين [تتطاولان لتنظرا][٢] إلى الرأس وجعل يزيد يتطاول ليستر عنهما الرأس فلما رأين الرأس صحن فصاحت نساء يزيد وولولت بنات معاوية فقالت فاطمة وكانت أكبر من سكينة بنات رسول الله ﷺ سبايا يزيد؟ فقال: يا ابنة أخي أنا لهذا كنت كارهاً. قالت: والله ما ترك لنا خرص. فقال: ما أتى إليكن أعظم مما أخذ منكن. فقام رجل من أهل الشام فقال: هب لي هذه ـ يعني فاطمة بنت الحسين ـ فأخذت فاطمة ثياب زينب وصرخت فقالت زينب: «كذبت ولؤمت ما ذلك لك ولا له» فغضب يزيد وقال: والله إن ذلك لي ولو شئت أن أفعله لفعلته قالت: «كلا والله ما جعل الله لك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا». فغضب يزيد واستطار ثم قال: إياي تستقبلين بهذا إنما خرج من الدين أبوك وأخوك. قالت زينب: «بدين الله ودين أبي وأخي وجدي اهتديت أنت وأبوك وجدك». قال: كذبت يا عدوة الله قالت: «أنت أمير تشتم ظلماً وتقهر بسلطانك». فاستحى وسكت.

وعلى اختلاف الروايات أن للسيدة زينب[٣] ـ رضي الله عنها ـ مقامين **أحدهما**[٤]: بدمشق وهو مقصود من كل الجهات خصوصاً من أهل الشيعة. **والثاني**[٥]: بمصر وهو أشهر من الأول. ولها أوقاف وإيراد زائد من ديوان عموم الأوقاف المصرية. ولها مسجد في مصر

---

(١) هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي. ثاني ملوك الدولة الأموية في الشام. ولد بالماطرون سنة ٢٥ هـ/ ٦٤٥ م، نشأ بدمشق، وولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٠ هـ، وأبى البيعة له عبد اللّه بن الزبير والحسين بن علي، فانصرف الأول إلى مكة والثاني إلى الكوفة. في أيامه وقعت فاجعة كربلاء وقتل فيها الحسين بن علي. توفي بحَوْران سنة ٦٤ هـ/ ٦٨٣ م.

(٢) وردت في الأصل «يتطاولان لينظرا»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

(٣) توفيت السيدة زينب ابنة علي بن أبي طالب شقيقة الحسن والحسين سنة ٦٢ هـ/ ٦٨٢ م.

(٤) ذكر زهير شاويش تعليقاً على المتداول من أن السيدة زينب ابنة علي بن أبي طالب هي المدفونة في الحي المعروف باسمها في دمشق: «كذلك القبر المشهور جنوبي دمشق، وكانت القرية تسمّى رواية وليس هناك ما يثبت في كتب التاريخ أنها دفنت هناك».

(٥) ذكر علي مبارك في «الخطط التوفيقية» ج ٥/ص ٩ تعليقاً على المتداول من أن السيدة زينب ابنة علي بن أبي طالب هي المدفونة في الحي المعروف الآن باسمها في القاهرة: «لم أرَ في كتب التواريخ أن السيدة زينب بنت علي رضي الله عنهما جاءت إلى مصر في الحياة أو بعد الممات».

Marfat.com

لم يوجد مثله قد ذكر أوصافه الأمير علي باشا مبارك في خططه المسماة بالخطط التوفيقية. ولكون أوصافه جاءت مسهبة اقتصرنا عنها منوّهين على محل وجودها[١].

زينب ابنة الطثرية

هي زينب[٢] بنت سلمة بن سمرة من بني عامر بن صعصعة. والطثرية[٣] أمها قتل أخوها يزيد بن الطثرية الشاعر المشهور في خلافة بني العباس سنة ١٢٦ هجرية الموافقة لسنة ٧٤٤ ميلادية قتله بنو حنيفة[٤] فقالت أخته ترثيه:

أرى الأثل من وادي العقيق مجاوري ... مقيماً وقد غالت يزيد غوائلهُ
فتى قد قدّ السيف لا متضائل ... ولا رهل لباته وأباجلهُ
فتى لا ترى قدّ القميص بخصره ... ولكنه يوهي القميص كواهلهُ
فتى ليس لابن العم كالذئب إن رأى ... بصاحبه يوماً دماً فهو آكلهُ
يسرّك مظلوماً ويرضيك ظالماً ... وكل الذي حملته فهو حاملهُ
إذا نزل الأضياف كان عزوراً ... على الحيّ حتى تستقل مراجلهُ
مضى وورثنا منه درعاً مفاضة ... وأبيض هندياً طويلاً حمائلهُ
وقد كان يرمى المشرفيّ بكفه ... ويبلغ أقصى حجرة الحي نائلهُ
كريم إذا لاقيته مبتسماً ... وإما تولى أشعث الرأس جافلهُ
إذا القوم أمّوا بيته فهو عامد ... لأحسن ما ظنوا به فهو فاعلهُ
ترى جاذريه يرعدان وناره ... عليها عدا ميل الهشيم وحاملهُ
يجران ثنيا خيرها عظم جاره ... بصيراً بها لم تعد عنها مشاغلهُ

---

(١) لم نعثر في المصادر إلى ما يشير إلى مكان وفاتها أو دفنها.

(٢) توفيت زينب ابنة الطثرية سنة ١٣٥ هـ/ ٧٥٢ م.

(٣) هو يزيد بن سلمة بن سمرة من بني عامر بن صعصعة. ابن الطثرية وهي أمه. من بني قشير بن كعب، شاعر مطبوع. من شعراء بني أمية، مقدّم عندهم، له شرف وقدر في قومه بني قشير كنيته أبو المكشوح. كان حسن الشعر، حلو الحديث، شريفاً، متلفاً للمال، صاحب غزل، وظرف، وشجاعة، وفصاحة. قتله بنو حنيفة في موقعة له معهم يوم الفَلَج من نواحي اليمامة. عدّه ابن حبيب ممن قتل غيلة، لأنه بينما كان يقاتل علقت جبّته بعرق من الشجر، فعثر، فضربه الحنفيون حتى قتلوه. كان ذلك سنة ١٢٦ هـ/ ٧٤٤ م.

(٤) بنو حنيفة: حي من بكر بن وائل من العدنانية، وهم بنو حنيفة بن لحيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل. كانت منازل بني حنيفة اليمامة، وكان يسكنها منهم هودة بن علي بن ثمامة بن عمرو بن عبد العزى. وهو الذي كتب إليه النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام.

Marfat.com

وكانت زينب ذات جمال وأدب وكمال، شاعرة مشهورة مطبوعة على الشعر والفضل والأدب، متجملة بالفصاحة التي هي حلية العرب، ولها مراث كثيرة في أخيها لم نعثر عليها الآن.

زينب ابنة أبي القاسم الشهيرة بأم المؤيَّد[١] عبد الرحمٰن

وهو ابن الحسن بن أحمد بن سهل بن أحمد بن عبدوس الجرماني الأصل النيسابوري الدار، كانت فاضلة عالمة أدركت جماعة من أعيان العلماء، وأخذت عنهم رواية وإجازة، فمن أخذت عنهم أبو محمد إسماعيل بن أبي القاسم النيسابوري القاري، وأبو المظفر عبد المنعم[وهو][٢] بن عبد الكريم بن هوازن القشيري[٣] صاحب «الرسالة القشيرية»، وممن أجازها الحافظ أبو الحسن عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي، والعلاّمة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري[٤] مؤلف «الكشاف»، وممن أجازتهم من أكابر العلماء العلامة المؤرخ شهاب الدين قاضي القضاة ابن خلِّكان[٥] صاحب «التاريخ المشهور»[٦] وهي في القرن السابع من الهجرة.

---

(١) هي زينب بنت عبد الرحمٰن بن الحسن الجرجاني الشعري، أم المؤيَّد، فقهية، لها اشتغال بالحديث. أخذت عن جماعة من كبار العلماء، رواية وإجازة. ولدت سنة ٥٢٤ هـ/ ١١٣٠ م. توفيت سنة ٦١٥ هـ/ ١٢١٨ م في نيسابور.

(٢) زيادة أثبتناها لسلامة المعنى واتّساق الكلام.

(٣) هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري، من بني قشير بن كعب، أبو القاسم زين الإسلام، شيخ خراسان في عصره زهداً وعلماً بالدين. ولد في نيسابور سنة ٣٧٦ هـ/ ٩٨٦ م. وأقام فيها إلى أن توفي سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢ م. كان السلطان ألب أرسلان يقدمه ويكرمه.

(٤) هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم، من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأدب. ولد في زمخشر، من أعمال خوارزم، سنة ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٥ م، سافر إلى مكة فجاور بها زمناً فلقّب بجار الله. تنقّل في البلاد، ثم عاد إلى الجرجانية فتوفي فيها سنة ٥٣٨ هـ/ ١١٤٤ م.

(٥) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خَلِّكان، البرمكي، الإربلي، أبو العباس المؤرخ الحجة، الأديب الماهر. صاحب كتاب «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» وهو من أشهر كتب التراجم. ولد في إربل بالقرب من الموصل على شاطىء دجلة الشرقي، انتقل إلى مصر فأقام فيها مدة طويلة، تولى نيابة قضائها، وفي الشام ولاّه الملك الظاهر القضاء أيضاً. ولي التدريس في كثير من مدارس دمشق وتوفي فيها فدفن في سفح جبل قاسيون.

(٦) هو كتاب «وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان».

Marfat.com

الأميرة زينب هانم أفندي

هي أصغر كريمات المرحوم محمد علي باشا[١] والي مصر أول مؤسس للحكومة الخديوية. ولدت في حدود سنة ١٢٤٤ هجرية في مصر القاهرة ووالدتها شمع نور قادين أفندي من محاظي المرحوم محمد علي باشا وهي جركسية الأصل.

وفي سنة ١٢٦٤ [هـ] تأهلت بالمرحوم يوسف كامل باشا، وأقيمت لها الأفراح في مصر إلى الدرجة التي لم يسبق لها مثال وكان زفافها في سراي الأزبكية.

ولما توفي محمد علي وتولى عباس باشا حكومة مصر واشتدت البغضاء بينه وبين الأمراء «المورهليين»: باقي بك، وسامي باشا، وكامل باشا، وسائر العائلة الخديوية، واضطروا للهجرة من مصر.

هاجرت المترجَمة المرحومة مع زوجها كما هاجرت أختها الكبرى الأميرة نازلي هانم أفندي إلى الأستانة وذلك في حدود ١٢٦٨ [هـ]، فأكرمت الدولة العلية مثوى الجميع وتقلب كامل باشا في مناصب الدولة حتى صار صدراً أعظم في مدة المرحوم السلطان عبد العزيز ثم توفي في حدود التسعين.

وبقيت المترجَمة في الأستانة في منزلها الكائن في ميدان السلطان بايزيد ومنزله الساحلي في بيتك الشهير داخل الخليج القسطنطيني.

وتوفيت في ربيع سنة ١٣٠٢ [هـ] ودفنت في مدفنها الخصوصي خارج [«إسكدار»][٢] في الموقع المعروف بقره جه أحمد سلطان وكان لوفاتها وجنازتها شأن عظيم في عموم الأستانة.

وخلفت من الأموال والجواهر والأراضي والعقارات شيئاً عظيماً قد لا يقل عن ثلاثة ملايين جنيه ولم تعقب ذرية لا هي ولا زوجها، وورث جميع ذلك أخوها المرحوم البرنس

---

(١) هو محمد علي باشا بن إبراهيم آغا بن علي المعروف بمحمد علي الكبير. مؤسس آخر دولة ملكية في مصر. ألباني الأصل، مستعرب. ولد في قولة وهي الآن تابعة لليونان، وكانت من البلاد العثمانية سنة ١١٨٤ هـ/ ١٧٧٠ م. احترف تجارة الدخان فأثرى. كان أمّياً، تعلم القراءة في الخامسة والأربعين من عمره. قدم مصر وكيلاً لرئيس قوة من المتطوعين، جهزتها «قولة» من ٣٠٠ رجل، نجدة لردّ غزاة الفرنسيين عن مصر. شهد حرب أبي قير سنة ١٢١٤ هـ. جامل المماليك فناصروه مع الألبانيين وأتراك «قولة». وما زال حتى ولي مصر سنة ١٢٢٠ هـ. له في ذلك أخبار كثيرة. توفي في الإسكندرية سنة ١٢٦٥ هـ/ ١٨٤٩ م.

(٢) وردت في الأصل «إسكندار»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

Marfat.com

عبد الحليم باشا بن محمد علي باشا فمما تركت من العقارات الشهيرة سراي بيك وسراي ميدان السلطان بايزيد، ومن ذلك أسهم الشركة الخيرية، وهي شركة «وابورات البوغاز» في الأستانة ولا تقل عن أربعين «وابورا»، وسراي الأزبكية في مصر وسراي شبري الصغيرة.

وكانت ـ رحمها الله ـ كثيرة الخيرات والمبرات، سخية اليد، عالية النفس، محبة لإعانة الفقراء وإغاثتهم، كانت تصرف على كثير من البيوت حتى بلغ من كان يعيش بإحساناتها في نفس الأستانة فقط أكثر من أربعمائة عائلة.

ولها أوقاف عظيمة أوقفتها على نفسها وزوجها وذريتها، ثم جعلت ربع تلك الأوقاف لجملة محلات مباركة كالمسجد الحسيني في مصر ومساجد السيدة نفيسة والسيدة زينب وغيرهما نحو ١٤ مسجداً وعدة تكايا منها المولوية والنقشبندية والكاشنية وعلى ليلة المعراج وليلة القدر في قراءة القرآن بمسجد والدها في قلعة مصر.

وجعلت من ذلك الربع قدراً لمدرسي الفقه الحنفي في الجامع الأزهر ومدرسي الفقه الشافعي والمالكي والحنبلي وخصصت لكل تخصيصات.

ثم إنها خصصت ربعاً من ذلك أيضاً لكل من قرأ القرآن في سراياتها ولكل من خدمها أو لازمها إلى حين الوفاة من الرجال والنساء وجعلت لمن يبلغ زمن ملازمته لها أو قيامه بخدمتها عشر سنين فأكثر ضعف من كان زمنه أقل من ذلك وكذلك لعتقائها وعتقاء أمها وفقراء معتوقي والدها ومن خيراتها [مساهمتها][(١)] بالاشتراك مع زوجها [في بناء][(٢)] مستشفى في مدينة «إسكدار» من دار الخلافة وسبيل في قصبة قرطال بقرب «إسكدار».

وأوقفت عليها الأوقاف الكافية، كما أوقفت على قبرها وقبر زوجها وعلى بعض التكايا والزوايا في الأستانة وغيرها.

وكانت المترجَمة متوسعة في دائرتها مطموعاً فيها لمالها وسخائها، ومحترمة جداً في جميع دوائر الدولة حتى إنها كانت معتبرة جداً في السراي السلطاني ولدى جلالة الخلفاء العظام عموماً وجلالة سيدنا أمير المؤمنين خصوصاً، وكان لها وقع سياسي في الأحوال المصرية في شأن العصبة العرابية.

قيل: إنها صرفت من أربعين إلى خمسين ألف جنيه لمساعدة أخيها البرنس حليم باشا،

---

(١) زيادة أثبتناها لسلامة المعنى واتّساق الكلام.
(٢) زيادة أثبتناها لسلامة المعنى واتّساق الكلام.

Marfat.com

حتى إن الحكومة قبضت على وكيل دائرتها في مصر عثمان باشا لتداخله بأمرها مع عصبة الأشقياء لتستميلهم إلى أخيها.

وكان أخوها قد قل ماله وكانت تعينه كما تعين غيره من العائلة، ولما دنت وفاتها أوصت له بكثير من أموالها وعقاراتها.

قال أهل الاطلاع على حقيقة حالها: إنها أصيبت بشيء من اختلال الشعور قبل موتها بمدة. وفي تلك المدة اهتم البرنس حليم باشا بتحوير الوقفيات وحصر قسمها الأعظم فيه وفي أولاده، واستغل الفائدة من ذلك الوقت إلى أن توفي في سنة ١٣١٢.

وحينئذٍ قام بعض الناس وحرك أصحاب الحقوق بالمطالبة، ولا يزال النزاع فيها إلى الآن.

Marfat.com

حرف السين

سارة زوجة إبراهيم الخليل عليه السلام

كانت أحسن نساء زمانها جمالاً وأوفرهن عقلاً وكمالاً، تزوّجت بإبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ وكان يحبها محبة عظيمة وكانت لم تعصه في شيء وبذلك أكرمها الله تعالى.

وكان قدم بها إبراهيم إلى مصر وبها فرعون من الفراعنة الأولى، وقد وصف له حسنها وجمالها، فأرسل إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فجاءه فقال له: ما هذه المرأة منك؟ فقال: هي أختي وتخوّف أن قال هي امرأتي أن يقتله. فقال له: زينها وأرسلها لي حتى أنظر إليها فرجع إبراهيم إلى سارة وقال لها: إن هذا الجبار قد سألني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده فإنك أختي في كتاب الله ـ عز وجل ـ ثم أقبلت سارة على الجبار وقام إبراهيم عليه السلام يصلي.

فلما دخلت عليه ورآها أهوى إليها يتناولها بيده فيبست يده إلى صدره، فلما رأى ذلك عظم أمرها وقال لها: سلي ربك أن يطلق يدي فوالله لا آذيتك. فقالت سارة: اللهم إن كان صادقاً فأطلق له يده، فأطلق الله تعالى يده.

وقيل: إنه فعل ذلك ثلاث مرات بقصد أن يتناولها فتيبس يده، فلما رأى ذلك ردها إلى إبراهيم ووهب لها هاجر وهي جارية قبطية فأقبلت إلى إبراهيم ومعها هاجر وهي تحمد الله تعالى على عصمتها من فرعون.

وكانت سارة قد منعت الولد حتى أسنت، فوهبت هاجر إلى إبراهيم بقولها: إني أراها امرأة وضيئة فخذها لعل الله تعالى يرزقك منها بولد، فوقع إبراهيم على هاجر فولدت له إسماعيل ـ عليه السلام ـ وكانت سارة بنت تسعين سنة وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة وبشر إبراهيم بأنه سيرزقه الله بولد من سارة وقد كان وحملت سارة بإسحاق.

وقيل: كان حملت هاجر بإسماعيل فوضعتا معاً وشب الغلامان، فبينما هما يتناضلان

Marfat.com

ذات يوم وكان إبراهيم ـ عليه السلام ـ سابق بينهما فسبق إسماعيل فأخذه فأجلسه في حجره وأجلس إسحاق إلى جانبه وسارة تنظر إليه فغضبت. وقالت: عمدت إلى ابن الأمة فأجلسته في حجرك وعمدت إلى ابني فأجلسته إلى جانبك وقد كان أخذها ما يأخذ النساء من الغيرة فحلفت لتقطعن بضعة منها ولتغيرن خلقتها، ثم ثاب إليها عقلها فبقيت في ذلك. فقال إبراهيم ـ عليه السلام ـ: اخفضيها واثقبي أذنها ففعلت ذلك فصارت سنة في النساء.

ثم إن إسماعيل وإسحاق ـ عليهما السلام ـ اقتتلا ذات يوم كما تفعل الصبيان فغضبت سارة على هاجر وقالت: لا تساكنني في بلد وأمرت إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يعزلها عنها فأوحى الله إليه أن يأتي بهما إلى مكة فذهب بهما.

وتوفيت سارة ولها من العمر مائة واثنتان وعشرون سنة. وقيل: مائة وسبع وعشرون بالشام بقرية الجبابرة بأرض كنعان في جيرون في مزرعة اشتراها إبراهيم ـ عليه السلام ـ ودفنت بها.

سارة القرظية الإسرائيلية

كانت من يهود يثرب من بني قريظة. قيل: إن أبا جبلة أحد ملوك اليمن قصد المدينة في الجاهلية وكان أهلها يهود وبلغه عن ملكهم أمور فاحشة فأوقع في اليهود بذي حرض وهو وادٍ بالمدينة عند أحد فقالت سارة القرظية وهي منهم تذكر ذلك وترثي من قتل من قومها:

بأهلي رمت أم لم تغن شيئاً ... بذي حرض تعفّيها الرياحُ
كهول من قريظة أتلفتهم ... سيوف الخزرجية والرماحُ
ولو أذنوا بأمرهم لحالت ... هنالك دونهم حرب رداحُ
رزئنا والرزية ذات نغل ... يمر لأجلها الماء القراحُ

سبيعة ابنة عبد شمس بن عبد مناف

هي زوجة مسعود بن مالك يتصل نسبه إلى ثقيف كانت مكرمة عند زوجها وقومها مسموعة الكلمة لما لها من المكان والفضل، حتى إنه لما كان يوم الفجار الرابع في الجاهلية ـ وهو يوم عكاظ ـ ودارت الدائرة على بني قيس[1] وانتصر زوجها وحرب بن أمية على أعدائهم فرآها تبكي حين تداعى الناس فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: لما يصاب غداً من قومي.

---

(١) بنو قيس: بطن من آل عامر بن صعصعة من العدنانية، منازلهم بالبحرين.

Marfat.com

فقال لها ـ وكان مسعود قد ضرب على امرأته سبيعة خباء ـ: من دخل خباءك من قريش فهو آمن، فجعلت توصل به قطعاً ليتسع فقال لها: لا تتجاوزي في خبائك فإني لا أمضي إلا من أحاط به الخباء، فأحفظها.

فقالت: أما والله إني لأظن أنك تودّ أن لو زدت في توسعته فلما انهزمت قيس دخلوا خباءها مستجيرين بها فأجار لها حرب بن أمية وقال لها: يا عمة، من تمسك بأطناب خبائك أو دار حوله فهو آمن. فنادت بذلك فاستدارت قيس بخبائها حتى كثروا جداً فلم يبقَ أحد لا نجاة عنده إلا دار بخبائها. فقيل لذلك الموضع: مدار قيس، وكان يضرب به المثل، وكان زوجها مسعود بن معتب قد خرج معه يومئذٍ بنوه من سبيعة وهم عروة ولوحة ونويرة والأسود فكانوا يدورون وهم غلمان في قيس يأخذون بأيديهم إلى خباء أمهم ليجيروهم كما أمرتهم أمهم أن يفعلوا فخرج وهب بن معتب حتى وقف عليها.

وقال لها: لا يبقى طنب من أطناب هذا البيت إلا ربطت به رجلاً من بني كنانة فنادت بأعلى صوتها أن وهباً يحلف أن لا يبقى طنب من أطناب هذا البيت إلا ربط به رجلاً من بني كنانة فالجد الجد، فلما هزمت لجأوا إلى خبائها فأجارهم حرب بن أمية.

ست الوزراء

لقب حفيدة العلامة وجيه الدين الحنبلي. وُلدت سنة ٦٢٤ هجرية. وتوفيت سنة ٧١٧ [هـ] وهي محدثة مشهورة أخذت صحيح البخاري ومسند الإمام الشافعي عن أبي عبد الله الزبيدي وقرأت على أبيها بعض الحديث وكانت كما رواه صلاح الدين الصفدي محدثة عصرها واستقدمت إلى مصر فأخذ عنها الحديث الأمير سيف الدين أرغون والقاضي كريم الدين، ودرست البخاري مراراً متوالية. وروى عنها كثير من مشاهير العلماء.

ست الكرام

بنت السيد سيف الدين عثمان الرفاعي أخت السيد علي مهذب الدولة والسيد عبد الرحيم ممهد الدولة والسيد عبد السلام أبناء عثمان ـ رضي الله عنهم ـ كانت وارثة محمدية وولية علوية ذات أخلاق هاشمية وطباع مصطفوية، وأطوار فاطمية عدها خالها السيد الكبير سلطان الأولياء مولانا السيد أحمد الرفاعي ـ رضي الله عنه ـ في طبقات ذكرها الإمام أحمد بن جلال ـ قدس سره ـ في «جلاء الصدا»ز

قال عند ذكرها: الست السعيدة الحميدة الشهيرة ذات السيرة الحميدة، والأوصاف

Marfat.com

السديدة، صاحبة الدرجات العاليات، والمقامات الثابتات، والمكاشفات الصادقة. ولية الله الملك القدير بنت السيد عثمان من أخت السيد أحمد الكبير المسماة بست الكرام. نور الله مضجعها وعطر بفضله مهجعها، كانت من أكثر الناس حياء وإيماناً وإيقاناً ذات أسرار مخفية وأحوال مرضية تنفق على الفقراء كل ما تجد من الأموال قنعت من الدنيا بالدون وما وجد لها عن خدمة الله سكون، تنفق ما كان لها من الطعام وتبيت طاوية[١]، وكانت بقضاء الله تعالى وقدره راضية.

كانت ذات شوق وحنين وحزن وأنين وأرق، ولباسها الصوف الخشن القصير. تطحن حتى يعلو غبار الدقيق على وجهها، وكان خالها يقربها ويدنيها منه وبغرائب الأمور والأسرار [يسرها][٢]. كانت حافظة للعهود وبذلك كان يصفها ويعرفها لإخوتها ويقول: الحق يميل إليها ويرضى لرضاها ويقول لها: أي كرام وصل الله جناحك به بكرمه. (نقل) أنها في صغرها كانت تصعد أمام خالها كل مرة فرأى ذلك أخوها السيد عبد السلام فنقم عليها فقال له: أما ترضون أن يكون منكم نساء لهن مقام الرجال كانت ـ قدّس الله سرها ـ تقول علامة القبول والتوفيق المواظبة على الخيرات والمداومة عليها ما دام رمق من الحياة وإن أهل القبول جعلوا الصدق مطيتهم والتضرع إلى الله تعالى ديدنهم ووصلوا بهذه الصفات إلى واهب العطيات. قال الزبير: توفيت سنة ٥٦٠ [هـ]، ودفنت بمشهد أم عبيدة ببغداد رضي الله عنها.

[ست الملك بنت العزيز بالله]

ست الملك بنت العزيز بالله[٣] نزار بن المعز لدين الله[٤] معدّ بن المنصور إسماعيل بن القائم بأمر الله[٥] محمد بن عبيد الله الفاطمي العلوي.

---

(١) طاوية: جائعة.

(٢) وردت في الأصل «بسرها»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

(٣) هو نزار بن العزيز بالله بن معد المعز لدين الله بن المنصور العبيدي، الفاطمي، أبو منصور. صاحب مصر والمغرب. ولد في المهدية. بويع بعد وفاة أبيه سنة ٣٦٥ هـ. كانت في أيامه فتن وقلاقل. كان كريم الأخلاق حكيماً، يكره سفك الدماء، أديباً فاضلاً. ولد سنة ٣٤٤ هـ/ ٩٥٥ م. خُطب له بمكة، طالت مدته، إلى أن خرج يريد غزو الروم، فلما كان في مدينة بلبيس أدركته الوفاة وكان ذلك سنة ٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م.

(٤) هو معد المعز لدين الله بن إسماعيل المنصور بن القاسم بن المهدي عبيد الله الفاطمي، العبيدي، أبو تميم صاحب مصر وإفريقيا. أحد خلفاء هذه الدولة. ولد بالمهدية في المغرب سنة ٣١٩ هـ/ ٩٣١ م. بويع له بالخلافة بعد وفاة والده سنة ٣٤١ هـ. قام بعد وفاة كافور الإخشيدي بغزو مصر واختط القاهرة سنة ٣٥٩ هـ. وإمام الدعوة للمعز بمصر، والشام والحجاز. كان عاقلاً حازماً شجاعاً أديباً.

(٥) هو محمد بن عبيد الله، أبو القاسم، القائم بن المهدي العبيدي الفاطمي. صاحب المغرب. ويسمى =

Marfat.com

كانت من أحسن نساء زمانها جمالاً، وأوفرهن عقلاً، وأثبتهن جناناً، وأعلاهن رأياً، وأشدهن حزماً. شاركت أخاها الحاكم بأمر الله[1] في الملك حتى إنه صار يقطع الأمور عن رأيها، وكلما خالفها في أمر تقوم عليه الرعية وينبذون طاعته، وهو يحسب ذلك من أخته ست الملك حتى إنه تغير عليها وأراد قتلها فصار يترقب الفرص وهي توجس منه خيفة إلى أن كثر ظلمه وزاد عسفه فكرهه الناس من سوء فعله ومن شدة كراهتهم له كانوا يكتبون إليه الرقاع فيها سبه وسب أسلافه والدعاء عليه حتى إنهم عملوا من قراطيس صورة امرأة وبيدها رقعة.

فلما رآها ظن أنها تشتكي، فأمر بأخذ الرقعة منها وفيها كل لعن وشتيمة قبيحة وذكر حرمه بما يكره فأمر بطلب المرأة فقيل له: إنها من قراطيس فأمر بإحراق مصر ونهبها، ففعلوا ذلك، وقاتل أهلها أشد قتال مدّة يومين. وفي اليوم الثالث انضاف إليهم الأتراك والمشارقة فقويت شوكتهم وأرسلوا إلى الحاكم يسألونه الصفح ويعتذرون إليه فلم يقبل فعادوا إلى التهديد.

فلما رأى قوّتهم أمر بالكف عنهم وقد أحرق بعض مصر ونهب بعضها وتتبع المصريون من أخذ نساءهم وأولادهم فابتاعوهم منه، وقد فضحت نساؤهم فازداد غيظهم وحنقهم عليه فظن أن ذلك من أخته ست الملك لأنه بلغه أن الرجال يدخلون عليها، فأرسل يتهدّدها بالقتل، ولما رأت سوء تصرفه وأنه ربما يطيع هواه فيقتلها أرسلت إلى قائد كبير من قواد الحاكم يقال

= نزاراً. ولد سنة ٢٧٨ هـ/ ٨٩١ م في سلمية ونسأ فيها وهي من أعمال سوريا. دخل المغرب مع أبيه. بويع بعد موت أبيه سنة ٣٢٢ هـ. هو ثاني ملوك الدولة الفاطمية العبيدية. أول من تلقّب بأمير المؤمنين فيها. مات محصوراً بالمهدية سنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٦ م. كان شجاعاً، مهيباً، قليل الخير، فاسد العقيدة، أصيب بوسواس وزال عقله، فأظهر سبّ الأنبياء، وكان مناديه يقول: «العنوا الغار وما حوى»، وأباد عدّة من العلماء. كان يراسل قرامطة البحرين ويأمرهم أن يحرقوا المساجد والمصاحف.

(١) هو منصور، الحاكم بأمر الله، أو الآمر بحكم الله، بن أحمد، المستعلي بالله، بن معد، المستنصر، أبو علي العبيدي الفاطمي، من خلفاء الدولة الفاطمية بمصر. ولد في القاهرة سنة ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٧ م. بويع بعد وفاة أبيه سنة ٤٩٥ هـ. وعمره خمس سنين. لم يكن في من تسمّى بالخلافة أصغر منه. قام وزير أبيه الأفضل بن بدر الجمالي بشؤون الدولة. في أيامه استفحل أمر الصليبيين في ساحل الشام. عندما كبر الآمر بحكم الله، دسّ أناس فقتلوا الأفضل بن بدر، فأظهر الحزن عليه، مكراً. أوكل الوزارة إلى أبي عبد الله بن محمد بن فاتك البطائحي، ثم صادر أمواله وقتله. ساءت سيرته في الرعية فظلم الناس، وأخذ أموالهم، وسفك الدماء، وارتكب المحظورات. استمر في الخلافة تسعة وعشرين عاماً. اعترضه بعض الباطنية الفداوية وهو مارّ على جسر الروضة بين الجزيرة والقاهرة، فضربوه بسيوفهم فمات بعد ساعة ولم يعقب. وكان ذلك سنة ٥٢٤ هـ/ ١١٣٠ م. قال ابن خلّكان في الوفيات: «ابتهج الناس بقتله».

Marfat.com

له: ابن داوس ـ وكان يخاف الحاكم ـ فقالت له: إني أريد أن ألقاك، ثم حضرت عنده وقالت له: أنت تعلم ما يعتقده أخي فيك وإنه متى تمكن منك لا يبقي عليك، وأنا كذلك وقد انضاف إلى هذا ما تظاهر به مما يكره المسلمون ولا يصبرون عليه، وأخاف أن يثوروا به، فيهلك هو ونحن معه، وتنقلع هذه الدولة فأجابها إلى ما تريد فقالت: إنه يصعد إلى هذا الجبل غداً وليس معه غلام إلا الركاب وصبي وينفرد بنفسه فتقيم رجلين تثق بهما يقتلانه ويقتلان الصبي ونقيم ولده بعده وتكون أنت مدير الدولة وأزيد في إقطاعك مائة ألف دينار، ثم أعطته ألف دينار للرجلين، وانصرفت. فاختار اثنين من ثقاته وأخبرهما بالقصة فمضيا إلى الجبل.

فلما انفرد الحاكم هجما عليه وقتلاه وأخفياه وكان عمره ستاً وثلاثين سنة وسبعة أشهر، فلما أيقنت الناس بقتله اجتمعوا إلى أخته ست الملك فأجلست على كرسي الولاية عليّ بن الحاكم[1] وهو صبي لم يناهز الحلم وبايع له الناس ولقب بالظاهر لإعزاز دين الله، وأنفذت الكتب إلى البلاد بأن البيعة له وفي الغد حضر ابن داوس بأمر من ست الملك ومعه قواده، فأمرت خادماً لها أن يضربه بالسيف فقتله وهو ينادي يا لثأر الحاكم فلم يختلف فيه اثنان وقامت ست الملك تدبر الدولة مدة أربع سنوات وهي تعدل بين الرعية وتنصف المظلومين حتى أحبها جميع الأهالي وتمنوا أن مدتها تدوم وتوفيت سنة ٤١٥ هجرية وقد حزن عليها جميع أهل مصر وتمنوا بقاءها تدبر المملكة حتى يكبر ابن أخيها ولكن لله في حكمه إرادة.

سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان التميمية[2]

كانت من النساء العاقلات الحكيمات ذوات الفصاحة والبلاغة وأصالة الرأي حتى إنها قادت أكابر قومها إلى رأيها وتحت طاعتها وركبت على العرب في عساكر جرارة، ولما أقبلت من الجزيرة قاصدة المدينة لمحاربة أبي بكر وادّعت النبوة كانت هي ورهطها في أخوالها من

---

(١) هو علي بن نزار بن معد بن علي بن الحاكم بأمر الله (منصور) العبيدي الفاطمي. أول الأئمة الإسماعيلية النزارية في قلعة الموت من نواحي قزوين. ولد في القاهرة سنة ٤٧٠ هـ/ ١٠٧٧ م ونشأ فيها. تولى إمامة الإسماعيلية بعد موت أبيه وتلقّب بالهادي. أنشأ فرقة الفدائية للاغتيال.

(٢) هي سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان، التميمية، من بني يربوع، أم صادر. متنبّئة مشهورة، كانت شاعرة أديبة عارفة بالأخبار. رفيعة الشأن في قومها. نبغت في عهد الرِّدَّة أيام أبي بكر الصديق. ادّعت النبوة بعد وفاة النبي ﷺ، وكانت في بني تغلب في الجزيرة. جمعت حولها حوالي أربعين ألفاً، فخافها مسيلمة الكذاب وهو أيضاً ممن ادّعوا النبوة. فأقبل عليها في جماعة من قومه وتزوج بها، أقامت معه مدة وأدركت صعوبة قتال المسلمين فتركته وعادت إلى أخوالها في الجزيرة، ثم بعد مقتل مسيلمة أسلمت وهاجرت إلى البصرة وتوفيت بها سنة ٥٥ هـ/ ٦٧٥ م.

Marfat.com

تغلب تقود أفناء ربيعة، وجاء معها الهذيل بن عمران[١] من بني تغلب وكان نصرانياً فترك دينه وتبعها وعقبة بن هلال في (النمر)، وزياد بن بلال في أياد، والسليل بن قيس في شيبان فأتاهم أمر أعظم مما هم فيه لاختلافهم.

وكانت سجاح تريد غزو أبي بكر فأرسلت إلى مالك بن نويرة[٢] تطلب الموادعة فأجابها، وردها عن غزوها، وحملها على أحياء من بني تميم فأجابته وقالت: أنا امرأة من بني يربوع فإن كان ملكاً فهو لكم وهرب منها عطارد بن حاجب[٣] وسادة من بني مالك[٤] وحنظلة إلى بني العنبر وكرهوا ما صنع وكيع، وكان قد أودعها وهرب منها أشباههم من بني يربوع وكرهوا ما صنع مالك بن نويرة واجتمع مالك ووكيع وسجاح فسجعت لهم سجاح وقالت: أعدوا الركاب، واستعدوا للنهاب، ثم أغيروا على الرباب، فليس دونهم حجاب. فساروا إليهم فلقيهم ضبة وعبد مناة فقتل بينهم قتلى كثيرة وأسر بعضهم من بعض ثم تصالحوا وقال قيس بن عاصم[٥] شعراً أظهر فيه ندمه على تخلفه عن أبي بكر بصدقته، ثم سارت سجاح في جنود الجزيرة حتى بلغت النباج، فأغار عليهم أوس ابن خزيمة الجهمي في بني عمرو[٦] فأسر الهذيل وعقبة، ثم اتفقوا على أن يطلق أسرى سجاح ولا يطأ أرض أوس ومن معه.

---

(١) هو الهُذَيْل بن عمران التغلبي من الرؤساء في الجاهلية. عدَّه ابن حبيب من الجرارين، من ربيعة، والجرار من يرأس ألفاً. قال: قتله بنو مازن بْن مالك. قتل يوم الصُّلَيْب.

(٢) هو مالك بن نويرة بن جمرة بن شداد اليربوعي التميمي، أبو حنظلة. فارس شاعر، من أرداف الملوك في الجاهلية. يقال له: فارس ذي الخمار. وذو الخمار فرسه، وفي أمثالهم: «فتى ولا كمالك» وكانت فيه خُيلاء. أدرك الإسلام وأسلم، وولاه النبي ﷺ صدقات قومه. ولما صارت الخلافة إلى أبي بكر الصديق اضطرب مالك في أموال الصدقات وفرّقها. وقيل: ارتدّ مالك، فتوجه خالد بن الوليد وقبض عليه في البطاح، وأمر ضرار بن الأزور الأسدي، فقتله سنة ١٢ هـ/ ٦٣٤ م.

(٣) هو عطارد بن حاجب بن زرارة التميمي، خطيب من سراة بني تميم. قيل: وفد على كسرى في الجاهلية وطلب منه قوس أبيه، فردها عليه وكساه حلّة ديباج. لما ظهر الإسلام وفد على النبي ﷺ فكان خطيبه، واستعمله على صدقات بني تميم. ارتدّ بعد وفاة النبي ﷺ وتبع سجاح، ثم عاد إلى الإسلام. مات سنة ٢٠ هـ/ ٦٤٠ م.

(٤) بنو مالك: بطن من تميم، وهم بنو مالك بن زيد مناة، فهم الأغلب بن سالم بن عقال.

(٥) هو قيس بن عاصم بن سنان المقري السعدي التميمي. أبو علي، أحد أمراء العرب وعقلائهم والموصوفين بالحلم والشجاعة فيهم. كان شاعراً اشتهر وساد في الجاهلية. حرَّم الخمر على نفسه في الجاهلية. وفد على النبي ﷺ مع بني تميم وأسلم سنة ٥٩ هـ. نزل البصرة في أواخر أيامه وتوفي فيها سنة ٢٠ هـ/ ٦٤٠ م.

(٦) بنو عمرو: بطن من أسد بن خزيمة من العدنانية، وهم بنو عمرو بن قعين بن الحارث بن دوران بن أسد. منهم طليحة بن خويلد الذي ادّعى النبوة ثم أسلم.

Marfat.com

ثم خرجت سجاح في الجنود وقصدت اليمامة وقالت: عليكم باليمامة وزفوا زفيف الحمامة فإنها غزوة صرامة، لا يلحقكم بعدها ملامة.

فقصدت بني حنيفة فبلغ ذلك مسيلمة[١] فخاف إن هو شغل بها تغلب ثمامة وشرحبيل بن حسنة[٢] والقبائل التي حولهم على هجر وهي اليمامة فأهدى لها، ثم أرسل إليها يستأمنها على نفسه حتى يأتيها فأمنته فجاءها في أربعين من بني حنيفة فقال مسيلمة: لنا نصف الأرض ولقريش نصفها لو عدلت، وقد رد الله عليك النصف الذي ردت قريش، وكان مما شرع لهم أن من أصاب ولداً واحداً ذكراً لا يأتي النساء حتى يموت ذلك الولد فيطلب الواحد حتى يصيب ابناً، ثم يمسك.

وقيل: بل تحصن منها فقالت له: انزل، فقال لها: أبعدي أصحابك، ففعلت. وقد ضرب لها قبة وجمرها لتزكو بطيب الريح واجتمع بها. فقالت له: ما أوحى إليك ربك؟ فقال: ألم [تري][٣] إلى ربك كيف فعل بالحبلى أخرج منها نسمة تسعى بين صفاق وحشا. قالت: أشهد أنك نبي! قال: هل لك أن أتزوّجك وآكل بقومي وقومك العرب. فتزوجها بجوابها وأقامت عنده ثلاثاً ثم انصرفت إلى قومها فقالوا لها: ما عندك؟ قالت: كان على حق فتبعته وتزوجته قالوا: هل أصدقك شيئاً؟ قالت: لا. قالوا: فارجعي فاطلبي الصداق فرجعت.

فلما رآها أغلق باب الحصن، وقال: ما لك؟ قالت: أصدقني. قال: من مؤذنك؟ قالت: شبيب بن ربعي الرياحي فدعاه وقال له: ناد في أصحابك إن مسيلمة رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما جاءكم به محمد صلاة الفجر وصلاة العشاء الآخرة فانصرفت ومعها أصحابها منهم عطارد بن حاجب وعمرو بن الأيهم وغيلان بن خرشة وشبيب بن ربعي فقال عطارد بن حاجب:

أمست نبيتنا أنثى نطوف بها ... وأصبحت أنبياء الناس ذكرانَا

وصالحها مسيلمة على غلات اليمامة سنة تأخذ النصف وتترك عنده من يأخذ النصف فأخذت النصف وانصرفت إلى الجزيرة وخلفت هذيلاً وعقبة وزياداً لأخذ النصف الباقي فلم

---

(١) هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي الوائلي، أبو ثمامة، متنبئ من المعمّرين. وفي الأمثال: «أكذب من مسيلمة». ولد ونشأ باليمامة. قتل سنة ١٢ هـ/ ٦٣٣ م.

(٢) هو شرحبيل بن عبد الله بن المطاع بن الغطريف، الكندي، حليف بني زهرة، صحابي من القادة يعرف بشرحبيل بن حسنة وهي أمه. أسلم بمكة، ولد سنة ٥٠ ق.هـ/ ٥٧٤ م. هاجر إلى الحبشة، وغزا مع النبي ﷺ. أُوْفِد إلى مصر رسولاً، توفي النبي ﷺ وهو ما يزال في مصر. ثم جعله أبو بكر أحد الأمراء الذين وجَّههم لفتح الشام. توفي بطاعون عمواس.

(٣) وردت في الأصل «تر»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

Marfat.com

يفاجئهم إلا دنوّ خالد إليهم فَٱرْفَضُّوا[١]، فما زالت سجاح في تغلب حتى نقلهم معاوية عام المجاعة وجاءت معهم وحسن إسلامهم وإسلامها وانتقلت إلى البصرة وماتت بها، وصلى عليها سمرة بن جندب[٢] وهو على البصرة لمعاوية قبل قدوم عبيد الله بن زياد من خراسان وولايته البصرة. وقيل: إنها لما قتل مسيلمة سارت إلى أخوالها تغلب بالجزيرة فماتت عندهم ولم يسمع لها بذكر.

سرى خانم

شاعرة تركية مشهورة ولدت في ديار بكر[٣] سنة ١٨١٤ ميلادية و١٢٣٠ هجرية أتت بغداد وزارت مدافن الأولياء ورجعت إلى ديار بكر ثم شخصت إلى الأستانة وتوفيت فيها. ولها أشعار شائقة ومنظومات رائقة جميعها باللغة التركية والفارسية أعرضنا عن إيراد شيء منها لأنه ليس من موضوع هذا الكتاب.

سعدى معشوقة مالك بن عقيل العذري

كانت ذات فصاحة وأدب وجمال وكانت مع هذا الفتى على أعظم رتبة الحب من شدّة تعلق كل منهما بصاحبه وكان في الحي رجل يحبها وهي لا تحبه فغار منهما فوشى به إلى أهلها فحجبوها عنه فتراسلا بالمحبة وبلغه، فأرسل زوجته عن لسانها إلى مالك بشتم وقطيعة، ولم يعرف أنها زوجة ذلك الرجل ولم تدر الزوجة تفصيل الأمر، وكان عند مالك أنفة، فخرج إلى مكة ناقضاً للعهد.

فلما بلغ زوجة ذلك الرجل وجه الحيلة وما أخفاه زوجها أخبرت سعدى بما تم فخرجت على وجهها إلى مكة حتى اجتمعت به. قال كعب بن مسعدة الغفاري: خرجت أنا ومالك نمشي في القمر إذا بنسوة تقول إحداهن: أي والله هو، ثم قربن منا. فقالت إحداهن: قل لصاحبك:

ليست لياليك في حج بعائدة كما عهدت ولا أيام ذي سلمِ

---

(١) ٱرْفَضّوا: تفرقوا وذهبوا. [القاموس المحيط، مادة: رفض].

(٢) هو سمرة بن جندب بن هلال الفزاري، صحابي من الشجعان القادة. نشأ في المدينة، نزل البصرة. كان زياد يستخلفه عليها إذا سار إلى الكوفة. ولما مات زياد أقرّه معاوية عاماً، ثم عزله. كان شديداً على الحرورية. وله رواية عن النبي ﷺ. مات بالكوفة سنة ٦٠ هـ/ ٦٧٩ م.

(٣) ديار بكر: هي بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل امتدادها من دجلة إلى بلاد الجبل المطلّ على نصّيبين إلى دجلة. معجم البلدان، ج٢/ ص ٥٦١.

Marfat.com

فقلت قد سمعت فأجب قال قد انقطعت فأجب أنت فقلت ولم يحضرني غيره.

فقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وطنت يوماً لها النفس ذلتْ

وانصرفنا فما استقرّينا إلا وجارية تقول: أجب المرأة التي كلمتك، فلما جئت إليها قالت: أنت المجيب. قلت: نعم، قالت: فما أقصر جوابك؟ قلت: لم يحضرني غيره. فقالت: لم يخلق الله أحب إليّ من الذي معك. فقلت: عليّ أن أحضره إليك. فقالت: هيهات. فضمنته الليلة القابلة ورجعت فرأيته في منزلي فأخبرني بالقصة كالمكاشف فقلت له: قد ضمنت لها حضورك الليلة القابلة.

فلما كان الوقت مضينا فإذا بالمجلس قد طيب وفرش فجلسا فتعاتبا، فأنشدته أبيات عبد الله بن الدمينة[1]:

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني وأشمت بي من كان فيك يلومُ
وأبرزتني للناس ثم تركتني لها غرضاً أرمى وأنت سليمُ
فلو كان قولاً يكلم الجسم قد بدا بجسمي من قول الوشاة كلومُ

فأجابها:

غدرت ولم أغدر وخنت ولم أخن وفي بعض هذا للحب عزاءُ
جزيتك ضعف الودّ ثم حرمتني فحبك في قلبي إليّ إذاءُ

فالتفتت إليّ وقالت: ألا تسمع؟ فغمزته فكف ثم أنشدت:

تجاهلت وصلي حين لاحت عمايتي فهلا صرمت الحبل إذ أنا أبصر
ولي من قوى الحبل الذي قد قطعته نصيب ولا رأيٌ وعقل موقرٌ
ولكنما آذنت بالصرم بغتة ولست على مثل الذي جئت أقدرُ

فأجابها:

لقد كنت أنهى النفس عنك لعلها إذا وعدت بالنأي عنك تطيبُ

ثم قبلها وأنشد:

دمعي عليك من الجفون سكوب والقلب منك مروّع مكروبُ
لا شيء في الدنيا ألذ من الهوى إن لم يخن عهداً لحبيب حبيبُ

---

(١) هو عبد اللّه بن عبيد اللّه بن أحمد من بني عامر بن تيم الله، من خثعم، أبو السري، والدمينة أمه. شاعر بدوي من أرق الناس شعراً. قَلّ أن يرى مادحاً أو هاجياً أكثر شعره الغزل، والنسيب، والفخر. كان العباس بن الأحنف يطرب ويترنّح لشعره. هو من شعراء العصر الأموي. اغتاله مصعب بن عمرو السلولي، وهو عائد من الحج. كان ذلك سنة ١٣٠ هـ/ ٧٤٧ م.

Marfat.com

فأجابته:

خلـوتـم بـأنـواع السـرور وهـاكـم وأقـربتمـونـي للصبـابـة والحـزنِ
وعـذبتمـونـي بـالصـدود وإننـي لراضٍ بما ترضونه لي من الغبنِ

ولما أنشد (لقد كنت أنهى النفس) ـ البيت ـ قالت له: وكنت تفعل ما فيك خير بعدها وافترقا. فقالت لكعب: ما قلت لك إنك لا تفي بضمانك ولكن إذا كان السحر فأتني. قال كعب: فجئت فإذا بالصياح فسألت جارية عن الخبر فقالت: حين خرجتما جعلت في عنقها أنشوطة وخنقت نفسها، فلحقناها فخلصناها، فجلست ساعة تحادثنا وتفتكر فتقول: إنه لقاسي القلب، ثم شهقت فماتت وبلغ الشاب فلزم قبرها فجاءته في النوم فقالت: هلا كان هذا من قبل، فمات من وقته.

سعدى الأسدية

كانت مهذبة شاعرة فصيحة. علقها فتى من قومها فمنعه أبوه أن يتزوّج إلا بأرفع منها وأبى الغلام إلا هي. فلما أيس أبوها زوّجها من رجل آخر فاشتدّ وجد الغلام بها ولقيها يوماً، فأنشد:

لعمـري يـا سعـدى لطـال تـأيمـي وبغضنـي شيخـاي فيـك كـلاهمـا
وتـركـي للحييـن لـم أبـغ منهمـا سـواك ولـم يـربـع هـواي عليهمـا

فأجابته سعدى تقول:

حبيبـي لا تعجـل لتفهـم حجتـي كفاني ما بي من بلاء ومن جهدِ
ومـن عبـرات تعتـرينـي وزفـرة تكاد لها نفسي تسيل من الوجدِ
غلبت على نفسي جهاراً ولم أطق خـلافـاً علـى أهلـي بهـزل ولا جـدِّ
ولم يمنعوني أن أموت بزعمهم غداً جوف هذا العار في جدث وحدِي
فلا نفس أن تأتي هناك فتلتمس مكاني فتشكو ما تحملت من جهدِ

فقد أوضحت له أنها هالكة من الغد بعشقه فلما كان الغد جاء فوجدها ميتة فاحتملها إلى شعب بذرى جبل ـ يقال له: عرفات ـ ملتزماً لها فمات واختفى أمرهما حولاً حتى مر شخص من العرب فسمع شخصاً على الجبل يقول:

إنـا الكـريمـان ذوا التصـافـي الـذاهبـان بـالـوفـاء الصـافـي
والله مـا لقيـت فـي تطـوافـي أبعـد مـن غـدر ومـن إخـلافِ
مـن ميتيـن فـي ذرى أعـرافِ

فصعد الناس فوجدوهما على تلك الحالة فواروهما.

Marfat.com

سفانة ابنة حاتم الطائي[١]

كانت من أجود نساء العرب وأفصحهنّ مقالاً وهي التي كانت سبباً لنجاة قومها من الأسر من أيدي المسلمين أمام رسول الله ﷺ وذلك أن عدي بن حاتم[٢] كان يعادي النبي ﷺ، فبعث علياً إلى طيء فهرب عدي بأهله وولده ولحق بالشام وخلف أخته سفانة فأسرتها خيل رسول الله ﷺ.

فلما أتى بها النبي ﷺ قالت: هلك الوالد وغاب الوافد فإن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب فإن أبي كان سيد قومه يفك العاني ويقتل الجاني، ويحفظ الجار، ويحمي الذمار، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ويحمل الكل، ويعين على نوائب الدهر وما أتاه أحد في حاجة فردّه خائباً أنا بنت حاتم الطائي فقال النبي ﷺ: «**يا جارية، هذه صفات المؤمنين حقاً لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق**»[٣]. وقال فيها: «**ارحموا عزيزاً ذل وغنياً افتقر وعالماً ضاع بين جهال**»[٤] فأطلقها ومنّ عليها بقومها، فاستأذنته في الدعاء له فأذن لها، قال لأصحابه: «**اسمعوا وعوا**»[٥]فقالت: أصاب الله ببرك مواقعه ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا وجعلك سبباً في ردّها عليه، فلما أطلقها رجعت إلى قومها فأتت أخاها عدياً وهو بدومة الجندل[٦] فقالت له: يا أخي أئت هذا الرجل قبل أن تعلقك حبائله فإني قد رأيت هدياً ورأياً سيغلب أهل الغلبة، رأيت خصالاً تعجبني، رأيته يحب الفقير، ويفك

---

(١) هو حاتم بن عبد اللَّه بن سعد بن الحشرج الطائي القحطاني، أبو عَدِي، فارس، شاعر، جواد، جاهلي. يضرب المثل بجوده. كان من أهل نجد، زار الشام فتزوج ماوية بنت حجر الغسانية، ومات في عوارض وهو جبل في بلاد طيّىء. قال ياقوت: وقبر حاتم عليه. شعره كثير، ضاع معظمه. توفي سنة ٤٦ ق. هـ/ ٥٧٨ م.

(٢) هو عَدِي بن حاتم بن عبد اللَّه بن سعد بن الحشرج الطائي، أبو وهب وأبو طريف. أمير، صحابي، من الأجواد العقلاء. كان رئيس طيّىء في الجاهلية والإسلام. قام في حرب الرّدة بأعمال كبيرة. كان إسلامه سنة ٩ هـ. شهد فتح العراق، ثم سكن الكوفة وشهد الجمل، وصفّين، والنهروان مع علي. فقئت عينه يوم صفّين. مات بالكوفة سنة ٦٨ هـ/ ٦٨٧ م. عاش أكثر من مائة سنة، وهو ابن حاتم الطائي الذي يضرب بجوده المثل.

(٣) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٥: ٣٤١). والزبيدي فيإتحاف السادة المتقين (٧: ٩٤).

(٤) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨: ٥٥٩).

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٥: ٣٤٣). وفيه: «اعقلوا».

(٦) دومة الجندل: هي في غائط من الأرض خمسة فراسخ، ومن قِبل مغربه عين تثجّ فتسقي ما به من نخيل وزرع. سميت دومة الجندل لأن حصنها مبني بالجندل. معجم البلدان، ج٢/ ص ٥٥٤.

Marfat.com

الأسير، ويرحم الصغير، ويعرف قدر الكبير، وما رأيت أجود ولا أكرم منه وإني أرى أن تلحق به فإن يك نبياً فللسابق فضله وإن يك ملكاً فلن تزل في عز اليمن.

فقدم عدي إلى النبي ﷺ فأسلم وأسلمت أخته سفانة وكانت على جانب عظيم من الكرم وكان أبوها يعطيها الضريبة من إبله فتهبها وتعطيها الناس فقال لها أبوها: يا بنية، الكريمان إذا اجتمعا في المال أتلفاه فإما أن أعطي وتمسكي وإما أن أمسك وتعطي فإنه لا يبقى على هذا شيء. فقالت له: منك تعلمت مكارم الأخلاق.

سكينة ابنة الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه[1]

كانت سيدة نساء عصرها ومن أجمل النساء وأظرفهنّ وأحسنهنّ أخلاقاً، تزوّجها مصعب بن الزبير فهلك عنها، ثم تزوّجها عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام فولدت له قريباً ومات عنها، ثم تزوّجها الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان وفارقها قبل الدخول، ثم تزوّجها زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان فأمره سليمان ابن عبد الملك بطلاقها ففعل. وقيل: في ترتيب أزواجها غير ذلك والطرّة السكينية منسوبة إليها.

ولها نوادر وحكايات ظريفة مع الشعراء وغيرهم من ذلك أنها وقفت على عروة بن أذينة وكان من أعيان العلماء وكبار الصالحين وله أشعار رائقة فقالت له: أنت القائل:

قالت وأبثتها سري وبحت به ... قد كنت عندي تحب الستر فاستترِ
ألست تبصر من حولي فقلت لها ... غطى هواك وما ألقي على بصري

قال: نعم، قالت: لم يخرج هذا من قلب سليم وفي كتاب «الأغاني» كان اسم سكينة أميمة. وقيل: أمينة، ولقبتها أمها الرباب بسكينة وفيها وفي أمها يقول الحسين بن علي:

لعمرك إنني لأحب داراً ... تكون بها سكينة والرباب
أحبهما وأبذل جل مالي ... وليس لعاتب عندي عتاب

وكانت سكينة تحب الهزل واللهو والطرب وهي من الحذق على جانب عظيم.

حكي أنها حضرت مأتماً فيه بنت عثمان بن عفان فقالت بنت عثمان: أنا بنت الشهيد فسكتت سكينة حتى إذا أذن المؤذن وقال: أشهد أن محمداً رسول الله، قالت لها سكينة: هذا أبي أم أبوك فقالت بنت عثمان: لا أفخر عليكم أبداً وكانت تجيء يوم الجمعة إلى المسجد فتقوم بإزاء ابن مطير فإذا شتم علياً شتمته هي وجواريها، فكان يأمر الحارث أن يضرب

---

(١) للاستزادة يراجع: وفيات الأعيان (١: ٢١١)، نسب قريش (٥٩)، ابن سعد (٨: ٣٤٨)، المحبر (٤٣٨)، الدر المنثور (٢٤٤).

Marfat.com

جواريها. وكانت سكينة عفيفة تجالس الأجلَّة من قريش وتجمع إليها الشعراء، وكانت ظريفة مزّاحة، وكانت من أحسن الناس شعراً، وكانت تصفف جُمّتَها[١] تصفيفاً لم ير أحسن منه.

وحكي أنها أرسلت مرة إلى صاحب الشرط، إن دخل علينا شامي فابعث إلينا بالشرط، فركب وأتى، وأمرت بفتح الباب وخرجت جارية من جواريها وبيدها برغوث وقالت: هذا الشامي الذي شكوناه، فلما رأى الشرطي ذلك حصل له الخجل وذهب هو ورجاله بخجله، وكانت قد اتخذت أشعب الطماع[٢] مسامراً لها ليمازحها وكانت تدر عليه العطايا وتنشرح لأخباره المضحكة. وقيل: إنها خرجت لها سلعة في أسفل عينها حتى كبرت ثم أخذت وجهها وعظم ما بها وكان «دراقيس» الطبيب منقطعاً إليها وفي خدمتها فقالت له: ألا ترى ما وقعت فيه؟ فقال: أتصبرين على ما يمسك من الألم حتى أعالجك؟ قالت: نعم، فأضجعها وشق جلد وجهها أجمع وسلخ اللحم من تحته حتى ظهرت العروق وكان منها شيء تحت الحدقة فرفع الحدقة عنها حتى جعلها ناحية ثم سل عروق السلعة من تحتها وأخرجها وردّ العين إلى موضعها وسكينة مضجعة لا تتحرك ولا تئن حتى فرغ وبرئت بعد ذلك وبقي أثر تلك الحزازة في مؤخر عينها.

وقيل: إنه اجتمع في ضيافة سكينة يوماً جرير والفرزدق، وكُثيِّر عزَّة، وجميل صاحب بثينة، ونصيب فمكثوا أياماً، ثم أذنت لهم فدخلوا فقعدت بحيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم، ثم خرجت جارية لها وضيئة قد روت الأشعار والأحاديث فقالت: أيكم الفرزدق؟ فقال لها: ها أنا ذا قالت: أنت القائل:

هما دلتاني من ثمانين قامة ... كما انحط باز أقتم الريش كاسرهْ
فلما استوت رجلاي بالأرض قالتا ... أحيّ نرجي أم قتيل نحاذرهْ
فقلت ارفعوا الأمراس لا يشعروا بنا ... وأقبلت في أعجاز ليل أبادرهْ

قال: نعم، قالت: فما دعاك إلى إفشاء السر؟ خذ هذه الألف دينار والحق بأهلك، ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت: أيكم جرير؟ قال: ها أنا ذا، فقالت: أنت القائل:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... حين الزيارة فارجعي بسلام

---

(١) الجُمّة: مجتمع شعر الرأس. [القاموس المحيط، مادة: جمّ].

(٢) هو أشعب بن جبير، المعروف بالطامع. ويقال له: ابن أم خُميدة، يكنّى أبو العلاء، وأبو القاسم. ظريف من أهل المدينة. كان مولى لعبد الله بن الزبير، تأدب وروى الحديث، كان يجيد الغناء. يضرب المثل بطمعه. أخباره كثيرة متفرقة في كتب الأدب. عاش عمراً طويلاً، قيل: أدرك زمن عثمان بن عفان. سكن المدينة في أيامه، وقدم بغداد في أيام المنصور العباسي، توفي بالمدينة سنة ١٥٤ هـ/ ٧٧١ م.

Marfat.com

تجـري السـواك علـى أغـر كـأنـه بـرد تحـدّر مـن متـون غمـامِ
لـو كـان عهـدك كـالـذي حـدثتنـا لـوصلـت ذاك وكـان غيـر ذمـامِ
إنـي أواصـل مـن أردت وصـالـه بحبـال لا صلـف ولا لـوّامِ

قال: نعم، قالت: أولا أخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها؟ أنت عفيف وفيك ضعف خذ هذه الألف والحق بأهلك. ثم دخلت على مولاتها وخرجت وقالت: أيكم كُثير؟ قال: أنا. قالت: أنت القائل:

وأعجبنـي يـا عـز منـك خـلائـق كـرام إذا عـدّ الخـلائـق أربـعُ
دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا ودفعك أسباب المنى حين يطمعُ
وإنـك لا تـدريـن صبـا مطلتـه أيشتـدّ إن لاقـاك أو يتضـرعُ
وإنـك إن واصلـت عملـت بـالـذي لديك فلم يوجد لك الدهر مطمعُ

قال: نعم. قالت: قد ملحت وشكلت خذ هذه الألف دينار واذهب لأهلك، ثم دخلت وخرجت وقالت: أيكم نصيب؟ قال: أنا. قالت: أنت القائل:

ولـولا أن يقـال صبـا نصيـب لقلـت بنفسـي النشـأ الصغـارُ
بنفسـي كـل مهضـوم حشـاهـا إذا ظلمـت فليـس لهـا انتصـارُ

قال: نعم، قالت: ربيتنا صغاراً ومدحتنا كباراً خذ هذه الألف دينار والحق بأهلك. ثم دخلت وخرجت فقالت لجميل: مولاتي تقرئك السلام وتقول لك: ما زلت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك:

ألا ليـت شعـري هـل أبيتـن ليلـة بـوادي القـرى إنـي إذاً لسعيـدُ
لكـل حـديـث بينهـن بشـاشـة وكـل قتيـل عنـدهـن شهيـدُ

فجعلت حديثنا بشاشة وقتلانا شهداء خذ هذه الألف دينار والحق بأهلك.

ورويت عن سكينة قصة أخرى نحْو هذه ظهرت بها حذاقتها وانتقادها على أفحل الشعراء، وكان عمرو بن عثمان لما تزوّج بها عتب عليها يوماً وخرج إلى مال له فقالت لأشعب: إن ابن عثمان خرج عاتباً عليّ فاعلم لي حاله. فقال لها: لا أستطيع أن أذهب الساعة فقالت: أنا أعطيك ثلاثين ديناراً قال أشعب: فأتيته ليلاً فدخلت الدار، فقال: انظروا من في الدار، فأتوه فقالوا: أشعب، فنزل عن فرشه إلى الأرض. فقال: أشيعب؟ قلت: نعم، قال: ما جاء بك؟ قلت: أرسلتني سكينة لأعلم خبرك أتذكرت منها ما تذكرت منك، وأنا أعلم أنك قد فعلت حين نزلت عن فرشك إلى الأرض. قال: دعني من هذا وغنني:

عـوجَـا بـه فـاستنطقـاه فقـد ذكـرنـي مـا كنـت لـم أذكـرْ

Marfat.com

قال: فغنيته، فلم يطرب ثم قال: غنني ويحك غير هذا فإن أصبت ما في نفسي فلك حلتي هذه وقد اشتريتها آنفاً بثلثمائة دينار فغنيته:

علق القلب بعض ما قد شجاه ... من حبيب أمسى هوانا هواهْ
ما ضراري نفسي بهجران من ليـ ... ـس مسيئاً ولا بعيداً نواهْ
واجتنابي بيت الحبيب وما الخلـ ... ـد بأشهى إليّ من أن أراهْ

فقال: ما عدوت ما في نفسي، خذا الحلة، قال: فأخذتها ورجعت إلى سكينة، فقصيت عليها القصة فقالت: وأين الحلة؟ قلت: معي. فقالت: وأنت الآن تريد أن تلبسها؟ لا والله ولا كرامة، فقلت: قد أعطانيها فأي شيء تريدين مني؟ فقالت: أنا أشتريها منك فبعتها إياها بثلثمائة دينار.

وقال بعضهم: كان ابن سريج قد أصابته الريح الخبيثة وآلى يميناً أن لا يغني ونسك ولزم المسجد الحرام حتى عوفي، ثم خرج فأتى المدينة ونزل على بعض إخوانه من أهل النسك والقراءة فأقام في المدينة حولاً ثم أراد الشخوص إلى مكة، وبلغ ذلك سكينة فاغتمت لذلك غماً شديداً وضاق به ذرعها وكان أشعب يخدمها، وكانت تأنس بمضاحكته ونوادره. فقالت لأشعب: ويلك إن ابن سريج شاخص وقد دخل المدينة منذ حول ولم أسمع من غنائه قليلاً ولا كثيراً ويعز عليّ ذلك فكيف الحيلة في الاستماع منه ولو صوتاً واحداً؟

فقال لها أشعب: جعلت فداك وأنى لك بذلك، والرجل اليوم زاهد ولا حيلة فيه فارفعي طمعك وامسحي بوزك تنفعك حلاوة فمك، فأمرت بعض جواريها فوطئن بطنه حتى كادت أن تخرج أمعاؤه وخنقته حتى كادت نفسه أن تتلف ثم أمرت به فسحب على وجهه حتى أخرج من الدار إخراجاً عنيفاً، فخرج على أسوأ الحالات واغتم أشعب غماً شديداً، وندم على ممازحتها في وقت لا ينبغي له ذلك، فأتى منزل ابن سريج ليلاً فطرقه. فقيل: من هذا؟ فقال: أشعب، ففتحوا له، فرأى على وجهه ولحيته التراب والدم سائلاً من أنفه وجبهته على لحيته وثيابه ممزقة وبطنه وصدره وحلقه قد عصرها الدوس والخنق، ومات الدم فيها، فنظر ابن سريج إلى منظر فظيع هاله وراعه فقال له: ما هذا، ويحك؟ فقص القصة عليه. فقال ابن سريج: إنا لله وإنا إليه راجعون ماذا نزل بك والحمد لله الذي سلم نفسك لا تعودن إلى هذه أبداً.

قال أشعب: فديتك هي مولاتي ولا بد لي منها، ولكن هل لك حيلة في أن تسير إليها وتغنيها فيكون ذلك سبباً لرضاها عني؟ قال ابن سريج: كلا والله لا يكون ذلك أبداً بعد أن تركته. قال أشعب: قد قطعت أملي ورفعت رزقي وتركتني حيران بالمدينة لا يقبلني أحد، وهي ساخطة عليّ، فالله الله فيّ وأنا أنشدك الله ألا تحملت هذا الإثم فيّ. فأبى عليه.

Marfat.com

فلما رأى أشعب أن عزم ابن سريج قد تم على الامتناع قال في نفسه: لا حيلة لي وهذا خارج وإن خرج هلكت، فصرخ صرخة، فتحت آذان أهل المدينة لها ونبه الجيران من رقادهم وأقام الناس من فرشهم، ثم سكت فلم يدر الناس ما القصة عند خفوت الصوت بعد أن راعهم. فقال له ابن سريج: ويلك ما هذا؟ قال: لئن لم تسر معي إليها لأصرخن صرخة أخرى لا يبقى أحد بالمدينة إلا صار بالباب، ثم لأفتحنه ولأرينهم ما بي ولأعلمنهم أنك أردت أن تفعل كذا وكذا بفلان ـ يعني غلاماً كان ابن سريج مشهوراً به ـ فمنعتك وخلصت الغلام من يدك حتى فتح الباب ومضى ففعلت بي هذا غيظاً وتأسفاً وإنك إنما أظهرت النسك والقراءة لتظفر بحاجتك منه وكان أهل مكة والمدينة يعلمون حاله معه فقال ابن سريج: اعزب ـ أخزاك الله.

قال أشعب: والله الذي لا إله إلا هو وإلا فما أملك صدقة وامرأتي طالق ثلاثاً، وهو يخير في مقام إبراهيم والكعبة وبيت النار والقبر قبر أبي رغال إن أنت لم تنهض معي في ليلتي هذه لأفعلن ما قلت لك. فلما رأى ابن سريج الجد منه قال لصاحبه: ويحك، أما ترى ما وقعنا فيه! وكان صاحبه الذي نزل عنده ناسكاً. فقال: لا أدري ما أقول فيما نزل بنا من هذا الخبيث؟ وتذمم ابن سريج من الرجل صاحب المنزل فقال لأشعب: اخرج من منزل الرجل. فقال: رجلي على رجلك فخرَجا.

فلما صارا في بعض الطريق قال ابن سُريج لأشعب: امض عني. قال: والله لئن لم تفعل ما قلت لأصيحن الساعة حتى يجتمع الناس ولأقولن إنك أخذت مني سواراً من ذهب لسكينة على أن تجيئها لتغنيها سراً وإنك كابرتني عليه وجحدتني وفعلت بي هذا الفعل، فوقع ابن سريج فيما لا حيلة له فيه فقال: امض لا بارك الله فيك، فمضى معه، فلما صار إلى باب سكينة قرع الباب فقيل: من هذا؟ فقال: أشعب قد جاء بابن سريج ففتح الباب لهما ودخل إلى حجرة خارجة عن دار سكينة فجلَسا ساعة، ثم أذن لهما فدخَلا إلى سكينة فقالت: يا عبيد، ما هذا الجفاء؟ قال: قد علمت بأبي أنت ما كان مني قالت: أجل، فتحدثا ساعة وقص عليها ما صنع به أشعب فضحكت وقالت: لقد أذهب ما كان في قلبي عليه وأمرت لأشعب بعشرين ديناراً وكسوة، ثم قال لها ابن سريج: أتأذنين بأبي أنت؟ قالت: وأين، قال: إلى المنزل. قالت: برئت من جدي إن برحت من داري ثلاثاً، وبرئت من جدي إن أنت لم تُغن إن خرجت من داري شهراً، وبرئت من جدي إن أقمت في داري شهراً إن لم أضربك لكل يوم تقيم فيه عشراً، وبرئت من جدي إن حنثت في يميني أو شفعت فيك أحداً. فقال عبيد: واسخنة عيناه، واذهاب ديناه وافضيحتاه، ثم اندفع يغني:

Marfat.com

أستعيـــن الـــذي بكفيـــه نفعـــي ورجـــائـــي علـــى التـــي قتلتنـــي
ولقد كنت قد عرفت وأبصر ت أمـــوراً لـــو أنهـــا نفعتنـــي
قلت إني أهوى شفا ما ألاقي فـي خطـوب تتـابعـت فـدحتنـي

فقالت سكينة: فهل عندك يا عبيد من صبر، ثم أخرجت دملجاً من ذهب كان في عضدها وزنه أربعون مثقالاً فرمت به إليه ثم قالت: أقسمت عليك إلا ما أدخلته في يدك ففعل ذلك ثم قالت لأشعب: اذهب إلى عزة الميلاء فأقرئها مني السلام وأعلمها أن عبيداً عندنا فلتأتنا متفضلة بالزيارة، فأتاها أشعب فأعلمها فأسرعت المجيء فتحدّثوا باقي ليلتهم، ثم أمرت عُبيداً وأشعب فخرجا فناما في حجرة مواليها، فلما أصبحت هيئ لهم غداؤهم وأذنت لابن سريج فدخل فتغدى قريباً منها مع أشعب ومواليها وقعدت هي مع عزة وخاصة جواريها فلما فرغوا من الغداء قالت: يا عزان رأيت أن تغنينا فافعلي فقالت: أي وعيشك فتغنت لحنها في شعر عنترة العبسي:

حييـــت مـــن طلـــل تقـــادم عهـــده أقـــوى وأقفـــر بعـــد أم الهيثـــمِ
إن كنـــت أزمعـــت الفـــراق فـــإنمـــا زمـــت ركـــابكـــم بليـــل مظلـــمِ

فقال ابن سريج: أحسنت والله يا عزة وأخرجت سكينة الدملج الآخر من يدها فرمته لها وقالت: صيري هذا في يدك ففعلت. ثم قالت لعبيد: هات غننا. فقال: حسبك ما سمعت البارحة. فقالت: لا بد أن تغنينا في كل يوم لحناً، فلما رأى ابن سريج أنه لا يقدر على الامتناع مما تسأله غنى:

قالت من أنت على ذكر فقلت لها أنـــا الـــذي ســـاقـــه للحيـــن مقـــدارُ
قدحان منك فلا تبعد بك الدار بيـــن وفـــي البيـــن للمبتـــول إضـــرارُ

ثم قالت لعزة في اليوم الثاني غني فغنت لحنها في شعر الحارث بن خالد:

وقرّت بها عيني وقد كنت قبلها كثيـر البكـاء مشفقـاً مـن صـدودِهـا
وبشـــرة خـــود مثـــل تمثـــال بيعـــة تظل النصارى حوله يوم عيدِها

قال ابن سريج: والله ما سمعت مثل هذا قط حسناً ولا طيباً ثم قالت لابن سريج: هات، فاندفع يغني:

أرقـــت فلـــم أنـــم طـــربـــاً وبـــت مسهـــداً نصبَـــا
لطيـــف أحـــب خلـــق الله إنســـانـــاً وإن غضبَـــا
فلـــم أردد مقـــالتهـــا ولـــم أك عـــاتبـــاً عتبَـــا
ولكـــن صـــرمـــت حبلـــي فـــأمســـى الحبـــل منقضبَـــا

Marfat.com

فقالت سكينة: قد علمت ما أردت بهذا وقد شفعناك ولم نردّك وإنما كانت يميني على ثلاثة أيام فاذهب في حفظ الله وكلاءته، ثم قالت لعزة: إذا شئت أقمت أو انصرفت ودعت لها بحلة، ولابن سريج بمثلها، وانصرفت وأقام عبيد حتى انقضت ليلته وانصرف فمضى من وجهه إلى مكة راجعاً.

واجتمع يوماً نسوة عند سكينة بنت الحسين ـ عليهما السلام ـ وهن بالمدينة فذكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظرفه وحسن مجلسه وحديثه وتشوقن إليه وتمنينه فقالت سكينة: أنا آتي لكنّ به فبعثت إليه رسولاً وهو يومئذٍ بمكة ووعدته أن يأتيها في الصورين في ليلة سمتها له فوافاها على رواحله ومعه الغريض[1] فحدثهن حتى وافى الفجر وحان انصرافهن فقال لهن: إني والله مشتاق إلى زيارة قبر النبي ﷺ والصلاة في مسجده ولكن لا أخلط بزيارتكن شيئاً، ثم انصرف إلى مكة وقال:

ألمم بزينب إن البين قد أفدا ... قل الثواء لئن كان الرحيل غدَا
قد خلفت ليلة الصورين جاهدة ... وما على الحرّ إلا الصبر مجتهدَا
لأختها ولأخرى من مناصفها ... لقد وجدت به فوق الذي وجدَا
لعمرها ما أراني إن نوى برحت ... وهكذا الحب إلا ميتاً كمدَا

قال: وانصرف عمر والغريض معه فلما كان بمكة قال عمر: يا غريض، إني أريد أن أخبرك بشيء يتعجل لك نفعه ويبقى لك ذكره، فهل لك فيه؟ قال: افعل من ذلك ما شئت، وما أنت أهله. قال: إني قد قلت في هذه الليلة التي كنا فيها شعراً فامض به إلى النسوة فأنشدهن ذلك وأخبرهن أني وجهت بك فيه قاصداً.

قال: نعم، فحمل الغريض الشعر ورجع إلى المدينة فقصد سكينة وقال لها: جعلت فداك يا سيدتي ومولاتي إن أبا خطاب ـ أبقاه الله ـ وجّهني إليك قاصداً قالت: أوَليس في خير وسرور تركته. قال: نعم، قالت: وفيمَ وجهك أبو الخطاب ـ حفظه الله ـ؟ قال: جعلت فداك إن ابن أبي ربيعة حملني شعراً وأمرني أن أنشدك إياه. قالت: فهاته فأنشدها الشعر بتمامه قالت: فيا ويحه فما كان عليه أن لا يرجل في عدّة فوجهت إلى النسوة فجمعتهن وأنشدتهن الشعر وقالت للغريض: هل عملت فيه شيئاً. قال: قد غنيته ابن أبي ربيعة قالت: فهاته فغناه الغريض فقالت سكينة: أحسنت والله وأحسن ابن أبي ربيعة لولا أنك سبقت فغنيته عمر قبلنا

---

(١) هو عبد الملك مولى العبلات، من مولّدي البربر، من أشهر المغنين اشتهر بـ «الغريض». أشهر المغنين في صدر الإسلام. سكن مكة وغنى سكينة بنت الحسين. كان يضرب بالعود، وينقر بالدف، ويوقع بالقضيب، كنيته أبو يزيد أو أبو مروان ولقّب «الغريض» لجماله ونضارة وجهه.

Marfat.com

لأحسنا جائزتك يا بنانة أعطه بكل بيت ألف درهم فأخرجت إليه بنانة أربعة آلاف فدفعتها إليه.

وقالت له سكينة: لو زادنا عمر لزدتك، وكانت وفاة السيدة سكينة بمكة في ربيع الأوّل سنة ١٢٦ [هـ]. وقيل: سنة ١١٧ [هـ] بالمدينة وهو الأرجح.

سلمى الملقبة بـ «قرة العين»(١)

كانت فتية بارعة الجمال، متوقدة الجنان، فاضلة عالمة. أبوها أحد المجتهدين في العجم، وكانت متزوّجة بمجتهد آخر طلقت نفسها من زوجها على خلاف حكم شريعة الإسلام وأمت بالسيد علي محمد(٢) تلميذ(٣) الشيخ أحمد زين الدين الأحسائي(٤) الذي مزج التصوف

---

(١) هي من علماء البهائية أتباع «البابية» كانت تأتم بالسيد علي محمد بن المرزا رضى البزّاز الشيرازي مؤسس «البابية» التي هي أصل البهائية.

(٢) هو علي محمد بن المرزا رضى البزّاز الشيرازي. مؤسس «البابية» التي هي أصل «البهائية». إيراني، ولد بشيراز سنة ١٢٣٥ هـ/١٨١٩ م. مات أبوه وهو رضيع فربّاه خاله المرزا سيد علي التاجر. نشأ في «أبي شهر» فتعلّم مبادئ القراءة بالعربية والفارسية، تلقّى شيئاً من علوم الدين. تقشّف، فكان يمكث في الشمس ساعات عديدة. لما بلغ الخامسة والعشرين سنة ١٢٦٠ هـ، جاهر بعقيدة تدعو إلى توحيد الأديان، ومحو التعصُّبات بأنواعها، واتّباع دين جديد ولقّب نفسه بـ «الباب» استناداً إلى حديث: «أنا مدينة علم وعلي بابها». تبعه جماعة كبيرة، وهو بالنسبة لهم «المهدي المنتظر» والمخلّص في هذا الزمن. قام علماء بلاده يفنّدون آراءه وأقواله ويظهرون مخالفتها للإسلام. خشيت حكومة إيران الفتنة فسجنت عدداً كبيراً من أصحابه، ونكّلوا بأتباعه فانتقل هو إلى شيراز، ثم إلى أصبهان فحماه حاكمها: معتمد الدولة منوجهر خان. وبعد وفاة حاكم أصبهان تلقّى خلفه أمراً بالقبض على «الباب»، فاعتقل وسجن في قلعة «ماكو» في أذربيجان. ثم نُقل إلى قلعة «جهريق» على أثر فتنة بسببه، ومنها إلى تبريز، حيث حُكم فيها عليه بالقتل، فأعدم رمياً بالرصاص سنة ١٢٦٦ هـ/١٨٥٠ م، وأُلقي جسده في خندقها، فأخذه بعض مريديه إلى طهران. وفي حيفا بفلسطين قبر ضخم للبهائية يُقال إن جثة «الباب» نُقلت إليه خلسة. له مصنفات عدّة، وفي كتاب مواقف وأحداث أمرية ـ ترجمة سيفي سيفي، منشورات دار النشر البهائية في البرازيل، نيسان، ١٩٩٧ ـ أحداث كثيرة تظهر فيها عمليات القمع والتنكيل التي لحقت بهم من جرّاء اتّباعهم للباب.

(٣) في المصادر والكتب البهائية لم يكن محمد علي تلميذ الشيخ الأحسائي، لأنه هو أصل «البابية» ومؤسسها، لكنه كان قد حضر بعض صفوفه ولا سيما أن الشيخ أحمد زين الدين الأحسائي كان يحضّ للبحث عن «المهدي المنتظر» الذي هو بالنسبة للبهائيين: علي محمد الملقّب بـ «الباب».

(٤) هو أحمد بن زين الدين بن إبراهيم بن صقر بن إبراهيم بن داغر بن راشد الصقري المُطَيْرَفي الأحسائي البحراني. متفلسف إمامي، مؤسس مذهب الكشفية، نسبة إلى الكشف والإلهام، وكان يدّعيهما وتبعه أتباع ربما قيل لهم الشيخية أيضاً نسبة إلى الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي. يقال: إن لهم شطحات وزندقات. ولد في الأحساء سنة ١١٦٦ هـ/١٧٥٣ م. تعلّم في بلاد فارس وتنقّل بينها وبين العراق وسكن البحرين. مات حاجّاً بقرب المدينة، حُمل إليها ودُفن فيها سنة ١٢٤١ هـ/١٨٢٦ م.

Marfat.com

والفلسفة بالشريعة، وتسمى السيد علي ـ المذكور ـ بالبابي[١] وطريقته تسمت به وكانت قرة العين تكاتبه ويكاتبها فكان يخاطبها في مكاتباته بـ «قرة العين» فلقبت بذلك وكانت تناظر العلماء والفضلاء مكشوفة الوجه بدون حجاب[٢].

ثم لما وقعت المحاربة بين البابيين وعساكر الدولة في مازندران[٣] جيشت جيشاً وقادته مكشوفة الوجه وسارت أمامه طالبة إعانتهم، وفي أثناء الطريق قامت في الناس خطيبة وقالت: «أين أحكام الشريعة الأولى ـ أعني المحمدية ـ قد نسخت وإن أحكام الشريعة الثانية لم تصل إلينا فنحن الآن في زمن لا تكليف فيه بشيء».

فوقع الهرج والمرج، وفعل كل من الناس ما كان يشتهيه من القبائح، ثم قبض عليها ولبست البرقع[٤] جبراً، وحكم عليها بأن تحرق حية، ولكن الجلاد خنقها قبل أن تشتعل النار[٥] بالحطب الذي أعدّ لإحراقها.

سلمى امرأة عروة بن الورد

هي امرأة من بني كنانة، وتكنى أم وهب، وكان عروة بن الورد[٦] قد أغار عليهم فأصابها منهم وكانت بكراً فأعتقها واتخذها لنفسه، فمكثت عنده بضعة عشر سنة، وولدت له ولداً وهو لا يشك في أنها أرغب الناس فيه وهي تقول له: لو حججت بي فأمرّ على أهلي وأراهم، فحج بها فأتى إلى مكة ثم أتى إلى المدينة وكان يخالط من أهل يثرب بني النضير وكان قومها يخالطون بني النضير فأتوهم وهو عندهم فقالت لهم سلمى: إنه خارج بي قبل أن يخرج الشهر الحرام فتعالوا إليه وأخبروه أنكم لا تحبون أن تكون امرأةٌ منكم معروفة النسب

---

(١) البابي: استناداً إلى حديث: «أنا مدينة علم وعلي بابها».

(٢) لا تفرض البهائية أو البابية الحجاب على النساء، وعندما ظهرت «قرة العين» سافرة دون حجاب أثارت جدلاً بين الفقهاء وعلماء الدين ولا سيما أنها كانت تناظرهم وهي كذلك. ويقال: إن أحد المقرّبين منها ذبح نفسه عندما نزعت الحجاب وظهرت للرجال مكشوفة الوجه ذلك اعتباراً منه أن ما جرى أمراً فادحاً.

(٣) مازندران: اسم لولاية طبرستان. معجم البلدان، ج٥/ص ٤٨.

(٤) البُرْقُع: ما تستر به المرأة وجهها. [القاموس المحيط، مادة: برق].

(٥) في المصادر والكتب البهائية: أنّها بعدما خنقها الجلاّد، وكان ذلك بناء لطلبها، رُميت في بئر ولم تُحرق.

(٦) هو عروة بن الورد بن زيد العبسي، من غطفان، من شعراء الجاهلية وفرسانها وأجوادها. كان يلقّب بعروة الصعاليك، لجمعه إياهم، وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم. قال عبد الملك بن مروان: من قال إن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد.

Marfat.com

مسبيةً، وافتدوني منه فإنه لا يرى أني أفارقه ولا أختار عليه أحداً. فأتوه فسقوه الشراب، فلما ثمل قالوا له: فادنا بصاحبتنا فإنها وسيطة النسب فينا معروفة وإنه عار علينا أن تكون مسبية فإذا صارت إلينا وأردت معاودتها فاخطبها إلينا فإننا ننكحك.

فقال لهم: ذلك لكم، ولكن لي الشرط فيها أن تخيروها فإن اختارتني انطلقت معي إلى ولدها، وإن اختارتكم انطلقتم بها قالوا: ذلك لك. قال: دعوني ألهو بها الليلة وأفاديها غداً.

فلما كان الغد جاءوه فامتنع من فدائها. فقالوا له: قد فاديتنا بها منذ البارحة وشهد عليه بذلك جماعة ممن حضر فلم يقدر على الامتناع وفاداها.

فلما فادوه بها خيَّروها فاختارت قومها، ثم أقبلت عليه فقالت: يا عروة، أما إني أقول فيك وإن فارقتك الحق والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك وأغض طرفاً وأقل فحشاً، وأجود يداً وأحمى لحقيقة، والله إنك ما علمت لضحوك وقور، كسوب مدبر، خفيف على متن الفراش، ثقيل على ظهر العدوّ، طويل العماد، كثير الرماد، راضي الأهل والأجانب، وما مر عليّ يوم منذ كنت عندك إلا والموت فيه أحب إليّ من الحياة بين قومك لأني لم أكن أشأ أن أسمع امرأة من قومك تقول: قالت أمة عروة كذا وكذا إلا سمعته، ووالله لا أنظر في وجه غطفانية أبداً فأرجع راشداً إلى ولدك وأحسن إليهم. ثم فارقته، فقال عروة في ذلك:

أرقت وصحبتي بمضيق عيق ... لبرق من تهامة مستطيرِ
سقى سلمى وأين ديار سلمى ... إذا كانت مجاورة السديرِ
إذا حلت بأرض بني عليّ ... وأهلي بين زامرة وكيرِ
ذكرت منازلاً من أم وهب ... محل الحي أسفل من نقيرِ
وأحدث معهداً من أم وهب ... معرّسنا بدار بني النضيرِ
وقالوا ما تشاء فقلت ألهو ... إلى الإصباح أثرة ذي أثيرِ
بآنسة الحديث رضاب فيها ... بعيد النوم كالعنب العصيرِ

فتزوجها رجل من بني عمها فقال لها يوماً من الأيام: يا سلمى، اثني عليّ كما أثنيت على عروة وكان قولها فيه اشتهر فقالت له: لا تكلفني ذلك. فإن قلت الحق أغضبتك وإلا واللات والعزى لا أكذب فقال: عزمت عليك لتأتين في مجلس قومي فلتثنين عليّ بما تعلمين.

وخرج فجلس في نديّ القوم وأقبلت فرماها القوم بأبصارهم فوقفت عليهم وقالت: أنعموا صباحاً إن هذا عزم عليّ أن أثني عليه بما أعلم، ثم أقبلت عليه فقالت: والله إن

Marfat.com

شملتك[١] لالتحاف[٢]، وإن شريك لاشتفاف[٣]، وإنك لتنام ليلة تخاف، وتشبع ليلة تضاف، وما ترضي الأهل ولا الجار، ثم انصرفت عنه فلامه قومه وقالوا: ما كان أغناك عن هذا القول منها.

سلّامة القس

هي جارية كانت لسهل بن عبد الرحمٰن بن عوف الزهري فاشتراها يزيد بن عبد الملك بثلاثة آلاف دينار فأعجب بها وغلبت على أمره.

وسبب ما قيل لها: سلّامة[٤] القس أن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن أبي عمارة أحد بني جشم بن معاوية بن بكر كان فقيهاً عابداً مجتهداً في العبادة[٥]، وكان يسمى القس لعبادته، مر يوماً بمنزل مولاها فسمع غناءها فوقف يسمعه فرآه مولاها، فقال له: هل لك أن تنظر وتسمع؟ فأبى، فقال له: أنا أقعدها بمكان لا تراها وتسمع غناءها، فدخل معه فغنته فأعجبه غناؤها، ثم أخرجها مولاها إليه فشغف بها وأحبها وأحبته هي أيضاً، وكان شاباً جميلاً وكثر تردّده على منزل مولاها.

فقالت له يوماً على خلوة أنا والله أحبك قال: وأنا والله أحبك. قالت: أحب أن أقبلك قال وأنا والله كذلك. قالت: أحب أن أضع بطني على بطنك. قال: وأنا والله. قالت: فما يمنعك؟ قال: قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف: ٦٧] وأنا أكره أن تؤل خلتنا إلى عداوة، ثم قام وانصرف عنها وعاد إلى عبادته وله فيها أشعار منها:

ألم ترها لا يبعد الله دارها ... إذا طرّبت في صوتها كيف تصنعُ
تمدّ نظام القول ثم ترده ... إلى صلصل من صوتها يترجعُ

وله فيها:

ألا قل لهذا القلب هل أنت مبصر ... وهل أنت يوماً عن سلامة مقصرُ
ألا ليت أني حيث سارت بها النوى ... جليس لسلمى كلما عج مزهرُ

---

(١) شملتك: التفافك بالثوب وإدارته على جسمك كله. [القاموس المحيط، مادة: شمل].
(٢) التحاف: التحف، اتّخذ لنفسه لحافاً، وهو ما يتغطى به. [القاموس المحيط، مادة: لحف].
(٣) اشتفاف: اشتف، شرب كل ما في الإناء. [القاموس المحيط، مادة: شَفَّ].
(٤) هي سلّامة مغنية شاعرة من مولّدات المدينة، نشأت بها، أخذت الغناء عن معبد وطبقته، فمهرت في الغناء، وحذقت الضرب على الأوتار، وقالت الشعر الكثير. سمع بها يزيد بن عبد الملك فاشتراها - قيل: بعشرين ألف دينار - فانتقلت إلى دمشق، وبقيت عنده إلى أن توفي. ماتت سنة ١٣٠ هـ/٧٤٨ م.
(٥) كان من قرّاء مكة المشهورين، المعروفين.

Marfat.com

إذا أخذت في الصوت كاد جليسها يطيـــر إليهـــا قلبـــه حيـــن ينظـــرُ

فلذلك قيل لها سلامة القس.

وكانت أخذت الغناء عن معبد وتعلمت منه جملة أصوات وكان يريدها ويقدمها على غيرها من مولدات المدينة، ولذلك لما مات عظم موته عندها فجاءت في مشهده، وصارت تفرق الناس حتى قربت من النعش وقد أضرب الناس عنه ينظرون إليها وقد أخذت بعمود السرير وهي تبكي وتقول:

قـــد لعمـــري بـــت ليلـــى كـــأخـــي الـــداء الـــوجيـــعِ
ونجـــي الهـــم منـــي بـــات أدنـــى مـــن ضجيعـــي
كلمـــا أبصـــرت ربعـــاً خـــاليـــاً فـــاضـــت دمـــوعـــي
قـــد خـــلا مـــن سيـــد كـــا ن لنـــا غيـــر مضيـــعِ
لا تلمنـــا إن خشعنـــا أو هممنـــا بخشـــوعِ

وكان يزيد أمر معبداً أن يعلمها هذا الصوت فعلمها إياه فندبته به يومئذٍ وكانت لها مناظرات ومحاورات ومجالس أنس مع حبابة، ويزيد لم يسبق لأمثالهم من الخلفاء والملوك، ولم يصل أحد إلى ما وصلوا إليه.

سميراميس ملكة أشور[1]

كانت أجمل أقرانها وأشجع أهل زمانها. وليت العرش بعد زوجها «فينوس» فكان من همها تحسين مدينة بابل، فشادت بها الهياكل العظيمة، وأنشأت القصور المزخرفة، وغرست الرياض والبساتين، واحتفرت الترع والخلجان، ومدت عليها المعابر والقناطر، وبنت في ساحة المدينة هيكل «بور» إله الأشوريين، وأقامت فيه تمثالاً ذهبياً طوله ٤٠ قدماً، وكان هذا الهيكل أعظم بناء قام به البشر بلغ ارتفاعه ٦٦٠ قدماً أعلى من الهرم المصري الأكبر، قال عنه «هيرودوتوس»[2] المؤرخ: إنه مربع الشكل مساحته ٤٠٠ ذراع في وسطه برج يرتفع نحو ٦٠٠ قدم ويعلوه سبعة أبراج علو كل منها ٧٥ قدماً، وفي البرج الأخير مسجد[3] فيه تمثال من ذهب

(١) سميراميس: ملكة آشورية أسطورية، ينسب إليها تأسيس بابل وحدائقها المعلّقة. تختلط أخبارها بأخبار سامورامات زوجة شمش أداد الخامس، ووالدة أداد نيراري الثالث. حكمت بالوصايا عن ابنها ٨١٠ ـ ٨٠٥ ق.م.

(٢) هيرودتس: مؤرخ ورحّالة يوناني (Herodotos) ولد سنة ٤٨٤ ق.م، زار العالم المعروف آنذاك ولا سيّما العراق وفينيقا ومصر. له «تاريخ» هو من أهم المراجع لمعرفة أخبار الأمم القديمة وأساطيرها.

(٣) مسْجِد: اسم يطلق على كلّ موضع يُسجَدُ فيه، أو كلّ موضع يُتعبَّدُ فيه. [القاموس المحيط، مادة: سجد].

Marfat.com

وبقربه مائدة ومنصة ذهبيتان ثمنهما نحو ٢٢٥ مليوناً، وفي فناء هذا المسجد مذبحان أحدهما ذهبي يوقد عليه في كل عيد ٣٠٠٠ أقة بخور.

وبالجملة فإن هذه الملكة هي التي أحيت لبابل رونقها المذكور، وبهاءها المأثور، وهي التي أولتها تلك العظمة والشهرة بيد أنها لم تكتف بما أكسبها سعيها هذا من الفخر، بل جمحت نفسها إلى الغارة فأثارتها شعواء على مصر، فالحبشة، ففلسطين، فالهند، فانتصرت في جميع غزواتها إلا في الهند فإن أفيالها قد ألقت الرعب في قلوب العسكر ولم تطل حياتها.

ولما بلغها خبر أفيل ملك الهند ارتابت وخافت من انتصار الهنود عليها وإذ لم يكن عندها قوة تضاهيها اجتهدت أن تدفع عنها هذه البلية بطريقة احتيالية فأمرت قوّاد العسكر بذبح ثلاثة آلاف بقرة من ذوات اللون الأسمر، وأن يسلخوها ويفصّلوا جلودها على هيئة الأفيال، ويلبسوها للجمال، فامتثلوا ما أمرت وفعلوا ما ذكرت وعلى هذه الصورة أنزلتها إلى ميدان الحرب لتلقي الرعب في قلوب الأعداء بإظهارها لهم استعداداتها الحربية، وشوكتها القوية.

فلما انتشب القتال بين الفريقين انعطف ملك الهند بأفياله الحقيقية على عساكر الأشوريين، وتقدمت الملكة «سميراميس» بجمالها وفرسانها وجلود ثيرانها، ولما اقترن العسكران والتقى الجيشان انكشفت للهنود تلك الحيلة وتحقق عندهم أنه لا يوجد عند الأعداء أفيال كافياً لهم، وإن ما يُرى إنما هو حيلة وخداع فتشجعوا وهجموا على صفوف الأشوريين هجمة هائلة فالتقتهم الملكة «سميراميس» برجالها وأبطالها فاشتد القتال وعظمت الأهوال، ودخلت أفيال الهنود بين صفوف الأشوريين فكانت تخطف الرجال عن خيولها وتدوسها، فما لبثت الجمال المصطنعة أن ولت الأدبار وطلبت النجاة والفرار، ولم تكن إلا برهة يسيرة حتى انكسر جيش الأشوريين وانتصرت الهنود انتصاراً عظيماً وكسبت غنائم جسيمة.

وكانت الملكة «سميراميس» قد انجرحت جرحاً بليغاً، ولكنها فازت بالهزيمة بسبب خفة فرسها ورجعت إلى بلادها مدحورة صاغرة.

ومن ذلك الحين زهدت في متاع الدنيا ومالت إلى الخمول فقتلها بعد يسير ابنها «تيتاس» وذلك سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد فأنزلها الأشوريون منزلة الإله، وأقاموا لها صوراً منقوشة بهيئة حمامة زعماً منهم أنها نقلت عقب موتها بجسم حمامة وهي في كل حال فخر نساء العصر القديم ونور مشكاته.

Marfat.com

سمية أم عمار بن ياسر

هي سمية بنت خباط[١] كانت أمة لأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي وكان ياسر حليفاً لأبي حذيفة فزوّجه سمية فولدت له عماراً[٢]، فأعتقه أبو حذيفة. وكانت من السابقين إلى الإسلام. قيل: كانت سابع سبعة في الإسلام وكانت ممن يعذب في الله ـ عز وجل ـ أشد العذاب.

قال أحد رجال آل عمار بن ياسر إن سمية أم عمار عذبها هذا الحي من بني المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم على الإسلام وهي تأبى غيره حتى قتلوها وكان رسول الله ﷺ مر بعمار وأمه وأبيه وهم يعذبون بالأبطح في رمضاء مكة فيقول: «**صبراً آل ياسر موعدكم الجنة**»[٣].

وروي أن أبا جهل ضربها في قلبها بحربة في يده فقتلها فهي أوّل شهيد في الإسلام. قال مجاهد: أول من أظهر الإسلام بمكة سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وبلال[٤]، وضباب، وصهيب[٥]، وعمار، وسمية.

فأما رسول الله ﷺ وأبو بكر فمنعهما قومهما وأما الآخرون فألبسوا أدراع الحديد، ثم صهروا في الشمس وجاء أبو جهل إلى سمية فطعنها بحربة فقتلها.

---

(١) للاستزادة يراجع: الإصابة (كتاب النساء، الترجمة ٥٨٢)، الروض الآنف (١: ٢٠٣).

(٢) هو عمّار بن ياسر بن عامر الكناني المذحجي العنسي القحطاني، أبو اليقظان، صحابي ولد سنة ٥٧ ق.هـ/ ٥٦٧ م، من الولاة الشجعان ذوي الرأي. وهو أحد السابقين إلى الإسلام والجهر به. هاجر إلى المدينة، وشهد بدراً، وأُحُداً، والخندق، وبيعة الرضوان. كان النبي ﷺ يلقّبه: «الطيّب المطيَّب». وفي الحديث: «**ما خُيِّر عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما**». وهو أول من بنى مسجداً في الإسلام، بناه في المدينة وسمّاه قباء. ولاّه عمر الكوفة، فأقام زمناً وعزله عنها. شهد الجمل وصفّين مع علي. قتل في صفّين سنة ٣٧ هـ/ ٦٥٧ م، وكان عمره ثلاث وتسعين سنة.

(٣) أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية (٣: ٥٩).

(٤) هو بلال بن رباح الحبشي، أبو عبد الله، مؤذن رسول الله ﷺ، خازنه على بيت ماله. من مولّدي السراة، أحد السابقين للإسلام. وفي الحديث: «**بلال سابق الحبشة**». كان شديد السمرة، نحيفاً، طويلاً، خفيف العارضين، له شعر كثيف. شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، لمّا توفي رسول الله ﷺ أذّن بلال، ولم يؤذّن بعد ذلك. أقام حتى خرجت البعوث إلى الشام، فسار معهم. توفي في دمشق سنة ٢٠ هـ/ ٦٤١ م.

(٥) صُهَيْب بن سنان وهو المعروف بصُهَيْب الرومي، لكنه لم يكن رومياً، بل هو عربي خالص، نُميريّ الأب، تميمي الأم. بِيعَ صهيب ـ بعدما أُسر مع أمه وذراريها وهم من قرية «الثّنيّ» من أرض العراق ـ في أسواق بلاد الروم وعرف بصُهَيْب الرومي.

Marfat.com

سودة بنت زمعة[١]

ابن قيس بن عبد شمس بن عبدودّ بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي القرشية العامرية، وأمها الشموس بنت قيس بن زيد بن عمرو بن لبيد بن خراش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار الأنصارية.

وسودة هي زوجة النبي ﷺ. تزوجها ﷺ بمكة بعد وفاة خديجة قبل عائشة، وكانت قبله تحت ابن عمها السكران بن عمرو أخي سهيل بن عمرو من بني عامر بن لؤي، وكان مسلماً فتوفي عنها فتزوجها رسول الله ﷺ ولم تصب منه ولداً إلى أن مات.

وعن ابن عباس قال: خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت له: لا تطلقني وأمسكني واجعل يومي لعائشة ففعل فنزلت: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]. فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز.

وروي عن سودة بنت زمعة قالت: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أبي شيخ كبير لا يستطيع أن يحج. قال: «**أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته عنه قبل منك**»[٢] قال: نعم، قال: «**فالله أرحم حج عن أبيك**»[٣]. وتوفيت[٤] سودة آخر خلافة عمر.

سودة ابنة عمار بن الأشتر الهمدانية

كانت أديبة عاقلة شاعرة وفدت على معاوية بن أبي سفيان، فاستأذنت عليه، فأذن لها فلما دخلت عليه سلمت فقال لها: كيف أنت يا بنت الأشتر قالت: بخير يا أمير المؤمنين، قال لها: أنت القائلة لأخيك:

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة ... يوم الطعان وملتقى الأقرانِ
وانصر علياً والحسين ورهطه. ... واقصد لهند وابنها بهوانِ
إن الإمام أخ النبي محمد ... علم الهدى ومنارة الإيمانِ
فقد الجيوش وسر أمام لوائه ... قدماً بأبيض صارم وسنانِ

فقالت: يا أمير المؤمنين، مات الرأس وبتر الذنب فدع عنك تذكار ما قد نسي قال:

---

(١) للاستزادة يراجع: طبقات ابن سعد (٨: ٣٥)، السمط الثمين (١٠١)، الجمع بين رجال الصحيحين (٦٠٧)، الإصابة (كتاب النساء، الترجمة ٦٠٣).
(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤: ٥).
(٣) أخرجه أحمد في المسند (٤: ٥).
(٤) قال الواقدي: يُقال: توفيت في آخر زمان عمر بن الخطاب، والأرجح سنة ٥٤ هـ/ ٦٧٤ م.

Marfat.com

هيهات ليس مثل مقام أخيك ينسى قالت: صدقت والله يا أمير المؤمنين ما كان أخي خفيّ المقام ذليل المكان ولكن كما قالت الخنساء:

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نارُ

وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيته قال: قد فعلت. فقولي حاجتك قالت: إنك للناس سيد ولأمورهم مقلد، والله سائلك عما افترض عليك من حقّنا ولا تزال تقدّم علينا من ينهض بعزك ويبسط بسلطانك فيحصدنا حصاد السنبل، ويسومنا الخسف ويسألنا الجليلة هذا ابن أرطاة قدم بلادي وقتل رجالي وأخذ مالي ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة فإما عزلته فشكرناك وإما فعرفناك فقال معاوية: إياي تهدّدين بقومك والله لقد هممت أن أردك إليه على قتب أشرس فينفذ حكمه فيك فسكتت، ثم قالت:

صلى الإلٰه على روح تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفونَا
قد حالف الحق لا يبغي به ثمناً فصار بالحق والإيمان مقرونَا

قال: ومن ذلك قالت: علي بن أبي طالب ـ رحمه الله تعالى ـ قال: ما أرى عليك منه أثر قالت: بلى أتيته يوماً في رجل ولاه صدقاتنا فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين فوجدته قائماً يصلي فانفتل من الصلاة، ثم قال برأفة وتعطف: ألك حاجة؟ فأخبرته خبر الرجل، فبكى ثم رفع يده إلى السماء فقال: اللهم إني لم آمرهم بظلم خلقك ولا ترك حقك، ثم أخرج من جيبه قطعة جلد من جراب فكتب فيه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[الأعراف: ٨٥]، ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، إذا أتاك كتابي فاحتفظ بما في يديك حتى يأتي من يقبضه منك والسلام فعزله، فقال معاوية: اكتبوا لها بالإنصاف لها والعدل عليها فقالت: لي خاصة أم لقومي عامة؟ قال وما أنت وغيرك قالت: هي والله الفحشاء واللؤم إن كان عدلاً شاملاً وإلا يسعني ما يسع قومي قال لها: جرّأكم ابن أبي طالب وغرّكم قوله:

فلو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلي بسلامِ

وقوله:

ناديت همدان والأبواب مغلقة ومثل همدان سني فتحة البابِ
كالهند وإن لم يلفل مضاربه وجه جميل وقلب غير وجاب

اكتبوا لها بحاجتها فكتبوا لها وانصرفت.

Marfat.com

سوسن[١] زوجة بواكيم ملكة بني إسرائيل

من سبط يهوذا وقد ذكرت هذه القصة في التوراة بما في سفر «دانيال»[٢] ـ عليه السلام ـ إنه لما كان في السنة الثالثة من ملك بواكيم قدم «بختنصر»[٣] ملك بابل إلى أورشليم وسلمها الله سبحانه وتعالى.

ثم نزل في بيت المقدس، ولما استقرت آراؤهم على الشريعة الناموسية الموسوية حكم شخصين قاضيين عرفا بالعبادة والزهد في بني إسرائيل، فكانا يحكمان في الشعب ويأويان إلى بيت بواكيم الملك وكانت سوسن في أرفع رتبة من الجمال والحسن وبهجة المنظر والصلاح لأن والديها كانا صدِّيقين في بني إسرائيل.

وكانت في كل يوم تنزل إلى بستانها للنزهة، فرآها القاضيان فوقعت منهما، فاشتغلا بها عن النظر في الحكومات وكتم كل عن الآخر حتى إذا كان منتصف النهار من يوم شديد الحر قال كل منهما لصاحبه: قد اشتد الحر فليذهب كل منا فيستريح وخرجا مضمري العود رجاء الظفر بالجارية.

فلما التقيا فحص كل عن عود الآخر فأظهرا ما عندهما من حبها واتفقا عليها، وإنها دخلت مع جاريتين البستان فعزمت على الحموم وقد أسختفيا، فأرسلت الجاريتين [لتأتياها][٤] بما يلزم لها فظهر القاضيان وأغلقا الأبواب وقالا لها: لئن لم تجيبينا وإلا قلنا: إنا وجدنا معك شاباً.

ومن أجل ذلك أرسلت الجاريتين وأنت تعلمين مكاننا من بني إسرائيل قالت سوسن: والله لا أغضب ربي أبداً وصرخت فصرخ القاضيان ومضى أحدهما، ففتح الباب، وجاء العبيد فأخبراهم بالقصة فبقوا مبهوتين لأنهم لا يعلمون عليها سوءاً.

ثم أتى «بواكيم» فأعلموه بالأمر وأنهما لم يقدرا على مسك الشاب فجمع الشعب وتقدم الشيخان فكشفا عن سوسن وقالا: نشهد على هذه أنها دخلت البستان ومعها جاريتان فأرسلتهما وأغلقت الأبواب، فجاء حدث من وراء شجرة، فضاجعها، فحين رأينا المعصية

---

(١) سوسن: أو سوسان هي امرأة يهودية اشتهرت بطهارتها. اتّهمها الشيخان بالزّنا، فظهر بهتانهما بفضل دانيال النبي وقُتِلا.
(٢) دانيال: من أنبياء بين إسرائيل الكبار. عاش مسبيًّا في بابل. وسفر دانيال من أسفار التوراة.
(٣) يختنصر: أو نبوخذنصّر أو بنوكدنصّر الثاني ملك بابل. خرّب أورشليم وسبى اليهود.
(٤) وردت في الأصل «ليأتياها»، ولعل الصحيح ما أثبتناه.

Marfat.com

صحنا فانفلت الشاب فبكت سوسن ورفعت طَرْفها[١] إلى السماء وقالت: يا أله يا دائم يا عالم الخفيات أنت تعلم إنهما كذبا عليّ.

ثم أقاماها للقتل وكان «دانيال» عليه السلام شاباً عمره ثلاث عشرة سنة فجاء وصاح عليهم أن قفوا فإنها بريئة بما رميت به، ثم أمر بالتفريق بينهما فقال لأحدهما: من أي شجرة جاء الحدث؟ فقال: من تحت شجرة بطم[٢]. فقال: كذبت وهذا ملاك الله شاهد عليك بالكذب، ثم أخره وقدم الآخر وقال له: من تحت أي شجرة جاء الحدث؟ فقال: من تحت شجرة زيت[٣]. فقال: كذبت، وأقامهما فنشرا ونزلت نار فأحرقتهما. تأمل. وحفظ الله الدم الزكي وعظم أمر دانيال عليه السلام.

---

(١) طَرْفها: عينيها. [القاموس المحيط، مادة: طرف].

(٢) البطم: شجر من الفصيلة البطمية، تشبه شجر الفستق أوراقها صغيرة تحتوي على التربانتين، صمغه قوي الرائحة. التداوي بالأعشاب قديماً وحديثاً، أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩١.

(٣) شجر الزيت: وهو الزيتون، شجر مثمر زيتي طويل البقاء في الأرض، من فصيلة الزيتونيات. زراعته المعروفة منذ أبعد العصور مقتصرة على بلدان المتوسط، أو على مناطق ذات مناخ مماثل، في أميركا، أو أستراليا. يرمز ورقه منذ القدم إلى السلام. يقال لدهنه الزيت ولثمره الزيتون. ماذا نأكل؟ خصائص النباتات والأعشاب، محمد أمين الضناوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٧.

Marfat.com

Marfat.com

فهرس الجزء الأول

المقدمة ٣
ترجمة المؤلِّفة ٥
تقريظ جميل لهذا الكتاب ٧
خطبة الكتاب ١١
ذكر مقالات بعض معاصرات المؤلِّفة .. ١٤

حرف الألف

آمنة ابنة وهب أم النبي ﷺ ٢٩
آمنة ابنة عتبة بن الحرث بن شهاب ... ٣٠
آمنة ابنة أبان بن كليب ٣١
آمنة الرملية ٣٢
آن لويز جرمان ابنة الكونت نكر ٣٣
آيت كجُجُك ابنة السلطان أوزبك ٣٦
أتالانتا ابنة شيني ملك سكروس ٣٧
أديسا ابنة أدغر ملك إنكلترا ٣٨
أديلينه ديباتي المغنية ٣٨
أرجي ابنة أدرستوس ٣٩
أرّاكة ملكة قسطيلة ٣٩
أريا الرومانية ٤٠
أرسلان خاتون ٤٠
أرسولا العذراء ٤١
ارسينوي ابنة بطليموس الأول ٤٢
ارسينوي ابنة بطليموس أقلية ٤٣
أرسينوي ابنة بطليموس أقرجيه ٤٣
أريانو ابنة منيوس ملك إكريت ٤٤
أريانو ابنة لاون ملك اليونان ٤٤
أردوجا خاتون زوجة السلطان أوزبك .. ٤٥
أروجا ملكة كيلوكرى ٤٥
آربلاي المؤلفة ٤٧
أرتمسيا ملكة هاليكرناسوس من كاريا ... ٤٧
أرجوان جارية أبي العباس الذخيرة ... ٤٨
أروى ابنة عبد المطلب ٤٨
أروى ابنة الحرث بن عبد المطلب ٥٠
أروى ابنة كريز بن عبد شمس ٥٣
أزرميدخت ابنة أبرويز ٥٣
أسباسيا زوجة بركليس ٥٤
إستير ستنهوب ابنة كارولوس الثالث .. ٥٧
أسماء ابنة أبي بكر الصديق ٦٨
أسماء ابنة سلمة وقيل سلام بن مخرمة .. ٠٧
أسماء ابنة عميس بن معبد بن الحرث .. ٧١
أسماء ابنة النعمان بن شراحيل ٧٢
أسماء ابنة يزيد الأنصارية ٧٣
إستير ابنة أبي حائل بن شمعي بن قيس . ٧٤
إسنكدرة ملكة اليهود ٧٨
أسماء معشوقة جعد بن مهجع العذري . ٧٨
أسماء ابنة حصن ٧٩
أسماء ابنة رويم ٨٠

Marfat.com

أسماء ابنة محمد بن صصرى ٨١
أسماء العامرية ٨١
آسية ابنة مزاحم امرأة فرعون ٨٢
إعتماد زوجة المعتمد بن عباد ٨٣
أغسطينا عذراء سرقسطه ٨٥
أفروسيني القديسة ٨٥
أفروسيني أمبراطورة الشرق ٨٦
أفذوكيسا زوجة الأمبراطور أركاريوس . ٨٦
أفذوكسيا ابنة الفيلسوف ليونكيس ٨٧
أفذوكسيا أنفثاث زوجة فالنتيانوس ... ٨٧
أفذوكسيا زوجة الأمبراطور قسطنطين .. ٨٨
أفذوكسيا لابوشين أمبراطورة روسيا ... ٨٨
أكتافيا شقيقة الأمبراطور أوغسطوس .. ٨٩
أكتافيا ابنة الأمبراطور كلوريوس ٩٠
أليصابات زوجة زكريا ٩٠
أليصابات ابنة هنري الثامن ملكة إنكلترا .. ٩١
أليصابات ملكة أسبانيا ٩٨
أليصابات بتروفنا أمبراطورة روسيا ... ٩٩
أليصابات ملكة بوهيميا ١٠١
أليصابات دوڤالوا أو إيزابلا دو ڤالوا .. ١٠٢
أليونور أرغويانه ١٠٢
أليونور أروغوزمان ١٠٣
أليونور زوجة دون جوان دواكنبها .....
أمستريس زوجة دارا ملك فارس ١٠٤
أمستريس ابنة أخي داريوس ١٠٥
أليصابات كارمن سيلفا ملكة رومانيا . ١٠٥
أم السعد ابنة عصام الحميري ١٠٦
أم العلاء بنت يوسف الحجارية ١٠٧
أم الكرام ١٠٨
أم الهناء ابنة القاضي أبي محمد ١٠٨
أم بسطام بن قيس النصراني ١٠٩
أم حكيم ابنة عبد المطلب الهاشمية .. ١١٠
أم حكيم ابنة قارظ ١١٠
أم خالد النميرية ١١٣
أم الخير ابنة الحريش بن سراقة ١١٣
أم سلمة زوجة السفاح ١١٦
أم سنان ابنة جشمة ١١٨
أم عقبة زوجة غسان بن جهضم ١٢٠
أم عمران ابنة وقدان ١٢١
أم قيس الضبية ١٢١
أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب ١٢٢
أم كلثوم ابنة عقبة بن أبي معيط ١٢٤
أم كلثوم ابنة عبدود ١٢٥
أم موسى الهاشمية ١٢٦
أم ندبة زوجة بدر بن حذيفة ١٢٧
أمالتونسا ابنة ثويدريك ١٢٨
أمامة ابنة أبي العاص الهاشمية ١٢٩
أمامة ابنة حمزة بن عبد المطلب ١٣٠
أمامة المريدية ١٣٠
أمامة ابنة ذي الإصبع ١٣١
أمة العزيز ابنة دحية الأندلسية ١٣٢
أمة ابنة خالد بن سعيد ١٣٢
أميمة ابنة رقيقة ١٣٣
أميمة ابنة قيس بن أبي الصلت ١٣٤
أم جعفر ابنة عبد الله بن عرفطة ١٣٤
أميمة أم تأبط شرا ١٣٥
أميمة ابنة خلف بن أسعد ١٣٦
أميمة ابنة عبد شمس الهاشمي ١٣٧

Marfat.com

أميمة ابنة عبد المطلب الهاشمية ١٣٨
أم هارون ـ رضي الله تعالى عنها ١٣٨
أمة الجليل ـ رضي الله تعالى عنها ... ١٣٩
إنياس خليلة شارل السابع ملك فرنسا . ١٣٩
أولغا امرأة أيفور دو ريكوفيتش ١٤٠
أولمبياس ابنة نيوبتوليمس ١٤١
أوجين ملكة الفرنسيس ١٤٢
أريني أمبراطورة بيزنطية ١٤٤
إيزابلا الأولى الملقبة بالكاثوليكية ... ١٤٥
إيزابلا الثانية ملكة أسبانيا ١٤٨
إيزابلا فليب لوبل الملقبة بالفرنساوية . ١٥٠
إيزابيلا البافارية ملكة فرنسا ١٥٢
ألمس المغنية ١٥٢

حرف الباء الموحدة

باقو الملقبة بالطاهرة ١٥٦
بثينة حبيبة جميل بن معمر العذري ... ١٥٦
بثينة ابنة المعتمد بن عباد ١٧٢
بدور وقيل قدور الساحرة ١٧٣
بديعة ابنة السيد سيراج الدين الرفاعي . ١٧٤
بذل المغنية ١٧٤
برقا جارية علاء الدين البصري ١٧٦
بربارة القديسة ١٧٦
برنيقة ابنة لاغوس وأنتيفونه ١٧٧
برنيقة ابنة بطليموس الثاني ١٧٧
برنيقة ابنة ماغاس ملك القيروان ١٧٨
برنيقة ابنة بطليموس الثامن ١٧٨
برنيقة ابنة بطليموس الحادي عشر ... ١٧٩
برنيقة ابنة كوستوبارس وسالومي ... ١٧٩
برنيقة ابنة أغريبال الأول ١٧٩
بريجيتا القديسة ١٨٠
بريرة مولاة عائشة ١٨١
بركة خوند والدة السلطان الأشرف .. ١٨٢
برة ابنة عبد المطلب الهاشمية ١٨٣
بصيص جارية ابن نفيس ١٨٣
بلقيس ملكة سبأ ١٨٤
بكارة الهلالية ١٨٩
بلنش ملكة فرنسا ١٩٠
بمبادور خليلة لويس الخامس عشر .. ١٩١
بنلوبا زوجة عولس اليوناني ١٩٢
بهية ابنة عبد الله البكري ١٩٢
بوديسيا ملكة الأيسينه ١٩٣
بوران ابنة أبرويز بن هرمز ١٩٣
بوران ابنة الحسن بن سهل ١٩٤
بيلمون زوجة السلطان أوزبك ١٩٥

حرف التاء

تحفة الزاهدة ١٩٦
تذكار باي خاتون ١٩٩
تركان خاتون الجلالية ابنة طغفاج ... ٢٠٠
تقية ابنة أبي الفرج ٢٠٤
تماضر الشهيرة بالخنساء ٢٠٥
تماضر زوجة زهير ٢١٢
تنوسة جارية علية بنت المهدي ٢١٣

حرف الثاء المثلثة

ثبيتة ابنة الضحاك بن خليفة الأنصارية . ٢١٧
ثبيتة ابنة مرداس بن قحفان العنبري .. ٢١٧
ثبيتة ابنة يعار بن زيد الأنصارية ٢١٨
الثريا ابنة عبد الله بن الحرث ٢١٨
ثودورا زوجة الملك بوستينان ٢٢٣

Marfat.com

حرف الجيم

جان دارك ٢٢٥
جليلة بنت مروة الشيباني ٢٢٩
جميلة الخرزجية ٢٣١
جميلة بنت ثابت بن أبي الأفلح ٢٣٢
جنان جارية عبد الوهاب الثقفي ٢٣٢
جنفياف ابنة دوق براينت ٢٣٧
جنفياف القديسة ٢٣٨
جنوب أخت عمرو ذي الكلب النهدي . ٢٣٩
جهان والدة السلطان شمس الدين ... ٢٣٩
جوج سنددوفان ٢٤١
جوزفين ابنة الكونت تشاوي ٢٤٢

حرف الحاء

الحارثية ابنة زيد ٢٨٢
حبابة جارية يزيد بن عبد الملك ٢٨٢
حبيبة هانم بنت علي باشا الهرسكي .. ٢٨٥
حبوس ابنة الأمير بشير الشهابي ٢٨٥
حبيبة بنت مالك بن بدر ٢٨٦
حبيبة بنت عبد العزى العوراء ٢٨٧
حدقة جارية الملك الناصر بن قلاوون . ٢٨٧
حسانة النميرية ابنة أبي الحسين ٢٨٨
حفصة ابنة حمدون ٢٩٠
حفصة ابنة الحجاج الركونية ٢٩٠
حليمة الحضرية ٢٩٥
حمدونية بنت عيسى بن موسى ٢٩٥
حمدة بنت زياد ٢٩٧
حميدة ابنة النعمان بن بشير ٢٩٨
حنة ألبرت ٣٠٢
حنة أليصابات زوجة ألنبرو ٣٠٣
حنة أسكو خاتون ٣٠٤
حنة ملكة بريطانيا وإرلانده ٣٠٤
حنة النمساوية ملكة فرنسا ٣٠٦
حنة بولين ملكة إنكلترا ٣٠٧
حنة البريطانية ملكة فرنسا ٣٠٨
حنة ملكة نابولي ٣٠٩
حنة ملكة نابلي ابنة شارل دورتسو ... ٣٠٩
حنة مورندى منزوليني ٣١٠

حرف الخاء

خديجة ابنة خويلد ٣١٣
خديجة ملكة جزائر زيبة ٣١٦
خرقاء بنت النعمان بن المنذر ٣١٧
خزانة ابنة خالد بن جعفر بن قرط ... ٣١٨
خماني ابنة أردشير بن بهمن ٣١٩
خولة بنت الأزور الكندي ٣٢٠
خولة ابنة منظور بن زبان ٣٢٤
الخيزران ابنة عطاء أم الهادي والرشيد .. ٣٢٦

حرف الدال

دارمية الحجونية ٣٢٩
دختنوس ابنة لقيط بن زرارة الدارمي . ٣٣٠
دلوكة بنت زباء ملكة من ملوك القبط . ٣٣٢
دليلة الفلسطينية ٣٣٣
دنانير جارية يحيى بن خالد البرمكي . ٣٣٤
دهيا ابنة ثابت بن تيفان ٣٣٥
ديدون ابنة الملك بقلوس ٣٣٧

حرف الذال

ذات الخال ٣٣٩
ذبية بنت ثبية الفهمية ٣٤١
ذؤابة امرأة رباح القيسي ٣٤٢

Marfat.com

حرف الراء

رحاب الإسرائيلية ٣٤٣
راحيل ابنة بان ٣٤٣
رادغنده ابنة برنير ملك تورنجه ٣٤٥
راد كليف مؤلفة إنكليزية ٣٤٦
راعوث امرأة موابيه ٣٤٦
راحيل الممثلة الشهيرة ٣٤٧
رابعة الشامية ٣٥٠
رابعة ابنة الشيخ أبي بكر النجاري ... ٣٥١
رابعة ابنة إسماعيل البصرية العدوية .. ٣٥١
رابعة بنت إسماعيل ٣٥٤
الرباب بنت امرئ القيس ٣٥٤
رصفة بنت آيه ٣٥٥
رضية ملكة دهلي في بلاد الهند ٣٥٥
رفقة ابنة بتوئيل ٣٥٦
رقية ابنة علي بن أبي طالب ٣٥٨
رقية بنت الفيف عبد السلام ٣٥٨
رقاش ابنة مالك بن فهم بن غنم بن أوس الأسدي ٣٥٩
رقية ابنة رسول الله ﷺ ٣٦٠
رملة بنت الزبير بن العوام ٣٦١
رميصاء بنت ملحان بن خالد ٣٦٢
رولاند الفرنساوية ٣٦٣
رحمة زوجة نبي الله أيوب ٣٦٧
روشنك ابنة الدهقاء أوزبرت ٣٦٨
ريا بنت الفطريق السلمي ٣٦٩
ريا ابنة مسعود بن رقاش العشيري ... ٣٧٠
ريطة بنت عاصم بن عامر بن صعصعة .. ٣٧١
ريطة بنت العجلان بن عامر ٣٧٢

حرف الزاي

زبيدة بنت جعفر بن المنصور العباسي . ٣٧٣
زبيدة القسطنطينية .....
زباء نائلة بنت عمرو بن الظرب ٣٧٨
الزرقاء جارية ابن رامين ٣٧٨
الزرقاء ابنة عدي بن قيس الهمدانية .. ٣٨١
زرقاء اليمامة ابنة مرة الطسمي ٣٨٢
زليخا امرأة قطفير عزيز مصر ٣٨٣
زوي أمبراطورة المملكة الشرقية ٣٩٠
زينب ملكة تدمر ٣٩١
زينب ابنة عبد الله بن عبد الحليم ٣٩٢
زينب ابنة محمد بن عثمان الدمشقية . ٣٩٢
زينب ابنة عثمان بن محمد لؤلؤ ٣٩٢
زينب المرية ٣٩٣
زينب ابنة حدير ٣٩٣
زينب ابنة جحش ٣٩٥
زينب ابنة الحرث ٣٩٦
زينب ابنة الإمام أحمد الرفاعي ٣٩٦
زينب ابنة رسول الله ﷺ ٣٩٨
زينب ابنة جزيمة ٤٠٠
زينب ابنة العوام أخت الزبير ٤٠٠
السيدة زينب بنت الإمام علي ٤٠١
زينب ابنة الطثرية ٤٠٥
زينب ابنة أبي القاسم أم المؤيد ٤٠٦
الأميرة زينب هانم أفندي ٤٠٧

حرف السين

سارة زوجة إبراهيم الخلي ٤١٠
سارة القرظية الإسرائيلية ٤١١
سبيعة ابنة عبد شمس بن عبد مناف .. ٤١١

Marfat.com

ست الوزراء ٤١٢
ست الكرام ٤١٢
ست الملك بنت العزيز بالله الفاطمي .. ٤١٣
سجاح بنت الحارث بن سويد ٤١٥
سرّى خانم ٤١٨
سعدى معشوقة مالك بن عقيل ٤١٨
سعدى الأسدية ٤٢٠
سفانة ابنة حاتم الطائي ٤٢١
سكينة ابنة الحسين بن علي ٤٢٢
سلمى الملقبة بقرة العين ٤٢٩
سلمة امرأة عروة بن الورد ٤٣٠
سلامة القس ٤٣٢
سميراميس ملكة أشور ٤٣٣
سمية أم عمار بن ياسر ٤٣٥
سودة بنت زمعة ٤٣٦
سودة ابنة عمار بن الأشتر الهمدانية .. ٤٣٦
سوسن زوجة يواكيم ملكة إسرائيل .. ٤٣٨
الفهرس **٤٣٩**

Marfat.com